



جامعة أم القرى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

قبيلة خولان

أخبارها وأشعارها في الجاهلية والإسلام

جمع وتحقيق ودراسة نقدية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب القديم

(قسم الدراسة)

إعداد الطالب

هفل فاضل اليونس

إشراف الأستاذ الدكتور

أحمد علي دهمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الباري لهذا اللسان المبين، الكالِي لمقاله القويم، ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١] بل أنزله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْقُورُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]. والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على أبلغ العرب بياناً، وأفصحهم لساناً أبي القاسم محمد بن عبد الله القرشي، وعلى آله وصحبه أهل البلغة والبيان الميامين.

وبعدُ:

لجمع ما انفرط من عِقْدِ لغتنا البهيّة وتراثنا الضخم، انبرى علماؤنا القدامى الغيارى على هذه اللغة وذلك التراث، وكانت أشعار القبائل وشعراؤها مما اهتموا به وتناولوه بالعناية والرعاية في مخطوطات نفيسة، ورأوا أن تكون في أسفار خاصّة، لكلّ عشير سفره، ولكلّ شاعر كراسه، فنحوا تلك السبيل، حتّى عدّ لأبي عمرو الشيباني - وحده - جمع نيّف وثمانين قبيلة، غير أن صوارف الدهر، وغوائل الأيام أبت إلا أن تتقرّط تلك النفائس عقداً ثميناً تزدان به، وتتسوّر حتّى صار شية مازت تراثنا الشعريّ الكبير، فلم ينبج منها سوى ديوان هذيل التي لم تكن في العرب سوى بيت من بيوتاتها، هذا الديوان الذي سعى إلى تطلّابه من أفواه الرّواة ثلّة من العلماء، كان ثكأةً توكأ عليها - فيما بعد - نفر من الباحثين، أنفقوا دهرًا من حياتهم للملمة قوافي بعض القبائل، كلّ قبيلة في مجموع مستقلّ، فحذوا حذو أسلافهم مع درايتهم أن جمع ما تفرّق من أشعار شاعرٍ واحدٍ من شعراء الجاهليّة وصدر الإسلام والعصر الأمويّ سبيلٌ وعرة، وتنافها جدُّ صعب، قد يعكف الباحث أشهراً في تنوفة واحدة؛ ليأتي على كلّ ما يمكن أن يقال فيها من نُخالة القول ومُصَفّاه، وأنّ الضّرب في متون الكتب، والتّفقير في بطونها يشقّ على ذي العزيمة والصّبر، «ومن دون ذلك خرط القتاد».

ولما كانت محبتي الأدب العربي القديم مالكة على نفسي أمرها، وغالبة عليها أيما غلبة، ارتضيت الرحلة في مفاوز خولان وحواضرها، أتقل في أمواها، وأتبع أيامها وأخبارها، وأستنشد أشعارها، وأتعرف عقيدتها ذلك يوم كانت في غابر أزمانها قبيلة كبيرة بسطت ريطتها على أصقاع ليست بهينة من أجزاء اليمن، وخصوصاً في مرحلة ما قبل الإسلام التي يضعدها وفق ما تُفصح عنه النقوش إلى الألف الأولى قبل الميلاد، حينما صاقت حمير، وطابت مذبح، وناصبت همدان. حتى مجيء الإسلام واعتناق اليمانية له، ثم مشاركتهم في حركة الفتح الإسلامي، ووصولهم معها إلى أرض الخضراء.

ورأيت أن جمع ما تفرق من شتات أشعارها ودراستها يسهم في إمطة اللثام عن صباحة وجه درة من درر تراثنا العربي، ولا سيما من قطن في العربية السعيدة التي نحلّت أخبارها، وهزلت جسم أشعارها، حتى كادت تكون معدومة في أيدي الناس لولا أن قيّد الله لها أحمد بن محمد الهمداني (٣٣٤ هـ) الذي أنهبها شطراً من حياته، فدوّن أخبارها، ولملم قوافي شعرائها وقبائلها في مصنفات غنية في مادتها، فريدة في بابها، عظيمة في تحضرها لكل صغيرة وكبيرة، هي ليست في غيرها.

وقبل السعي إلى غدران خولان ورياضها؛ لنضرب رؤوس أوتادنا بجوارها، ونشفي صدانا منها لا بدّ من القول: إنّه لم يكن لخولان طالع أخواتها القبائل العربية لا سيما اليمنية منها من الاشتهار وذيوعة الصيت والنباهة، بل أصابها في مصنفات العلماء - عدا الهمداني - اختصار لبّذن أنسابها وإغفال لكثير من أخبارها وفلول لأشعارها بالضّيع والاندثار، ذلك ما جعلها هزيلة نحيفة، يضاف إلى مصابها هذا حيف وأذى شوها وجهها وغمزا في حُسْنِها، فساءت مُنْجَأتها، وعزف كثير من خاطبي ودّ أغراضها عنها؛ لتنكبها ملاءة رثة ليست لها؛ لأنّها في أصل محبّتها من الحسن، البدر في تمامه، يتكشف ذلك جلياً حينما يُسرح الباحث عينه في أشعارها، مبتهجاً بتكرار قوافيها وترديدتها، فمن حسن السبك، وقوة الإحكام، وفخامة اللفظ، وتشقيق المعاني، ومناسبتها لبوسها هي بمكان؛ فهذا عمرو العوفي الذي أنزله أحد الباحثين منازل الشعراء الفرسان في الجاهلية؛ لما لشعره من شيات تجعله في موضعه، وسواه من شعراء خولان ممن ازدانت أشعارهم بالأقراط

والحليّ نفسها. ولأجل هذا وذاك ولدت الرغبة لديّ في تتبّع ما أبقت لنا حدثان الدّهر، وصوارفهُ من قوافي خولان أنفِ قضاة، التي خفيت على النّاس لاختفاء كثيرٍ من مصنّفات الهمدانيّ وغيرها من الكتب المخطوطة، إمّا القابعة في رفوف المكتبات الغربيّة تعاني من آلام حبسها ونسيانها من قبل أهلها وذويها، وإمّا التي امتدّت إليها يدُ الضياع فانطمست معالمها، وتحولّت نضارة مُقدّمها إلى قباحة لا يُسرُّ برؤيتها، وغاب وسمها، واندثرت صفحات كثيرة منها.

ولما استدّت عزيّمتي، دبّبتُ إلى جمع شتاتِ أشعار هذه القبيلة القضاعية ديبَ غيري ودلّفهُ، يقلّبني خفضُ له وصعودُ، تتقاذفني قفافُ البحث وحزونه، حتّى تصرّم على عملي حولٌ ونصفهُ، أُخبرتُ أنّ عملاً يشابه عملي في واحدٍ من جوانبه قد سكن في رفوف قسم الآثار من جامعة صنعاء منذ أعوام ستّة، فضاقت عليّ الأرض بما رحبت ؛ لما للأمر من خطرٍ «إذ لا تبرك عليه الإبل»، فأخبرتُ أستاذي المشرف وهو «جُذَيْلُهَا الْمُحَكِّكُ وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ» وبرأيه يشفني، فأشار بالسّعيّ إليه، والترّفق في طلبه حتّى لا يحال بيني وبينه، وطال الأبدُ على لُبْدٍ، ألقب ناظريّ في أديم السّماء، مغتماً ومهتماً حتّى أعياني الأمرُ وشقّ عليّ، ووقتئذٍ ما شقّ لأستاذي غبارٌ ؛ إذ استلّ لي العملَ من جامعة صنعاء؛ فإذا هو دراسة نحيلةٌ دون ما تُصوّر لها وسَمَها صاحبُها بـ «خولان الأرض والقبيلة في المصادر التّاريخيّة، دراسة تحليليّة»، وجعلها في مقدّمة وثلاثة فصولٍ: وهب الأوّل منها لأماكن القبيلة وبواديها معتمداً في تطلّابها على كتب البلدان المشهورة، وخصوصاً صفة جزيرة العرب للهمدانيّ. وأوقف الثّاني منها على نسب خولان، وإلحاقها بغير أرومة نسبٍ من دون أن يبحث علل ذلك إلحاق وأسبابه. وأمّا الثّالث فخصّه للحديث عن خولان في المادّة النقشيّة القديمة بعصرها السّبئيّ الأوّل، والسّبئيّ الحميريّ الثّاني، ثمّ ذيلَ دراسته التي لم تتجاوز تسعين صفحةً بهوامشها ومصادرها، كلّ ذلك اتّشح بأسلوب ركيك، ولغة ضعيفة مهلهلة، لم ترق إلى مستوى العمل الأكاديميّ، يضاف إلى ذلك خلوّ الدّراسة من التّحليل الذي ادّعاه صاحبها في العنوان، والدّقّة في تناول الأخبار وعراض بعضها على بعضٍ، وخلوّها من الصّبغة الأدبيّة إذ لا يكاد يصادف القارئ بيتاً من الشّعْر فيها. وإذا كانت هذه الدّراسة تشابه في عنوانها طرفاً يسيراً من صنعتي، فإنّ في ضبط

أسماء المواضع واستقصائها من مظانها في المعجم الذي ذُيِّلَتْ به الدراسة ما يفرِّق بين العاملين ويفصل بينهما، وهذه الدراسة على ما فيها من هناتٍ قادحةٍ وهفواتٍ قد لا تغتفر لم تعدم الفائدة؛ لاضطلاع صاحبها بمصادرٍ مخطوطةٍ لم أتمكَّن من الوصول إليها.

أمَّا بحثي فكسرتُه على قسمين وفقاً لمادته العلمية هما: الدراسة والديوان، فأما الدراسة فجعلتها في أربعة فصولٍ، جعلت الأول منها خالصاً لوجه القبيلة، بحثت فيه أصلَ تسميتها، وبسطت القول في نسبها، وعلَّلت إلحاقها بغير نسب من العرب متوكِّفاً في ذلك على أدلَّة دامغة، ثمَّ بحثت نواقلها التي كانت بتأثير علاقاتٍ مصاهرةٍ وغيرها، وأصخْتُ السَّمْعَ إلى تلبياتها التي كانت جزءاً من ابتهالات قضاة، وأفضت القول في أيامها وعلاقاتها ما أمكن إلى ذلك سبيل.

وأما الفصل الثاني فكان لدراسة أشعار القبيلة، ولم يكن نصيبه من صحائف الدراسة كنصيب أقرانه؛ لقلَّة المصادر التي حفظت لنا أشعارَ خولان، ولانعدام الاضطرابِ في نسبة الشعر؛ لعدم ترَّحال تلك الأشعار وسيرورتها في مصنَّفات التراث العربيِّ كلِّها، ثمَّ قلَّة مواضع النحل لاحتجاب أشعار خولان عن أفواه الرُّواة وأقلام العلماء، فظلَّت صافيةً، لا تشوبها شائبةٌ، بعيدةٌ عن سُعاة المآثر والمناقب، بل جلُّها كان الإكليلُ أمَّا رؤوماً لها حفظت شتات أشعارها، وجعلتها مصونة من الضياع.

وأما الفصل الثالثُ فوهبته لموضوعاتٍ ما اجتمع لدينا من أشعار خولان، فتبيَّن فيه فزَعُ معظم شعرائهم إلى التقيُّؤ بظلِّ الحماسة والفخر، والتَّقْصير عن بقيَّة الأغراض المعروفة من وصف ورثاء وهجاء وحكمةٍ ومدحٍ، والعزوف عن الغزل الذي غاب بكلّيته؛ لأنَّ ما أثر عن خولان من كرٍّ وفرٍّ وميلٍ أهلها إلى حياة الحرب، من العُذرِ ما يبرِّر ذلك الفزَع والتَّقْصير، وحال كثير من العرب النَّأي عن الغزل الذي فطر عليه العربيُّ القابض على سيفه، المتنكِّب لقوسه، الحامل لرحمه، اللَّائِذ بصهوة جواده، وكلّ ذلك ممَّا لا يتفق مع رقة القلب، ولين العريكة، ونعومة الطبع.

وختمت بالفصل الرابع الذي جعلته للخصائص الفنية، المعنوية منها واللفظية. أمّا المعنوية منها فرصدت فيها وضوح المعاني، وسهولة تناولها، وغموض بعضها، متلمساً لذلك الغموض بعض العلل التي تزول بمشورة معجمات اللغة، وتناولت الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية، ثمّ المحسنات المعنوية التي وجدت لها أثارة في أشعار القوم مثل الطباق والمقابلة، كما تناولت مصادر معانيهم المختلفة والمعاني التي استلّت منها، فجعلوها في أشعارهم عبراً وأمثالاً تحكى في مقالات العرب. علاوة عمّا استجدّ من معانٍ استلهمها شعراء الإسلام والعصر الأمويّ من القرآن الكريم.

وأمّا اللفظية فرصدت فيها ثلاثة جوانب: الأوّل ما تعلّق بمنهج بناء القصيدة التي غلبت عليها المقطّعات والتثنية والأبيات النّادرة، فنظّر فيها جميعاً، وبأنّ ممّا ذكرته في موضعه غياب المقدمة في قصائدهم التي لم تبلغ فيما وصل إلينا ما قاله شويعر من الدّهماء.

وثانيها: موسيقى الشعر - داخلية كانت أو خارجية - وما يمكن أن يقال فيها من ظواهر لها أو ثقل الصّلة بالوزن والقافية وعيوبها.

وثالثها: الظواهر اللغوية والنحوية والعروضية. ثمّ ختمت هذه الدّراسة بخاتمة، أبرزت فيها ما توصّل إليه البحث فيما تقدّم ذكره من نتائج وأحكام، وألحقت بالدّراسة معجم بلدان خولان، و شجرة نسب القبيلة تضمّ أهمّ بطونها وأعلامها وأنساب شعرائها، كما لحق بهذه الشّجرة خريطة تبين مواقع أهمّ تلك الأمكنة.

وأمّا القسم الثاني: فهو ديوان القبيلة، وهنا لابدّ من كلمة لصانعه قد تكون شفيعاً له بين يدي أهل العلم والفضل وهي: إنّ يتمّ مصادر الشعر وذهاب الإكليل بمعظمه، حمّل الباحث عبء عراض كلّ لفظة استغلق معناها على كتب المعجمات لمشورتها في مرامها، هو أيضاً ما أفقر الشعر من تعاليق القدماء ومذاهبهم فيه التي لو كانت لأثرت المقال وزادت في حسنه، ورفعت من شأوه على شاكلة كثير من أشعار القبائل المعروفة لدى الخاصة والعامة، التي تناهبتها مصنّفات الشّروح والتفسير والأدب، فتسوّرت بكلام أصحابها وتفسيراتهم، علاوة على ضبطها وتوجيه طلبتها

وامتطائها سبلاً سليمةً. وجهدتُ في هذا الديوان إلى تحقيق الأشعار تحقيقاً علمياً قدر الوُسْعِ والمَجْهُودِ، فأرجعتُ أسماء الأعلام إلى مظانِّها مترجماً لها بإسهابٍ وترتيبٍ دقيقين؛ لعدم وجودها في المصنّفات العامّة، ولصعوبة تحصيلها من كتب الهمدانيّ ذاته؛ إذ كان الاسم الواحد يتناثر على صفحاتٍ كثيرة، يُضاف إليها أسماء المواضع التي شَفَعْتُ ذكرها بها جاء في مظانِّها، ورأيتُ إلى كتابة هذه وتلك بخطٍ عريض .

وقد تضمّن الديوان أشعارَ قبيلة خولان من الجاهلية حتى نهاية عصر بني أميّة وبعض الذين تراخت منايهم إلى دولة بني العباس فأدركوا ذؤابة زمانهم، والذين لم تسعفِ المصادر في تحديد عصورهم خوف أن يكون بعضهم ممّن عاش في حقبة ما بين الجاهليّة وعصر بني أميّة.

وقسمتُ الديوان أربعة أقسامٍ: الأوّل منها ضمّ أشعار الجاهليّين وذُيِّلَ بأشعار المجهولين منهم. وضمّ الثاني أشعارَ المخضرمين وشعراء صدر الإسلام، وفي آخره أشعارُ المجهولين منهم. واحتضن الثالثُ أشعارَ الأمويّين منهم، وختمَ بأشعارِ المجهولين منهم، أمّا الرابع: فكان لأشعار مجهولي العصور، وبآخره أشعارُ مجهولي الأسماء والعصور.

وقدّمتُ لكلّ شاعرٍ بترجمةٍ تكشفُ الغطاءَ عن نسبه، وشُفِعَتْ بما وُقِفَ عليه من أخباره وتحديدِ زمنه بالأدلة والقرائن المتاحة، مع إبرازِ موضوعات الشعر التي طرق بابها وفتق رتوقها. وجعلتُ كلّ واحدٍ من شعراء هذا الديوان في مكانه بحسب وفرة شعره المكثّر فالمقلّ، ورَتَّبْتُ شعر كلّ شاعر بحسب الرّويّ هجائياً، وقدّمتُ الرّويّ المكسورَ، فالمضمومَ، فالمفتوحَ، فالمقيّدَ، وجعلت القصائد ضمن الرّويّ الواحدِ والحركة الواحدة على دوائر العروض، ورَتَّبْتُ أشعار المجهولين في كلّ قسمٍ، وأتَّبَعْتُ ذلك بفهارس تأخذُ بيدَ القارئ، وتعيّنه على الوصولِ إلى مراده، بيسر وسهولة.

وإذا كان من كمال الفضل شكرُ ذويه، فإنّي أتقدّم بأصدق الشُّكرِ وعظيم العرفانِ لأستاذي الجليل الدكتور أحمد دهمان، الَّذي تحمّل أعباء الرحلة مع صاحبها في مفاوز خولان وأمواهاها، يؤثّرهُ ويقدّم له على سعة علمه ورحب صدره ما يقيل عثرته، ويذلّل صَعْبَهُ، ويسهّل دربه، حتّى أسره بإحسانه،

وطوّقه بفضلّه، ولست بالغاً شأوَ فضلّه وإن تَخَيَّرْتُ له كريم اللَّفْظ وشريف المعنى؛ فإنّه قد ينأى البيان ويعجز اللّسان إذا جَلَّ الصَّنِيع وعظم. كما أنّ الشُّكْر موصولٌ للدُّكتور محمّد شفيق البيطار، الَّذي أَنهَبني من وقته ما ضنَّ به غيره، وأرشدني إلى مواطنٍ في البحث لا عهد لي بها، فكان انتفاعي من علمه واضحاً، لا سيّما في حذوي حذوّه في صنعه ديوان بني كلبٍ بن وبرّة. كما أشكر الأخ الدُّكتور مقبل عامر التّام الأحمدي؛ الَّذي أوقفني على مصادر عالية - ليست عند غيره - منها مخطوط الجزء الأوّل من الإكليل. كما أشكر أساتذتي أعضاء لجنة المناقشة والحكم، على ما بذلوه من جهدٍ في قراءة هذا البحث، وسدّ ما فيه من ثغراتٍ، وإغنائه بآرائهم السّديدة ومقالاتهم العالية، التي ستكون لي هادياً إلى سُبُل الرّشاد، راجياً العليّ القدير لهم المثوبة والأجر. والله أسأل أن أكون قد وُفِّقت إلى ما سعيْتُ إليه، وإذا كانت بضاعتي مزجاةً فحسبي أنّي عزمت وأخلصت النّيّة، والكمال لله وحده، وهو ولي السّداد والتوفيق .

الفصل الأول

نسب خولان

أولاً - نسبُ خولان:

تواجه الباحث في أصول خولان وبطونها المتعددة، وما قاله أهل العلم المهتمون بعلم النسب من أقوال متباينة، صعوباتٌ جمةٌ، وعتارٌ عظامٌ تعتاص على البصير بأخبار القبائل اليمنية وأنسابها، وتلك شكايةٌ كبيرٌ جرمها، واضحٌ أمرها في الحيف الذي لحق بنسب القبائل اليمنية وأخبارها التي ضرب النسبُ صفحاً عنها إلا طرفاً يسيراً لا يؤبه له بالقياس إلى نصيب القبائل العربية الأخرى، وهذا بينٌ بنظرة عَجَلِيٍّ إلى ما تبقى من مصنفات الأنساب، كالنسب الكبير لابن الكلبي أو الموسوم بنسب معد واليمن الكبير^(١)، والنسب لأبي عبيد^(٢)، وجمهرة أنساب العرب^(٣)، والأنساب للعوتبي الصُّحاري^(٤) وليس ثمة ملامة على أبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني (ت ٣٣٤هـ) في تشكيه على هؤلاء العلماء، ولا سيما من كان منهم بالشَّام والعراق الذين قلَّت رحلتهم إلى مَنْ قَطَنَ باليمن، فنَحَلَتْ أنساب اليمن في مصنفاتهم، حتى كادت تكون معدومةً لولا ما سمعوه من هنا وهناك، فدوّنوا النذير من الكثير، وأخذوا الحلق من العقد، فقال - وهو الموقِفُ سَمْعُهُ على أبناء العصور، المتبّع للمعروف من أخبار القبائل وأيامها، المنقَرُ عن غامضها، المتبيّن في ملتبسها، المتكَبُّ لمجهولها؛ حتى وقف على العين الجليّة = «رأيتُ نُسَابَ تلك النواحي، ولا سيما الكليّين استقصوا في أنساب ولد مالك ابن حمير [أي أولاد قضاة بن مالك بن حمير] لَمَّا كانوا منهم وعنهم بمرأى ومسمع، وأتوا من نسب أخيه الهميسع بن حمير بمثل أثرٍ في عفر، لا دارس فيعفو، ولا بين فييدو، لَمَّا قلَّت رحلتهم إلى مَنْ قَطَنَ منهم باليمن، ولم يلقوا بُنْهُوَجِهِمْ مِنْ ذوي معرفتهم غير أعقاب مَنْ ظَعَن، فتتَفَ ذاك واختَصِرَ ذا، وأتوا منها بعُنُقٍ يختلف عنها بدنها، وكذلك غيرهم من النُسَاب، حتى إن ابن إسحاق أتى - فيما سمعنا عنه بنسب ولد الهميسع في خمسة أسطر^(٥) وكذا الحال في نسب خولان التي شسع

(١) انظر: النسب الكبير: ٢٥١ / ١.

(٢) انظر: النسب لأبي عبيد: ٣١٤.

(٣) انظر: جمهرة أنساب العرب ٢ / ٤١٨، ٤٨٥.

(٤) انظر: الأنساب ١ / ٢٦١، ٢٨٢.

(٥) انظر: الإكليل «المخطوط ١ / ٣-٤، والمطبوع ١ / ٨٤-٨٥».

صقُّعُها، وعُدَّتْ في قبائل اليمن، فهزُّلَتْ أنسابها وأخبارها في مصنِّفات أهل الشَّام والعراق حتَّى قيَّضَ اللهُ عزَّ وجلَّ لها أبا الحسن الهمداني الذي أنفق شطراً من حياته في تقصِّي أخبارها وأنسابها، فكانت معرفته بها عاليةً في بابها، غنيَّةً في مادَّتها؛ لقربه من حملة العلم منها، وإطلاعه على كل ما قيل فيها في السِّجَلات والزُّبُر والمساند الحميريَّة، يقول: «قد ذكرنا قبائل قضاعة ذكراً مجملًا؛ لشهرتها عند النَّاس، ووقوف العامَّة عليها، واستعمالهم لها، وعمران قلوبهم بها وأسماعهم، سوى خَوْلان، فإنَّنا رأينا أنَّ نُشَبَعَ القول فيها لتلحق في التَّشجير والتَّعريف بباقي إخوتها من قضاعة، ونحرص أن نأتي من ذلك مما يعرفه أهل نجد، وبعض أهل الحجاز، وكافة أهل اليمن ونجران، ومن يبلغه رحلتهم، ويبلغهم رحلته، ولو كانت صعبة في القديم من البلدان التي رحل إليها أصحاب الحديث، لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء، فهذه الآن بطونها، على ما روى خولان وحمير بصعده، وقد سكنتُ بها عشرين سنة، فأطللتُ على أخبار خولان وأنسابها ورجالها، كما أطللتُ على بطن راحتي، وقرأتُ بها سجل محمد بن أبان الخنفرِّي المتوارث من الجاهليَّة، فمن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب، ومنها ما دخل في كتاب الأيام»^(١).

وثمة صعوبةٌ تتعلَّقُ بأسماء أعلام خولان، ولا سيَّما البطون منها التي ورد اسمها في النُّقوش القديمة، تتجسَّدُ في أنَّ معظمها قد تغيَّر مع تقادم العهد عليه، فعفا عليها الزَّمن، وحلَّ محلُّها أسماءٌ أُخرى مثل «الأُخُنُوب»^(٢) الذي اختفى من بقيَّة النُّقوش الأخرى ومن مصنِّفات الهمداني نفسه، والأُخُنُوب بلا شكَّ هم الفرع الأساسي من قبيلة خولان، ممن تولَّوا أمر هذا التَّجمُّع، ولكن بمرور الأيام وتعاقب السنين حلَّ آخر مكان هذا الاسم الذي جاء بصيغة اسم الجمع على زِنَةِ (أَفْعُول)

(١) الإكليل: «المخطوط ٦٠ / ١، المطبوع ٢٧٤-٢٧٥».

(٢) الأُخُنُوب: الأصل لهذه المادة (حنب) والتَّحْنِيبُ: أحديداب في وظيفي يدي الفرس، وليس ذلك بالاعوجاج الشَّدِيد، وقيل: هو اعوجاج في الصُّلوع، وقيل: هو انحناءٌ وتوتيرٌ في صلبها وبَدْيِها، والتَّحْنِيبُ (بالجيم) هو غلط في الرُّجلين، التَّاج (حنب) وعلَّقَ الأستاذ مطهر علي الإرياني على هذه المادَّة بقوله: «إنَّ الأُخُنُوب من مادَّة (حنب) القاموسية أو اليمينية، ولكنَّا لا نعرف الأصل المفرد منها، هل هو (يُحْنِب) أو (حُنَاب) أو (حُنْبَة) أو نحوها من صيغ مادة (حنب) وإن كنت أرجح أنَّ الأصل (بني يُحْنِب) التي قد تكون تحرفت إلى (يُحْنِب - بالجيم) التي ترد في أنساب القبائل القضاعية...» نقوش مسندية ٤٩٩.

وهي صيغة تكثر في النقوش عامّة، ولا سيّما النقوش التي تخصّ قبيلة خولان حسب ما نبّه عليه الهمدانيّ، ففيها: الأجل، والأسوق، والأخضوض، والأقدوم، والأجدود، والأزوم، والأوكول، والأعبوس، والأبقور، وصيغٌ أخرى دلّت على شعوبٍ وبطونٍ انتسبت إلى خولان، واختفى ذكرها في النقوش الأخرى ومصنّفات أهل اليمن مثل: الشبارقة، والشمالقة، والغرانقة^(١).

وثمة صعوبة أخرى تتعلّق بقلّة المصادر المصنّفة في أخبار خولان، التي لم يتناولها إلا الهمدانيّ، ومن نقل عنه من العلماء أمثال ياقوت الحمويّ (٦٢٦هـ) في معجمه، وعبد العزيز البكريّ (٤٨٧هـ) في (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع)، ونشوان الحميريّ (٥٧٣هـ) في شمس العلوم، وعنه في (منتخبات في أخبار اليمن)، وابن خرداذبه (٢٣٥هـ) في (المسالك والممالك) وبعض النقوش المسندية القديمة التي حاول نفرٌ من العلماء الوقوف عليها، وحلّ رموزها، وترجمتها ما أمكن إلى ذلك سبيلاً^(٢).

وَحَوْلَانُ: بفتح الحاء المعجمة، وسكون الواو، وبعدها لام ألف، ثمّ نون^(٣). أمّا دلالة هذه اللفظة التي آمن بها علماء اللغة، واطمأن إليها أرباب الأنساب وجزموا بها، فمأخوذة من (الخول) وهم الأتباع والرعيّة والخدم والعبيد، حتّى قيل: هؤلاء خول فلان، إذا اتخذهم عبيداً وقهرهم وجعلهم مُلكاً له^(٤). وحينما ولد خولان قيل: حوّلوا له، أي اجعلوا له خولاً، فجمعوا له أخلاطاً خولاً، فهؤلاء الخول: حوّلان^(٥)، الذي يعود في أصل التحوّل إلى: التّعاهد، ومنه في الحديث «كان يتحوّلنا

(١) انظر: نقوش مسندية ٤٩٨، ٥٠٢-٥٠٣.

(٢) انظر: نقوش مسندية ٤٨٢-٤٩٨.

(٣) جهرة اللغة ٢/٢٤٣، الاشتقاق ٣٢٧، الصّحاح ٤/١٦٩١، المحكم ٥/١٨٢، المحيط في اللغة ٤/٤١٣، شمس العلوم ٢/١٩٤٧، وفيات الأعيان ٢/٥١١، الأنساب للسمعانيّ ٥/٢١١-٢١٢، اللّباب في تهذيب الأنساب ١/٤٧٢، القاموس المحيط ٢/٤٧٧، معجم مقاييس اللغة واللسان والتّاج (خول).

(٤) جهرة اللغة ٣/٢٤٠، تهذيب اللغة ٧/٥٦٤، المحكم ٥/١٨٢، المحيط في اللغة ٤/٤١٣، اللّسان والتّاج (خول).

(٥) النّسب الكبير ١/٢١٦-٢١٧، مختصر جهرة النّسب ٢/١٨٤.

بالموعظة، أي يتعهدنا مخافة السّامة^(١)، وقال الأصمعي: يَتَخَوُّهُمْ، وهي لغةٌ فيها^(٢). والراجح أنَّ الأصل في التسمية عائدٌ إلى التّعاهد والحفاظ على الشّيء؛ لقول ابن دريد: «وقد سمّت العرب خَوْلَان، وخَوْلَة وخَوْلِيًّا، كُلُّ إلى هذا راجع»^(٣). أي تعاهدوه بالحماية والرّعاية الكريمة؛ ليصبح خولان فيما بعد رجلاً عظيماً يغلب على مرحلة من اليمن السّعيد، وكانت من ذريته ومن تناسل من صلبه هذه القبيلة العظيمة^(٤). وقريب من التّخول في معناه ومبناه ما جاء لدى الهمدانيّ حين أشار إلى أنَّ معاني التّكلّع والتّبكل والتّقرش والتّحبش والتّحمر والتّسبؤ والتّقشب والتّحشد تدلُّ على التّجمّع^(٥)، وهي كَلَاع وبكيل بن همدان وحاشد أخوه، وقريش، وحمير وسبأ وقشيب وكلّها بطون يمانية.

وقد جاء في معنى بكيل بن جُشم بن حَبْران بن نوف بن همدان: زعيم، وتبكّلت بالأمر: ترعّمت به، والتّبكيل والتّحشد: التّجمّع^(٦). ومثل هذا في سبأ وخولان وغيرها من الأسماء اليمانيّة^(٧).

وقبل الولوج في رفع نسب خولان لا بدّ من التّنبية على مشكلات ثلاث هي:

الأولى: اختصار نُسَاب العرب وعلمائهم من غير الهمدانيّ أنساب خولان، ولا سيّما ابن الكلبي وابن حزم، وغيرهما، إذ لم يذكروا من أنسابها إلا حذفاً يسيراً لا ينفع بلّة، ولا يشفي غليلاً، بل ما ذكروه من نسب خولان يُوهّم القارئ بأنّ خولان بطنٌ صغيرٌ من قضاة أو غيرها من العرب

(١) جمهرة اللّغة ٣/ ٢٤٠، الاشتقاق ٣٢٧، الصّحاح ٤/ ١٦٩١، المحكم ٥/ ١٨٢، تهذيب اللّغة ٧/ ٥٦١، وفيه يَتَخَوُّهُمْ، أساس البلاغة، التّاج (خول).

(٢) جمهرة اللّغة ٣/ ٢٤٠ وفيه بلا نسبة إلى خولان، اللّسان ومقاييس اللّغة والتّاج (خول).

(٣) الاشتقاق ٣٢٧.

(٤) التّاج (جيش).

(٥) الإكليل ٢/ ٢٤٤.

(٦) الإكليل ١٠/ ١٠٥ وانظر: اللّسان والتّاج (بكل، حشد) وانظر شعراء مدح حول اجتهادات أهل العلم في تفسير الأسماء اليمانية عامّة. وذاهبهم مذاهب شتى في تناول موضوع النسب ص ١٧.

(٧) الإكليل: ٢/ ٢٨٤.

حسب ما نسبوها، وهي على خلاف ذلك وفقاً لما ذكره أحد الباحثين المطلع على ما جاء في النقوش القديمة بأثباتها من القبائل الكبيرة التي ذكرت في عددٍ من الكتابات الجنوبية الحية^(١).

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى اندثار أنساب العرب، وضياح معظمها أيام بخت نصر من خلال كلام الهمداني على نسب مالك بن حمير يقول «وأولد مالك بن حمير: زيد بن مالك، وزهران بن مالك، حيٌّ عظيمٌ، ولهم كانت اليمامة، وإليهم انصافت جديس وهوازن الأولى بن مالك، والغمور بن مالك والأحظور بن مالك، وإليهم يذهب كثير من الناس أنهم الذين أوقع بهم بخت نصر، ويدلُّ على ذلك قول ابن عباس: إنَّ بخت نصر أفنى أهل حضورا وعزبايا؛ لأنَّ هذين الاسمين لا يعرفان باليمن.... وأصحاب السَّجل يقولون مثل قول بعض النَّاس فيما بين عدنان وإسماعيل إنَّه تخرَّم بعد أيام بخت نصر شيء من علم العرب من ساكني الحجاز والشَّام بالأنساب والأيام»^(٢).

أمَّا المشكلة الثانية: فهي الخلاف في نسب قضاة، هل هي حميرية أو معدية:

كشف الهمداني اللثام عن هاتين القضيتين في الجزأين الأولين من كتابه الإكليل، ولهذا يحسن بدء الكلام عليهما بما أبداه الهمداني في الجزء الأول من كتابه هذا، وهو مصروفٌ لتبيين أنساب العرب والعجم، ونسب ولد حمير، وخولان التي جاءت في نصفه الثاني، وكذا حال الجزأين الثاني والعاشر، ويدلُّ هذا الاستهلال على شغف الهمداني بتتبع أنساب خولان وحمير وهمدان - صقعه اليماني - وتطلُّبها أنَّى كانت محالُّ أصحابها، وفي ذلك يقول: «وما زلت منذ عضضتُ على جذمي موقفاً سمعي على أنباء العصور، مُتَّبِعاً للمعروف من الأخبار وأيام النَّاس، مُنْقِراً عن غامضها، مُتَّبِعاً مُلْتَبِسِها، مُتَنَكِّباً لمجهولها، حتَّى وَقَفْتُ منها على العين الجليَّة، وسلكتُ منها الجادة السويَّة، فوجدتُ أكثر النَّاس يخبط فيه خَبْط عشواء، ويَعْمَهُ في حِنْدِس طخياء»^(٣)، وإذا الخبر الواحد ترويه الجماعة في

(١) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٠٠ / ٢.

(٢) الإكليل: «المخطوط ٤٨ / ١، المطبوع ٢٠٨ / ١».

(٣) حِنْدِس: الظلَّة، وقيل: الليل الشديد الظلمة. طخياء: الظلمة الشديدة.

وُجُوهٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنْ زِيَادَةٍ وَنَقْصَانٍ، وَتَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ، إِذْ كَانَ عِلْمُ الْأَخْبَارِ عِلْمًا طَلْقًا غَيْرَ مَقْصُورٍ بِنِظَامٍ، وَلَا مَحْصُورٍ بِقِيَاسٍ.

كما لم أزل كَلِيفًا بِالْبَحْثِ عَنِ الْأَنْسَابِ، وَالْفَحْصِ عَلَى صَحِيحِهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ سَقِيمِهَا، وَالتَّصَفُّحِ لِمَا أَتَى بِهِ النَّسَابُ، فَأَخَذْنَا نَسَبَ كُلِّ قَبِيلَةٍ، مُتَقِنًا لِأَنْسَابِ مَنْ قَارَبَهُ وَعَاشَرَهُ وَسَاكَنَهُ وَخَالَطَهُ، رَاجِعًا فِيمَا نَأَى عَنْهُ بِالْغَيْبِ، نَجْمَعُ مِنْ سِيرِهِمُ الْحَقِيرَ، وَمِنْ أَنْسَابِهِمُ الْيَسِيرَ، وَمِنْ عِلْمِهِمْ وَحُكْمِهِمُ النَّزْرَ مِنَ الْكَثِيرِ، وَيَزِلُّ عَنْهُ مِنْهَا الْجَمُّ الْغَفِيرُ؛ فَقُلْتُ: أَيْنَ مَنْ لَمْ يَزَلْ بَعْدَهُمْ مُؤْجِفًا يَغُورُ وَيُنْجَدُ، وَيَقْرُبُ وَيَبْعَدُ فِي طَلَبِ مَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ عَلَى كَمَالِهِ عَنْ مِثْلِ شَيْخِ حَمِيرٍ وَنَاسِبِهَا وَعِلَّامَتِهَا وَحَامِلِ سَفَرِهَا، وَوَارِثِ مَا ادْخَرْتَهُ مَلُوكُ حَمِيرٍ فِي خَزَائِنِهَا مِنْ مَكْنُونِ عِلْمِهَا، وَقَارِئِ مَسَانِدِهَا وَالْمَحِيطِ بِلِغَاتِهَا، أَبِي نَصْرٍ وَمَا زَالَ لَنَا مَعُولًا فِي الْمَشْكَلَاتِ، وَرَبِّمَا وَرَدَتْ مِنْهُ بَحْرًا زَاخِرًا لَا تَكْذُرُهُ الدَّلَاءُ، وَلَا تَلُوبُ دُونَهُ الظُّمَاءُ، فَأَغْنَانِي نَهْلُهُ دُونَ عِلَّاهُ، وَأَوْسَعْنِي كِفَايَةُ الْبَعْضِ دُونَ كَمْلِهِ، وَكَانَ بَحَاثَةً قَدْ لَقِيَ رَجَالًا، وَقَرَأَ زُبْرَ جَمِيرِ الْقَدِيمَةِ وَمَسَانِدِهَا الدَّهْرِيَّةَ، فَرَبِّمَا نَقَلَ الْأَسْمَ عَلَى لَفْظِ الْقُدَمَانِ مِنْ حَمِيرٍ ...، فَمَا أَخَذْتَهُ عَنْهُ مَا أَثْبَتَهُ فِي كِتَابِي هَذَا مِنْ أَنْسَابِ بَنِي الْهَمَيْسَعِ بْنِ حَمِيرٍ وَعِدَّةِ الْأَذْوَاءِ، وَبَعْضُ مَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنْ أَمْثَالِ حَمِيرٍ وَحُكْمِهَا، إِلَّا مَا أَخَذْتَهُ عَنْ رِجَالِ جَمِيرٍ وَكَهْلَانٍ مِنْ سَجَلِ خَوْلَانَ الْقَدِيمِ بِصُعْدَةٍ، وَعَنْ عِلْمَاءِ صَنْعَاءَ وَصُعْدَةَ وَنَجْرَانَ وَالْجُوفِ وَخَيَوَانَ وَمَا خَبَّرَنِي بِهِ الْأَبَاءُ وَالْأَسْلَافُ»^(١).

وَاتِّكَاءً عَلَى مَا سَلَفَ، فَإِنَّ أَنْسَابَ خَوْلَانَ فِي غَيْرِ الْإِكْلِيلِ لَيْسَتْ إِلَّا بَتْرًا مُجَلًّا لَا يُعْتَدُّ بِهِ، وَلِهَذَا سَيُعَوَّلُ التَّعْوِيلُ كُلُّهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْهَمْدَانِيُّ مِنْ أَنْسَابِهِمْ، وَعَلَى مَنْ نَقَلَ عَنْهُ مِنْ عِلْمَاءِ الْأَنْسَابِ أَوْ حَذَا حَذْوَهُ فِي اقْتِفَاءِ أَثَرِهِ، مَعَ عَرَاضِ ذَلِكَ مَا أَمَكَّنَ بِمَا سَاقَهُ عِلْمَاءُ الْأَنْسَابِ الَّذِينَ تَشَكَّى مِنْهُمْ الْهَمْدَانِيُّ ذَاتَهُ. وَسَأُضْرِبُ صَفْحًا عَنِ الْقَوْلِ فِي هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ لِسَبَبَيْنِ هُمَا:

(١) الْإِكْلِيلُ: «الْمَخْطُوط ١/ ٣-٥، الْمَطْبُوع ١/ ٨٣-٨٩» يَنْدُرُجُ كَلَامُ الْهَمْدَانِيِّ عَلَى كُلِّ مَا لَمَّمَهُ مِنْ أَنْسَابِ حَمِيرٍ وَخَوْلَانَ وَهَمْدَانَ (صَعْقَةُ الْيَمَانِي).

الأول: بسطُ الدكتور محمد شفيق البيطار القولَ في الخلاف في نسب قضاعة، وإفراده مبحثاً عميقاً عالج فيه المشكلة، معتمداً في مذهبه الذي انتهى إليه على أدلة دامغة إذ انتهى إلى نتيجة فحواها أن قضاعة معدّيون^(١). وقضاعة إذا ما أردنا القول، تعدل نصف العرب في نسب بطونها الصحيح، ولا قدرة لأحدٍ بمناوشتها فهي في العرب «أكثر من ربيعة ومضر عدداً»^(٢).

الثاني: بسطُ الهمداني باباً نادراً من كتابه الإكليل للحديث عن هذا الخلاف وسمّاه بـ(باب تصحيح نسب قضاعة) ذهب فيه إلى أن قضاعة حميرية، وليس لمعدّها فيها نصيب، وأنه لم يرخص من قضاعة النسب إلى معدّها إلا طالب مالٍ أو ساعٍ إلى جاهٍ أو سلطان^(٣)، إلا أن الدكتور محمد شفيق البيطار ذهب إلى خلاف ذلك، متكئاً في مذهبه على أدلة دامغة، على أنه لم يتسنّ له حينها جمع أشعار كلب بن وبرة، الوقوف على كلام الهمداني في الإكليل.

أما المشكلة الثالثة: فهي الخلاف في نسب خولان، وهو خلاف كبير جرمه، عظيم شأنه، فهل خولان قضاعيّة أم كهلانيّة أم مذحجيّة؟ وما فعله النسابة من إلحاق خولان بقبائل عربيّة وجذّم لا تنتمي إليها صليبيّة، فتارة تكون في كهلان - وعليه درج معظم علماء النسب دون أن يوضحوا سبب هذا الإلحاق بأرومة القحطانيّة - وتارة تكون في مذحج، وهي قالة قلّ ذكروها وعزّ شاكروها، وليس لها من الصواب نصيب، وثالثة قرّرت في قضاعة مع أخواتها مثل بليّ وبهراء وحيدان ونهد وجرم، وهو ما درج عليه الهمداني واستقام قوله فيه.

وسوف أناقش هذه الأقوال الثلاثة، وسأقف عند رسم أسماء بطون خولان، وما اعترأها من علل التّصحيف والتّحريف، مبيناً الحيف الذي لحق بها، هذه القبيلة الكبيرة التي انتشرت أخبارها في النقوش المسنديّة التي ما تزال أرضها بكرةً تحتاج إلى من يجيد حرثها، حتّى يفيد منها الباحثون، ففيها

(١) انظر: ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ١٢-٣١.

(٢) اختيار الممتع في علم الشعر وعمله ٣٠٧ وعنه في ديوان بني كلب بن وبرة ٢/٦٧٥. وشعراء حمير (الدراسة) ١٢.

(٣) انظر: الإكليل: المخطوط ١/٤٧-٥٥، المطبوع ١/٢٠٩-٢٥٥ وعنه في شعراء حمير (الدراسة) ١٢.

ما يزيل اللبس، ويكشف الخطأ، ويصوّبه، ويقلل العثرة التي يمكن أن تعترض الباحث في قلّة المصادر وشحوب المظان.

أمّا عن نسب خولان وإلحاقها بمذحج أو بأحد بطونها، كما جاء عند عددٍ من العلماء، منهم ابن هشام (ت ٢١٨هـ) الذي قال: «خولان بن عمرو بن سعد العشيرة بن مذحج»^(١). فهي رواية مُزجاة عزّ خاطبو وُدّها؛ لأنّه لم تتّم خولان أو أحد بطونها في يوم من الأيام إلى مذحج برابطة عَصَبٍ، أو صلة قَرَبى، إلّا أنّ بني الحارث بن كعب بن عمرو بن وُعَلَة بن جَلَد بن مذحج، سكنوا أرضاً لخولان ودخلوا فيها زمناً، أو تقاطعوا معها في جزءٍ من صقعها، وهي أودية العَوَهْل الأعلى، والعَوَهْل الأسفل، وحمض^(٢)، وهي أودية لخولان، يضاف إلى هذه الأودية وادي السّرّ، وهو من أودية مخلاف ذي جَرّة وخولان الكبيرة التي نزلها رهط ابن الرّوية المذحجيّ وافترشها أرضاً له إلى جوار خولان، وآل ذي جَرّة بن يكلّى بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مَرّة بن أدّ، اللذين يقطنان فيه^(٣).

واتكأ على هذا يُرَجَّح لدينا أنّ مذهب هؤلاء العلماء في إلحاق خولان بمذحج عائدٌ إلى سكن بعض بطون مذحج في أصقاعٍ خولانيّة، ممّا أدّى إلى إلحاق خولان بمذحج، وهنا يجدر بنا التنبية على أمرٍ مهم قبل أن يتساءل القارئ لِمَ لحقت خولان بمذحج، وكان من الصّواب أن تلحق مذحج بخولان؟ أقول: - ولعلّ في قولي ما يزيل اللبس - إنّ مذحجاً أكثر حضوراً واشتهاراً من خولان في مصنّفات العلماء الذين ذهبوا ذلك المذهب، وأخبارها ضربت الآفاق وطبقت الأصقاع ببروز رجالها وشعرائها وأيامها وعلاقاتها مع غيرها من القبائل اليمانية والعدنانيّة، وهي إحدى جماجم العرب المعدودة فيهم^(٤).

(١) انظر: السيرة النبويّة ٧٩/١، وذهب مذهبُه ابنُ قتيبة في المعارف ١٠٦، والسّهيليّ في الرّوض الأنف ١٠٤/١، واليعقوبيّ في تاريخه ٢٤٨/١، وابن سعيد الأندلسيّ في نشوة الطّرب ٢٤١/١، والحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٦٣/٢١. وابن خلدون في تاريخه ٣٠٧/٢، وجعل ابن فضل العمري «خولان» بطناً في أرومة مذحج. مسالك الأبصار ٢٦٠/٤.

(٢) صفة جزيرة العرب ١٥١.

(٣) الأعلام النفيسة ١١٣-١١٤، صفة جزيرة العرب ٢٣٦.

(٤) الديباج: ١١٣. جمهرة أنساب العرب ٤٨٧، وانظر: مقدّمة شعراء مذحج ٧.

يُضاف إلى هذا أنَّ هؤلاء العلماء الذين سلكوا هذا المذهب، ليسوا من أهل النسب وعلمائه، ولا ممن راضوا أرضه، وتقيّلوا في فيئه، إلّا ما يجده المرء لهم من جهودٍ عالية في ميادين علومهم.

أمّا عن نسب خولان وجعلها في شجرة كهلان ففيه من المشكلات ما يُعْيِي؛ لكثرة مَنْ رَدَدَ هذه المقالة، ولكثرة ما فيها تصحيف وتحريف، شوّها سلسلة النسب، فتغيّرت صورتها حتّى كادت تشبه أسماء الجنّ والسّعالِي، فقليل: خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان^(١).

إنّ مذهب الهمدانيّ في نسبة خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد إلى كهلان بن سبأ، عائدٌ إلى قوله: «أولد مرّة بن أدد الحارث... وأولد الحارث بن مرّة. مالكاً وعدياً فأولد مالك بن الحارث عمراً ويعفرَ المعافر، وأولد عمرو بن يكلّى خولان: خولان العالية، فأولد يكلّى ذا جرة (بطن وهم الجرّتيون باليمن) وذو جرة وخولان هذه جلالاً»^(٢) ليتبيّن لنا أنّ خولان الكهلانيّة المذكورة آنفاً هي خولان العالية التي سكنت جبال شرقي

(١) أخبار عبيد بن شريّة الجرهيميّ ٤١١، وفيه (لكل) مُصَحَّفًا، النسب الكبير ١/ ٢١٥ وفيه (فكل) وكذا الأمر في مختصر جمهرة النسب ١٨٢/ ٢، والسيرة النبويّة ١/ ٧٨-٧٩ وقد أسقط (مالك بن الحارث) من سلسلة النسب، النسب لأبي عبيد ٣١٤، الاشتقاق ٣٨٠، وقد ورد فيه (فكل) مُصَحَّفًا، العقد الفريد ٣/ ٤٠٣، الإكليل ١٠/ ٢٨ «يكلّى» مُصَحَّفًا، جمهرة أنساب العرب ١٨/ ٢ ورد فيه «فكل»، الإنباه على قبائل الرواة ١١٧، ١٣٨، الأنساب للسمعانيّ ٥/ ٢١١، الرّوض الأنف ١/ ١٠٤، عجالة المبتدي وفضالة المنتهي: ٥٦ وفيه «أفكل»، المقتضب من جمهرة النسب ٢٧٣-٢٧٤، اللّباب في تهذيب الأنساب ١/ ٣٩٥ وفيه «أفكل» وأسقط «زيد بن يشجب»، وفيات الأعيان ٢/ ٥١١ وفيه «أفكل»، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب ١/ ٣٠٢، نهاية الأرب في فنون الأدب ٢/ ٢٨٦، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٢٣١، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ١/ ٣٦٥، المستدرك على أنساب الأشراف ١٦/ ٢٥٢ الموسوعة اليمنية (المجلد الثاني) ١٢٧٧، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ١٠١، سبائك الذهب ٦٨، وقد نبّه الشيخ محمود شاكر على الآفات التي ابتلي بها كتاب التيجان وبذيله أخبار عبيد بن شريّة، فقال وهو يتكلّم على قصيدة ابن أخت تأبط شرّاً: «وكتاب التيجان فيه آفات عظيمة، وأخباره لا يطمئن إليها أحد من أهل العلم، والشعر الذي فيه، خليطٌ فاسدٌ جداً...» نمط صعب ونمط مخيف: ٥٣. وقوله: «فاسدٌ جداً» سيتبين في بيتين سنأتي عليهما لعبيد بن شريّة ساقهما لشاعر، وقد أُنخما تصحيفاً وتحريفًا.

(٢) الإكليل ١٠/ ٢٨.

صنعاء بعد أن كانت تقيم بمأرب بصرواح - وهو قصر لهم -^(١) و«هم من أول الدهر إلى آخره ينتسبون إلى حمير، ولا ينكرون أختوتهم من خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاة بحقل صعدة ونواحيه، وإنما قيل خولان العالية؛ للفرق بين البلاد لا الفرق بين النسب، كما يقال في أزد شنوءة، وأزد عمان، ولا إشكال في أن الجميع من الأزد»^(٢).

ونلاحظ هذا النسب عند ابن الكلبي (ت ٢٠٤هـ)، ومن قبله عند عبيد بن شريّة الجُرهمي (ت ٦٧هـ) في أخباره^(٣). ويظهر من خلال ما وقف عليه أحد الباحثين في أصل التسمية التي لم يكشف عن سبب إلحاق خولان بنسب كهلان بصورة واضحة^(٤)، طغيان الكهلانية على قبائل اليمن في معظمها، وانتسابها فيها، ولا سيما أن خولان قضاة فرّت من تهامة مع أخواتها إثر حرب ضروس شتّت بطون قضاة (بليّ وبهراء وخولان) التي حطّ بها الرحل في مأرب^(٥). فانتساب القبائل التي سكنت الصّقع اليماني مثل: مذحج وهمدان وطيّ إلى كهلان أثر في جعل خولان في عداد تلك القبائل؛ لأنها نزلت أرضاً قريبة من أصقاع كهلان حتى عُدت فيها، وهذا كان ديدن الهمداني الذي ألحق عدداً من بطون خولان بحمير لمجاورتها لها، أو افتراشها أرضاً هي من أملاكها، من ذلك ما نجده في بيتين أنشدهما عبيد بن شريّة الجُرهمي في حضرة معاوية بن أبي سفيان لتبّع بن ملكي كرب المشهور بأسعد أبي كرب يذكر خولان يقول:

وَحَوْلَانُ سَحْمَاتُهَا وَالذَّرَاعُ يُشْبُونُ إِنْقَادَهَا بِاللَّهَبِ

(١) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٣٥، شمس العلوم ٧/ ٤٧٢٤، وعنهما في خولان الأرض والقبيلة (رسالة ماجستير قدمت في جامعة صنعاء في قسم الآثار) ٥٩.

(٢) الإكليل: «المخطوط ١/ ٦٠، المطبوع ١/ ٢٨٠».

(٣) انظر: النسب الكبير ١/ ٢١٥، وأخبار عبيد بن شريّة ٤١١، ولاحظ تصحيف الاسم عند الأول (فكل) والثاني (لكل) الذي هو (يكل) عند الهمداني وهو ما درج عليه غيرهم في الحاشية المسوقة آنفاً.

(٤) خولان الأرض والقبيلة: ٤٧ وما بعدها.

(٥) انظر: معجم ما استعجم (المقدمة) ٢٧.

لَعَمْرُ أَبِيهِمْ عَدَ اللّٰوَاءِ إِذَا رَامَ دَاهِيَةً لَمْ يَرْسِبْ^(١)

إِنَّ أَوَّلَ مَا يَسْتَوْقِفُ المرءُ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَوْلُهُ: (وَحَوْلَانِ سَحْمَانَهَا وَالذَّرَاعُ) الْبَطْنَانِ اللَّذَانِ نَبَّهَ عَلَيْهِمَا ابْنُ الْكَلْبِيِّ فِي قَوْلِهِ: «فَإِذَا سَأَلْتَ الْخَوْلَانِيَّ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، قَالَ: أَنَا مِنْ آلِ ذِي سُحَيْمٍ، أَوْ آلِ ذِي رِدَاغٍ، أَوْ بَنِي سَعْدِ بْنِ خَوْلَانَ»^(٢) الَّتِي يَنْسِبُهَا الْهَمْدَانِيُّ إِلَى قَحْطَانَ وَيَجْعَلُهَا فِيهِمْ نَاقِلًا عَنْ إِحْدَى السَّجَلَاتِ الْمُهَمَّةِ قَائِلًا: «أَوْلَدَ قَحْطَانُ بْنُ هُوْدٍ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ رَجُلًا، وَهُمْ يَعْرَبُ... وَخَوْلَانُ رِدَاغُ الَّتِي فِي الْقَفَاعَةِ»^(٣).

وَهُنَا يُمْكِنُ بِنَظَرٍ عَجَلِيٍّ مَلاحِظَةُ التَّصْحِيفِ الْوَاقِعِ عَلَى أَسْمَاءِ الْأَمَكْنَةِ، الذَّرَاعُ، رُدَاغُ، رِدَاغُ^(٤)، وَهِيَ مَكَانٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ رِدَاغُ، مُخْلَافٌ مُسْتَقِلٌّ وَاقِعٌ بَيْنَ رُعَيْنٍ وَنَجْدٍ مَذْحِجٍ، يَسْكُنُهُ خَلِيطٌ مِنْ بَعْضِ حَمِيرٍ، وَخَوْلَانُ، وَبَلْحَارِثُ بْنُ كَعْبٍ، وَعَنْسُ الْمَذْحِجِيِّينَ، وَيَكْتَنِفُهُ فِي بَادِيَتِهِ الرَّبِيعِيُّونَ، وَالزِّيَادِيُّونَ مِنْ مَذْحِجٍ، وَبَنُو حُيَيْشٍ مِنْ زُبَيْدٍ^(٥).

كَمَا أَنَّ مُخْلَافَ رِدَاغٍ وَثَاتٌ مُتَدَاخِلٌ بَيْنَ بَعْضِ بَطُونِ حَمِيرٍ وَمَذْحِجٍ وَخَوْلَانٍ^(٦) الَّتِي أَلْحَقْتُ بِاسْمِ الْمَخْلَافِ، نِسْبَةً إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ، وَافْتَرَشَتْهُ أَرْضًا لَهَا.

كَمَا نَجِدُ كِيَانًا خَوْلَانِيًّا آخَرَ يَحْمِلُ النِّسْبَةَ إِلَى رِدَاغٍ الَّتِي ارْتَبَطَتْ بِخَوْلَانِ الْكَائِنَةِ فِي الْقَفَاعَةِ^(٧) هُوَ ذَاتُهُ، رَدِيعَةُ بْنُ الْقَفَاعَةِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ^(٨)

(١) أَخْبَارُ عُبَيْدِ بْنِ شَرِيَّةٍ الْجَرَهْمِيِّ: ٤٨٨، وَانْظُرْ: «خَوْلَانُ سَحِيمٍ» فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَهَالِكِ ١٣٧، ١٤٨، ١٩٢، وَالْخَرَجُ وَصَنَاعَةُ الْكِتَابَةِ ٨٦.

(٢) النَّسَبُ الْكَبِيرُ ١/٢١٧، الْمَسَالِكُ وَالْمَهَالِكُ ١٣٧، ١٤٨، ١٩٢، الْخَرَجُ وَصَنَاعَةُ الْكِتَابَةِ ٨٦.

(٣) الْإِكْلِيلُ: «الْمَخْطُوطُ ١/٤٦، الْمَطْبُوعُ ١/٢٠٤-٢٠٥» وَنَحْوُ هَذَا فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَهَالِكِ: ١٣٨، ١٤١، مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ ٣/٣٩، الْبُلْدَانُ لِلْيَعْقُوبِيِّ ٣١٩-٣٢٠، أَحْسَنُ التَّقَاسِيمِ فِي مَعْرِفَةِ الْأَقَالِيمِ: ٩١.

(٤) انْظُرْ: الْمَسَالِكُ وَالْمَهَالِكُ ١٣٨، أَحْسَنُ التَّقَاسِيمِ فِي مَعْرِفَةِ الْأَقَالِيمِ ٨٩، الْبُلْدَانُ الْبَيَانِيَّةُ عِنْدَ يَاقُوتِ الْحَمَوِيِّ ١٢٧-١٢٨.

(٥) صِفَةُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ٨١، ٢٢٠.

(٦) انْظُرْ: الْإِكْلِيلُ ٢/٥١-٥٢، ٢٨٣، صِفَةُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ١٨٠-١٨٦.

(٧) انْظُرْ: الْإِكْلِيلُ: «الْمَخْطُوطُ ١/٤٦، الْمَطْبُوعُ ١/٢٠٤-٢٠٥»

(٨) انْظُرْ: الْإِكْلِيلُ ٢/١٠٧.

والقَفَاعَةُ مَخْلَافٌ واسعٌ يُسْتَخْرَجُ منه الذَّهَبُ، ويسكنه بطن الأُجْدُود من خولان^(١) وهذا ما أكدته علماء البلدان^(٢) بخلاف ما ذهب إليه ابن الكلبي الذي يجعل القَفَاعَةَ من قبائل ذي الكَلَّاع الحميريّ قائلًا: «وقبائل ذي الكَلَّاع: نَجْلَان والأَشْرُوع وعزِيَّة وعُنَّة ويُكَّالْم وبَكِيل، وبَهِيل، وزُلْجَع والقَفَاعَةُ وذو ساح، وزِيَّان، وعَرَوَّان، وبَعْدَان، الحَبَائِر...»^(٣). والقَفَاعَةُ هذه هي ذاتها التي ارتبطت بخولان رداع الكائنة في القَفَاعَةَ وفقاً لما يورده الهمدانيّ في سلسلة نسب ولد الهميسع بن حمير، ليتبين لنا اقتران أسماء الأعلام بالأمكنة، والنّاظر في مصنّفات البلدان يجد كثيراً من البلدان قد سُمِّيت بأسماء أعلام؛ لسكناهم فيها.

ونقف أيضاً على كيانِ خولانيّ آخر يحمل النسبة إلى رَدَاع التي يقول عنها الهمدانيّ: «خولان رداع، وهم بتهامة»^(٤)، التي كانت وطناً لبعض البطون والأفخاذ الخولانيّة على طول أودية زُبَيْد ورَمْع وما بينهما، وخصوصاً باتجاه الشّمال إلى سررد^(٥)، التي تَمَلَّكَ بها بنو حَيٍّ، وشادوا ملكاً عظيماً^(٦).

وقد أفصحت المصنّفات المتأخّرة عن عصر الهمدانيّ عن الوجود الخولانيّ في تلك الأصقاع^(٧) على أنّ ذلك الإفصاح لم يكن تاريخاً لبداية وجودهم بدليل ما حكاها الهمدانيّ في عصره عن بني حَيٍّ ابن خولان وإقامتهم ملكاً في جُبْلَان؛ مما يوحي بعمقٍ زمنيٍّ لوجودهم في ذلك الصّقع.

(١) انظر: صفة جزيرة العرب ٩٩، ١١٧، ١٣٠، ٢٥٠.

(٢) انظر: المسالك والممالك: ١٤١، البلدان لليعقوبي: ٣١٨، صفة جزيرة العرب: ٩٩، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ٩١.

(٣) النّسب الكبير ٥٤٩/٢.

(٤) الإكليل ٣٦٩/٢.

(٥) انظر: الإكليل: «المخطوط ٨٦/١، ٩٣، المطبوع ١/٣٦٥-٣٦٦، ٣٨٥» وصفة جزيرة العرب ١٢٥، ١٤٦، ٢٣٩، ٢٥٠، ٢٢٢، ٣٤٨.

(٦) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٢٢-٢٢٣، وفيها (جُبْلَان العُرْجُبَة) الذي يشمل منطقة (وَصَاب) بها فيها بلد (عُمْتَة)، انظر: رسم (جُبْلَان) في معجم أسماء مواضع خولان الذي ذيلت به الدراسة.

(٧) انظر: المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ١٨٦، البلدان البيانية عند ياقوت الحموي ١١٥. السلوك في طبقات العلماء والملوك ٢/٢٩٨، ٢٩٩، خولان الأرض والقبيلة ٤٧ وما بعدها.

ونجد بعض خولان مجتمع فيما تجمع منه الأوزاع الذي ينتمي إلى الهَمَيْسَع بن حمير، وهم في اليمن في ناحية ذَمَار المَخْدَر حيث التقت بطون مُقَرَّى، وعَنَس، وَحَمِير، وَأَلْهَان، وَخَوْلَان، وَالتَّوَحَم بن وائل^(١). وتتداخل ذَمَار المَخْدَر في بعض أجزائها مع مخلاف رداع الذي يسكنه خَلِيطٌ قَبْلِيٌّ تُشَكِّلُ خولان جزءاً كبيراً منه^(٢). ويلاحظ لدى الهمداني انتساب بعض خولان أيضاً إلى مالك بن زيد بن سدد بن زُرْعَة بن سبأ الأصغر - وهو حمير الأصغر - الذي يعدّه الأبرهي الأوزاع ذاته الذي سبق الحديث عنه آنفاً.

إنَّه لمن الصَّعب على ذي الجَهْد أن يتبيَّن حقيقة الخلاف الواقع في سلاسل نسبِ خَوْلَان، ولا سيَّما حين لا يوجد دليلٌ دامغٌ على نسبتها إلى مالك بن زيد بن سدد بن زُرْعَة، سوى الهمداني ذاته الذي سمع هذا النسب من الخولانيِّين أنفسهم دون أن يبيِّنوا سبب هذا الانتساب إلى مالك بن زيد بن سدد بن زُرْعَة^(٣). وهنا ننبِّه على أمرٍ مهمٍّ وهو أنَّه لا علاقة لمالك بن زيد بن سدد بن زُرْعَة بالأوزاع، إلا فيما ينصُّ عليه الهمدانيُّ من أن الأبرهي - وهو أحد علماء النسب - يُعَدُّ مالك بن زيد هو الأوزاع، وهو رأيٌ يرفضه الهمدانيُّ نفسه الذي نفى علاقة مالك بالأوزاع، وجعلها في ابن أخيه (يزيد) من دون أن يأتي على ذكرِ لخولان البتَّة^(٤).

ومن النَّسابة من يجعل خولان في نسل عمرو بن مالك بن سهل بن زيد، وهو نسب سمعه الهمدانيُّ من أبي نصر الحَنْبَصِيَّ اليهري^(٥) وهو أحدُ ورثة السَّجَلِّ القديم، من دون أن يحدّد لنا أدنى علاقة بالأوزاع، الكائنة في رَدَاع مَعْقِل خولان، يضاف إلى هذا أنَّ الهمدانيُّ ذاته يسوق نسب خولان بن مالك بن سَهْل بن زيد دون أن يدرجه في الأَوْزَاع^(٦).

(١) الإكليل ٢/٢٣٣-٢٣٥ وجاء فيه أيضاً: «ولهم على ما يذكر بدمشق، أو ببعض الشَّام مدينة تسمى الأوزاع».

(٢) انظر: صفة جزيرة العرب ٧٩-٨٠، ٢٢٤-٢٢٥.

(٣) انظر: الإكليل ٢/١٦٥.

(٤) انظر: الإكليل ٢/١٦٥.

(٥) انظر: الإكليل ٢/١٦٦.

(٦) انظر: الإكليل ٢/١٦٦، ٣٣٥.

في حين لا نجده يكرّر نسب خَوْلَان بن ذي أَصْبَح^(١) الذي ينتمي إلى الأَصَابِح الذين كانوا ملوكاً في تِهَامَة ممثلين بالقَيْل أَبْرَهَة بن الصَّبَّاح^(٢). وتتكشّف العلاقة وتتوضّح بين خولان وحمير بالرسالة التي بعثها النبي محمد ﷺ في مطلع القرن الأول الهجريّ إلى معدي كرب بن أَبْرَهَة بن الصَّبَّاح^(٣) «بأنّ له ما أسلم عليه من أرض خَوْلَان»^(٤).

ليتبيّن لنا دخول خولان في إحدى بطون حمير، ورئاسة الأخيرة لها، حتّى إن بطناً من بني الصَّبَّاح كان يقيم في جَبَلان التي افترشها بعض خولان أرضاً له^(٥).

واتكّاء على ما سلف يمكن القول في دعة وطمأنينة: إنّ خَوْلَان رَدَاع المستقرّة في تِهَامَة، وخولان الدّاخل في الأَوْرَاع، مرتبطتان بنسب واحد، خاصّ بولد الهَمَيْسَع بن حَمِير.

ويذكر ابن خُرْداذبَه مخلاف خولان في ظَهْر صَنْعَاء^(٦) الذي يتداخل مع حَضُور بالأودية التي تصل بين الصّقعين، ولعلّ إلحاق خولان بنسب المقدم بن حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سَدَد ابن زُرْعَة، عائدٌ إلى ذلك الموضع الذي تُسمّى ذروته بيت خَوْلَان^(٧).

(١) انظر: الإكليل ١٦٦/٢.

(٢) انظر: الإكليل ١٥١-١٦٣ والنسب الكبير ٥٤٢-٥٤٣، العقد الفريد ٣/٣٧٠.

(٣) انظر: الإكليل ١٥٥/٢.

(٤) مجموعة الوثائق السياسيّة في العهد النبويّ والخلافة الرّاشدة: ١١٩.

(٥) انظر: الإكليل ١٦٠/٢.

(٦) المسالك والممالك ١٤٢.

(٧) انظر: الإكليل ٢/٢٦٠، وحَضُور بفتح أوله وبالراء المهملة على زنة (فَعُول): موضع باليمن، أو جبل شامخ في بني مَطَر غربي صنعاء، سُمّي بحضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زُرْعَة بن حمير بن سبأ الأصغر، وهو المعروف بجبل شُعَيْب بن ذي مَهْدَم النَّبِيِّ، وليس بشُعَيْب موسى، بعثه الله إلى أهل حَضُور، فقتلوه، فسلب الله عليهم بُخْت نَصْر، وهو الذي ذكره الله في محكم تنزيله: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ إلى قوله: ﴿حَصِيدًا خَمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٢-١٥]. وهو من الجبال المقدّسة في اليمن، ويقول البكريّ في معجمه: «كُنَّ رسول الله ﷺ في ثَوْبَيْنِ حَضُورِيَيْنِ ويروى سَحُولِيَيْنِ.... وهو جبل كثير البركة»، وجاء عن عائشة رضي الله عنها قولها: «كُنَّ رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَّة، من كُرْسَفٍ ليس فيها قميص ولا عمامة» صحيح مسلم (برقم ٢١٧٩). وقال السُّهَيْلِيُّ: لما قصد بُخْت نَصْر بلاد العرب ودَوَّخَهَا وخرّب المعمور، استأصل أهل حضوراء، هكذا رواها بالألف. معجم ما استعجم ٢/٤٥٥، معجم البلدان ٢/٢٧٢، ونحوه في نشر المحاسن البيهقيّة ٩٩، معجم البلدان والقبائل البيهقيّة ١/٤٧٩.

أما عن مجيء خولان في نسب سخيم بن يداع بن ذي حَوْلان بن عمرو بن مالك بن سهل^(١) برواية يتيمة لأبي نصر الحَنْبِصِيِّ اليهريّ، فيأتي في موضع آخر هو ذاته خولان بن عمرو بن مالك ابن سهل، بإعجام الحاء في (خولان) من دون أن تسبقه (ذي)^(٢)، ولعلّ هذا عائداً إلى علاقة خولان صعدة بالسّخيمين التي تميّط اللّثام عنها بعض النّقوش المسنّدية القديمة^(٣).

ولا بدّ من التّنويه بأمرٍ مهمّ ههنا، وهو أنّ نفراً من بني الصّبّاح من نسل الهَمَيْسَعِ بنِ حَمِيرٍ كانوا يسكنون صنعاء، وليس فيها من العرب غيرُهم، وغير آل كُثَيّر بن شهاب بن عبد الملك بن رَدّاع الخولانيّ^(٤)، وذلك وفق خولانيّتهم المشار إليها عند الهمدانيّ إذ ينتسبون إلى أب، اختلّف في أرومته التي انحدر منها، إلا أنّه لا ذبّل بني خولان واحتبى بفنائهم، فعُدّ منهم بطنٌ من بطونهم المشار إليها بالبنان في الأيام والوقعات^(٥).

واتكّاء على ما تقدّم يمكن القول: إن انتساب خولان إلى غير بطنٍ وغير جذمٍ في اليانّة عائداً إلى نزول ذلك البطن الخولانيّ في جِباء الذين ألحقوا في أرومتهم وأصلهم، وإن لم يكونوا قد اتّصلوا بتلك الأرومة صليبةً، وهذا ما حصل لبني شهاب بن العاقل بن ربيعة بن وهب الكِنديّ الذين ألحقوا ببني خولان؛ لنزولهم عليهم في صقعهم، ومجاورتهم لهم، ومشاركتهم في حياتهم حلوها ومُمرّها.

(١) انظر: الإكليل ٢/ ٣٣٥، ٣٥٤.

(٢) انظر: الإكليل ٢/ ١٦٦. ولم أجد ما يسوّغ هذا الاختلاف بين الإعجام وعدمه وإضافة (ذي) في النسب الأوّل وعدمه في الثاني إلّا التّصحيح.

(٣) انظر: خولان الأرض والقبيلة: ٥٥.

(٤) انظر: النسب الكبير ١/ ٢١٦ وفيه «شهاب بن عبد الله بن عبد الملك بن غَيْلان» وانظر: الجزء الثاني منه ٢/ ٥٤٣، والإكليل: «المخطوط ١/ ١٤٠-١٤١، المطبوع ١/ ٥٢٥-٥٢٨».

(٥) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/ ١١٩، المطبوع ١/ ٤٥٥».

أمّا عن نسب خولان في قضاة فهو خولان بن عمرو بن إلخاف بن قضاة^(١) التي يذكر الهمداني أنّه وقف على أنسابها ومَشَجَرَة بطونها - وهو الذي انتهت إليه مصنّفات الأنساب بكليّتها = يقول: «قد ذكرنا قبائل قضاة ذكراً مجملًا؛ لشهرتها عند الناس، ووقوف العامّة عليها، واستعمالهم لها، وعمران قلوبهم بها وأسماعهم سوى خولان، فإنّنا رأينا أن نُشَبِّع القول فيها؛ لتلحق في التَّشْجِيرِ والتَّعْرِيفِ بباقي إخوانها من قضاة، ونحرص أن نأتي من ذلك مما يعرفه أهل نجد، وبعض أهل الحجاز، وكافة أهل اليمن ونجران، ومن يبلغه رحلتهم ويبلغهم رحلته، ولو كانت صعبة في القديم من البلدان التي رحل إليها أصحاب الحديث، لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء، فهذه الآن بطونها على ما روى خولان وحير بصعدة، وقد سكنتُ بها عشرين سنة، فأطللتُ على أخبار خولان وأنسابها ورجالها كما أطللت على بطن راحتي، وقرأتُ بها سجلَّ محمّد بن أبان الخنفرى، المتوارث من الجاهليّة، فمن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب، ومنها ما دخل في كتاب الأيام^(٢). وسوف أسوق بعض الأدلة والأخبار التي تؤكد انتساب خولان في قضاة وانتمائها لأرومتها: فمن أولى هذه الأدلة أن نقشاً مُسَنَدِيّاً قديماً اكتُشِفَ في منطقة جبل اللّوذ ينصّ على ذكر لخولان العالية (الطيّال) تحت مُسمّى «خولان أقظوعم» بالظاء وليس بالضاد مع ما هو جائز من الإبدال اللّغويّ

(١) انظر: النسب الكبير ٢/٧٠٠، مختصر جهرة النسب ٢/١٨٤، السيرة النبويّة ١/٧٨، الإكليل: «المخطوط ١/٥٧، ٦٠، المطبوع ١/٢٦٣-٢٦٤، ٢٧٤، ٢٧٥» صفة جزيرة العرب ٢٣٩، المؤلف والمختلف للدارقطنيّ ١/٣٢٣، التعليقات والتّوادر ٤/١٧٧٤، معجم ما استعجم ١/٥١ الأنساب للسّمعانيّ ٥/٢١١، شمس العلوم ٣/١٩٥١، الرّوض الأنف ١/١٠٤، معجم البلدان ٢/٤٠٧، ٥/٦٩، اللّباب في تهذيب الأنساب ١/٣٩٥، التّعريف بالأنساب والتّنويه لذوي الأحساب ٣١٥، ٣١٩، ٣٢٩، طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ١٣-١٤، قرّة العيون بأخبار البلد الميمون ٢١٦، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب ١/٣٠٢، تاريخ دمشق ٢١/٣٦٣، تاج العروس (رزح، خول)، الأعلام ٢/٣٢٥، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١/٣٦٨، المستدرّك على أنساب الأشراف ١٦/٢٦٥-٢٦٦، الأصول اليمينيّة في القبائل العربيّة ورجالها: ١٢٩، يضاف إلى ما سلف أن الدكتور مقبل الأحمديّ -الذي وقف على مدوّنة النقوش الحميريّة والسبئية Corrsinscriptionum وكانت واحدة من مصادره في دراسته لشعراء حمير الذين جمع شعرهم في سفرين ضخمين-، أفادني بأنّه قرأ فيها أن خولان ينتسب إلى عمرو بن إلخاف بن قضاة.

(٢) الإكليل: «المخطوط ١/٦٠، المطبوع ١/٢٧٤-٢٧٥».

بين الحرفين، وأَقْطَوْعُهم، صيغة جمع يمانية قديمة زنة «أفعول» من النسبة إلى «قضاة» أي قضاة في المصادر العربية والإسلامية^(١).

ومن الأخبار التي تؤيد انتساب خولان إلى قضاة، الحرب التي نشبت بين أولاد معد بن عدنان في تهامة؛ بسبب قتل حزيمة بن نهد القُضاعي ليدكر بن عنزة أحد بني ربيعة بن نزار بن معد في خبر لهم. فكانت تلك أول حرب وقعت بين بني معد، فقهرت قضاة، وأجلوا عن منازلهم فسارت بلي وبهراء وخولان، ومهرة بن حيدان ومن لحق بهم إلى بلاد اليمن، فوغلوا فيها حتى نزلوا مأرب، أرض سبأ بعد افتراق الأزدي منها^(٢).

ثم نزلت خولان بعد ذلك لخلافها الذي سُمي باسمها، إثر حرب دارت رحاها بين أخواتها بلي وبهراء^(٣)، ولعل في هذا الخبر ما يدل على أن خولان قضاة رحلت إلى اليمن بسبب ما ذكرناه من أمر الحرب السالفة.

ومن الأخبار أيضاً - ما يؤيد ما يذهب إليه الباحث - أن عمرو بن زيد - مغرق الأكبر - الخولاني، كان قائد جموع قضاة اليمن يوم هزمت قبائل ربيعة بن نزار وأخرجتها عن تهامة في الجاهلية^(٤). هو الذي شارك في يوم خزازی أيضاً، وفي هذا يقول علماء خولان: «كان عمرو بن زيد شهد يوم خزازی»^(٥) في قضاة، فحسن أثره في بني شيبان، ونال منها، وأسر يومئذ عمرو بن زيد بغيض بن عنز بن أسود بن أسلم، فمن عليه بنفسه، وفيه يقول الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان:

تَدِينُ لَهُ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ كَمَا دَانَتْ قُضَاعَةُ لابن زَيْدٍ

(١) انظر: خولان الأرض والقبيلة: ٧٨، واللغة اليمنية القديمة ٨٠.

(٢) انظر: معجم ما استعجم (المقدمة): ١٧-٢٧، ونحو هذا في معجم البلدان ١١٤/٢، ٣٧/٥.

(٣) انظر: المصدر نفسه (المقدمة) ٢٧.

(٤) انظر: الإكليل «المخطوط ٦٧/١، المطبوع ٢٩٩/١».

(٥) خزازی: وخزاز: لغة أيضاً: جبل كانت العرب تُوقد عليه غداة الغارة. اللسان (خزز) وانظر خبر هذا اليوم: في مبحث علاقات خولان مع القبائل اليمنية؛ ففيه أفاض الباحث ما يكشف خبر هذا اليوم.

وأراد بـابن زيد؛ عمرو بن زيد - مغرق الأكبر - الخولاني. وقال عمرو بن زيد يوم خزازي:

كَانَتْ لَنَا بِخَزَازِيْ وَفَعَّةٌ عَجَبٌ لَمَّا التَقَيْنَا وَحَادِي الْمَوْتِ يُحْدِيهَا^(١)

وهو الذي قاد يوم الحنو، يوم قُتِلَ فيه عَتَّابُ جَدُّ عمرو بن كلثوم التَّغْلَبِيِّ، وقُتِلَ معه حاطب بن حِلْزَةَ اليشكري، سَيِّدُ بكر بن وائل^(٢).

ومن تلك الأخبار أيضاً ما قام به حُجْر بن سعد بن عمرو بن زيد - مغرق الأكبر في صدر الإسلام من حرب مَذْحِج، حينئذٍ أجمعت قضاة على قيادته لها، وهو الذي قُتِلَ بحرب هَوَازِنِ وسُلَيْم، وفيه يقول العَبَّاسُ بنُ مِرْدَاس السُّلَمِيِّ:

وَاسْأَلُوا سَيِّدَ الْفَرِيقَيْنِ حُجْرًا يَوْمَ سَارَتْ جُحُوعُنَا بِاحْتِفَالِ^(٣)

مَنْ رَمَاهُ عَلَى الْفُؤَادِ بِسَهْمٍ فَتَقَتْ عَنْهُ مُحْكَمُ السَّرْبَالِ^(٤)

ومما يُسْتَأْنَسُ به من الأخبار التي تدلُّ على قضاة خولان أيضاً، زعامة عمرو بن حجر بن سعد الخولاني لقضاة اليمن في عهد الدولة الإسلامية، وفيه يقول الهمداني: «وهو الذي قام برئاسة أبيه [الذي كان سيِّداً من قبله] واثقادت له قضاة اليمن بالطاعة، وكان سيِّداً...»^(٥).

ومنها أيضاً حرب خولان التي ذكرها عَقِيلُ بنُ مَسْعُودِ الكَلْبِيِّ بقوله:

مَعَاوِيَ إِنِّي قَدْ ذَهَبْتُ بِوَسْمَةٍ مِنْ بَنِكَ فِي وَجْهِي وَلَيْسَ نَعِيبُ^(٦)

فَإِنْ غَابَ يَوْمًا كُنْتَ أَنْتَ مَكَانَهُ وَسَوْفَ تَرَانِي يَوْمَ ذَاكَ أَلُوبُ^(٧)

(١) الإكليل: «المخطوط ١/ ٦٧-٦٨، المطبوع ١/ ٣٠١» وفيه «يومئذ عمرو بن يزيد، بغيض بن عنز...» تصحيف.

(٢) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/ ٦٧، المطبوع ١/ ٣٠٠».

(٣) احتفال: يريد جموعاً كثيرة محتشدة.

(٤) ديوان العباس بن مرداس السُّلَمِيِّ ١٣٤، والإكليل: «المخطوط ١/ ٦٩، المطبوع ١/ ٣٠٧».

(٥) المصدر نفسه: «المخطوط ١/ ٦٩، المطبوع ١/ ٣٠٩».

(٦) الوَسْمَةُ: الواحدة من الوَسْمِ؛ وقد وَسَمَهُ وِسْماً وِسْمَةً إذا أَثَرَ فيه بِسْمَةٍ وكَيَّ كما تُوسَمُ الإبلُ.

(٧) لَاب يَلُوب: حام حول الماء من العطش على التَّشْبِيهِ، أي عطش إلى دم عَدُوِّهِ.

وهي حربٌ كانت في الجاهلية بين مَنْ كان باليمن من خَوْلَانٍ ونَهْدٍ وجَرَمٍ وكَلْبٍ - وكلُّها من قضاة - وبين هَمْدَانَ، وفيها طُعِنَ عَقِيلُ بْنُ مَسْعُودٍ سَيِّدُ قضاة، وخُرِمَ أَنْفُهُ، وقُتِلَ فيها ابنه مسعود ابن عَقِيلٍ، فَقَتَلَ الرَّبِيعُ بْنُ عَقِيلٍ به عَمَرُو بْنُ مَالِكِ بْنِ مَلَاكَةَ بْنِ أَرْحَبِ بْنِ الدَّعَامِ الْأَصْغَرَ الهَمْدَانِيَّ^(١).

وقريب ممَّا سقناه من أمر الحرب السَّالفة، ما ذكره الهمدانيُّ أيضاً في الحرب التي دارت رحاها بين مَنْ كان باليمن من قضاة وبطون قَيْسِ عَيْلَانَ، بادئاً بتفسير بيت للعبَّاس بن مِرْدَاس القائل فيه:

«وَأَنْ أَدْعُ يَوْمًا فِي قُضَاةٍ تَأْتِنِي شَايِبُ بَحْرِ ذِي غَوَارِبِ مُزْبِدٍ

[فقال] «وإنَّما معنى قول عبَّاس: وإنَّ أَدْعُ يَوْمًا في قضاة، يريد استنجادهم بهم لمحلاهم من بهراء وجهينة، إذ الدار بالدار، وإنَّ زبيداً لا يغشاهم من تثليث إلا بتَّبَع، فلا تسمَحُ جهينة ولا بهراءُ بوطء بلد لهم أكثره ولُسْلِيمٌ أَقْلُهُ، كما لم تسمَحْ خَوْلَانٌ ونَهْدٌ وجَرَمٌ، وهم مقابلون لزبيد بالْمُنْشَرِ مقابلة الحرب - بأن تطأ - هوازن وسُلَيْمٍ ديار زبيد، وقد أتت الجميع النَّذيرةُ، ساعتئذٍ وهم على أشدِّ ما كانوا من القتال، فاختلطت خولان ونهد وجرم بمذحج في موقفهم ذلك، وسار الجميع في لقاء هَوازِنَ وبني سُلَيْمٍ، ومنها وقعت الحرب بين قُضاة اليمن وبين بطون قَيْسٍ»^(٢).

ومنها أيضاً قاله المثلَّم بن قُرْطِ البُلُوِّي في أُخُوَّةِ خولان وبليٍّ وبهراء يوم نزلوا مأرب - أرض سبأ - بعد خروج الأزد منها، يقول:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْحَيَّ كَانُوا بِغِبْطَةٍ بِمَأْرَبٍ إِذْ كَانُوا يَحْلُونَهَا مَعَا
بَلِيٍّ وَبِهْرَاءٍ وَخَوْلَانُ إِخْوَةٌ لِعَمْرُو بْنِ حَافٍ، فَرَعَ مَنْ قَدْ تَفَرَّعَا

(١) انظر: الإكليل ١٢٤-١٠: ١٢٥ و ١٤٣-١٤٠ و ١٦٠-١٦٤، وعنه في ديوان شعراء بني كلب بن وبرة ١/ ١٣٥، ١٣٧.

(٢) الإكليل: «المخطوط ١/ ٥٥-٥٦، المطبوع ١/ ٢٤٩-٢٥٠» وفيه: «...بهم لجلاهم.... إلا بتبع.... كما تسمَحْ خولان ونهد وجرم... بل إن إسقاط (لم) قبل الفعل تسمَحْ يغيِّر معنى الجملة كليةً. وأسقطها المحقِّق سهواً وجاء في المخطوط «تسمَحْ جهينة ولا بهراء...» أسقط الناسخ «لا» بدليل وجودها «لا بهراء» إذ إنَّ السِّياق يدلُّ على سقوطِ في الأصل.

أقام بها خولان بعد ابن أمه فأتري لعمري في البلاد وأوسعاً^(١)

وكان ذلك في العصر الأموي في زمن معاوية بن أبي سفيان^(٢)، مما يدل على أن الخولانيين قد انتسبوا إلى قضاة مذكور كان لهم وجود لأول مرة، ولم ينتسبوا إلى غير قضاة؛ لأسباب سياسية دعته إلى الانتفاء من أرومتهم، أو غيرها من الأسباب التي نجدها عند غيرهم^(٣).

والرأي الذي يميل إليه الباحث هو أن القوم قضاعيون؛ لأن الأدلة بينت أنهم كانوا كذلك منذ قديم الجاهلية، ولأن انتساب من انتسب منهم إلى بطون حمير أو إلى غيرها من كهلان، لم يكن إلا بداعي السكن في أصقاع تلك البطون، ومشاركة الخولانيين لهم الأرض، مما أدى إلى إلحاق بعض هؤلاء الخولانيين بنسب غيرها على جوارهم لها من دون أن ينتسبوا إليها صليبةً.

أما وقد عول التعويل كله على ما جاء به الهمداني من أنساب خولان، فلا بد من التنبيه على أشهر مصادره، وفقاً لما ذكره في تأليفه، ومنها السجلات والزبر القديمة المتوارثة من الجاهلية في اليمن، كسجل محمد بن أبان الخنفرى الذي ينتهي نسبه إلى أيمن بن الهَمَيْسَع بن حمير^(٤). وقد توارث في آل أبان وخولان وحمير، وصعدة، واعتوره نساب اليمن وعلمائها، وفيهم أبو نصر الحنبسى الیهري، وابن رَقْطَةَ الصَّعْدِي - بحسب ما تدل عليه مادة هذا السجل - حتى انتهى إلى الهمداني فوقف عليه في أوائل القرن الرابع الهجري حينما سكن بصعدة عشرين عاماً، يقول في ذلك: «وقد سكنت بها

(١) النسب الكبير ٢١٧/١، والإكليل: «المخطوط ٤٩/١، المطبوع ٢١٣/١٤» وفيه ابن الأرقم، ومعجم ما استعجم (المقدمة)

٢٧٢، ومعجم البلدان ٣٧/٥ ومتنخبات في أخبار اليمن: ٩.

(٢) انظر: النسب الكبير ٢١٧/١.

(٣) انظر: مبحث الخلاف في نسب قضاة الذي أسهب فيه د. محمد شفيق البيطار وبسط القول، ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٣١-١٢.

(٤) انظر: الإكليل ١٢٢/٢-١٤٦، وعنه في شعراء حمير (الدراسة) ١٣٧، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٩٥/١، وعنه في (السجلات والزبر المتوارثة من الجاهلية في اليمن) وهو بحث نُشِرَ في مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٨٢ - الجزء الثاني ٢٠٠٧م. الصفحات ٣٠١-٣٢٦.

عشرين سنة، فأطللت على أخبار خولان وأنسابها ورجالها، كما أطللت على بطن راحتي، وقرأت بها سجلَّ محمد بن أبان الخنفرى المتوارث من الجاهليَّة»^(١).

أخذ الهمداني عن هذا السَّجلِّ أشياء عديدة في النسب، فكان ينصُّ تارةً على أخذه عن سجلِّ محمد ابن أبان، ويكتفي تارةً أخرى بالإلماح إليه، بقوله: السَّجلُّ الأوَّل أو السَّجلُّ القديم - ومما وقف عليه الهمداني من مادة هذا السَّجلِّ مُتعلِّقاً بولد خولان قوله: «ومما أتى به من نسب خولان عن آل أبان قالوا: أولد خولان: حي بن خولان، وإليه اللِّواء، وهو الأكبر، وسعد بن خولان، وهو الذي تملك بصرواح، ورشوان بن خولان، وهو صاحب العرَّة، وهاني بن خولان، وهو صاحب المتهمين»^(٢)، ورزح بن خولان، وهو صاحب دفا^(٣)، وهو الأصغر، فأولد حي بن خولان سبعة نفر: عدياً ومرثداً وغنماً وعمراً وشعباً وأنوفاً ومنصوراً.

وأولد سعد بن خولان ثلاثة نفر: ربيعة بن سعد، وسعد بن سعد، وعمرو بن سعد، فدرج عمرو، وأولد رشوان بن خولان ستة نفر: حرباً وسعداً وعمراً وخولياً وثابهاً ومُنْبِهاً، وأولد هاني بن خولان - مهموز - عشرة نفر: مرثداً وعُوَيْضاً ويعلى وأتأم وبزياً وجداداً ويغنم وعمراً ونديداً وجريراً، أنسلوا ولم يدرج منهم أحد. وأولد الأزعم عشرة نفر، كلُّهم أعقب وهم مُرَّان والكرب والأسووق وخضيي وعبد الله ويعلى وثابت وعمرو وعمير والنَّاسك، وبعض النُّساب يقول: شهاب بن الأزعم، وأولد ضحار بن خولان سبعة نفر: حاذراً وبشراً وشبلاً وطارقاً وعامراً وعمراً وعبدًا، هذا نسب خولان عن حمير صعدة^(٤) أمَّا السَّجلُّ الآخر المنسوب فيسجلُّ خولان القديم بصعدة الذي توارثه خلق عظيم من حمير وكهلان وخولان، وصرح الهمداني في إكليله بوقوفه عليه ونظره فيه^(٥). ونصَّ على أخذه عن أناس كانوا من ورثة هذا السَّجلِّ من أهل صعدة وفي ذلك يقول:

(١) الإكليل: (المخطوط ١/ ٦٠، المطبوع: ١/ ٢٧٥).

(٢) المُتَّهَمِينَ: كذا رسمها في الأصل، ولم أتبيِّن ما هي، ولعلَّها اسم موضع بدلالة السياق.

(٣) دفا: حصن مشهور باليمن لخولان، انظر: صفة جزيرة العرب ٢٦٦.

(٤) الإكليل: «المخطوط ١/ ١١٣-١١٤، المطبوع ١/ ٤٤٦-٤٤٧»

(٥) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/ ٥، ٥٧، والمطبوع ١/ ٨٩، ٢٥٦».

«قال ابنُ رِقْطَةَ الصَّعْدِيِّ، وهو من بعض ورثة السَّجَلِّ: إِنَّ من قبله رَوَوْا عن يزيدَ بن عبد الرحمن عن عبد الملك بن يَغْنَمَ بن سلمة بن مالك بن عُمَيْرَ بن اللَّيْث بن مالك بن أسد بن غنم بن حيَّ بن خولان بن عمرو بن إلحاف، أَنَّ خولان أولد: حَيَّ بن خولان، وسعد بن خولان، والأزْمَع ابن خولان، وصُحَّار بن خولان، وهَانِي بن خولان، ورَازِح بن خولان، ورَشُوان بن خولان...»^(١).

ونلاحظ في كلتا الروايتين توافقاً في عدد الأولاد الذين مثل كلَّ منهم بطناً قائماً بذاته، بل قبيلة تحدرت منها أفخاذٌ وشعوبٌ عُرِفَتْ في الصَّقْع اليَمَانِي قاطبةً، حتَّى صارت تدلُّ هي ذاتها على القبيلة الأمَّ عند إطلاق الاسم؛ لكثرة أفرادها، وشهرة رجالاتها، ونباهة شعرائها مثل بني عَوْفٍ، وبني حَيٍّ وبني رَازِح... إلخ.

وتجدد بنا ههنا الإشارة إلى بني شهاب بن العاقل كبطنٍ كان في عداد بطون خولان أنَّهُم دخلوا في قبيلة خولان، وصارت أخبارهم جزءاً من أخبار القبيلة، أو أنَّهُم كانوا أحلافاً لآل الرِّبِيعَة بن سعد بن خولان^(٢). في حين أنَّ ياقوتاً الحمويَّ ينسب شهاب بن العاقل إلى خولان تارة، وأخرى إلى كندة يقول: «... هم بنو شهاب بن خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاة، وقيل: شهاب بن الأزْمَع بن خولان، وقال ابن الحائك: بنو شهاب من كندة، وقيل: شهاب بن العاقل بن هانئ - مهموز - بن خولان»^(٣). هذا عن المصادر المنسوبة، أمَّا المصادر غير المنسوبة، ويُراد بها السَّجَلَّات^(٤) التي استقى الهمدانيُّ منها كثيراً من مادّته التي لم يصرِّح بنسبتها، فأغفلها، ولعلَّها كانت بعضاً من السَّجَلَّات المنسوبة، من ذلك ما ساقه حين ذكر كلام ابن الكلبي في ولد قحطان قال: «وقال الهيثم بن عدي ويَعْفُرُ بن قَحْطَان، فأولد يَعْفُرُ المعافر، والثَّبْتُ ما ذكرنا عن أهل السَّجَلِّ أَنَّهُ المَعَاْفِرُ الأكبرُ بن يَعْفِرِ بن مالك بن الحارث بن مُرَّة بن أدَد»^(٥) وثمة زُبُرٌ أخذ منها الهمدانيُّ جزءاً من مادته، منها القبورِيَّة التي

(١) الإكليل: «المخطوط ١/١١٧، المطبوع ١/٤٥٢».

(٢) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٥٠.

(٣) معجم البلدان ٥/٧٠.

(٤) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٩٣/١، السَّجَلَّات والزُّبُر المتوارثة من الجاهليَّة في اليمن: ٣١٢.

(٥) الإكليل: «المخطوط ١/٤٣، المطبوع ١/١٩٢».

كتبت على القبور أو في صَفَاحِ الحِجَارَةِ أو الألواح^(١)، إمَّا نقلًا عن المصنِّفات وإمَّا مشاهدَةً، ومنها غير قبوريَّة، كزُبُرِ حَمِيرِ القَدِيمَةِ ومساندها الدَّهْرِيَّة^(٢) وزُبُرِ هَمْدَانَ^(٣)، وزُبُرِ اللَّعَوِيِّينَ^(٤)، وزُبُرٍ غير منسوبة^(٥). وقد أنكر د. جواد علي جاهليَّةَ هذه السَّجَلَّاتِ حينما دُوِّنَ التَّارِيخُ الجَاهِلِيُّ بقوله: «ولا أَسْتَبْعِدُ أَنْ يَكُونَ هَذَا السَّجَلُّ قَدْ وُضِعَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، حِينَما شُرِعَ فِي أَيَّامِ (عمر) بِتَسْجِيلِ النَّسَبِ فِي دِيْوَانٍ، فَدُوِّنَتْ عِنْدَيْهِ أَنْسَابُ الْقَبَائِلِ، وَرُجِعَ فِي ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَ مُتَعَارَفًا عَلَيْهِ مِنَ النَّسَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْمَلَاصِقَةِ لِلْإِسْلَامِ، وَفِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ اكْتَمَلَ عَلَى مُرُورِ الْأَيَّامِ، وَلِذَلِكَ تَعَدَّدَتْ الْأَيْدِي فِي كِتَابَتِهِ...»^(٦).

ولعلَّه أراد بالسَّجَلِّ، سَجَلَ مُحَمَّدِ بْنِ أَبَانَ الْخَنْفَرِيِّ، وَلَعَلَّ فِيهِمَا كَتَبَهُ د. مَقْبَلُ الْأَحْمَدِيِّ عَنْ قِصَائِدِ جَاهِلِيَّةٍ تَعُودُ إِلَى الْقَرْنَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثِ الْمِيلَادِيَيْنِ عُثِرَ عَلَيْهَا فِي الْيَمَنِ مَا يَدْفَعُ الشَّكَّ عَنْ تِلْكَ الْأَشْعَارِ، وَيُزِيلُ الْعُبْرَةَ عَنْ تِلْكَ الْأَخْبَارِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْهَمْدَانِيُّ، وَلَيْسَ بَعْدَ هَذَا حُجَّةٌ لِأَحَدٍ فِي إِثَارَةِ الشُّكُوكِ وَالظُّنُونِ فِيهِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْهَمْدَانِيُّ فِي تَصَانِيفِهِ^(٧).

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَلْجَأُ د. جَوَادُ إِلَى تَمْرِيطِ الرِّوَايَةِ، وَإِلْحَاقِ الْحَيْفِ بِهَا، وَتَشْكِيكِه بِفَهْمِ أَبِي نَصْرِ الْحَنْبُصِيِّ، وَبِمَعْرِفَتِهِ الْخَطَّ الْمُسْنَدَ، وَفَكَ طَلَسَمَاتِهِ، وَتَحْصِيلَهُ أَخْبَارَ الْيَمَنِ الْقَدِيمِ وَأَنْسَابِ قَبَائِلِهِ - فِي حِينَ كَانَ يَثْنِي عَلَيْهِ الْهَمْدَانِيُّ، وَيَعُدُّهُ أَحَدَ مَصَادِرِهِ الْمَهْمَّةِ وَمَرَاجِعِهِ الْعَالِيَةِ - يَقُولُ د. جَوَادُ: «أَمَّا عِلْمُهُ بِالْمَسَانِدِ وَمَدَى وَقُوفِهِ عَلَيْهَا، فَأَنَا أَعْتَقِدُ أَنَّ عِلْمَهُ بِهَا لَا يَخْتَلِفُ عَنْ عِلْمِ غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ... وَدَلِيلِي عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْقَرَاءَاتِ الْمُنْسُوبَةَ إِلَيْهِمْ [أَيَّ قَرَاءَةِ الْخَطِّ الْحَمِيرِيِّ] هِيَ قَرَاءَاتٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ

(١) انظر: مختارات من النقوش اليمنية القديمة ١٧٦.

(٢) الإكليل: «المخطوط ١/ ٥، المطبوع ١/ ٨٩» وعنه في السَّجَلَّاتِ وَالزُّبُرِ: ٣١٦.

(٣) الإكليل ٢/ ٣٢-٣٣، وعنه في السَّجَلَّاتِ وَالزُّبُرِ: ٣١٨.

(٤) الإكليل ٢/ ٣٠٥ وعنه في السَّجَلَّاتِ وَالزُّبُرِ: ٣١٩.

(٥) الإكليل: «المخطوط ١/ ٤٣، المطبوع ١/ ١٩٢-١٩٤. وعنه في السَّجَلَّاتِ وَالزُّبُرِ: ٣٢٠.

(٦) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١/ ٩٣.

(٧) نشرت إحدى هذه القصائد بعنوان (ترنيمة الشمس) بصنعاء نشرة غير محققة ولا محررة، والأخرى قرأها العلامة مطهر الإرياني، وهي غير منشورة، ولكنها مصورة متعاورة بين الناس انظر: السَّجَلَّاتِ وَالزُّبُرِ: ٣٢٢.

تكون لنصوص جاهليّة، وإن تضمّنت بعض أسماء يمانيّة قديمة؛ لسبب بسيط، هو أنّ أساليبها ومعانيها ونسقها لا تتفق أبداً مع الأساليب والمعاني المألوفة في الكتابات الجاهليّة. فقرّاءات أبي نصر... هي قراءات إسلاميّة فيها زُهدٌ وتَصوُّفٌ وتوحيدٌ... أما نصوص المسند التي عثر عليها حتى الآن، فإنّها نصوص وثنيّة لا تعرف هذه المعاني، وأسلوبها في الكتابة لا يتفق مع ذلك الأسلوب^(١). ومردُّ هذا الرّأي لجواد علي إلى الولوج الأعمى بآراء المستشرقين وتبنيّه لها من دون أن يناقشها أو يفنّدها، إذ لا قبل لأحد بردّ مثل هذه المساند والروايات التي تفرد نفرٌ من العلماء بقراءتها مثل أبي نصر الحنبليّ وفكّ رموزها ولا سيّما تلك التي وُجِدَتْ على صفاح الحجارة، فسَلِمَتْ من العبث والأذى وعاشت ناطقة بلسان أصحابها.

أمّا ما ذكر من أمر نسب خولان والصّعوبات التي تجسّدت في تبين حقيقة نسب القبيلة وإلحاقها في قضاة، فسندفصل المُجمل من أنسابها، ونقف على أشهر بطونها وأفخاذها.

١ - بطون خولان:

إنّ من دواعي الفضل والخير أن أبقت لنا أكفّ الصّياغ وأياديه نسب خولان مدوّنات في الجزء الأوّل من الإكليل، الذي ضاع معظم أجزائه - يسّر الله وجودها - لمؤلفه الهمداني^(٢)، الذي أنفق دهرًا من حياته في تدوين نسب خولان وبتونها التي تفرّع عنها أفخاذ وعشائر كان منها حامل النسب والشّهرة، وصاحب التّباهة والاشتهار، وسأقف على ذكر الأخير ونبيذ من أخباره، وسأقدّم

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١/ ٩٦، وانظر: السّجّلات والزُّبر ٣٢٣، وتعليقة د. مقبل الأحدي على وهم د. جواد علي - رحمه الله - وقراءته الخاطئة لببيت شعريّ مما دعاه إلى بناء حكم ناقض فيه الروايات العربيّة السليمة.

(٢) انظر: مقدمة الإكليل ١/ ٤٧-٧٤: وقد قام الأستاذ محمد بن علي الأكوخ الحوالي - طيّب الله ثراه - بتحقيق الجزء الأوّل، لكنّ هذا التحقيق لم يُبرئ النصّ من علل التّصحيف والتّحريف والخطأ في الضبط وإفساد المعنى والشعر، وغير ذلك مما أسهم في إفساد الكتاب، ومن نقل عنه من الباحثين الذين وقعوا في هاتيك العلل، وقد أشرتُ إلى المواضع التي استطعت الوقوف على فساده في بطون خولان وأخبارها وأشعارها. والذي أميل إليه أنّ الأكوخ - رحمه الله - عمل في الإكليل وجهْد في إخراجِه إلى النَّاس، لكن في عَجالة لم تكن محمودّة الخواتيم، فكثيرة هي الأخطاء من مثل: كسر في الوزن، وخطأ في الضبط ولا سيّما أسماء الأعلام، والشّعراء والمواضع منهم.

الشَّعراء على غيرهم ثُمَّ النَّابِهين والمشهورين، يستوي في ذلك منهم أهل الجاهليَّة والإسلام والعصر الأمويّ، إذ إنّه: «من شرائط النَّسب ألا يُذكر من أولاد الرَّجل إلا النَّبيه الأشهر، ويُلغى الغبيّ، ولولا ذاك لم يَسع أنساب النَّاسِ سِجْلٌ، ولم يضبطها كاتب...، وعلى هذا مذهب النَّسَاب»^(١) وسأضرب صفحاً عن ذكر البطون التي نَدَرَ ذكرها؛ لقلَّة أخبارها وقلَّة اشتهاها، وخول رجالاتها. فذكرَ الهمدانيُّ أنَّ خولانَ ولد سبعة نفرٍ وهي:

حيّ بن خولان، وسعد بن خولان، ورشوان بن خولان، وهانئ بن خولان، ورازح بن خولان، والأزمع بن خولان، وصُحَّار بن خولان وهو أخ لحيّ الأكبر من أمه، وهذا البطنان متواصلان من بني خولان حتى عهد الهمدانيّ، وكلُّها أبطنٌ كبيرة، تفرَّعت عنها أفخاذٌ وعشائرٌ كثيرةٌ.. فولد حيّ - وهو الأكبر بين إخوته - سبعة أبناء: عديّ بن حيّ، بطنٌ منه خالد الحيوانيّ القائل من رائق شعره في الفخر:

نَحْنُ الذُّوَابَةُ مِنْ خَوْلَانَ قَدْ عَلِمْتُ غُلِيَا قِضَاعَةً أَنَا نَحْنُ نَحْمِيهَا

ومنه عمرة الحيوانيّة، شاعرة بني حيّ بن خولان، وزيد بن حيّ بطنٌ، وشعبٌ بن حيّ بطنٌ، ومَرثَد بن حيّ بطنٌ، وغنم بن حيّ بطنٌ، والمِقْدَام بن حيّ بطنٌ، ونوف بن حيّ بطنٌ، وسُمي في بعض الأحيان أنوف^(٢) وفي حيّ كان البيت من خولان والرئاسة^(٣)، ومن شعرائهم عوف بن يزيد بن عوف، وعمرو بن الحارث، وعمرو بن عوف، ومن رجالاتهم النابِهين المشهورين المِقْدَام

(١) الإكليل: ٣٣٦-٣٣٧/٢.

(٢) انظر: الإكليل: «المخطوط ٦٢/١، ١١٤، المطبوع ١/٢٨١-٢٨٥، ٤٤٦»، التعريف بالأنساب والتّنبؤ لذوي الأحساب: ٣١٩ وفيه: «مَرِيد» مُصَحَّفًا، وأسقط من بطون حيّ: زيد وشعب والمقدّم، وعَقَّب على ذلك بقوله: «وأكثر بني حيّ يَصِيدُ مُصَرَّ» تصحيف قبيح جدًّا، وانظر: المفصل ١/٣٦٨، وجاء عند نفرٍ من العلماء (الحيّاوي) بفتح الحاء المهملة والياء المثناة من تحتها وفي آخرها واو، وهذه التّسبة إلى (الحيا) وهو بطن من خولان، ينسب إليه السّمع بن مالك الخولانيّ الذي استشهد في الأندلس سنة ١٠٣هـ، اللّباب في تهذيب الأنساب ١/٣٣١، الأنساب للسّمعانيّ ٤/٢٨٤، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب ١/٢٦٥.

(٣) الإكليل: «المخطوط ٦١/١، المطبوع ١/٢٧٧».

والمُصْعَبُ ابنا زيد الحَيَوَانِيّ، وفي قتل المقدام افتרכת خولان^(١) إثر حرب ضروس نشبت بين السعديّين وبني حيّ الذين انتهى بهم المطاف في صعيد مصر بسبب رَجُلٍ من بني الحارث بن سعد بن خولان^(٢)، خطب إليهم إحدى كرائمهم، فأكبروا نفوسهم عليه، فدافعوه، فلما ألحّ عليهم، حَصَوْهُ، فغضبت في ذلك بنو سعد فحاربوهم مُدَّةً حتى أخرجوهم من صعدة إلى صعيد مصر^(٣). ومن رجالاتهم المشهورين المتأخرين من بني غنم بن حيّ: زَيْدُ بن سَلَمَةَ بن يَغْنَم بن مالك بن عُمَيْر بن اللَّيْث بن مالك بن أسد بن غنم بن حيّ بن خولان، النَّسَّابة الذي دوّن بعض أنساب اليمن، وكان أحد مصادر الهمداني^(٤). وقيل: إنَّ جُعَلِي بطنٌ: بضم الجيم وفتح العين المهملة - نسبة إلى بني جُعَلٍ المشهور بالانتساب إلى بني حيّ^(٥).

أما سعد بن خولان^(٦)، فولد: الربيعة^(٧) بطنٌ، وسعداً بطنٌ^(٨)، وعمراً درج، وفي الربيعة البيت والشرف والعدد^(٩)، فولد الربيعة بن سعد ستة نفرٍ كلّها بطون: سعد بن الربيعة، وكامل بن الربيعة، وفروذ بن الربيعة، زنة (طَرُود) إلا أنَّه بالذال، ويغنم بن الربيعة، ورشوان الأصغر بن الربيعة، وحجر بن الربيعة، وقال بعض خولان عن ابن يغنم الحَيَوَانِيّ: وداهكّة بن الربيعة بطنٌ كبيرٌ فيها.

-
- (١) الإكليل: «المخطوط ٦٣ / ١، المطبوع ٢٨٥ / ١».
- (٢) الإكليل: «المخطوط ٩٥ / ١، المطبوع ٣٩٢ / ١».
- (٣) الإكليل: «المخطوط ٦٣ / ١، المطبوع ٢٨٦ / ١» ومعجم ما استعجم ١ / ١٨٠.
- (٤) الإكليل: «المخطوط ٦٦ / ١، المطبوع ٢٩٦ / ١» والتعريف بالأنساب: ٣١٩.
- (٥) الأنساب للسمعاني ٣ / ٢٧٠، اللّباب في تهذيب الأنساب ١ / ٢٣١، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب ١ / ٢٠٧، الإكمال لابن ماكولا ١ / ١٤٩.
- (٦) الأنساب للسمعاني ٧ / ٨٢، اللّباب في تهذيب الأنساب ١ / ٥٤٣-٥٤٤، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب - دار صادر - ١٣٦، معجم البلدان ٣ / ٤٠٣.
- (٧) أكثر النَّاس يقولون الربيعة؛ ليفرّقوا بينها وبين ربيعة بن نزار، وربيعة بلحارث، وربيعة وادعة في همدان. انظر: الإكليل: «المخطوط ٦٦ / ١، المطبوع ٢٩٧ / ١».
- (٨) النسب الكبير ١ / ٢١٥ وفيه: «ولد سعدُ بنُ خولان: عبد الله، وربيعة، وسعداً، وعريساً، وغيلان».
- (٩) الإكليل: «المخطوط ٦٦ / ١، المطبوع ٢٩٧ / ١» والتعريف بالأنساب ٣٢٠ وفيه: «وله من الولد أربعة: ربيعة، وسعد، والحارث وعمرو وفلادح» وهم وتزيّد وتصحيف.

وأما حُجْر بن الرّبيعة، فولد أربعة أبناء، مالكا، وسعداً والهمّاس^(١) الذي انتشر وولده في تهامة قبل افتراق بني أسامة مع فرقة من بني عمهم منها فروذ بن الرّبيعة، وباقي فروذ بمصر، وولد شَرْحِبِيل أيضاً، الذي كان من صلبه: أَرْطاة الذي وَلَدَ: زيداً، فولد زيدٌ: بَرّاً، ومويلاً، وأُسامة الذي وَلَدَ الأَصْحَرَ ومنه أعرم بطنٌ، دخلوا في بني حَمْرَةَ^(٢)، وَلَدَ زيداً الذي كان منه أكبر بطنين في خولان هما: عوف ومالك، روقا الرّبيعة^(٣). فأما مالك فولد ستة أبناء: عمراً، وجريراً، وجابراً، وعَيْنِداً، وليثاً، وزيداً، أما الليث فكان منه سعدٌ شاعراً، وأما زيدٌ فولد عمرو بن زيد - وهو مغرق الأكبر - شاعرٌ وفارسٌ وواحدٌ من مَسَاعِيرِ الحربِ في اليمن، شَهِدَ خَزَازِي، وله يوم الحنو الذي قال عنه عمرو بن حجر المالكي مفتخراً بمجد آبائه وأجداده:

أَلَيْسَ أَبُوْنَا قَادَ لِلْجَنُوجِ جَمْعُهُ فَفَارَزَ بَعَثَابٍ وَعَلَى بِحَاطِبٍ

وتولّى إخراج بني حيٍّ من صعدة إلى صعيد مصر، وقام بحرب ربيعة بن نزار بتهامة على قول خولان^(٤).

وأولد عمرو - مُغْرِقُ الأكبر - سعداً، ويعلى شاعراً حليماً وافر الرّأي وسديده، وصاحب حصن تَلَمَّص^(٥). وأولد سعدٌ ثلاثة نَفَرٍ، حُجْرًا - وهو أبو رعدة الأكبر - شاعرٌ - قام بحرب مَذْحِج وأجمعت قضاةً على رئاسته، ويعلى - مغرق الأصغر - الذي رمى بين يدي سيف بن ذي يزن الحميري، وعمرو^(٦).

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٦٦-٦٧، المطبوع ١/٢٩٧-٢٩٨»، والمفصل ١/٣٦٨.

(٢) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٦٧، ٨٦، المطبوع ١/٢٩٨، ٣٦٥».

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٦٧، المطبوع ١/٢٩٨».

(٤) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٦٧-٦٩، المطبوع ١/٢٩٩-٣٠٦»، والأعلام ٥/٧٨.

(٥) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٦٨، المطبوع ١/٣٠٧» الأعلام ٨/٢٠٤.

(٦) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٦٩، المطبوع ١/٣٠٩».

أما حُجْر - أبو رعدة الأكبر فَوَلَدَ سِتَّةَ أَبْنَاءٍ: عمراً بطن، وله انقادت قضاة اليمن بالطاعة وكان شاعراً، ويزيد وهو المتوكل بطن، وكان شاعراً وعابداً ومنه كان الأكلول^(١)، بطن كبير، ومالكاً، وهشاماً، والأصبغ الذي تناسل من صلبه خلق كثير^(٢) منهم محمد بن قرف المالكي شاعر وفارس حَمَلَ راية الربيع في حرب سعد بن سعد^(٣)، ويعلى الذي تناسل من صلبه الربيعيون، الذين دخلوا في بني حمرة.

أمّا عمرو، وجري، وعنيد، وجابر فبطون منها من خرج إلى حيس وزيد وجواز تهامة مع إخوانهم من بني عوف يوم افترت بنو مالك وبنو عوف، وأمّا مهذّر وبنو عوير؛ فبطنان، وهم أهل جبل أبنر أقاما في حقل صعدة، ولم يخرج منه^(٤).

وأمّا عوف بن زيد فبطن كبير، والنسبة إليه عوفي وَلَدَ سبعة نفر: مسعوداً بطن، وكثيراً بطن، وجابراً بطن، ومالكاً بطن، ورفاعة بطن، وصعباً بطن، وعوداً بطن، وفي عوف الثروة والحد والنكاية، أمّا مسعود فَوَلَدَ عُرْوَةَ الذي أولد مسعوداً، ومسعود وَلَدَ عمراً الذي وَلَدَ له محرز قتيل بني حَيٍّ ويزيد الذي وَلَدَ مسعوداً وعمراً، وهذا كان فارس العرب، وحمّة البلد، وسيّد بني عوف قاطبة، ولسان خولان، وشاعرها الأول^(٥).

وكان من ولد عمرو بن يزيد العوفي خمسة أبناء: وهم يعلى، ويزيد، وسعد، وحكيم، ومُحَكِّم الذي عاد من بلد عنز بن وائل من دم أصابه من قومه^(٦)، أمّا حكيم وسعد فأقاما مع أبناء إخوانهم مالك وجابر وعود وصعب ورفاعة بدار عنز بن وائل^(٧).

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ٧٠ / ١، المطبوع ٣٠٩ / ١».

(٢) انظر: الإكليل: «المخطوط ٨٣ / ١، المطبوع ٣٥٨ / ١».

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ٨٤ / ١، المطبوع ٣٦١ / ١».

(٤) انظر: الإكليل: «المخطوط ٨٦ / ١، المطبوع ٣٦٥ - ٣٦٩».

(٥) انظر: الإكليل: «المخطوط ٨٧ / ١، المطبوع ٣٧٠ / ١»، التعريف بالأنساب: ٣٢٢، قصّة الأدب في اليمن ٢٤٩.

(٦) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٠ / ١، المطبوع ٣٧٨ / ١»، التعريف بالأنساب: ٣٢٢.

(٧) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٢ - ٩٣، المطبوع ٣٨٣ - ٣٨٥»، التعريف بالأنساب: ٣٢٢.

وأقام محكم بن عمرو في بني مالك ومن بقي معه في البلد بعد مخرجهم من بني عوف. وولد لمحكم: كُليب الذي نسل من صلبه عمير، وعامر، ومُر، ومن ولد عمير انتشرت بطون كُليب؛ لأنَّ عامراً ومُراً بطنان بحالهما، وهم كانوا نابَ الرِّبيعة ومُخَلَّبَهَا^(١). وولد من يزيد بن عمرو بن يزيد العوفي: أسد بطن، ويعلى بن عمر الذي أولد مُنْبَهَاً بطن، وأسد ومنبه اللذان رجعا من أبناء عمرو مع عمَّهما محكم بن عمرو من بلد عنز بن وائل^(٢)، وكان من ولد كُثَيِّر - وهو أحد رجالاتهم - : المحنون العوفي، وثابت بن يزيد شاعرين^(٣).

أما سعد بن سعد بن خولان، فأولد: حرباً بطن، وغالباً بطن^(٤)، وسَمَهَكَأ، والحارث بطن، وقثم درج، وإلى الحارث بن سعد البيت والرئاسة، ومنه الخطيب المُحَصَّي الذي افتُرقت فيه بنو سعد وبنو حيّ الخولانيون. ومن بني الحارث بن سعد: آل النّعمان بن الفياض، قادة بني سعد^(٥)، ومن بني حرب كان العبدَيّون، وكان القياس: العبدلين بطن^(٦). وكان بنو حرب لا يزوّجون أحداً إلا إذا كان منهم، أو قرشياً^(٧)، وكان منهم عمرو بن يزيد السّعديّ الذي هاج الحرب بين بني سعد بن سعد، وبين الرِّبيعة بن سعد، وكان شجاعاً فارساً جواداً شاعراً^(٨). أما غالب بن سعد فولد يعلى بن غالب، الذي تناسل من صلبه جير بطن، ومعيش بطن، وشبل بطن، دخلوا في بني حمرة مع من انضم إليهم من الرِّبيعة، وضمّ الجميع اسم حمرة^(٩).

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩١ / ١، المطبوع ٣٨١ / ١».

(٢) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٢ / ١، المطبوع ٣٨٢ / ١».

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٣ / ١، المطبوع ٣٨٥ / ١».

(٤) انظر: تاج العروس (غَلَب) وفيه: «قبيلة من خولان إلى غالب بن سعد بن خولان».

(٥) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٥ / ١، المطبوع ٣٩٢ / ١»، التعريف بالأنساب: ٣٢٢، المفصل ٣٦٩ / ١. تاج العروس (غَلَب) وفيه: «قبيلة من خولان إلى غالب بن سعد بن خولان».

(٦) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٦ / ١، المطبوع ٣٩٥ / ١»، الأنساب للسّمعيّ ٣٥١ / ٨، الباب في تهذيب الأنساب ١١٢ / ٢، لب الباب في تحرير الأنساب - دار صادر - ١٧٤ وفيه: «العبدري».

(٧) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٦ / ١، المطبوع ٣٩٦ / ١».

(٨) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٧ / ١، المطبوع ٤٠٢ / ١».

(٩) انظر: الإكليل: «المخطوط ١٠١ / ١، المطبوع ٤٠٩ / ١»، وحمرة ليس بأب ولا أم، وتسميهم خولان بني الشاة.

وكان عمرو بن سَعْدَى فارس بني غالب، قتله مُحَمَّد بن أَبَان الخَنْفَرِيّ صاحب السَّجَلِّ مبارزاً^(١).
أَمَّا هَانِي بن خَوْلَان، فولد هَلَالاً وَعَلِيّاً، وولد هَلَال: شَرْحِبِيلاً بَطْنٌ، وَجَابِراً بَطْنٌ، وولد شَرْحِبِيل
هَلَالاً، فولد هَلَال: شَرْحِبِيلاً الْأَصْغَر، وَجَابِراً أَبْنَاء هَلَال الْأَصْغَر، فَأَوْلَد شَرْحِبِيل الْأَصْغَر
«جُمَاعَة» وهم قبيلة عزيزة في بَوَصَان من أَرْض خَوْلَان^(٢).

أَمَّا رَازِح بن خَوْلَان^(٣)، والنسبة إليه رَازِحِيّ، فَوَلَدَ: مَرْتَدّاً بَطْنٌ، وَعُوَيْضاً بَطْنٌ، وَرَائِيّاً بَطْنٌ، وَيَعْلَى
بَطْنٌ، وَيَعْنَمّاً بَطْنٌ، وَبَزِيّاً بَطْنٌ، وقال المسلم بن عَبَّاد: وعمرّاً بَطْنٌ وفي رَازِح العدد، فهم أكثر من
خُمْسِي خَوْلَان، ومن بني يَعْلَى بن رَازِح: يَغْنَم بَطْنٌ دخل في يَغْنَم بن الرِّبِيعَة بن سعد^(٤).

وفي رواية آل أَبَان أصحاب السَّجَلِّ المتوارث من الجاهليّة القديمة أضافوا: «نَدِيداً وَجَرِيرّاً وَأَتَام،
وَجُدَاداً، وقيل: إنها سُمُّوا بِالْجُدَيْدَةِ؛ لأنَّ رَازِحاً لما شَابَ خَضَبَ، فكان إذا أعاد الخضاب، يقولون:
خَوْلَان جَدَّدَ، فَسُمِّيَ بِالْجُدَيْدَةِ»^(٥).

أَمَّا رَشْوَان بن خَوْلَان: فولد لاحقاً بَطْنٌ، وَمُخْلِفاً بَطْنٌ، وَخَلِيفَةً بَطْنٌ، وسعداً بَطْنٌ، وَمُنْبَهّاً بَطْنٌ،
وحرَباً بَطْنٌ، وَخُوْلِيّاً بَطْنٌ، وجميعهم خرجوا مع بني حَيٍّ مغاضبين لبني سعد بن خَوْلَان إلى صعيد
مصر في الحرب التي نشبت بينهم، ويُدْعَى بنو رَشْوَان بِالرَّشِيَّةِ^(٦).

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠٣، المطبوع ١/٤١٨».

(٢) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠٣، المطبوع ١/٤١٨» صفة جزيرة العرب ٢٤٩، معجم البلدان ١/٥٠٩ وفيه «موضع
بأرض خَوْلَان من ناحية صعدة باليمن، أهله بنو شَرْحِبِيل بن الأصغر بن هَلَال بن هَانِي بن خَوْلَان بن عمرو بن إلخاف بن
قضاة» تصحيف.

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٦١، المطبوع ١/٢٧٩»، تاج العروس (رزح).

(٤) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠٤، المطبوع ١/٤١٩»، التعريف بالأنساب: ٣٢٥ وفي: «مَزِيد، وَثَغَلَاء، وابناه، وبِري، ونوى،
وجدال، ونعيم، وعمرو، ويزيد، وحدير، وآل مسلم بن عباد بن رَازِح أكثر من خُمْس خَوْلَان. وقالوا: ونعيم من ولد الرِّبِيعَة
بن سعد»، وانظر: المفصل: ١/٣٦٨.

(٥) الإكليل: «المخطوط ١/١١٤، المطبوع ١/٤٤٧»، اللباب في تهذيب الأنساب ١/٢١٢، الأنساب للسَّمْعَانِيّ ٣/١٩٨، لَبّ اللِّبَاب في
تحرير الأنساب ١/١٩٦، نزهة الألباب في الألقاب ١/١٦٥، الإكمال ١/٦٠، ٢/٢٦٨، عجالة المبتدي وفضالة المتبهي ٣٧.

(٦) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠٤-١٠٥، المطبوع ١/٤٢٠-٤٢١» الإكمال ٤/٧٢، التعريف بالأنساب ٣٢٣ وفيه:
«حارث وملحق» تصحيفان، وأسقط خليفة وحرَباً، المفصل ١/٣٦٩.

أما الأزمع بن خولان، وهو أصغر أبنائه ^(١) فولد: ثابتاً، والأجبول وهم بنو جبل، وأخيّل، ونخيلاً، والأشوق وهم بنو ساق، والجعل ^(٢)، ومّرّان وإليهم تنسب القسيّ المرائيّة، وفيهم أكثر صنعة خولان، وهم أكثر خولان بعد رازح، ومن مرّان الشّميريّون ^(٣)، والأخضوض ^(٤)، والرعا والشرو ^(٥).

وأما صحرار بن خولان فولد: عامراً بطن، وبشراً بطن، وطارقاً بطن، وعلقمة بطن، وشبلاً بطن ^(٦)، وحاذراً بطن. وكان من قدمائهم علقمة بن زيد وهو رحالة إلى الملوك باليمن والشام، وشاعرٌ في داليته اليتيمة ^(٧).

أما بنو شهاب ففي نسبهم اختلاف واضح، وأغلب الظنّ أنهم أحلاف لخولان، وإلبّ لهم على أعدائهم، وقد ساق الهمداني دليلاً على ذلك بقوله: «إن حجر بن ربيعة بن سعد بن خولان، خرج من صرّواح اتقاء لبعض ملوك حمير ليصير إلى الشام، فمرّ بحقل صعدة وهو قليل السكن، فاختلط فيه، واقتطع هو ومن معه، ثم نزل عليه بنو شهاب ديناً، وبنو بنيّه عائدين من ضريّة إلى اليمن، ليسكنوا مع آل عبد الله ذي الأفراس بن سكك، فسألوه الحلف والمظافرة لما أعجبهم حقل صعدة، فأجابهم إلى ذلك وأشركهم في الحمى والسبوق، فسكنوا صعدة من يومئذٍ إلى وقتنا هذا» ^(٨).

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠٥، المطبوع ١/٤٢١»، التعريف بالأنساب: ٣٢٤.

(٢) انظر: الأنساب للسّمعيّ ٣/٢٧٠، اللّباب في تهذيب الأنساب ١/٢٣١، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب ١/٢٠٧، الإكمال ١٤٩/١.

(٣) انظر: الإكمال ٤/٣٧٤ تاج العروس (شمر).

(٤) انظر: الإكمال ٤/١٧٠، والإكليل: «المخطوط ١/١٠٥، المطبوع ١/٤٢٢»، تاج العروس (خضض) وفيه «الأخضوض بالخاء المهملة: بطن باليمن».

(٥) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠٥، المطبوع ١/٤٢١».

(٦) انظر: تاج العروس «شبل» وفيه: «شبل بطنان في قضاة: أحدهما شبل بن صحرار بن خولان، والثاني شبل بن يعلى بن غالب بن سعد، ذكرهما الهمداني».

(٧) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠٥، المطبوع ١/٤٢٢» التعريف بالأنساب ٣٢٥ وفيه: «يسر وحادر وسبيل» تصحيقات، المفصل ١/٣٦٩.

(٨) الإكليل: «المخطوط ١/١١٩-١٢٠، المطبوع ١/٤٥٧». و[ديناً] هكذا رسمت في المخطوط، ولم أتبيّن معناها.

وفي هذا الحلف يقول إبراهيم بن كُنيّف الشّهائيّ:

عَلَى حِلْفِ حُجْرٍ حَارَتْ الْحَقْلَ مَعْشَرِي
تُطَاعِنُ عَنْهُ بِالرَّمَاكِ الشَّوَاكِجِرِ

ومنه أيضاً قول صاعد بن المسلم الشّهائيّ:

أَخَذْنَا بِحَبْلِ الْقَيْلِ حُجْرٍ فَلَمْ نَزَلْ
إِلَى غَايَةِ الْأَيَّامِ نَنْفِي الْأَعَادِيَا

ويعطف الهمدانيّ على هذا الشعر بقوله: «فلم يزالوا على ذلك في عصر حجر، وابنه شرحبيل إلى أيام عمرو بن زيد بن أسامة، فلما قام على حيّ قاموا معه، وكانت حيّ بن خولان ولدتهم، فأفروا فيها»^(١) وهذا يحدو بنا إلى القول: إنّ حلفهم قديم، بل ضارب في الجاهليّة، وفي تألّبهم على بني حيّ الذين احتضنهم يقول خالد الحيوانيّ:

هُمُ نَصَرُوا عَوْفًا عَلَيْنَا وَمَالِكًا
وَحَيَّ بَنِي حَرْبٍ وَحَيَّ السَّمَاهِكِ^(٢)

ومن ذلك أيضاً قول عمرو بن يزيد العوفيّ:

وَكِنْدَةُ أَخْلَافٌ لِحُجْرٍ وَقَبْلَهَا
تَمَكَّنَ فِي فَرْعِي قُضَاعَةَ مَنْصِبُهُ^(٣)

وقيل: الأديميّ - بفتح الألف، وكسر الدال المهملة، وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها، وفي آخرها الميم - وهي نسبة إلى الأديم^(٤)، الذي تكوّن من خولان. وفي هذا ينقل الهمدانيّ عن بعض علماء اليمن بسنده قولهم: «اجتمعت أقباض من خولان، فاحتلفوا وكتبوا حلفهم في أديم أحمر، وكذا رأينا أكثر بصائر خولان في مرائط من أديم حمر؛ فجرى على تلك الجماعة اسم الأديم، فسألت عنها مسلم بن عبّاد، وكان خبيراً ببلد الأديم عن المختلفين، فقال: يعنق وبني بشر، وسألت آخرين من بدو الرّبيعة عن الأديم، فقالوا: يعنق ابن رشوان بن الرّبيعة وبشراً، اختلفا في أديم ولم تحفظ نسخته»^(٥).

(١) الإكليل: «المخطوط ١/ ١٢١، المطبوع ١/ ٤٥٩» وجاء في المطبوع: «فأفروا فيها» تصحيف.

(٢) انظر الديوان: ق ١٦/ ب ٤.

(٣) انظر الديوان: ق ٣٢/ ب ١.

(٤) انظر: الأنساب للسمعانيّ ١/ ١٦٤، اللّباب في تهذيب الأنساب ١/ ٤٣، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب ١/ ٤٣.

(٥) الإكليل: «المخطوط ١/ ٩٤-٩٥، المطبوع ١/ ٣٩٠» وفيه: «في مرائط من أدم أحمر...» تصحيف.

وليس ثمة ملامة إذا ما عَرَّجنا سريعاً على أشهر بطون خولان العالية التي لم يكن لها حضورٌ بَيِّنٌ في أشعار القوم وأخبارهم، ومما ذكره الهمداني من بطونها قوله: «أولد خولان بن عمرو بن إلحاف: حُبَيْباً - بالحاء المضمومة - وعمراً والأصهب، وقيساً ونُبَيْتاً وذكران، بطونٌ كِبَارٌ، ويدعى بنو ذكران الذِّكران»^(١). فولد حبيب بن خولان: حَبَّاباً - والباء الأولى ثقيلة - وحرِيثاً - بالحاء - وبكراً، والبائت، بطونٌ كُلُّها، وأولد عمرو بن خولان: أميراً، ومضاً - بتشديد الضاد - بطنان، وأولد الأصهب بن خولان رَحَّالاً - بالحاء - وحرِيثاً - بالحاء - بطنان، ومنهم: عبد الله وربيعة، وحيي، وسعد، بطونٌ. ومنهم أبو مسلم الخولاني وكان من خيار التابعين^(٢). وغلب اسم ذكران، وحرِيث، وبكر على بطونهم، ومن بطونهم: المَكِيرُ، وبنو نُؤَيْقٍ، وبنو مُلَيْلٍ، وبنو زِيَاد، وبنو عبد، والدَّحَارِج، وَرَحْب.... ومن بطونهم الأَعْرُوشِ، والضَّبَائِنِ مقدّم وبنو سُحَام...»^(٣) وتفرّعت عن هذه البطون أقوامٌ وعشائرٌ متعدّدة، كانت خاملة الذكر، ليس فيها مَنْ له نباهةٌ واشتهارٌ حسب ما ذكرته المصادر والمظان التي وقفتُ عليها. لذا سيُكتفى بما ذكرته من بطون خولان مع التّنبية على قلّتها في أيدي النّاس وخروج كثيرٍ منها مُصَحَّفةً ومُحرّفةً؛ ممّا شوّه صورتها وقراءتها. وثمة بطونٌ من خولان دخلت في غيرها من القبيلة نفسها، وبطون دخلت في قبائل أخرى فانتسبت إليها، وبطون من قبائل أخرى دخلت في خولان، فلاذت بظُلّها، ويقال لهذه البطون: التّواقِل.

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١١٣، المطبوع ١/٤٤٣» النّسب الكبير ١/٢١٥، جمهرة أنساب العرب ٤١٨ وفيها: «نبت» تصنيف و«كعب وسعد وبكر» زيادة على ما جاء به الهمداني من البطون، والعقد الفريد ٣/٤٠٣، المقتضب ٢٧٣-٢٧٤، والنّسب لأبي عبيد ٣١٣، وفيه «حُبَيْبٌ» تصنيف، قلائد الجمان في التّعريف بقبائل عرب الزمان ١٠١، التّعريف بالأنساب ٣٣١.

(٢) انظر: ترجمته في الدّيوان.

(٣) الإكليل: «المخطوط ١/١١٣، المطبوع ١/٤٤٣-٤٤٥» وفيه: «غلب اسم ذكران وحرِيث وبكر...» تصنيف، وفيه «والضّبائن مقدّم...» ساقط في المطبوع.

٢ - نَوَاقِلُ خَوْلَان:

اعتادت العرب في جاهليّتها حياة قلقه مضطربة، ملؤها الانتقال من صقع إلى آخر، ممّا جعل بعض بطون القبيلة الواحدة تنتقل إلى بطون أخرى من القبيلة نفسها، أو تنتقل إلى قبيلة أخرى، فتنسب فيها، دون أن تنتمي إليها صليبيّة، فيحسب لها ما يحسب للقبيلة الأصل، ويجري عليها ما يجري على القبيلة المُلَاذِ بها^(١). وثمة أسباب كثيرة لهذا التّقل منها: بغض البدويّ لحياة الاستقرار؛ لأنّ أساس حياته مبنيّ على الاضطراب، والتّحرّك الدائم من مكان إلى آخر^(٢). إلّا أنّ تنقّل البدويّ في دهمائه ليس عبثيّاً لا طائل منه، بل تنقّل معقودٌ بطروف بيئية، فرضتها طبيعة الحياة عليه كتعقّبه الكلاء والماء ورغبته في النّجعة، وغالباً ما يكون هذا في مواطن بعيدة عن حدود القبيلة، ومثل هذا يقال حينما يُطلَبُ هذا البطن أو تلك القبيلة في ثأرٍ ما، فتنزح عن ديارها إلى غير رجعة مأمولة كالذي حدث لبني غالب بن سعد بن خولان الذين ظعنوا عن ديارهم لحرب خسروها، فدخلوا في زبيد وقتاً ثمّ في خثعم زمناً، ثمّ أقاموا بحباء بني هلال زمناً آخر^(٣). يضاف إلى ما سلف علوّهمة البدويّ وكبر نفسه التي لا تقنع بالقليل ولا ترضى، بل تطمح إلى كثير يؤمّن لها عيشاً كريماً؛ لأنّ الاستكانة في المكان الواحد، والإقامة فيه، هي الصّغار بعينه والصّعة التي تتأبى نفس البدويّ عليها، ومن ههنا ندرك أهمية التّنقل والارتحال لدى البدويّ^(٤). ومن الأسباب أيضاً غلبة بعض البطون على غيرها قوةً واشتهاراً، ثمّ انتساب مَنْ دونه من إخوته إليه، أو الولادة في قبائل أخرى، للذي كان في الجاهليّة من

(١) انظر: تهذيب اللّغة ١٥٢/٩، جهرة اللّغة ٣/١٦٤، واللّسان والتّاج (نقل). وورد في الفهرست لابن النّديم: ١٠٨ طبعة رضا تجدد، وطبعة قصور الثقافة ٩٦/١: (النّوافل) مصحّفة، وهو تصحيف سبق إلى التّنبية عليه الدّكتور محمد شفيق البيطار في ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدّراسة) ٤١، والدّكتور مقبل الأحديّ في شعراء حمير (الدّراسة) ٣٢ وورد هذا التّصحيف في كتاب الأصنام: ٦٩-٧٠، ولم يكتف الشّيخ أحمد زكي باشا - رحمه الله - بموافقة الفهرست على هذا التّصحيف، بل زاد في الخطأ بأن قال: «والنّوافل هنا بمعنى الأبيان التي كانت تُقسم بها القبائل المذكورة» الأصنام ٦٩، وانظر: معجم الأدباء ٢٧٩٢، ٢٧٨٠/٦، ١٣٦٤/٣.

(٢) انظر: الشعراء الصّعاليك ٧١.

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠٢، المطبوع ١/٤١٥».

(٤) انظر: أثر الصّحراء في الشّعور الجاهليّ: ١٦٥.

ولادة المرأة من زوجها الأول على فراش زوجها الآخر، كولادة قضاة على فراش معدّ، وولادة الصّدف بن مُرتع في حَضْرَمَوْت^(١)، وهناك سبب آخر لانتقال البطون والعشائر، وهو التّجمّع على رجل بعينه، والتّعاقد عليه، وهو ما حصل لخولان ذاته يوم وُلِدَ بأن قيل: خوّلوا له: بمعنى تجمّعوا عليه^(٢)؛ حتى شبّ فيما بعد وصار يطلق على صقع كبير من بلاد اليمن السّعيد، ومثل هذا كثير في الأسماء اليمانية، وليس في حمير فقط، مثل التّبكّل والتّقْرش والتّكّل وغيرها^(٣).

والحقّ الذي لا مريّة فيه أنّ موضوع النّواقل موضوع مهمّ في رصد أنساب العرب وفي دراسة أشعارهم أيضاً، ذلك أنّ الشّاعر يكون من بطنٍ من تلك البطون التي دخلت في قبيلة غير قبيلته الأمّ فالى أي القبيلتين يُنسب، وفي شعر أيّهما يُسلّك شعره؟ وقد تناول القلقشنديّ هذا الأمر فقال في بيان أمور عَشْرَةٍ يحتاج النّاظر في علم الأنساب إليها منها: «إذا كان الرّجل من قبيلة، ثمّ دخل في قبيلة أخرى جاز أن ينتسب إلى قبيلته الأولى، وأن ينتسب إلى القبيلة التي دخل فيها، وأن ينتسب إلى القبيلتين جميعاً، مثل أن يقال: التّميميّ ثمّ الوائليّ، والوائليّ ثمّ التّميميّ، وما أشبه ذلك»^(٤) واتّكاء على هذا رأيتُ أن أسلّك مَنْ وجدت له شعراً من أبناء البطون التي دخلت في خولان ضمن شعراء خولان؛ لأنّ الشّعْر ابن بيئته، وهُمْ شعراء بني شهاب^(٥).

ويمكننا تقسيم نواقل خولان إلى ثلاثة أضرب: ضرب من بطون خولان دخل في بطون أخرى من القبيلة ذاتها، وضرب انتقل من خولان إلى غيرهم، وضرب ثالث من غير خولان دخل فيها واحتبى بفنائها.

(١) انظر: شعراء حمير (الدّراسة) ٣٢٢.

(٢) انظر: النّسب الكبير ١/٢١٦.

(٣) انظر: الإكليل ١٠/١٠٥ وانظر: اللّسان والتّاج (بكلّ، قرش، كلّع)، وانظر اجتهادات السّلف في تفسير الأسماء اليمانية في شعراء مذحج: ١٧.

(٤) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: ٣٠.

(٥) اختلّف في نسبهم، فنسب حمير يقولون: إنّهم من خولان، وقيل إنّهم من كندة. والرّاجح أنّهم أحلاف لخولان، دخلوا فيها، وجمعت بينهم علاقة مصاهرة، علاوة على ذلك الحلف.

فأما الضرب الأول: فهي بطون خولان التي دخلت في بطون أخرى منهم، وأشار الهمداني إلى سبعة أبطن منها ما كان ذا اشتهاً ونباهة، وهم بنو غالب بن سعد بن سعد بن خولان، دخلوا في بني هلال بن هاني بن خولان^(١)؛ بسبب الحرب التي سَعَرَهَا عمرو بن يزيد السَّعْدِيّ، وزاد في وقودها حتّى أدّت إلى نزوح بني غالب بقيادة شاعرهم عمرو بن زيد الغالبي^(٢). ومن البطون الذين لم يُذكر فيها مَنْ له نباهة أو ذكرٌ في شعر أو فروسيّة، الشَّهْرِيّون وهم من صلب شهر بن يعلى بن سعد بن عمرو - مغرق الأكبر - بن زيد بن مالك بن زيد بن أسامة بن أرطاة بن شرحبيل بن حجر بن الربيع بن سعد بن خولان دخلوا في بني حمرة^(٣)، الذين يضمّون معيش بن سعد، وجبر بن سعد، وشبل بن سعد، ثلاثة أبطن مع مَنْ انضمّ إليهم من الربيع، فضمّ الجميع اسم حمرة، فقليل بني حمرة، وليس حمرة بأب ولا أمّ، وتسميهم خولان بني الشاة^(٤)، وبنو أعرم بن الأصحر بن أسامة بن زيد بن أرطاة بن شرحبيل بن حجر دخلوا في بني حمرة^(٥)، وفيما انتقل من بطن إلى آخر بنو يغنم بن ربيعة بن سعد بن خولان، دخلوا في بني رازح بن خولان^(٦).

وبنو سعد بن ربيعة بن سعد بن خولان، دخلوا في بني بحر بن زيد الخولاني^(٧) ويغنم بطن من بني يعلى بن رازح بن خولان، دخل في يغنم بن الربيع بن سعد بن خولان، فقال أهله: نحن بنو يغنم بن يعلى بن رازح^(٨).

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠٢، ١٠٣، المطبوع ١/٤١٥، ٤١٨».

(٢) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠١-١٠٢، المطبوع ١/٤١٢»، قصّة الأدب في اليمن ٢٣٩.

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٨٥، المطبوع ١/٣٦٣».

(٤) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠١، المطبوع ١/٤٠٩-٤١٠».

(٥) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٦٧، ٨٦، المطبوع ١/٢٩٨، ٣٦٥».

(٦) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٨٧، المطبوع ١/٣٧٠».

(٧) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٨٧، المطبوع ١/٣٦٩».

(٨) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/١٠٤، المطبوع ١/٤١٩».

وبنو العبيد بن سعد، وبنو مالك بن سعد بن الليث الخولاني، بطنان كبيران دخلا في بني بحر بن زيد الخولاني، وكان من بني العبيد رئاسة بني بحر وقيادته^(١). وبنو يعنق بن الربيع بن سعد بن خولان، بطن دخل في بني سعد بن سعد بن خولان^(٢).

أمّا الضرب الثاني، فهي بطون خولان التي دخلت في غيرها من القبائل العربية وقد نبّه الهمداني على خمسة بطون، منها ما كان ذا نباهة واشتهار وذيوعة للصيد، ومنها ما كان حامل الذكر، ضعيفاً. أمّا الأول فمنهم بنو غالب بن سعد بن سعد بن خولان، دخلوا في مذحج في بني زبيد، ثم في خثعم^(٣)؛ بسبب الفتنة التي أوقد نارها عمرو بن يزيد السعدي، وسعر نارها من بعده عمرو بن زيد الغالبي الذي ظعن بأهله جميعاً، ودخل لائذاً بحمي القبائل السالفة الذكر.

وأمّا الثاني: فحكيم وسعد ابنا عمرو بن يزيد العوفي الخولاني، فأقاما مع من تخلف من قومهما في ديار عنز بن وائل^(٤)؛ بسبب دم أصابهما من قومهم^(٥).

وأمّا الثالث: من البطون الخولانية التي دخلت في عنز بن وائل، وانتسبت إليهم: مخلف بن رشوان بن خولان الذي خرج مع بني حي بن خولان مغاضباً لبني سعد بن خولان^(٦)، وأبناء جابر

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ٨٥ / ١، المطبوع ٣٦٤ / ١».

(٢) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٥ / ١، المطبوع ٣٩٠ - ٣٩١».

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ١٠٢ / ١، المطبوع ٤١٥ / ١» وخثعم: هو أفتل بن أغار بن إراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك ابن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن يشجب بن قحطان، وهو أب لقييلة يمانية مشهورة. انظر: جمهرة أنساب العرب ٣٩٠، الأنساب للصّحاري ٢ / ٥٠٠، التاج (عفرس) وسمي خثعم؛ لأنهم نحروا جزوراً، فتخثعموا عليه بالدم، أي تطلوا به الاشتقاق لابن دريد ٥٢٠، أمّا زبيد فهم بنو مئب بن سعد العشيرة بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان؛ وهو من أكبر بطون مذحج. انظر شعراء مذحج: ٤٥.

(٤) عنز بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، قبيلة مشهورة، كان منها عامر بن ربيعة، صاحب رسول الله ﷺ، وكان حليفاً لآل الخطّاب الذين كانوا قد تبّوه. الاشتقاق ٣٣٥، جمهرة أنساب العرب ٣٠٣، الأنساب للصّحاري ١ / ١٦٦.

(٥) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٢ / ١، المطبوع ٣٨٣ / ١».

(٦) انظر: الإكليل: «المخطوط ١٠٥ / ١، المطبوع ٤٢١ / ١».

ومالك ورفاعة وصعب وعود، وهي بطون عوف بن زيد بن أسامة بن زيد بن أرطاة الخولاني، دخلت في عنز بن وائل حتى إنّ جماعة كثيرة منهم خرجوا مع بني مالك بن زيد الخولاني إلى زُبيد وحيس، لحرب نشبت بين بطون القبيلة، ففرقت شملهم، وبددت قوتهم^(١). وذكر الهمداني في أثناء سوقه نسب مُقَرّي بن سميع بن الحارث بن مالك بن زيد بن الغوث الحميري أنّ خولان دخلت في الأوزاع الذي تألف من بطون عدّة فقال: «الأوزاع بطون اجتمعت من مُقَرّي، وعنس، وحمير، وأهلان، وخولان، والتّوحم بن وائل»^(٢). ويريد بخولان: جزءاً منها، أو أحد بطونها دون شمولها.

أما الضرب الثالث فهي البطون التي انتقلت من قبائل أخرى، ودخلت في خولان، وقد وقفت على أربعة بطون: الشّهابيون الذين دخلوا حينما نزلوا عليهم في حقل صعدة، وصاروا بعد ذلك أحلافاً للخولانيين، شاركوهم في حروبهم، وردّوا عنهم حدّ السيوف غير مرة^(٣). وقد سلكت أشعارهم في شعر خولان، وجعلت أخبارهم جزءاً من أخبار القبيلة، وبنو أحمد بن يزيد بن عمرو بن نابت بن الرّيان بن قشيب بن عامر ذي حوال الأصغر بن عوسجة الحميري دخلوا في خولان، هكذا روى الهمداني في إلماح سريع منه دون أن يفصل في الأمر^(٤)، وبنو رَحْب ودُحْدَح أبناء ذي ثابت بن زياد بن حسان ذي الشّعيين بن سهّل بن زيد بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس الحميري دخلوا في خولان العالية^(٥).

وبنو يُرْسَم الكبرى، ولد الغوث بن قطن بن عريب بن زهير، أيمن بن الهَمَيْسَع بن حمير، بطن دخل في خولان، ولقدّم يُرْسَم هذه، قال عبد الله بن عبّاد الإكيلي الخولاني:

جَلَائِبُ مِنْ كُلِّ الْبِلَادِ تَجَمَّعَتْ عَلَيْنَا بَقَايَا مِنْ ثُمُودٍ وَيُرْسَا^(٦)

(١) انظر: الإكيلي: «المخطوط ٩٣/١، المطبوع ٣٨٥/١».

(٢) الإكيلي: ٢٣٥/٢.

(٣) انظر: الإكيلي: «المخطوط ١١٩-١٢٠، المطبوع ٤٥٦-٤٥٧».

(٤) انظر: الإكيلي: ١٦٧/٢.

(٥) انظر: الإكيلي: ٣٣٣/٢.

(٦) الإكيلي ٣١-٣٢.

يَتَّضِحُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الْأَضْرِبَ الثَّلَاثَةَ السَّالِفَةَ الذَّكْرُ، تَجْتَمِعُ عَلَى أَمْرٍ بَعِينِهِ، وَهُوَ خُلُوهَا مِمَّنْ لَهُ أَثَرٌ أَوْ نَبَاهَةٌ إِلَّا قَلِيلاً، وَفِي ذِي إِشَارَةٍ إِلَى أَنَّ تِلْكَ النَّوَاقِلَ ضَعِيفَةٌ، لَيْسَ لَهَا قُوَّةٌ يَعْتَدُّ بِهَا أَوْ شَهْرَةٌ تُسْمَعُ فِي الْآفَاقِ، انْتَقَلَتْ إِلَى بَطُونٍ أَكْبَرَ مِنْهَا؛ لِتَتَقَوَّى بِهَا، أَوْ جَمَعَتْهَا بِبَطُونٍ أُخْرَى دَوَاعٍ اقْتِصَادِيَّةٍ وَمَعِيشِيَّةٍ، أَوْ حَرْبِيَّةٍ، أَوْ عِلَاقَةٍ جَوَارٍ مِثْلَهَا حَدَثَ لِبْنِي شَهَابِ بْنِ الْأَزْمَعِ، الَّذِينَ دَخَلُوا فِي خَوْلَانٍ وَصَارُوا مِنْهَا وَشَهِدُوا أَيَّامَهَا عَلَى تَرْكِهِمْ إِنْكَارَ أَصْلِهِمْ وَمَحْتَدِهِمْ، وَهَذِهِ ظَاهِرَةٌ عَامَّةٌ فِي قِبَائِلِ الْعَرَبِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا بَيْنَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعِلَاقَاتِ مِنْ أَهْمِهَا عِلَاقَاتِ الْمَصَاهِرَةِ الَّتِي كَانَتْ أَيْضاً ضَمَّنَ حُدُودَ الْقَبِيلَةِ مَتَشَرَّةٌ بِشَكْلِ كَبِيرٍ.

٣ - الْمُصَاهَرَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ:

الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، أَنَّ عِلَاقَةَ الْمُصَاهَرَةِ وَشَجَّتْ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْقَبِيلَةِ الْوَاحِدَةِ، فَجَمَعَتْ بَيْنَ بَطُونِهَا، أَوْ بَيْنَ الْقِبَائِلِ الْأُخْرَى فِيهَا بَيْنَهَا، وَقَرَّبَتْهُمْ حَتَّى غَدَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ كَأَنَّهُمْ أُسْرَةٌ وَاحِدَةٌ.

وَقَدْ كَانَ يُرَادُ بِهَذِهِ الْعِلَاقَةِ إِطْفَاءُ نَارِ الْعَدَاوَةِ وَالشُّحْنَاءِ، أَوْ إِخْلَادُ ثَأْرِ قَدِيمٍ كَالَّذِي كَانَ مِنْ تَزْوِيجِ جَسَّاسِ بْنِ مُرَّةَ لِلْهَجْرَسِ بْنِ كَلِيبٍ مِنْ ابْنَتِهِ سَعَادٍ^(١)، وَيُطْلَبُ بِهَا أحياناً اسْتِدْرَارُ عَطْفٍ لِّلْاحْتِبَاءِ بِفِنَاءِ تِلْكَ الرَّابِطَةِ كَمَا فَعَلَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ الْعَبَادِيُّ، حِينَما اسْتَعَطَفَ النَّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذِرِ بِمَصَاهِرَتِهِ لَهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ زَوْجَ أُخْتِهِ كَمَا ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ، أَوْ زَوْجَ ابْنَتِهِ هَنْدَ كَمَا ذَكَرَ رَوَاةُ الْعَرَبِ^(٢).

وَفِي هَذَا يَقُولُ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ: «كَانَ أَبْغَضُ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيَّ آلُ الزُّبَيْرِ حَتَّى تَزَوَّجَتْ مِنْهُمْ رَمْلَةٌ، فَصَارُوا أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ»^(٣). أَوْ أَنَّ جَاهِأً، أَوْ حَظْوَةً، أَوْ مَكْسَباً سِيَاسِيّاً، أَوْ مَادِيّاً يُطْلَبُ مِنْ وَرَائِهَا.

وَقَدْ بَدَتْ فِكْرَةُ الْمَصَاهِرَةِ شَاحِبَةً ضَامِرَةً فِي قَبِيلَةِ خَوْلَانٍ إِذَا مَا قِيسَتْ بِمَصَاهِرَاتِ الْقِبَائِلِ الْأُخْرَى، وَلَعَلَّ هَذَا شَأْنُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ عِنْدَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْقِبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُخْرَى. وَإِذَا رَغَبْنَا

(١) انظر: شعراء تغلب في الجاهلية (الدراسة)، ٢٣١، وانظر مصادره ثمة.

(٢) انظر: المرأة في الشعر الجاهلي ١٤٩.

(٣) المصدر نفسه ١٤٩.

في تطلاب العلة في خمول علاقات المصاهرة لدى قبيلة خولان، فعائدة إلى غفول المصادر العربية عن ذكر مثل هذه العلاقات، وخصوصاً في الجاهلية إلا ما وقف عليه الهمداني في الإكليل من نذرٍ يسيرٍ لا يشفي غليلاً ولا ينقع صادياً، كان وحده الميرة والزاد في جمع علاقات المصاهرة فيما بين خولان، وبين غيرها من القبائل والأمم الأخرى.

فمن المصاهرات في قبائل قضاة ما نجده بين بطون خولان من أن بنتاً لخالد بن قيس الحيواني - وهو سيد حي بن خولان في الجاهلية - لم يُذكر اسمها، كانت عند مالك بن عمرو سيد بني رشوان بن خولان الذي اعتزل الحرب التي سمرت بين بني حي بن خولان، وبني سعد بن خولان، وعندما دارت الدائرة على بني حي، قال مالك بن عمرو: لا سكنت بلد خولان بعد خالد بن قيس الحيواني، وخرج وقومه إلى صعيد مصر مع الحيوانيين مغاضبين لبني سعد بن خولان^(١)، وكان هذا بتأثير علاقة المصاهرة وصدائها. ونجد أيضاً أن سمية بنت عمرو بن كواش بن حي بن خولان كانت عند الربيع بن سعد بن خولان^(٢)، وأن الحريذة بنت يعلى بن سعد المالكي - كانت تحت عمرو بن يزيد العوفي، شاعر خولان وفارسها، الذي أنجب منها محمداً ويعلى ويزيد، وتزوج عمرو العوفي بامرأة أخرى أيضاً من قبيلة نهد، لم يُذكر اسمها، وأنجب منها سعداً وحكيماً وبه كان يُكنى^(٣)، ونجد في قبائل قضاة أيضاً أن يزيد بن عمرو بن مسعود بن عروة بن مسعود بن عوف الخولاني، قد تزوج بامرأة من قبيلة عنز بن وائل ولم يُذكر اسمها أيضاً^(٤).

وفي قبائل اليمن نجد في قبيلة كندة أن مزن بن وهب بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة كانت عند الربيع بن سعد بن خولان^(٥)، وأن كبشة بنت الأزعم الأصغر بن عمرو ابن شمّر بن عمرو بن الأزعم الخولاني كانت تحت شهاب بن العاقل بن ربيعة بن وهب بن

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/ ١٠٤، المطبوع ١/ ٤٢٠».

(٢) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/ ١١٨، المطبوع ١/ ٤٥٣».

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/ ٩٠، المطبوع ١/ ٣٧٨».

(٤) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/ ٨٧، المطبوع ١/ ٣٧٠».

(٥) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/ ١١٨، المطبوع ١/ ٤٥٣».

الحارث الكندي. في حين أنَّ شريفة بنت الربيع بن سعد بن خولان - وهي أم شهاب بن العاقل الكندي - كانت عند العاقل بن ربيعة الكندي^(١)، الذي أنجب شهاباً بطناً كبيراً دخل في خولان، وعقد حلفاً متيناً معها وكان عوناً ونصيراً لها في وقائع كثيرة^(٢)، وكان ذلك الحلف بتأثير المصاهرة التي وَشَّجَتْ العلاقة وزادت من ارتباطها.

وفي حمير بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان، نجد أنَّ الفارعة بنت يزيد بن الأصْبَغ ابن حُجْر بن سعد - سَيِّدُ الرَّبِيعَةِ بن سعد بن خولان - كانت تحت أبان بن ميمون بن حَرِيز بن حُجْر بن زُرْعَةَ بن عمرو بن يزيد بن عمرو بن حُجْر بن ذي شَمِر الحميري^(٣)، وكان من أولادها رفاعة بن أبان الخنفرى، الذي قتله عمرو بن زيد الخولاني، وفي قتله هاجت الحرب بين بني سعد بن سعد، والرَّبِيعَةِ بن سعد، وافترقت فيما بعد، وكان هذا الأمر بتأثير علاقة المصاهرة التي أَلَقَتْ بِظِلِّهَا عَلَى بني الرَّبِيعَةِ بن سعد الخولاني^(٤)، وأنَّ رِيّاً بنت عمرو بن الحارث بن عمرو بن يزيد بن الفَيَّاض ابن حرب بن سعد بن سعد كانت عند مُرِّ الأصغر بن عامر بن الحارث بن زيد بن مُرِّ الأوسط بن ينكف ابن مُرِّ ذي سخيم الأكبر بن يعفر بن ناكور الحميري^(٥)، ولعلَّ هذا ما يُرَجِّح انتساب بعض عشائر بني خولان إلى أرومة ذي سخيم الحميري^(٦).

وينقل لنا الحافظ ابن عساكر بسنده عن أبي الدرداء خبر مصاهرة بلال الحبشي رضي الله عنه في صدر الإسلام لبني خولان، وفي هذا يقول: «لما دخل عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه الجابية، سأل بلالاً أَنْ يَقْدِمَ الشَّامَ، ففعل ذلك، قال: وأخي أبو رويحة^(٧)، الذي آخى بينه وبينني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل دارياً في

(١) انظر: الإكليل: (المخطوط ١/١١٨، المطبوع ١/٤٥٣).

(٢) انظر: الإكليل: (المخطوط ١/١٢٣، المطبوع ١/٤٦٥).

(٣) انظر: الإكليل: (المخطوط ١/٢٨٣، المطبوع ١/٣٨٥).

(٤) انظر: الإكليل: ٢/١٣٠-١٣١.

(٥) انظر: الإكليل ٢/٢٥٢.

(٦) انظر: مبحث انتساب خولان في حمير.

(٧) أبو رويحة: هو خالد بن رباح، قيل: إن كنيته أبو رويحة، وهو أخو بلال بن رباح من غير نسب إذ آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وله صحبة، سكن دارياً، ولم تُذَكَّرْ له رواية، قيل: قبره في حلب والله أعلم. تاريخ دارياً ٥٣، تاريخ دمشق ١٦/٢١-٢٢.

خولان، فأقبل هو وأخوه إلى قوم من خولان، فقال لهم: قد جئناكم خاطبين، وقد كنّا كافرين، فهدانا الله، ومملوكين، فأعتقنا الله، وفقيرين، فأغنانا الله، فإن تزوجونا فالحمد لله، وإن تردونا فلا حول ولا قوة إلا بالله، فزوجوهما»^(١) وقيل: إن بلالاً تزوج بهند الخولانية^(٢).

إنّ في الخبر السالف ما يدلّ على مصاهرة بلال الحبشي رضي الله عنه لقبيلة خولان، وذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونجد في خبر طويل يسوقه ابن عساكر عن فيروز الديلمي اليمني، أنّه لما همّ بقتله قيس بن مكشوح المرادي - مدّعي النبوة بعد الأسود العنسي في خبر لهما - فرّ فيروز وتحصّن عند أخواله الخولانيين^(٣) وفي هذا ما يدلّ على مصاهرة كانت بين الديلم وخولان في اليمن.

وأورد الكندي خبراً يذكر فيه مصاهرة عبد العزيز بن مروان - الأمير الأموي - لخولان حينما ولي إمارة مصر، وفي هذا يقول عبد العزيز بن مروان: «قدمتُ مصر في إمرة مسلمة بن مخلد، فتمنيت بها أماناً، فأدركتها، تمتت ولاية مصر وأن أجمع بين امرأتي مسلمة... فتوفي مسلمة، وولي مصر، وتزوج امرأتي مسلمة، وهما أم كلثوم الساعديّة، وأروى بنت راشد الخولاني»^(٤).

فهذه هي مصاهرات خولان فيما بينها وبين القبائل العربيّة الأخرى، والنّاظر فيها يجد أموراً منها: أنّها كانت محصورة في الصّقع اليمنيّ دون القبائل العربيّة التي نزلت بطن جزيرة العرب، أعني القبائل العدنانيّة، بل ظهرت حاملّة خمول ذكرها في القبائل اليمنيّة نفسها من مثل مذحج وهمدان وغيرهما، حتّى كادت تكون معدومة، ولعلّ هذا عائداً إلى تفلّت أخبار القوم من أقلام العلماء الذين عُنوا بتدوين أخبار القبائل وأشعارها، يُضاف إلى هذا ضياع عددٍ من مصنّفات الهمدانيّ التي أودعها

(١) تاريخ دمشق ١٣٧/٧، وتاريخ الإسلام ٢٠٤/٣.

(٢) انظر: تاريخ دمشق ٤٣٤/١٠، ١٩٣/٧٠.

(٣) انظر: تاريخ دمشق ١٩/٤٩، البداية والنهاية ٤٣/٧، الكامل في التّاريخ ٣٧٥-٣٧٦، تاريخ الطّبري ٣٢٤/٣. فيروز الديلمي: أبو عبد الله، وقيل أبو عبد الرحمن يقال له الحميري؛ لنزوله بحمير، وهو من أبناء فارس من فرس صنعاء، وفد على النبي ﷺ، قتل الأسود العنسيّ وقدم على رسول الله برأسه، وقال عنه النبي ﷺ: «رجلٌ مبارك من أهل بيتٍ مباركين»، مات فيروز في حدود السّتين للهجرة. الوافي بالوفيات ١٦٤/١٥.

(٤) ولاية مصر: ٧٦.

كثيراً من أخبار خولان وعلاقاتها مع جاراتها من القبائل التي افترشت كثيراً من أمواه اليمن منازل لها، ودياراً سكنتها، ورياضاً ارتاضت في فيئها، أو الأمكنة الأخرى التي انتقلت إليها.



ثانياً – منازل خولان:

إذا كانت اليمن من أكثر أصقاع جزيرة العرب ذكراً، وأبعدّها صيتاً واشتهاراً عند الناس في الجاهليّة والإسلام؛ للذي كان من بنيان أهلها للقصور والمحافد، وإقامة السدود التي أحيوا بمائها مفاوزهم، وخلّدوا حضارات سامقة على البيد والوهاد ما زالت أوابدها وآثارها تشهد بصنيع أولئك اليمانيّين، ولكن هذا لم يمنعهم من الانتشار في الآفاق والأراضي المترامية الأطراف إمّا لكلاً يصيبونه، أو لعدوّ يتجنّبونه، أو لعقيدة يدركون أنوارها ويؤمنون بها، لذا صار يشقّ على الباحث تحديد المنازل التي كانت تبسطها هذه القبيلة أو تلك في الجاهليّة، وصدر الإسلام والعصر الأمويّ، وإنّ الأمر في هذين العصرين أصعب؛ لمشاركة كثير من القبائل في الفتوح التي طالت أصقاعاً شاسعة ينوء بوصلها أهل العزيمة والصّبر. وليس الحديث عمّا يعرض للباحث في تحديد منازل هذه القبيلة أو تلك بالبدع والجديد ههنا، إذ سبق إلى التّنبية عليه، وبسط القول فيه ثلّة ممن عُنوا بجمع أشعار القبائل في غير ما أطروحة جامعية، لذا سيكتفى ههنا ببسط المُتعلّق منها بتحديد مواضع خولان^(١).

فأبرز ما يُشكّل على مَنْ يطلبُ منازل خولان ويسعى إلى ديارها، سعتها واشتمالها على إمكنة كثيرة، متّصلة بأراضٍ أُخرى، مثل أرض سبأ ومخلاف ذي جرة ومواقع حمير، وأصقاع بلحارث بن كعب وعنس، ومخلاف حضور بن عدي بن مالك، ومخلاف ألهان ومُقريّ، وحقل صعدة وأماكن أخرى.

ويتناول الحديث عن منازل خولان مواطنهم القديمة، وانتقالهم عنها لأسباب مختلفة إلى مواطن أخرى، ثمّ الوقوف على أبرز منازلهم وبلدانهم، والحدود التي امتدّت إليها، ومَنْ كان مجاوراً لهم من القبائل الأخرى، والبلدان التي ظعنوا إليها، ولن يكتفي بنسبة هذا الموضع أو ذاك إلى خولان، من

(١) انظر ما كتبه د. محمد شفيق البيطار في ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدّراسة) ٥٦-٥٧، وما كتبه د. علي أبو زيد في شعراء

تغلب ١/ ٣٤، وما كتبه د. مقبل الأحمد في شعراء حمير (الدّراسة) ٣٦.

دون تحديد أي بطونها سكنه، إن دلت المصادر على ذلك وأسعفتنا. ولا بدّ ههنا من التنبيه على أمرٍ مهمٍّ، وهو توسُّع الهمداني في تحصيل المواضع التي أفرغ فيها مجهوده وملاً تصانيفه الغنيّة، ممّا يُصعَّب على الباحث تحديدها بدقّة، أو التثبت من صحّة ضبطها جمعاء؛ لمعرفة اليمانيّين بأسماءٍ غير مألوفةٍ في السّراة والسّرو والمحفّد والمخلاف والمصنعة منها وغير ذلك^(١).

وقد صنعتُ في آخر هذه الدّراسة ممّا اجتمع لديّ من أسماء مواضع خولان ومنازلها مُعْجَماً مُسْتَلّاً من مصنّفات البلدان ومعجمات العربيّة، وشفعتُ ذِكْرَ كُلِّ موضعٍ بما قيل فيه - في مصادره القديمة

(١) سبق إلى التنبيه على هذا الأمر د. مقبل الأحديّ في شعراء حمير (الدّراسة) ٣٧.

السّراة: فيها ذكره ياقوت نقلاً عن الحازميّ: «الجبّال والأرض الحازجة بين تهامة واليمن، ولها سعة، وهي باليمن أخصّ، وقال قومٌ: الحجاز، هو جبّال مُحْجُزٌ بين تهامة ونجد، يقال لأعلاها السّراة، كما يقال لظهر الدابة: السّراة، وهو أحسن القول» معجم البلدان ٣/ ٢٠٤، وانظر القاموس واللّسان والتّاج (سري).

السّرو: من الجبل: ما ارتفع عن مجرى السّيل وانحدر عن غلظ الجبل، ومنه سَرو وخَيْرٌ وسرو وخولان. معجم البلدان ٣/ ٢٩١، وتهذيب اللّغة ١٣/ ٥٣، والقاموس واللّسان والتّاج (سرو).

المحفّد: واحد المحفّدين، لم أقف على اشتقاقه أو معناه على كثرة جريانه على ألسنة أهل اليمن، وهم ينعنون به القصور والحصون، وقد وردت هذه المفردة في النقوش القديمة بمعنى (البرج)، انظر: المعجم السبئي (حفد).

المخلاف: واحد المخاليف، وهي فيها ذكر ابن بريّ: كالأجناد لأهل الشّام، والكور لأهل العراق، والرّسّاتيق لأهل الجبال، والطّساسيج لأهل الأهواز. وقيل: المخلاف هو النّاحية والطّرف حتّى قيل أيضاً: كُلُّ بَلَدٍ مُخْلَافٌ، وقد عدّ الصّاغانيّ مخالفاً اليمن، فعُدّت أربعون مخالفاً، رتبت على حروف المعجم منها: مُخْلَافٌ أُيَيْنَ، ومُخْلَافٌ أَقْيَانٌ، ومُخْلَافٌ أَلْهَانٌ، ومُخْلَافٌ الْبَوْنُ، ومُخْلَافٌ بَنِي شَهَابٍ، ومُخْلَافٌ خَوْلَانٌ، ومُخْلَافٌ خَارِفٌ، ومُخْلَافٌ رَدَاعٌ، ومُخْلَافٌ بَيْيْحَانٌ... إلخ. اللّسان والتّاج (خلف).

وقد ذكر لها ياقوت الحمويّ اشتقاقاً طريفاً تلمّسه لما أعياه تطلّبه عند غيره فقال: «ولم أسمع في اشتقاقه شيئاً، وعندني فيه ما أذكره، وهو أنّ ولد قحطان لما اتخذوا بأرض اليمن مسكناً، وكثروا فيها لم يسعهمُ المقام في موضع واحد، فجمعوا رأيهم على أن يسيروا في نواحي اليمن؛ ليختار كل بني أبي موضعاً يعمرّونه ويسكنونه، وكانوا إذا ساروا إلى ناحية واختارها بعضهم، تخلّف بها عن سائر القبائل، وسماها باسم أبي تلك القبيلة المتخلّفة فيها، فسمّوها مُخْلَافاً؛ لتخلّف بعضهم عن بعض فيها» معجم البلدان ١/ ٣٧، ٥/ ٦٧.

وقد ورد ذكرها في النقوش، انظر: المعجم السبئي (خلف) ونَبّه الأكوع على ذلك فقال: «وقد ورد اسم (المخلاف) في الكتابات القديمة المزبورة على الحجارة بصيغة (خلف) اسماً للنّاحية - وذلك على سبيل المثال - كما في نقش - (جام) رقم (٦٢٩) وفي قوله (خَلَفَ يَمْنَع)؛ أي ناحية يَمْنَع».

المصنعة: واحدة المصانع، وهي الحصون، وقيل: المباني من القصور والآبار وغيرها، وبه فسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]. انظر: القاموس واللّسان والتّاج والمعجم السبئي (صنع).

— من أقوال السلف، وزَيَّنْتُ هذا الذكر بما وَقَفَ عليه من شعر قيل فيه أو في أربابه، مع تقديم أشعار خولان في ذلك على غيرها إن وجدت؛ لأنَّها المظنَّة والطلُّبَةُ في معرفة البلاد.

فأمَّا منازلهم القديمة التي ارتحلوا عنها إلى غيرها، فكانت في تِهَامَةٍ، إلى جانب قبائل عمرو بن معدٍّ — وهو قضاة — أيام كان معدُّ مقيمين فيها جميعاً، كأنَّهم يدُّ واحدة تُضَمُّهم المِجَاع، وتجمعهم المواسم، حتى وقعت الحرب بينهم، فتفرقت جماعتهم وتباينت مساكنهم. ذكر البكري فيما نقل عن ابن الكلبي بسنده إلى ابن عَبَّاسٍ أنَّ ولد معدٍّ توازعا في البلاد ونواحيها قال: «فصار لعمرو بن معدٍّ ابن عدنان، وهو قضاة، لمساكنهم ومراعي أنعامهم جُدَّة من شاطئ البحر، وما دونها إلى متهى ذات عِرْق إلى حَيِّزِ الحرم من السَّهْل والجبل»^(١).

وظلَّت قضاة مجتمعة حتى وقعت الحرب بينها وبين نزار بن معدٍّ، وكانت أوَّل وقعة بينهما أنَّ حَزِيمَةَ بن مَهْد بن زيد بن ليث بن أسود بن أسود بن إلحاف بن قضاة كان يَتَعَشَّقُ فاطمة بنتَ يَذْكَر ابن عَنَزَةَ بن أسد بن ربيعة بن نزار، الذي وثب عليه فيما بعد حَزِيمَةُ وقتله، وفيه تقول العرب: «حتَّى يُؤَبَّ قَارِظُ عَنَزَةَ»^(٢) فكانت الحرب التي قهرت قضاة وبددت قبائلها وبطونها، وأجلتها عن منازلها، فسارت بلي وبهراء وخولان، وهم بنو إلحاف بن عمرو بن قضاة، ومهرة بن حَيْدَان ومن لحق بهم إلى بلاد اليمن، فوغلوا فيها حتى نزلوا مأرب، أرض سبأ بعد افتراق الأزدي منها، وأقاموا بها زماناً حتى أنزلوا عبداً لأرأشَةَ بن عامر بن عَيْلَةَ البلوي، يقال له أشْعَبُ في بئرٍ بمأرب، وأدلوها عليه دلاءهم، فطفق الغلام يملأ لمواليه ويؤثرهم، ويبطئ عن زيد اللَّات بن عامر بن عَيْلَةَ، فغضب، فحط عليه صخرة، وقال: دونك يا أشعب، فدَمَعَتْهُ، فاقتتل القوم، ثُمَّ تَفَرَّقُوا، فمالت مهرة بن حَيْدَان إلى الشَّحْرِ، ونزلت خولان في مخلاف خولان، وفيهم قال المثلُّمُّ بنُ قرطِ البَلَوِي:

(١) معجم ما استعجم «المقدمة» ١٧/١.

(٢) معجم ما استعجم «المقدمة» ١٩/١ - ٢٠. أمَّا رواية الهمداني في تفرق قضاة فيقول: «إنَّ عامراً ماء السَّاء بن حارثة جَرَدَ وَنَدَبَ إلى السَّاء بأمر الملك الملقط بن عمرو أحياء قضاة، وَوَلَّى عليهم زيد بن ليث بن سُود، فلمَّا صاروا بالحجاز يريدون السَّاء، اختلفوا على أميرهم زيد بن ليث، فافترقوا عنه، فمنهم من رجع إلى اليمن، وهم: خولان ومَهْرَة ومجيد، ومنهم من نزل الحجاز وهم بلي وبهراء.... إلخ» معجم ما استعجم ٥١/١ - ٥٢.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْحَيَّ كَانُوا بِغِبْطَةٍ بِمَأْرَبٍ إِذَا كَانُوا يَجْلُوثُهَا مَعَا
بَلِيٍّ وَبَهْرَاءٍ وَخَوْلَانٍ إِخْوَةٍ لِعَمْرٍ وَبَنٍ حَافٍ فَرَعٍ مَنْ قَدْ تَفَرَّعَا
أَقَامَ بِهَا خَوْلَانٌ بَعْدَ ابْنِ أُمِّهِ فَأَثَرِي لِعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَوْسَعَا^(١)

وانصرفت جماعة من تلك القبائل راجعين إلى بلادهم من تهامة والحجاز، فقدموها وأقاموا بها^(٢)، وبقيت خولان في ديارها القديمة، ولمَّا تُغَادِرْهَا إِلَّا بَعْدَ نَشُوبِ الْحَرْبِ بَيْنَ بَطُونِهَا الَّتِي سِيَّاتِي الْحَدِيثُ عَنْهَا لَاحِقًا.

فأما خولان العالية، فهي ميزة مكانية لهم، لأنهم ارتفعوا من مأرب الكائنة بصرواح - وهو قصر لهم - إلى جبال شرقي صنعاء، فسَمُّوا خولان العالية، وهم الذين ذكرهم النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ في كلامه عندما قال: «اللهم صلِّ على السَّكَّاسِكِ، وعلى الأملوك، أملوك ردمان، وعلى خولان العالية»^(٣).

وأما مَنْ بَقِيَ مِنْ خَوْلَانٍ فِي الْغَوْرِ بِمَأْرَبٍ فَخَرَجُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مُخْلَافٍ صَعْدَةٍ وَحَقْلَهَا، الَّذِي يُشَكِّلُ مَخْتَزَلًا مِنْ بِلَدِ هَمْدَانَ^(٤)، فَسَمُّوا هَؤُلَاءِ بِخَوْلَانِ صَعْدَةٍ أَوْ قِضَاعَةٍ، وَهَذَا التَّمْيِيزُ لَا يَتَكَيَّ عَلَى حَقِيقَةٍ يُمْكِنُ رَدُّهَا إِلَى اخْتِلَافِ النَّسَبِ، وَإِنَّمَا نَشَأُ مِنْ اخْتِلَافِ طَبِيعَةِ الْمَكَانِ: «إِنَّمَا قِيلَ خَوْلَانِ الْعَالِيَةِ؛ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْبِلَادِ، لَا الْفَرْقِ بَيْنَ النَّسَبِ، كَمَا يُقَالُ فِي أَرْذِ شَنْوَةِ وَأَرْذِ عِمَانٍ، وَلَا إِشْكَالُ فِي أَنَّ الْجَمِيعَ مِنَ الْأَرْذِ، وَكَمَا يُقَالُ: طَيِّ السَّهْلِ وَطَيِّ الْجَبَلِ، وَخَوْلَانِ الشَّامِ وَخَوْلَانِ الْيَمَنِ، وَهَمْدَانِ الْجِبَالِ وَهَمْدَانِ الْبُونِ»^(٥).

(١) انظر: معجم ما استعجم «المقدمة» ٢٧/١.

(٢) انظر: معجم ما استعجم «المقدمة» ٢٨، ١.

(٣) صفة جزيرة العرب ٢٣٥، شمس العلوم ٤٧٢٤/٧.

(٤) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٤٨، شمس العلوم ٤٧٢٤/٧.

(٥) الإكليل: «المخطوط ١/٦١-٦٢، المطبوع ٢٨٠/١»، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٠١/٢.

ولعلّ في هذه المقالة ما يلامس الصّواب؛ لأنّ منازل الخولانيّين تكاد تكون متّصلة في شمال اليمن من نحو نجران ومأرب حتى صعدة - قاعدتهم ومخلافهم - فما والاها من الجبال الواقعة غربها المشرفة على تهامة، انحدر منها فروعٌ أودية تصل بمخلافهم، واتصال البلاد دليلٌ في الغالب على تقارب الأنساب وتداخلها^(١).

افترشت خولان العالية صقعا لها ما بين شرقي صنعاء ومأرب - مخلاف خولان - الذي يتّصل بمخلاف آل ذي جرة بن يكلّ بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدّ من جنوبيه إلى ما يحاذ بلد عنس والحدّا من مُراد^(٢)، حتى يبلغ هذا الاتّصال درجة الاختلاط والتّماهي؛ لأنّ خولان وذا جرة جلال^(٣).

ويسمى مخلاف ذي جرة وخولان خزانة اليمن، لما له من الخيرات الوفيرة^(٤)، وتمتدّ بلادهم على جميع الجبال والمرتفعات في الصّقع المذكور، لا يشاركهم فيها أحد، حتى بلاد نهم ومُرهبة من همدان ومُراد وبلحارث حيث يكون جبل الرّضراض حدّاً بينهم وبين هذه القبائل في شمالي صنعاء^(٥).

ولم أجد فيما وقفت عليه من مصنّفات الهمدانيّ - الذي لطالما كان المتكأ عليها في رسم منازل خولان العالية - ما يساعد في فرع مخلاف خولان العالية عن مخلاف ذي جرة، وإذا كان الهمدانيّ قد ألع إلى تجاور المخلافيين وتداخلهما معاً، فإنّ هذا لا يُسوِّغ لنا القول بعدم الفصل بينهما. فنجد ابن خُرّاذب (ت ٢٣٥هـ) يجعل مخلاف ذي جرة مستقلاً عن مخلاف خولان العالية، بتقسيم سابق لعصر الهمدانيّ ومختلف عنه^(٦)؛ ممّا يحدو بنا إلى القول: أنّ المخلافيين كانا منفصلين غير متداخلين.

(١) انظر: الجوهريّين العقيقتين المائعتين: ٢٥٩.

(٢) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٣٥، البلدان لليعقوبيّ ٣١٩ وذكر شيئاً من في أثناء تعداده لمخاليف اليمن.

(٣) انظر: الإكليل ٢٨/١٠ وجلال: لفظة تدلّ على الاختلاط والتّجاور. وانظر: التّاج (حلل).

(٤) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٣٥.

(٥) انظر: صفة جزيرة العرب ١٥١-١٥٢، ٢٣٩، وفيها تحديد لشمالي صنعاء. وانظر: الجوهريّين العقيقتين المائعتين ٢٥٩، ونشر

المحاسن البيانيّة ٨١.

(٦) انظر: المسالك والممالك ١٤١، وعنه في أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم: ٩١.

وهذا ما يرجح لدينا أن تداخل المخلافين كان في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري في أقرب تقدير، وأكثر ما ترفدنا به تقسيمات الهمداني فيما يتعلق بفرع المخلافين، إدخاله في ذي جرة وجعله فيها، وهي منطقة بئر الخولاني الواقعة غربي جبل كَنَنْ^(١) الذي تقع بجواره قرية (جُرت) من الناحية الشمالية الغربية، ولعل في هذا ما يفيد في رسم الحد الفاصل بين مخلاف خولان العالية ومخلاف ذي جرة.

ثم يُعرِّج الهمداني على توصيف ذلك الصقع منتهجاً عَرْضَه - بناءً على سَعْتَه - وفق مجموعة ما يلف ذلك المخلاف من أودية يذكرها في نسق واحد من ناحية الشمال، مستهلاً بوادي السَّر، سرّ ابن الرّوية المذحجي الذي يحوي العيون والآبار، وهو من عيون أودية اليمن، وفيه أيضاً قرى كثيرة ومنازل لآل الرّوية للضيافة ولمن سبل الطريق، وفيه من جبال مراد، وجبل برجام من السَّر، ومناول آل الرّوية بأعفاف وحذان من السَّر ذاته، وفيه قرى كثيرة مثل: الأسحريين والبركة والقرظة، نزلتها أقوام من خولان يضاف إلى ذلك الجبال، منها: ذَبَاب - بفتح الذال - وصَرَع، وسامك، والفلكة، وأذير، ومن الأودية الصغيرة وادي سَعَوَان، وهو وادٍ يكاد أن يسنت سنين متوالية ثم إذا أقبل أتى بثمر كثير، وقد ذكره بعض قدماء حمير فقالوا: أهلك الأرض مسور، وأختها بتوعر، وأحور فأحور، وسعوان لو يمطر، ووادي مسور، ووادي التناغم، ووادي عاشر، ووادي رَمَك، ووادي غِيَمَان، ويفد، ويداع، وبليدات منها ما يزال عامراً ولها ذكر في التاريخ^(٢).

ووادي ملاحا بالجوف، وهي أرض فيها حُلَلٌ وغاباتٌ، وفيه غَيْلٌ وإليها يُنسب يوم (رزم ملاحا) بين هَمْدَان ومَذْحِج^(٣)، ووادي قروى، ووادي سيان، ووادي مقولة، ووادي خِدَار ووَعْلَان، ووادي سامك، ووادي دبيرة، ووادي مرحب، ووادي هروب، ووادي حبابض، ووادي يكل، ووادي

(١) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٦٥، معجم البلدان ٤/ ٤٨٤ (كَنَنْ) بكسر الكاف وفتح النون، تمييزاً له من (كَنَنْ) وهو جبل من أعمال صنعاء على رأسه قلعة يقال لها: قَيْلَة لبني الهُرْش. وانظر: الجوهريين العقيقيين المائعتين: ٢٠١.

(٢) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٣) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٣٧.

الشزب، ووادي عرقب، وهما الحد ما بين ذي جرة وخولان وبين عَنَس ويُحَادَّهَا من ناحية القحف الحد بن نَمْرَة، ومن ناحية يكلَى جَيْرَة، وهي الحد بينها وبين عَنَس، ويختلط بأودية عَنَس: وادي بوسان، والأهجر بالشزب، وعرقب، ومن أودية ذي جرة إلى حريب عَنَس^(١). وبعد خروج بني سعد بن خولان من مأرب التي نزلتها في أول الأمر حينما فزعت من تهامة، مالت إلى صرواح^(٢) وافترشتها زمناً طويلاً حتى سيادة حجر بن ربيعة بن سعد الخولاني الذي خرج من صرواح؛ اتقاء لبعض ملوك حمير ليصير إلى الشام، فمرّ بحقل صعدة فسرّه ما رآه من خضرة واخضرارٍ، فاختلط فيه واقتطع هو ومن معه، ثم نزل عليه بنو شهاب بن العاقل، وبنو بنيه عائدين من ضَرِيّة؛ ليسكنوا مع آل عبد الله ذي الأفراس بن سكك، فسألوه الحلف والمظاهرة لمّا أعجبهم حقل صعدة، فأجابهم إلى ذلك، وأشركهم في الحمى^(٣).

أمّا عن الخولانيّين الذي رغبوا عن الغور، وقصدوا صَعْدَة، فهم الأديم من خولان، (بنو بشر وبنو يعنق) احتلفوا وكتبوا حلفهم في أديم، فسَمُّوا به الأديم، ونزلوا صعدة^(٤)، وهي مخلاف واسع - أكثر سكّانه من الأديم - يدخل بعض من أجزائه ضمن مخاليف تهامة وأعالي السّراة إلى سراة جَنُب في الشّمال، ويتّصل بعض أنحائها شرقاً ببلد وادعة النّجدية^(٥)، وهو تقسيم إداريّ نجده عند ابن خرداذبه (ت ٢٣٥هـ) وعند اليعقوبي (٢٩٢هـ) وفق ذكرهما (لمخلاف صعدة) مُفْرَدَاتٍ عند الأوّل في أثناء تعداده أقسام اليمن ومخاليقها، كجزء كبير يتضمّن عدّة مخاليف، ذاكرًا في ذيل ذلك

(١) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٣٨.

(٢) انظر: الإكليل ٨/٧٥، الإكليل: المخطوط ١/٦١، ١١٤، ١١٩-١٢٠، المطبوع ١/٢٧٧، ٤٤٦، ٤٥٦-٤٥٧، معجم ما استعجم ٣/٨٣١، معجم البلدان ٣/٤٠٢.

(٣) انظر: الإكليل: المخطوط ١/١١٩، المطبوع ١/٤٥٦-٤٥٧.

(٤) انظر: الإكليل: المخطوط ١/٩٤، المطبوع ١/٣٩٠، والإكليل ١٠/١٨٣، معجم ما استعجم ٣/٨٣٢، ٨٣٣، صفة جزيرة العرب ٢٥٠، شمس العلوم ٤٧٢٤/٧ وفيه: «خولان قضاة، حتى قيل: إنّ مَنْ يجعل صعدة من خولان يقولون لمن بجبال الغور: خولان المغرب، ولمن بنواحي صعدة خولان المشرق، ولمن أقام منها باليمن الأقصى خولان اليمن، ولمن بنواحي صعدة: خولان الشّام».

(٥) انظر: صفة جزيرة العرب: ٢٥٠.

«مخلاف نجدي خولان ذي سخيم وغورِيها» الذي يتداخل معه الجانب النجدي والغور - السّراة - من خولان صعدة^(١). التي تمتدّ بدءاً من الشّمال بسراة جَنْبَ والعُرّ وأنّافيه وأبراق من ناحية بيش - وهي مواضع لخولان - حتّى جبل أبْذَر، وهو لبني عوير من آل ربيعة بن سعد بن خولان، وجنوباً أرض ساقين. ويطلق على هذا الامتداد: سَراة خولان، أو القَدّ الذي ينتهي عند تهامة غرباً^(٢).

يقع في هذه السّراة الطّويلة التي استوطنتها خولان مجموعة روافد ورؤوس مجارٍ لأودية تنتهي عند تهامة من أشهرها: وادي مور الذي يصفه الهمدانيّ بـ(ميزاب تهامة الأعظم) إذ تأتي روافده من بعض غربي حمير وغربي بلاد همدان جميعها، وبعض بلاد غرب خولان^(٣)، ثمّ يتلوّه وادي بني عبّس، فوادي حيران وخذلان وما بينهما من أسفل حَجُور من بلد همدان وإلى الجنوب من سراة خولان مباشرة ومن ثمّ باتجاه الغرب حيث تهامة^(٤).

ثم وادي حرض، وله فرعان: الجنوبيّ الذي تأتي روافده من بلد همدان، والشّمالِي تأتيه روافده من بلد خولان - بلد بني شهاب بن العاقل - حيث يلتقي الفرعان في السّرين، لتمدّ الوادي عند أعلاه في اللّصاب، شِعَاب يَمَنّة بلد خولان وَيَسْرَة بلد همدان، ويصب في السقيفتين في ناحية تهامة^(٥)، وأودية أخرى يطول ذكرها^(٦).

(١) انظر: المسالك والممالك ١٣٦ وما بعدها إذ يذكر ابن خرداذبه في أثناء تعداده لمخاليف اليمن. مخلاف صنعاء ثمّ مخلاف صعدة كمخالفين كبيرين يشملان القسم الشّمالِي من الهضبة الوسطى في اليمن بدءاً من صنعاء وما يجاورها ثمّ يذكر مخاليف أخرى أصغر من السابقين مرتبطةً بهما، كأن يذكر من هاتيك المخاليف الصغيرة التابعة لمخلاف صعدة أو المرتبطة بها - مخلاف نجدي خولان ذي سخيم وغورِيها) ويُدلّ على هذا ما ذهب إليه قدامة بن جعفر حين جعل صعدة مشتملة على مخاليف كثيرة. البلدان ٣١٨، انظر الخراج وصناعة الكتابة، ٨٣، ٨٦. ويرد أيضاً خولان ذي سخيم - اسماً لمخلافٍ مستقلٍّ يرتبط بمخلاف صعدة. تاريخ صنعاء ١٩، نزهة المشتاق ١/ ١٤٧.

(٢) انظر: صفة جزيرة العرب ١١٦.

(٣) انظر: صفة جزيرة العرب ١٢٣.

(٤) انظر: صفة جزيرة العرب ١٢٤.

(٥) انظر: صفة جزيرة العرب ١٢٥.

(٦) انظر: انظر رسم هذه الأودية بترتيبها في: معجم بلدان خولان الذي دُوِّلت به هذه الدّراسة.

ومن المواضع المهمة التي افترشتها خولان المَهْجَمُ، الذي أقامت في أعلاه مجاورَةً لبعض قبائل عَكَ التي سكنت في أسفله^(١)، كما نزلت خولان وادي العمود الكائن إلى الشمال من مجرى وادي بيش في بطن تهامة متقاسمين سكناه مع قبائل من الأزد وكنانة^(٢).

أمّا في شرقي صعدة وحقلها فكانت تقيم وادعة من قبيلة همدان غربي وادي نجران^(٣)، وكذا الأمر في وادي ضح التّابع لشاكر من همدان نفسها^(٤).

ويجملُ الهمدانيّ توزّع بطون خولان، وانتشارها في مخلاف صعدة الواسع قائلاً: «سكنها الأكيليّون من آل ربيعة بن سعد الأكبر بن خولان، ويُرسَم، جماعُ قبائل من الكَلّاع، ومن همدان ومن سعد بن سعد، ومن باقي بطون خولان وغيرها، وفيها بيت من الأبناء^(٥): البَطْنَةُ، والغَيْلُ، والعَشَّةُ لبني سعد بن سعد، وسروم خولان، وحَضْبَر والأَخْبَاب لبني سعد، والحاضنة، وصبر لوادعة، والخبت لمسلم، وسَبّاق من بني سعد، وقراظ ويسنم لبني سعد، ورغافة وبوصان لبني جماعة من خولان، ويشاركهم فيها بنو رشوان بن خولان، سراتها إلى دفا لبني ثور والأبقور ورازح، ودفا لبني صُحّار ابن خولان، وقِيوان وأنا فيه لهم ولبني حذيفة والأبقور، وغيلان لرازح من خولان، وعراش لبني بحر من آل الرّبيعة، ووسحة لبني بشر، وبني يعنق وهم الأديم من خولان، ساقين لبني سعد بن سعد وبني شهاب، وعفارة وحيدان لبني شهاب بن العاقل من كندة أحلاف آل ربيعة، وتضراع لبني حمرة، وموطك لبني حمرة من سعد، والعبلاء وكهلان لبني حمرة، وكُنّا لبني سعد،

(١) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٥٨.

(٢) انظر: صفة جزيرة العرب: ٢٥٩.

(٣) انظر: صفة جزيرة العرب ٣١٨، ٢٤٩-٢٥٠.

(٤) انظر: صفة جزيرة العرب ١٦٥، ٢٤١.

(٥) الأبناء: هم أبناء الفرس الذين جاؤوا مع سيف بن ذي يزن الحميريّ؛ لنصرة أهل اليمن على الأحباش، وإخراجهم من أرض اليمن، ثم بقوا فيها مع سيف وبعده، حتّى طلع الإسلام وعليهم يومئذ باذان، وقد امتدّت علاقاتهم بالعرب إلى درجة المصاهرة ودخل كثيرٌ منهم في الإسلام.

والعرض لبني ثور بن سعد، والقفاعة سوق المعدن لحمرة^(١)، والسرو وحر جب لبني حي بن خولان، وعَنْمَل وبدر لبني حيّ، والمذرى وعرو وخر للرع^(٢)، فهذه بلد خولان على حدّ الاختصار وأغوارها داخلة في تهامة^(٣).

ولما وقعت الحرب في الجاهليّة بين بطون خولان - بني حَيّ وبني سعد - ظعن الحَيَوَانِيّون إلى صعيد مصر^(٤)، كان ذلك أوّل انتقال لهم - تقفنا عليه المصادر - إلى خارج منازلهم التي نزلوها حينما تفرّقت قبائل قضاة من اليمن.

ولما أشرقت الدّنيا بنور الإسلام وفُتِحَتْ بلاد الشّام ومصر، انتقل كثيرٌ من الخولانيّين من ديارهم، فسكن عدد منهم في مدينة دمشق^(٥)، واتَّخذوا من إقليم خولان صقعا لهم، وهو يضم قرى وبليدات عدّة منه عذراء في غوطة دمشق^(٦) ومال آخرون إلى داريا، وهي قرية مشهورة من قرى دمشق بالغوطة، وكانت أعظم قرى أهل اليمن بغوطة دمشق^(٧). وسكن آخرون مَيْدَعَا التي كانت لمعاوية بن أبي سفيان^(٨) ونزل بعضهم في الصّفوانيّة^(٩) الكائنة خارج باب توما من الإقليم ذاته، كما تدلّ بعض الأخبار على أنّ بعض الخولانيّين قد سكنوا حمص بعد فتحها^(١٠).

(١) وردت (الحرّة) مُصَحَّفةً ولا معنى لها، ولعلّها حمرة، وهكذا صحّحها الأكوّع. وعَلَّقَ الشَّيْخُ حمد الجاسر - رحمه الله - بقوله: «وقد تكون قراءته صحيحة؛ فهم من بني سعد من خولان، وقد تكون (لِحَيّ) من فروع خولان أيضاً، ذكر الهمدانيّ بلادهم بعد كلامه عن القفاعة» انظر: الجوهريّين المائعتين العقيقتين: ٢٥٨.

(٢) انظر: رسم هذه المواضع مرتبة في معجم بلدان خولان الملحق بهذه الدّراسة.

(٣) صفة جزيرة العرب ٢٤٩-٢٥٠.

(٤) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٦٣، ٦٩، المطبوع ١/٢٨٦، ٣٠٦».

(٥) انظر: رسم دمشق في معجم بلدان خولان الذي دُوِّلت به هذه الدّراسة.

(٦) انظر: رسم عذراء في معجم أسماء مواضع خولان الذي دُوِّلت به هذه الدّراسة.

(٧) انظر: تاريخ داريا ٩، وانظر: رسمها في معجم أسماء مواضع خولان الذي دُوِّلت به هذه الدّراسة.

(٨) انظر: رسم ميدعا في معجم أسماء مواضع خولان الذي دُوِّلت به هذه الدّراسة.

(٩) انظر: رسم الصفوانية في معجم أسماء مواضع خولان الذي دُوِّلت به هذه الدّراسة.

(١٠) انظر: رسم حمص في معجم أسماء مواضع خولان الذي دُوِّلت به هذه الدّراسة.

فهذه أشهر المواضع التي سكنتها خولان بعدما خرجت من موطنها الأصلي في تهامة مع أخواتها قبائل قضاة وسائر قبائل معد بن عدنان. ولوحظ فيما سلف اختلاط بطون خولان وعشائرها بغيرها من قبائل اليمن في كثير من المواضع التي نسبت إليها في اليمن، وكثيراً ما كان هذا الاختلاط مشفوعاً بالجوار، وهو مدعاة لنشوء علاقات متباينة بين خولان ومن خالطها أو جاورها، وهي علاقات لا تخرج عن كونها علاقات جوارٍ ومودّة تارة، وأحلافٍ تارة أخرى، وعداوة وخصومة تارة ثالثة، وهذا ما سيعالجه المبحث الآتي من علاقة خولان بجوارها من القبائل العربية، و غيرها من الأمم المجاورة، ولا سيّما الأحباش والفرس، الذين دخلوا اليمن وكان لخولان دورٌ مهم في تلك الحقبة من تاريخ اليمن السعيد.

ثالثاً - علاقات خولان وأيامها :

وقف الهمداني في مصنفاته التي انتهت إلينا، كالإكليل، وصفة جزيرة العرب، وكتاب الدامغة، على شيء يسير من أخبار خولان وأيامها، بل إن جزءاً كبيراً من أخبارها دخل في كتاب الأيام الذي اكتفى بالحوالة عليه، وهذا الكتاب ما يزال في عداد كتبه المفقودة - يسر الله وجودها - وقد ذكر محمد بن نشوان الحميري راوي الإكليل ومختصره (ت ٥٧٣هـ) أهمية كتاب الأيام في أثناء حديثه عن أهمية الإكليل، وما فيه من أخبار وأنساب وأيام وعلاقات فقال: «فتصنيفه فيه [يعني الإكليل] وفي سائر مصنفاته، كتاب الأيام ونحوه، يدل على غزير علم، وقوة فهم، وشدة فحص على أخبار الأمم، ومعرفة باهرة بأخبار العرب والعجم...»^(١).

ومن الحوالات التي وقف عليها في الإكليل على تضمين كتاب الأيام لأخبار خولان قوله: «وقد سكنت بها عشرين سنة [صعدة] فأطلت على أخبار خولان وأنسابها ورجالها، كما أطلت على بطن راحتي، وقرأت بها سجل محمد بن أبان الخنفرى المتوارث من الجاهلية، فمن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب، ومنها ما دخل في كتاب الأيام...»^(٢). وكثيراً ما كان يذكر علاقة خولان بغيرها من القبائل العربية بالتلميح، أو بإشارة سريعة دونما تفصيل أو توضيح مباشر؛ إذ أودع كتابه الأيام علاقات خولان وأيامها مع غيرها من القبائل التي كانت ضمن دائرة اهتمامه وعنايته^(٣)، أو علاقات بطونها بعضها ببعض لآخر.

١ - العلاقة بين بطون خولان:

لم تكن العلاقة بين بطون خولان وأفخاذها علاقة حميمة قائمة على التآلف والتعاضد ضد الأخطار الخارجية التي تهدد أمن القبيلة، بل كانت علاقة قائمة على التنافس وفرض الذات وإثباتها

(١) الإكليل: «المخطوط ١ / ١، المطبوع ١ / ٨١».

(٢) الإكليل: «المخطوط ١ / ٦٠، المطبوع ١ / ٢٧٥».

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ١ / ٦٦، المطبوع ١ / ٢٩٦». وفيها مثلاً لأيام خولان مع غيرها من القبائل العربية «حرب قضاة وحمدان».

بقوة السيف في غالب الأحيان، طمعاً في سيادة أو زعامة أو ثأرٍ يثلج صدوراً حاميةً، فتشتعل حربٌ ضرورٌ بين هذا البطن وذاك لتضع أوزارها في النهاية بجلاء البطن الأضعف عن أرض القبيلة في الغالب إلى أرض أخرى، ربما كانت بعيدة شاسعة، كما حدث لبني حَيٍّ بن خولان يوم أجلوا من صعدة إلى صعيد مصر.

وشأن خولان في هذا، هو شأن مثيلاتها من القبائل العربيّة التي ارتبط كثيرٌ من بطونها مع الأخرى بمثل هذه العلاقات التي كانت تفضي إلى جلاء هذا البطن أو ذاك، أو دخوله في قبيلة أخرى؛ طلباً للجوار والحماية.

ونجد خمس إشاراتٍ إلى بعض الحروب والوقعات التي وقعت بين بطون خولان؛ وأولها: ما ذكره الهمداني من أمر الحرب التي نشبت بين بني حَيٍّ بن خولان وبني سعد بن سعد بن خولان، لأنّ رجلاً من بني الحارث بن سعد قد خطب إلى بني حَيٍّ بعض كرائمهم، فأكبروا نفوسهم عليه، فدافعوه، فلما ألحّ عليهم بالطلب، قام بعضهم بالاعتداء عليه وحضّوه وإهانته، فغضب في ذلك بنو سعد بن سعد، واندلعت الحرب التي طالت بني حَيٍّ، فأجلوا عن ديارهم إلى مصر، وركب بعضهم البحر وغرق، وباتوا جُذاذاً ضِعْفاً حتى قال عمرو بن زيد - مغرق الأكبر في إجلائهم مفاخرًا:

فَأَلْحَقْتُ حَيًّا بِالصَّعِيدِ بِمَا جَنَوْا وَأَقْفَرَ مِنْهُمْ خُنْفُورٌ فَقَابِلُهُ^(١)

ووقف بنو شهاب بن العاقل بن ربيعة بن وهب بن الحارث الأكبر بن كندة إلى جانب بني سعد ابن سعد بن خولان؛ إذ هم أحلاف منذ عهد حجر بن الربيعه وابنه شَرْحِبِيل حتى عمرو بن زيد - مغرق الأكبر - ومن جاء بعده على عرش خولان، وفي تلك المحالفة قال المسلم بن صاعد الشّهابي:

أَخَذْنَا بِحَبْلِ الْقَيْلِ حُجْرٍ فَلَمْ نَزَلْ إِلَى غَايَةِ الْأَيَّامِ نَنْفِي الْأَعَادِيَا^(٢)

(١) الإكليل: «المخطوط ١/٦٣، ٦٩، ٩٥، المطبوع ١/٢٨٦، ٣٠٦، ٣٩٢» وفيها جاء نصّ الهمدانيّ محرّفاً مصحّفاً «فلم ألحّ

عليهم خصوه...» والصّواب ما أثبتّه. وانظر: الدِّيوان ق ٥/ب ٢.

(٢) انظر الدِّيوان: ق ٢٧/ب ١.

وَيُذَكِّرُ أَنَّ الشَّهَابِيِّينَ تَرَبَّوْا فِي أَحْضَانِ الْخَوْلَانِيِّينَ، وَتَرَعَرَعُوا فِي فَنَائِهِمْ، وَلَا سِيَّامَا بَنِي حَيٍّ بَنِ خَوْلَانَ الَّذِينَ لَقَوْا مِنْ حَيْفِهِمْ وَظَلَمِهِمْ مَا لَقَوْا، حَتَّى قَالَ خَالِدُ الْحِوَانِيُّ يَتَشَكَّى بَغْيِهِمْ وَتَنَكَّرَهُمْ لِلْفَضْلِ وَالْمَعْرُوفِ:

وَلَدْنَا السَّرَاةَ الْغُلْبَ مِنْ عَبْدِ مَالِكٍ فَقَامُوا عَلَيْنَا بِالسُّيُوفِ الْهَوَاتِكِ^(١)

وثاني تلك الحروب، أشار إليها الهمدانيّ إشارة سريعة، ولم أقع في المصادر على ذكر لها، وهي حرب فياض وثابت، وَلَدَيَّ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ النُّعْمَانِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ سَعْدِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ النُّعْمَانِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْفَيَّاضِ بْنِ حَرْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ خَوْلَانَ^(٢).

وثالثها تلك التي نشبت بين بني عوف بن زيد بن أسامة بن زيد بن أرطاة بن شَرْحِبِيلِ الْخَوْلَانِيِّ وَبَنِي حَيٍّ بْنِ خَوْلَانَ^(٣)، الَّذِينَ تَجَرَّؤُوا عَلَى الْمُخْرِزِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَسْعُودِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودِ الْعَوْفِيِّ وَقَتْلُوهُ، فَسَعَّرَتْ بِقَتْلِهِ الْحَرْبَ وَعَلَتْ أَلْسِنَتُهَا حَتَّى قَتَلَ بِهِ الْمُقْدَامُ بْنُ زَيْدِ الْحِوَانِيِّ - وَهُوَ سَيِّدُ بَنِي حَيٍّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ^(٤)، وَغَضِبَ فِي مَصْرَعِهِ سَادَاتُ بَنِي سَعْدٍ، وَلَا سِيَّامَا عَمْرُو بْنُ حَجَرٍ - أَبُو رَعَثَةَ الْأَكْبَرِ -؛ لِأَنَّهُ خَالَ أَبِيهِ، وَفِي قَتْلِهِ دَبَّ الْخِلَافُ بَيْنَ بَنِي مَالِكٍ وَبَنِي عَوْفِ ابْنِي أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَرْطَاةَ بْنِ شَرْحِبِيلٍ، وَتَفَرَّقَا فِيهَا بَعْدَ^(٥).

ورابعها: حرب سعد بن سعد، والرَّبِيعَةُ بْنُ سَعْدِ الْأُولَى فِي صَعْدَةٍ بِسَبَبِ قَتْلِ مُرِّ بْنِ عَامِرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ زَيْدِ بْنِ مُرِّ الْأَوْسَطِ يَنْكُفُ بْنُ مُرِّ ذِي سَخِيمِ الْأَكْبَرِ الْحَمِيرِيِّ لِلْحُصَيْنِ بْنِ حَرِيزِ الْخَنْفَرِيِّ

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ١٢٠-١٢١، المطبوع ٤٥٩/١». وانظر: الديوان ق ١٦/ب ١.

(٢) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٨/١، المطبوع ٤٠٢/١».

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ٨٧/١، المطبوع ٣٧٠/١».

(٤) انظر: الإكليل: «المخطوط ٦٣/١، المطبوع ٢٨٥/١».

(٥) انظر: الإكليل: «المخطوط ٦٣/١، المطبوع ٢٨٥/١». يقول الهمدانيّ واصفاً عمرو بن حجر الخولانيّ: «هو الذي قام برئاسة أبيه، وانقادت له قضاة اليمن كلّها بالطّعة، وكان سيّداً، غضب في قتل المقدام بن زيد؛ لأنّه خَالَ أَبِيهِ، وشاقَّ بني عوف بن زيد بن أسامة، فغضب معها بعض بني مالك، فقال سعد بن الليث المالكيّ لعمرو في فرقة قومه:

فِيَا عَمْرُو أَنْتَ أَخٌ لِلْبُوَّاسِ فَبُئِسَ الْخَلِيفَةُ إِذْ خَلَفَا»

الإكليل: «المخطوط ٧٠/١، المطبوع ٣٠٩/١» وفيه [ساق بني عوف] تصحيف.

الحميري - وهو أحد الأقوال المدد الذين بعثهم سيف بن ذي يزن مع نوال بن عتيك غلامه؛ لنصرة خولان وقبائل قضاة ومذحج على قبائل قيس عيلان (هوازن وسليم)، يضاف إلى ما سلف بثه الفرقة والفتنة بين صفوف الخولانيين وإخلاله بهم إلى هوازن التي أفشاها كل سر، ومزجه الغدر بالخيانة، وميله إلى بني سعد بن خولان^(١)، وكان ذلك قبيل الدعوة الإسلامية بمكة^(٢)، ومن قتل في تلك الحرب من الخنفرين: زرعة، ويزيد ابني الحصين.

وخامسها: الفتنة التي وقعت أيضاً بين بني سعد بن سعد، والربيعة بن سعد في عصر بني أمية بسبب قتل رفاعة بن أبان الخنفرى على يد عمرو بن زيد، سيد بني سعد بن سعد بن خولان، وفي قتله هاجت نيار الحرب بين أكبر بطنين في خولان^(٣). وأخرج محمد بن أبان بني حرب بن سعد بن سعد إلى قدس ورضوى في سنة إحدى وثلاثين ومئة، كما أخرج بني غالب بن سعد بن سعد إلى عروان من جبال مكة^(٤).

(١) انظر: الإكليل ٢/ ١٤١، ٢٤٩.

(٢) انظر: الإكليل ٢/ ٢٥٠.

(٣) انظر: الإكليل ٢/ ١٣١ وقد ذكر الهمداني فيه طلبه محمد بن أبان قتل أخيه رفاعة. ونص على سنة ولادته، وسنة وفاته فقال: «ولد في ولاية معاوية بن أبي سفيان في سنة خمسين، وتوفي في سنة خمس وسبعين ومئة، عاش خمساً وعشرين ومئة سنة، ودفن في رأس حذبة صعدة، وقد بقي على قبره صخرات منكسة. ولم يكن في عصر محمد بن أبان مثله نجدة، وفصاحة، وكرماً، وذمماً، وحسن جوار، ولين عريكة، مع شدة العارضة، وحما الأنف، وبُعْدِ الهمة، وأفسم وقد قتل أخوه رفاعة، أن لا يُظَلَّ رأسه سقفاً، ولا يضاجع امرأة، أو يأخذ بثأر أخيه، فقتل به ابن عميرة بن مَرْ... وقتل به عمرو بن زيد الغالبى فارس بني سعد مبارزة، وقتل به عمرو بن زيد سيد بني سعد، وهو قاتل أخيه رفاعة، وفيه يقول:

وَعَمْرُو بْنُ نَعْمَانَ أَفَاتَتْ رَحْمَتَا
فَأَمْسَى رَهِينًا بَطْنِ غَبْرَاءَ تَنْزَحُ
غُدَيْيَّةَ آلِي ثَمَّ سَارَ بِجَمْعِهِ
لِيَخْضِبَ رَوْقِيهِ دَمًا حِينَ يَنْطَحُ
فَلَقَيْتُ حَدَّ السَّمْهَرِيِّ لِبَانِهِ
فَطَلَّتْ تَرَائِقِيهِ تُرْشُ وَتَنْضَحُ

الإكليل ٢/ ١٣١، وفيه «تسعين» وهو تصحيف قبيح، ولا سيما أن الهمداني قد نص على أن محمد بن أبان ولد سنة خمسين وتوفي عن خمس وعشرين ومئة سنة أي سنة ١٧٥ هـ بداهة، فاحترس من أن يخلط أحد بين رسمي سبعين وتسعين، وفيه أيضاً «مرة» محرفاً، والصواب ما أثبتته.

(٤) انظر: الإكليل: «المخطوط ٨٣/ ١، المطبوع ٣٥٨/ ١» والإكليل ٢/ ١٣٣.

وقد سَعَّرَ نارَ هذه الحرب وأوقد فتيلها عمرو بن يزيد السَّعْدِيُّ سيِّدُ بني سعد وفارسها المغوار

الذي يقول:

شَبِيتُ لِقَاحِ الْحَرْبِ لَمَّا تَبَوَّخْتُ فَأَسْفَرَلِي مِنْ ضَوْئِهَا كُلِّ جَانِبٍ
وَوَازَرَنِي فِيهَا حُمَاةٌ أَعَزَّةٌ هُمُ الصَّيْدُ مِنْ حَرْبٍ وَسَادَةٌ غَالِبٍ^(١)

وكان الحارث بن عمرو السَّعْدِيُّ أحد السَّادَةِ الحكماء والأشراف المعدودين في خولان ينهى ابن عمّه عن إثارة الفتنة وتشبيب نار الحرب، ضارباً له في هذا الأمثال والعِبَر، لكنَّ البغي طما على عقله حتّى أفنى إخوانه، ثُمَّ قَتَلَ بتهوره وإصغائه لصوت الثَّار، وممّا قاله له الحارث:

يَا عَمْرُو يَا بَنَ يَزِيدٍ لَا تَكُنْ بَطِراً فَالْحَرْبُ أَرَدَتْ زُهَيْراً حِينَمَا جَارَا
ثُمَّ قَالَ يُوْبِّحُهُ وَيَقْرَعُهُ لَمَّا أَنهَكَتْهُ الْحَرْبُ:
فَلَدُونُكَ فَاجْرَعْهَا ذُعَافاً كَأَنَّهَا مِنَ الصَّابِ وَالذِّئْفَانِ تُمَزَّجُ بِالسُّمِّ^(٢)

ومن الذين كانوا يلومونه على تهوُّره في إذكاء نار الحرب وتسعيرها: عمرو بن زيد الغالبيّ - وكان ابن عمّه - الذي ما كاد يسمعُ بمصرع عمرو بن يزيد السَّعْدِيِّ حتّى يزيّد من وقود تلك الحرب ضراماً؛ إصغاءً لصوت الثَّار وحميّة الجاهليّة يقول:

سَلِي تُخْبِرِي يَا هِنْدُ هَلْ عَفْتُ مَشْرِبِي وَهَلْ عَافَهُ قَوْمِي بِجَنْبِ الْأَخَاشِبِ
عَشِيَّةَ سِرْنَا حَاشِدِينَ وَقَدْ بَدَتْ مِنْ الشَّمْسِ عَيْنٌ أَوْ تَوَارَتْ بِحَاجِبِ
وَقَدْ حَشَدَتْ فِيهَا ذُؤَابَةُ سَعْدِهَا وَحَيَّا عَيْدِي بِالْقَنَاءِ وَالْكَتَائِبِ
صَبَحْنَاهُمْ بِالْمَوْتِ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ وَقَدْ لَاحَ ضَوْءُ الْفَجْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ^(٣)
فَدَسَّنَا بَنِي عَوْفٍ بِزَوْرٍ وَكُلْكَلٍ وَمَلْنَا عَلَيْهِمْ مَيْلَةً بِالْمَنَاقِبِ

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٨-٩٩، المطبوع ٤٠٢-٤٠٣»، وانظر الديوان: ق ٨٦ / ب ١-٢.

(٢) انظر: الأبيات في الديوان: ق ٧٨ / ب ٤.

(٣) انظر: الأبيات في الديوان: ق ٧٩ / ب ١-٥.

جنى عمرو بن زيد الغالبى ثمرة تهوّرهِ وإصغائه لصوت الظلم والبغي، فأنهكته الحرب حتى ظعن ببني غالب إلى جبل يسُوم^(١) من وادي نخلة، وجبل عروان^(٢) في أعلى عَرَافَاتٍ^(٣)، وظعن أكثر بني حرب إلى الحجاز في العَرَجِ^(٤)، وتخلّف ببلد خولان مَنْ تَخَلَّفَ من بني حرب وبني غالب، وسائر بطون بني سعد في ظلّ الحارث بن عمرو السَّعْدِيّ وكنفه؛ لأنّه لم يدخل في تلك الحرب.

ونصّ الهمدانيّ على المهانة التي لحقت ببني غالب، والذلّ الذي لقوه من بني سُليّم وعامرٍ فقال: «وجاور عمرو بن زيد في زُبَيْدٍ وقتاً، ثُمَّ فِي خَنْعَمَ، ثُمَّ فِي بَنِي هَلَالٍ، ثُمَّ لَحِقَ بِنَبِيِّ غَالِبٍ إِلَى يَسُومَ وَعَرَوَانَ، وَكَانَ يَقُولُ أَشْعَاراً يَسْأَلُ فِيهَا جَرِيرَ بْنَ حَجْرٍ - وَكَانَ ابْنُ خَالَتِهِ - الْعُودَةَ، فَفَرَّقَ لَهُ وَأَعَادَهُ، مِنْهَا يَقُولُ:

فَأَصْبَحْتُ قَدْ وَدَعْتُ قَوْمِي وَمَعَشَرِي وَحَالَفْتُ هَمًّا مَا أَزَالُ أَصَاوِلُهُ
رَهِيْنَةً ذُلًّا، بَيْنَ نَرْجٍ وَمَكَّةِ كَذَلِكَ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ قَبَائِلُهُ
أُقَارِعُ كَيْدًا مِنْ سُليّمٍ وَعَامِرٍ وَحَقْدُهُمْ تَغْيِي عَلَيْهِ مَرَا جُلُهُ...»^(٥)

ولم يزل عمرو بن زيد الغالبى يترقّق في شعره للربيعة حتّى أُذِنَ له بالعودة التي لم تُرضِ محمّد بن أبان الخنفرى الذي رأى منه ما يكره، وفي هذا يقول الهمدانيّ: «لما عادت بنو غالب لم تلبث الربيعة أن رأت منها بعض ما تكره، فقال محمّد بن أبان يتلهّف على رجوعهم، ويلحى جريراً»^(٦) في قصيدة رائعة بديعة. منها قوله:

فَلَوْ كُنْتُ هَنَاءً فِي مَنَاكِبِ خَنْقَرٍ لِأَضَحْتُ بَنُو سَعْدٍ نَوَى لِلْمَرَا ضِحِ^(٧)
وَلَكِنِّي أَصْبَحْتُ فِي دَارِ غُرْبَةٍ أُمِدُّ عَلَى الْمَكْرُوهِ كَفَّ الْمُسَامِحِ

(١) انظر: رسم (يسوم) في معجم أسماء مواضع خولان الذي دُوِّلت به الدراسة.

(٢) انظر: رسم (عروان) في معجم أسماء مواضع خولان الذي دُوِّلت به الدراسة.

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/ ١٠١-١٠٢، المطبوع ١/ ٤١٢-٤١٣».

(٤) انظر: رسم (العرج) في معجم أسماء مواضع خولان الذي دُوِّلت به الدراسة.

(٥) الإكليل: «المخطوط ١/ ١٠٢، المطبوع ١/ ٤١٥». وانظر الأبيات في الديوان: ق ٨٣/ ب ١-٢، ٤.

(٦) الإكليل ٢/ ١٣٤ وانظر: شعراء حمير (الديوان) ق ١٠٤/ ب ٣٣-٣٥.

(٧) هناءً: بفتح الهاء وتشديد النون: ظرف بمعنى (هنا). والمراضح: واحدها مرَضاح، وهو الحجر الذي يرتضح به النوى أي يُدقُّ. ومعنى البيت والذي يليه: يتشكى الشاعر من مقامه في دار الغربة، ولو أنّه أقام في قومه بني خنفر لأذلّ خصومه بني سعد وتركهم - لذّهم - كالتوى حين يُدقُّ ويُعلّى بالحجارة.

بَنِي مَالِكٍ ضَعِيتُمْ الْمَجْدَ بَعْدَمَا خَضَبْنَا بِيضِ الْهِنْدِ سُورَ الْمَسَالِحِ^(١)
نَصَبْنَا لَهُمْ عِزًّا عَلَى كُلِّ مَنَهْلٍ فَمِلْتُمْ إِلَى غَدْرِ وَلَفْظَةِ مَازِحِ^(٢)

وقد جَرَّتْ علاقة المصاهرة بين محمد بن أبان الخنفرى الحميرى، وأحمد بن يزيد بن عمرو القشيبى العوسجى الحميرى - الذي كانت تحتة الفارعة بنت أبان حلفاً بينهم ذكره الهمدانى، ووقف على مساندة العوسجى للخنفرى في أثناء حربه لبني سعد فقال: « هذا الصَّهر وَحَد الحميرى، ودخل معه في حرب بني سعد بن سعد بن خولان، فأفرى فيهم، فلما تداعت سعد والرَّبيعة إلى الصُّلح، خَشِيَ على عقبه دوائر بني سعد بن سعد بن خولان، فظعن إلى أرض نجد... »^(٣).

فهذه هي الأخبار التي أمكن الوقوف عليها ممَّا يتَّصل بالعلاقات بين بطون خولان وأفخاذها، وهي عزيزة مقارنة بما وقف عليه أهل الفضل والعلم ممَّن عنوا بجمع أشعار القبائل وتدوين أخبارها وعلاقاتها. وننتهي من هذا كله إلى أنَّ ما وُقِفَ عليه من علاقات كان مبنياً على الذي وصل إلينا من قلم الهمدانى، ويبقى ناقصاً، ولكنه ليس بالإمكان مع انقطاع الزمن وتقادم العهد على تفلَّت هذه الأخبار وضياعها إلاَّ ما كان، عسى أن يقف واقفٌ يوماً على شيءٍ من أخبار القوم، وعلاقاتهم الهاجعة في مصنَّف ضائعٍ ممَّا صنعه الهمدانى، فينتهي إلى معرفة ما كانت بطون خولان تقيمه من علاقاتٍ وحروب.

(١) «قوله: سور المسالِح» كذا جاء، وله وجه، أراد أنَّهم يخضبون أسوار المسالِح بدماء من يجرسونها، والمسالِح: جمع مَسْلَحة، وهي قوم يرقبون العدو؛ لئلا يطرقهم على غفلة. وأميلُ إلى أنَّه محَرَّف عن (سود المسائِح) والمسالِح: جمع مسيحة: وهي ما وقعت عليه يد الماسح من الشَّعر. انظر شعراء حمير ق ١٠٤ / ب ٣٤. وقد ورد في التَّاج (سلح) أنَّ المسالِح: مواضع، وعليه أراد الشَّاعر أنَّهم يخضبون أسوارها بدماء من يجرسونها.

(٢) انظر: الإكليل ١٣٣/٢ - ١٣٤ وجاء فيه: «عمرو بن زيد الغالب... حتى إذا أذنوا... بسبب جرير بن حجر بن أبي رعدة... بعض ما تركه...» مصحَّفاً محَرِّفاً.

(٣) الإكليل ١٦٧/٢.

٢ - علاقتهم مع القبائل الأخرى:

أ - علاقتهم مع قبائل معد:

من قبائل معدّ المضريّة نسبة إلى مُضَر بن نزار بن معدّ، الذي ينتسب إليه عدد كثير من التّجمّعات القبليّة، أشهرها قبائل قيس عيلان بن مضر بن نزار، والرّبعيّة نسبة إلى ربيعة بن نزار بن معدّ، ومنها عبد القيس بن أفصى بن دُعَمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة، وعنزة بن أسد بن ربيعة. وقد طالعتنا المصادر بأخبار تبيّن بعض علاقات خولان وبطونها ببعض تلك القبائل التي ينتهي نسبها إلى معدّ بن عدنان.

واتّكاء على الأخبار التي وقفت عليها، فإنّ أقدمها خبر تلك الحرب التي وقعت بين قبائل نزار بن معدّ، وبين قبائل عمرو بن معدّ - وهو قضاة - ومنهم خولان، أيّام كانوا مقيمين في ديارهم في تِهَامَة، وديار نزار وقضاة متجاورة حينذاك، ونصّ البكريّ على اجتماع كلمتهم ووحدة حالهم كأنّهم يدّ واحدة على منّ عاداهم حتّى وقعت الحرب بينهم بقوله: «كأنّهم قبيلة واحدة في اجتماع كلمتهم واتّلاف أهوائهم، تضمّمهم المجامع، وتجمعهم المواسم، وهم يدّ على منّ سواهم حتّى وقعت الحرب بينهم، فتفرّقت جماعتهم، وتباينت مساكنهم»^(١)، وقد أشعل فتيل تلك الحرب قتل حَزِيمَة بن نهد بن زيد بن ليث القُضاعيّ لِيذْكَر بن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، حينما أبى أن يزوجه ابنته فاطمة في خبر طويل، فاجتمعت قُضاة على نزار بن معدّ، وأعانتهم على الأشعرين، واجتمعت نزار بن معدّ، وأعانتهم كندة، فاقتتل الفريقان، فقهرت قُضاة، وأجلوا عن منازلهم، وظعنوا مُنْجِدِينَ، فقال عامر بن الطرب بن عياذ بن بكر بن يَشْكَر بن عدوان بن عمرو بن قيس عيلان في ذلك:

إلى فلجات الشام تُزجي المَواشيا

لقد تأصّر الأرحام من كان نائيا

قُضاة أجلينا من الغور كلّ

لعمري لئن صارت شطيّراً ديارها

(١) معجم ما استعجم (المقدمة) ١٩.

وما عن ثَقَالٍ كَانَ إِخْرَاجُنَا لَهُمْ وَلَكِنْ عُقُوقًا مِنْهُمْ كَانَ بَادِيَا
بِمَا قَدَّمَ النَّهْدِيُّ لَا دَرَّ دَرُّهُ غَدَاةً تَمَكَّنَى بِالْجَرَارِ الْأَمَانِيَا^(١)

فكان بسبب ذلك انتقال خولان وبعض قبائل قضاة (بليُّ وبهراء ومَهْرَةُ بن حيدان) إلى بلاد اليمن، فوغلوا فيها حتَّى نزلوا مأرب: (أرض سبأ) بعد افتراق الأزد منها، وأقاموا بها زمناً، ثم أنزلوا عبداً لإراشة بن عامر بن عَيْلَةَ بن قِسْمِيلِ بن فَرَّان بن بليِّ، يقال له أَشْعَبُ في بئر بمأرب، وأدلوها عليه دلاءهم، فَطَفِقَ الغلام يملأ لمواليه ويؤثرهم ويبطئ عن زيد اللات بن عامر بن عَيْلَةَ، فغضب، فحطَّ عليه صخرة، فدمغته، فاقتتل القوم ثم تفرَّقوا أخرى، فنزلت خولان في مخلافها^(٢) (مخلاف خولان) الذي أشرنا إليه غير مرَّة^(٣). فهذا الخبر يدلُّ على طبيعة العلاقة بين خولان وأخواتها من قضاة، وبين بني نزار بن معدَّ عامَّةً. كما يدلُّ من جانب آخر على طبيعة العلاقة بين خولان وإخوتهم الذين نزلوا معهم أرض اليمن، وأكثر ما يعنينا ما كان بين أحد بطون خولان أو خولان مجتمعةً، وبين بعض قبائل معدَّ المضريَّة منها والربعيَّة التي وقف الهمدانيُّ على ذكرها في أخبار بني حرب بن سعد بن سعد بن خولان في خبر واحد فقال: «إنَّ بني حرب لما صارت إلى قُدْس من الحجاز وبها عَنَزَةُ [بن أسد بن ربعية بن نزار بن معدَّ] ومُزَيْنَةُ^(٤) [بن أدد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار] وبني الحارث، وبني مالك بن سُليْم [بن منصور بن عكرمة بن خَصْفَةَ بن قَيْس عَيْلَانَ بن مضر بن نزار] ناصبتهم الحربَ عَنَزَةُ، والذي هاج ذلك أنَّ رجلاً حَرَبِيًّا وآخر عَنَزِيًّا امتريا في جُدَاذٍ نَحْلٍ، فعدا الحربيُّ على العَنَزِيِّ فضربه ضربةً بتك بها يده، فعَدَّت بنو حرب يومئذٍ،

(١) معجم ما استعجم (المقدِّمة) ١٩-٢٥، ٢١، الأغاني ١٣/٥١-٥٢، مجمع الأمثال ١/٧٥ وفي طبعة صادر ١/٢٢١، وقد سبق إلى هذه الإشارة الدكتور شفيق البيطار في شعراء بني كلب بن وبرة (الدِّراسة) ٧٥.

(٢) انظر: معجم ما استعجم (المقدِّمة) ٢٧.

(٣) انظر: مبحث منازل خولان.

(٤) مُزَيْنَةُ: أمهم: وهي بنت كلب بن وبرة، تزوّجها عمرو بن أدد بن طابخة بن إلياس فولدت له عثمان وأوساً، فغلبت أمهما على نسبها؛ لنباهتها واشتهارها بين قبائل العرب. انظر: شعر مزينة وأخبارها في الجاهليَّة والإسلام: ١، وانظر: شعر مزينة في الإسلام: ١٣.

وهي ستمئة رجلٍ فأجلوا مَنْ في البلد من عنزة إلى الأعراض من خَيْبَرٍ، وقتلوا منها بشراً كثيراً، ثم ناصبتهم مزينة الحرب، وكانت أهل ثروة زهاء خمسة آلاف، فقتلوا منها مقتلة عظيمة، وأجلوا إلى السَّواحِل (١) من الجار (٢) والصَّفراء (٣) وأرض جشم... لا يدخلون الفُرْع (٤) إلَّا بجوارٍ وذمامٍ من بني حرب، وبقيت سُلَيْم، فناصرتهم بنو الحارث وبنو مالك بن سليم، وهم زهاء أربعة آلاف، وهم أهل الحرّتين والبقيع (٥)، فحاربوهم دهرًا فأجلوهم عن الحرّتين والبقيع، وقتلوا منهم عدداً كثيراً، وصارت بنو الحارث وبنو مالك لا يدخل منها الحرّتين والبقيع داخل إلَّا بدمامٍ من بني حرب... فلمَّا غلبت بنو حرب على تلك البلاد وقهرت، تعلّقت قريش بأصهارهم (٦) وأسند إليهم كلٌّ، وألقى أزيمة أمره في أيديهم، وغلبوا على طريق المدينة إلى مكّة فلم يسرها أمدٌ منهم إلَّا بخفارتهم (٧).

وهذا هو حال بني حرب مع القبائل السَّالفة الذِّكر، حتَّى إنَّ سيطرتهم على الطَّرِيق المؤدِّيَّة بين مكّة والمدينة استمرت إلى أيام المقتدر بالله (ت ٢٩٥هـ) الذي كان يُكرِّهُهُمْ على خفارتهم، ويجزل لهم العطاء على حمايتهم للقوافل التَّجاريَّة والحجيج.

(١) في المطبوع (السَّاحل) مُحَرَّفًا.

(٢) الجَّار: بالراء المهملة، وهو ساحل المدينة، وهي قرية كثيرة القصور، كثيرة الأهل على شاطئ البحر فيها يوازي المدينة، تُرْفَأ إليه السَّفن من مصر وأرض الحبشة، ومن البحرين والصَّين، نصفها في جزيرة من البحر، ونصفها في السَّاحل. معجم ما استعجم ٢/٣٥٥.

(٣) الصَّفراء: على لفظ تأنيث أصفر: قرية فوق يَنْبُع، كثيرة المزارع والنَّخل، ماؤها عيون يجري فضلها، وبين ينبع والمدينة ست مراحل، والصَّفراء على يوم من جبل رَضْوَى. ويسكن الصَّفراء جهينة والأنصار وتهد. معجم ما استعجم ٣/٨٣٦.

(٤) بضم أوله وثانيه، ثم عين مهملة، بلد حجازيٌّ من أعمال المدينة الواسعة، والصَّفراء وأعمالها من الفُرْع على الطَّرِيق من مكّة إلى المدينة، وهو من أشرف ولايات المدينة، فيه مساجد لرسول الله ﷺ نزلها مراراً، وأقطعَ فيها لغِفَارٍ وأسلمَ قطائع. معجم ما استعجم ٣/١٠٢١.

(٥) في المطبوع (التَّقِيع) مُحَرَّفًا. والبقيع: بفتح أوله وكسر ثانيه وعين مهملة، وهو موضع فيه أروم الشَّجر قالها الخليل. وبه سُمِّي بقیع الغرقد مقبرة المدينة. قال الأصمعي: قُطِعَتْ غَرْقَدَاتٌ في هذا الموضع، حين دفن فيه عثمان بن مظعون، ولهذا سُمِّي الغرقد، وهو في أصله نبت كان ينمو هناك. معجم ما استعجم ١/٢٦٥، معجم البلدان ١/٤٧٣.

(٦) كانت هناك مصاهرات بين بني حرب وقريش؛ لأنَّ بني حرب بن سعد بن خولان لا يزوجون أحداً إلَّا منهم أو قرشياً. الإكليل: «المخطوط ١/٩٦، المطبوع ١/٣٩٦».

(٧) الإكليل: «المخطوط ١/٩٧-٩٨، المطبوع ١/٣٩٨-٤٠٠».

ومن قبائل قيس عيلان بن مضر بن نزار، هَوَازِن وسُلَيم وهما قبيلتان كبيرتان كانتا على علاقة مع قبائل قضاة في اليمن، ومنها خولان، وقد غلب على تلك العلاقة التنافر والحرب التي سُعِرَتْ عندما فكّرت هَوَازِن وسُلَيم بغزو أرض زُبَيْد وديارها التي كانت قريبة لديار خولان وبعض قبائل قضاة في الصّقع اليمنيّ، ونصّ الهمدانيّ على الخبر في أثناء شرحه قول العباس بن مرداس السّلميّ:

وإن أدع يوماً في قُضاة تَأْتيني شَائِبُ بَحْرِ ذِي غَوَارِبِ مُزَبِدٍ

بقوله: «وإنّما معنى قول عباسٍ «وإن أدع يوماً في قضاة» يريد استنجاهه بهم لمحلاهم من بهراء وجهينة، إذ الدار بالدار، وإنّ زُبَيْدًا لا يغشاهم من تثليث إلا يتبع، فلا تسمح جهينة ولا بهراء بوطء بلد، لهم أكثره، ولسليم أقله، كما لم تسمح خولان ونهد وجرم - وهم مقابلون لزبيد بالمنشر مقابلة الحرب - بأن تطأ هوازن وسليم ديار زُبَيْد، وقد أتت الجميع النذيرة ساعتئذٍ، وهم على أشد ما كانوا من القتال، فاختلطت خولان ونهد وجرم بمذحج في موقفهم ذلك، وسار الجميع في لقاء هوازن وبني سليم، ومنها وقعت الحرب بين قضاة اليمن وبين بطون قيس»^(١) عِيْلَان. ويُلاحظ مما سبق أنّ خطر الحرب المزعومة جرّ بعض قبائل قضاة إلى عقد محالفة مع مذحج لتوحيد الصّف ودرء الخطر الذي بات يلوح خطره في الأفق، ويبدو أنّ ذلك الحلف لم يكن آمناً لكسر شوكة قبائل قيس عِيْلَان، فأشار علقمة بن زُيد أخو بني صُحَار بن خَوْلَان، أحد رجالات خولان وحكائها، باستنجاد سيف بن ذي يزن الحميريّ^(٢)، الذي أوفدوا إليه وفداً مؤلفاً من سبعين رجلاً فيه وجوه خولان وأعيانها وبعض بني شهاب بن العاقل، منهم كثير بن الصّلت بن المسلم الشّهابيّ الذي مدحه بقصيدة ندّ نظيرها منها قوله:

فَسَارَ نَحْوَكْ أَجْحَادُ غَطَارِفَةٍ مِنْ آلِ خَوْلَانِ حَمَّالُونَ لِلْمِنَنِ

(١) الإكليل: «المخطوط ١/ ٥٥-٥٦، المطبوع ١/ ٢٤٩-٢٥٠» وفيه: «... لجلالهم من بهراء... إلا يتبع... كما تسمح خولان ونهد...» بل إنّ إسقاط (لم) قبل الفعل تسمح يغيّر معنى الجملة كليةً. وأسقطها المحقّق سهواً وجاء في المخطوط «تسمح جهينة ولا بهراء...» أسقط الناسخ «لا» بدليل وجودها «لا بهراء» إذ إنّ السياق يدلّ على سقوط في الأصل.

(٢) الإكليل: «المخطوط ١/ ١٠٦، المطبوع ١/ ٤٢٥».

هُمْ خَيْرُ قَوْمِهِمْ، فَأَبْسَطَ رَجَاءَهُمْ يَنْتُحُوا بِخَيْرٍ لِمَا أُولَّيْتَ مِنْ حَسَنِ
فَاعْطِفْ عَلَيْنَا بِفَضْلٍ مِنْكَ يُبَلِّغُنَا دَارَ الْعَدُوِّ وَيَنْفِي رَيْبَةَ الظَّنِّ (١)

لَبَّى الملك الحميري نداء الخولانيّين وحلفائهم، فأمدّهم بأربعة أقوال: بمرّ بن عامر الذي قتله عمرو بن يزيد العوفيّ حينما أحلّ بخولان إلى هوازن، وأفشى كلّ أسرارها، وابن ذي فائش، والحصين وميمون ابني حريز الخنفرّي، ونوال بن عتيك غلام ابن ذي يزن، الملقّب بنازع الأكتاف؛ لشدة جبروته وفنكه (٢). فكانت الحرب التي استمرّت أمداً طويلاً، وكان فيها بنو شهاب إلّبا مع خولان على هوازن وسُليم، ولعلّ دخولهم في خولان ومناصرتهم لها كان بسبب مصاهرتهم لهم التي جرّتهم إلى حلف مكين. يقول الهمدانيّ: «... ثُمَّ دخلوا مع خولان [يعني بني شهاب] في حرب هوازن وبني سُليم، فكانوا أحمدَ مَنْ صدرت عنه هذه الأيّام، وفي ذلك يقول إبراهيم بن كُنيّف الشّهابيّ» (٣) في قطعة يفاخر فيها بمشاركتهم لخولان حروبها وانتصاراتها منها قوله:

وَسِرْنَا فِي قُضَاعَةٍ يَوْمَ سَارَتْ نَجَالِدُ مِنْ هَوَازِنَ مَنْ لَقِينَا (٤)

وكان من أيّام تلك الحرب يومُ الغُمير الذي قتل فيه عمرو بن يزيد العوفيّ عمارة بن مرداس السلميّ، أخا عبّاس بن مرداس السلميّ، الذي لم يكن بالحضرة، وشهد آخر هذه الحرب التي بدأها أبوه وعمه.

وذكر الهمدانيّ تطلاب مرداس قتلة ابنه عمارة، وأخذه بثأره فقال: «... فَلَمَّا قُتِلَ عِمَارَةُ، طَلَبَ مرداس بثأره...» (٥) مُحَرِّضاً ابنه عبّاس على ذلك، الذي توعدّ عمراً العوفيّ ومَنْ والاه بغارة لها منكبٌ حابٍ تدوي زلازله، يقول:

(١) انظر: الأبيات في الديوان: ق ١٨ / ب ٣ - ٥.

(٢) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/ ١٠٦، المطبوع ١/ ٤٢٥» والإكليل ٢/ ١٣٠، ٢٤٩.

(٣) الإكليل: «المخطوط ١/ ١٢١، المطبوع ١/ ٤٦١».

(٤) انظر: الأبيات في الديوان: ق ١٠٤ / ب ٤.

(٥) الإكليل: «المخطوط ١/ ٨٨، المطبوع ١/ ٣٧٤»، والدّامغة ١٨٧.

وَأَشْفِي غَلِيْلِي مِنْ سَرَاةٍ قُضَاعَةٍ بِكُلِّ صَقِيلٍ يَمْلَأُ الْكَفَّ حَامِلُهُ
فَمَنْ مُبْلَغٌ عَمْرُو بْنُ عَوْفٍ رِسَالَةٌ وَيَعْلَى بْنُ سَعْدٍ مِنْ ثَوْرٍ يُرَاسِلُهُ
بِأَنِّي سَأَرَمِي الْحَقْلَ يَوْمًا بِغَارَةٍ لَهَا مِنْكَبٌّ حَابٍ تَدْوِي زَلَا زَلُهُ^(١)

ومن شهد مصرع عمارة السلمي، عمرو بن معدي كرب الزبيدي الذي تمنى حضور عباس حتى يغب مما ذاقه أخوه يقول:

لَوْ كَانَ عَبَّاسٌ هُنَاكَ حَاضِرًا لَهَوَى، وَقَدْ خُضِبَ الْجَبِينُ بِعُصْفُرٍ^(٢)
وَقَدْ صَبَحْتُ بِهَا عُمَارَةَ عُذْوَةٍ وَالْبَيْضُ تَعْلُو فَوْقَهُ بِالْمَنْشَرِ^(٣)

ودارت الدائرة على سليم وهوازن، بعد قتال شديد، ترابط فيه القوم وتصابروا حتى تبالغوا المجهود، وكره كل فريق الآخر، وأصاب قبايل قضاة من هوازن وسليم أشرفها ووجوهها، ثم عطفت هوازن وإخوتها من سليم، فأصابوا من قضاة وجوهها، منهم حجر بن سعد الخولاني - وكان سيد قومه - فعظمه عباس بن مرداس على كل قتيل فقال فيه:

وَاسْأَلُوا سَيِّدَ الْفَرِيقَيْنِ حُجْرًا يَوْمَ سَارَتْ جُوعُنَا بِاخْتِفَالٍ^(٤)
مَنْ رَمَاهُ عَلَى الْفُؤَادِ بِسَهْمٍ فَتَقَتْ عَنْهُ مُحْكَمَ السَّرْبَالِ
تَرَكَتُ سَيِّدَ الْفَرِيقَيْنِ حُجْرًا يَبْحَثُ التَّرَابَ سَائِلَ الْجَرِيَانِ^(٥)

وقتل شهر بن يعلى بن سعد بن عمرو المالكي الخولاني، وعمرو بن الحارث الحيواني ومالك بن يزيد بن مسعود بن يزيد العوفي - وهو ابن أخي عمرو العوفي - الذي لم يكن له نظير ولا شبيه وهو القاتل فيه:

(١) ديوانه: ١٣٧، والدامغة ١٩٢ وفيها أبيات أخرى من القصيدة نفسها لم أثبتها.

(٢) العصفور: صبغ أحمر معروف، وأراد به الدّم.

(٣) ديوانه: ١٠٦

(٤) البيت في الدامغة برواية مختلفة: سَأَلُوا السَّيِّدَ الْمَهْدَبَ مِنْ مَالِكٍ كَبَشَ النَّزَالِ يَوْمَ النَّزَالِ.

(٥) انظر: ديوانه ١٣٤. بإضافة البيت الثالث من الدامغة ١٩٤.

لَمْ يَكُنْ فِي سَرَاةٍ قَوْمِي نَظِيرٌ لَابْنِ يَعْلَى وَمَالِكِ وَابْنِ حَارٍ^(١)

وعلى الرَّعْمِ من مصرع هؤلاء السَّادة من خولان، فإن عمرو بن يزيد العوفي يجير حكيم بن العَلاف - وهو من المقدّمين في الشَّرَف والسُّودد في هَوَازن وسُلَيم - عندما أسره بذات القصص من ديار نَهْد^(٢)، وكاد الأمر يتعاضم في بطون خولان وعشائرها الذين تداعوا للقتال بسبب إجارة العوفي لحكيم، لولا تفرقة عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي وحكمته فيهم^(٣).

ومن الأيّام المشهورة في تلك الحرب، يوم الكَدِيد الذي أشار إليه الهمدانيّ سريعاً دون بسط القول فيه، وترجّح كفة أولاء على قبائل قَيْس عَيْلان، لكنّ الناظر في تلك الأشعار، الممعن فيها، يجعل هذا اليوم في كَفّة خَوْلَان وحلفائها الذين أقضوا مضاجع بني سُلَيم، ونالوا منهم مقتلاً ومغنماً وفي هذا قال شاعر بني سُلَيم:

نفى نومي مصارع من سُلَيم على ماء الكَدِيد مع الصَّبَاحِ
ومنهم غارة من آل نَهْد ومن جنبي زُبَيد بالرّمَاحِ
ومن أبناء خَوْلَان بن عمرو هزأ بر في كَتَبَتِهَا الجَنَاحِ

وكانت تسمى كتيبة خولان بالجنّاح^(٤)؛ لما لها من قوّة وتأثير مُرَجِّحَيْنِ في المعركة. وثمة رواية أخرى ليوم الكَدِيد^(٥) وردت عند نفرٍ من العلماء، الذين جعلوه بين قبائل قَيْس، وقبائل كنانة الذي قتل فيه ربيعة بن مكرم فارس كنانة^(٦)، وليس بهيّن تحديد ما إذا كان يوم الكَدِيد هو وقعة واحدة اختلف العلماء في روايته، أو أنّ يكون في هذا الموضع أيّام عديدة، ووقعات بين قبائل عدّة وهو

(١) انظر: البيت في الديوان: ق ٤٢ / ب ١.

(٢) انظر: الدّامغة: ١٩٥.

(٣) انظر: الدّامغة: ١٩٨.

(٤) انظر: الدّامغة: ١٧٤.

(٥) الكديد: هو موضع على اثنتين وأربعين ميلاً من مكّة: معجم البلدان ٤/ ٤٤٢.

(٦) انظر: العقد الفريد ٥/ ١٧٤، الأغاني ١٦/ ٤٠، الأنوار ومحاسن الأشعار ١/ ١١٣، وأيّام العرب قبل الإسلام ١٤٩.

الأقرب إلى الحقيقة؛ لأنَّ إجماع العلماء على أنَّ يوم الكديد لسُّليم على كنانة واضحٌ، لا يدخله الشكُّ البتَّة، وما لقاء قضاة بقبائل قيس عيلان (هوازن وسُّليم) إلا وقعة أخرى تفرَّد بذكرها الهمدانيُّ، ولم يأتِ رواة الأيَّام على ما كتبه الهمدانيُّ، فظنَّ أنَّها وقعة واحدة.

ومن الأيَّام بين قضاة وقيس عيلان يوم بيشة «وكان يومئذ يوم تناصف بينهم»^(١) هكذا أورده الهمدانيُّ دون كثير القول فيه؛ لأنَّه أودع أيَّام قضاة - ولا سيَّما خولان منها - في مصنفٍ مستقلٍّ وسَمَّه بكتاب الأيَّام. وليس بالوسع القول فيه إلا بما قاله الهمدانيُّ من شعرٍ لعمر بن يزيد العوفيِّ مفاخرًا بما لقومه من منعةٍ وقوَّةٍ، وعلوِّ همَّةٍ، ذاكرًا رُكنَ مجدهم الذي يلوذون بفيئه كلِّما أدرَكهم خطبٌ، وألَمَّت بهم مُلَمَّةٌ:

فَلَا تَجْزَعُوا إِنِ اسْفَرَتْ مِنْ نَقَابِهَا	فَإِنَّا نُجْلِيهَا بِكُلِّ فَتًى شَهْمٍ
عَلِقْنَا كُمُوهَا فَاصْبِرُوا لِقَطِيعِهَا	وَلَا تَطْمَعُوا يَوْمًا بِعَافِيَةِ السَّلَمِ
فَإِنَّا لِنَا رُكْنًا نَلُودُ بِفَيْئِهِ	فَنَفْحَسُ مَنْ شِئْنَا وَيُضِيحُ فِي الرَّدَمِ ^(٢)

وفي ذلك اليوم يقول عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب... ابن هوازن لخولان ونَهْد وجرم وزُبَيْدٍ مفاخرًا بقوَّة قومه وأبناء عشيرته الذين لم يتقاعسوا عن مِرَاسِ الحرب التي فحسوا فيها خصومهم وقهروهم، لا يثنون إذا أصابهم مكروه، من قصيدة له:

نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الرَّوْعِ قَدْ عَلِمَتْ	عُلْيَا سَعْدٍ بَأْنَالَيْسِ نَأْتَلِفُ
سَارَتْ قِضَاعَةٌ فِي جَمْعٍ لَهُ لَجَبٌ	وَمَذْجُجٌ وَسَرَاةٌ كُلُّهُمْ أُتْفُ
دِسْنَاهُمْ بِصَفِيحِ الْهَنْدِ ضَاحِيَةٌ	حَتَّى الدَّلُوكِ وَفِيءِ الشَّمْسِ تَنْعَطِفُ
إِنَّا لَعَمْرُكَ مِنْ قَوْمٍ إِذَا غَضِبُوا	شَدُّوا الْعِنَاجَ وَثُنُوهُ وَمَا انْحَرَفُوا ^(٣)

(١) الدَّامِغَةُ: ١٧٨. الأبيات من البحر البسيط، وفي الشطر الثاني من البيت الأول كسرٌ في الوزن، ما استطعت إصلاحه، كما لم أجده في ديوان عامر بن الطفيل.

(٢) انظر: الأبيات في الديوان: ق ٤٩ / ب ١ - ٣، نفحس: ندوس، الرَّدَم: التَّراب وأراد: القبر.

(٣) الدَّامِغَةُ: ١٧٩.

ومنها أيضاً ما كان بين قبائل قضاة وحليفها مذحج، وبين هوازن في يوم قَطَقَط، ويوم رَسِيع، ويوم أَجْزَاعِ الْمَعَادِن، التي ذكرها المقدام بن زيد الحَيَوَانِي مجتنباً من معاني الفخر أَجْلَهَا وأرفعها، أَرَهَبَ بها عدوهم، منها المباكرة في الهجوم، والفتك بسيف أَحْكَمَ صُنْعُهَا، وامتلاك خيل جسيمة ممتلئة، في ظهورها المنأى عن الأذى، وفيها لمن خاف العدو مُتَعَزِّلٌ، وقد استباح حمى هوازن وأَذَلَّتْ رجالهم، وقهرت صناديدهم، وعَوَّلَت نساءهم اللاتي علاصوتهنَّ بالبكاء والعويل واللطم:

وَنَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ عَلَى مَاءٍ قَطَقَطٍ بِكُلِّ رَقِيقٍ الْحَدِّ مِنْ قُضْبِ الْهِنْدِ
وَيَوْمَ رَسِيعٍ قَدْ أَفْتَنَّا هِمَّا لَكُمْ بِكُلِّ تَلِيْعٍ مُعْكِرٍ مُدْمَجٍ وَرَدٍ
وَيَوْمًا بِأَجْزَاعِ الْمَعَادِنِ قَدْ دَعَتْ نِسَاؤُكُمْ بِالْثُّكُلِ وَالْوَيْلِ وَالنَّكَدِ^(١)

ويلاحظ ممَّا سبق أنَّ خولان شاركت قبائل قضاة اليمن حروبها مع قبائل عِيْلَان، وما كان منها من أيام ووقائع. وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أمر مهمٍّ هو إلماعُ الهمدانيُّ إلى أيامٍ ومناوشاتٍ كانت بين قبائل قضاة ومعها مذحج مع قيس عيلان، دون ذكر خولان صراحةً بين تلك القبائل، وذلك في أثناء شرحه البيت (١٩٢) من الدَّامِغَةِ التي يقول فيها:

وَنَحْنُ الْمَرْجُفُونَ لِأَرْضِ نَجْدٍ بِأَنْفِ قُضَاعَةٍ وَالْمَذْحِجِيْنَا

ثم يقول: «وأراد بأنف قضاة خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاة، ونهد... وجرم... ومن مذحج الحارث بن كعب والنخع وزبيداً وجعفى». وهؤلاء الذين يصالون أرض نجد ويحاربون قَيْسًا وَخِنْذَفًا^(٢). ثُمَّ يَأْتِي بعد هذا على ذكر أيام عديدة منها ما شاركت خولان فيه صراحة بناءً على تعليقه، ومنها ما شاركت فيها قبائل قضاة الأخرى دون ذكر خولان فيها صراحةً. من تلك الأيام يوم الخليج^(٣) ويوم تثليث^(٤) ويوم رَنْيَةٍ، ورَنْيَةِ الْقَرْيَاءِ^(٥) الذي انتصرت فيها قبائل قضاة على

(١) انظر الأبيات في الديوان: ق ١٤ / ب ١-٣، والدَّامِغَةُ ١٨٠.

(٢) الدَّامِغَةُ ١٧٣-١٧٤.

(٣) انظر: الدَّامِغَةُ ١٧٥.

(٤) انظر: الدَّامِغَةُ: ١٨١.

(٥) انظر: الدَّامِغَةُ: ١٨٢.

هوazan. والرَّاجِحُ أنَّ خولان شاركت في هذه الأيام جَمِيعَهَا التي كانت بين قبائل قضاة وقبائل قيس عَيْلان، لأنَّ السِّياق الذي ذكر فيه الهمدانيّ هذه الأيام - التي لم تذكر مشاركة خولان فيها - يوحى بذلك، ويشير بوجودها إلى جانب قضاة اليمن. ولا سيَّما أنَّ هذه الأيام ذكرها شعراء القبائل القضاة - أحلاف خولان - وليس من داعٍ في كل وقعة شاركت فيها خولان أن يذكرها شعراؤها؛ لأنَّ شأن الهمدانيّ في كتابه الدَّامغة التَّنبيه على الأيام والوقعات من دون التَّفصيل؛ لأجل الاختصار إذ يقول: «وقد نبَّهنا على كلِّ وقعة منها بيتين وبثلاثة لئلا يطول الكتاب؛ لأنَّ شأننا الاختصار، وقد جمع ذلك الحسن في كتابه المؤلَّف في مفاخر اليمن ووقائعها»^(١)، إذ لم يكن بمقدور الهمدانيّ - ما دام منهجه الاختصار - أن يأتي على كلِّ الشعر الذي ذكره الخولانيّون في الأيام التي خاضوا غمارها، فكان يذكر مرّة أبياتاً للنَّهديّ، وأخرى للخولانيّ، وثالثة للمذحجيّ، ورابع للنخعيّ.

ومن علاقات خولان بقبائل مضر بن معدّ بن عدنان ما كان مع بني تميم بن مُرّ بن أدّ بن عمرو - طابخة - بن إلياس بن مضر، عندما غزتها بنو الرّبيعة بن سعد بن خولان، وبلحارث بن كعب المذحجيين إلى الجفّار^(٢) بمعونّة بعض أذواء حمير في زمن الأَضْبَط بن قُرَيْع، والنَّمِر بن مُرّة بن حِمْان، فأَسَرَ قيس بن عاصم في خلق عظيم وقُتِلَ... وكان ممّن أسر بعض تيم وعكل، فلم يزالوا عبيداً حتّى جمع الأَضْبَط بن قُرَيْع، والنَّمِر بن مُرّة وفداً عظيماً، واستوهبوا ذلك السّبي، وأولئك الأسرى، ففي ذلك يقول جرير بن عطية الخطفيّ من قصيدة له:

يا تيم إنّ تميماً لن تزيدكم إلا الهوان فأَيّ الخير تبغونا
لم تشكروا نَمِراً إذ فكَّكم نَمِراً وابنا قُرَيْع من الحيّ اليانينا

(١) الدَّامغة: ١٨٣-١٨٤.

(٢) الجفّار: بالكسر ثم الفتح، وهي البئر القرية القعر الواسعة التي لم تطو، وهي ماء لبني تميم وتَدَّعيه ضُبَّة لنفسها، انظر: معجم

البلدان ٢/ ١٤٤.

تلقى أخا التميم مخضراً جحافله مُعذراً بعذار اللوم مرسونا^(١)

ومّا انتهى إلينا من شعر قيل في تلك الحرب ما قاله يعلى بن سعد الخولاني في مقطعة يصف فيها بني الحارث بن كعب المذحجين وقوتهم وشدة بأسهم في المعركة^(٢).

ومن أشهر الأخبار المتصلة بعلاقة خولان ببني ربيعة بن نزار بن معدّ، خبر إجلاء عمرو بن زيد - وهو مغرق الأكبر - قوماً من بني ربيعة بن نزار عن تهامة^(٣) الذي ألمع إليه الهمداني بإشارة عابرة، دون بسط القول فيه وتفصيله، وكذا فعل حينما لم يقف على يوم الحنو الذي تحدّث عنه بعبارة مقتضبة بسيطة في أثناء حديثه عن سيادة عمرو بن زيد الخولاني قائلاً: «شهد خزازي وله يوم الحنو، تقول خولان: قُتِلَ فيه عَتَّاب [بن سعد بن زهير بن جُشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن الأوس ابن تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة] جدّ عمرو ابن كلثوم التغلبي، وقُتِلَ معه حاطب بن حلزة [بن مكروه بن بُدَيْد بن عبد الله بن مالك بن عبد سعد بن جُشم بن ذبيان بن كنانة بن يشكر بن بكر بن وائل... سيّد بكر بن وائل]»^(٤).

وفي صنيع عمرو بن زيد يقول عمرو بن حجر الخولاني مفتخراً بالانتصار وزهوته في ذلك اليوم:

أَبَيْنَا، فَلَا نُعْطِي الْعَدُوَّ مَقَادَةً لَنَا السَّطْوَةُ الْغَلْبَاءُ يَوْمَ التَّغَالِبِ
أَلَيْسَ أَبُونَا قَادَ لِلْحَنُوِّ جَمْعُهُ فَفَارَ بَعْتَابٍ وَعَلَى بِحَاطِبٍ^(٥)

(١) وانظر ديوان جرير ٢/ ٥٤٣، والنمر بن حمان بن عبد العزى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وابنا قريع: الأضبط وحُدَّان ابنا قريع بن عوف بن كعب بن سعد... إلخ جمهرة أنساب العرب ٢١٩-٢٢٠.

جحافله: واحدها (جحفلة) وهي بمنزلة الشفة للخيل والحمير والبغال. اللسان (جحفل).

(٢) انظر: الأبيات في الديوان.

(٣) انظر: ترجمته عمرو بن زيد - مغرق الأكبر - في الديوان، والإكليل: «المخطوط ١/ ٦٧، ٦٩، المطبوع ١/ ٢٩٩، ٣٠٦» وجاء فيه: «وهو الذي قام بحرب ربيعة بن نزار بتهامة على قول خولان، والصحيح بأرض اليمامة وسنذكر من الصحة واللبسة ما نختم به هذا الجزء إن شاء الله تعالى» ولم يذكر الهمداني سوى ما رجّعته من كلامه السالف في المتن من إشارة سريعة لخبر تلك الحرب.

(٤) الإكليل: «المخطوط ١/ ٦٧، المطبوع ١/ ٣٠٠».

(٥) انظر الأبيات في الديوان: ق ٥٦/ ب ٣-٤.

ويبدو مما سبق أنه لم ينته إلينا من شأن هاتيك الأخبار ما ينقع بلة، ويشفي صادياً، فهي نحيلة نحول كثير من أخبار القبائل العربية الأخرى التي ربما كان طالع بعضها في هذا الجانب حسناً، ومرد ذلك إلى مشكلة الضياع التي ألفت بظلمها على كثير من أخبار الأمم السالفة.

والحديث عن تفلّت تلك الأخبار - ولا سيّما أخبار القبائل اليمانية - من أقلام العلماء والرواة يورث في الحلق غصصاً وفي القلب كُرباً وحرقاً، إذ لم نصب منها بعد بذل المجهود في التنقيح في بطون الكتب والمصنّفات غير ما وقف عليه الهمداني، وليس ما جمعه سوى غيض من فيض من أخبار القوم، وعليه كان معولنا في مبحث علاقة خولان بقبائل معدّ.

ب - علاقاتهم مع قبائل اليمن:

في قبائل اليمن كتلتان كبيرتان تعودان إلى قحطان: بنو كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ومنهم همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان، ومذحج، وهو مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، وغيرها يطول ذكره. وبنو أخيه حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، الذين شادوا مُلكاً عظيماً في اليمن، دام نحو ستة قرون ونصف (١١٥ ق.م، ٥٢٥ م) أي حتى قبل قيام دولة الإسلام في المدينة بنحو قرن (٦٢٢ م).

- خولان ومذحج:

وهي من بني كهلان بن سبأ التي يذكر الهمداني شيئاً من علاقتها بقبائل قضاة اليمن (خولان ونَهْد وجرم) التي ضربت آباط الإبل، وغذت السير مسرعة؛ لتختلط بمذحج، وقد لاح بالأفق شبّح حربٍ ضروسٍ تهدد به قبائل قيس عيلان في زمن سيف بن ذي يزن الحميري الذي توفي قبل انتشار الدعوة الإسلامية بنحو نصف قرن^(١).

(١) انظر: الإكليل: (المخطوط ٥٥-٥٦، المطبوع ١/ ٢٤٩-٢٥٠). وانظر: ص ١٥ من هذا البحث وفيها مدد الملك الحميري

سيف بن ذي يزن خولان بأربعة أقيال على قبائل قيس عيلان (هوازن وسليم).

ونقع على خبر آخر نجد فيه القوم يشحذون الهمم، ويتجهّزون لخوض غمار حرب حامية يفلقون فيها جماجم أعدائهم، وينتظمون كُلاهم برماحٍ مثقّفةٍ في يوم (خَزَازَى)^(١)، الذي يُعدُّ من أعظم أيّام العرب في الجاهليّة اشتهاً ودوراناً على ألسنة العلماء، فلا يكاد يخلو مصنّفٌ في جاهليّة العرب من ذكر انتصاف قبائل معدٍّ من القبائل اليمانيّة التي حازت شأنًا عظيمًا ومكانة عالية لم تكن لقبائل معدٍّ في الجاهليّة، لذلك انتصف رواة الأخبار لمعدٍّ من اليمن في الإسلام، ولا سيّما في عصر بني أميّة وبني العبّاس في الحين الذي نهضت العصبيّة فيه وتعاضمت، فعظّموا شأن تلك الأيّام، وأعلّوا من قدرها، ورفعوا من مكانتها بالزيادة والخلط؛ رغبة في الانتصار؛ ليصلوا بها إلى ما كان عليه أهل اليمن من علوّ وشرفٍ، فقد كان الرّجل من أهل اليمن: «يأتي ومعه كاتبٌ وطُفُفَسَةٌ يقعد عليها، فيأخذُ من أموال نزار ما شاء كعَمَلٍ صدقاتهم»^(٢) وكثيراً ما كان يشكّك العلماء القدامى بأخبار تلك الأيّام وتغليب اليمانيّة أو العدنانيّة، ويذهبون في هذا التشكيك مذاهبَ شتى، منها أن ما قيل في تلك الأيّام من شعرٍ إنّما هو منحولٌ من عصر الإسلام، يقول أبو عبيدة: «حدّثني المنتج بن نبهان، قال: وقف رؤية بن العجاج على التّيم بمسجد الحروريّة، فقال: يا معشر تيم، إنّني سمّرت عند الأمير تلك اللّيلة فتذاكرنا يوم الكلاب، فقال: يا معشر تيم: إنّ الكلاب ليس كما ذكرتم، فأعفونا من قصيدة صاحبينا- يعني عبد يغوثٍ ووعلّة الجرّمي- ومن قصيدة ابن المُعكبر صاحبكم، وهاتوا غير ذلك، فأنتم أكثر الناس كلاماً وهجاءً. قال رؤية: فأنشدناه في ذلك اليوم شعراً كثيراً، فجعل يقول: هذه إسلاميّة كلّها»^(٣). وبين يوم خَزَازَى ويوم السُّلّان^(٤) من التّداخل والارتباط ما يجعل الميزّة بين زمانها أو سببها أمراً عسيراً؛ لقلة ما في اليد من أخبار موثّقة عن تلك الحِقبة من تاريخ جاهليّة

(١) انظر: النَّقائض ٢/١٠٩٣، وطبعة دار صادر ٢/٢٦١، والإكليل: «المخطوط / ٦٧-٦٨، المطبوع ١/٣٠١»، والإيناس ١٧٠، والعقد ٥/٢٤٥، والعمدة ٢/٩٣٥، ومعجم ما استعجم ٢/٤٩٦، ومعجم الأمثال ٣/٦٤١ (صادر)، ومعجم البلدان ٢/٣٦٤، ونهاية الأرب ١٥/٣٠٣-٣٠٢، ٣٩٦-٣٩٧، ٤٢٠-٤٢١، والكامل في التّاريخ ١/٥٢٠-٥٢٢، والخزانة ٢/١٦٥-١٦٦، وتاريخ يعقوبيّ ١/٢٢٥، والتّاج (خز)، وأيّام العرب قبل الإسلام ٢/١٩، وأيّام العرب في الجاهليّة ١٠٩-١١١.

(٢) العقد ٥/٢٤٦، ونهاية الأرب ١٥/٤٢٠.

(٣) العقد ٥/٢٣٣.

(٤) يوم السُّلّان: قيل: هو يوم لبني عامر بن صعصعة على النعمان بن المنذر؛ بسبب لطيمة (وهي عيرٌ تحمل المسك) تعرّض لها العامريّون في أثناء طريقها لتباع في سوق عكاظ. انظر: أيّام العرب في الجاهليّة ١٠٧-١٠٨. وجوّالاته ثمة.

العرب، وليس بالإمكان إلا الاعتماد على القرائن الموجودة؛ لمعرفة أيهما أسبق على الآخر أو كان سبباً فيه، ولا سيما أن ما وُفِّقَ عليه في النقوش اليبانية القديمة خلّو من أيّ إشارة إليهما، على أنّهما وقعا بين اليمن كله ومعدّ كلّها وفقاً لأقوال الرواة وإجماعهم، إلّا أن تكون تلك الأيام ليست سوى مناوشاتٍ هيّنة لا يؤبه لها، ثمّ عَظُمَ أمرها في الإسلام بمرور الأيام وتعاقبها، وتعاور الرواة عليها، أمّا صمّتْ النقوش عن ذكرها، فلا يفسّره اتّضاع دولة حمير، وهوان أمرها، وسقوط التقييد الرسمي لأحداثها؛ لأنّ هذين اليومين وقعا قبل الاحتلال الحبشيّ بزمان، يضاف إلى ذلك وقوف العلماء على نقش متأخر عنهما، كنقش أبرهة الحبشيّ المدوّن بعد الفراغ من ترميم سدّ مأرب سنة ٥٤٣ م^(١).

وفيما ذكره أبو حنيفة الدّينوريّ من خبر هذين اليومين دليلٌ على تناول الوهم لهما؛ إذ يقول في أثناء ترجمته لصُهبان الحميريّ: «وهو الذي سار إلى تهامة لمحاربة ولد معدّ بن عدنان، وكان سبب ذلك أنّ معدّاً لما انتشرت تباعث وتظالمت، فبعثوا إلى صُهبان يسألونه أن يُملك عليهم رجلاً يأخذ لضعيفهم من قوِيّهم؛ مخافة التّعديّ في الحروب، فوجّه إليهم الحارث بن عمرو الكنديّ، واختاره لهم؛ لأنّ معدّاً أخواله، فأُمّة امرأة من بني عامر بن صعصعة فسار إليهم الحارث بأهله وولده، فلمّا استقرّ منهم ولّى ابنه حُجر بن عمرو - وهو أبو امرئ القيس الشّاعر - على أسد وكنانة، وولّى ابنه شُرْحِبِيلَ على قَيْسٍ وتَيْمٍ، وولّى معدي كرب - وهو جدّ الأشعث بن قيس - على ربيعة. فمكثوا كذلك إلى أن مات الحارث بن عمرو، فأقرّ صُهبان كلّ واحدٍ منهم في مُلكه فلبثوا بذلك ما لبثوا، ثمّ إنّ بني أسد وثبوا على ملكهم حُجر بن عمرو، فقتلوه، فلمّا بلغ ذلك صُهبان وجّه إلى مُضَرَّ عمرو بن نابل اللّحميّ، وإلى ربيعة لبيد بن النعمان الغسّانيّ، وبعث برجلٍ من حمير يسمّى: أَوْفَى بن عُنُق الحية، وأمره أن يقتل بني أسد أبرح القتل، فلمّا بلغ ذلك أسداً وكنانة استعدّوا، فلمّا بلغه ذلك انصرف نحو صُهبان، واجتمعت قيس وتيم، فأخرجوا ملكهم عمرو بن نابل عنهم، فلحق بصُهبان، وبقي معدي كرب جدّ الأشعث، ملكاً على ربيعة^(٢)، فلمّا بلغ صُهبان ما فعلت مُضَرُّ بعَمّاله آلى ليغزّون

(١) انظر: شعراء حمير (الدّراسة) ٥٨.

(٢) قيل: إنّ الذي ملك الحارث بن عمرو الكنديّ على معدّ هو حَسّان بن تَبَع، انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

٣ / ٣٣٠-٣٣١، وعنه في ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ١١٧.

مُضَر بن نفسه، وبلغ ذلك مُضَر، فاجتمع أشرافها، فتشاوروا في أمرهم، فعلموا ألا طاقة لهم بالملك إلا بمطابقة ربيعة فأوفدوا وفودهم إلى ربيعة، منهم : عوف بن مُنْقذ التميمي، وسويد بن عمرو الأسدي - جد عبيد بن الأبرص - والأحوص بن جعفر العامري، وعُدَس بن زيد الحنظلي، فساروا حتى قدموا على ربيعة، وسيدهم يومئذ كليب بن ربيعة التغلبي، وهو كليب وائل، فأجابتهم ربيعة إلى نصرهم وولّوا الأمر كليباً، فدخل على ملكهم لبيد بن النعمان، فقتله، ثم اجتمعوا، وساروا فلقاهم الملك بالسُّلَّان فاقتتلوا، ففُتَّت جموعُ اليمن.....وانصرف الملك إلى أرضه مفلولاً، فمكث حولاً، ثم تجهَّز لمعاودة الحرب، وسار فاجتمعت معه وعليها كليب فتوافوا بخزازی، فوجه كليب السِّفَاح بن عمرو أمامه، وأمره إذا التقى بالقوم، أن يوقد ناراً، علامةً جعلها بينه وبينه، فسار السِّفَاح ليلاً حتى وافى معسكر الملك بخزازی فأوقد النار، فأقبل كليب في الجموع نحو النار، فوافاهم صباحاً، فاقتتلوا، فقتل الملك صُهَبَان، وانفضت جموعه...، فلما قُتِل صُهَبَان زاد حير قتلُه اتِّضاعاً ووهناً^(١). وثمة أوهام وتخليط تفشياً في الخبر الذي ساقه أبو حنيفة حتى بات شبيهاً بالفساد. ومن تلك الأوهام أن قائد معد يوم السُّلَّان هو كليب بن ربيعة، في حين يذكر ابن حبيب الجرارين من بني ربيعة بن نزار وهم «ربيعة بن مرة بن الحارث بن زهير التغلبي، قاد مضر وربيعة وقضاعة يوم السُّلَّان إلى أهل اليمن..... وابنه كليب..... قاد ربيعة ومُضَر وقضاعة يوم خزازی»^(٢) وقريب من هذا ما قاله ابن عبد ربّه في خبر يرويه عن ابن الكلبي أنّه: لم تجتمع معدُّ كلُّها إلا على ثلاثة رهطٍ من رؤساء العرب، وهم: عامر وربيعة وكليب فالأوّل: عامر بن الطُّرب بن عمرو بن يشكر بن الحارث، وهو عدوّان بن عمرو بن قيس بن عيلان، وهو النَّاس بن مُضَر، وعامر بن الطُّرب هو

(١) الأخبار الطوال ٥٢-٥٣، ونهاية الأرب ٣٠٢/١٥، وعنهما في شعراء حمير (الدراسة) (٥٩) حيث علّق صاحبها على الخبر بقوله: "ففيه جمع بين صهبان والحارث بن عمرو بن حَجَرٍ أكل المَرار وذاك محال؛ لكون صهبان قائد اليمن يومي البيداء والسُّلَّان في أواسط القرن الخامس الميلادي، في حين قُتِل الحارث سنة ٥٢٨م، وفيه أن سبب يوم السُّلَّان هو مقتل حجر بن الحارث بن عمرو أكل المَرار، وذاك بعيد أيضاً؛ لأنّ مقتله كان بعد مقتل والده، وقبل موت ابنه امرئ القيس الشاعر (٥٤٥م) ولعلّ ذلك كانوا نحو ٥٤٠م، فثمة خلط بين أحداثٍ جرت منفصلةً، وبين أعلامها نحو قرن من الزَّمان" !؟.

قائد مَعَدَّ يوم البيداء، حين تمذحجت مَذْحَج وسارت إلى تهامة، وهي أوّل وقعة كانت بين تهامة و اليمن. والثاني: ربيعة بن الحارث بن مرّة بن زهير بن جُشَم بن بكر بن حُبَيْب بن كعب، وهو قائد مَعَدَّ يوم السِّلَان، وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن. والثالث: كليب بن ربيعة وهو الذي يقال فيه: أعزّ من كليب وائل. وقاد مَعَدَّاً كلّها يوم خزازی، ففَضّ جموع اليمن وهزمهم، فاجتمعت عليه مَعَدُّ كلّها، وجعلوا له قسم الملك وتاجه وتحيّته وطاعته»^(١).

وقد انتشر هذا الوهم في المصادر التي نقلت عن الدّينوري حتّى إنّ بعض العلماء زاد في الرّواية؛ لتغليب أمرٍ على آخرٍ يهواه، أو خلطَ بينها وبين أخرى.

والذي يريد أن يقوله الباحث: إنّ ما ساقه من خبر يوم السِّلَان كان بسبب اتصاله بيوم خزازی الذي كان في عقبه حسب ما يقول به أبو عبيدة «وكان من حديث يوم خزازی وكان يعقب يوم السِّلَان بسبب أسارى من مضر وربيعه وقضاة كانوا في يد ملكٍ من ملوك اليمن، فوفد عليه وفد منهم، منهم: سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة، وعوف بن محلم بن ذهل بن شيبان وآخرون، فلقيهم رجل من بهراء يقال له عبيد بن قرار، كان في الأسارى، فسألهم أن يدخلوه في عدّة من يسألون، فوهبهم لهم، واحتبس بعض الوفد رهينةً حتى يأتيه رؤساؤهم ويعطوه المواثيق بالطّاعة، فرجعوا إلى قومهم، فأخبروهم الخبر، فبعث كليب في ربيعة فجمعهم، ثم بعث على مقدّمته سليمة بن خالد بن كعب بن زهير بن تميم بن أسامة بن مالك بن تغلب المعروف بالسّفاح التّغليبي وأمره أن يوقد ناراً على خزازی...»^(٢) إلخ ويشير الهمدانيّ إلى مشاركة خولان بيوم خزازی مع قبائل قضاة اليمن وحير ومذحج وهمدان ومن ساندها من قبائل اليمن ضدّ إخوتها من قضاة وإخوانهم من ربيعة ومضر، الذين نالوا منهم ما نالوا، وفي هذا ينصّ الهمدانيّ على سيادة عمرو بن زيد - مغرق الأكبر -^(٣) في ذلك اليوم على قومه، يقول: «كان عمرو بن زيد شهد يوم خزازی في

(١) العقد ٥/٢١٣، ونهاية الأرب ٣٩٦/١٥-٣٩٧، والخزانة ٢/١٦٥-١٦٦.

(٢) النّقائض ١٠٩٣-١٠٩٥، وطبعة دار صادر ٢/٢٦١، وأيام العرب قبل الإسلام ١٩/٢، والكامل في التّاريخ ١/٥٢٠-٥٢٢، وأيام العرب في الجاهليّة ١٠٩.

(٣) الإكليل: (المخطوط ١/٦٧، المطبوع ١/٢٩٩).

قضاة، فحسن أثره في بني شيان ونال منها، وأسر يومئذ عمرو بن زيد بغيض بن عز بن أسود بن أسلم، فمن عليه بنفسه، وفيه يقول الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيان:

تَدِينُ لَهُ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ كَمَا دَانَتْ قُضَاعَةُ لِابْنِ زَيْدٍ

ودارت الدائرة لتغلب على حمير وفي ذلك يقول بغيض -من أبيات له-:

عَمْرُو بْنُ زَيْدٍ يَقُودُ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا لَهُ مَخَالِبُ أَظْفَارٍ وَأَثْيَابُ

يُعْطِي الْجَزِيلَ وَيَحْمِي دُونَ عُقُوتِهِ وَفِي الْحَفَائِظِ مَنَانٌ وَوَهَابٌ^(١)

إنَّ التحالفَ بين قبائل قضاة اليمن، والقبائل التي كانت تنتمي إلى ولدي قحطان حمير وكهلان كان بسبب التجاور في الديار والمنازل، وعلاقات المصاهرة مع حمير، والمصالح المشتركة مع مذحج التي تنقلب بمرور الأيام ومضاهها إلى ضغائن تُذكى، وسخائم لا تُستل من الصدور إلا بتجريد سيوف صقلية، وإشراع رماح حُرِّبت سنائها، وثقفت قوائمها كما حدث في يوم المنشَر الذي كان بين قضاة ومذحج، وأغلب الظن أنَّ خولان كانت فيه إلى جانب قبائل قضاة اليمن، إذ لم يقف الهمداني عنده، بل ألح إليه بإشارة عابرة حين أتى على ذكر المنشَر من ديار سَنَحان بن جَنب -وهو بطن من حمير- و«المنشَر: وسُمِّي بهذا الاسم لما التقت فيه مذحج وقضاة ونشروا فيه جميعهم، أي تصافوا فيه للقتال»^(٢)

ومن علاقة خولان بمذحج ما ذكره الهمداني عقب سوقه أنساب سعد بن سعد بن خولان واصفاً آل النُّعمان بن الفيّاض، بأنهم قادة بني سعد فقال: «وفي قتال زيد بن الحارث بن عمرو بن النُّعمان قامت الحرب بين قضاة ومذحج باليمن، وكان يريد ميرةً من التمر من بيشة بعطان، فلقية ذؤبان من بني زُبَيْد، فقتلوه طمعاً في رحله، وفي ذلك يقول أخوه عبد الله بن الحارث الخولاني لبني زُبَيْد وقد قتل عاصِلَ الزبيدي :

(١) الإكليل: «المخطوط ٦٨/١، المطبوع ٣٠١/١ وجاء فيه: «وأسر يومئذ عمرو بن يزيد بغيض» مُحَرَّفًا.

(٢) صفة جزيرة العرب ٤٢٢، وفيه جاء أيضاً: المنشَر موضع في ناحية ثات التي يقطنها عَنَس (النَّهْديون والقرِيُّون واللميسيون والياميون) المصدر نفسه ١٨٨.

أَخِي بِأَخِيكُمْ إِنْ أَرَدْتُمْ سَلَامَةً وَإِلَّا فَجِدُّوا يُوقِدِ الْحَرْبَ مَوْقِدٌ^(١)

وقاد تلك الحرب حُجْر - أبو رعدة الأكبر - بن سعد الربيعة الخولاني، وأجمعت قضاة على سيادته، فساروا تحت لوائه حتى قهروا مذحجاً ومَنْ والاهَا من القبائل العربية. وليس بهيّن تحديد زمان هذه الحرب بدقّة؛ لطول العهد، وتفُلت أخبار تلك الحقبة من أقلام العلماء والرّواة، أو ضياعها بتعاور الأيام وممضاها، ولكن يمكن الاتكاء على قرينة عرض لها الهمداني في أثناء سوقه نسب حُجْر أبو رعدة فقال: «هو الذي قام بحرب مذحج، وأجمعت قضاة على رياسته..... وهو الذي قتل في حرب هوازن وبني سُليم بمذحج وقضاة»^(٢)، وهي الحرب التي استُعِين بها بالملك الحِميري سيف ابن ذي يزن الذي أمدَّ خولان بأربعة أقيال. وكان ذلك في الجاهليّة (٦١١م) فُيْل الدّعوة الإسلاميّة بمكّة بأمدٍ ليس ببعيد، ولا سيّما أن سيف بن ذي يزن مات قبل بعثة النبي مُحَمَّد ﷺ وأنَّ عمرو بن يزيد العوفي قتل مُر بن عامر الحِميري الذي أخلَّ بخولان إلى هوازن وسُليم، وذلك أوّل ما ظهرت دعوة الإسلام بمكّة^(٣). وعلى هذا تكون تلك الحرب وقعت قبل حرب قبائل قيس عيلان وقبائل قضاة.

وثمة خبر يذكره الهمداني عن علاقة خولان بمذحج يوم التقت قضاة ومذحج بتثليث من ديار زبيد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، حتّى عُقِر فرسُ عمرو بن معدي كرب الزبيديّ اليسوب. ولما وقع عمرو إلى الأرض، استدار له رجلٌ من بني عوف بن خولان يقال له: المحنون؛ ليرميه، فَبَصَرَ به عمرو بن يزيد العوفي، فنهذه، وقال: مهلاً قطع الله يدك، فكفّ، وأتى لعمرو بن معدي كرب بفرس، فركبه، وقاتل عليه يومئذٍ حتّى فرع اللَّيْل بين الفريقين، ثُمَّ انصرف كُلُّ منهما، ولقضاة الطول، فبلغ عمرو بن يزيد العوفي عن عبد الله بن الحارث السّعديّ الخولانيّ كلاماً فيه فحشٌ وشتائم بما كان من أبيه من الكلام في حكيم العلاف^(٤)، ثم مرَّ به عبد الله بن الحارث فدعاه، وقال: يا ابن أخي ما كلام بلغني عنك في أمر عمرو والمحنون قال: فقال عمرو بن يزيد العوفي: نعم يا أبا

(١) الإكليل: «المخطوط ٩٥ / ١، المطبوع ٣٩٢ / ١».

(٢) الإكليل: «المخطوط ٦٩ / ١، المطبوع ٣٠٧ / ١-٣٠٨».

(٣) انظر: الإكليل ٢٥٠ / ٢.

(٤) حكيم العلاف: هو أحد السّادة المقدّمين في هوازن وسُليم. حمّاه عمرو العوفي من القتل في المعركة التي دارت بينهما؛ لأنّه سيّد في قومه، ولأنّ العرب كانت تتوقّى قتل السّادة من الأعداء مخافة أن تدور عليهم الدّائرة، فتعيرهم العرب بذلك. ويبدو أنّ هذه واحدة من عادات أهل الياميّة. الدّامغة: ١٩٤.

حكيم قد علمت أن عمراً بطيئاً من دماء بني سعد بن سعد، وكانت الفرصة قد تهيأت لمقتله،
فنهت عنه، وسيفه يقطر من دماءنا، فأنشأ يقول من كلمة له:

فَغَضَضْتُ طَرْفِي حِينَ خَرَّ جَوَادُهُ وَحَبَسْتُ عَنْهُ سِنَانَ رُمُحٍ فِي الْيَدِ
مَا كَانَ بِي جُبْنٌ، وَلَا ارْتَعَشَتْ يَدِي لَكِنْ حَيَّيْتُ عَلَى الْهَيْمِ الْأَصِيدِ

ثم يقول:

لَا تَقْتُلُوا سَادَاتِكُمْ فَتَعَيَّرُوا فَمِنَ الْكِبَائِرِ قَتْلُ كُلِّ مُسَوِّدٍ^(١)

ومّا يتصل بعلاقة خولان بمذحج خبر غزو عمرو بن معدي كرب الزبيدي خولان يوم دخل الحقل
وفَضَّ حصن غنم، وجَلَّ الأموال، واجتاح الضَّنين، وقَدَّم الغنائم مع عَمِيه، سَعِدٍ وشهاب، فعرض
لها سمير الفرسان في جمع من يأم، فقتلها وعدة معها من بني زبيد، وأخذ ما كان في أيديها، فَبَعَثَ
عمرو بن معدي كرب إلى سمير الفرسان يتوَعَّده^(٢)، فقال سمير من مقالة له:

أَيَّرِسْلُ عَمْرُو بِالْوَعِيدِ سَفَاهَةً إِلَيَّ بَطْهَرِ الْغَيْبِ قَوْلًا مُرَجَّحًا
لِيُسْمِعَ أَقْوَامًا بِمَا لَيْسَ مُقَدَّمًا عَلَيْهِ وَقَدْ رَامَ اللَّقَاءَ فَأَحْجَمًا^(٣)
فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَلْقَى سَمِيرًا فَلَا قَهَ وَعَجَلٌ وَلَا تَجْعَلْهُ مِنْكَ تَهْمًا

ثم يقول:

فسوف أرينك الموت يا عمرو جَهْرَةً فتنظُرَ يَوْمًا ذَا صَوَاعِقٍ مُظْلِمًا^(٤)

ويبدو من سياق الخبر السابق أن عمرو بن معدي كرب قد بدد شمل خولان في الحقل، وفرَّق
جمعها، وداس عروش ساداتها، ثم انبرى له بعد ذلك سمير الفرسان، ومعه جموع من يأم همدان.

(١) الدامغة ٢٥٨-٢٥٩.

(٢) انظر: الإكليل ٧٨/١٠، وسمير الفرسان: هو أحد شعراء بني يأم بن أحبي بن حاشد بن همدان.

(٣) الإكليل: «... ما ليس...» مختل الوزن، وقد تنبّه صاحب شعر همدان على ذلك، وقُلَّ أن يفعل.

(٤) الإكليل ٧٨/١٠-٧٩، وعنه في شعر همدان ٢٦٠، وشعراء مذحج: ١٠٣.

ومما يتصل أيضاً بعلاقة خولان بمذحج أنَّ حرباً كانت بينهم، وقُتل فيها ربيعة بن مسعود بن يزيد بن عمرو بن مسعود بن عروة بن مسعود العوفي على ماء الرقب وفيه قال الهمداني: «وكان ربيعة أعظم قتيل رزئت به بني عوف بن زيد بن أسامة، وبه طرح مالك بن عبد الله بن معدي كرب بواء»^(١). هكذا ذكرها الهمداني سريعاً ولم يقف عند شيء يمكن أن يُلتَمَس فيه ما يكشف أخبارها. ولا يُعلم ما إذا كانت هذه الحرب التي قُتل فيها ربيعة بن مسعود العوفي هي نفسها الحرب التي غزا فيها عمرو بن معدي كرب خولان يوم دخل الحقل وفُضَّ غنماً، وغير هين الجزم بأنهما حرب واحدة؛ لقلة الأخبار الواردة حول هذين الحربين، وأغلب الظن أنهما يومان منفصلان؛ لثناء عمرو بن يزيد العوفي لربيعة بن مسعود بأبيات لم يُشر إليها الهمداني بأدنى إشارة في الجزء العاشر من الإكليل حينما ذكر غزوة عمرو بن معدي كرب للحقل، في حين كان يكرّر الإشارة إلى وقعة ما في غير ما موضع من تأليفه، أمّا عن زمن هذه الحرب فليس بين أيدينا ما يدل على زمن وقوعها إلا ما رثى به عمرو بن يزيد العوفي ابن أخيه المقتول بأبيات منها قوله:

يَا عَيْنُ وَيَحْكَ عَبْرَةً لَا تَسَامِي
وَأُبْكِي رَيْبَعَةَ مَا أُرِيَتْ صَبَاحاً^(٢)

وعمر بن هذا نادم سيف بن ذي يزن الحميري، وحضر معه بعض حروبه ومعاركه، ويشير المؤرخون إلى أنَّ سيفاً استعاد ملك آبائه حوالي سنة ٥٧٠م، أو ٥٧٥م وهو الذي قُتل بُعِيدَ ذلك على أيدي نفرٍ من الأحباش أبقاهم لخدمته^(٣).

وبهذا تكون تلك المعركة قد وقعت قبل هذا التاريخ؛ لثناء عمرو بن يزيد العوفي لربيعة ابن أخيه المقتول.

-
- (١) الإكليل: «المخطوط ٩٢/١، المطبوع ٣٨٤/١» وفيه: «رزئت به خولان بني عوف.... نوا» مُحَرَّفًا والبواء: هو السوء والكفء، أي قُتل به، وصار معادلاً له في القتل.
- (٢) انظر: الأبيات في الديوان: ق ٣٦ / ب ١.
- (٣) انظر: شعراء حمير (الدراسة) ٤٣، وما بعدها وفيها اطلاع صاحبها د. مقبل الأحدي على قطعة نادرة من الإكليل لما نُشِرَ بعد تتحدث عن علاقة الأحباش بدولة حمير، ومقتل سيف بن ذي يزن الحميري، وانظر ترجمته في الدراسة نفسها ٩٣.

- خولان وحمير:

ليس في المصادر التاريخية والأدبية الموقوف عليها ما ينقح البِلَّة من أخبار محققة، معافاة من الخلط والوهم عن علاقة خولان بحمير خلا أشياء أسرت بها بعض المظان عَرَضاً دون القصد إليها، وهنا نشير سلفاً إلى ترامي كثير من بطون خولان على أرض شاسعة تمتد من جنوب شرقي صنعاء وغربها إلى شمال صعدة في الجزء الشمالي من الصَّقع اليماني^(١) الذي حكمته حمير نحو ستة قرون ونصف القرن (١١٥ ق.م - ٥٢٥ م) أي حتَّى قبل قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة بنحو قرن (٦٢٢ م) فبسطت نفوذها على جُلِّه، وصار معظم بلدان هذا الصَّقع ومن حَكَمَها من أقيال وأمرء ينتسبون إلى حمير حتَّى إن لقب ملوكها صار مشتملاً على اليمن كَلَّه فلقبوا بـ (ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت)^(٢) وأمَّا آخرهم ملكاً فكان ذو نواس الحميري المعروف في النقوش بـ (يوسف أسار يثار) الذي لقب نفسه بملك كل الشعوب^(٣).

وعلى هذا تكون خولان وغيرها منضوية تحت لواء الحميرية التي دانت لها قبائل اليمن كافة لما لحمير من نفوذ امتد على اليمانية كُلِّها. وخولان واحدة منها إذ دخلت مع حمير في علاقة تحالفٍ ضد الأخطار التي تهددها. من تلك العلاقة بحسب ما تذكره النقوش اضطلاع (ذو مُعَاهِر)^(٤) - وهو أحد أقيال حمير المشهورين - بحكم خولان التي دخلت في كنف دولة حمير، مما يدلُّ على وجود روابط متينة تجمع بين القبيلتين، ومن الأقيال الذين حكموا خولان القَيْل (كرب أسرع) الذي

(١) انظر: الإكليل: ٢/ ٥١-٥٢، ٢٣٣-٢٣٥، ٢٨٣. صفة جزيرة العرب: ٧٩-٨٠، ١٨٠-١٨٦، ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) المفصل ٢/ ٥٣٠، ٥٥٤-٥٥١، وانظر: تاريخ العرب القديم: ٣٣٥.

(٣) مختارات من النقوش اليمنية القديمة ٢٥٧-٢٦١.

(٤) ذو مُعَاهِر: هو زرعة بن حسان بن أسعد، المشهور بـ «الأصغر» من أبناء صيفي بن زرعة أخي سدد. واحد من أذواء حمير وأقيالها: الإكليل ٢/ ٨٠، والاشتقاق ٥٣٣، والتاج (نوس)، والقاموس المحيط واللسان والتاج (عهر). وقد عرف الإسلاميون (أقيال ذي معاهر) فذكرهم الهمداني في كتابه الإكليل في قوله: «شحرار قصر بَقْصوى مشيد ببلاط أحمر للقليل ذي معاهر» الإكليل ٨/ ٥٣. وذكر أيضاً «قصر وَعَلان بردمان، وهو عجيب، وهو قصر ذي معاهر، ومن حوله أموال عظيمة» الإكليل ٨/ ٨٩، وعنه في المفصل ٢/ ٤٠٢.

انحدر من أسرة مُعَاهِر نفسه، وهي أسرة غنيّة لها أَرْضُون زراعيّة، اعتنت بها عناية فائقة، ووُثِّقَتْ هذا في صَفَاحِ الحِجَارَةِ؛ ليكون وثيقةً رَسميّةً تضمن بقاء هذه الأراضي في حوزتها وسيطرتها عليها. كما ورد اسم قَيْلَانَ آخِرَانِ من أَقْيَالِ (ذِي مُعَاهِر) حَكَمَا خَوْلَانِ وهما (كرب أسار) و (نصر يهحمد)^(١) وكان ذلك سنة ٢٩م الذي يقابله ١٤٤ من التَّقْوِيمِ السَّبْئِيِّ^(٢).

ومّا يتصل بعلاقة خولان بحمير أنّ أقيال خولان كانوا قادة يَأْتَمِرُونَ بأمر «نشأ كرب يأمن يهرحب» ملك سبأ وذِي ريدان، فيستعملهم ضد أعداء حمير وما يهدّدها من خطر^(٣).

ومن ذلك أيضاً ما وُكِّفَ عليه في نقش جام/١٤٩، الذي ينصّ على تأديب قبائل خولان وصرواح لقبائل عكّ وذِي سَهْرَةَ بأمرٍ من الملك (شمر يهرعش) ملك سبأ وذِي ريدان^(٤) (١١٥ق.م-٣٠٠م)، وقد أطلق على عصره (الثالث) حسب تقسيمات العلماء وكانت السّلطة والنفوذ لسبأ وحمير معاً بعكس العصر الرَّابِعِ (٣٠٠م-٥٢٥م) الذي تسود فيه السّيادة الحميرية^(٥).

ومثل هذا حدث مع عشائر (دواءت) و(أبأس) و(أيدعان) و(حكم) و(حندلة) و(باهل) و(غامد) و(كهل) و(أهلني) و(جديلة) و(سنبس) و(حرام) و(حجرملد) و(أوام) و(الرّضحة) اللواتي حاربتهم خولان في أسافل أودية ذِي الْبُئْرِ وَخَلَبَ وَتَنَدَحَانَ بحسب النّقش (جام/٦١٦)^(٦) أمّا ما جاء في النّقش جام/ ٦٢٩: فمخالفة خولان للقبيل (وهب إيل) وهو من أسرة ذِي مُعَاهِر- وقبائل أخرى من حضرموت وقتبان وردمان ومضحيم، في إشارة سريعة لمواجهة جيوش مَلِكِيّ

(١) هذه الأسماء حميرية، وفي لغتهم يَفْخَمُونَ بحرف الهاء، ويجعلونها ثانية، ويبالغون فيها ظهر من الأشياء واستعظم فيقولون:

يهحمد وهو يحمد، ويهنم وهو ينعم، وهذه من صِيغِهِمْ في التّفخيم. انظر الإكليل ٩١/٢.

(٢) انظر: المفصل ٤٠١/٢-٤٠٣.

(٣) انظر: نقوش مسندية: ١٦٥ - ٣٧٠.

(٤) انظر: نقوش مسندية ٣٧١، والمفصل ٥٤٤/٢.

(٥) انظر: تاريخ العرب القديم: ٣٢٣-٣٤٤.

(٦) انظر: نقوش مسندية ٤٩٤.

سبأ وذو ريدان التي انتصرت على قبائل الحلف بعد معارك طاحنة منيت فيها خولان بشر هزيمة^(١).

وثمة إشارة هي غاية في الأهمية، تدلّ على دخول خولان تحت لواء الحميرية في حرب الأشباء والصدف وحضرموت يوم غيَّان الذي أشار إليه الهمداني غير مرة في كتابه الإكليل، بالتصريح تارة، وبالتلميح تارة أخرى؛ فأما تصريحه فقلوه وهو يذكر نابت بن الرِّيان القشبيّ العوسجيّ الحميريّ: «وثابت الذي أصلح بين حمير في عقب حرب غيَّان»^(٢)، وقوله وهو يذكر أولاد زُرعة بن عمرو الحنْفَريّ الحميريّ: «فأولد زرعة بن عمرو: يريم بن زُرعة، وهو قتيل العرين، وحُجر بن زُرعة، فقام برياسة أبيه زُرعة، وولي ما كان في يده، ووازر أبا مرة سيف بن ذي يزن في أمره، وقام معه بيوم غيَّان يوم سار له مالك بن يزيد الصّديّ في الأشباء والصدف وحضرموت، وهو القائل:

أَلَسْنَا الْمُقَاوِلَ مِنْ حَمِيرٍ لَنَا الْفَضْلُ يَطْمُوعُ عَلَى مَنْ ذُكِرَ
إِذَا اسْتُلِّتِ الْبَيْضُ يَوْمَ النَّزَالِ وَكَانَتْ لَنَا مَعْقِلًا لَمْ نَفِرْ
لَنَا فَخْرُ غَيَّانَ فِي مَشْهَدٍ بَدَا الْفَخْرُ فِيهِ لِمَنْ يَفْتَخِرُ»^(٣)

وقد فخر محمد بن أبان بمناصرة جدّه حُجر بن زرعة لسيف في هذا اليوم فقال:

وَجَدِّي الَّذِي وَافَى الرَّكَايَا جِيَادَهُ وَحَامَى عَلَى الْعِزِّ الَّذِي أَسَّ يَشْجُبُ^(٤)
وَنَحْنُ نَصْبِنَا يَوْمَ غَيَّانَ عَارِضًا فَبَادَ ابْنُ ذِي شَمْرِ وَقَدْ كَادَ يَغْلِبُ^(٥)

وأما تلميحہ إلى هذا اليوم فقلوله، وهو يتحدث عن نسب بني عوف بن زيد الخولانيّ وسيدهم عمرو بن يزيد العوفيّ: «وخولان تقول: لم يَقْتُلْ أَحَدٌ من العرب مثل مَنْ قَتَلَ عمرو من السّادة

(١) انظر: المفصل ٢/ ٤٦٧.

(٢) الإكليل ٢/ ١٣٩-٢٨٣، وانظر أهل اليمن في صدر الإسلام: ٨٤.

(٣) الإكليل ٢/ ١٢٨-١٢٩، وانظر ديوان حمير ق ٨/ ب ١-٣.

(٤) الرّكايَا: جمع الرّكبة، وهي البئر تحفر، وأراد أنّ جيادهم وافت أهل هذه الرّكايَا بالغزو..

(٥) العارض: السحاب المعترض في الأفق، شبه الجيش بالسحاب في اعتراضه وعظمه. انظر: ديوان شعراء حمير ق ١٠٣/ ب ٨.

والعظماء، شهد مع ابن ذي يزن حرب الأشباء والصّدف وحضرموت، فعقل نفسه زويراً، ورمى مالك بن يزيد الصّديّ الملك فقتله، وفيه يقول شاعر الصّدف:

أَلَا شُلْتُ يَمِينُكَ يَا بَنَ زَيْدٍ فَقَدْ أَوْرَيْتَ زَنْدَكَ فَاسْتَنَارَ

وهو القائل:

ولقد تركتُ أخا المَهَابَةِ مَالِكاً رهن الضَّرِيحِ مُرَمَّلاً مَدْفُوناً^(١)

وفي موضع آخر يذكر الهمداني مشاركة عمرو بن يزيد العوفي في تلك الحرب فيقول: «مالك بن يزيد ابن أبي شمر - بكسر الشين - الملك الذي أصيب في حربه لسيف بن ذي يزن، رماه عمرو بن يزيد العوفي من خولان، ويقال يعلى بن سعد»^(٢)

ومهما يكن من أمر قتل مالك بن يزيد الصّديّ، فإنّ خولان شاركت الملك الحميري في حربه السّالفة الذّكر، وكان ذلك بدافع من مصلحة خولان التي أسست علاقات حميمة مع دولة حمير العظيمة، ولاذت بحبائها الذي ألقى بظله على اليمن كلّ لستّة قرون كما أسلفنا.

ومن علاقة خولان بحمير ما نجده في حرب شمر ذي ريدان الحميري، ومن كان معه من عشائر خولان والأحباش وحمير التي قادها ضد ملوك سبأ الذين كانوا على عداوة مستمرة مع حمير ومن ساندتها بقيادة (الشّرح يَحْضَب) الذي استسلمت له قبائل حمير وحلفائها المناوئين لحكمه؛ ليصبح شمر ذي ريدان فيما بعد قائداً لجيش السبئيين في محاربة ملك حضرموت^(٣).

(١) الإكليل: «المخطوط ٨٨/١، المطبوع ٣٧١/١» وفي: «ورمى مالك بن زيد الصّديّ» محرفاً انظر الإكليل ٤٦/٢، ١٢٨. وفي قوله: يا بن زيد يريد يا بن يزيد: ركب الشاعر مركب الضرورة؛ لإقامة الوزن واستقامته، والزّوير: هوزعيم القوم وصاحب أمرهم قاله ابن الأعرابي، وأصله شيء يُلقى في الحرب، فيقول الجيش: لا نفر ولا نبرح حتى يفر ويبرح هذا. ويقال: إنّ رجلاً من بني هُند من كندة يقال له: علقمة - وكان شيخاً قد خرف - قال لقومه في حرب كانت لهم: يا بني إنّني قد كبرتُ، واقترب أجلي فما مؤرثكم شيئاً، وهو خير من مجد تباؤون به على قومكم، أنا زويركم اليوم يقول: ألقوني فقاتلوا عليّ، فسَمّي ذلك اليوم «الزّوير»؛ لأنّهم كانوا يرجعون إليه، ويزورونه فصار اسماً للرئيس والرّعيم، انظر: تهذيب اللّغة ١٣/٢٤، اللّسان (زور) ومجمع الأمثال ٢/٣٤٥ و(صادر) ٣/٤٥٧.

(٢) الإكليل ٤٦/٢.

(٣) المفصل ٢/٤٤٠.

وقد يرى بعض الباحثين أنَّ «شمر ذي ريدان» - وهو من حمير - هو نفسه «شمر يهرعش» وإنَّ الذي حارب (الشَّرح يحضب) هو هذا الملك في أوائل القرن الرَّابِع للميلاد، وهو رأيٌ يرفضه باحثون آخرون^(١). على أنَّه ليس من السَّهل تحديد زمن هذه الأحداث، أو القول بتعدّد الاسم للملك الواحد ونعته بأكثر من لقب؛ لطول العهد، وبعد الزمن، وقلة الأخبار الموثَّقة عن تلك الحِقبة من حياة اليمن سوى ما وُقف على بقيَّة النقوش على صِفاح الحِجارة في بطن الأرض أو فوق أديمها، وكثيراً ما كانت تلك النقوش مطموسة المعالم، غير واضحة، ثُمَّ للذي تبعه من العثور على شيءٍ منها، واستنطاقها كما دونها أصحابها، والتَّعرُّف على خبيئها، ولم يكن خفياً سَبَقُ المستشرقين إلى ما تخفيه تلك الألواح، فجعلوا الطَّريق إليها لاجِباً، وأنَّ جُلَّ مَنْ اقتفى أثرهم من العرب لم يفد من رحب الطَّريق إلَّا أقلُّهم، فأخذوا ما انتهى إليه المستشرقون من آراء مسلَّماتٍ ردَّدوها ما عاشوا دون أن يقبلوها على وجوهها المختلفة أو يُدلُّوا بدلوهم فيها، ولا سيَّما أنَّ قراءة المستشرقين لم تخلُ من دوافعٍ قوميَّة وتبشيريَّة، ولم تتغلَّت من سلطان الهوى، مما يفسد البحث العلميَّ، ويوجهه في سُبُل خاطئة^(٢).

ومن علاقة خولان بحمير ما وقف عليه د. جواد علي في النَّقش جام/ ٦٠١ الذي يخبر عن حرب شَنَّها القيل (الرَّيام يجعر) في أيَّام الملك (وتريهامن) وهو ابن الملك (الشَّرح يحضب) على خولان التي انتصر عليها وفرَّق شمل حلفائها كما يدَّعي النَّص الذي سجَّله هذا القيل^(٣) في أواخر عصر ما قبل الميلاد^(٤). وذلك بسبب عصيانها للملك السُّخَيْمِي الذي كانت تنضوي تحت لوائه، وشجعت قبائل أخرى - لم يذكر النَّقش اسمها - على العصيان، فانضمت إليها وشاركتها الحرب التي وضعت أوزارها في نهاية المطاف لصالح القيل الذي استطاع أن يدوس عروش خولان ويقهر ملوكها، فشكر

(١) المِفْصَل ٢/ ٤٤١.

(٢) سبق إلى مثل هذه الإشارة د. مقبل الأحديّ عندما علّق على قراءة المستشرقين للفظه (تُبَع) المحرّفة عن (بتع) في رأيهم وحذا د. جواد علي حذوهم محاولاً تَلَمُّس الأعذار لهم والمبررات في مذهبهم، وكأنه اطّلع على النقوش جميعها ولم يغادر صغيرةً وكبيرةً منها حتّى وصل إلى هذا. شعراء حمير (الدِّراسة) ٤٤.

(٣) انظر: المِفْصَل ٢/ ٣٩٥، ونقوش مسنديّة ٤٩٤.

(٤) انظر: نقوش مسنديّة ٤٩٣.

الإله (المقه تهوان) الذي وفَّقه ونصره على قبائل خولان في وقعتين اثنتين^(١). وفي موضع آخر يشير النّشّ جام/٦١٦ الذي قرأه د. جواد علي إلى خبر غير معركة اشتركت فيها مجموعة قبائل منها بني سخيم ويُرسم؛ وذلك لامتناعها عن دفع ما يستحق عليها من أتوات وضرائب، ممّا حَمَلَ الملك الحميريّ (نشأ كرب يهامن يهرحب) بن (الشّرح يحضب)، على إرسال حملة عسكريّة تمكّنت من تأديب العصاة وإخضاعهم، وكانت قبيلة خولان واحدة منهم، التي أرسلت أشرافها ووجوهها إلى مدينة صنعاء لتقديم فروض الطّاعة والولاء المطلق للملك الذي رضي بدوره عنهم، وقبِلَ ما قدّموه من فروض وولاءات^(٢).

ومن ذلك أيضاً ما وقف عليه في النّشّ ٩٤٨ HIC من قيادة الملك (شمر يهرعش) حملة عسكريّة كبيرة لأرض خولان (الدّودان) يعني الجديدة، والمراد بها خولان صعدة، التي عسّكر فيها أحد قوّاد الملك السّابق لقطع الطريق على بعض فلول خولان صعدة، فنَفَذَ القائد ما طُلِبَ إليه وكلّل عمله بنصرٍ كبير^(٣).

وثمّة خبر آخر عن محاربة الملك (شمر يهرعش) (وهب أيل بن معاهر) وحليفة (صاحب خولان) في أرض ردمان المتاخمة لخولان في إشارة سريعة وردت في النّشّ جام/٦٢٩^(٤).

ومن الأخبار التي تتعلّق بصلة خولان بحمير ما ذكره الهمدانيّ عن قدماء رجال بني صُحَار قوله: «علقمة بن زيد، كان رحّالاً إلى الملوك باليمن والشّام، وهو الذي أشار على خولان باستنجد ابن ذي يزن على هَوازَن وبني سُلَيْم، فأمدُّوا بأربعة أقيال: بِمُرَّ بن عامر، وابن ذي فائش، والحصين وميمون ابن حريز، ونوال بن عتيك غلام ابن ذي يزن» ممّا يدلّ على قيام حلفٍ بين حمير وخولان لقتال قبائل هَوازَن وسُلَيْم، ولكن مرور الأيّام وممضاها قلب ظهر المِجَنّ لخولان، فقام مُرَّ بن عامر الحميريّ - وهو أحد الأقيال المدد

(١) انظر: المفصّل ٢/٤٥٧.

(٢) المفصّل ٢/٤٦٢.

(٣) انظر: المفصّل ٢/٥٥٥، وانظر: نقوش مسنديّة ٣٨٩.

(٤) انظر: المفصّل ٢/١٤٩، ١٥٤.

لخولان - بقتل الحصين بن حريز الخنفرى، وتفريق صفوف خولان، والإخلال بها إلى هوازن حتى ظفر به عمرو بن يزيد العوفى وقتله؛ لخيانته وإفشائه أسرار خولان لسليم وهوازن^(١).

وثمة خبر يتصل بعلاقة خولان بحمير في صدر الإسلام نفع عليه في نص الرسالة التي بعثها النبى محمد ﷺ لمعدي كرب بن أبرهة بن الصباح بن لهيعة بن شيبه الحميرى الذى كان مسوداً على بعض خولان^(٢) بـ «أن له ما أسلم عليه من أرض خولان»^(٣) ونجد د. جواد علي يجعل معدي كرب بن أبرهة حامل النسبة مجهولاً؛ لعدم تسمية ابن سعد في طبقاته لبقية نسبه معتمداً في ذلك على رواية الطبري التي تقول: «إن أبا مرة الفياض ذا يزن، كان من أشراف اليمن، وكانت تحته ريحانة ابنة ذي جدن [وهو علقمة بن مالك بن زيد بن كهلان]، فولدت له غلاماً، سمّاه معدي كرب، وكانت ذات جمال فانتزعها الأشرم من أبي مرة، فاستنكحها، فخرج أبو مرة من اليمن، فلحق ببعض ملوك بني المنذر»^(٤)، ف «نشأ معدي كرب بن ذي يزن مع أمه في حجر أبرهة»^(٥) واتكأ على هذا يمكن القول: وهَم بعضهم في نسبة معدي كرب؛ لعدم رفع ابن سعد نسبه إلى الأصباح، فظنَّ أنه رجل آخر غير معروف، في حين يذكر الهمداني نسب معدي كرب بن أبرهة بن الصباح مرفوعاً إلى جده الأكبر ذي أصبح^(٦)، الذي دانت لحكمه بعض قبيلة خولان ولحقت بنسبه، حتَّى عُدَّت حميرية كما مرَّ بنا في رسالة النبى محمد ﷺ فيما سلف.

- خَوْلَان وَهَمْدَان:

أما علاقتهم بقبيلة همدان؛ وهو أوسلة بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن خيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، التي تُعدُّ من القبائل اليمانية الكبيرة المهمة على ساحة الأحداث السياسية في

(١) انظر: الإكليل ٢/٢٤٩-٢٥٠.

(٢) انظر: النسب الكبير ١/٢١٦، ٢/٥٤٣. الإكليل: (المخطوط ١/١٤٠-١٤١، المطبوع ١/٥٢٥-٥٢٨).

(٣) المفصل ٤/١٨٣، ٧/١٤٢، ومجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي، والخلافة الراشدة ١١٩.

(٤) تاريخ الطبري ٢/١٤٢، والمفصل ٣/٤٨٢.

(٥) تاريخ الطبري ٢/١٤٣.

(٦) انظر: الإكليل ٢/١٥٥.

الصَّقع اليمانيّ، فلم تكن مدوّنة في كُرّاس ما أو صحيفة معيّنة، بل وُجِدَ شيءٌ منها فيما انتهى إلينا من بُقَيّا النّقوش التي تُعدُّ بحقٍّ وثيقةً رسميّةً تُحيط اللّثام عن هاتيك العلاقات، وما تفرّد بروايته الهمدانيّ في الإكليل، ولا سيّما الجزء العاشر منه، الذي أنهبه أخبار همدان وأنسابها وأيامها، ومالها من علاقات مع جاراتها القبائل العربيّة أو الأمم المجاورة.

ومن علاقة خولان بهمدان وما وُقِفَ عليه مكتوباً في أطراف الحجارة أنّ أميراً يُدعى (شابت بن عليان) قد توسّط بين عُمَيّ أنس وخولان والريدانيّين؛ لتكون جبهة القتال واحدة ومتمينة في محاربة علهان، وقد انضمت إليها قبائل أخرى معادية للهمدانيّين الذين انتصروا في نهاية المطاف على قبائل الحلف بما فيها خولان، بفضلٍ من الإله (تألب ريام) الذي حُمد على تفضّله وحمايته للأمر وجيشه^(١). ومن علاقة خولان بهمدان أيضاً ما جاء في النّقش جام/٦٣٨، وقد تناهت أيادي الدّهر الأسطر الأولى منه، فَطَمَسَتْ معالمه، واسمُ مدوّنه وصاحبه، وفيه اسم (عبد عثر بن موقس) وهو من سادات خولان، وقد هاجمته جيوش (شعر أوتر) وهزمته، وكبّدت خسائر فادحة، وكان قد هدم معبداً لعبادة (المقه)، وخربّه في موضع (أوعلن)، فعَدَّ صاحب النّص هذه الهزيمة عقاباً وجزاءً من الإله (المقه) أنزلها بهؤلاء الخولانيّين الذين أقدموا على العبث بالمقدّسات، ويظهر من النّص أنّ (شعر أوتر) كان قد أغار على الخولانيّين الذين يتزعمهم (عبد عثر)، وأصابهم بضرر فادح، ففرح بذلك صاحب النّص؛ لتطاول (عبد عثر) على معبد (المقه)، ولعلّ هناك سبباً آخر كان يلوح في الأفق أشعل فتيل هذه الحرب، وهو تطاول (عبد عثر) على (شعر أوتر) وإهانته وهو مَنْ هو اشتهاً وذيوعاً للصّيت الذي طبّق الآفاق قوّةً وحنكةً ودهاءً. فهاجم أرضه وتناوله بجيش جرّار هزمه وداس عرشه^(٢).

(١) المفصل ٣٦٩/٢، وفيه يقول د. جواد علي: "كان حكم علهان نهفان في حدود سنة ١٣٥ ق.م على تقدير (فلبّي)، أو في النّصف الأوّل من القرن الأخير قبل الميلاد على رأي آخرين، وفي حوالي السّنة (٦٠ ق.م) على رأي (البرايت)، وفي حوالي السّنة ١٦٠ بعد الميلاد على رأي (فون وزمن)، وفي حوالي السّنة ٨٥ قبل الميلاد على تقدير (جامه). أما نهاية حكمه فكانت في حوالي السّنة ٦٥ على تقديره أيضاً" وقد جعل كروهمن حكم شعر أوتر (وهو ابن الملك) في حوالي ٥٠ أو ٦٠ بعد الميلاد، ومعنى هذا أنّ حكم أبيه علهان يجب أن يكون بعد الميلاد؛ ليتناسب مع الحكم الذي وضعه كروهمن لابنه. انظر: تاريخ العرب القديم، ٣٠٤.

(٢) المفصل ٣٨٤/٢ - ٣٨٥.

ومن علاقة خولان بهمدان ما نقله الهمداني عن خضوع عدد من القبائل، من بينها خولان وجرم وهند ومذحج لحكم الملك زيد بن مَرَب بن معدي كرب بن زود بن سيف بن عمرو بن السبيع بن السبع بن صعب بن معاوية بن جُشَم بن حاشد بن همدان، وكان ذلك في الجاهلية البعيدة، لأنَّ الملك زيد بن مَرَب الهمداني غزا تغلب في عقر دارها، وكان عليها يومئذ ربيعة بن الحارث بن زهير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنَم بن تغلب، أبو كليب ومُهَلِّهْل، وسبب هذه الحرب وَفَقاً لما يورده الهمداني أنَّه دان للملك زيد عدد من قبائل اليمن، ومن سكن عروض اليمامة من ربيعة، وكان على بني تغلب هناك ملك من ملوك اليمن على عهد زيد، فمات، فأُتت وجوه بني تغلب زيدا بن مَرَب، فسألوه أن يُملِّك عليهم ملكاً من قومه، وقد قدم عليه جابر بن حيَّ بن عدي بن عمرو وأشرف منهم، فملَّك عليهم رجلاً من السبيع يقال له هاني- وفي رواية أخرى من آل حذان يقال له هاني- فلما نزلوا في بعض الطريق شرب هاني ومن معه فسكرو، فقالوا له: تَعَقَّلْ ناقتك؟ فقال لجابر: كُنْ عِقَالَهَا حَتَّى تَصْبِحَ، ثُمَّ نَامَ وأخذ جابر بزمامها وقعد، فغلبته عينه فخلَّى عن زمامها فذهبت، فلما أصبحوا طلبوها فلم يقدروا عليها، فقالوا له: اركب بعض رواحلنا، فقال: ما كنتُ لأجلسَ في رَحْلِ تغلبي، ولكنِّي أركب جابراً، فناشدوه، فأبى أن يركب غيره! فشددوا عليه فقتلوه، ورجعوا إلى قومهم، فلما بلغ ذلك زيدا استنفر قبائل من همدان ومن مذحج وحير وغيرها من القبائل التي دانت لحكمه، وغزا بني تغلب واجتمعت ربيعة ومن يليهم من مضر، وتعرَّفَ حربهم بيوم الجَرَاد؛ لملاقاة زيد لمضر وربيعه بجراد، فقاتلهم قتالاً شديداً، فهزمهم وأسر منهم سبعين رجلاً، فتوسَّلوا في أسرهم بالحارث الملك الكندي، وأمه أمَّ إياس بنت عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان إلى زيد بن مَرَب الذي أطلق الأسرى وأحسن إليهم^(١).

ومن الأخبار التي وقفتُ عليها -التي تتصل بعلاقة خولان بهمدان- ما نصَّ عليه الهمداني من أمر الحرب التي أشعل فتيلها قَتْلُ هَمْدَانَ للحارث بن عمرو بن عوف الخولاني- وكان سيِّداً في بني حيَّ بن خولان- ودخلت قبائل مَهِد وجرم هذه الحرب إلى جانب خولان، بينما حملت قبائل بَكِيل الهمدانية العبء

(١) انظر: الإكليل ٥٥/١٠-٥٦.

الأكبر من القتال، فشملت أحياء القبيلتين معاً، وحرصت كل قبيلة على تأديب الأخرى، والثأر لكرامتها وشرفها، ومما زاد في تسعير نارها وتشبيها أن عمدت قضاة إلى ماء كان يمر بأرضها، وكانت همدان تستسقي منه فمئنت وصوله إليها، وقد أشار إلى هذا معاوية بن دومان البكيلي بقوله:

أَرَادَ طُفَيْلٌ يَمْنَعُ الْمَاءَ زَلَّةً وَلَمْ يَكُ رَأْيَا مَنَعُهُ الْمَاءَ لَوْ عَقَلَ
فَفَارَقَتْ الْبَيْضُ الْخِفَافُ غُمُودَهَا وَلَا حَتَّ بِأَيْدِيهِمْ مَصَابِيحَ كَالشُّعْلِ
حَسِبْتُ رَجَالاً أَنْ تَحِفَّ حُلُوقُهَا وَأَنْتَ عَلَى رِيٍّ وَفِي رَاحِهَا الْأَسْلُ^(١)

وقد قام في تلك الحرب مالك بن ملالة الأرحبيّ فارس بني همدان وشاعرها^(٢)، وشاركه في قتاله لقبائل قضاة مالك بن زيد بن أوسلة بن عميرة بن الدعام الهمدانيّ الذي عرف في عصره بـ «الحمي»^(٣) وهو القائل لعقيل بن مسعود الكلبيّ سيّد قضاة باليمن:

أَبَا رِبْعَةَ إِنَّ الْحَقَّ مَغْضَبَةٌ أَثَرْتُ قَوْمَكَ إِذْ نَادَى مُنَادِيهَا
وَكُنْتَ عَدْلًا تَقُولُ الْحَقَّ مُحْتَلِمًا وَلِلْعَدَالَةِ أَسْبَابٌ تُؤَدِّيهَا^(٤)

وكان أوّل سهم يطلق في تلك الحرب ويفتحها هو سهم جديمة بن وائلة بن ربيع بن جذيمة الشاكريّ الهمدانيّ، وهو أوّل قتيل فيها^(٥).

ولكن سرعان ما قُتِلَ مالك الأرحبيّ^(٦)، فتزعم تلك الحرب أحد أبنائه، وهو أبو غارة بن مالك وكان سيّداً جواداً، وفارساً شجاعاً، ومعه أخوه علقمة بن مالك الذي تَوَعَّد خولان بالثأر قائلاً:

عَادَاتُ أَسْيَافِنَا يَوْمًا إِذَا صَدَّتْ صِقَالُهَا بِمَسَاحِي هَامِ خَوْلَانِ^(٧)
تَظْمَأُ مَا ظَمِئْتُ فِينَا وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا دِمَاءُهُمْ مِنْ مَشْرَبٍ دَانٍ

(١) الإكليل ١٢٤/١٠ وعنه في شعر همدان وأخبارها ٣٠٧، الأسل: الرّماح.

(٢) انظر: الإكليل ١٤٠/١٠.

(٣) انظر: الإكليل ١٢٤/١٠.

(٤) الإكليل ١٢٤/١٠، وعنه في شعر همدان وأخبارها ٣٠٢. وجاء في البيت الثاني في الإكليل (معتلماً) وأظنه تصحيفاً، وما ذهب إليه صاحب همدان فهو صحيح.

(٥) انظر: الإكليل ١٩٦/١٠.

(٦) انظر: الإكليل ١٤٢/١٠.

(٧) مساحي: مقلوب مسائح، جمع مسيحة، وهي رأس الإنسان ما بين الأذن والحاجب ومثل هذه القلب موجود في شعر همدان ٢٧٠.

أَمْثَلَكُمْ هَاجِنًا أَوْ هَادٍ يَصْطِنَا أَوْ سُبَّانًا رُعَاةَ الْمَعَزِ وَالضَّانِ (١)

وكان ممن حضر تلك الحرب من أشرف همدان: الحارث بن مُرّ بن ربيعة بن عبد بن عليان بن أَرْحَب الهمدانيّ وهو صاحب خيل همدان (٢)، وأدهم بن قيس بن ربيعة مع أخويه أقفع - وهو عبد الله - ومحمد (٣)، وحيف بن أغار بن ناشج بن وادعة وكان سيّداً في قومه، وقُتِلَ فيها (٤)، والحارث بن مالك بن ربيعة بن عبد ودّ بن وادعة الذي قُتِلَ فيها مع عمه وأبيه في يوم الضَّرَك (٥). بينما كان على قبائل قضاة يومئذ سيّدها وشريفها عقيل بن مسعود الكلبيّ الذي نالته طعنة يزيد بن معاوية بن دومان بن عُميرة الهمدانيّ فخرم أنفه وقتله (٦). وشارك في هذه الحرب ولدان لعقيل بن مسعود هما: الربيع بن عقيل - وكان شاعراً -، ومسعود بن عقيل الذي قُتِلَ في تلك الحرب، فقتل الربيع به عمرو بن مالك بن ملالة بن أرحب الهمدانيّ (٧).

ودامت الحرب طويلاً بين الفريقين، حتّى انبرى للصّحاح بينهما عامر ذو لعة الأوسط بن زيد بن الرديح بن الحارث بن الخصيب بن مالك بن قيس بن شرّاحيل بن رفاعة الهمدانيّ - وهو من أهل الشرف والسّودد - ارتضاه الطّرفان حكماً، فأجار بينهما ثلاث سنين (٨)، غير أنّه لم ينجح في استئصال شأفة الحرب بينهما؛ إذ لم تلبث أن سُعرت نارها من جديد، وصارت أشدّ ما تكون ضراوة بعد أن

(١) هاد: أفزع. والبيضة: أراد بها هنا الحمى. انظر شعر همدان وأخبارها ٢٧٠.

(٢) انظر: الإكليل ١٠ / ١٦٠.

(٣) انظر: الإكليل ١٠ / ١٦٣.

(٤) انظر: الإكليل ١٠ / ٨٩.

(٥) انظر: الإكليل ١٠ / ٨٤.

(٦) انظر: الإكليل ١٠ / ١٢٠-١٢٥.

(٧) انظر: الإكليل ١٠ / ١٤٣. وقرأت في شعر همدان ٥٦ أنّ (عقيل بن مسعود الكلبيّ قُتِلَ في هذه الحرب، قتله معاوية بن مالك بن ملالة بأبيه، فنهض بثأره أخوه الربيع بن مسعود الكلبيّ، فقتل به من همدان عمرو بن مالك بن ملالة..) والصّحيح أنّ الذي قتله هو يزيد بن معاوية بن دومان... الإكليل ١٠ / ١٢٥. كما جعل جامع أشعار همدان ومحقّقها د. عيسى حسن أبو ياسين لمالك بن ملالة ولداً اسمه معاوية، وليس من أبنائه من سُمّي بهذا الاسم. وانظر خبر هذه الحرب أيضاً في ديوان شعراء بني كلب بن وبرة ففيه فضل إيضاح ١ / ١٦٢، ٢٨٨.

(٨) انظر: الإكليل ١٠ / ١٠٨.

أتاحت ثلاث سنوات لكل فريق أن يستعيد أنفاسه، ويعدُّ نفسه من جديد. ولا بدَّ ههنا من الإشارة إلى أن أخبارَ هذه الحرب قليلةٌ، وخاملةٌ لا تزيد على ما ذكره الهمداني وهو صاحب أحداثها، يُحِيلُ في وقائعها وأحداثها وما جرى على ألسنة الشعراء الفرسان الذين خاضوا غمارها على كتبه اليسوب -المفقود في ضمائر الغيب- الذي أودعه أخبار غيرها من الحروب التي خاضتها قبائل يمانية أخرى. وهذا ما أسعفتنا به الأخبار في القول حول علاقة خولان بجاراتها من القبائل اليمنية التي لم تخرج عن أقوال الهمداني الذي كان عليه المعول في أخبار القوم.

ونخلص إلى ما يلي:

- إنَّ علاقات خولان بمذحج علاقات قائمة على ما تقتضيه مصلحة القبيلة، والحرب هي التي جمعتها في غالب الأحيان، إلا إذا رأت إحداهما أنَّ خطراً يهدد أمنها وصقعتها، تشرع في عقد حلفٍ ضدَّ ذلك الخطر، كما مرَّ بنا عندما حاولت قبائل قيس عيلان أن تشارك خولان ومذحج وبعض قبائل قضاعة الماء والكلأ .

- استمدَّت خولان قوتها من قوَّة حمير؛ لعلاقتها المتينة بها، وعاشت في ظلِّ صيتها الذي دوى في أشعار العرب بعيداً، بل كانت حليفاً قوياً لها ضدَّ القبائل اليمنية القديمة.

- كانت علاقة خولان بهمدان علاقة حرب ونزاع، وفق ما انتهى إلينا من أخبار أوزيت أيما إيذاء، وتخرمتها المنايا، وتناهبتها أيادي الضياع. وقلة الأخبار تنسحب على علاقات خولان بالقبائل السالفة الذِّكر، ولعلَّ فيما قدمنا ما يزيل بعض الغمَّة عن وجه خولان المغمورة.

٣ - عَلاَقَاتُهُم بِالْأَحْبَاشِ:

ليس بين أيدينا ما يوضِّح العلاقة بين خولان والأحباش على نحوٍ مرضٍ فيما وقفنا عليه من التَّأليف القديمة التي تؤرخ في أحد جوانبها للصِّقع اليمني من جزيرة العرب، ولعلَّ مردَّ ذلك إلى ترامي خولان على أصقاعٍ شاسعة في اليمن، وذوبان كثيرٍ من بطونها في قبائل كبيرة مثل حمير ومذحج وهمدان، وقلة اشتهارها لدى المهتمِّين بالتَّاريخ مقارنة بالقبائل اليمنية السابقة الذِّكر، التي صرف المؤرِّخون القُدَّامى جُلَّ اهتمامهم لتدوين أخبارها وعلاقاتها وتقييد أيامها، يضاف إلى هذا

انحسار دورها في توجيه دفة السياسة في اليمن، ولا سيما في الجاهلية وصدر الإسلام، لذلك لم يكن لها ما كان لجاراتها من الأهمية في مصنّفات العلماء والرّواة. وإنّ معظم ما كُتِبَ في هذه البابة هو عن علاقة الحبش بحمير؛ لكونها بسطت نفوذها على بلاد اليمن جميعها، أو باليمن عامّة، ولقلّة الكتب القديمة في ذلك، واحتجاب هذا القليل عنّا، ولا سيما ما كتبه الهمدانيّ لسان اليمن وعلامتها، ولا بدّ ههنا من الإشارة إلى أهمية النقوش المتبقية على صِفَاحِ الحجارة؛ لما حوته من أخبار تنبئُ ببعض العلاقات التي كانت قائمة بين الأحباش وأهل اليمن، لذا سيكون مدار الحديث عن علاقة الحبش باليمن عامّة، والتّطرّف إلى خولان وما كان لها من علاقة بهؤلاء إذا أمكن إلى ذلك سبيل، وليس هذا بالبدع ههنا، إذ سبق إلى التّنبية عليه وبسط القول فيه غير باحث ممّن عُنوا بتاريخ العرب وأيامهم قبل الإسلام، وخصوصاً اليمن منها. وسيُكتفى بعرض أهم الأحداث التي كان للأحباش دور مهمّ فيها اتّكالا على ذكر أهل الفضل والعلم لهم في تأليفهم^(١). ومما تطالعنا به النقوش عن علاقة الأحباش باليمن، أنّهم كانوا فيها في القرنين الأولين للميلاد، ويظهر أنّهم استولوا على السّواحل الغربيّة، وهي سواحل قريبة من السّاحل الإفريقيّ^(٢)، ويظهر أنّ الحبش تمكّنوا من دخول (ظفّار) عاصمة حمير في نهاية القرن الثّاني، وكانت لهم اليد الطّولى في إدارة شؤون اليمن في أواخر القرن الثّالث وأوائل الرّابع، زمن ملك الحبشة (عيزانا) الذي تلقّب بـ(ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلّحين) لإخضاعه أراضي اليمن جميعها وما جاورها لحكمه وسلطانه، وكان هذا بعد وفاة (شمّر يُرْعِش) نحو ٣٣٥م حيث اعتنق (عيزانا) النّصرانيّة، ونشرها في الأصقاع التي حكمها^(٣).

أما عن دخول الأحباش لليمن (٦٤٠ حميري - ٥٢٥م) فكان بسبب إسراف ذي نواس في تنكيه بنصارى اليمن في نجران وظفّار وغيرهما عندما قتل قرابة عشرين ألفاً في نجران وحدّها، فوصل خبر هذه المذبحة الفظيعة إلى ملك الرّوم وملك الحبشة - دعاة النّصرانيّة وأهلها - فأرسل

(١) انظر: المفضّل ٤٤٩/٣.

(٢) انظر: المفضّل ٤٥٢/٣.

(٣) انظر: المفضّل ٤٥٦/٣، وثمّة مصادره، مختارات من النقوش ٦٣-٦٥، تاريخ العرب القديم ٣٦٨-٣٧١، اليمن ماضيها وحاضرها ٧٠، ٧٢، نظرات في التّاريخ العام لليمن: ٧٨.

الأول سفناً إلى الحبشة؛ لتحمل الجيش الذي جهّزه ملك الحبشة وعبّاه إلى اليمن؛ لحماية النصارى من بطش ذي نواس، ووصل الجيش على ظهور تلك السفن إلى سواحل اليمن بقيادة (أرياط) الذي دخل في حرب ذي نواس ومن كان معه من أقيال اليمن الذين تخلّوا كثير منهم عنه، وقد تناوله جيش (أرياط) بقتل وسبي وتشريد إلى أن انتهى أمر ذي نواس الذي خشي على نفسه، فركب فرسه واعترض البحر عندما أحس أن لا طاقة له بهم، فكان آخر العهد به^(١)، ثم دخل الحبش اليمن وأخضعوا كل ما وصلوا إليه من قلاع وحصون وقصور، وأحكموا القتل في أهلها، والذبح رداً على تنكيل ذي نواس الذي أنطق علقمة ذي جدن الحميري بقصيدة يذكر فيها ما آل إليه حاله، وإشارته الموت غرقاً على أن يقع أسيراً بين مخالب أعدائه منها قوله:

أَوْ مَا سَمِعْتَ بِقَتْلِ حَمِيرِ يُوسُفٍ أَكَلَ الثَّعَالِفُ لَحْمَهُ لَمْ يُقْبِرِ^(٢)
وَرَأَى بَأْنَ الْمَوْتَ خَيْرٌ عِنْدَهُ مِنْ أَنْ يَدِينَ لَأَسْوَدٍ أَوْ أَحْمَرَ^(٣)
إِنَّ الْمَنَآيَا وَكَلَّتْ بِرِجَالِنَا فَعَلَّتُهُمْ بِمَنَاسِمٍ وَبِأَزُورٍ^(٤)

(١) تاريخ الطبري ١٢٧/٢، المحبر ٣٦٨، تاريخ يعقوبي ١٩٩/١-٢٠٠. أخبار مكة للأزرقي ٨٦/١، المفصل ٤٥٩/٣، تاريخ

العرب القديم ٣٧٥، وثمة مصادر، نظرات في التاريخ العام لليمن ٧٦ وما بعدها.

(٢) الثعالف: الحيتان، واحدها تُعلوف ويقال: ثعالف وثعاليف كما يقال: مكيال ومكايل ومكايل. الإكليل ٨٣/٢، وهي لفظة

غفلت عنها معجمات العربية. وقد ساق د. جواد علي البيت في كتابه (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) ج ٣/ ٤٧٢:

أَوْ سَمِعْتَ بِقَتْلِ حَمِيرِ يُوسُفٍ أَكَلَ الثَّعَالِبُ لَحْمَهُ لَمْ يُقْتَبِرْ

وعلق عليه صاحب شعراء حمير د. مقبل الأحمدي بقوله: «مُصَحَّحاً مُحَرَّفاً». [وقد استدلل منه (فون كريم) على أن ذا نواس لم يغرق في البحر كما في الروايات الأخرى، بل قتل قتلاً كما ورد في روايات الروم] وإنما صحف البيت عمداً أو وهماً ثم بُني على هذا التصحيح حكم يناقض الروايات العربية السيارة، وكثيراً ما كان يسلم جواد علي في المفصل بآراء المستشرقين، وقل أن تراه يناقشها في حين يمرض الروايات العربية حتى لو كانت أصح من غير أبي سيارة. أقول: وكأن ثقتهم بالمستشرقين هي أكبر من ثقته بأي شيء آخر، حتى إنه كان مبهوراً بقراءتهم للنقوش لصعوبتها، ووعورة أرضها، ولقلة المشتغلين فيها.

(٣) قوله: «... لأسود أو أحر» كناية عن موصوف، يريد الأحباش والروم. (وأسود) و(أحر) ممنوعان من الصرف يجزان بالفتحة بدلاً من الكسرة، فصرفهما وأظهر الكسرة للضرورة.

(٤) المناسم: جمع منسم وهو خف البعير، والأزور: جمع زور وهو وسط صدر البعير، أو ما ارتفع منه إلى الكتفين انظر: شواهد

حمير (الديوان) ق ٤٩/ب ٨-١٠.

وبعد أن استتب الأمر للأحباش في اليمن، عَيَّنوا رجلاً من النَّصارى يدعى (سميفع أشوع) ملكاً يحكم بأمر النَّجاشي حتى انتهى الأمر إلى رجل آخر يدعى (أبرهة) الذي استقل بحكم اليمن من دون الرجوع إلى النَّجاشي حتى سنة ٥٧٥ م^(١).

ومما نطقت به النقوش من آثار أبرهة الحبشي في اليمن، ما جاء في وثيقة خلفها يوم رمم سد مأرب، وتعدُّ هذه الوثيقة أطول نص وصل إلى العلماء في اليمن، يتألف من ١٣٦ سطراً، ومن حوالي ٤٧٠ كلمة، وتبحث عن ترميم سد مأرب على مرحلتين: بدأت الأولى في شهر ذي مَذْرَأَن من سنة (٦٥٧ هجري - ٥٤٢ م) والثانية في شهر ذي مَعُون من سنة (٦٥٨ هجري - ٥٤٣ م) وقد بُدئ النص بما يأتي:

«بخيل وردا ورحمت ورحمن ومسحهو وروح قدس سطور و ذو مزندن أن أبره عولي ملكن أجعزين رمحز زيمن ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنت وأعربهمو طودم وتهمت. أي: بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه وروح القدس سَطَّروا هذه الكتابة. إنَّ أبرهة نائب ملك الأَجَـز رمحز زيمن ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمينات وأعراهم في طود وتهامة»^(٢) والواضح أنَّ أبرهة قد لُقِّب نفسه في هذا النص باللقب الرسمي الذي كان يتلقَّب به ملوك حمير قبل سقوط دولتهم.

مما يدل على استيثاره بحكم اليمن كليّة، وحصره زمام السّلطة في يده، وهذا ما منحه قوّة وشأناً عظيمين جعله يوجه أنظاره خارج حدود اليمن؛ لتوطيد أركان سلطانه وحكمه.

حَمَلَةُ أَبْرَهَةَ لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ الْمُشْرِفَةِ:

كانت في نهاية القرن السادس للميلاد، وقد رُوِّعَتْ قريشاً، وأفزعته؛ لما عرفته من قساوة (أبرهة) ومن شدّته في أهل اليمن حتّى إنّه لما مات لم تمت ذكراه، كما ماتت ذكرى كثير من الحكّام قبله، بل تركت أثراً عميقاً في نفوس أهل اليمن.

(١) انظر: المفصل ٣/ ٤٧٢، ٤٨٠-٨٤١، وانظر: تاريخ العرب القديم ٣٧٦.

(٢) المفصل ٣/ ٤٨٤، وانظر: شعراء حمير ٤٦.

وكان من سبب هذه الحملة حسب ما يقول به الإخباريون أن رجلاً من كنانة قام بتدنيس (القُلَيْس) ^(١) التي بناها أبرهة في اليمن؛ لتكون محجة الناس، فلما بلغه خبر التدنيس، عزم على السير إلى مكة؛ لهدم الكعبة، فسار ومعه جيش كبير من الحبش وأهل اليمن الموالين لحكمه ^(٢). ويذكر الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (٣٢٧هـ) بسنده عن عثمان بن المغيرة بن الأحنس سبباً آخر في قرار أبرهة غزو مكة وهدم الكعبة، وهو أن أبرهة الأشرم الحبشي كان ملك اليمن وإن ابن ابنته أكسوم بن الصباح الحميري خرج حاجاً، فلما انصرف من مكة، ونزل في كنيسة بنجران فغدا عليها ناس من أهل مكة، فأخذوا ما فيها من الحلي، وأخذوا قناع أكسوم، فانصرف إلى جده مغضباً، فبعث رجلاً من أصحابه يقال له (شهر بن معقود) على عشرين ألفاً من قبيلة خولان والأشعريين ممن دخلوا في سلطانه وحكمه، فسار بمن معه من جيشه حتى نزل بأرض خثعم، فتيمنت خثعم عن طريقه، فلما وصل إلى الطائف، خرج إليه أهله، واستطاعوا إقناعه بعدم دخولها ^(٣) حتى بلغ المغمس، فخرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة؛ ليرجع فأبى، وعبأ جيشه، وقدم الفيل الذي جلبه معه، لكنه باء بفشل ذريع عندما خرجت عليهم طير من البحر سوداً، وقيل:

(١) القُلَيْس: يسميها ابن الكلبي (القُلَيْس): وهي واحدة من أكبر الكنائس وأضخمها التي أقيمت بصنعاء في خضم حملات التنصير، وقد بناها أبرهة الأشرم؛ لصرف أنظار العرب عن الكعبة الشريفة إليها بقصد الحج، ويحملهم على التوجه إلى القُلَيْس، ومن ثم يجني ثمار ذلك التوجه من النواحي الاقتصادية والسياسية، وحرص أبرهة على أن تكون القُلَيْس رائعة المنظر فخمة، تسلب عقل الناظر وتبهر قلبه، وقال مخاطباً ملك الحبشة «إني بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبن مثلها لك كان قبلك، ولست بمتته حتى أصرف إليها حاج العرب» وبنيت بجوار قصر غمدان الشهير، وكانت عذتها الرخام والفسيفساء والحجارة الملونة البراقة، ونُقشت بالذهب والفضة، ورُشَّت جدرانها بالمسك، وأقام فيها صلباناً منقوشة بالذهب والفضة والفسيفساء... وكل هذا لم يخلب ألباب العرب ويصرفهم عن الحج إلى الكعبة في مكة، بل ساءهم جداً أن تنافس الكعبة في مكة.

الأصنام ٤٦-٤٧، السيرة النبوية لابن هشام ٤٨/١، التاج (قلس)، تاريخ الخميس: ١٨٨، أخبار مكة للأزرقي ٨٧-٩٢، تاريخ العرب القديم ٣٨٠ وثمة مصادره، وموسوعة الميثولوجيا والأديان العربية قبل الإسلام ٣١٢.

(٢) المفصل ٣/٥٠٨، وتاريخ العرب القديم ٣٨٢.

(٣) المفصل ٣/٥١٠، ونحو ذلك في تاريخ العرب القديم ٣٨٢.

خضراً مع كل طيرٍ حجراً في منقاره، وحجران في رجله أكبر من العدسة، وأصغر من الحمصة وقد ذكرهم الله عز وجل في كتابه في قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُولٍ﴾ [الفيل] (١).

ومما تنبئ به النقوش عن علاقة خولان بالأحباش ما جاء في النقش الآتي الذي استهل بـ«وفيم / أذرح / بن... م س / هقنى / المقه / ثهوان / بعل / أوم / صلمن / وثورن / ذذهبن / يوم / هوستهو / مرأهو / شرم / أوتر / ملك / سبأ / وذريدان / لشرح / وقرن / بأوثن / شعبن / حشدم / بضر / ضررو / احشن / وذكون / كونهمو / بن / سوهرن / وخولن» أي: هذا هو الملك (وافي أذرح بن... وقد تقرب إلى (المقه، ثهوان سيد أوم) بصنم وبثور من البرونز، وذلك بمناسبة أن سيده الملك قد أصدر مرسوماً يقضي بقيادته لقوات المrapطة والمقاومة في حدود قبيلة حاشد بسبب الحرب التي شنها الأحباش، ومن كان معهم من قبيلة السّواهر وقبيلة خولان (٢).

وفي هذا ما يدلّ على تحالف خولان والأحباش ومن كان معهم في مواجهة قبيلة حاشد الهمدانيّة ليتّضح لنا أنّ علاقة خولان بالحش في حدود ما وقفنا عليه، وما انتهى إلينا من أخبار يدلّ على تحالف خولان مع الأحباش في مواجهة القبائل العربيّة، وأغلب الظنّ أنّهم خولان العالية؛ لقربهم من (ظفّار) (٣) عاصمة الحميريّين التي سيطر عليه الحش، وجعلوها رمزاً لحكمهم وسلطانهم في اليمن حينذاك.

-
- (١) انظر: دلائل النبوة ٨٢، والكشاف ٧٩١/٤، المفصل ٥١١/٣ ومثل ذلك في تاريخ ابن الوردي ١٥٠-١٥١، وتاريخ الخميس ١٨٩، أخبار مكة للأزرقي ٩٧/١، سمط النجوم العوالي: ١/٢٣٠.
- (٢) انظر: نقوش مسندية ١٠٢-١٠٣، تاريخ اليمن القديم ١٠٩-١١١.
- (٣) ظفّار: مدينة باليمن في موضعين: إحداهما قرب صنعاء، وهي التي ينسب إليها الجزع الظفّاري، وبها كان مسكن ملوك حمير... وقد قال بعضهم: إنّ ظفّار هي صنعاء نفسها. انظر: معجم البلدان ٤/٦٠.

٤ - خَوْلَانُ وَالرُّومُ:

يحدّثنا التاريخ القديم أنّ الرومان بعد أن استولوا على أرض الكنانة بعونٍ من الأنباط استطاع «يوليوس قيصر» أن يقبض على ناصية الأمور في الإسكندرية عام (٤٧ ق.م)^(١)، عندها بدأ الرومان يفكّرون بالسيطرة على البلاد العربية، ولا سيّما الأصقاع المهمّة من النّاحية الاقتصادية والتجاريّة؛ فكانت حملة (إيلوس جالليوس) ٢٥ ق.م؛ للاستيلاء على اليمن؛ لكثرة خيراتها، ولاحتكارها طرق النّقل التجاريّ بين العالم، ولجعل البحر الأحمر بحراً رومانياً، وللقضاء على المنافسة العربيّة الخطيرة التي كان الملاحون الرومان يعملون لها ألف حساب عند اجتيازهم باب المندب، أو عندما ترسوا سفنهم على بعض الموانئ في تلك المناطق^(٢). وقد سجّل خبر هذه الحملة اثنان من رجالها ومرافقيها هما (سترابون ٢٤م) و(بلينيوس ٧٩م) أمّا (سترابون) فسأجّح وكاتب جغرافيٍّ ومؤرّخ، وكان صديقاً لقائد الحملة ومدافعاً عنه، وقد كان نفسه من المشاركين في الحملة في رأي بعض الباحثين^(٣). وأمّا (بلينيوس) فكان شبيهاً بصاحبه، ولم يدوّن أكثر مما دوّن الأوّل وتوفّي بعيده، غير أنّه أشار في مطلع حديثه عن الحملة إلى أنّ (جالليوس) كان الرومانيّ الوحيد الذي أدخل محاربي روما جزيرة العرب، وقد خرب مدناً لم يُردّ ذكرها في كتب من تقدّمه من المؤلّفين^(٤). ومن المؤسف جداً أنّ (سترابون) لم يذكر أسماء المواضع التي مرّ بها الرومان، أو القبائل العربيّة التي اتصلوا بها، واختلف المستشرقون في تحديد مسار الحملة الذي سلكته، والطّرق التي مرّت فيها، متنطعين مُتكهّنين في مذاهبهم المختلفة دون تقديم تعليلٍ واحدٍ لما ذهبوا إليه، وهذا من شأنه أن يفسد البحث العلميّ ويضعه في حقل الاحتمالات. والراجح أنّهم سلكوا طريق يثرب ثمّ اتّجهوا إلى القصيم حيث دخلوا قلب نجد، ثمّ عقّبوا بعد ذلك الطريق المؤدّية إلى اليمن فساروا باتجاه نجران، ومنها دخلوا اليمن، فاصطدموا باليمنيين على نحو ما قصّه (سترابون) و(بلينيوس). ولما عادوا سلكوا طريقاً آخر أقصر

(١) انظر: المفصل ٢/٤٢، تاريخ العرب القديم ٣١٠.

(٢) انظر: المفصل ٢/٤٣، ٤٩، تاريخ العرب القديم ٣١١.

(٣) انظر: المفصل ٢/٤٩ وثمة مصادره.

(٤) انظر: المفصل ٢/٥٢.

وَفَرَّتْ عَلَيْهِمْ بَعْضُ الْوَقْتِ، وَمَرُّوا بَنَجْرَانَ وَمِنْهَا إِلَى الْآبَارِ السَّبْعِ - وَهُوَ مَوْضِعٌ يَقَعُ عَلَى مَسَافَةِ ١٥٠ مِيلًا إِلَى الْغَرْبِ مِنْ نَجْرَانَ - وَمِنْهُ إِلَى مَوْضِعٍ خَوْلَانَ فِي مَخْلَافِهَا^(١) وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَوَاضِعِ وَالْأَمَكْنَةِ. وَالَّذِي يَمِيلُ الْبَاحِثُ إِلَيْهِ أَنَّ الْحَمْلَةَ اتَّصَلَتْ بِمَعْظَمِ مَنْ سَكَنَ الْيَمْنَ، وَلَا سِيَّامَا الْقَبَائِلَ الْقَرِيبَةَ مِنَ الطَّرِيقِ التَّجَارِيَّةِ الْمَهْمَّةِ لِسَبَبَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهَا بَقِيَتْ فِي الْيَمَنِ أَشْهُرًا قَارِبَتِ الْعَامَ^(٢) تَسْنَى لَهَا خِلَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الْإِتِّصَالُ بِمَنْ رَغِبَتْ بِهِمْ. الثَّانِي: جَاءَتْ لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى تِلْكَ الطَّرِيقِ التَّجَارِيَّةِ الْمَهْمَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَصِلُ الْقَبَائِلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْحَمْلَةَ بَاءَتْ بِفَشَلٍ ذَرِيعٍ، وَرَضِي (إِيلْيُوسُ جَالِيُوسُ) لِنَفْسِهِ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ، وَلَمْ يَنْجِ مِنْ أَفْرَادِهَا إِلَّا مَنْ كَانَ الْقَدَرُ مَعَهُ، وَأَسْعَفَهُ فِي النَّجَاةِ، وَقَدْ عَزَا (سْتَرَابُونُ) فَشَلَ هَذِهِ الْحَمْلَةَ إِلَى غَشٍّ (صَالِحِ)^(٣)، وَمَكْرَهُ لِقَائِدِ الْحَمْلَةِ الَّذِي أَعْلَمَهُ بِتَعَذُّرِ الْوُصُولِ إِلَى الْيَمَنِ بَرًّا لِعَدَمِ وَجُودِ عَدَدٍ كَافٍ مِنَ الْجَمَالِ، وَلِعَدَمِ وَجُودِ طَرِيقٍ بَرِّيَّةٍ صَالِحَةٍ لِمُرُورِ الْجَيْشِ الرُّومَانِيِّ، وَأَرَادَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ إِذْلالَ الرُّومَانِ وَإِضعَافَهُمْ فَضْلًا عَنْ إِضعَافِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَثِّ الذَّعْرِ وَالْخَوْفِ فِي نَفُوسِ أَهْلِهَا، لِيَكُونَ سَيِّدَ الْمَوْقِفِ يَتَصَرَّفُ كَيْفَمَا يَشَاءُ، وَهَكَذَا سَارَتِ الْحَمْلَةُ فِي طَرِيقٍ مَقْفَرَةٍ، مُجْدَبَةٍ، لَا زَرْعَ فِيهَا وَلَا مَاءَ؛ مِمَّا أَدَّى إِلَى انْتِشَارِ الْعَطَشِ وَالْجُوعِ فِي صَفُوفِهَا؛ لِفَسَادِ الطَّعَامِ وَفَتْكِ الْمَرَضِ وَغَيْرِهِ...^(٤). أَمَّا عَنْ صِمْتِ النَّقُوشِ عَنْ ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ خَبَرِ هَذِهِ الْحَمْلَةِ الَّتِي لَا بَدَّ لَهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ تَرَكْتَ أَثْرًا فِي نَفُوسِ الْيَمَنِيِّينَ، فَلَعَلَّهُ عَائِدٌ إِلَى عَدَمِ الْعُثُورِ عَلَى كُلِّ الْمَسَانِدِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ قَدْ دَوَّنتَ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ هَذِهِ الْحَمْلَةِ، إِذَا مَا عُثِرَ عَلَيْهِ مِنْهَا لَا يَغْدُو غِيضًا مِنْ فَيْضٍ^(٥). فِي حِينٍ يَرَى بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ أَنَّ النَّصَّ (هَالِيْفِي) إِنَّمَا يَتَحَدَّثُ عَنْ حَرْبِ دَارَتِ رَحَاهَا بَيْنَ (ذِشَامَتِ) وَ(ذِيْمَنَتِ) وَرَبِّمَا كَانَ

(١) انظر: المفصل ٥١/٢ وثمة مصادره.

(٢) انظر: المفصل ٤٩/٢.

(٣) صالح: هو الوزير النبطي الذي صاحب الحملة كدليل لها، يرشدها ويهدها طرقها في أصقاع العربية السعيدة.

(٤) انظر: المفصل ٤٥/٢ وعنه في تاريخ العرب القديم ٣١١.

(٥) انظر: المفصل ٥٨/٢ وثمة مصادره.

المراد بالأولين الرومان وبالأخرين السبئيين^(١)، ومن ثم فإن النص يتحدث عن الحملة نفسها (حملة إيلوس جاليوس) وهذا على سبيل التكهّن والتوقع وليس له من الحقيقة نصيب يؤبه له.

واتكأ على ما سلف من خبر حملة (إيلوس جاليوس) - الذي تناولناه في شيء من الاختصار غير المخل - يمكن القول: إن علاقة خولان بالروم هي علاقة الروم باليمن كُله - وكان لا بد من عرضها - إذ ليس في هذه العلاقة ما يخص خولان ذاتها دون غيرها، وإن كانت الحملة قد مرّت بأرض خولان من دون بسط القول، وتفصيله في ذلك.

٥ - علاقاتهم بالفرس:

بات من المسلّمات المعروفة - عند أهل العلم - أن سبب دخول الفرس إلى اليمن كان لنصرة سيف ابن ذي يزن الحميري على الأحباش، واستعادة ملكه المعتصّب^(٢)، الذي سعى في بادئ الأمر إلى ملك الروم يطلب نصره ضد الحبش الذي كانوا أحلافاً له، لذلك لم يأبه لطلبه؛ ليسعى بعد ذلك إلى ملك الفرس الذي لبّاه من فوره، وعباً له جيشاً؛ ليشدّ أزره ضد أعدائه، واختلف الرواة في عدد ذلك الجيش فمنهم من قال: إنّه ثمانمئة رجل لا غير، ومنهم من يجعله فوق ذلك وهو الأقرب إلى الصواب؛ لأنّه من غير المعقول أن يبعث كسرى فارس بحفنة من المساجين لقتال الأحباش في اليمن. الذين كان من خلفهم الرومان، اليد الداعمة لهم وحلفاؤهم الأقوياء^(٣). والحقيقة أن كسرى أرسل حملة ضخمة قوامها سبعة آلاف وخمسمئة رجل، كان معظمهم من الدّيلم^(٤)، وضمّ إليهم كلّ

(١) انظر: المفصل ٥٨/٢ وثمة مصادره، وعنه في تاريخ العرب القديم ٣١٢ وثمة مصادره.

(٢) انظر: النسب الكبير ٥٤٥/٢، السيرة النبوية ٦٤-٦٨، تاريخ الطبري ٢/١٤٠-١٤٢، ملوك حمير وأقيال اليمن ١٥٠-١٥١، نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب ٣١٨-٣١٩، مختارات من النقوش اليمنية القديمة ٦٥، تاريخ اليمن القديم ١٦٤-١٦٣، العمدة ٩٦٠-٩٦١، الرّوض المعطار ٤٠٣، تاريخ ابن خلدون ٧٣/٢ وما بعدها، نشوة الطّرب ١/١٦١، الكامل في التاريخ ٤٤٧/١، وعنهم في شعراء حمير (الدراسة) ٤٧.

(٣) انظر: اليمن في صدر الإسلام ٢٤-٢٨، تاريخ العرب القديم ٣٨٤.

(٤) انظر: المعارف ٦٦٤، والدّيلم: شعب يسكن المنطقة الجبلية التي تقع جنوب بحر قزوين، وتعرف بهذا الاسم، ونُسب الشعب إلى موطنهم. انظر: القاموس الإسلامي ٤٢٢/٢.

من كان في سجونه من المجرمين، وعيّن عليهم أحد قواده البارزين ويُدعى (وَهْرَز) وكان قائداً لمنطقة الديلم وهو من الأسرة الحاكمة^(١).

في حين يذهب الهمدانيّ إلى إنكار بعض ما نُسب إليه من دخول الأحباش إلى اليمن، وفي هذا يقول يحيى بن الحسين العلويّ (١٠٩٩هـ) وهو يتحدث عن تعصّب الهمدانيّ لأبناء قومه من قحطان: «أكثر تصانيفه لا يُخْلِئُهَا من التّعصّب لقحطان على عدنان حتى خرج إلى الكذب، وكان مشهوراً بالكذب في الأنساب مع معرفته بها... وَمِنْ كَذِبِهِ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي بَعْضِ مُصَنَّفَاتِهِ فِي فُضَائِلِ قَحْطَانَ إِنكَارَهُ دُخُولِ الْحَبْشَةِ الْيَمَنَ وَصَنَعَاءَ، وَقَالَ: الْعَرَبُ أَرْفَعُ شَأْنًا وَأَقْوَى مَكَانًا مِنْ أَنْ يَدْخُلَهُمُ الْحَبْشَةُ، وَإِنَّمَا دَخَلُوا مِنْ سَاحِلِ جُدَّةَ إِلَى مَكَّةَ»^(٢). وقد يكون كلام يحيى بن الحسين من قبيل «ما يكون بين أصحاب المذاهب والنحل من الاختلاف الذي تنعدم معه معايير الحق والإنصاف»^(٣). غير أن ثمة قطعة نادرة من الإكليل وقعت إلى أحد الباحثين، لما تنشر بعد، فيها ما أشير إليه إن صحَّ أن ما فيها من كلام الهمدانيّ نفسه، وليس مدسوساً عليه، من إنكاره دخول الأحباش إلى اليمن، وأنَّ القصة فريّة افترتها نزار على اليمانيّة، وإنَّما كان دخول الفرس إلى اليمن؛ لخروجهم عن أمر كسرى، فاحتبوا بفناء سيف بن ذي يزن الحميريّ الذي استعملهم جنداً عنده، وهي قضية سيشاح عن معالجتها؛ لأنَّها ليست مجال بحثنا، وقد بسط القول فيها مَنْ انبرى للملمّة قوافي حمير وأخبارها في سفرين كبيرين^(٤).

وما تقدّمت بهذا، إلّا لأصل إلى فكرة انتشار الفرس في اليمن، الذين أحكموا قبضتهم عليه، وصاروا قوّة أساسيّة فيه، وأفادوا من حالة الانقسام السائدة آنذاك بين أذواء حمير وأقباها، فبسطوا

(١) انظر: مروج الذهب ٨٨/٢، تاريخ العرب القديم ٣٨٥، اليمن في صدر الإسلام ٢٦، تاريخ الخميس ١٩٢.

(٢) ساق هذا الكلام الشّيخ حمد الجاسر - طيّب الله ثراه - في أثناء تقديمه لمطبوع صفة جزيرة العرب ١٥، نقلاً عن مخطوط كتاب (طبقات الزيدية) دار الكتب المصرية ٢٨، ٦١.

(٣) تعليق الشّيخ حمد الجاسر في مقدّمة صفة جزيرة العرب ١٥.

(٤) انظر ما كتبه د. مقبل الأحديّ في هذه الباب في دراسته لشعراء حمير (الدراسة) ٤٧-٥٢ ففيه فضل إيضاح للعلاقة السائدة بين الفرس واليمن عموماً.

سلطانهم على معظم أنحائه المهمة، كما رأوا إلى تشجيع الهجرة إليه، فالتحق بقواتهم المتمركزة هناك عددٌ كبيرٌ من أبناء قومهم، وانتشروا في المراكز الرئيسة في اليمن مثل: عَدَن^(١)، وذَمَار^(٢)، وصَنْعَاء^(٣)، وصَعْدَة^(٤)، وصَيْحَة، ومَسَاك، وبيْتُ الفَوَاقِم، وجَوْب^(٥)، وفي نَجْرَان^(٦)، ومدن معدن الرُّضْرَاض^(٧)، وغيرها من الأصقاع المهمة، التي كانت خولان تنزلها وتفتريشها أرضاً لها مما يجعل فيما بينهما من الاختلاط والتداخل ما يُنشئ علاقات معيّنة وصلت إلى المصاهرة في بعض الأحيان^(٨).

ومن الأخبار المتعلقة بصلة خولان بالفرس - الذين أصبحوا جزءاً من اليمن؛ لاستقرارهم فيها - ما نجده في اجتماع عددٍ من الفرسان والزعماء المغامرين أصحاب الشكيمة القويّة من قبيلة مذحج «زبيد» بقيادة عمرو بن معدي كرب الزبيديّ، والحارث بن كعب بقيادة الحصين بن قنان بن يزيد الحارثي، وبني عبد المدان بقيادة يزيد بن عبد المدان، وخولان بقيادة عنبرة بن يزيد الخولاني وشهاب بن الحصين، الذين تشاوروا فيما بينهم وأجمعوا على حرب باذان الفارسيّ، واتّفقوا على الاجتماع في موضع مَذَاب^(٩) من أرض جوف همدان، فاصطدمت هذه القوّة بالسلطة الفارسيّة وخاصة في مأرب، والجوف، ونَجْرَان حيث كانت معظم قبائل هذا الحلف ما تزال تحوم على التّخوم الشماليّة الشرقيّة لليمن، ولاسيّما في منطقتي سبأ والرُّضْرَاض حيث مناجم الذهب والفضة اللذين يستخرجهما الفرس^(١٠)، ولم يكن هيناً على همدان أن تشعر بالتهديد في عقر دارها من أعدائها

(١) انظر: الإمتاع والمؤانسة: ٧٩.

(٢) انظر: صفة جزيرة العرب ٧٩، ٢٢٤.

(٣) انظر: صفة جزيرة العرب ٨٦، ٢٦٤.

(٤) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٤٩.

(٥) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٤٤، وهي مواضع في أرض همدان نزلها الأبناء، وبعض بطون خولان.

(٦) انظر: الإكليل ٢/ ٦٠.

(٧) انظر: الجوهريّ العقيقتين المائعتين: ٩٠، أهل اليمن في صدر الإسلام ٨٩.

(٨) انظر: خبر مصاهرة خولان للفرس في مبحث علاقات المصاهرة، (فيروز) الذي كانت أمه فارسية...

(٩) مَذَاب: بفتح أوله: موضع في بلد سفيان في الوادي الثالث من وديان جوف همدان.

(١٠) انظر: أهل اليمن في صدر الإسلام ٨٨-٨٩.

الأصليين (خولان ومذحج) وعلى الرغم من أنهم يقصدون (الأبناء) إلا أنهم سيحتاجون أرض همدان للوصول إلى عاصمة اليمن صنعاء.

لذلك كان لا بد من أن تتحالف مع عدوها القديم وهم (الأبناء)؛ لأنهما يواجهان عدوًّا واحدًا، وكان قد تجمّع من همدان حوالي عشرة آلاف مقاتل، وخرج (باذان) مستعدًّا لقتال خولان وبعض مذحج، فأصبح الأبناء وحمدان أحلافًا ضدّ خولان ومذحج. وكتبوا حلفهم في نسختين بالعربيّة وبالفارسيّة، وهو كتاب يضمن تأكيد الحلف وتوثيقه، وأهم ما جاء فيه الآتي:

«إنّا تحالفنا على عهد الله تعالى وميثاقه، واجتماع الهوى واتفاقه، وقتال المخالف وفراقه، وعلى أن كلّ واحد منّا من الحيّين جميعاً أنّا تحالفنا فيما عقد وخالف أو نكث أو خالف عما عهد وشدّد... فعليه العهد من الله تعالى المكور الوثيق المؤكّد الشّديد أبد الأبد الأشدّ... إلخ». وما كاد يحصل هذا التّحالف حتّى انتشرت الدّعوة الإسلاميّة^(١). أما الهمدانيّ فيدفع بهذا الحلف ويشكّ في وجوده أصلاً عندما نبّه بعبارة توحّي بعدم صحّته، فقال في أثناء ترجمته «لعمرو بن الحارث بن الحصين بن النّعمان الذي يُدكّر الأبناء أنّه عقد الحلف بينهم وبين همدان»^(٢) والذي يعيننا من هذا كلّهُ أنّ الأبناء توصلوا إلى عقد حلف مع همدان - إن صحّ - لمحاربة من عزم على محاربتهم من خولان ومذحج. ويتّضح ممّا تقدّم على نُحوله وهزاله أنّ علاقة خولان بالفرس كانت علاقة حرب وصراع؛ لأجل بسط النّفوذ والهيمنة التي رأت إليها الدّولة السّاسانيّة، ويبدو أنّ ذلك كان حتّى عهد قريب من بزوغ شمس الإسلام وإشراقها على قبائل اليمن^(٣).

(١) انظر: تاريخ مدينة صنعاء ٣٧، وعنه في أهل اليمن في صدر الإسلام ٩٠، واليمن في صدر الإسلام ٣٨ وانظر حوالاته ثمة.

(٢) الإكليل ١٠/١٩٨، وعنه في اليمن في صدر الإسلام ٣٩ وانظر حوالاته ثمة.

(٣) انظر: أهل اليمن في صدر الإسلام: ٩١.

٦ - علاقتهم بدولة الإسلام:

١ - في عصر النبي ﷺ:

لا يراد بالحديث عن علاقة خولان بدولة الإسلام في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتناول عقيدتهم، فإنَّ لذلك الحديث مكاناً آخر، وإنَّما يُقصدُ به ما كان بينهم من صلوات مودَّة واحترام وتقدير، أو غير ذلك من عداوة وخصومة «على أنَّه يصعب الفصل بين الأمرين؛ لأنَّ علاقة الرسول ﷺ والدَّولة التي أنشأها في المدينة مع الآخرين كانت تقوم على أساس من العقيدة التي تُؤادُّ من وادَّ الله ورسوله، وتُعادي مَنْ عاداهما»^(١)، ومن ركب في أمواج الشُّرك والضَّلال، لذلك سأكتفي ههنا بالإيحاء إلى تلك العلاقات التي أمكن الوقوف عليها في المصادر والمطانِّ المختلفة ولا سيَّما التَّاريخية منها.

فمَّا يشار إليه بالبنان بعد إسلام خولان، وهدمها لصنمها التي كانت تتعبَّد له في السَّنة العاشرة للهجرة ما نقله الحافظ ابن عساكر بسنده أنَّ قيس بن عباية بن عبيد بن الحارث بن عبيد الخولاني، حليف بني حارثة بن الحارث من الأوس، كان مَنَّ شهد بدرًا وأُحُدًا والخندق مع رسول الله ﷺ وهو حَدَثُ السَّن، وشهد بعد ذلك الفتوحات الإسلاميَّة في بلاد الشَّام مع أبي عبيدة بن الجراح وهو كهلٌ يستشيرُه في أمور الحرب والقتال^(٢)، وتوفي في إمارة معاوية بن أبي سفيان^(٣).

وفي السَّنة العاشرة للهجرة جاءت وفود العرب تعلن دخولها الإسلام، فكان من تلك الوفود وفد خولان، وكانوا عَشْرَةَ نَفَرٍ، فأمر النَّبيُّ ﷺ فكتب لبعضهم مثل عَبْدِ رُضِيِّ الخولانيِّ المكنى بأبي مكيف^(٤) كتاباً لقومه.

(١) شعراء بني كلب بن وبرة (الدَّراسة) ١٣٨.

(٢) انظر: تاريخ دمشق ٤٩: ٤٤٤، وانظر أيضاً منه ٦٧: ١٧٥، الإصابة ٣/ ١٦٤٠، اليمن في صدر الإسلام ٣٢٠.

(٣) انظر: تاريخ دارياً ٥٧.

(٤) انظر: الحديث عن إسلامهم، وثمَّة مصادره.

٢- عَلاَقَاتُهُمْ أَيَّامَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ:

لما ثار المرتدون في اليمن قبيل وفاة النبي ﷺ، وادَّعوا النبوة كُلِّ واحدٍ لنفسه، ساد نوع من العصيان على دولة الإسلام الناشئة، واضطربت أمور الناس الذين انبرى منهم فئة لقتالهم. وما كاد يبلغهم نبأ وفاة النبي ﷺ حتى انتفضت اليمن، وارتدت العرب في جميع النواحي والأمصار^(١)، فإمّا القبيلة مستوعبة وإمّا بعض منها، والمسلمون آثذ كالغنم في الليلة الممطرة؛ لضعفهم وانكسارهم بفقدانهم نبيهم، وآل أمر سقيفة بني ساعدة ببيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، الذي أنفذ جيوشه لمحاربة المنقلبين على أعقابهم، فوجّه فرقاً عديدة إلى اليمن منها فرقة يعلى بن أمية لمحاربة خولان التي ارتدت جميعها إلا نفر قليل منهم، ولا سيما التي كانت تابعة لبعض بطون حمير؛ لأن حمير ثبتت على إسلامها بملوكها وأقيالها ولم تزعزعها ردة العنسي ومن تبعه^(٢). ثم إن المناطق التي قوتلت لردتها لم تكن بأجمعها قد ارتدت، بل بقي فيها مجموعات أو أفراد كان لهم بعض المواقف مع أقوامهم لإعادتهم إلى الإسلام^(٣).

وفي السنة الثالثة عشرة للهجرة كانت وقعة اليرموك بالشام، حيث التقى المسلمون الروم ومن انضوى تحت لوائهم من العرب من قبائل «لخم وجذام وبلقين وبلي وعاملة، وتلك القبائل من قضاة، وغسان بشر كثير»^(٤). وعليهم جبلة بن الأيهم الغساني، وكانوا اثني عشر ألفاً من تلك القبائل وحدها، وخولان من قضاة، ولكن ليس هناك ما يدلنا إذا ما كانت خولان قد شاركت الروم، أو بعض منها في يوم اليرموك، في حين كان في صفوف المسلمين جموع من قضاة، ومن القبائل نفسها التي كانت إلى جانب الروم وغيرها من قبائل العرب ممن انضم إلى خالد بن سعيد^(٥)، وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه قد أمر بالسير لإنقاذ جيش المسلمين بالشام لِمَا علم أبو بكر الصديق

(١) انظر: الكامل في التاريخ ٣٣٦-٣٥٧، ٣٦٨-٣٨٣.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٣/ ١٨٧، ٢٣٢، ٣٣١-٣٣٥، اليمن في صدر الإسلام ٢٥٥.

(٣) انظر: انظر: اليمن في صدر الإسلام ٢٦٦.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٧٠ وفتوح الشام ١/ ١٤٩.

(٥) انظر: تاريخ دمشق ٢/ ١٤٨، ونحو ذلك في فتوح البلدان للبلاذري: ٢١٨، وعنه في شعراء كلب بن وبرة (الدراسة) ١٤٢.

ﷺ أن أبا عبيدة لئن العريكة لا قدرة له بقتال الروم، ولما وصل خالد بن الوليد إلى اليرموك وجد الجيش مُقسماً على أربعة أقسام، وأن لكل قسم أميراً، فجمع الأمراء ودعاهم إلى الإجماع على أمير واحد، فتكون الإمارة في كل يوم لرجل منهم، ورأى أن يجعلوا الإمارة له في اليوم الأول، فوافقوه الرأي، فخرج خالد في تعبئة لم تُعبَّها العرب قبل ذلك قط من نحو ستّة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين حتى تبدو للنّاظر أكثر عدداً، فتبّت الذعر والخوف في قلوب الروم، فكان من قادة تلك الكراديس معاوية بن حُديج الخولاني^(١).

ونقل لنا الحافظ ابن عساكر بسنده أنّه كان في اليرموك أشراف رجالات العرب من قبائل عديدة يقول: «خرج النَّاس على راياتهم فيها أشراف رجال من العرب، فيها الأزد وهم ثلث النَّاس، وفيها حمير، وهمدان ومَذْحِج وخَوْلَان وخَثْعَم، وفيها كِنَانَة وقُضَاعَة ولَخَم وجُذَام وكِنْدَة وحَضْرَمَوْت، وليس فيها أسد ولا تميم ولا ربيعة...»^(٢) وكانت خولان في ميمنة الجيش إلى جانب الأزد ومَذْحِج وحضر موت وحمير الذين شدّت عليهم البطارقة^(٣)، أما النّساء فاستبسطن استبسلاً عظيماً وجعلن يقاتلن قتال الموت، فيضربن وجوه الخيل بالعمد، ويلوحن بالأطفال، وراح بعضهن يقاتل المشركين وبعضهن الآخر يقاتل المسلمين الفارّين من ساحة المعركة؛ حتى يعودوا مرّة أخرى لقتال الكُفّار الذين قيّدوا أرجلهم بالسلاسل الحديدية، وبعضهن يسقي الماء ويشدّ الجراح، وما إن اشتدّت وتيرة القتال وسعّرت نار المعركة أكثر ممّا بدأت به حتى انهزمت نساء لخم وجذام وخولان اللواتي لم يعدن يطقن صبراً، فخرجت خولة بنت الأزور ومن معها، وجعلن يضربن رؤوسهنّ ووجوههنّ بالعمد حتى رجعت النّساء تقاتل قتال الموت وطلب الشّهادة^(٤)، حتى قيل: لم تقاتل النّساء يوماً مثلاً فعلت يوم اليرموك^(٥).

(١) انظر: تاريخ الطّبريّ ٣/ ٣٩٧، تاريخ دمشق ١٥/ ٥٩، وانظر: البداية والنهاية ٨/ ٨٣.

(٢) تاريخ دمشق ٢/ ١٤٨، وانظر: اليمن في صدر الإسلام ٣١٤.

(٣) انظر: تاريخ دمشق ٢/ ١٥١، البداية والنهاية ٧/ ٩٤، فتوح الشّام ١/ ١٧٥، واليمن صدر الإسلام ٣٢٣.

(٤) انظر: فتوح الشّام ١/ ١٨٧.

(٥) انظر: فتوح الشّام ١/ ١٨٦.

وَمَنْ شَهِدَ الْيَرْمُوكَ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ خَوْلَانِ عَدَدٍ مِنْ أَشْرَافِهِمْ مِنْهُمْ جَرِيرُ الْخَوْلَانِيِّ،
الَّذِي كَانَ حَلِيفًا لَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَدْ وَرَدَ عِنْدَ الْوَاقِدِيِّ بِسَنَدِهِ عَنْ «عَاصِمِ بْنِ رَوَاحِ الزَّبِيدِيِّ»
قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْبَانِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا طَرَفَةُ بْنُ شَيْبَةَ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ عَمِّهِ جَرِيرٍ وَكَانَ مُحَالَفًا
لَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ^(١)، وَأَبُو عِنْبَةَ الْخَوْلَانِيِّ الَّذِي شَهِدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي صُحْبَتِهِ^(٢). وَمَرَّثَدُ
ابْنِ سَمِيِّ الْخَوْلَانِيِّ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ وَأَحَدِ قُرَّاءِ أَهْلِ الشَّامِ الْمَشْهُورِينَ فِي زَمَانِهِ^(٣)، وَيَطَالَعُنَا الْوَاقِدِيُّ
فِي غَمَرَةِ فَتُوحَاتِ الشَّامِ فِي أَثْنَاءِ خَبَرِ يَرْوِيهِ عَنْ مِشَارَكَةِ الْخَوْلَانِيِّينَ فِي فَتْحِ الْمَعْرَةِ إِذْ يَقُولُ: «إِنَّ أَبَا
عَبِيدَةَ دَعَا بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَضَمَّ إِلَيْهِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ فَارِسٍ مِنْ لَحْمٍ وَجِذَامٍ وَطَيِّئٍ وَنَبْهَانٍ وَكَهْلَانٍ
وَسُتْسٍ وَخَوْلَانٍ، وَقَالَ: يَا أَبَا سَلِيمَانَ شَنَّ الْغَارَةَ بِهَذِهِ الْكُتَيْبَةِ وَأَقْصِدْ بِهَا الْمَعْرَةَ، وَأَقْرُبْ مِنْ مَعْرَةِ
حَلَبٍ، وَشَنَّ بِهَا الْغَارَةَ عَلَى بَلَدَةِ الْعَوَاصِمِ، وَارْجِعْ عَلَى أَثَرِكَ وَأَنْفِذْ عِيُونَكَ، وَانْظُرْ إِنْ كَانَ لِلْقَوْمِ
نَجْدَةٌ أَوْ نَاصِرٌ مِنْ قَوْمِهِمْ أَمْ لَا؟ فَأَجَابَهُ خَالِدٌ إِلَى ذَلِكَ وَأَخَذَ الرَّايَةَ... إلخ»^(٤).

وَفِي سَنَةِ عَشْرِينَ لِلْهَجْرَةِ كَانَ فَتَحَ مِصْرَ عَلَى يَدِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ الَّذِي كَانَ فِي جَيْشِهِ كَثِيرٌ مِنْ
الْخَوْلَانِيِّينَ، بَلْ لَهُمُ الْيَدُ الطَّوْلُ فِي فَتْحِ ذَلِكَ الصَّقْعِ، مِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ بِسَنَدٍ طَوِيلٍ
عَنْ سَفْيَانَ بْنِ وَهْبٍ الْخَوْلَانِيِّ وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ فَتْحَ مِصْرَ قَوْلُهُ: «إِنَّا لَمَّا فَتَحْنَا مِصْرَ بِغَيْرِ عَهْدٍ قَامَ
الزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَّامِ فَقَالَ: أَقْسِمُ بِهَا يَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَقَالَ عَمْرُو: لَا أَقْسِمُ بِهَا... فَقَالَ الزَّبِيرُ بْنُ
الْعَوَّامِ: وَاللَّهِ لَتَقْسِمَنَّهَا كَمَا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرٌ، فَقَالَ عَمْرُو: وَاللَّهِ لَا أَقْسِمُ بِهَا حَتَّى أَكْتُبَ إِلَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَنْ أَقْرِهَا حَتَّى يَغْزَوْ مِنْهَا حَبْلُ الْحَبَلَةِ»^(٥).

(١) فتوح الشام ١/ ١٥٨.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام ٦/ ٢٤٣، تاريخ دمشق ٦٧/ ١٢٠، سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٣٣.

(٣) انظر: تاريخ دمشق ٥٧/ ٢٠٢، الإصابة ٣/ ١٩٢١.

(٤) فتوح الشام ١/ ٩٤.

(٥) حبل الحبلية: أراد حتى يغزو أولاد الأولاد كما في النهاية، وزيد في اللسان: حتى يكون عامًا في الناس. تاريخ دمشق ٢/ ١٩٤، وانظر:

٤٦/ ١٥٧، و٢١/ ٣٥٨، والإصابة ١/ ٧٤٢-٧٤٣، تاريخ خليفة بن خياط ١/ ١٣٦، وحسن المحاضرة ١/ ١٥٨، ١٠٦.

وَمَنْ شَهِدَ فَتْحَ مِصْرَ فِي صُفُوفِ جَيْشِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَيْضاً: اَمْرُو الْقَيْسِ بْنِ الْفَاخِرِ بْنِ الطَّمَّاحِ الْخَوْلَانِيَّ، أَبُو شَرْحُبِيلَ^(١)، وَعِكْرِمَةُ بْنُ عَبْدِ الْخَوْلَانِيَّ^(٢)، وَزُبَيْدُ بْنُ عَبْدِ الْخَوْلَانِيَّ^(٣)، وَعَلْقَمَةُ بْنُ سَمِيٍّ الْخَوْلَانِيَّ^(٤)، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُسَيْدٍ الْخَوْلَانِيَّ^(٥)، وَدِرْعُ بْنُ الْحَارِثِ الْخَوْلَانِيَّ، أَبُو طَلْحَةَ^(٦)، وَعَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَهِيْزَةَ الْخَوْلَانِيَّ^(٧)، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَمْرٍ، وَقَيْلُ شَمْرَانَ الْخَوْلَانِيَّ^(٨)، وَمَعَاوِيَةُ بْنُ حُذَيْجٍ الْخَوْلَانِيَّ الَّذِي وَلَّاهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ يَوْمَ فَتْحِ مِصْرَ مَعَ عَمْرِو بْنِ مَخْزُومٍ الْخَوْلَانِيَّ عَلَى خَطِّهَا سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ لِلْهِجْرَةِ^(٩)، وَغَيْرَهُمْ كَثِيرٌ، مَّا يَشِيرُ إِلَى مِشَارَكَةِ خَوْلَانَ جَيْشِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ فِي مِصْرَ.

وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ بِوَيْعِ لِعِثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْخِلَافَةِ^(١٠)، وَحِينَئِذٍ أَوْشَكَتِ الْفِتْنَةُ أَنْ تَلْقَى بِكَاهِلِهَا عَلَى صَدْرِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ النَّاشِئَةِ وَلاَحَ فِي الْأَفْقِ خَطَرُهَا، كَتَبَ عِثْمَانُ إِلَى أَهْلِ الْأَمْصَارِ يَسْتَمِدُّهُمْ، وَيَطْلُبُ عَوْنَهُمْ وَمَدَدَهُمْ عَلَى الْخَارِجِينَ، قَاتَى الْكِتَابُ أَهْلَ الْأَمْصَارِ، فَخَرَجُوا عَلَى الصَّعْبَةِ وَالذَّلُولِ مَلْبِينَ الدَّعْوَةَ مِنْ فُورِهِمْ؛ فَبَعَثَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ حَبِيبَ بْنَ مَسْلَمَةَ الْفَهْرِيِّ، وَبَعَثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ^(١١) مَعَاوِيَةَ بْنَ حُذَيْجٍ السَّكُونِيَّ الْخَوْلَانِيَّ، وَقَامَ مِنْ أَهْلِ

(١) انظر: الإصابة ١/ ٧١، حسن المحاضرة ١/ ١٣١.

(٢) انظر: الإصابة ٢/ ١٢٨١، حسن المحاضرة ١/ ١٦٩.

(٣) انظر: الإصابة ١/ ٦٦٠، حسن المحاضرة ١/ ١٥٥.

(٤) الإصابة ٢/ ١٢٨٨، حسن المحاضرة ١/ ١٧٠.

(٥) انظر: الإصابة ٢/ ١٤٤٢.

(٦) انظر: حسن المحاضرة ١/ ٢٠٣.

(٧) انظر: حسن المحاضرة ١/ ١٦١.

(٨) انظر: حسن المحاضرة ١/ ١٦٤.

(٩) انظر: حسن المحاضرة ١/ ١٠٢، ١٨٢.

(١٠) انظر: الإنباء بأبناء الأنبياء وتواريخ الخلفاء ١٨٤ وثمة مصادر.

(١١) عبد الله بن أبي سرح القرشي العامري أخو عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الرضاعة، أسلم قبل الفتح، وكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتد، وعاد إلى الإسلام وحسن إسلامه، غزا إفريقية زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وولي مصر بعد ذلك سنة (٢٥هـ)، توفي سنة (٥٩هـ) في آخر سني معاوية. الإصابة ٢/ ١٠٨٥..

الكوفة القعقاع بن عمرو التميمي، وقام من التابعين بالشام شريك بن خباشة النميري، وأبو مسلم الخولاني؛ لنصرة عصمة أمر المسلمين^(١).

وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه جعل معاوية بن أبي سفيان قميصه على المنبر، وقام في الناس، وبينهم جماعة من الصحابة والتابعين يحرضون على الأخذ بدمه والنيل من قتلته، ويبعثون الحمية في الناس الذين راحوا يتباكون حوله سنة، وكان من هؤلاء التابعين شريك بن خباشة، وأبو مسلم الخولاني وعبد الرحمن بن غنم وغيرهم^(٢).

ومما يلاحظ في هذا الخبر ميل الخولاني لعثمان، ومحاولتهم نصره في بادئ الأمر، ثم بعد ذلك حزنهم الشديد لمقتله، وبثهم التغير في الناس؛ للأخذ بثأره، وهو مما سيظهر صداها فيما بعد في وقعة صفين.

وفي خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في سنة سبع وثلاثين للهجرة كانت وقعة صفين بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، إذ نجد في أخبار تلك الوقعة ذكراً لعدد من رجالات خولان، منهم من كان مشهوراً كأبي مسلم الخولاني إلى جانب معاوية، الذي استعمله رسولاً إلى علي رضي الله عنه بأشياء يطلبها منه، ويسأله أن يضع الأمر في نصابه، ويدفع لمعاوية قتلة عثمان بن عفان حتى يقتلهم به^(٣).

وكان أبو مسلم عثمانياً الهوى، ومن المقررين وأصحاب الرأي والرشد والسداد والمشورة لدى معاوية، يحظى بتقديره واحترامه؛ لورعه وخشيته من الله، وكثيراً ما كان يستشير به ويأخذ برأيه في كثير من القضايا والمشكلات، ويعتد بنصائحه وسداد رأيه^(٤) وقد شهد صفين معه^(٥).

وعندما توفي أبو مسلم حزن معاوية رضي الله عنه لموته أشد الحزن^(٦). وممن شهد صفين مع معاوية من الخولانيين عمر بن الحارث الخولاني، وهو أحد قتلة عمار بن ياسر رضي الله عنه، عندما أقبل، وعقبة بن

(١) انظر: تاريخ الطبري ٣٥٢/٤، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان: ١٠٧.

(٢) انظر: البداية والنهاية ٤٢/٧.

(٣) انظر: تاريخ دمشق ١١٨/٥٩، و ٢٧/٢٢١، العقد الفريد ٣٣٥/٤.

(٤) انظر: تاريخ الإسلام ٥٣٨/٣، تاريخ دمشق ١٣٢/٥٩، و ١٢/٢٢٤، البداية والنهاية ١٨٧/٨، بهجة المجالس وأنس المجالس ٢/٦٢٧، وقعة صفين: ٨٥، ٨٨، كتاب الوفيات لابن قنفذ: ٩٧، التاريخ الكبير القسم الأول ٣/٥٨.

(٥) انظر: تاريخ دمشق ٣٥١/١١.

(٦) انظر: تاريخ أبي زرعة ٢٢٦-٢٢٧، التاريخ الصغير ١/١٦٤.

عامر الجهني، وشريك بن سلمة المرادي فانتھوا إليه جميعاً، وهو يقول: والله لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرٍ، لعلمت أني على الحق، وأنتم على الباطل، فحملوا عليه جميعاً فقتلوه. وقيل: إن عقبة الجهني هو الذي باشره بضربة أردته قتيلاً^(١). ومنهم أيضاً وزبيد بن عبد الخولاني المشهور بالمصري من بني يعلى، كانت معه راية خولان بصفين، ولما قُتل عمار بن ياسر رضي الله عنه انكفاً إلى عسكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولزمه، وحزن لما أصاب المسلمين من شقاق وفتنة أدت إلى فرقتهم وخوار قوتهم^(٢).

ولم أقف على أحد من رجالات خولان كان في جيش علي رضي الله عنه يوم صفين، ولعل السبب عائد إلى عدم نزول الخولانيين الكوفة، وما صاقبها من أمصار المسلمين المواليين لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنهم سكنوا الشام وافتروشوها دياراً لهم منذ عهد طويل، فصار هواهم عثمانياً بمرور الأيام وتعاورها؛ لذلك انضوا تحت راية معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يوم صفين.

لكن الطبري وغيره يذكر أن عبد الله بن زاحر الخولاني كان في جيش علي رضي الله عنه يوم قتال الخوارج في إحدى المعارك، عندما حمل علي بن عبد الله بن شجرة السلمي وقتله وهو واحد من أعيان الخوارج الذين هُزموا شرَّ هزيمة بعد مقتل أمرائهم: عبد الله بن وهب الراسبي، وحر قوص بن زهير، وشريح بن أوفى، في حين لم يقتل من أصحاب علي رضي الله عنه إلا سبعة نفر^(٣).

وذكر أن علياً عندما عهد بولاية مصر إلى محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعاً، كان فيها قوم ممن كرهوا قتلة عثمان، ولم يبايعوا علياً البتة، بل أضمرُوا العداوة لعلي ومَن تبعه من المسلمين، لعدم قيام الأخير باجتثاث شوكة هؤلاء المجرمين الباغين قتلة عثمان، وكان هؤلاء القوم في (خربتاً) وهي كورة من كور مصر عند الإسكندرية الذين أبدوا العداوة لمحمد بن أبي بكر

(١) انظر: تاريخ دمشق ٤٣/ ٤٧٢، ٥٥٧، وقعة صفين: ٣٤٠ باختلاف في رواية مقتله، تاريخ الطبري ٣٨/ ٥، البداية والنهاية ٤٥٥/ ٧ وما بعدها.

(٢) انظر: تاريخ دمشق ١٨/ ٣٠٥، الإكمال ٤/ ١٧٠، الإصابة ١٠/ ٦٦٠، حسن المحاضرة ١/ ١٥٥.

(٣) انظر: تاريخ الطبري ٥/ ٨٦، الكامل في التاريخ ٣/ ٣٤٧، البداية والنهاية ٧/ ٤٨٧ باختلاف بسيط في الرواية وفيه «عبد الله بن سخرية» محرفاً، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٦٤٠.

الصَّديق الذي استتر في «غافق»^(١) فوجده معاوية بن حُديج الخولاني فأخرجه وقتله، وجعل جثته في جيفة حمار وأحرقه بالنار^(٢).

ولما نفضت الرّجالُ غُبَارَ صفّين، رجع علي وأهل العراق عن محاربة معاوية الذي قويت شوكته في الشّام، وانقضت الحكومة بدومة الجندل، جمع معاوية أمراءه واستشارهم في المسير إلى مصر، فاستجابوا له، حيث فيها معاوية بن حديج الخولاني وهو زعيم العثمانيّة هناك في نحو من عشرة آلاف يناصرون معاوية بن أبي سفيان في موقفه من دم عثمان بن عفّان رضي الله عنه الذي أرسل رسله بالكتب؛ ليحض ابن حديج على المطالبة بدم عثمان ويعدّه المواساة في سلطانه^(٣). وكان ابن حديج قد شهد فتح مصر في سنة عشرين للهجرة، وهو الوافد بفتح الإسكندريّة على عمر بن الخطّاب، وقد ولّاه معاوية بن أبي سفيان إمارة مصر بعد عبد الله بن عمرو بن العاص سنة سبع وأربعين للهجرة^(٤). وغزا المغرب ثلاث مرّات: أمّا الأولى فكانت قبل مقتل عثمان بن عفّان الذي أعطاه الخمس في تلك الغزوة، حتّى قال النّاس: إنّما قيام معاوية في أمر عثمان حين قتل كان بسبب ذلك.

وأما المرّة الثّانية فكانت في سنة خمسٍ وأربعين، أغزاه فيها معاوية بن أبي سفيان، ولم يكن فيها موفقاً؛ فلم يستطع أن يفتح مدينةً ولا حصناً... على خلاف المرّة الثّالثة التي كانت في سنة خمسين، التي أصاب فيها سبياً وخيراً كثيراً وقفل سالماً، وفي السنة نفسها عزله معاوية بن أبي سفيان عن مصر ووّلّى عليها مع إفريقيّة مسلمة بن مخلّد الذي وجّه ابن حديج على رأس جيش فنزل مدينة لم تُسمّى، ودخلها من دون حرب بعد عقد صلحٍ مع أهلها، ثمّ انصرف في سنة إحدى وخمسين^(٥).

(١) غافق: بطن من قبيلة عكّ اليمنيّة التي تنتهي إلى أرومة القحطانية، نزلوا مصر في أرض بين مهرة بن حيوان وقبيلة لخم: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ٣/ ٩٧٠.

(٢) انظر: الإنباء بأنباء الأنبياء ١٩٥، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٦٤٢، الكامل في التّاريخ ٣/ ٣٥٨، معجم البلدان ٢/ ٣٥٥.

(٣) انظر: تاريخ الطّبريّ ٤/ ٥٥٧، معجم البلدان ٢/ ٣٥٥، البداية والنّهاية ٧/ ٥٢٦، ٨/ ٨٣، الكامل في التّاريخ ٣/ ٣٥٥، تاريخ دمشق ٥٩/ ١٩، ٢٥-٢٦، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٦٤٢.

(٤) انظر: تاريخ الطّبريّ ٥/ ٢٢٩، البداية والنّهاية ٨/ ٢٩.

(٥) انظر: تاريخ دمشق ٥٩/ ٢٠-٢٣، تاريخ الطّبريّ ٥/ ٢٤٠، البداية والنّهاية ٨/ ٥٤، الأعلام ٧/ ٢٦٠-٢٦١.

٣ - علاقتهم في أيام بني أمية:

رأينا في الحديث عن مصاهرة خولان أن عبد العزيز بن مروان خلف على أروى بنت راشد الخولاني بعد وفاة زوجها مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر، ذلك حينما عهد إليه بإمارتها في خبر ساقه الكندي في ولاية مصر.

ورأينا أيضاً وقوف الخولانيين إلى جانب جيش معاوية يوم صفين، الذي قرب غير واحد منهم إليه وجعلهم معتمده في حل بعض الملمات^(١). وفي السنة الثامنة والخمسين للهجرة ولي معاوية بن أبي سفيان إمارة الكوفة لعبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي وهو ابن أم الحكم، وهي أخت معاوية، بعد عزله الضحاك بن قيس عنها، وعين عبد الرحمن على شرطته زائدة ابن قدامة وكان فظاً جافاً سيئ الخلق والسيرة، مما عكس ذلك على شخص سيده عبد الرحمن الثقفي الذي تابعه في إساءة السيرة في أهل الكوفة، الذين أخرجوه طريداً من بين أظهرهم، فعاد أدراجهم إلى خاله معاوية، فذكر له ذلك، فقال: لأولينك مصراً خيراً منها، فولاه إياها، فلما سار إليها تلقاه معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر فقال له: ارجع إلى خالك معاوية، فلعمري لا ندعك تدخلها فتسير فيها وفينا سيرتك في إخواننا من أهل الكوفة، فرجع ابن أم الحكم إلى خاله معاوية، ولحقه معاوية بن حديج وافداً على أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، فلما دخل عليه وجد عنده أخته أم الحكم - وهي أم عبد الرحمن الذي طرده أهل الكوفة وأهل مصر - فلما رآه معاوية قال: بخ بخ هذا معاوية بن حديج، فقالت أم الحكم: لا مرحباً به، تسمع بالمُعَيدي خير من أن تراه^(٢).

فقال معاوية بن حديج: على رسلك يا أم الحكم، أما والله لقد تزوجت فيما أكرمت، وولدت فيما أنجبت، أردت أن يلي ابنك الفاسق علينا، فيسير فينا كما سار في إخواننا من أهل الكوفة، فما كان الله

(١) ومنهم أبو مسلم الخولاني، انظر: ترجمته في الديوان.

(٢) مثل يضرب لمن خبره خير من مرآه. انظر: مجمع الأمثال ١/ ٣٤٢ (دار صادر)، وتمثال الأمثال ١/ ٣٩٥.

ليريه ذلك، ولو فعل لضربناه ضرباً يطأطئ منه رأسه ولو كره ذلك الجالس - يعني معاوية فالتفت إليها معاوية فقال: كُفِّي، فانكفأت على نفسها والتزمت صمتها^(١).

الناظر في القصة السابقة يجد فيها ما يجد من المغالاة والمبالغة، فهل مكانة ابن حديج الخولاني المرموقة في دولة معاوية تُقَرُّ له لقاء أمّ الحكم في قصر معاوية بن أبي سفيان؟ ومن ثمّ التكلّم معها بجفاء وجلالة ما عهد أن تُكلّم بهما في حضرة خليفة كما فعلت هي أيضاً!! وإن كان قد حَدَثَ لَحَدَثَ معه عظيمٌ يُهلك صاحبه.

وذكر الطبري وغيره أنّ في سنة ستين (٦٠ هـ) استقضى معاوية بن أبي سفيان أبا إدريس الخولاني بعد موت قاضيه فضالة بن عبّيد الأنصاري^(٢)، واستمر في قضائه لدولة الأمويين في عهد ابنه يزيد بن معاوية الذي توفي في سنة أربع وستين (٦٤ هـ) بحوارين، وحمل إلى دمشق^(٣).

ومات مروان بن الحكم سنة خمس وستين للهجرة، وعلى قضائه أبو إدريس الخولاني في دمشق^(٤). وفي السنة السادسة والستين في ولاية عبد الملك بن مروان، وثب المختار الثقفي الكذاب بالكوفة؛ ليأخذ بثأر الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فدلّ على مجموعة قيل إنهم من الذين شاركوا في قتل الحسين وهم: عبد الله بن أسيد الجهنّي، ومالك بن بشير البديّ، وحمل بن مالك المحاربيّ، وزيايد بن مالك الضبّعيّ، وعمران بن خالد القشيريّ، وعبد الرحمن بن أبي خشكاراة البجليّ، وعبد الله بن قيس

(١) انظر: تاريخ الطبري ٣١٢/٥، الكامل في التاريخ ٥١٦/٣، تاريخ ابن خلدون ٢١/٣، البداية والنهاية ١١٩/٨.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٣٣٠/٥، الكامل في التاريخ ١١/٤، تاريخ ابن خلدون ٢٤/٣ وفيه: «أبو دؤيس» مُحَرَّفًا، السيرة النبوية لابن كثير ١٨٠/٢، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣٢٧/١، جوامع السيرة وخمس رسائل لابن حزم ٣٣١، البداية والنهاية ٨/٨، ٢١١.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام ٢٦٩-٢٧٥، الإنباء بأنباء الأنبياء ٢٠٨.

(٤) انظر: البداية والنهاية ٣٦٥/٨.

الخولانيّ الذي شاركهم في قتل الحسين عليه السّلام، فقتلهم واقتصّ منهم بعد أن عذّب بعضهم ومثّل بهم^(١).

وفي العام نفسه عقد عبد الملك بن مروان إمارة مصر لأخيه عبد العزيز بن مروان الذي استعمل سفيان بن وهب الخولانيّ على الإمرة على بعث الطّالعة إلى إفريقية. وقيل: إنّه غزا المغرب زمن عثمان ابن عفّان. وبعد أن تقدّمت به السنّ طلبه الأمير عبد العزيز بن مروان ليحدّثه، فأُتي به شيخاً كبيراً محمولا^(٢).

وفي سنة سبعين للهجرة استعمل الأمير عبد العزيز بن مروان على قضائه وقصصه وبيت ماله عبد الرحمن بن حُجيرة الخولانيّ، وكان يعطيه في السّنة الواحدة ألف دينار، فلا يدّخرها، بل ينفقها في سبيل الله؛ لتقاه وورعه الشّديدين^(٣). وفي سنة اثنتين وسبعين للهجرة صرّف بعث البحر إلى مكّة؛ لقتال ابن الزّبير، وجعل عليها مالك بن سُراحيل الخولانيّ الذي جعل فيما بعد للصّلاة في النّاس

(١) انظر: تاريخ الطّبريّ ٥٨/٦، الكامل في التّاريخ ٢٤٠/٤، البداية والنهاية ٢٢/٩، تاريخ ابن خلدون ٣/٣٤ وفيه اختلاف بسيط في رواية الحادثة من دون تغيير المضمون. والمختار الثّقفي: هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو الثّقفيّ، أبو إسحاق، ولد عام الهجرة، أفكّ كذابٌ ليست له صحبة ولا رواية، أخباره غير مرضية، أمضى حياته في الفسق والمراة قال النّبّي ﷺ «يكون في ثقيف كذاب ومبير» فكان المختار كذاباً والحجاج مبيراً، غلب على الكوفة زمن المصعب بن الزّبير، وكان أكبر همّه مُدّ دخل الكوفة قتل قتلة الحسين عليه السّلام. دعا إلى إمارة محمّد بن الحنفية... تتبع قتلة الحسين ونال منهم وادّعى النّبوة ونزول الوحي عليه، طالب بالإمارة وانتهى به المطاف أن حاصره عبد الله بن الزّبير بالكوفة، واحتزّ رأسه سنة سبع وستين للهجرة. انظر أخباره في: المحبر ٤٩١، المعارف ٤٠٠، سير أعلام النّبلاء ٥٣٨/٣، الفرق بين الفرق ٣١، الكامل في التّاريخ ٢١١/٤ فوات الوفيات ١٢٣/٤، الوافي بالوفيات ٤٩١/١٥، الحور العين ٢٣٦، منتخبات في أخبار اليمن ٣٢.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام ٧٣/٦، الإصابة ٤٧٢/١-٤٧٣، تاريخ دمشق ٣٥٨/٢١ وما بعدها، سير أعلام النّبلاء ٤٥٢/٣-٤٥٣، البداية والنهاية ١٩٠/٩.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام ١٢٦/٦، ٧٨/٥، البداية والنهاية ٨١/٩، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣٤١/١، حسن المحاضرة ١/٢٢٨، ١٠٦/٢.

عندما حضرته المنية في سنة ست وثمانين^(١)، وفي سنة خمس وسبعين أطلع عبد الملك بن مروان عمير بن عبيد الخولاني بالجيش إلى إفريقية^(٢).

وقد أورد غير واحد من العلماء أن عبد الملك بن مروان استقضى على دمشق أبا إدريس الخولاني بعد عزله لبلال بن أبي الدرداء. وتوفي أبو إدريس الخولاني سنة ثمانين وهو على قضاء عبد الملك بن مروان الذي توفي سنة ست وثمانين^(٣).

وفي سنة ست وثمانين أخذت البيعة للوليد بن عبد الملك بن مروان الذي أقر على ولاية مصر أخاه عبد الله بن عبد الملك إذ كان وليها في حياة أبيه عبد الملك. وأقر على قضائه عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الخولاني الذي صرفه فيما بعد، وعين آخر بدلاً منه، ليعود بعد زمن ليستعمل على قضائه عبد الواحد بن عبد الرحمن بن حديج الخولاني^(٤).

وثمة رواية أخرى يسوقها الكندي تفيد أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان رغب في عزل عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الخولاني عن الشرط، وأنه لم يجد عليه مقالاً ولا متعلقاً، فولاه مراًبطة الإسكندرية. في حين كان عبد الرحمن من سعاة أخذ البيعة للوليد بن عبد الملك من أهل مصر^(٥) فكيف يُقدم عبد الله بن عبد الملك على عزل من سعى لأخذ البيعة لأخيه، ودعا أهل مصر له من دون عذر أو ذنب اقترفه. والذي يعيننا من الخبر السالف أن بني مروان قد بسطوا الطريق لعلاقة طيبة مع الخولانيين بوأها مكانة عالية؛ إذ ليس من السهل أن يشغل أحدهم منصب القاضي أو رئيس الشرطة لولا أنه من المقرين الموثوقين لديهم.

(١) انظر: ولاية مصر ٧٢، ٧٦-٧٧.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ١ / ٣٤٧.

(٣) انظر: تاريخ خليفة بن خياط ١ / ٣٦١، الإنباء بأنباء الأنبياء ٢٢٠، الكامل في التاريخ ٤ / ٣٦٥، تاريخ الإسلام ٥ / ٥٤٤، البداية والنهاية ٩ / ١٦٩-١٧٦، ٢٢٨، تاريخ ابن خلدون ٣ / ١٧٢. تاريخ دمشق ١٠ / ٥٢٦، ٢٦ / ١٣٧.

(٤) انظر: الإنباء بأنباء الأنبياء ٢٢١، وحسن المحاضرة ١ / ٢٢٩.

(٥) انظر: ولاية مصر ٧٩-٨٠.

وفي صفر سنة ثمانٍ وثمانين قَدِمَ عبد الله بن عبد الملك على أخيه الوليد في دمشق، فاستخلف على مصر عبد الرحمن بن عمرو بن قَحْزَم الخولاني^(١).

وفي سنة ستٍّ وتسعين استُخْلِفَ سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ)، وكان من سُعاة أخذ البيعة له من أهل مصر عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني^(٢)، وكان من عماله على الكوفة سفيان بن حريش الخولاني^(٣)، وفي خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) نجد أن سلامة بن نعيم الخولاني مُقَرَّبٌ من الخليفة، بل يشير عليه في كثيرٍ من أمور الدولة الأموية، ولا يتأبى عليه أبداً، يسمع منه ويعتدُّ بنصحه - وهو من أهل العقل والحلم - وهذا ما بدا جلياً عندما أشار على الخليفة بأن يُرْجَعَ يزيد بن المُهَلَّب إلى سجنه بعد أن أركبه الخليفة جملاً أَجْرَبَ، وألبسه جُبَّةً من صوفٍ خَلِقةً، وجُعِلَ يدور في الناس؛ لِيُذَلَّه وَيَهَيَّهَ لأمرٍ وضع ارتكبه^(٤).

وذكر أبو بكر محمد بن عمر بن القوطية (٣٦٧هـ) وغيره من أصحاب العلم أن السَّامِعيَّ بن مالك الخولاني كان والياً لعمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة مئة للهجرة، الذي رأى منه ما لم يره من أحدٍ قط من أمانة وديانة وخُلُقٍ وحسن سيرة^(٥)، بل هو من خيار أهل زمانه ثقةً وعدالةً، أمره الخليفة أن يُجَمِّسَ أرض الأندلس، ويخرج منها خمس الله تعالى، ويقرّ القرى بأيدي أربابها، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس بحرّها وأنهارها وخيراتها. وكان رأيُه يقفل أهلها منها؛ لانقطاعهم من وراء البحر من المسلمين، فلما قدمها نفَّذَ ما عهدَه إليه الخليفة، وكتب إليه بكل ما فعله في الأندلس مُعَرِّفاً إياه بقوة الإسلام وشرف معاقله وكثرة أهله، وبقي في خدمة الخليفة حتى انتهى أمره شهيداً في أرض

(١) انظر: ولاية مصر ٨٠.

(٢) انظر: ولاية مصر ٨٧.

(٣) انظر: تاريخ خليفة بن خياط ١/ ٤٢٩.

(٤) انظر: تاريخ الطبري ٦/ ٥٥٧، الكامل في التاريخ ٥/ ٥٠، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٩٥.

(٥) انظر: تاريخ افتتاح الأندلس ٣٩، ٢١٠، وتاريخ الإسلام ٦/ ٢٧١، ٧/ ١٠، الكامل في التاريخ ٥/ ٥٥، ٤٨٩، وتاريخ ابن

خلدون ٣/ ١٧٤، ٤/ ١٥٢ وفيه اسم السَّمَح (السنخيم) مُصَحَّفاً مُحرَّفاً، وكثيراً ما وردت الأسماء فيه مُصَحَّفةً!!

الفرنجة سنة اثنتين ومئة للهجرة^(١). ومن الخولانيّين الذين دخلوا في خدمة عمر بن عبد العزيز، سليمان بن داوود الخولانيّ حاجبه، وكان من المقدمين عنده وأخوه عثمان بن داود أيضاً من أجلّة أصحاب عمر^(٢). وسعيد بن عكرمة الخولانيّ كان رئيساً لحرس الخليفة ومقرّباً منه لا يفارقه، حتى قيل إنّهُ روى عنه^(٣).

وفي خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان (من جمادى الآخرة إلى ذي الحجة من سنة ١٢٦ هـ قريبا من ستة أشهر) نجده يرسل عثمان بن داوود الخولانيّ، ومعه حذيفة بن سعيد إلى محمّد ابن عبد الملك ويزيد بن سليمان واليا الأردنّ وفلسطين، يدعوهما للدّخول في طاعته بعد أن قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بسبب مجونه وخلاعه، مما أدّى إلى اضطراب أمر بني أميّة، وتمرّد بعض أصحاب الولايات، وعدم ولائهم للخليفة الأمويّ.

وقد بذل عثمان الخولانيّ وحذيفة بن سعيد جهداً مضنياً في إقناع والي الأردنّ محمّد بن عبد الملك ووالي فلسطين يزيد بن سليمان الذي كانت تربطه بأهل فلسطين علاقات اقتصادية وأملاك بأن يدخلوا في طاعة الخليفة إلّا أنّهما تمردا ورفضاً أن يدخلوا في طاعة الخليفة حتى وجّه إليهما جيوشه بقيادة سليمان بن هشام بن عبد الملك - في الدماشقة وأهل حمص - التي بلغت أربعة وثلاثين ألفاً، نجحت فيما أوكل إليها من مهمّة، ودخل أهل الأردنّ وفلسطين في طاعة الخليفة^(٤).

وفي آخر خلافة مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢ هـ) وهو خاتم خلفاء بني أميّة نجد والي مصر له عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير اللخميّ، يجعل على شرطته عكرمة بن عبد الله بن عمرو بن محرم الخولانيّ، بعد أن استعفاه أخوه معاوية من منصبه الذي عهد به إليه^(٥)، وبقي بعد ذلك عكرمة

(١) انظر: تاريخ افتتاح الأندلس ٣٩، تاريخ ابن خلدون ١٥٢/٤.

(٢) انظر: تاريخ داريا ٨٩، وتاريخ الإسلام ٩/٤١٠.

(٣) انظر: تاريخ دمشق ٢١/٢٣٦-٢٣٨.

(٤) انظر: تاريخ الطبريّ ٧/٢٦٧ وما بعدها، الكامل في التّاريخ ٥/٢٩٤، البداية والنهاية ١٠/٢٢٦. وفي المصدرين الأخيرين

جاءت رواية الطبريّ بتامها من دون ذكر عثمان بن داوود الخولانيّ.

(٥) انظر: ولاية مصر ١١٦.

ابن عبد الله بن عمرو الخولانيّ على شرطة مصر في عهد عبد الملك بن يزيد، أبو عون، الذي هرب من الوباء إلى يَشْكُر، واستخلف عِكرمة على الفسطاط في سنة ثلاث وثلاثين ومئة، وظل عِكرمة وغيره من الخولانيّين أوفياء لبني العبّاس فيما بعد^(١).

واعتماداً على ما تقدّم يمكن القول: إنّ الخولانيّين كانوا على علاقة طيّبة بدولة الأمويّين الذين استعملوا عدداً لا بأس به منهم في مناصب مهمّة في الدّولة حتّى غدا غير واحد منهم ممّن يحكمون أصقاعاً شاسعة من دولة الأمويّين، ويديرون جانباً من دفّة السّياسية في تلك الحقبة، كما يلاحظ دورهم في فتوح المغرب، وبعث الطالعة إلى إفريقية، وكذا الأمر في الأندلس التي وليها لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه السّمح بن مالك الخولانيّ الذي انتهى أمره شهيداً وهو غازٍ في أرض الفرنجة، وكان من أكثر الناس ثقةً وعدلاً. يضاف إلى هذا الدور، دور آخر تجسّد في سعاية عثمان بن داود الخولانيّ لتوطيد أركان دولة بني أمية زمن يزيد بن الوليد، ومحاولة أخذه بيعة أهل الأردن وفلسطين للخليفة، ولو لم يكن من أصحاب الرأي والحجّة والأمانة لما كلفه الخليفة بأمرٍ عظيم كهذا. يُلاحظ أيضاً أنّهم لم يتألّبوا على ما عهدوا عليه من الأمويّين، بل ظلّوا مخلصين أوفياء ما حكّم الأمويّون.

(١) انظر: ولاية مصر ١٢٣ ما بعدها.

رابعاً - عَقِيدَةُ خَوْلَانِ :

ربّما صار القول في عقائد العرب قبل الإسلام فَضْلَةً؛ إذ بسط القول فيه، وسبق إليه ثلّة من الباحثين الذين عُنوا في غير ما أطروحة جامعيّة بجمع أشعار القبائل، أو الشعراء، ودراستها دراسة متأنّية، تَشْمَلُ فيما تَشْمَلُهُ (عقيدتها) ليتبيّن لهم أنّ العرب في دهمائهم قبل الإسلام كانوا يرفلون في مهامه الوثنيّة، ويغطّون في سُبّات الشُّرك والضَّلال، يرافق ذلك إيمانهم بالخالق وإقرارهم بالبعث بعد الموت، إلّا رهطاً قليلاً منهم رغبوا عن الأوثان يربّون بأنفسهم أن يتقرّبوا إليها، أو يصيبوا شيئاً من مفسد القوم، ومالوا إلى الإقرار بوحدانيّة الله ﷻ من أمثال: قسّ بن ساعدة الإيادي^(١)، وصِرْمَة بن أنس^(٢)، وزيد بن عمرو بن نُفيل^(٣). وأمّا ما اجتمع لدى الباحث من أشعار خولان، فليس فيها ما يدلّ على شيء من عقيدتها قبل الإسلام، أو في تلك الجاهليّة البعيدة التي عبد فيها العرب الأجرام السماويّة وتقرّبوا إليها بالنذور، ولا ما يدلّ على شيء يسير يؤبه له، أو يمكن الاستئناس به للوقوف على عقيدة القوم وتبيانها. ويُرجع د. جواد علي هذه المشكلة إلى الذين دخلوا في الإسلام وأرادوا مجارة المسلمين، ورغبوا في التنصّل من أيام الجاهليّة ومن التبرؤ منها، ومن غصّ النّظر عن ذكر الأصنام التي حرّمها الإسلام، أو إلى رواة الشعر في الإسلام وقد أغفلوا أمر الشعر الجاهليّ الذي مجدّ الوثنيّة فأهمّله، فلم يرووه، وأنّ بعضاً منهم قد سعى إلى تهذيب الشعر وتشذيبه، فحذف كلّ ما له علاقة بالأصنام والوثنيّة، ورفع أسماء الأصنام وأحلّ محلها اسم الله حيث يرد اسم الصّنم^(٤).

(١) انظر: طبقات ابن سعد ١/ ٣١٥، البيان والتبيين ١/ ٣٠٩.

(٢) انظر: السيرة النبويّة ٢/ ١١٨، الإصابة ٢/ ٨٩٤، ٩١٧.

(٣) انظر: السيرة النبويّة ١/ ١٨٠، المحبر ١٧١. وانظر ما كتبه د. عبد الحفيظ السّطيّ في ديوان أميّة بن أبي الصّلت (المقدّمة) ٢١،

وما بعدها عن هؤلاء الموحّدين السّالفي الذّكر.

(٤) انظر: المفصّل ٦/ ١٢.

ولا يمكن لنا التسليم بهذا الرأي الذي أوقفه صاحبه على النصوص الشعرية فقط؛ لأنّ النقوش التي وُجِدَتْ على صِفايح الحجارة، أو في جدران الكهوف، أو على القبوريات كانت وسيلة كشفت الغطاء عن جزءٍ من الحياة الدّينيّة لهؤلاء^(١)، ويمكن أن نعدّ القرآن الكريم خير من وقف على حالة العرب الدّينيّة، فقَصَّ خبر كثيرٍ من معبوداتهم وفَصَّلَ فيها تفصيلاً، بل إنَّ عدداً لا بأس به من آياته الكريمة كانت عبادة الأصنام سبباً في نزولها على قلب النّبيّ محمد ﷺ. وقد يصيب الباحث عن أديان العرب في الجاهليّة وما كانوا عليه من مللٍ ونحلٍ طَلَبَتْهُ في قول المسعوديّ عن عباداتهم مستنبطةً من القرآن الكريم: «كانت العرب في جاهليّتها فرقا منهم: الموحّد المقرّ بخالقه المصدّق بالبعث والنّشور، موقناً بأنّ الله يثيب المطيع، ويعاقب العاصي.... كقسّ بن ساعدة الإياديّ، ورتاب الشّنيّ، وبحيرا الرّاهب... وكان من العرب من أقرّ بالخالق، وأثبت حدوث العالم، وأقرّ بالبعث والإعادة، وأنكر الرّسل، وعكف على عبادة الأوثان، وهم الذين حكى الله ﷻ قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزّمر: ٢٣]»^(٢).

وأفراد هذه الفرقة هم الذين عظموا الأصنام، وحجّوا إليها، وأقاموا عندها شعائر الشرك والكفر، ومنهم من أقرّ بالخالق وصدّق قول أهل الدهر، وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم، وخبر عن كفرهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ومنهم من مال إلى اليهوديّة والنّصرانيّة، ومنهم المارّ على عنجهيّة الرّاكب لهجمته، وقد كان صنفٌ من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنّها بنات الله، فكانوا يعبدونها؛ لتشفع لهم عند الله،

(١) انظر: نقوش مسندية ١١٩، ١٤٦، ١٦٥، ٤١٣، ٤٨٨-٤٨٩، والمفصل ٢/ ٣٨٤.

(٢) مروج الذهب ٢/ ١٣٢-١٣٣.

وَهُمُ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ ﷻ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ۚ أَلَا كُمْ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ (١٩) تِلْكَ إِذَا قُسِمَةُ ضَيْرَىٰ ﴿[النَّجْم: ١٩-٢٢]﴾^(١).

وإذا كانت خولان تفرش أصقاعاً شاسعة من بلاد اليمن السعيد، وتشغل حيزاً واسعاً من جباله ووهاده ومفاوزه، فلم تكن بعيدة عن التأثير الديني المجاور لها؛ إذ للمجاورة ما لها من التلوين الثقافي والديني لدى الشعوب. وفي هذا يقول د. جواد علي: «يكون للجوار، وللصلات التاريخية، والروابط الثقافية أثرٌ في ديانات الشعوب، وفي تكييفها، ويكون للثقافة خاصّة أثر بارزٌ في هذا التوجيه»^(٢) واتّكاء على المقالة السالفة تكون قبيلة خولان قد جاورت من جنوبيها حمير التي كانت تعبد النجوم، والكواكب، والأجرام السماوية^(٣). وتطالعنا إحدى النقوش المسندية بعبادة خولان لعثر الذي خاله المؤرخون كوكب الزهرة، واعتقد د. نصرت عبد الرحمن أنّه الشعري - وهو أسطع نجوم السماء في الليل على الإطلاق^(٤)، ومما جاء في النقش إرياني/ ٧٦ «أتم / وجم / شعبن / خولن / جددن / أحنبن وأعبسن / ويشيمن / وكل / وليتهمو / وشعبن / أبقرن / وبشر قتن / ستوددو / وستذلن / لتضنغن / بن حبشن / لمظأو / أرضهمو / بمقم / إلهمو / عثر / ذرجم / وعثر / ذحضرن / وعثر / ذكبدن... إلخ. أي: لقد اجتمع الشعب خولان الجديد الأحنوب والأعبوس منهم واليشابمة وكلّ أحلافهم الموالين لهم. أمّا الشعبان الأبقور والشارقة فقد استجابوا لهم وطاوعوهم فكان قرار الجميع هو التحصن من الحبش الذين غزوا أرضهم، وكان ذلك بقوة ومكانة إلههم عثر ذي رحب، وإلههم عثر ذي كبدان.... إلخ»^(٥).

(١) انظر: شعراء حمير (الدراسة) ٧٤. والهجمة: القطعة الضخمة من الإبل.

(٢) انظر: المفصل ١٠/٦.

(٣) انظر: الاشتقاق ١٥٥، التاج (شمس) المفصل ٥٠/٦ وما بعدها.

(٤) انظر: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ١٠٩.

(٥) انظر: نقوش مسندية ٤٨٦-٤٨٧.

وعثر / ذحضرن هو إله خاصّ بخولان العالية، أمّا عثر / ذكبدن فهو إله مشترك بين خولان العالية، وبني سخم الحميريين^(١).

والذي يميل إليه الباحث أنّ الخولانيين عبدوا كلّ ما كانت اليمن تعبد من ذات الحميم (الشّمس) وإلقه (القمر) عند السبئيين (وعمّ) عند القتبانيين؛ و(ودّ) عند المعينيين و(سن) عند الحضارمة^(٢).

وفي خبر تفرد به ياقوت الحمويّ ذكر فيه عبادة أهل اليمن للنّار التي كانت في خولان يقول: «وفي خولان كانت النّار التي تعبدها اليمن»^(٣).

ولم يحدّد أيّ نار كانت تعبد اليمن^(٤) هل نار الاستمطار؟ أو نار التّحالف؟ أم غيرها... لكن في الخبر ما يوحي بأنّ خولان عبدت النّار في جاهليّتها الأولى ما دامت أنّها من اليمن، وربّما جاءت هذه العبادة وافدةً من الأمم المجاورة كالفرس والمجوس قبلاً، كما عبدت الأوثان^(٥). هذا وقد جاورت أقواماً من مذحج مثل بني الحارث بن كعب، أكثرهم نباهةً واشتهاراً وبنو عبد المدان بن الدّيان من ناحية الشمال، الذين كانوا نصاريّ في نجران، وعرفت بطون مذحج عبادة الأصنام والأوثان^(٦). وجاورت خولان قبيلة همدان من شرقيّها التي كانت تتعبد لـ(المقة) إله سبأ في أوّل الأمر، ثم عبدت (تالب رثام) الإله الخاصّ بهمدان. كما عبدت الأصنام، ودخلت في المسيحية واليهودية كغيرها من القبائل المعتنقة لهاتين الديانتين^(٧).

(١) انظر: نقوش مسندية ٤٨٩.

(٢) انظر: المفصل في تاريخ العرب: ٥٠-٥٤.

(٣) معجم البلدان ٢/٤٠٧.

(٤) انظر: ما كتبه د. جواد علي في المفصل عن أنواع النّار ٦/٦٩٦، وانظر مصادره ثمة.

(٥) انظر: الأصنام ١١-١٣.

(٦) انظر: الأصنام ٤٤، ٥٧، ١١١، التّاج (نسر)، المفصل ١/٤٥٤، ٦/٢٦٠، المحبر ٣٦٧، اللّسان (مدن)، شعراء مذحج ٤٩-٥٢.

(٧) انظر: شعر همدان وأخبارها في الجاهليّة والإسلام ٣٨ وما بعدها، وانظر: اليمن في صدر الإسلام ٦٥-٧٣.

وقد أشار الباحث في غير موضع من هذا البحث إلى أن أرهاطاً من خولان، بل بطوناً منها قد خالطت بطوناً من حمير، ومن قبيلة مذحج، وسكنت في أصقاعها، وصارت تُنسب إليها في كثير من الأحيان^(١). مما يجعل هذا توكّأً نتوكّأً عليها في القول: إنَّ تلك البطون الخولانيّة قد دانت بديانات هؤلاء الأقوام وهاتيك القبائل، واعتنقت ما كانت تعتنقه بحكم الحياة اليوميّة المعيشة.

ولما أشرقت شمس الإسلام تسطع في أوّل أمرها على جزيرة العرب بدعوة محمد ﷺ لأهلها وتطوافه بين القبائل يعرض نفسه عليها، أنكرته غالبية العرب، ولم يؤمن به إلا نفرٌ قليلٌ من الضّعفاء، وظلّ صابراً يدعو الناس حتى أطبقت عليه وفودهم في السنة التاسعة للهجرة تعلن إسلامها، لتنهض خولان كبقية القبائل من رقاد الغواية والضلال، وتسرع للدخول في الإسلام في شهر شعبان في السنة العاشرة للهجرة، معلنة إسلامها، وهدم أصنامها، وبداية حياة دينيّة جديدة. وسيقف الباحث فيما يلي على ما كانت خولان عليه من عبادة الأصنام وتعظيمها لها، ثم النصرانيّة التي اعتنقتها بطونها وانتشارها في قضاة، ثم إسلام خولان وثباتها عليه، وردّها مع القبائل التي ارتدّت.

- الوثنيّة فيهم:

مالت الأعراب في الجاهليّة إلى عبادة الأجرام السماوية والنجوم والكواكب كالشمس والقمر والزهرة^(٢)، وعبدوا أيضاً أصناماً كثيرة^(٣)، فرّق ابن الكلبي بينها وبين الأوثان، فقال: «إذا كان

(١) انظر: مبحث نسب خولان، وإلحاق عدد من بطونها ببعض بطون حمير.

(٢) انظر: موسوعة الميثولوجيا والأديان العربيّة قبل الإسلام ١٧٢، ١٩٥، ٣١٤، وانظر الصورة في الشعر العربيّ ٤٣-٤٤.

(٣) أسماء الأصنام المذكورة في كتاب ابن الكلبي مرتبة على حروف المعجم، مضافاً إليها ما استدركه أحمد زكي باشا ثم ما استدرك عليه: آزر، وإساف، والأسحم، والأشهل، والأقيصر، وأول، وباجر - باحر - والبجة، وبعل، وبليج، والجبهة، والجثي، والجريش، والجلسد، وجهار، والدار، ودّوار، وذو الخلصة - الخلصة -، وذو الرّجل، وذو الشّري، وذو الكفين، ورّضى - رضاء -، والزور، والسّجة، وسعد، وسواع، والشّارق، والشمس، وصدا، وصمود، وصمار، وصيّر - الصّيزان -، وعائم، والععب - الغيب -، والعزّي، وعميانس - عم أنس -، وعوض، والعوف، والفري، وغنم، والفلس، وكثري، والكسعة، وكلال، واللات، والمحرّق، ومحيّس، والمدان، ومزحّب، ومناة، ومناف، ومنهب، ونائلة،

معمولاً من خشبٍ أو ذهبٍ أو من فضةٍ صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة، فهو وَثَنٌ^(١) واعتماداً على ما صنّفه ابنُ الكلبيّ في التّمييز بين الأصنام والأوثان يمكن القول: إنّ خولان عبادتِ الأصنام التي عبدتها عرب الجاهليّة؛ لأنّها آلهة تقرّبهم إلى الله زُلْفَى في زعمهم - وقد تفرّدت خولان وفق ما روي عنها بواحدٍ من الأصنام التي جاء بها عمرو بنُ لُحَيٍّ - وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو ابن عامر الأزدي أبو خزاعة^(٢) غلب على مكة، وأخرج منها جُرْهُمًا، وتولّى سِدانة الكعبة وحجابتها، وجاء بالأصنام وفرّقها على العرب، ودعاهم إلى عبادتها والتّقدّيس لها. أمّا عن مجيئه بالأصنام فهناك روايتان: أمّا الأولى فذكر أنّه مرض مرضاً شديداً، ف قيل له: إنّ بالبلقاء من أرض الشّام حَمّة إن أتيتها برأت، فأتاها، فاستحمّ بها، فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، «فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر فيها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدّم بها مكّة ونصبها حول الكعبة»^(٣)، ثمّ دعى العرب لعبادتها وتعظيمها، فكان لخولان صنم عُميّانيس في أرضهم. وأمّا الرواية الثّانية فذكر ابن الكلبيّ أنّ عمرو بن لُحَيٍّ كان كاهناً، وكان له رثيٌّ من الجنّ، فحدّثه الرّثيُّ، ودلّه على الأصنام عند ضفّ جدّة، وأمر أن يدعوا العرب إلى عبادتها وتقديسها، فأتى عمرو ساحل جدّة فوجد ودّاً، وسوّاعاً، ويغوٲ، ويعوق، ونسراً، وهي من أصنام قوم نوح عليه السّلام، وجاء بها عمرو إلى مكّة، فلمّا كان موسم الحجّ دعا العرب إلى عبادتها^(٤). وليس بين أيدينا ما يعرفنا كيفيّة

ونسر، ونَصْر، ونُهم، والهبأ، وهُبَل، وهَمَي، والسّعير، وودّ، والودّع، والليل، واليعبوب، ويعوق، ويغوٲ؛ قال ابن الكلبيّ: «وقد كانت العرب تُسمّي بأسماء يُعبدونها، لا أدري أعبدوها للأصنام أم لا؟ منها عبد ياليل، وعبد غنم، وعبد كلال، وعبد رُضَيّ» الأصنام ٣٠ وانظر الفهرس التحليليّ ١٠٠-١٠٣ والتّكملة التي جمعها أحمد زكي ١٠٧-١١١ وانظر «الجثي»، والفريّ، ومُحَيّس، وهَمَيّ في اللّسان «جثي، خيس، غري همي» وانظر: شعراء حمير (الدّراسة) ٧٥.

- (١) الأصنام ٥٣، وعنه في أديان العرب في الجاهليّة ١٣٢.
- (٢) المعمرون والصّوايا: ٤٤ وفيه (قالوا: وقد يقال أنّه لُحَيٌّ بن قَمَعَة بن خنْدَف بن مُضر).
- (٣) الأصنام ٨، السّيرة النّبويّة ٧٦/١، الرّوض الأنف ١٠٥/١، والبداية والنّهاية ٤٥٨/٢، تاريخ اليعقوبيّ ٢٥٥/١.
- (٤) انظر: الأصنام ٥٤، وخزانة الأدب ٧/٢٢١، وديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدّراسة) ١٧١.

وصول عُميّانس إلى اليمن، وتخصّص خولان بعبادته^(١). وذكر ابن الكلبي أنّ الخولانيّين كانوا يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله عز وجلّ، فما دخل في حقّ الله من حقّ عُميّانس، ردّوه عليه، وما دخل في حقّ الصنم من حقّ الله الذي سمّوه له تركوه له^(٢). وهَمَّ مُحَمَّدُ نَعْمَانُ الْجَارِمُ، ابْنُ هِشَامٍ فِي سِيرَتِهِ، وَابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ فِي (عَيُونِ الْأَثَرِ) عِنْدَمَا سَمَّيَا الصَّنَمَ (عَمِ أَنْسَ) وَتَبَعَهَا فِي هَذَا الْوَهْمِ أَحْمَدُ بَدَوِي الشَّنْقِيطِيُّ فِي كِتَابِهِ (عَمُودُ النَّسَبِ) فَقَالَ:

أَضَلَّهُمْ صَنَمُهُمْ عَمُ أَنْسَ كَانُوا إِذَا مَا الْغَيْثُ عَنْهُمْ احْتَبَسَ^(٣)

وذكر ابن الكلبي أنّ الذين تعبّدوا لعميّانس، وهم بطن من خولان يقال لهم (الأدوم) وهم الأسوم^(٤)، ولم تطالعنا المصادر شكل عُميّانس على غرار الأصنام التي وُصِفَتْ عَمَّنْ رَأَاهَا مِثْلُ: «وَدَّ» إِذْ رَوَى ابْنُ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «فَحَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ حَارِثَةَ الْأَجْدَارِيُّ أَنَّهُ رَأَاهُ - يَعْنِي وَدًّا - قَالَ: وَكَانَ أَبِي يَبْعَثُنِي بِالْبَلْبَنِ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ: اسْقِهِ إِهْلَكَ، قَالَ: فَأَشْرَبُهُ، قَالَ: ثُمَّ رَأَيْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بَعْدُ كَسَرَهُ فَجَعَلَهُ جُذَاذًا...» ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ: «فَقُلْتُ لِمَالِكِ بْنِ حَارِثَةَ صَفِي لِي وَدًّا حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. قَالَ: كَانَ تَمَثَّلَ رَجُلٌ كَأَعْظَمَ مَا يَكُونُ مِنَ الرِّجَالِ، قَدْ ذُبِرَ عَلَيْهِ حُلَّتَانِ، مُتَزَرِّزٌ بِحُلَّةٍ، مُرْتَدٍ أُخْرَى، عَلَيْهِ سَيْفٌ قَدْ تَقَلَّدَهُ، وَقَدْ تَنَكَّبَ قَوْسًا، وَبَيْنَ يَدَيْهِ حَرْبَةٌ فِيهَا لَوَاءٌ، وَمُمْضَةٌ - أَيْ جَعْبَةٌ - فِيهَا نَبْلٌ»^(٥) وَ(الْفِلْسُ) الصَّنَمُ الَّذِي عَبْدَتْهُ طَيِّئٌ وَهُوَ عَلَى شَكْلِ إِنْسَانٍ أَسْوَدَ اللَّوْنِ فِي وَسْطِ جَبَلٍ

(١) انظر: الأصنام ٤٣، السيرة النبوية ٧٨/١، السيرة النبوية لابن كثير ٦٩/١، الروض الأنف ١/١٠٤، البداية والنهاية ٤٦٣/٢، المفصل ٢٦٥/٦، خزانة الأدب ٧/٢٣١، معجم البلدان ٤/١٥٩ والتّاج (عمنس)، وأديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام لسميح دغيم ١٢٢، وأديان العرب في الجاهلية ١٤٨-١٤٩، الوثنية في الأدب الجاهليّ ٦٧.

(٢) انظر: الأصنام ٤٣، المفصل ٢٦٥/٦، وخزانة الأدب ٧/٢٣١.

(٣) انظر: أديان العرب في الجاهلية ١٤٥.

(٤) انظر: الأصنام ٤٤.

(٥) الأصنام ٥٥، ٥٦.

أجاً موطن القبيلة^(١). و(الجلد) الذي بدا بحضرموت كجثة الرجل العظيم، وهو من صخرة بيضاء لها مرأس أسود، وإذا تأمله الناظر رأى فيه صورة وجه إنسان^(٢).

وجرت خولان على تعظيم (عُمَيَّانِس) مثلها في هذا مثل قبائل العرب التي عَظَّمَتْ أصنامها، فمن ذلك أنهم كانوا يزرعون الزرع، فيحيلون له وسطاً، فيسمونه للصنم أو يسمون زرعاً آخر لله، فإذا مالت الريح يأخذون الذي سمّوه الله ويجعلونه لعُمَيَّانِس، وإذا مالت الريح لم يجعلوا لله ما جعلوه لعُمَيَّانِس^(٣)، فكان فاضلاً بزعمهم على الله عز وجل، أو أنه صاحب المنّة والفضل في جعل الله عز وجل يشملهم برحمته ونعمته، لذا كانوا يقسمون له من حروثهم وأنعامهم ويقدمون له القرابين والندور حتى في أيام الفاقة والعول؛ تقرّباً إليه، وكسباً لرضاه وودّه.

وجاء في حديث هذا الصنم بعد أن أسلمت خولان وحسن إسلامها أن النبي ﷺ قال لخولان: ما أعظم ما رأيتم من فتنة، قالوا: يا رسول الله لقد رأيتنا وقد أستتنا حتى أكلنا الرّمّة، وهلكت ثاغتينا وراغتينا وحافرنا، فقلنا: قربوا لعُمَيَّانِس قرباناً يشفع لكم، فتعاثوا؛ فتعاثوا، فجمعنا ما قدرنا عليه من عين مالنا، ثم ذهب ذاهبنا فابتاع مئة ثور، ثم حشرها علينا فنحرناها في غداة واحدة، وتركناها للسمّاع - ونحن أحوج إليها من السمّاع - فجاءنا الغيث من ساعتنا... ورأينا الغيث يوارى الرجال، ويقول قائلنا: أنعم علينا عُمَيَّانِس، وسألوه عليه الصلوة والسلام عمّا قسموا له من مالهم، فذكر لهم أن الله أنزل عليه في ذلك ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام ١٣٦]^(٤).

(١) انظر: موسوعة الميثولوجيا والأديان العربية قبل الإسلام ٢٩٩، والمفصل ٦/٢٧٨.

(٢) انظر: معجم البلدان ٢/١٥١، اللسان والتاج (جلس).

(٣) انظر: عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير ٢/٢٥٣-٢٥٤، ٣١١-٣١٢ السيرة النبوية لابن كثير ٤/١٧٩، السيرة الحلبية ٢/٣٥٨، خزنة الأدب ٧/٢٣١.

(٤) انظر: عيون الأثر في فنون المغازي والسير ٢/٢٥٣-٢٥٤، وعنه في المفصل ٦/٢٦٥، وانظر: نشر الدر المكنون من فضائل اليمن الميمون ١٥٧، وأديان العرب في الجاهلية ١٤٦.

ومن دلائل تعظيمهم له أنهم كانوا يسمّون بعض أبنائهم باسم (عَبْدِ عُمَيَّانِس) مثل: عبد عُمَيَّانِس بن الأزمع بن خولان^(١)، ولم يكن الخولانيون أول مَنْ سَمَّوا باسم صنمهم، بل هي أشبه ما تكون بالسُّنة التي جرى عليها أهل الجاهليّة بأن يسمّوا بأسماء أصنامهم، ومنها أيضاً أنهم كانوا يتحاكمون إليه في مخاصمتهم؛ لأنّه العادل والحكم الفيصل الذي يحكم بينهم^(٢).

وجاء عند ياقوت الحمويّ والزبيديّ (عَمَّا) بالضّم: «اسم صنم لخولان باليمن، فيه نزل قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ...﴾»^(٣) وأغلب الظنّ أنّه محرّف عن عُمَيَّانِس.

أمّا يعوق فكان من معبودات همدان وخولان، وهو من أصنام نوح التي قال الله تعالى عنها على لسان نبيّه المذكور: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢١-٢٣].

لقد جعله عمرو بن لُحِيٍّ إلى مالك بن مرثد بن جُشَم بن حاشد بن جُشَم بن خيران بن نوف بن همدان^(٤)، الذي نصبه في أرض خَيَوَان، وهي من صنعاء على ليلتين مما يلي مكّة^(٥)، بينما يجعل ابن حزم (يعوق) لبني قابض الحاشديين القاطنين في قرية خَيَوَان^(٦)، في حين يضع ابن حبيب وياقوت الحموي (يعوق) في قبيلة أَرْحَب الهمدانيّة وأشركا في عبادته قبيلة خولان، غير أنّ ياقوتا زاد في الأمر وجعل يعوق في آخر الأمر في خَيَوَان عندما قال: «وأخذها عمرو بن لُحِيٍّ من ساحل جُدَّة، وأعطاهما لمن أجابه إلى عبادتها، فأجابته إلى عبادتها همدان فدفع إلى مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد

(١) انظر: الإكليل: المخطوط ١/١١٨، المطبوع ١/٤٥٤.

(٢) انظر: عيون الأثر في فنون المغازي والسير ٢/٢٥٤.

(٣) معجم البلدان ٤/١٤٩، التاج (عَمَم).

(٤) انظر: الأصنام: ٥٧، الاشتقاق ٤٢٣، الإكليل ١٠/٦٦، معجم البلدان ٥/٤٣٨، والمفصل ٦/٢٦٢، أديان العرب في الجاهليّة ١٥٤، موسوعة الميثولوجيا والأديان قبل الإسلام ٤١٥.

(٥) انظر: الأصنام ١٠، معجم البلدان ٥/٤٣٨، السيرة النبويّة ١/٧٨، الرّوض الأنف ١/١٠٣، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام لسميح دغيم ١١٨.

(٦) انظر: جهرة أنساب العرب ٣٩٤.

بن جشم ابن خيوان... فكان بقرية يقال لها خَيَوَان تعبد همدان، ومن والاها من أرض اليمن^(١). ولطالما اتفقت المصادر على أن يعوق كان لقبيلة همدان ومن والاها من أرض اليمن، وخولان قد جاورت همدان من غربيها وخالطتها في أحيان مختلفة، فتكون خولان قد عبدت يعوق وعظمتته.

أمّا ابن دريد فيجعل يعوق في قبيلة خَيَوَان الهمدانية^(٢)، ويذكر ابن منظور والزبيدي أن يعوق كان لكنانة نقلاً عن الزجاج^(٣). وليس فيما وقف عليه من المظان ما يؤيد ما ذهب إليه ابن منظور والزبيدي من أن يكون يعوق قد عبدته كنانة وكان في أرضها. والراجح أن كنانة عظمت يعوق وعبدته مثلما عظمت سائر أصنام العرب، التي كانت معظمة عند القبائل جميعها، وليس ثمة ملامة في القول بأن ابن منظور والزبيدي ليس في قولهما كثير صحة؛ لأنهما من صنّاع المعجمات، وهما إنما يسعيان في صنيعهما إلى تطلاب المادة اللغوية ولا سيما أنهما ناقلان عن الزجاج وهو ممن ليس له باع في حديث الأصنام ومعبودات العرب في الجاهلية، وإنما هي طلبة ابن الكلبي المتقدم، وابن حبيب في مؤلفاتهما هذا علاوة على كتب السيرة.

وكان يعوق على صورة فرس^(٤)، ويضيف ابن الكلبي على ما سلف عدم سماعه أن أحداً من همدان قد سُمّي به، ولا غيرها من العرب من مثل خولان التي عبدته ووعظمت له. ولم يسمع لها ولا غيرها فيه شعراً، وهو في هذا يذهب مذهب الظن؛ لأن الهمدانيين كانوا على مقربة من صنعاء، فاختلفوا بحمير، ودانوا معهم باليهودية أيام تهود ذي نواس، فتهودوا معه^(٥).

(١) المحبر ٣١٧، معجم البلدان ٤٣٨/٥.

(٢) انظر: الاشتقاق ٤٢٣ ولم يجعل ابن دريد يعوق في خيوان، ولا في بني قابض الحاشديين، وإنما جعله في بني أرحب كما ادّعى د. حسن عيسى أبو ياسين وهذا كلام لا صحة له، إذا إن عبارة ابن دريد التي دونت في المتن واضحة في الاشتقاق ولا أدري من أين أتى د. حسن بجعل «يعوق» في قبيلة أرحب، وزاد الأمر بليّة حين قال عن ابن دريد: «وأشرك في عبادته معها قبيلة خولان، وأحسب أنه أراد خيوان» وهو كلام ياقوت الحموي فقط، ولم أفع عليه عند ابن دريد. انظر: شعر همدان وأخبارها ٤٢.

(٣) اللسان والتّاج (عوق)، وعنهما في المفصل ٢٦٣/٦.

(٤) انظر: الكشف ٦٠٧/٤، تفسير أبي السّعود ٤٠/٩، البحر المحيط ٣٤٢/٨، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام ١١٨.

(٥) انظر: الأصنام ١٠.

ومن هنا تتضح أهمية يعوق مقارنة مع بعض أصنام العرب التي عُبدت عبادة لم تعبد لصنم قط مثل اللات^(١) والعزى^(٢) ومناة^(٣) وود^(٤). وهي التي كانت ذائعة الصيت في جزيرة العرب، ومن أقدم الأصنام وأرفعها مكانة، وعليها كان معول العرب في النواذب والنّازلات.

أمّا عن تلبّيات أهل الجاهليّة فوقف عندها محمد بن المستير، وحذا حذوه، واقتفى أثره ابن حبيب في أثناء حديثه عن السنن التي كانت سائدة في الجاهليّة لدى كل قبيلة حينما تقف في حجّها للبيت الحرام عند صنمها مُهانة صاغرة، تردّد تلبّيتها^(٥)، وقد أبقى الإسلام على عددٍ لا بأس به من تلك التلبّيات التي خلّت ممّا فيه إشراك بالله أو كفر به، وأسقط ما فيه شرك من مثل تلبية قريش – وكان نسكهم لإساف، تقول:

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ
لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ
إِلَّا شَرِيكَ هُوَ لَكَ
تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ^(٦)

وكانت تلبية من نسك ليعوق:

لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ
لَبَّيْكَ بَعْضُ إِنَّا الشَّرَّ وَحُبُّ إِنَّا الْخَيْرَ
وَلَا تَبْطُرْنَا فَنَافِثُ، وَلَا تَفْـدَحْنَا بَعْثَارُ^(٧)

(١) انظر: الأصنام ١٦، المفضل ٦/ ٢٢٧.

(٢) انظر: الأصنام ١٧، المفضل ٦/ ٢٣٥.

(٣) انظر: الأصنام ١٣، المفضل ٦/ ٢٤٦.

(٤) انظر: الأصنام ١٠، المفضل ٦/ ٢٥٥.

(٥) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهليّة ٣٩، المحبر ٣١١، الأصنام: ٧، المفضل ٦/ ٣٧٧، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٥.

(٦) المحبر ٣١١.

(٧) المحبر ٣١٤، والوثنيّة في الأدب الجاهلي ٣٢٧.

وقد جرت عادة العرب على تقديس كل الأصنام، ربّما لأنّها أربابٌ تُعبَدُ، وتقرّب أصحابها إلى الله زُلْفَى بصرف النظر عن فكرة أنّ «لكلّ قبيلة... صنمٌ خاصّ تعبدّه وتنسكُ له، وهي في الوقت نفسه تعظّم سائر أصنام العرب؛ لأنّها آلهةٌ تقرّب إلى الله زُلْفَى في نظرهم، ويؤكد ذلك ما رُوي من أنّ جعفر بن أبي خَلاص الكلبيّ الشّاعر مرّ بالسّعيّر - صنمٍ عنزة - وهو على جمَلٍ له، فنفر من دمَاء العتائر، فأراد جعفر هدمه، فقيّل له: ربُّ! فتركه»^(١)، وإلى مثل هذا أشار ابن حبيب في قوله: «وكانت العرب تُعظّم هذه المُجمَع عليها التي يجتمع إليها كلّ سنة مرّة»^(٢)، أراد الأصنام التي وقف على ذكرها، وتلبية الحجاج لها.

فكلُّ هذا الذي سبق فيه ما يدلُّ على أنّ بني خولان كانوا يُعظّمون الأصنام كغيرهم من العرب، ولا سيّما الأصنام التي خُصّت بها قضاة منها:

الأقيصر: وكان لقضاة، ولحم، وجذام، وأهل الشّام، وكان في مشارف الشّام وكانوا يحجّون إليه، ويحلقون رؤوسهم، ويتقرّبون إليه بالذّبايح والهدايا، كما كانوا يقدّمون إليه دقيق القمح، فكان كلّما حلق رجل رأسه خلط الشّعر بحفنة من الدّقيق، وجعلوا الدّقيق صدقة، وكان فقراء العرب والمحتاجين منهم يرتادون الأقيصر، فيأخذون ذلك الخليط الذي يُسمّى (سويق القمل)، فيرمون الشّعر، وينتفعون بالدّقيق، وكان عبّادُه يكسونه الحُلل القشبية التي تنمّ على تأثّق منظره وقداسته وطهارته، شأنه في ذلك شأن كثيرٍ من أصنام العرب^(٣).

وذكر ابن الكلبيّ (باجر) صنم كان للأزد في الجاهليّة ومنّ جاورهم من طيّ وقضاة^(٤)، وكانت خولان قد جاورت بعض الأزد الذين فزعوا من ديارهم بعد سيل العرم، وافترشوا سراة اليمن

(١) شعراء بني كلب بن وبرة (الدّراسة) ١٨٠.

(٢) المحرّ: ٣١٨.

(٣) انظر: الأصنام ٤٨، القاموس واللّسان والتّاج (قصر)، خزنة الأدب ٧/ ٢٣٠، موسوعة الميثولوجيا والأديان العربيّة قبل الإسلام ٣٨، الوثنيّة في الأدب الجاهليّ ٤٩.

(٤) انظر: الأصنام ٦٣، القاموس واللّسان والتّاج (بجر) وفيه بفتح الجيم وكسرها. وانظر: موسوعة الميثولوجيا والأديان ٤٧، خزنة الأدب ٧/ ٢٣٢، الوثنيّة في الأدب الجاهليّ ٦١.

أرضاً لهم^(١)، ومن الأصنام التي عبدتها قضاة (عَبَبُ) وهو صَنَمٌ كان لقضاة ومن يقاربهم^(٢)، ويمكن أن يكون هذا الصنم على شكل تيس؛ لأنَّ الععب في اللغة هو التيس من الظباء أو الرَّجل الطَّويل^(٣). ومنها أيضاً السَّعيدة: وهي صنمٌ أنثى كما يبدو من اسمه، ويذكر ابن حبيب أنَّه كان لسعد هُذَيْمٍ وسائر قضاة إلا بني وبرة^(٤). وهذا ما دحضه وأثبت خلافه د. محمد شفيق البيطار بأدلة دامغة وثابتة^(٥)، وما دام أنَّ خولان من قضاة فتكون قد عبدت السَّعيدة وقُدِّست لها. وكانت تلبية مَنْ نَسَكَ للسَّعيدة قولهم:

لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ

لَبَّيْكَ، لَمْ نَأْتِكَ للمِيَا حَهُ وَلَا طَلَباً للَرَّاقَا حَهُ^(٦)

ولكن جئناكَ للنَّصَا حَهُ^(٧)

كما ذهب ابن حبيب إلى أنَّ سائر قضاة كانت تعبد مناة وتعظَّمُهُ، وخولان قبيلة من قبائل قضاة. وهو من أقدم أصنام العرب، بل ثمة من يرى أنَّه أقدمها على الإطلاق، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المُشَلَّل بُقْدِيد بين مكَّة والمدينة، وكانت جميع العرب تعظَّمه، وتذبح له، وكانت الأوس والخزرج، ومن ينزل المدينة ومكَّة يعظَّمونه ويُهْدُون له، كما كانت الأوس والخزرج

(١) انظر: معجم البلدان ٣/ ٣٦٩.

(٢) انظر: الأصنام ١١٠ ومعجم البلدان ٤/ ٧٩، التكملة والقاموس واللسان والتَّاج (عب)، وقد يأتي بالغين (غغب)، موسوعة الميثولوجيا والأديان ٢٥٨، الوثنية في الأدب الجاهلي ٦٧.

(٣) انظر: التَّاج (عَبَب).

(٤) انظر: المحبر ٣١٦، الاشتقاق: ٥٦، التَّاج (سعد) وفيه: «السَّعيدة بيت كانت من العرب مُحَجَّجَةٌ بِأُحْدٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ: عَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ فَقَوْلُهُ بِأُحْدٍ خَطَأً».

(٥) انظر: شعراء بني كلب بن وبرة (الدَّراسة) ١٧٨.

(٦) المباحة: المنفعة. الرَّقَا حَهُ: الكسب، والتَّجَارَةُ.

(٧) انظر: المحبر: ٣١٣، الوثنية في الأدب الجاهلي ٣٢٦.

ومن يهتدي بهديهم من العرب مثل هُذَيْل وخُزَاعَة يقفون مع النَّاسِ المواقف كُلِّها، ولا يخلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا حَفَافًا، فخلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا، ولا يرون لحجَّهم تمامًا إلا بذلك^(١).

وكانت تلبية من نسك لمناة:

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ

لَبَّيْكَ لَوْلَا أَنَّ بَكَرًا دُونَكَ يشكرك النَّاسُ ويهجرونكَ

مَا زَالَ مِنَّا عِثْجٌ يَأْتُونَكَ^(٢) إِنَّا عَلَىٰ عَدْوَانِهِمْ مِنْ نُونِكَ^(٣)

ولم أقف فيما بين يديّ من المصادر على تلبية تُذَكِّرُ لِعُمَيَّانِسٍ عند زيارتهم له في حين روى مُحَمَّدُ بْنُ الْمُسْتَنِيرِ (٢٠٦هـ) عددًا من تلبيات بعض قبائل العرب في الجاهليّة وكانت مختلفة، منها تلبية قضاة التي تنضوي تحت لوائها قبيلة خولان:

لَبَّيْكَ نَزَجِي كُلِّ حَرْسٍ مَلْهُودٍ

وَلَا حِبٍّ مِثْلَ عَجَاجَاتِ الْعُودِ

تَوْمٌ بَيْتَ الْمُسْتَحْيِبِ الْمَعْبُودِ

إِنَّ الْإِلَهَ لِلْحَمِيدِ الْمَحْمُودِ

نُعْطِي إِلَهَ الْبَيْتِ مِنَّا الْمَجْهُودِ^(٤).

ووقف اليعقوبي (٢٩٢هـ) عند فكرة التلبية، فقال: «كانت العرب، إذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها، وصلّوا عنده، ثم تلبّوا حتى يقدموا مكّة، فكانت تلبياتهم مختلفة وكانت تلبية قضاة:

(١) انظر: الأصنام ١٣-١٤، المحرر ٣١٣ وفيه يجعل "مناة" هُذَيْل وخُزَاعَة، ثم يقول: «وكانت قريش وجميع العرب تُعْظِمُهُ»، السيرة النبوية ٨٢/١، الاشتقاق ٢١٧، تاريخ اليعقوبي ٢٥٥/١، وعنهم في المفصل ٢٤٦/٦ وما بعدها.

(٢) العثج: الجماعة من النَّاسِ في السَّفر.

(٣) انظر: المحرر: ٣١٣، الأزمنة وتلبية الجاهليّة ٤٠، باختلاف بسيط بين رواية المحرر وكتاب الأزمنة، وروى المعري تلبية قريّة من هذه التلبية وقال إنّها تلبية (تميم) رسالة الغفران ٥٣٦، المفصل ٣٧٨/٦، الوثنية في الأدب الجاهلي ٣٢٤.

(٤) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهليّة: ٤٢.

لِيَّكَ عَنْ قِضَاعَةٍ
لِرَبِّهِ دَفَاعَةً
سَمِعًا لَهُ وَطَاعَةً^(١)

وتباين تلبيات القبائل واختلافها، يدلّ على خصوصية كلّ قبيلة في أثناء أدائها لِشَعِيرَتِهَا في حَجَّهَا، ويرتبط هذا الأمر بمعنى كلّ تلبية ومدى تعظيم القوم لصلتهم وارتباطهم بتقديسه وعظم ربوبيته وعلوّ قدره. وكانت العرب تنقسم إلى ثلاثة أقسام من حيث تشدُّدُهم في ممارسة شعائر ديانتهم ومعتقداتهم كما أخبرنا ابن حبيب، وهي الحُمُس^(٢)، والحلّة^(٣)، والطلّس^(٤)، فأما من الحلّة فكانت قِضَاعَةً كُلُّهَا ما خلا عِلَافًا وَجَنَابًا كانا مع الحُمُس إلى جانب قريش وخزاعة ومن نزل مَكَّةَ من قبائل العرب المتشدّدين في الدّين^(٥)، ويقال لباقي العرب الحلّة ما خلا سائر أهل اليمن، وأهل حضرموت، وعك، وعجيب، وإياد بن نزار، فهم الطلّس الذين يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلّة ويصنعون في ثيابهم ما يصنع الحُمُس^(٦). وعن الحلّة قال ابن حبيب: «يحرّمون الصّيد في النّسك، ولا يحرّمونه في غير الحرم، ويتواصلون في النّسك، ويمنح الغنيّ ماله أو أكثره في نسكه،

(١) تاريخ يعقوبي ١/ ٢٥٥-٢٥٦، وعنه في الإنشاد والغناء في الشعر الجاهليّ ١٠٢.

(٢) الحُمُس: هو التّشدّد في الدّين، أو الأمر والإقبال عليه، وقد جعلوا له قواعد وأصولاً وأعمالاً يأتونها، وأعمالاً لا يقربونها. فقد تركوا الوقوف في الجلّ كما يقفون في الحرم؛ تعظيماً منهم لأنفسهم؛ لأنّهم أهل الحرم مع علمهم بأنّ الوقوف في عرفة والإفاضة منها هي أهمّ مناسك الحجّ كما أقامه إبراهيم عليه السّلام... إلخ. انظر المنمّق ١٢٧، السّيرة النبويّة ١/ ١٦٢، الرّوض الأنف ١/ ٢٢٩، جمهرة أنساب العرب ٤٨٦، الاشتقاق ٢٥٠، أخبار مَكَّة للأزرقيّ ١/ ١٢٤، العمدة ٢/ ٩١١، الوثنيّة في الأدب الجاهليّ ٣٣٧.

(٣) الحلّة: هؤلاء يقفون في المشاعر كلّها ولكن لا يجوز لهم الحجّ في ملابسهم، فعليهم أن يخلعوها ويرتدوا بدلاً منها ملابس يستعبرونها من الحُمُس. المحبر ١٧٩، الرّوض الأنف ١/ ٢٣١، سيرة ابن إسحاق ٧٥، تاريخ يعقوبيّ ١/ ٢٥٦-٢٥٧، الوثنيّة في الأدب الجاهليّ ٣٣٧.

(٤) الطلّس: وهم القادمون من اليمن بملابسهم يعلوها الغبار لا يخلعونها حتّى يقضوا مناسك حجّهم كلّها. المحبر ١٧٩، الرّوض الأنف ١/ ٢٣١، المفصّل ٦/ ٣٧٣، موسوعة الميثولوجيا والأديان قبل الإسلام ٢٢٤.

(٥) المحبر ١٧٨-١٧٩، المفصّل ٦/ ٣٥٧-٣٧٤.

(٦) المحبر ١٧٩.

فيسلاً فقراؤهم السمن، ويجتزّون من الأصواف والأوبار والأشعار ما يكتنفون به، ولا يلبسون إلا ثيابهم التي نسكوا فيها [على اختلاف في هذا]، ولا يلبسون في نسكهم الجدد، ولا يدخلون من باب دار ولا باب بيت، ولا يؤوئهم ظلّ ما داموا محرمين، وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم، وأخصب ما يكونون أيام نسكهم، فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدّقوا بكلّ حذاء وكلّ ثوب لهم، ثمّ استكروا من ثياب الخمس؛ تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاءً يباشرونها بأقدامهم، فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراً، وكان لكلّ رجلٍ من الحلّة حرميٌّ من الخمس يأخذ ثيابه، فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً، وإنّما كانت الحلّة تستكري الثياب للطّواف في رجوعهم إلى البيت؛ لأنّهم كانوا إذا خرجوا حجاجاً لم يستحلّوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم، وكان رسول الله ﷺ حرمي عياض بن حمار المجاشعي، كان إذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله ﷺ^(١). وكانت تلك الملابس التي يلقونها المحرمون تبقى في مكانها، لا يمسه أحد ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام، ومن حرارة الشمس وذري الرياح، ويقال لهذه الثياب التي تُطرح بعد الطّواف (اللّقي)^(٢).

واتكأ على ما سلف، فإنّ قضاة من الحلّة، وخولان قبيلة كبيرة من قضاة، فلا بدّ لها أن تكون قد اعتنقت ما اعتنقته قبائل قضاة من عبادة للأصنام وشعائر ما رستها في أثناء حجّها البيت الحرام، ولاذت بما سنّته الحلّة لنفسها من مناسك وطقوس دينية من الذي قدمناه. هذا وقد غفلت المصنّفات عن ذكر شعيرة خُصّت بها خولان دون قبائل قضاة، أو منسك تفردت به دون غيرها؛ وذلك لخمولها في قبائل العرب، وعدم اشتهارها لدى علماء الشام والعراق الذين عُنوا بتدوين أخبار القبائل الأكثر شهرة من العدنانية أو اليمانية الذائعة الصيت التي كان لها دور حاضر على عرصات الأحداث السياسية في صدر الإسلام.

(١) المحبر ١٨٠-١٨١، تاريخ يعقوبي ٢٥٧/١، أخبار مكة للأزرقي، المفضل ٦/٣٥٧-٣٦١، موسوعة الميثولوجيا والأديان: ١١٤. وانظر: شعراء بني أسد في الجاهلية لأحمد بن موسى الجاسم: ٦٠.

(٢) انظر: المفضل ٦/٣٦٠.

- النَّصْرَانِيَّةُ فِيهِمْ:

كانت النَّصْرَانِيَّةُ في اليمن منتشرةً انتشارَ النارِ في الهشيم، وذلك من نواحٍ مختلفة^(١)؛ لأنَّها الديانةُ الرسميَّةُ التي خَلَفَها الروم وراءهم. ويرجَّحُ د. شوقي ضيف أن بداية القرن الرَّابِعِ الميلادي كانت أوَّلَ تبشيرها التي وجدت على شكل بعثات دينيَّة كان القياصرة يشجِّعونها^(٢)، وكان لانتشارها طرقٌ شتىٌ مختلفة عن دخول اليهوديَّة التي دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة. وفي ذلك يقول د. جواد علي: «فإنَّ دخول النَّصْرَانِيَّةِ إليها كان بالتَّبشير، وبدخول بعض النَّسَّاك والرَّهبان إليها؛ للعيش فيها بعيدين عن ملذَّات الدُّنيا، وبالتَّجارة بالرَّقِيق، ولا سيَّما الرَّقِيق الأبيض المستورد من أقطارٍ كانت ذات ثقافة وحضارة...؛ ولأنَّ النَّصْرَانِيَّةَ انتشرت في امبراطوريَّة الروم والسَّاسانيِّين بالتَّدرِج، ثُمَّ صارت ديانة رسميَّة للقياصرة والروم والشُّعوب التي خضعت لهم، فلم تظلَّ النَّصْرَانِيَّةُ أَقْلِيَّةً هناك، لتضطرَّ إلى الهجرة جماعة وكتلة إلى بلد غريب»^(٣). وليس ثمة ما يدلُّ على دخول الخولانيِّين صراحة في النَّصْرَانِيَّة غير ما نجده من نصوص لبعض علمائنا من أنَّ النَّصْرَانِيَّة كانت في بعض قضاة - وخولان من قضاة - مثل ابن قتيبة الذي عقد فصلاً لأديان العرب في الجاهليَّة فقال: «كانت النَّصْرَانِيَّة في ربيعة، وغَسَّان، وبعض قضاة...»^(٤) وفي قوله قفا قفوه أبو حيان التَّوحيدي^(٥) وكذلك تبعه الأَبْشِيهِي^(٦).

أمَّا اليعقوبيُّ وفي أثناء حديثه عَمَّن تنصَّر من أحياء العرب، فذكر عدداً من قبائل قضاة مثل: بهراء التي نزلت جنوب غرب الفرات في بلاد الشَّام، وسَلِيح التي أقامت بالقرب من ساحل بحر

(١) انظر: المفصل ٦/ ٦١١ وما بعدها، ومن تلك النواحي: طريق الحجاز المؤدية إلى اليمن، وطريق الساحل، حيث المبشرون ينتقلون مع البحَّارة والتَّجار لنشر النَّصْرَانِيَّة، ويمكن أن تكون النَّصْرَانِيَّة جاءت من العراق كما تذكر بعض الموارد النَّصْرَانِيَّة السريانية .

(٢) انظر: العصر الجاهلي ٩٩.

(٣) المفصل ٦/ ٥٨٧.

(٤) المعارف: ٦٢١.

(٥) انظر: البصائر والذخائر ٥/ ٤٤.

(٦) انظر: المستطرف: ٢/ ٣٨٠.

الروم، إلى جانب قبائل عربية أخرى مثل: تنوخ، وغسان، ولخم^(١)، حيث النصرانية المنتشرة، ولم يتعرض للنصرانية المنتشرة في قبائل قضاة المقيمة في الصّقع اليماني، وإذا كانت اليمن قد رزحت تحت الاحتلال الحبشي في زمن الملك (عيزانا) Ezana، بعد وفاة (شمر يهرعش) وذلك كان حوالي ٣٣٥م، فإن النصرانية صارت الديانة الرسمية لعرب اليمن؛ لتبعيتهم للحُبش^(٢) الذين ارتبطوا بحلف مع قبيلة السّواهر والخورانيين؛ لغزو أصقاع بطون حاشد بن همدان حسب ما وقّف عليه في النقوش المُسندية^(٣) التي تُبيّن اللّثام عن نصرانية اليمن، كالذي نجده في نقش أبرهة المستهلّ بـ «بخيل وردا ورحمت رحمن ومسحو ورح قدس سطوروذن مزندن أن أبره عزلي ملكن أجعزين رمحز زبيمن ملك سبأ وذريدن وحضرموت ويمنت وأعزبهمو طودم وتهمت» أي «بحول وقوة ورحمة الرّحمن ومسيحه وروح القدس سطرّوا هذه الكتابة: إنّ أبرهة نائب ملك الجعزيين رمحز زبيمان ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في التّجاد وفي تهامة»^(٤) واتّكاء على ما سلف يمكن القول:

- كانت النصرانية منتشرة في اليمن بشكل كبير، ما جعل خولان تعتنقها وتدخل فيها أسوة بالأحباش الذي احتلفت معهم بحلف متين، ولا سيّما أنّهم ظلّوا في اليمن ما يقرب من خمسة عقود (٥٢٥م-٥٧٠م). وكانت العرب حينئذٍ في حيرة وشكّ تجاه فكرة الخلق، وتعطّش إلى من تتعلق به أفئدتها؛ فمالت إلى النصرانية.

أمّا عن الأب لويس شيخو ففي حديثه عن النصرانية من التّحمّل ما يثير العجب العجّاب ويدعو القارئ للوقوف عنده غير مرّة؛ إذ سعى من ورائه لتَنْصِيرِ كلّ القبائل العربية التي عرض لها في مصنفه (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية) من ذلك أنّه عقد فصلاً وسَمّه بـ «أعلام النصرانية المحضة»، وجعل فيه من الأسماء سَمْعَان وقال: «من المحتمل أن يكون... هذا الاسم نصرانياً محضاً

(١) انظر: تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٧.

(٢) انظر: الفصل ٣/ ٤٥٥-٤٥٦.

(٣) انظر: نقوش مسندية ١٠٣، ٤٩٤.

(٤) الفصل ٣/ ٤٨٤.

وذلك إمّا إشارة إلى القدّيس سمعان بطرس، ويقال شمعون الصّفا هامة الرّسل، أو إلى سمعان العمودي الشّهير بين العرب»^(١) وكثيرٌ من النّاس ممن سُمّوا بهذا الاسم من غير النّصارى وغيره من الأسماء مثل: عدي، وعيسى، ومريم الذين جعلهم الأب شيخو في النّصرانيّة بالكلّيّة. وفي مبحث آخر عقده لأعلام النّصرانيّة الوصفية والمعدول بها والمقرّبة -حسب زعمه- جعل فيه بشراً وبشيراً نصرانيّين فقال: «كلا الاسمين كان شائعاً في الجاهليّة، وكثر في القبائل التي مرّ بيان نصرانيّتها»^(٢) وما أكثرها لديه، وفي كلامه إخلالٌ عجيب يبعده عن الصّواب والحقيقة كثيراً، كما ذهب في الأسماء ثابت، وجابر، والحارث، وخالد، وحكيم، ومالك، ومنصور المذهب ذاته في التّدليل على نصرانيّة أصحابها، أو أنّها أسماء احتكرتها النّصارى لأبنائهم، فرغبت فيها دون غيرها، وهذا ممّا لا يقبله العقل ويقنع به، بل هو الخطأ أو الشّطط بعينه.

على أنّه ليس في كتاب الأب شيخو السّالف الذّكر ذكر لخولان بعينها كبطنٍ من قضاة، وربّما كان هذا من حسن طالع القوم؛ لأنّه لو ذكرهم بشيء يسيرٍ لأخرجهم عن ملّتهم التي كانوا عليها، مثلما دلّل على الأسماء السّالفة بأنّ أصحابها نصارى، وما أكثرها في قبيلة خولان ولا سيّما الشّعراء منهم.

- إسلامهم:

لما بلغ محمد ﷺ من العمر أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين، وللنّاس هادياً وبشيراً، يخرجهم من الظّلمات إلى النّور، ويهديهم سبل الرّشاد، فبدأ بدعوته في مكّة سرّاً ثلاث سنوات، حتّى جاءه أن يُصدع بما يؤمر، ويشقّ جموع الخلق بالتّوحيد في السّنة الرّابعة من ولادة دعوته التي لم يستجب لها إلا نفرٌ قليل من الفقراء والمُسْتَضعفين، وراح النّبي ﷺ يعرض نفسه في المواسم -إذا كانت- على القبائل العربيّة يدعوهم إلى عبادة الواحد الدّيّان، واتّباع رسوله الذي هاجر فيها بعد إلى المدينة

(١) النّصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة ٢٤١.

(٢) النّصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة ٢٤٦.

المنورة؛ لبدأ عهدٍ جديدٍ من دعوته الشريفة وجهاده ضد الشرّ والكفر الذي ألقى بحمله على جزيرة العرب، إلا مَنْ كان على دين إبراهيم عليه السلام^(١).

بعث ﷺ غيرَ واحدٍ من أصحابه بكتب إلى ملوك العرب والعجم يدعوهم إلى الإسلام، فكتب إلى كسرى، وقيصر، وأسقف الروم، وإلى المقوقس عظيم القبط، وإلى ملك الحبشة، وإلى جيفر وعياذ ملكي عُمان، وإلى الحارث بن عبد كلال الحميريّ ملك اليمن، وإلى هُوَذَة الحنفيّ ملك اليمامة^(٢)، ومنها ما كتبه إلى معدي كرب بن أبرهة: «وأنّ له ما أسلم عليه من أرض خولان»^(٣) وكان من أبرز رسل النبي ﷺ إلى اليمن مالك بن مرارة الرهاويّ، والمهاجر بن أبي أمية بن المغيرة المخزوميّ، وعياش بن أبي ربيعة المخزوميّ^(٤)، ومعاذ بن جبل - الذي تعرض لمحاولة اغتيال في صقع خولان (صعدة) على يد الأصبغ بن حجر بن سعد الخولاني^(٥) - وأبان بن سعيد بن العاص بن أمية، وأخوه خالد بن سعيد الذي قصد خولان، فأبت أن تُسلم، فأفرى فيهم السيف، وقاتلهم قتلاً شديداً، وسبى منهم كثيراً وشرّدهم^(٦).

والرّاجح عند الباحث أنّ ذلك كان قبل السنة السادسة من الهجرة التي عُقِدَ في نهايتها صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش التي خرجت بالعوذ المطفيل^(٧)؛ لاستقبال النبي ﷺ؛ لأنّه بعد أن تمّ الصّلع وأشهد عليه نفرٌ من وجهاء العرب والمسلمين، كانت العرب ترَبّص بالإسلام أمر هذا الحيّ من قريش، وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أنّ قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ورأس العرب، وهم الذين نصبوا لحرب

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق ٢١٥، السيرة النبوية ٢/ ٥٣.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٩٧-١٩٨، تاريخ ابن الوردي ١/ ١٩٦-١٩٧، تاريخ الخميس ٢/ ٣١-٣٩ مجموعة الوثائق السياسيّة في العهد النبويّ والخلافة الراشدة ٢٣-٤١، ٥٣-٦٥، ١٠٥-١٣٨ وغيرها يطول ذكره.

(٣) مجموعة الوثائق السياسيّة ١١٩.

(٤) انظر: السيرة النبوية ٤/ ١٨٣، اليمن في صدر الإسلام ١٢٧-١٣٤.

(٥) انظر: الإكليل: المخطوط ٨٣/ ١، المطبوع ١/ ٣٥٧، اليمن في صدر الإسلام ١٦٧.

(٦) انظر: تاريخ صنعاء: ١٤٩.

(٧) العوذ المطفيل: الإبل الحديثة التّاج معها أولادها، وأراد أنّهم خرجوا بقصّهم وقضيضهم.

رسول الله ﷺ وخلافه، فلما فتحت مكة ودانت قريش له عرفت العرب أنه لا طاقة لهم، ولا حمل بحرب رسول الله عليه السلام، فدخلوا في دين الله أفواجاً يضربون إليه من كل حَدَبٍ وصوب في السنة التاسعة من الهجرة التي سُمِّيَتْ بعام الوفود.

واتكاء على هذا يمكن القول: إن تأخر دخول قريش في الإسلام -وهي رأس العرب ومحط أنظارهم- آخر دخول بقيّة القبائل واعتناقها الدين الحنيف.

ويجدر بنا ههنا أن نشير إلى أمر مهم -قبل الولوج إلى إسلام خولان- وهو أن بناء معاذ بن جبل مسجداً في مدينة صعدة -صقع خولان- في أثناء رحلته إلى اليمن لدعوة أهلها للإسلام، لا يعني إسلام خولان بكليتها، وأنها جزء من الدولة الإسلامية؛ لأن رسول الله ﷺ حينما بعث خالد بن سعيد بن العاص مع فروة بن مسيك إلى مذحج، كلفه بأن يدعو خولان التي أبت فقاتلهم وسبى منهم^(١)، وأرسل السبي إلى المدينة. ويؤكد ما نذهب إليه ما ألح إليه الهمداني من أن إحدى زوجات النبي ﷺ نذرت أن تعتق عبداً من أبناء إسماعيل، أي ليس من أبناء قحطان، فجاء سبي من اليمن من صقع خولان، فأرادت أن تعتق منهم فنهاها رسول الله ﷺ؛ لأنهم من أبناء قحطان، فلما جاء سبي من أبناء مضر، وهم من أبناء إسماعيل، أمرها أن تعتق منهم^(٢)، ويبدو أن خالد بن سعيد لم يدخل خولان إلا عَرَضاً؛ لأن مهمته كانت موجّهة في أسّها إلى مذحج ودعوتها للإسلام، لذا لم يدخل في قتال صريح ومستمر مع خولان كلّها؛ لأنّ صنماً من أصنامها بقي حتى شعبان من السنة العاشرة لم يهدم، حتى هدمه أهله، فقد روي أنّ وفداً من خولان مكوّناً من عشرة نفر قدموا رسول الله ﷺ في شهر شعبان من السنة العاشرة مسلمين، وقالوا: «يا رسول الله نحن على من وراءنا من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، مصدّقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حزون

(١) مما يدعو للاستغراب والعجب ما ذكره ياقوت الحموي من أن مخلاف خولان «فُتِحَ... في سنة ثلاث أو أربع عشرة أيام عمر ابن الخطّاب رضي الله عنه»، وأميره يعلى بن مئينة، وقتل وسبى». معجم البلدان ٤٠٧/٢ ولا أدري من أين استقى ياقوت كلامه هذا، الذي ليس له نظير عند غيره من العلماء، والراجح أنه فتح زمن النبي ﷺ، وأسلمت خولان في السنة العاشرة للهجرة وعادت عن إسلامها بعد وفاة النبي زمن ردة الأسود العنسي كما سيأتي في هذا البحث.

(٢) انظر: الإكليل: المخطوط ٥٣/١، المطبوع ٢٣٧/١، وعنه في اليمن في صدر الإسلام ٢١٤.

الأرض وسهولها والمثّة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك، فقال رسول الله ﷺ أما ما ذكرتم من سيركم إليّ فإنّ لكم بكل خطوة خطاها بعيرٌ أحدكم حسنة، وأما قولكم زائرين لك، فإنّه من زارني بالمدينة كان في جوارِي يوم القيامة، قالوا يا رسول الله هذا السّفر الذي لا توى^(١) عليه، ثمّ قال رسول الله ﷺ ما فعل عن عُميّانس -وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه- قالوا: بَشَّر، بدّلنا الله ما جئت به، وقد بقيت منّا بعد بقايا من شيخٍ كبيرٍ عجوزٍ متمسّكون به، ولو قد قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله، فقد كنّا منه في غرور وفتنةٍ..... فذكر رسول الله ﷺ أنّ الله عز وجل أنزل عليه في ذلك ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦].... وسألوه عن فرائض الدّين فأخبرهم، وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاور، وأن لا يظلموا أحداً قال: فإنّ الظّلم ظلمات يوم القيامة، ثمّ ودّعه بعد أيّام، وأجازهم، ورجعوا إلى قومهم فلم يخلّوا عقدةً حتّى هدموا عُميّانس^(٢). وبعد أن نزلوا دار رملة بنت الحارث أمر الرسول ﷺ من يعلمهم القرآن والسّنن، وحينما عزموا على الرّجوع أكرمهم بالجوائز والعطايا، فعادوا وامتلأوا لما عهد به إليهم الرّسول ﷺ^(٣) والجدير بالملاحظة أنّهم قدموا مسلمين، ولم يهدموا صنمهم المذكور قبل مقدمهم على الرّسول ﷺ، ولعلّ هذا عائداً إلى عدم معرفتهم بأنّ بقاءه شركٌ، وما يوضح هذا أنّ رسول الله أمر من يعلمهم القرآن والسّنة، وأنّهم حينما قفلوا من عند النّبي وقاموا بهدم الصنم لم يعارضهم أحدٌ من قومهم، ويزيد الأمر وضوحاً ما جاء في آخر الرواية من أنّهم حرّموا ما حرّم الله ورسوله، وأحلّوا ما أحلّ لهم، فكأنّهم أسلموا وبقيت أشياء؛ لعدم معرفتهم بها، فلمّا عرفوها أحلّوا ما أحلّ الله، وحرّموا ما حرّم.

(١) توى: ضياع وخسارة، وهو من التّوى: الذي يعني الهلاك.

(٢) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٨٥-٣٨٦، عيون الأثر في فنون المغازي والسير ٢/ ٢٥٣-٢٥٤، السّيرة النبويّة لابن كثير ٤/ ١٧٩، السّيرة الحليّة ٢/ ٣٥٨، الكامل في التّاريخ ٢/ ٢٩٨، البداية والنهاية ٥/ ٨٨، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٧٨، إمتاع الأسماع ١/ ٥٠٧، تاريخ الطّبريّ ٣/ ١٤٠. وفي السّنة ذاتها وفد على رسول الله ﷺ وفد محارب، وكندة، والرّهاويين، وهم بطن من مذحج، ووفد صدف، وعبد القيس، وبني حنيفة، وزُبَيْد، وسلامان، ومراد، وقبائل أخرى.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد: ١/ ٣٢٤، واليمن في صدر الإسلام ٢١٥.

وكان في الوفد القادم إلى رسول الله ﷺ عَبْدُ رُضَيِّ الخولاني، المكنى بأبي مكيف^(١). وهو الذي كتب له رسول الله ﷺ كتاباً إلى معاذ بن جبل حينما أرسله إلى أهل اليمن برفقة أبي موسى الأشعريؓ، وبعث كل واحدٍ منهما إلى مخالف قال: «واليمن» مخلافان، ثم قال: «يسرا ولا تُعسرا وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا»^(٢) فانطلق كل واحدٍ منهما إلى عمله^(٣).

وكان ممن أسلم وحسن إسلامه ذؤيب بن كليب بن ربيعة الخولاني حتى قيل عنه: أول من أسلم من اليمن، فسماه النبي ﷺ عبد الله، وكان الأسود العنسي الكذاب قد ألقاه في النار لتصديقه النبي ﷺ فلم تضره النار شيئاً، وهو شبيه بإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام^(٤). وسفيان بن وهب الخولاني المشهور بأبي أيمن، وفد على النبي ﷺ وحضر حجة الوداع^(٥)، وثوب الخولاني الذي صحب النبي في بعض حياته^(٦)، وولده عبد الله الذي يعدُّ من خير التابعين المعروف بأبي مسلم الخولاني^(٧)، وعبد الله بن عمر الخولاني الذي صحب النبي وروى حديثه^(٨)، وهو والد عائذ الله المعروف بأبي إدريس الخولاني الذي عدَّ بعد الصحابة في المنزلة وهو واحد من أهم رجالات السند في الشام^(٩)، وزبيد بن عبيد الخولاني الذي أدرك النبي ﷺ وشهد فتح مصر ووقعة صفين مع معاوية ابن أبي سفيان^(١٠)، وهند الخولانية زوج بلال بن رباحؓ^(١١)، وعلقمة بن سُميٍّ

(١) انظر: أسد الغابة ٣/ ١٥٩، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ١١٩ وفيها «أبو مكنف».

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: برقم ٤٥٢٦، وأخرجه الإمام البخاري في صحيحه: برقم ٣٠٣٨.

(٣) انظر: حقائق الأنوار ومطالع الأسرار ٢/ ٧١٥.

(٤) انظر: أسد الغابة: ٢/ ١٥٧.

(٥) انظر: أسد الغابة: ٢/ ٣٤٢.

(٦) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٢٣٢.

(٧) انظر: انظر ترجمته في الديوان.

(٨) انظر: الإصابة ٢/ ١١٠٤.

(٩) انظر: جوامع السيرة ٣٣١، عيون الأثر ١/ ١٥٧، السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ١٨٠، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣٢٧/ ١، والكنى والأسماء ١/ ٣١٧، ٣١٩.

(١٠) انظر: الإصابة ١/ ٦٦٠.

(١١) انظر: الإصابة ٤/ ٢٦٦٠، تاريخ دارياً ٥٨، أسد الغابة ٥/ ٤١٥.

الخولاني^(١)، وأبو عنبَةَ الخولانيّ الذي صَلَّى القبلتين كليهما مع النَّبيِّ ﷺ، وعاش حتى خلافة عبد الملك بن مروان، وكان قد أسلم على يد معاذ بن جبل حينما بُعثَ هادياً لليمن^(٢)، وعِكرمة بن عبيد الخولانيّ الذي عدّه ابنُ حجر في الصّحابة^(٣)، ومنهم عبد الله بن شهاب الخولانيّ الذي أدرك النَّبيَّ ﷺ ولم يره، وروى حديثه عن صحابته رضوان الله عليهم^(٤).

وكان من خولان رجالاً لهم من النباهة والاشتهار ما جعلهم مقدّمين عند أهل العلم لروايتهم لحديث النَّبيِّ ﷺ وحفظه، منهم: الفضيل بن عياض الخولانيّ، وهو من أفاضل التابعين، روى حديث النَّبيِّ عن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام^(٥)، وبحر بن نصر الخولانيّ، إمام محدث ثقة عند أهل الحديث^(٦)، وغيرهم يطول ذكرهم. ومن رجالات القبيلة المشهورين الذين ذاع صيتهم في الآفاق وكانوا ذوي شأنٍ وعلمٍ: الإمام المحدث الثّبتُ محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن غلبون الخولانيّ القرطبيّ، كان ممن عُنوا بجمع الحديث النبويّ وحفظه^(٧)، وأحمد بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن غلبون الخولانيّ مُسنّد الأندلس، قال عنه ابن بشكوال: «كان شيخاً فاضلاً عفيفاً متقبضاً، من بيت علمٍ ودينٍ وفضلٍ وورعٍ وتقى»^(٨).

ومنهم أيضاً عبد القدوس بن الحجاج الخولانيّ مُسنّد حمص وإمام الحديث فيها، أبو المغيرة، حدّث عنه الإمام أحمد بن حنبل وابن مَعِين والذهليّ، وقيل عنه: إنّه ثقةٌ، وقال ابن زنجويه: ما رأيتُ أخوف لله من إسحاق بن سليمان، ولا رأيتُ أخشعَ من أبي المغيرة، صَلَّى عليه الإمام أحمد بن حنبل

(١) انظر: الإصابة ٢/ ١٢٨٨، أسد الغابة ٣/ ٢٧٩.

(٢) انظر: الإصابة ٤/ ٢٣١٢، تاريخ أبي زرعة ١/ ٣٥١-٣٥٢، الكنى والأسماء ١/ ١٣٦.

(٣) انظر: الإصابة ٢/ ١٢٨١.

(٤) انظر: الإصابة ٢/ ١٤٤٨.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٤٩.

(٦) انظر: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٠٢، الوافي بالوفيات ٧/ ٥٦.

(٧) انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٢.

(٨) كتاب الصّلة ١/ ٧٣ (الترجمة ١٦٠)، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٩٦.

حينما مات^(١)، ومنهم أيضاً السَّكَّ بن الفضل الخولانيّ الشَّيخ الصَّدوق، روى عنه أبو داود والترمذي والنسائي حديث رسول الله ﷺ^(٢)، ومحمد بن يزيد، أبو إسحاق الواسطيّ الخولانيّ أحد الأبدال، محدث مشهور، وهو الذي نعته الإمام أحمد بن حنبل بالثَّبت في الحديث، وقال عنه أبو داود والنسائي ثقة^(٣). وكان منهم شيوخ في القراءة، منهم عليّ سبيل التمثيل: عمر بن الليث بن الحارث، أبو حفص الخولانيّ المصريّ المشهور بالدِّبَاغ، مُقَرَّرٌ متصدّر^(٤)، وطاووس بن كيسان، أبو عبد الرحمن اليانيّ الخولانيّ التَّابعيّ المشهور، وَرَدَتْ عنه الرواية في حروف القرآن الذي أخذه عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن طائفة من العلماء^(٥)، ومن أصحاب الاشتهار والنباهة في القراءة حمَّدان بن عون بن حكيم بن سعيد أبو جعفر الخولانيّ، واحد من أقطاب العلم في القرن الرابع الهجريّ^(٦)، والإمام الحافظ أبو عبد الخولانيّ الحِمَصيّ الأبرش حدَّث عن جملة من الأئمة الأفاضل، ومن كانت لهم يدٌ بيضاء في العلم كالإمام الأوزاعيّ، ومحمد بن الوليد الزُّبيديّ، ومحمد بن زياد الألهانيّ، وولي قضاء دمشق؛ لشدة ورعه وتقاه في نهاية القرن الثاني الهجريّ^(٧). وهذا غيضٌ من فيض مما لا يُعدّ ولا يحصى من الخولانيّين الذين طبَّقت شهرتهم الآفاق.

وقد استقرَّ أمر الإسلام في اليمن، وكثر عدد الدّاخلين فيه رغبة أو رهبة، وبدأت أشتات النّاس تتألف وتجتمع تحت راية التّوحيد، بل وتحابَّت في الدّين الحنيف، ونبذت الثّارات من حياتها وصار اليمن كلّاً واحداً يسيرُ في خدمة دولة الإسلام الناشئة بإرسال صدقاته إلى رسول الله ﷺ الذي سأل لما وصلت: من أين هذه؟ ف قيل له: من وَسَخَة -بالحاء- فقال: بل من وَسَخَة -بالحاء- وهي من

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٢٣.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٤٩.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٠٢.

(٤) انظر: غاية النّهاية في طبقات القراء ١/ ٥٩٥.

(٥) انظر: غاية النّهاية في طبقات القراء ١/ ٣٤١، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢/ ٤٠.

(٦) انظر: غاية النّهاية في طبقات القراء ١/ ٢٦٠.

(٧) انظر: سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٧، شذرات الذهب ١/ ٣٤١.

قرى خولان، وكان ينزلها بنو يعنق وبنو بشر، وهم من سُموا بالأديم؛ لأنهم تحالفوا وكتبوا حلفهم في أديم^(١). هكذا صار حال اليمن بعد توحيد رسول الله ﷺ له بثلاث وسائل في ثلاث مراحل:

أما المرحلة الأولى: فتبدأ بالهجرة، وتنتهي في السنة التاسعة منها عندما أرسلت القبائل وفودها داخله في الإسلام؛ لتصبح بعد ذلك جزءاً من الدولة الإسلامية، وقد حرص النبي ﷺ على تحديد كريم كل قومٍ وشريفهم؛ ليوّله عليهم، ولم يكن بالضرورة ذلك الشريف هو زعيم القبيلة قبل الإسلام، مثل فروة بن مسيك على مذحج جميعها، بينما هو على مراد فقط. وفي هذه المرحلة تمّ تعيين باذان الفارسي أميراً على جميع مخاليف اليمن، وهي إمارة رمزية؛ لأن اليمن كلّ لم يكن قد أسلم وأن سلطانه كان في أصقاع محددة، ولم يكن على اليمن جميعها، ولعلّ هدف النبي من تعيين باذان هو السعي لتوحيد اليمن تحت مظلة الإسلام الحنيف.

وأما المرحلة الثانية: فامتدت حتى حجة الوداع، وفي هذه المرحلة قسم رسول الله اليمن إلى مخلافيين كبيرين عيّن عليهما اثنين من كبار صحابته، وهما: معاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري.

وأما المرحلة الثالثة: فهي من بعد حجة الوداع، وكان أبرز ملامحها تقسيم اليمن إلى أربعة مخاليف كبيرة، وعلى كل واحدٍ أميرٌ يجمع الصدقات، ويصرفها في مصارفها الصحيحة. وكانت على النحو الآتي:

مخلاف تهامة وعليه الطاهر بن أبي هالة.

ومخلاف حضرموت وعليه زياد بن لبيد البياضي.

ومخلاف الجند وعليه معاذ بن جبل، إضافة إلى إشرافه على بقية المخاليف. ومخلاف صنعاء وعليه شهر بن باذان بعد وفاة والده، إلا أن ظهور الأسود العنسي^(٢) قبيل وفاة النبي ﷺ وقيامه

(١) انظر: صفة جزيرة العرب ٢٥٠، ٢٦٥، اليمن في صدر الإسلام ٢١٦.

(٢) الأسود العنسي: هو عَيْهَلَةُ بن كعب بن عوف العنسي، نسبة إلى عنس بطن في قبيلة مذحج اليمانية، ادّعى النبوة وصدّقه - أهله وذويه وكثيرٌ من شذاذ اليمن، وبعض القبائل اليمانية. اليمن في صدر الإسلام ٢٥٤-٢٥٥.

بالردة^(١) - وهي أول ردة في الإسلام أدى إلى اضطراب وزعزعة في شؤون المسلمين، قُتل على أثرها شهر بن باذان، واستطاع العنسي إخراج عمال النبي من اليمن، وقتل بعضهم، ونجا معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري من قبضته، حتى انتهى أمره على يد فيروز الديلمي، وقيس بن مكشوح المرادي، وداذويه، وحينها صار أمر اليمن كله إلى معاذ بن جبل، أميراً عليه، ولما بلغهم انتقال النبي إلى جوار ربه، ازداد أهل اليمن فيما كانوا فيه من الحيرة والشك، وطمع قيس بن مكشوح المرادي في الإمرة باليمن، فعمل لذلك وارتد عن الإسلام مثلما ارتد كثير من العرب عامة وخاصة، إلا قريشاً وثقيفاً وبعض القبائل اليمنية الأخرى مثل حمير وهمدان وبجيلة وخنثم إلا اليسير منها، بقيت ثابتة على إسلامها، وكتب أبو بكر الصديق إلى الأمراء والأعيان من أهل اليمن أن يكونوا عوناً لفيزوز والأبناء على قيس بن مكشوح حتى تأتيهم جنوده سريعاً^(٢).

وكانت خولان في عداد القبائل المرتدة إلا قليلاً منها أخلصوا الدين لله، وثبتوا على ما عاهدوا رسول الله عليه وفي هذا يقول البلاذري: «وارتدت خولان باليمن، فوجه أبو بكر الصديق ﷺ إليهم يعلّ بن مُنيّة ومُنيّة أُمّه وهي من بني مازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان ابن مضر، وأبوه أُميّة بن أبي عبيدة، من ولد مالك بن حنظلة بن مالك حليف بني نوفل بن عبد مناف، فظفر بهم، وأصاب منهم غنيمة وسبايا. ويقال: لم يلق حرباً فرجع القوم إلى الإسلام»^(٣)

(١) صنف عدد من العلماء في حروب الردة مصنفات منهم سيف بن عمر الأسد التميمي، ولوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي، وجاء بعدهما عبد الله بن وهب بن مسلم المتوفى (٢٠٠هـ) وصنف كتاباً في الردة، ومثله فعل إسماعيل ابن عيسى العطار من أهل بغداد انظر: الفهرست ١٠٥، ١٠٦، ١١٥، ١٢٢، كما صنف علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني (ت ٢٢٥هـ) كتاباً في الردة. انظر: تاريخ الإسلام ١٣/٢٦٦.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٣/٢٤٢، ٢٤٣، الكامل في التاريخ ٢/٣٤٢، ٣٧٥، اليمن في صدر الإسلام ٢٥٤ وثمة مصادر، البداية والنهاية ٧/٤٢-٤٣.

(٣) كتاب فتوح البلدان ١/١١٩، وفيه يذكر البلاذري في خبر آخر تقسيم اليمن إلى ثلاثة خاليف قائلًا: «وكانت حضرموت أنت كندة منجدة لها، فواقعهم زياد [بن ليبد الأنصاري] والمهاجر [بن أبي أمية] فظفروا بهم، وارتدت خولان، فوجه إليهم أبو بكر، يعلّ بن مُنيّة، فقاتلهم حتى أذعنوا وأقروا بالصدقة، ثم أتى المهاجر كتاب أبي بكر بتوليته صنعاء ومخاليقها، وجمع عمله لزياد إلى ما كان في يده، فكانت اليمن بين ثلاثة: المهاجر، وزياد، ويعلّ، ووئي أبو سفيان بن حرب ما بين آخر حدّ الحجاز وآخر حدّ نجران» انظر: كتاب فتوح البلدان ١/١٢٣، ومثله في تاريخ دمشق ٧٤/١٩١، ونهاية الأرب في فنون الأدب ١٩/١٤٤.

والرَّاجح أَنَّهُ قَاتَلَهُمْ حَتَّى أَذْعَنُوا لِأَمْرِ الدِّينِ الْحَنِيفِ؛ لِأَنَّ ثَمَّةَ خَبْرًا سَاقَهُ ابْنُ قَتِيبَةَ يُؤَكِّدُ مَا نَزَّهَ بِهِ إِلَيْهِ فِي هَذَا التَّرْجِيحِ مِنْ أَنَّ سَبَايَا مِنْ عُرْبِ خَوْلَانَ مِنَ الْيَمَنِ يَدْعُونَ بَنِي شَهَابٍ سَبَوْا عَلَى يَدِ يَعْلَى بْنِ مُنِيَّةٍ عَامِلِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ^(١). وَفِي خَبَرٍ آخَرَ يَذْكُرُ الطَّبْرِيُّ أَنَّهُ «كَانَ لِلْمَنْصُورِ [أَبِي جَعْفَرٍ] خَادِمٌ أَصْفَرٌ إِلَى الْأَدَمَةِ مَائِلٌ، مَاهِرٌ لَا بَأْسَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ يَوْمًا: مَا جَنَسُكَ؟ قَالَ عَرَبِيٌّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: وَمِنْ أَيِّ الْعَرَبِ أَنْتَ قَالَ: مِنْ خَوْلَانَ، سَبَيْتُ مِنَ الْيَمَنِ فَأَخَذَنِي عَدُوٌّ لَنَا، فَاسْتَرْقَقْتُ فَصَرْتُ إِلَى بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةٍ ثُمَّ صَرْتُ إِلَيْكَ» ^(٢).

إِنَّ فِي الْخَبَرِ السَّابِقِ مَا يَدُلُّ عَلَى قِتَالِ عَامِلِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْخَوْلَانِيِّينَ حَتَّى رَجَعُوا إِلَى إِسْلَامِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ، وَأَدْرَكُوا أَنَّ النَّبُوَّةَ أَرْفَعُ مِنْ أَنْ يَدَّعِيَهَا مَدَّعٍ أَوْ عَابَثٍ وَيَتَّخِذَهَا وَسِيلَةً إِلَى طَلْبَتِهِ وَمَرَامِهِ، وَأَيَّقَنُوا أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ لَا يَلْتَقِي مَعَ الْمَطَامَعِ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَتَسَاوَقُ وَمَعَانِي الْجَاهِلِيَّةِ، عَرَفُوا ذَلِكَ بِالْذَّمِّ وَالْأَلْمِ الَّذِي اعْتَصَرَ قُلُوبَهُمْ وَالْحَسِرَاتِ الَّتِي مَزَّقَتْ عَوَاطِفَهُمْ.

وَاعْتِمَادًا عَلَى مَا سَبَقَ يُمْكِنُ الْقَوْلُ: كَانَتْ خَوْلَانُ قَبِيلَةً مِثْلَ كَثِيرٍ مِنَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، الَّتِي عُبِدَتْ الْأَجْرَامُ السَّمَاءِيَّةُ فِي بَادئِ الْأَمْرِ، وَقَدِّسَتْ لِلْأَصْنَامِ، وَحِينَهَا وَصَلَتْ تَبَاشِيرُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَسْلَمَتْ كَغَيْرِهَا مِنَ الْقَبَائِلِ، ثُمَّ ارْتَدَّتْ عَنِ الْإِسْلَامِ مَعَ عَدَدٍ لَيْسَ بِهِيْنِ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَى إِسْلَامِهَا مَرَّةً أُخْرَى فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) انظر: المعارف: ٢٧٦.

(٢) تاريخ الطَّبْرِيِّ: ٨ / ٩٩، الكامل في التاريخ ٧ / ٩٩.

الفصل الثاني

مصادر شعر القبيلة

أولاً - مصادر شعر القبيلة :

١ - رواية أشعارهم وتدوينها:

كان الشعرُ عند العرب ديوانَ علمهم ومعارفهم، وسجلَ مآثرهم، أودعوا فيه أيامهم ومعاركهم وحذفاً من أخبارهم، بل هو علمٌ لم يكن لهم أصحُّ منه، ولما جاء الإسلام وتشاغلت العرب عنه بالجهاد والفتوح ولهت عن روايته، وهلك كثيرٌ من العرب - الذين يحفظون الشعر = بالموت والقتل، فحفظوا أقلَّ ذلك، وذهب عليهم منه كثيرٌ^(١). وإبان البحث والتنقيب في بطون الكتب ومتونها التي وقفَ عليها لم أقع على خبر يدلُّ على أن أحداً من أهل السلف قد انبرى للملمة قوافي خولان وتقييد أشعارها في دفتي ديوانٍ أو مجموعٍ شعريٍّ، غير أن حظها وطالعتها قيَّد لها أبا محمد الحسن بن أحمد الهمداني المعروف بلسان اليمن (ت ٣٣٤هـ) الذي دون حذفاً من أشعارها وأخبارها في مصنفاته بعد أن انتهت إليه سجلاتٌ وزُبرٌ أطلع عليها وقرأها، وعليه كان المعول في رواية أشعار القوم وتدوينها، وثمة أخبارٌ تدلُّ دلالة دامغة على وقوفه على تلك السجلات والزُبر القديمة، منها سجل محمد بن أبان الخنفرى الذي تُورث في آل أبان وخولان وحمير، وصعدة واعتوره نسبُ اليمن وعلمائها، منهم أبو نصر الحنبسى اليهرى، وابن رقيقة الصعدي - بحسب ما تدلُّ عليه مادة هذا السجل = حتى انتهى إلى الهمداني في أوائل القرن الرابع الهجري، فوقف عليه لما سكن بصعدة، وفي ذلك يقول: «وقد سكنت بها عشرين سنة، فأطلت على أخبار خولان وأنسابها ورجالها، كما أطلت على بطن راحتي، وقرأت بها سجل محمد بن أبان الخنفرى المتوارث من الجاهلية»^(٢).

(١) انظر: طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٤، ٢٥.

(٢) الإكليل: «المخطوط ١/ ٦٠، المطبوع ١/ ٢٧٥» ومحمد بن أبان الخنفرى هو: ابن حريز بن حُجر بن زرعة الخنفرى الحميرى، صاحب السجل المتوارث من الجاهلية التي تورث في آل أبان وخولان وحمير وصعدة، وهو شاعر أموي عُرِفَ بجزالة الألفاظ وفخامة المعنى ووضوحه، وهو سيِّد ابن سيِّد في عصره، وفارس مغوار وواحد من مساعير الحرب في الخنفرين. انظر: شعراء حمير (الدراسة) ١٣٧-١٤٠.

واطلّع أيضاً على سجلّ خولان، ونصّ في غير موضع على وقوفه عليه، وأخذه عنه فيما نقله من أشعار خولان وأنسابها وأيامها^(١).

ونصّ أيضاً على أخذه عن علماء لم يُوقف على سنيّ وفياتهم، كشيخه أبي نصر الحنبسيّ اليهريّ الحميريّ، ومحمّد بن إبراهيم المحابّي الكلاعيّ، وأحمد بن إبراهيم الزعبيّ، وابن رقطة الصّعديّ، كانوا ممن انتهت إليهم السّجلات السّالفة الذكر يقول: «قال ابن رقطة الصّعديّ - وهو بعض ورثة السّجل - إنّ من قبله رُؤوا عن يزيد بن عبد الرّحمن عن عبد الملك بن يغنم بن سلمة بن مالك بن عمير بن الليث بن مالك بن أسد بن غنم بن حيّ بن خولان بن عمرو بن إلخاف...»^(٢).

ومن رواية الهمدانيّ أن قال: «وذكَر جماعة من علماء خولان وعلماء حمير بصعدة عن أشياخهم عن مسلمة بن يضم أخى بني حيّ، وعن ابن المستنير الزبيديّ وكنا علامتي نجد، وهما قيّداً أنساب خولان مع مذحج وبني سُلَيْم وهَوَازِن، وأيام خولان بينها، أنّهما سُئِلا عن الأديم من خولان...»^(٣).

وقال أيضاً وهو يذكر نسب بني رازح بن خولان: «وخبرني بعض الحميريين بصعدة: أن يعنق ليس من ولد حجر بن الرّبيعة، وأنّ الرّبيعة تغلّط في قول عمرو بن يزيد، قال: وإنّا قال:

وَلَدْنَا يَغْنُمًا، فَجَبَّالِيَعْلَى وَعَقَّ أَبَاهُ يَغْنُمٌ يَوْمَ سَارَا

....»^(٤) الشعر.

«وله يقول بعض الرّبيعة أيضاً في حرب كانت بينهم في الزّمان الأوّل:

طعناً وضرباً وجلاداً مُعَلِّماً حتّى يقول حجراً ويغنماً

....»^(٥) الشعر.

(١) انظر: الإكليل: «المخطوط ١/٥٦، ٥٨، ٥٩، المطبوع ١/٢٥٦، ٨٩، ٢٦٩» وفيها تصحيفات قبيحة ليس ثمة مكان ههنا

لعرضها والوقوف على صوابها.

(٢) الإكليل: «المخطوط ١/١١٧، المطبوع ١/٤٥٢».

(٣) الإكليل: «المخطوط ١/٩٣-٩٤، المطبوع ١/٣٨٧-٣٨٨».

(٤) انظر الديوان: ق ٤٤ / ب ١.

(٥) الإكليل: «المخطوط ١/١٠٤، المطبوع ١/٤١٩-٤٢٠»، وانظر: الديوان: ق ٧١ / ب ١.

وقال أيضاً وهو يذكر بعض أنساب سعد بن سعد بن خولان: «حدّثني محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل المُحَابِّي، وقد كان جاور في بني حرب بقُدُس ورَضَوَى وينبع وتلك النّواحي في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة...»^(١) وكذلك كان الهمدانيّ يأخذ عن الخولانيين أنفسهم الذين وقفوا على أشعار قومهم مع قلة بضاعتهم التي استقاها أبو الحسن الذي يقول: «وذكر لي محمود [بن علي بن عمرو بن جابر بن عمرو بن المسافر بن عمرو بن زياد بن سليمان بن الفاحش بن حرب] أنَّ بني حرب لمّا صارت إلى قُدُس من الحجاز وبها عنزة ومزينة»^(٢) وهنا لا بدّ من التّنبية على أمرٍ مهمّ فحواه أنَّ الهمدانيّ كان يسوق أنساب خولان أو أحد بطونها ناصّاً في ذلك على سنده، ثمّ يأتي بعد ذلك بالأشعار التي تذكر أيّام القوم وشيئاً من أخبارهم، وقد أخذها عن علماء صعدة - موطن الخولانيين - أو قرأها في السّجلاّت والزُّبر القديمة المتوارثة من الجاهليّة.

ومن الإشارات الصّريحة التي تدلّ على أنَّ أشعار خولان - ومنها بعض ما اشتملت عليه دَفْتَا هذا المجموع - كانت تُتَنَاقَل في بلاد الشّام في صدر الإسلام، وتجري على الألسنة في تلك الحاضرة منها ما رواه الحافظ ابن عساكر بسنده الطّويل لأبي مسلم الخولانيّ في الأرجوزة اليتيمة التي ارتجزها يوم صفين سواء صحّت نسبتها إليه أم لم تصحّ يقول فيها:

مَا عَلَّيَ مَا عَلَّيَ
وَقَدْ لَبَسْتُ دِرْعَتِي
أُمُوتُ عَنْدَ طَاعَتِي^(٣)

وروى العلامة ابن منظور ومن بعده الزّبيديّ أنَّ الدِّيخَ بالكسر: الدُّبُّ الجريُّ بلسان خولان، والمذِيخَةُ الدّثاب^(٤)، وهي لغة انفردت فيها القبيلة دون سائر القبائل اليمانيّة أو غيرها من العدنانيّة.

(١) الإكليل: «المخطوط ٩٦/١، المطبوع ٣٩٣-٣٩٤».

(٢) الإكليل: «المخطوط ٩٧/١، المطبوع ٣٩٨».

(٣) انظر: الدِّيوان : ق ١٠٠ وثمّة حوالاته.

(٤) انظر: اللّسان والتّاج (دِيخ).

أمّا عن شعراء القبيلة، فلم أجد في المصادر القديمة أيّ ذكرٍ لديوان شاعرٍ من شعرائها، أو خبرٍ وقعت عليه يُنبئ عن أحدٍ أهل العلم قد صنع ديواناً لأحد بطونها، واتّكأ على هذا لا بقيّة موقوفاً عليها لإحدى بُنَيَات القبيلة، أو أحد شعرائها خلا وضاح اليمن^(١) - إن صحّت نسبته إلى خولان - الذي أشار ابن النّديم إلى كتابه (كتاب وضاح اليمن وأم البنين) في أثناء عرضه أسماء العشاق الذين تعشّقوا في الجاهليّة والإسلام، وقد أُلّف في أخبارهم كتبٌ وكراريس^(٢). وثمّة أخبارٌ لدى أبي الفرج الأصفهانيّ تقول: إنّ فخاراً وقع بين رجلٍ من أولاد الوليد، ورجلٍ من زنادقة الشّعبية، خرجا فيه إلى أن أغلظا المُسابّة، وذلك في دولة بني العبّاس، فوضع الشّعوبيّ كتاباً لم يسمّه، زعم فيه أن أمّ البنين عشقت وضاحاً... هكذا ذكره خالد بن كلثوم الكلبيّ والزّبير بن بكار، وكذا الأمر في كتاب المغتالين لمحمّد بن حبيب بسنده عن ابن الكلبيّ^(٣).

وذكر بدر الدّين العينيّ (ت ٨٥٥هـ) في المقاصد النّحويّة أنّه نقل عن ديوان وضاح اليمن، ورجع إليه، وكان من مصادره^(٤). ونجد في كشف الظّنون... لحاجي خليفة أيضاً (ت ١٠٦٧هـ) ذكراً لديوان وضاح^(٥)، الذي عدت عليه عوادي الدّهر وصروفه، وتناهتته أيدي الصّياغ، فحجّب عنا مثلما حجب كثيرٌ من أشعار القبائل وشعرائها، ولم يعثر على أثر له حتّى اليوم.

أمّا عن الشّاعر ذاته (وضاح اليمن) فشاعرٌ أمويٌّ غزل كثيرَ العشق شُغِفَ بمحادثة النّساء والتّودّد إليهنّ ومن ذلك قوله:

(١) هو عبد الرّحمن (أبو عبد الله) بن إسماعيل بن عبد كلال، قيل: إنّ وضاحاً لقّب له، ويُحتمل أن يكون اسمه الحقيقيّ، شاعرٌ أمويٌّ عاصر عبد الملك بن مروان وابنة الوليد، توفّي سنة ٩٠هـ انظر ديوانه: ٩.

(٢) انظر: الفهرست ٣٦٥ (طبعة رضا تجدد) من هؤلاء على سبيل المثال «كتاب كثير عزة، وكتاب قيس ولبنى، وكتاب مجنون وليل، وكتاب توبة وليل، وكتاب الصّمّة بن عبد الله وريّا، وكتاب ملهى وتعلق...» وغيرهم كثيرٌ.

(٣) انظر: الأغاني ٦/ ٢٢٤، ديوان وضاح ١٥.

(٤) انظر: المقاصد النّحويّة ٢/ ٢١٨، ٤/ ٥٩٦.

(٥) كشف الظّنون ١/ ٨١٩.

إِنَّ قَلْبِي مُعَلَّقٌ بِنِسَاءٍ وَاضْحَاتِ الْخُدُودَ لَسَنَ بُحْنٍ^(١)

غلب عليه لقبه (وضّاح) لجماله وبهائه، إذ كان يرتاد مواسم العرب مقنعاً يستر وجهه خوفاً من العين، وحذراً على نفسه من النساء لوسامته^(٢). وقد نقل محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) عن الجاحظ قوله: ثلاثة من العبيد قُتلوا بسبب العشق: منهم يسار الكواعب، ومنهم عبد بني الحسحاس، ومنهم وضّاح اليمن^(٣). الذي اختلف في نسبه أيما اختلاف، فقيل: إنّه من أولاد الفرس الذين قدموا اليمن لنصرة سيف بن ذي يزن الحميري على الحبش، وذهب آخرون أنّه من قبيلة خولان التي تنتهي في نسبها إلى حمير حسب زعمهم^(٤). وشكك آخرون بوجود شخصية وضّاح والقصص التي حيكت حولها، وذهبوا في ذلك مذاهب مختلفة^(٥)؛ منها شعره الذي يميل إلى السهولة واللين إلى حدّ الإسراف، إذ لا متانة فيه ولا جزالة ولا رصانة الأسلوب ولا وعورة الألفاظ وخشونتها التي يمكن للباحث أن يجدها عند شعراء الغزل في القرن الأوّل الهجري، وهو على ما فيه من عيوب لا يخلو من تكلف واضح يخرج أحياناً عن أصول النحو، ينكره العقل ويمجّه الذوق السليم.

وقد ضربت صفحاً عن هذا الشاعر لأمر عدّة منها: أولاً: أن طلبّة هذا الديوان - الذي سعي فيه إلى جمع ما تفرّق من شعر خولان - إنّما هي الأشعار غير المجموعة المنشورة في متون الكتب وبطونها، وشعر وضّاح تعاقب عليه غير جامع وتناولته أياد بيضاء بالدرس والتعليق، فقد جمع باحث بقية قوافيه وسعى إلى ملمتها ونشرها في مجلة المورد العراقية المجلد ٣ / ١٩٨٤، ثمّ تبعه آخر وأضاف ما وجد إلى إضافته سبيلاً فخرج إلى الناس ديوان وضّاح في سنة ١٩٩٦^(٦).

(١) ديوانه: ٩٠.

(٢) انظر: تاريخ دمشق: ٢٧ / ٨٨.

(٣) انظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١ / ٢٠٦، الأغاني ٦ / ٢٢٥، تاريخ دمشق: ٢٧ / ٨٨.

(٤) انظر: الأغاني ٦ / ٢٠٩-٢١١، فوان الوفيات ٢ / ٢٧٢، حديث الأربعاء ١ / ٢٣٣ وانظر ديوانه ٩ وثمة مصادره.

(٥) انظر: حديث الأربعاء ١ / ٢٣٤. وانظر إن شئت ما كتبه د. محمد خير البقاعي من رد على د. طه حسين حول تشكيكه

بشخصية وضّاح الديوان ٢٠-٢٦.

(٦) انظر: ديوان وضّاح اليمن - جمع وتحقيق وشرح د. محمد خير البقاعي - دار صادر - بيروت - ط ١ - ١٩٩٦ الصفحة ٥ وما بعدها.

ثانياً: عدم ثبات نسبة الشاعر وضّاح إلى خولان صليبية، وتعدّد الروايات في ذلك إذ ليس بين يديّ من المصادر والمظان التي وردت فيها ترجمته ما يثبت صحّة نسبته إلى القبيلة ويقطع بذلك.

ثالثاً: تشكيك الباحثين بشخصيّة الشاعر وضّاح والقصص التي حيّكت - حسب زعمهم - حولها، معتمدين في ذلك على أدلة دامغة.

ولهذا كلّ فقد أبعد شعر وضّاح اليمن من ديوان خولان هذا، وأُخرج معه ما يمكن أن يستدرك على ديوانه؛ لأنّ باب الاستدراك مفتوح اليوم أكثر من السابق على الدّواوين المصنوعة قديماً؛ لعظم ما يمكن أن يقف عليه الباحث، ولسهولة الوقوف على المؤلّفات المحقّقة في زمن كان يُستغرق فيها مضى في تقليب أوراق كتاب قد لا يجد فيه الباحث شيئاً يخدمه فيما يبحث عنه.

٢ - مصادر شعرهم المجموع:

حينما وطّد الباحث نفسه على جمع أشعار خولان ودراستها، سعى سعاية المجدّ الحريص إلى ملزمة أشعار القوم ورضّ قوافيهم في ديوان شعري، فعكف سُنيّاتٍ يضرب متون الكتب وينقرّ في بطونها باحثاً عن الشعر الذي ألزم نفسه استكناه مكنونه وتلمّس صُواه، فوقف على ما وقف عليه من كتب التّراجم المتنوّعة، وكتب الاختيارات الشّعريّة، والأدب العامّة، ومصنّفات النّحو واللّغة، والشّروح، والتّفاسير المتعدّدة، والأنساب، والتّاريخ، والجغرافية، والمعجمات مع معرفته ودرايته أنّ جمّع ما تناثر من شعر شاعر واحد من شعراء الجاهليّة أو صدر الإسلام أو العصر الأمويّ أو قبيلة من القبائل، طريق وعرة، صعبة السّبيل، السّائر فيها تتقاذفه نائبات صلدة، وتعرّضه مشكلات عويصة، تتمثّل في أمور عدّة منها: كثرة التّصحيفات والتّحريفات التي يمكن أن نجدها في روايات متعدّدة لبیت شعريّ واحد، يضاف إلى هذا قلّة ما يمكن أن يصيب من شعر هذا، أو القبيلة تلك؛ لأنّ ما صار إلينا من شعر شاعر نجا من صوارف الدّهر وعواديّه، ليس بشيء يؤبه له مقارنة مع ما ضاع واندثر، أو هو قليل جدّاً، إذ إن ما كان يحفظه بعض أهل السّلف من شعر شاعر من الشعراء، يكاد يجاوز معظم أشعار القبائل التي اعتنى مجموعة من الباحثين بجمع ما تبقى من أشعارها بأخّرة،

ثُمَّ يَصِيبُ مِنْ يَسْتَدْرِكُ عَلَى حِفْظِهِ الْكَثِيرِ، مِثَالُ ذَلِكَ مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيُّ مِنْ أَنَّ عَمَّ الْمُوصِلِيِّ كَانَ يَحْفَظُ لِلسَّيِّدِ الْحَمِيرِيِّ فِي بَنِي هَاشِمٍ أَلْفَيْنِ وَثَلَاثُمِئَةَ قَصِيدَةٍ حَتَّى خَالَ نَفْسَهُ أَنَّهُ اسْتَوْعَبَ شَعْرَ السَّيِّدِ جَمِيعَهُ إِلَى أَنْ جَالَسَ رَجُلًا أَنْشَدَهُ ثَلَاثَ قَصَائِدَ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ، وَلَا هِيَ مِنْ مَحْفُوظِهِ^(١). أَمَّا عَنْ دَوَاوِينَ الْقَبَائِلِ الَّتِي أَشَارَ إِلَى جَمْعِهَا الْعُلَمَاءُ الْقَدَامِيُّ^(٢)، عَلَى كَثَرَتِهَا لَمْ تَنْجُ مِنْ عَوَادِي الدَّهْرِ الَّتِي امْتَدَّتْ إِلَيْهَا فَأَتَلَفَتْهَا، أَوْ جَعَلَتْهَا هَاجِعَةً تَغْفُو فِي رُفُوفِ إِحْدَى الْمَكْتَبَاتِ تَنْتَظِرُ مَنْ يَهْتَدِي إِلَيْهَا لِيُخْرِجَهَا إِلَى النُّورِ وَالْحَيَاةِ، إِلَّا مَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ صِنْعَةِ السَّكْرِيِّ لِأَشْعَارِ قَبِيلَةِ هُذَيْلِ الَّتِي لَا تَعْدَلُ سِوَى بَيْتٍ مِنْ بَيُوتَاتِ الْعَرَبِ مَقَارَنَةً مَعَ الدَّوَاوِينَ الَّتِي زَخَرَتْ بِأَسْمَائِهَا الْمَصَادِرُ الْعَرَبِيَّةَ.

أَمَّا مَا يَخْصُّ أَشْعَارَ خَوْلَانَ فِيهَا جَمْعُهَا فِي هَذَا الدِّيَّوَانِ، فَبَلَغَ حَتَّى نِهَايَةِ عَصْرِ بَنِي أُمَيَّةٍ - سَبْعَةٌ وَتِسْعِينَ وَخَمْسُمِئَةَ بَيْتٍ (٥٩٧) - وَاحِدٌ مِنْهُمْ ضَاعَ شَطْرُهُ الثَّانِي - لثَلَاثَةِ وَأَرْبَعِينَ شَاعِرًا، فِي تِسْعِ عَشْرَةِ قِطْعَةٍ وَمِئَةٌ تَقَاسَمَتْهَا الْمَقْطَعَاتُ - وَهِيَ الْأَكْثَرُ عِدَدًا فِي الدِّيَّوَانِ - وَالْقَصَائِدُ وَالنَّتْفُ وَالْأَبْيَاتُ الْيَتِيمَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةٍ مَقْطَعَةٍ مِنْهَا لَشُعْرَاءَ مَجْهُولِينَ.

وَأَمَّا جَهْدُ الْهَمْدَانِيِّ وَفَضْلُهُ فِي الْمَلْمَةِ شَتَاتِ أَشْعَارِ خَوْلَانَ وَجَمْعُ بَقِيَّةِ قَوَافِيهِمْ فَكَبِيرٌ جَدًّا، إِذْ يَكَادُ يَكُونُ مَتَفَرِّدًا بِرَوَايَةِ أَشْعَارِ الْقَوْمِ قَاطِبَةً دُونَ غَيْرِهِ، وَأَشْعَارُ الْقَبَائِلِ الْيَمَانِيَّةِ الَّتِي أَفْرَدَ لِأَنْسَابِهَا وَأَيَامِهَا وَأَخْبَارِهَا مَصْنُفَاتٍ، وَمِنْ تِلْكَ الْقَبَائِلِ هَمْدَانٌ وَمَذْحِجٌ وَحَمِيرٌ، وَقَدْ خَلَّتِ الْمَصْنُفَاتُ الَّتِي اعْتَنَتْ بِأَخْبَارِ الْقَبَائِلِ الْعَدْنَانِيَّةِ أَوْ الَّتِي افْتَرَشَتْ بَطْنَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَبِلَادِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ أَرْضًا لَهَا مِنْ أَخْبَارِهَا. غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ أَشْعَارِ الْخَوْلَانِيِّينَ الَّذِينَ نَزَلُوا الشَّامَ إِبَّانَ الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أُصِيبَتْ عِنْدَ ابْنِ عَسَاكِرٍ فِي تَارِيخِهِ، وَنُسِبَتْ إِلَى عَصْرِ بَنِي أُمَيَّةٍ، وَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ الْأَشْعَارُ بِالْكَثِيرَةِ فَلَمْ تَتَجَاوَزْ قِطْعَةً لِعِثْمَانَ بْنِ مُرَّةٍ الْخَوْلَانِيِّ^(٣) جَاءَتْ فِي سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ، وَمَقْطَعَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا لِلْمُسَوَّرِ الْخَوْلَانِيِّ^(٤) فِي ثَلَاثَةِ

(١) انظر: الأغاني ١٨٢/٧.

(٢) انظر: الفهرست ٥٩، ٧٣، ٧٥، ٨٦، وعنه في مصادر الشعر الجاهلي ٥٤٧.

(٣) انظر: الدِّيَّوَانُ ق ٩٥.

(٤) انظر: الدِّيَّوَانُ ق ٩٧.

أبيات والأخرى عدتها ثلاثة أبيات أيضاً لعبيد الله بن عوف الخولاني^(١)، وأرجوزة يتيمة وقعت في ثلاثة أشطارٍ لأبي مسلم الخولاني^(٢)؛ هذا ناهيك عن رواية الهمداني لأشعار خولان في عصر بني العباس التي عرض لكثيرٍ منها في الجزء الأول من مخطوط الإكليل، وفاقَت في عددها أشعارهم التي جمعناها؛ ليتبينَ لنا عِظَمُ ما رواه الهمداني، وخطَرُه في تَقْيِيدِ أشعار خولان دون غيره.

وإذ كان الهمدانيُّ راويةَ أشعار خولان وسجَّلَ أخبارهم وأيامهم، فسوف يكون حديثي عن المصادر والمظانَّ الأخرى التي أُصِيبَتْ فيها أشعار القوم وجِزاً، مقتضباً على قدر ما ورد فيها من أشعار تُنَوِّقِلَتْ فيما بعد على ألسنة العلماء ودُوِّنَتْ في المصنِّفات والكراريس، وهذا ممَّا لم يحدث البتَّة عدا ما نقله ياقوتُ الحمويُّ، وأبو عبيد البكريُّ عن مؤلِّفات الهمدانيِّ، وهو نذرٌ يسيرٌ جداً ليس ذا بالٍ مقارنة مع دواوين القبائل الأخرى التي جُمِعَتْ أشعارها بأخره، ودُرِسَتْ مصادرها دراسة مفصَّلة حتى كادت أن تكون بمفردها رسالة جامعية^(٣).

وسأصنِّفُ المصدرَ الأكثر رواية والأغزر لأشعار القوم، مشيراً إلى عدد الشعراء في كل مصدر، ولم أصرف اهتماماً يذكر لعصور المصادر وزمنها وذلك لأسباب من أهمها:

أولاً: قلَّتها وضعف عددها، إذ لم تبلغ مصادراً أشعار خولان كلها إبان البحث والتنقيب في المكتبة العربية سوى عشرة مصادر. ثانياً: قلَّة ما ورد من شعر في غير مصادر الهمدانيِّ. ثالثاً: عدم سيرورة الشعر وارتحاله خلال القرون التالية لعصر الهمدانيِّ، وعدم تعاور العلماء إياه بالنقل أو الزيادة أو الاطِّراح منه مقارنة مع روايته الأصلية، ولهذا سعى الهمدانيُّ إلى تدوين شعر اليمين (خولان) لمعرفة بقلته بأيدي علماء الشام والعراق يقول: «وقد كتبنا ما أدركنا...؛ لأنَّه معدوم بالعراق والشام قليل في

(١) انظر: الديوان ق ٩٨.

(٢) انظر: الديوان ق ١٠٠.

(٣) انظر: مصادر الدواوين التي جمعها عدد من الباحثين مثل: شعر ضبَّة وأخبارها في الجاهليَّة والإسلام: ٤٣ وما بعدها، وشعراء تغلب في الجاهليَّة (الدراسة) ٢٥١، شعراء حمير (الدراسة) ١٧٧ وما بعدها، وكلب بن وبرة (الدراسة) ٢١٠ وما بعدها.

أيدي العلماء»^(١) ولعلّ هذا سببٌ من جملة الأسباب التي جعلت أشعار القوم غير متعاورة بالنقل والرواية بين العلماء القدامى.

ويأتي على رأس تلك المصادر: الإكليل في جزئه الأوّل، إذ روى فيه الهمدانيّ للقوم ثلاثة وثمانين وثلاثمئة بيت (٣٨٣) لتسعة وعشرين شاعراً، جاءت أشعارُ ستّةٍ منهم موزّعة في تباين مع كتاب الدّامغة^(٢)، وأربعة شعراء منهم جاءت أشعارُ لهم في مطبوع الجزء الثاني من الإكليل^(٣). وشاعران منهم وردت أشعارُ لهم في مطبوع الجزء الثامن من الكتاب ذاته^(٤).

وفي الجزء الأوّل من الإكليل روى الهمدانيّ قصيدة ليعلى بن سعد المالكيّ جاء في الجزء الثامن بمعظم أبياتها وبالرواية نفسها خلا بعض الأبيات التي دخلها بعض الاختلاف والزيادة (ق ٥٤/ب ١ - ب ٤، ب ٧ - ب ١١، ب ١٣، ب ١٩)، وجاء أيضاً في مخطوط الجزء الأوّل من الإكليل بقصيدة لعمر بن زيد الخولانيّ المشهور بمغرق الأكبر (ق ٦/ب ١ - ب ٤) والأبيات الأولى منها هي عند ياقوت الحمويّ (٦٢٦هـ) في معجم البلدان، وكذا الأمر في مخطوط الجزء الأوّل من الإكليل بيتان للمسلم بن يغمّ المالكيّ من قصيدة له (ق ٦٢/ب ١ - ب ٢) هما في معجم البلدان لياقوت الحمويّ، وأيضاً بيتان للحارث بن عمرو السّعديّ من كلمة له (ق ٧٢/ب ٧ - ب ٨) هما في معجم البلدان، ورجّع الهمدانيّ له رواية قصيدة في الجزء الثامن (ق ٧٧) كان قد أثبتها في الجزء الأوّل من الكتاب ذاته من ذي قبل، وهي ذاتها ثابتة في معجم البلدان عند ياقوت، وكذا الأمر مع عمرو بن زيد الغالبيّ في الجزء الأوّل من الإكليل، فقد ساق له الهمدانيّ بيتين (ق ٨٤/ب ١ - ب ٢) هما في الجزء الثامن من الإكليل، والأول منهما فقط في كتاب الدّامغة. وفي معجم البلدان بيتٌ لإبراهيم بن كُنيّف الشّهابيّ من مقطّعة له (ق ١٠٤/ب ١) ساقها الهمدانيّ في مخطوط الجزء الأوّل من الإكليل.

(١) الإكليل ٢/ ٢٧٠-٢٧١.

(٢) انظر: الشعراء الستّة: المقدم بن زيد الحيوانيّ، عمرو بن يزيد العوفيّ، يعلى بن سعد المالكيّ، المحنون العوفيّ الحارث بن عمرو السّعديّ، مالك بن قطينة العوفيّ.

(٣) انظر: عمرو بن يزيد العوفيّ، عمرو بن حجر المالكيّ، عمرو بن يزيد السّعديّ، مالك بن قطينة العوفيّ.

(٤) انظر: يعلى بن سعد المالكيّ، عمرو بن حجر المالكيّ.

أما الجزء الثاني من الإكليل، فقد روى فيه الهمداني أربعة وخمسين بيتاً (٥٤) خمسة شعراء، اثنان منهم تقاسم كتاب الدامغة بعضاً من أشعارهما^(١)، وشاعر واحد وردت ثلثه من أشعاره في الجزء الثامن^(٢) وفي الجزء الثامن من الكتاب نفسه روى الهمداني تسعة وعشرين بيتاً (٢٩) ستة شعراء، شاعر واحد منهم تفرقت بعض أشعاره في الدامغة^(٣) وهنا يجدر بنا التنبيه على أن بيتاً يتيماً ق(١١٨) رواه أبو عبيد البكري نقلاً عن الهمداني في الجزء الثامن من الإكليل، وفي الدامغة ثمانية وخمسين بيتاً (٥٨) ستة شعراء، بعض من أشعارهم حظي بالإكليل بأجزائه الثلاثة بروايتها.

وأما المصدر الثاني وهو: صفة جزيرة العرب على عظم اهتمامه بتنايف اليمن وأمواه خولان، واشتماله على كثير من الأمكنة التي تفرّد بترجمتها والوقوف عندها، فليس فيه ما كان متوقعاً خلاً أرجوزة الرّداعي التي بلغت المئين من الأبيات، وهي خارج الديوان لتأخرها عن عصر بني أمية = إلا سَوِّقَ داليةً يتيمة لعلقمة الخولاني وقعت في خمسة وأربعين بيتاً (٤٥) وهي أطول ما وقفت عليه من أشعار القوم.

أما عن المصادر الأخرى التي أُصيبت فيها أشعار خولان، فيأتي في مقدّماتها تاريخ دمشق، وهو على عظم جرمه، واستيعابه لترجمات كثيرة، وأشعار يصعب عدّها وإحصاؤها، ضنينٌ بأشعار خولان، شحيحٌ بترجمات شعرائها على الرّغم من نزول بطونٍ منها دمشق، وشغلهم مناصب مهمّة في دولة بني أمية، جعلتهم في بعض الأحيان يديرون دفة السياسة فيها^(٤) واتّكأ على هذا فليس فيه سوى أبيات قليلة لا تتجاوز مجتمعة قصيدة واحدة من قصائد الشعراء الصّعاليك المشهورين، ومن تلك الأبيات في التاريخ الكبير قصيدة لعثمان بن مُرّة الخولاني (ق ٩٥) ومقطّعتين الأولى منهما للمُسَوَّر الخولاني (٩٧) رواها ابن العديم (٦٦هـ) في بغية الطلب، والمزي (٧٤٢هـ) في تهذيب

(١) انظر: أشعار عمرو بن يزيد العوفي، مالك بن قطينة العوفي.

(٢) انظر: أشعار عمرو بن حجر المالكي.

(٣) انظر: أشعار يعلى بن سعد المالكي.

(٤) انظر: مبحث العلاقة بين خولان ودولة بني أمية في الدراسة، ولا سيما دور معاوية بن حديج وعظم شأنه في أيام معاوية بن أبي سفيان.

الكمال، وابن منظور (٧١١هـ) في مختصر دمشق، وابن تغري بردي (٨٧٤هـ) في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، والمرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ) في تاج العروس، والبيت الثاني والثالث فقط في ولاية مصر للكندي (٣٥٠هـ) والثانية هي أرجوزة لأبي مسلم الخولاني (ق ١٠٠) رواها علي بن محمد الجزري (٦٣٠هـ) في أسد الغابة، ومحمد بن أحمد الذهبي في تاريخ الإسلام وسير أعلام النبلاء، نقلاً عن الحافظ ابن عساكر في تاريخه، الذي تفرد برواية مقطعة (ق ٩٨) دون غيره لعبيد الله ابن عوف الخولاني. وعلى الرغم من هذه البقيا التي انتهت إلينا من أشعار خولان في تاريخ دمشق يمكن التنبيه على خطورته من جانب أنه جاء بترجمات وأخبار لقبيلة خولان - على قلتها - ليست عند غيره، بل سكتت عنها كتب التاريخ والتراجم مما جعلها عظيمة في بابها، كبيرة في فائدتها، ولعل هذه الميزة جاءت من السمت الذي جعله الحافظ لتاريخه الكبير بأن ترجم لكل من ورد دمشق، أو مر فيها، أو أقام ولو لليلة واحدة.

ومن المصادر التي ضمت أشعار خولان (كتاب أنساب الخيل) لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (٢٠٤هـ) الذي ساق ثمانية أبيات لأربعة شعراء لم تُعرف عصورهم، بيتان لمُحَطَّم ابن الأرقم الخولاني (ق ١٠٧) البيت الأول في نشر الدرر للآبي (٤٢١هـ)، وبيتان للسَّمَح بن هند الخولاني (ق ١٠٨) البيت الأول منهما عند الأسود الغنْدُجاني (٢٣١هـ) في أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها، وعند الصَّاحبي التَّاجي (٦٧٧هـ) في الحلبة في أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والإسلام وعند الآبي في نشر الدرر، بينما روى المرتضى الزبيدي البيتين معاً في تاج العروس، وبيتان لأبي الرِّيسان الخولاني (ق ١٠٩) هما في أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها وتاج العروس، بينما روى الآبي البيت الأول فقط، وبيتان للمنذر بن الأعلم الخولاني (ق ١١٠) هما في أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها وتاج العروس، والأول فقط منهما في نشر الدرر للآبي،

وروى ابن عبد الحكم (٢٥٧هـ) في فتوح مصر والمغرب بيتين (ق ٧٠) لمجهول خولاني من صدر الإسلام، هما بتمامها في فتوح مصر وأخبارها للمؤلف نفسه، وكذلك ساق نشوان الحميري (٥٧٣هـ) بيتين في شمس العلوم (ق ١١٣) هما في منتخبات في أخبار اليمن في موضعين.

وفي البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٥هـ) بيتٌ يقيم أنشدته الأصمعيّ لخولانيّ (ق ١١٤) وهو عند الزمخشريّ (٥٣٨هـ) في ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، والتذكرة الحمدونيّة لابن حمدون (٧٦١هـ) أيضاً.

٣ - توثيقُ الهمدانيّ وما جاء في مصنفاته:

قبل الولوج بالكلام على الهمدانيّ وما جاء في تصانيفه، يحسن بنا التنبيه على أمرٍ مهمٍّ فحواه: أنّ الحديث عن مكانة الرجل وعِظم شأوه وما كتبه بريشته لم يكن بالمستحدث من الأمر ههنا، إذ سبق إلى التنبيه على خطره وسموق مكانته وبسط القول فيه غير باحث^(١). وعلى الرغم من هذا، ولأجل توثيق ما رواه الهمدانيّ من شعر وأخبار لقبيلة خولان في مصنفاته التي انتهت إلينا وعليه كان المعول وحده، وجدت نفسي منصاعاً لتدوين ما يُثبت صدق روايته، ولا سيما أنّ الناظر فيها يرى أموراً منافية لمنهج الذي يلامس الصواب، فتلقي عليه الحيرة بظلالها، وتخيم الشكوك والظنون اللذان قد توصلانه إلى ما يوقعه في التناقض حول شخصيّة الرجل وعلمه، فيذهب إمّا إلى تخطئته - وهذا بما لا يتفق مع ما كتبه عنه العلماء القدامى من مقالات نفيسة عالية -، وإمّا إلى عزو تلك الأمور إلى النسخ أو المختصرين من مثل محمد بن نشوان الحميريّ الذي اختصر الإكليل.

فمّا قاله العلماء في مؤلفاته مقالة الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي (٦٤٦هـ) في كتاب الإكليل: «هو كتاب عظيم الفائدة يشتمل على عشرة فنون، وفي أثناء هذا الكتاب جمل حسان من حسان القرانات وأوقاتها، ونبد من علم الطّبيعة، وأصول أحكام النّجوم، وآراء الأوائل في قديم العالم وحدوثه، واختلافهم في أدواره في تناسل النّاس ومقادير أعمارهم أو غير ذلك»^(٢). وكذا مقالته أيضاً في مناسبة أخرى عن الإكليل، «وهو كتاب جليل، عزيز

(١) سبقنا إلى هذا علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - في بحث نشره في مجلّة المجمع العلميّ بدمشق ٣٦، ٥٣٣ - ٥٥٤، والقاضي محمد بن علي الأكوخ الحوالي في بحث مماثل نشره في المجلّة ذاتها ٥١، ٤٠٢ - ٤٠٣، وبسط القول فيه د. مقبل الأحديّ في أطروحته للدكتوراه، شعراء حمير (الدراسة) ٢٠٤، ومجلّة التراث العربيّ (٩٥) ٢٠٠٤ - ص ٢٠٠، والموسوعة العربيّة، المجلّد الحادي والعشرون ص ٥١٨.

(٢) كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٣.

الوجود، لم أر منه إلا أجزاء متفرقة وصلت إليّ من اليمن»^(١) ويعزو ابن القفطي ندرة وجود هذا العلق النفيس في رفوف المكتبة العربية؛ لوجود المثالب المذكورة فيه عن بعض قبائل اليمن التي أعدمّت كلّ ما وجدته من الكتاب الذي تعرّض لها بالقدح والذّم، فتتبعوا إعدام النسخ منه، فحصل نقصه^(٢). ولم يصل إلينا كاملاً.

يضاف إلى ما سلف مقالته في كتاب الهمدانيّ الموسوم بـ«أيام العرب» بأنّه «كتاب جميل»^(٣) ثمّ يعطف بقوله -بعد أن سمّي عدداً من تأليف الرّجل^(٤)-: «وله من التّصانيف الشّاذّة إلى البلاد ما يكثر، ولا يكاد يعرفه أهل اليمن، وله كتاب القصيدة الدّامغة النونية على معدّ والفُرس، وهي قصيدة طويلة وقد شرحها ولده، وفيها علم جمّ»^(٥) وهي من أتمّ المطوّلات التي انتهت إلينا من تركة شعراء اللّسان العربيّ، وفي شروحاتها مقطّعات ومنتفّ شعريّة ليست في غيرها من التّصانيف من مثل أشعار للأعشى الكبير ليست في ديوانه، وأخرى عظيمة الفائدة قد قيلت قبل الدّامغة «مثل قصيدة الكميّ الأسديّ ودُعبل الخزاعيّ والأعور الكلبيّ، وهاتيك القصائد أمدت أدبنا برافدٍ غزير العيون، مستمرّ الجريان، ثمّ حُجِبَتْ عَنَّا فيها حُجِبَ من ذخائر نفيسة وأعلاق عزيزة، فلم ينته

(١) إنباه الرّواة على أنباه النّحاة: ٣١٧/١.

(٢) انظر: إنباه الرّواة على أنباه النّحاة: ٣١٨/١.

(٣) إنباه الرّواة على أنباه النّحاة: ٣١٨/١.

(٤) منها: كتاب المسالك والممالك باليمن، كتاب القوى في الطّب، سرائر الحكمة في صناعة النّجوم، كتاب الجواهر العتيقة، وكتاب الطّالع والمطارح.

(٥) إنباه الرّواة على أنباه النّحاة: ٣١٨/١. والدّامغة: الأصل فيها الدّمغ: وجاء عند الزّبيديّ: «ودمغ فلاناً يدمغه دمعاً: ضرب دماغه وكسر صافورته. وقيل: الدّمغ: الأخذ والقهر من فوق كما يدمغ الحقّ الباطل، وقد دمعهُ دمعاً: أخذه من فوق وغلبه، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] وقد وُسمت قصيدة الهمدانيّ بالدّامغة؛ لأنّه دفع بها الكميّ الأسديّ وغلبه وكسر شوكته في قوله:

ودامغة كمثل الفهر تهوي على بيض فتترّكه طحيناً
تَرُدُّ الطُّولَ لِلْأَسَدِيِّ عَرَضاً وتقلّبُ مِنْهُ أَظْهَرَهُ بَطُوناً

انظر: الدّامغة ٤٢.

إلينا إلا النذر اليسير»^(١) وكذا الأمر أيضاً فيما يخص تحضرها أخباراً لقبائل العرب اليمانية، وأياماً منها ما ذكر في تأليف الأيام والوقعات، ومنها ما غفلت عنه تلك التأليف وكان جديداً في هذه الدراسة لأيام القبيلة وعلاقاتها.

أمّا عن عظم الرجل وخطره، فكان أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني (٣٣٤هـ) المشهور بلسان اليمن، وبالنسابة، وبابن الحائك^(٢)، وبابن الدمينه، الأديب، النحوي المنجم، الإخباري اللغوي اليمني وهو «شاعرٌ يمانِيٌّ عباسيٌّ مُفْلِقٌ فحلٌّ، مُحَسِّنٌ في تصريف القوافي، قابِضٌ بنواصيها، وأديبٌ فطنٌ بتوليد المعاني، مولعٌ بابتكارها، ولغويٌّ مُتَبَحِّرٌ في لسانه، ونحويٌّ حَذِقٌ بأنحاء العربية، ونسابة لم يبلغ شأوه غيرُهُ، عليه كان المعول في أنساب... [الخولانيين] وفيلسوفٌ ممنوحٌ علم الفلسفة، مُهَيَّأٌ طبعه للعناية به، وجُغرافيٌّ مُتَقَبِّ بِحَاثَةٍ، وأثريٌّ فكّ طلاسمات الخطّ المُسندِ، وأنطق حروفه، وأخياً لِسَانِ جَمِيرٍ، ومنجمٌ بارِعٌ»^(٣).

- (١) الدامغة: بحث في مجلة التراث العربي الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد ٩٥ سنة ٢٠٠٤ الصفحة ٢٠٠.
- (٢) لقب بابن الحائك، لحوكة الشعر، إذ كان سليل أسرة توارثت حوك القوافي وتنقيفها، ولجده سليمان بن عمرو المعروف بذي الدمينه أبيات في الحكمة مستجادة مستحسنة تغص بالمعاني الشريفة الجليلة منها قوله:

إذا المرء لم يسر عن الدم عرَضُه	ببلغه ضيف أو بحاجة قاصد
فما المال إلا مظهرٌ لعبوبه	وداع إليه من عدو حاسد
وما المرء محموداً على ذي قرابة	كفاه مُهمّاً دون نفع الأبعاد
ومن لا يؤاتيه على الجود وجده	فإن جميل القول إحدى المحامد

الإكليل ١٠/١٦٦-١٦٧ وعنه في الموسوعة العربية - المجلد الحادي والعشرون ٥١٨، ومجلة التراث العربي العدد (٩٥) السنة (٢٤)، الصفحة ٢٠١، وهذا لم يكن أبوه حائكاً، ولا أحدٌ من أهله ولا في أصله حائكٌ، وإثما هو لقب لمن يشتهر بقول الشعر وقرضه: انظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ١/٣١٤ في حين ذهب الأب أنستاس ماري الكرمل مذهباً مختلفاً حينما قال في ترجمة الهمداني: «والذين ذكروهم باسم ابن الحائك أرادوا تحقيره؛ لأن الأقدمين كانوا يحقرون الصنائع بخلاف أقوامنا في العصور المتأخرة...» الإكليل ٨/٢٩٧.

- (٣) انظر: ترجمة الهمداني في إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١١٣، معجم الأدباء ١٠٣٧، مختصر تاريخ دمشق ١١/١٥٠، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار بالخطط المقرئية ٢/١٤، معجم المؤلفين ٥٣٨، كشف الظنون ١٤٤، ٧٨٥، ٩٧٢، ٩٨٣، ٩٨٦، ١٣٣٨، ١٤١٥، ١٨٢٢، ٢٠٥٠، بغية الوعاة ١/٤٢١، إيضاح المكنون في الدليل على كشف الظنون ١/٣٦٢، الأعلام ٢/١٧٩، مجلة التراث العربي العدد (٩٥) الصفحة (٢٠١).

وقيل فيما قيل عنه أنه: «نادرة زمانه، وفاضل أوانه، الكبير القدر، الرفيع الذكر... ولو قال قائل: إنه لم يخرج اليمن مثله لم يزل؛ لأنَّ المنجَم من أهلها لاحظَّ له في الطبِّ، والطَّيب، ولا يدَّ له في الفقه، والفقيه لا يدَّ له في علم العربيَّة، وأيام العرب وأنسابها وأشعارها، وهو قد جمع هذه الأنواع كلّها، وزاد عليها»^(١) وها هو ذا الحافظ جلال الدين السيوطي يثبت مقالة الخزرجي في الهمداني قائلًا: «هو الأوحد في عصره، الفاضل على مَنْ سبقه، المبرز على مَنْ لحقه، لم يولد في مثله علماً وفهماً ولساناً وشعراً وروايةً وفكراً وإحاطة بعلوم العرب من النحو واللغة والغريب والشعر والأيام والأنساب والسِّيَر والمناقب والمثالب مع علوم العجم من النجوم والمساحة والهندسة والفلك»^(٢) بل «هذا الرَّجل أفضل من ظهر ببلاد اليمن... كان من أهل اللغة، [والأيام والأخبار العزيرية التي تفرَّد بروايتها وتدوينها] يدلُّ على ذلك قصيدة الدَّامغة»^(٣) التي انتهت إلينا في ستمئة بيتٍ وبيتين، والنَّاظر فيها يجد غزارةً في القوافي وتنوعاً عجيباً ينمُّ على شاعرٍ كبيرٍ، ومعانٍ شريفةٍ رزقها الهمداني وتشبيهات مناسبة للأغراض المطروقة، وفخامة في الألفاظ ومتانة في سبك الأبيات وصياغتها، وقد بلغت أشعاره من الاشتهار ما دفع الحسين بن خالويه بعد وفاة الهمداني على الرِّحيل لتحصيلها من العراق إلى اليمن، وفي هذا يقول القفطي: «ولما دخل الحسين بن خالويه الهمداني النَّحوي إلى اليمن، وأقام بها بدمار، جمع ديوان شعره، وعَرَّبه وأعربه، وهذا الديوان بهذا الشرح والإعراب موجودٌ عند علماء اليمن، وهم به بخلاء، وشعره يشتمل في الأكثر على المقاصد الحسنة، والمعاني الجزلة، والألفاظ والتشبيهات المصيبة الأغراض، والنَّعوت اللاصقة بالأغراض، والتَّحريض المحرِّك للهمم المراض والأمثال المضروبة، والإشارات المحجوبة، والتَّصرف في الفنون العجيبة»^(٤).

ويُعَدُّ الهمداني من المتبصِّرين بنقد الشعر وفهم معانيه، ومعرفة ضعيفه من قويِّه، ومُصَفِّاه من مُكَدِّره، يدلُّ على ذلك ما جاء في شرحه البيت ٥٦١ من قصيدة الدَّامغة حينما ذكر الخليل بن أحمد

(١) إنباه الرِّواة على أنباه النَّحاة ١/ ٣١٤.

(٢) بغية الوعاة ١/ ٤٢١.

(٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ١١٣.

(٤) إنباه الرِّواة ١/ ٣١٩ وعنه في مجلَّة التَّراث العربيّ - العدد (٩٥) الصَّفحة ٢٠٣.

الفراهيديّ ونعتَ شِعْرَهُ بِالضَّعْفِ والخور فقال: «وهو حكيم المسلمين وفيلسوفهم، وصاحب العروض الذي علّم به الصّبيان قول الشعر، ولكنّ شِعْرُهُ ضَعِيفٌ لَا نَفْسَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ مُرْتَبِّ، وليس الشعر إلّا ما دَسَعَ بَيْتُهُ طَبْعٌ، فخرج البيتُ على كماله مثل السّهم المارق من الرّميّة»^(١) فإذا كان هذا النّص لا يكفي للقطع بشاعريّة الرّجل ونقده؛ فإنّ الأقوال السّالفة التي وردت عن بعض أهل العلم فيه، تحدو بنا إلى القطع بعلم الرّجل وتبحّره بعلوم العربيّة وشاعريّته الملموسة في تضاعيف قصيدة الدّامغة التي قال عنها محقّقها ومبرّؤها من علل التّصحيف والتّحريف الواقفُ عند الغريب فيها: «أَلِفَ النَّاطِرِ فِي الْقَصَائِدِ الْمُطَوَّلَاتِ ذَوَاتِ الْمُئِنَّ مِنَ الْأَبْيَاتِ، أَنْ يَرَى ضَعْفًا يَدْبُ فِي أَوْصَالِهَا، وَهَلْهَلَةً فِي قَوَافِيهَا، وَتَكَرُّرًا فِي مَبْنَاهَا وَمَعْنَاهَا، وَضَعْفًا يَتَفَشَّى فِي ثَنَائِهَا تَكَادُ تَقْطَعُ حَرَجًا لَهُ أَنْفَاسُ الشُّعْرَاءِ، كَأَنَّمَا يُصْعَدُونَ فِي السَّمَاءِ إِلَّا مَنْ كَانَتْ لَهُ شِفَاعَةٌ مِنْ طَبْعٍ فُطِرَ عَلَيْهِ، وَغَزَارَةٌ مِنْ قَوَافٍ وَمَعَانٍ رُزِقَهَا، وَقَدْ كَانَ الْهَمْدَانِيُّ فِي مَطَوَّلَتِهِ، ذَاكَ الرَّجُلَ، إِذْ يَحَارُ الْمَرْءُ - وَهُوَ يُسَرِّحُ طَرْفَهُ فِيهَا - فِي قُوَّةِ إِحْكَامِهَا، وَحَسَنِ سَبْكِهَا وَفَخَامَةِ لَفْظِهَا، فَلِلَّهِ أَنْتَ، يَا أَبَا مُحَمَّدٍ!»^(٢).

أمّا ما أَخَذَ عَلَى أَبِي مُحَمَّدٍ الْهَمْدَانِيِّ مِنْ هِنَاتٍ وَهَفَوَاتٍ - وَلِكُلِّ جَوَادٍ كِبْرَةٌ - مِنْ قَبْلِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ فَأَمُورٌ عِدَّةٌ^(٣):

يَأْتِي فِي مَقْدَمِهَا مَا وَقَفَ عَلَيْهِ يَحْيَى بْنُ الْحُسَيْنِ (١٠٩٩هـ) أَشْهَرُ عُلَمَاءِ الزَّيْدِيَّةِ فِي كِتَابِهِ (طَبَقَاتِ الزَّيْدِيَّةِ) مِنْ أَنَّ الْهَمْدَانِيَّ «أَكْثَرَ تَصَانِيفِهِ لَا يَخْلِيهَا مِنَ التَّعَصُّبِ لِقَحْطَانِ عَلَى عَدْنَانَ حَتَّى خَرَجَ إِلَى الْكَذِبِ، وَكَانَ مَشْهُورًا بِالْكَذِبِ فِي الْأَنْسَابِ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِهَا...، وَمِنْ كَذِبِهِ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي بَعْضِ مَصْنُفَاتِهِ فِي فُضَائِلِ قَحْطَانَ، إِنْكَارَهُ دُخُولَ الْحَبِشَةِ الْيَمَنِ وَصَنْعَاءَ، وَقَالَ: الْعَرَبُ أَرْفَعُ شَأْنًا وَأَقْوَى مَكَانًا مِنْ

(١) شرح قصيدة الدّامغة ٥٦٣، مجلّة التّراث العربيّ السّالفة الذّكر الصّفحة ٢٠٣. وفيها ترقيم البيت ٥٦٠ الذي دللنا عليه فيها سلف. دسع: دفع.

(٢) قرأ د. مقبل الأحمدِيّ الدّامغة على د. محمّد شفيق البيطار فخرجت بريئة من العلل، مُعَافَاةً مُقَدَّاةً، على نقيض قراءة القاضي الأكوّع - طيّب الله ثراه - انظر: (الدّامغة) بحث في مجلّة التّراث العربيّ - العدد ٩٥ سنة ٢٠٠٤ - الصّفحة ٢٠٤ وما بعدها.

(٣) سبق إلى مثل هذه النقّادات د. مقبل الأحمديّ في دراسته لشعراء حمير (الدّراسة) ٢٠٦.

أن يدخلهم الحبشة، وإنما دخلوا من ساحل جُدَّة إلى مكَّة»^(١) وقد صارت إلى أحدهم قطعة مخطوطة من الإكليل لما تنشر - إن صحت نسبتها للهمداني - ولم تكن من تدليس الرواة عليه، فيها ما نبّه عليه صاحب الطبقات بعدم دخول الأحباش إلى اليمن، وأنّ القصة من عمل المتحاملين والكارهين المبغضين، يقول الهمداني تحت عنوان فقرّة (ذكر قذفهم اليمن بالروايات والبهتان وإجابتهم بأصحّ الروايات والبرهان): «تزعم النزارية من قبيح الدعوى، وعلى خبيث ما تُكِنُّه لإخوانها من قحطان من العداوة والبغضاء، أنّ الحبشة دخلوا اليمن وملكوه ثمانين سنة، وأنّ الحبشة لم تزل في اليمن حتى وصل سيف بن ذي يزن بثمانئة رجلٍ من فارس، فقتلوا من الحبشة مئة ألف كانوا باليمن، وأنّ وَهْرَز رمى كبير الحبشة عندما نزل من الفيل والفرس، وصار على بغلٍ، فرماه وقتلوا الحبشة عن آخرهم، وتطابقوا هم والفرس»^(٢).

(١) ساق هذا الكلام الشيخ حمد الجاسر في أثناء تقديمه لمطبوع صفة جزيرة العرب: ١٥ نقلاً عن مخطوط كتاب (طبقات الزيدية) الموجودة في دار الكتب المصرية ٢٨، ٦١.

(٢) سقت بهذ الكلام من شعراء حمير (الدراسة) ٢٠٦ الذي نقله صاحبها عن القطعة المخطوطة من الإكليل التي كانت في حوزته وفيها بعد ذلك: «وأنّ موجب كون الفرس في بادية صنعاء - بزعمهم هذا الوجه - وتواردوا جميعاً على هذه الرواية المستحيلة، والحكاية الكاذبة. أمّا الفرس فأرادت أن تتخذ بذلك يداً على أهل اليمن، لا أصل لها؛ وأمّا النزارية فلما يسرهم من قبيح الأحذوثة على أهل اليمن، وقد كذبوا ذلك بقبيح رواياتهم؛ لأنهم لم يُثبتوا ذلك في أيّ وقت كان، أقبل عام الفيل أم بعده؟ لأنّه لا خلاف عند أهل العلم في عام الفيل، وأنّ النبي ﷺ ولد عام الفيل فإن يكن ما يروون من دخول الحبشة اليمن قبل عام الفيل، فقد بطل قولهم؛ لأنهم ذكروا أنّهم لم يزلوا في اليمن حتى وصل سيف بن ذي يزن بثمانئة فارس فقتلت مئة ألف من الحبشة، وحينئذ استقر سيف بصنعاء، وقدم عليه عبد المطلب مهتئلاً له بالطّفر على الحبشة فبشّره سيف برسول الله ﷺ وهو يومئذ ابن بضعة سنين قد مات أبوه وأمه وكفله جدّه عبد المطلب وعمّه أبو طالب.

وكيف يكون ذلك قبل عام الفيل على هذه الصّفة أوطن الحبشة في اليمن وأصحاب الفيل بمكّة؛ فذلك أقوم للعار عليهم، وأشدّ استطاراً لأصحاب الفيل؛ إذا كان لهم في اليمن من قومهم من قد قطن ثمانين سنة أو قربها. وفي الإجماع أنه لم يأت على سيف بن ذي يزن - ومن تقدّم عبد المطلب إليه - رأس الحول حتّى هلك، فهذا مستحيل لا تحقيق له، ولا دليل.

وإن قالوا: إن كان دخول الحبشة في اليمن وأصحاب الفيل بمكّة؛ فذلك أقوم للعار عليهم، وأشدّ استطاراً لأصحاب الفيل؛ إذا كان لهم في اليمن من قومهم من قد قطن ثمانين سنة أو قربها. وفي الإجماع أنه لم يأت على سيف بن ذي يزن - ومن تقدّم عبد المطلب إليه - رأس الحول حتّى هلك، فهذا مستحيل لا تحقيق له، ولا دليل.

وإن قالوا: إن كان دخول الحبشة إلى اليمن بعد عام الفيل فذلك أبطل لقولهم وأدحض لحجّتهم؛ لأنّه لم يكن بعد مولد رسول الله ﷺ للحبشة خبر، ولا يصحّ لهم ذلك ولا أثر، وذلك أنّهم أقاموا باليمن ثمانين سنة، والنبي ﷺ لم يقم بعد موت جدّه إلا

وذكر الهمداني في الموضع ذاته أنّ دخول الفرس إلى اليمن لم يكن لنجدة سيف بن ذي يزن ونصرته على الحبش، وإنما فرّ عددٌ منهم مستجيرين بسيف الحميريّ فقال: «وأما دخول فارس اليمن، فإنّهم خرجوا عن أمر كسرى في طلب بكر بن وائل، فلمّا رأت بكر ذلك رموا بأنفسهم على كسرى فأمنّهم وكتب إلى وهّز يكفّ عن طلبهم، فغضب وهّز ومن معه من أبناء فارس، وألحقوا بسيف بن ذي يزن بصنعاء، فاتّخذهم جنّداً، فغضبت همدان في ذلك، فلمّا كان بعد ذلك بزمان جرى بين قوم من حمير وبين الأبناء مشاجرة، فغضب الأبناء على الانصراف من جوار صنعاء، ورحلوا حتّى صاروا بالبون، وأمّسكهم همدان، وبذلوا لهم مقاضاة لما فعله حمير وسيف بن ذي يزن وإرغاماً منهم لحمير، وتحالفوا على التناصر والتّظاهر، فهم كذلك إلى اليوم»^(١).

ومّا أخذه علامة الجزيرة حمد الجاسر على الهمداني: «تصرّفه في الشّعور وإيراده بروايات مختلفة، ففي شرح الدّامغة أورد أبياتاً لعلّمة تختلف عن إيراده لها في الإكليل... بل صرّح بمثل هذا، فقال عن أرجوزة الرّداعيّ: [ما كان معيياً من جهة الاضطرار، ولا فائدة فيه فقد ثقتّه وأصلحته] ومن

نيّفاً وثلاثين سنة ونزل عليه الوحي، فقد كذب أصحاب هذه الرواية أنفسهم، واكتفينا عن إجابتهم، وإنّما الخبر الصحيح في الحبشة. وسبب خروجهم من بلدهم إلى اليمن على ما روي عن أبي معشر أنّه رواه غيره: أنّ ذا نواس كان على دين اليهوديّة فبلغه أنّ أهل نجران على دين النّصرانيّة، فخرج إليهم، وأمر بأحدود فاحتفرها، وملأها ناراً، وعرض النّاس عليها فمن تابعه على دينه خلّى سبيله، ومن كره ذلك ألقاه في النّار. فخرج قليلٌ من أقبال اليمن يقال له: ذو ثعلبان غاضباً لدينه، مستنصرًا بملوك النّصارى على دين ذي نواس، فصار إلى ملك الحبشة - لم يلحقه أحدٌ من قومه - فحكى لملك الحبشة [فقال]: لست بقاطع معك أمراً إلّا برأي ملك الرّوم؛ وذلك أنّهم على دين واحد، فخرج ذو ثعلبان إلى قيصر وأعلمه، فكتب معه إلى ملك الحبشة لقربه من اليمن: أن جهّز العساكر... إلى البيت الذي تحجّه العرب - إن قدرت على ذلك - وأعلمني. فجّهز مئة ألف رجل.. حتّى نزلوا في ناحية جدّة متوجّهين إلى البيت، فلم يسمع بهم عربيٌّ إلّا خرج لقتالهم إلّا ذو نواس، فإنّ الله رمى حلّقه بدهية يقال لها: الحنّاق، فمات منه، وافترق بعده أمر حمير وقتاً قريباً» انظر: شعراء حمير (الدراسة) ٢٠٧ نقلاً عن الإكليل، المخطوط ٧٥-٧٦.

(١) شعراء حمير (الدراسة) ٢٠٨ نقلاً عن قطعة الإكليل المخطوطة ٧٧. ولكن كيف لنا أن نقبل بأن ثمانمئة رجل من فارس قتلوا مئة ألف فارس حبشي، حتّى لو التقوهم متفرقين، وأن الأحباش لم يقتلوا أحداً من هؤلاء الفرسان الفرس ممّا يدلّ على أن في الخبر غلواً صريحاً وتضخيماً عجيباً.

أسوأ أنواع التّصرّف تغيير أسماء المواضع»^(١) بل كان الأمر أعظم من هذا حينما روى
الهمداني قصيدة ليعلى بن سعد المالكي في الجزء الأوّل من الإكليل، ثمّ روى معظم أبيات القصيدة
بالرواية ذاتها، لكن مع إدخال بعض الاختلافات والتّغييرات الطّفيفة في الجزء الثامن من الإكليل،
حتّى أنّه أضاف أبياتاً لم تكن موجودة في رواية الجزء الأوّل، وحذف أخرى كانت في الرواية نفسها.
وكذا الأمر في روايته بيتاً لعمر بن زيد الغالب في الجزء الأوّل من الإكليل، ورواه في الجزء الثامن
برواية جديدة، ثمّ عاد يرويه في الدّامغة برواية مخالفة للروايتين السّابقتين.

وأخذ عليه الشّيخ محبّ الدّين الخطيب نزعه لقومه وتعصّبه لأهل اليمن ولا سيّما همدان، وفي
هذا يقول: «وأثبتّ نزعات الهمدانيّ همدانيّته ويمينيّته، فهي لونه الثابت الذي كان يحبّ أن يصبغ به
كلّ ما يقع نظره عليه، ومن هنا أتى... وأنا قد راقبت المؤلّف [الهمداني] فرأيتّه يثبت حقائق العلم
على صحتها ما استطاع في كلّ ما لا يمس همدانيّته ويمينيّته؛ فإذا لامس العلم هذا الجانب الحساس
من المؤلّف وجد فيه ضعفاً نرجو الله سبحانه أن يغفر له»^(٢).

وسأقف عند أقوال ما وقف عليه من العلماء - طيّب الله ثراهم - وأناقشها في حدود معرفتي
لشخصيّة الهمدانيّ من خلال ما أنبأنا به مصنّفاته.

فأمّا ما ذكره يحيى بن الحسين من إنكار الهمدانيّ دخول الأحباش الصّقع اليمنيّ، فإنه إمّا أن تكون
مقالة الهمدانيّ صحيحةً وحكاية الأحباش ودخولهم اليمن فريّة من افتراءات النّزاريّة على اليمنيّة
وإمّا أن ما انتهى عن الهمدانيّ من قطعة الإكليل المخطوطة مدسوسٌ عليه، وليس له فيها نصيب؛
لأنّ شهرته التي نالها والمنزلة التي أنزلها عند رؤوس خولان حينما أقام بصعدة، أثارت حسد وبغض
شعراء صعدة، مقرّ الإمام العلويّ الزّيديّ، النّاصر لدين الله أحمد بن يحيى (ت ٣٢٥هـ) وساق

(١) صفة جزيرة العرب: ١٢.

(٢) انظر مبدأ الشّيخ محبّ الدّين الخطيب للجزء العاشر من الإكليل وترجمته للهمدانيّ فيه (الدّار اليمنيّة للنّشر والتّوزيع) التي
نشرت هذه الطبعة عارياً عن اسم المحقّق ٢٠، وعنه في المقدّمة القشبية للشّيخ حمد الجاسر في صفة جزيرة العرب: ١١.

الشيخ محب الدين الخطيب في ذيل ترجمته السالفة للهمداني نقلاً عن الخزرجي قوله: إِنَّ الهمدانيّ «في مدّة إقامته بصعدة هاجى شعراءها، فنسبوا إليه ما أولوه تقصيراً في حق سيّد الخلق ﷺ»^(١).

فإذا كان الأمر بهذا التوجه، فلا غرو أن يقال على لسان الهمدانيّ ما قيل من أمر دخول الأحباش اليمن وإنكاره لذلك.

وأما ما جاء في تفضيله قحطان على عدنان، فعائدٌ إلى هؤلاء الشعراء الصّعديين الذين دسّوا له الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى، وأضافوا إلى قصيدته التي يفخر فيها بقحطان أبياتاً تمس النبي ﷺ، وفي هذه المناسبة يقول الشيخ حمد الجاسر عن تأثير قصيدة الدّامغة في عدنان إذ غلب الهمداني شعراءهم وقهرهم وأثبت فيها محامد قحطان ومكرماته («لا شكّ أن «الدّامغة») هي التي فتحت على الهمداني أبواب الطّعن وسبل الاتهام، ولهذا وصفه الزيدونيون بأنّه كان سبّاباً لأهل البيت، وطعنوا في خلقه ورموه بالكذب»^(٢) ولو صحّ أنّه قال هذا الشّعْر لانفضت عنه قبيلة خولان التي أكرّمته وانتصرت له، وتحوطته برعايتها التي طلبت فيما بعد من الإمام الناصر أن يطلق سراحه، هذا في الرّاجح لدينا؛ لأنّ عصبية اللقحطانيّة – في حقيقة أمرها – لم تكن لتبلغ به هذا المبلغ لولا أنّه من أهل العلم والفضل والأخلاق الحميدة، وهي من الأوصاف التي شهد له بها ثلّة من علمائنا القدامى. وكثيراً ما تنعدم معايير الحقّ والإنصاف عند أصحاب المذاهب والنحل، ولا سيّما أن صاحب الطّبقات الآنف الذّكر من علماء الزيدية^(٣)، وبينه وبين الهمدانيّ بونٌ شاسع ليس بهيّن.

وأما عن إنشاد الهمدانيّ الشّعْر بروايات مختلفة، فلا ريبَ عائِدٌ إلى اتّساع حفظه للشّعْر وروايته له، ولم يكن بمقدوره أن يلاحظ كلّ اختلافٍ يمرُّ به، هذا من ناحية، أمّا من ناحية ثانية، فهو ناقل كغيره مطّلع على سجلّاتٍ وزبرٍ فيها الحابل والنّابل، يضاف إلى ذلك اعتماده على أشعار الشعراء الذين ذكروا أسماء المواضع والأمكنة في أشعارهم، فتعرّفها الهمدانيّ وثبّتها في مجلّده، وهذه هي حال كثيرٍ

(١) انظر: الإكليل ٢٣/١٠.

(٢) صفة جزيرة العرب: ١٥.

(٣) انظر: صفة جزيرة العرب ١٥.

من الجغرافيين الذين وقفوا على أسماء المواضع، وما تثقيفه ما كان مُعَيَّباً من أرجوزة الرادعي وإصلاحه إياه إلّا؛ لأنّه عمله وصنعتُهُ، فهو عارفٌ بعلوم العربيّة، محسنٌ في تصريف القوافي، نحويٌّ حذقٌ بأنحاء اللّغة، والذي يقع نظره على خطأ ما في قصيدة شعر أو وهم، ولا يقف عنده، بل يتقفّه أو يهدّبه؛ حتّى يصير معافى بريئاً من العلل، وما أكثرها في أشعار المتأخّرين وخصوصاً في أرجوزة الرادعيّ التي بلغت المئين من الأبيات، وفيها أشياء كثيرة لا يستحسن تركها، فنّبّه عليها الهمداني وأقال عثرتها وصوّب سبيلها.

أمّا ما أخذه الشّيخ محبّ الدّين الخطيب على الهمدانيّ ونزعتَه لليمانيّة وتعصّبه لقومه وخصوصاً الهمدانيّة، فليس من ملامةٍ عليه في هذه النزعة؛ لأنّه غيّر على أهله وقومه، وهي غيرة الابن على الأهل التي لم تبلغ بصاحبها مبلغ التّطرّف والغلوّ، فلا بدّ أن نتلمّس لصاحبها العذر في هذا التّعصب، ومنّ منّا لا يملك الهوى منه شيئاً لأمرٍ يحبه أو يشغف فيه.

٤ - ضياعُ شعرهم:

يقول ابن خلدون: «واعلم أنّ فنّ الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم، وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم»^(١) ولذلك كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يقول: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه»^(٢) وأفضل، وقد بلغت عناية العرب بالشعر أنّه إذا ما ظهر شاعر في قبيلة ما، وفدت القبائل الأخرى تهنئها بنبوغه وظهوره، وفي هذا يقول ابن رشيقي القيرواني: «وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنّأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمعت النّساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس... وكانوا لا يهنّون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج»^(٣) ويروى من اهتمام العرب بالشعر أنّ ابن عبّاس رضي الله عنه يقول: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في

(١) مقدّمة ابن خلدون ١/ ٧٨٥.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٤، ونحوه في العمدة ١/ ٢٢.

(٣) العمدة ١/ ٨٩.

أشعار العرب؛ فإنَّ الشَّعر ديوانُ العرب، وكان إذا سئل عن شيءٍ من القرآن أنشد فيه شعراً^(١) وروي أيضاً أنَّ عائشة - رضي الله عنها - «كانت... كثيرة الرواية للشَّعر، ويقال: إنَّها كانت تروي جميعَ شعر لبيد^(٢)»، ومَّا يدلُّ أيضاً على اهتمام العرب بالشَّعر ما ذكره ابن قتيبة من أنَّ قبيلة تغلب كانت تُحفظ معلقة شاعرهم عمرو بن كلثوم التغلبي وتروىها لكلِّ أبناء القبيلة مفاخرين بها غيرهم من العرب، وظلُّوا كذلك حتى هجَّاهم أحد شعراء بكر بن وائل حيث يقول:

أَهْلِيْ بَنِي تَغْلِبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ قَصِيْدَةٌ قَالَهَا عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ
يُفَاخِرُونَ بِهَا مُذْ كَانَ أَوَّلُهُمْ يَا لِلرِّجَالِ لِفَخْرٍ غَيْرِ مَسْئُومٍ!^(٣)

هذا من باب أهمية الشَّعر في حياة العرب، أمَّا عن روايته وحفظه فيقول الجاحظ: «وكلُّ شيءٍ للعرب فإنَّما هو بديهة وارتجال، وكأنَّه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجاله فكر ولا استعانة، وإنَّما هو أن يصرفَ وهمَّه إلى الكلام وإلى رجز يومِ الخصام، أو حين يمتَح على رأسٍ بئرٍ أو يحدُّو ببيعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراعٍ أو حربٍ، فما هو إلَّا أن يصرفَ وهمَّه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنبال عليه الألفاظ انشبالاً، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرُسُه أحداً من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلَّفون، وكان الكلام الجيِّد عندهم أظهر وأكثرَ، وهم عليه أقدر، وله أفقر، وكل واحدٍ في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع... وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام مَنْ كان قبله، فلم يحفظوا إلَّا ما علّق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتَّصل بعقولهم من غير تكلفٍ ولا قصد ولا تحفُّظ ولا طلب، وإنَّ شيئاً هذا الذي في أيدينا جزءٌ منه، لبالمقدار الذي لا يعلمه إلَّا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب وهو الله الذي يحيط بما كان والعالمُ بما سيكون»^(٤) يفهم من قالة الجاحظ أنَّ العرب حفظوا للشَّعر

(١) العمدة ١/ ٢٧.

(٢) العمدة ١/ ٢٧.

(٣) الشَّعر والشَّعراء ١/ ٢٣٠، وعنه في رؤى نقدية في دراسات أدبية: ٢٩.

(٤) البيان والتبيين ٣/ ٢٨، ٢٩.

بطبعهم من دون عناءٍ أو تعبٍ، وإنّ الذي انتهى إلينا من محفوظهم مدوناً في صحائفٍ قديمةٍ أشار العلماء إليه، وهو غيظ من فيض، نبّه عليه ابن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) عن يونس بن حبيب: «قال أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ): ما انتهى إليكم ممّا قالت العربُ إلّا أقلُّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثيرٌ»^(١).

وأشار ابن سلام نفسه إلى أنّه: «لا يحاطُ بشعرِ قبيلةٍ واحدةٍ من قبائل العرب، وكذلك فرسانها وساداتها وأيامها»^(٢) وذهب مذهبه في هذه المقالة ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) حينما تحدّث عن كثرة الشعراء في الجاهليّة والإسلام فقال: «والشّعراء المعروفون بالشعر عند عشائرتهم وقبائلهم في الجاهليّة والإسلام أكثر من أن يُحِيطَ بهم محيطٌ أو يقف من وراء عددهم واقفٌ، ولو أنفذ عُمره في التّقصير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسّؤال، ولا أحسبُ أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتّى لم يفتّه من تلك القبيلة شاعر إلّا عرّفه ولا قصيدة إلّا رواها»^(٣) وقد تبين لنا صدق مذهب ابن قتيبة في كلامه السّالف من خلال مطالعة بعض المصادر القديمة لنا بالوقوف على دواوين كثيرة لقبائل عديدة، من ذلك ما ذكره الأمدّي مبثوثاً في كتابه (المؤتلف والمختلف) وروايته شعراً للشّعراء الذين ذكرهم في كتابه، وكثيراً ما يذكر أسماء شعراء جاهليين أو إسلاميين - ثم ينبّه على عدم إيجاده لهم ذكراً أو شعراً فيما بين يديه من الدواوين التي عاد إليها^(٤) ومن أمثلة حفظ العرب للشعر وروايته ما نقله ابن قتيبة بسنده عن سهيل بن محمّد عن الأصمعيّ عن كرّدين بن مسمّع قال: «جاء فتيانٌ إلى أبي صمّصم بعد العشاء، فقال لهم ما جاء بكم يا خبثاء؟ قالوا: جنّناك نتحدّث، فقال: كذبتهم، ولكن قلتم كبر الشّيوخ فتتلّعّبهُ، عسى أن نأخذ عليه سقطة!! فأنشدتهم لمائة شاعر، وقال مرّة أخرى: لثمانين

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٥ / ١.

(٢) طبقات فحول الشعراء ٣ / ١.

(٣) الشعر والشّعراء ٦١، ٦٢ / ١.

(٤) وقف الأمدّي على ستين ديواناً لستين قبيلة، وكذا الأمر عند ابن النّديم الذي عدّ للسّكريّ ثمانية وعشرين ديواناً لثمانٍ وعشرين قبيلة، ومع هذا لم يستوعب دواوين القبائل كافّة انظر: المؤتلف والمختلف وعنه في مصادر الشعر الجاهليّ، الفصل الثّاني (دواوين القبائل) ٥٤٣.

[شاعراً]، كلُّهم اسمه عمرو... قال الأصمعيّ: فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين، فهذا ما حفظه أبو ضمضم - وهو لا شك كثير جَم - ولم يكن بأروى الناس، وما أقرب أن يكون مَنْ لا يعرفه من المُسمَّين بهذا الاسم أكثر ممن عرفه... هذا إلى مَنْ سَقَطَ شعره من شعراء القبائل ولم يحمله إلينا الرواة والنقلة^(١) مع حفظهم لها، والأشعار الكثيرة وروايتهم لها إمّا مشافهة وحفظاً في الصدور، وإمّا مدوّنة في كراريس وكتب، فقد ضاع جُلُّها، ولم يتفلّت من عوادي الدهر إلا ديوان هُذيل، وليست هذه برمتها سوى نيّف وثلاثين شاعراً، وهي أقلّ بكثير مما رواه أبو ضمضم لشعراء كلِّهم عمرو.

ومن أسباب ضياع أشعار العرب قاطبة ما ذهب إليه ابن سلام من أنّ مجيء الإسلام وانتشاره في الأمصار شغل الناس عن رواية الشعر وحفظه وتداوله في الأسواق مقارنة على ما كان عليه قبل الإسلام، فقال: «فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولَهَتْ عن الشعر وروايته، فلمّا كثّر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤوّلوا إلى ديوانٍ مدوّن، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلّ ذلك، وذهب عليهم منه كثير»^(٢).

(١) الشعر والشعراء ١/ ٦٣، ٦٢ وقد سُقت هذه المقالة على طولها؛ لنفاستها وجودتها فيما يخصّ حفظ الناس لأشعار شعرائهم ورواياتهم لها.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥ وعلّق على مذهب ابن سلام هذا، الباحث النعمان عبد المتعال القاضي بقوله: «هذا القول بجانب الصواب، ولم يقتصر على ابن سلام وحده، إنّما تابعه فيه كثير من الدارسين حتّى استحال عصر صدر الإسلام لدى بعضهم إلى عصر ركود أدبيّ» شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: ١٧١.

أقول: إنّ في مقالة ابن سلام حديثاً على فكرة ضياع الشعر عند العرب الذين لم يولوا اهتماماً بالغاً لحفظ أشعارهم وحمايتها من عوامل الاندثار، وهو في مذهبه هذا يصيب قلب الحقيقة؛ لأنّ ما انتهى إلينا من كتب التراث ومُصنّفاتة قد تحدّثت عن دواوين القبائل والشعراء التي تناهبتها أيادي الضياع، وهذا خير دليل يقدّمه ابن سلام على ضياع الشعر الذي وضعه الباحث النعمان عبد المتعال في غير موضعه الصحيح؛ لأنّه استهلّ حديثه بمقالة ابن سلام التي ذهب فيها مذهباً خاطئاً عندما قال: «عصر صدر الإسلام... ركود أدبيّ» وما كان المراد منه هذا، إنّما كان منه أنّ الشعر الذي قالته العرب - لو حفظ ودوّن - لكان أكثر بكثير من الكمّ الذي انتهى إلينا في صدر الإسلام، وهو لا يعني ركود صدر الإسلام البتّة. ثمّ يذهب بعد ذلك ليُسهب في شرح مهمّة الشعر في صدر الإسلام من أنّه وسيلة نافعة تُتخذ للدّود عن الدّين الجديد، وتُسخر من أجل مجموع

وإذا كان انشغال الناس بالفتوح وغزو الأمصار سبباً من أسباب ضياع الشعر، فإنَّ قلة ما وصل إلى الرواة من أشعار بعض فحول الجاهلية أيضاً سبب آخر يذكره ابن سلام فيقول: «ومما يدلُّ على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصحِّحين لطرفة وعبيد، اللذين صحَّ لهما قصائدُ بقدرٍ عشرين، وإن لم يكن لهما غيرُهنَّ، فليس موضعُهما حيث وضعنا من الشهرة والتَّقدِّمة، وإن كان ما يُروى من الغناء لهما، فليس يستحقَّان مكانهما على أفواه الرواة، ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير، غير أنَّ الذي نالهما من ذلك أكثر، وكانا أقدم الفحول، فلعلَّ ذلك لذلك»^(١).

إنَّ في كلام ابن سلام ما يشير إلى ضياع قسم كبير من أشعار الفحول على ما أنزله من مكانة سامقة بين الشعراء، وقدَّما على أقرانهم الذين يعدلونهم في الشعر والمتانة وحسن السبك وغيره من المعايير التَّقدِّية المهمة. ومن دلائل ضياع الشعر ما ذكره ابن سلام أيضاً في طبقاته ناعياً ما كان من

المسلمين، ويكون هذا الشعر بمثابة طاقة نفسية تخدم هذه الجماعة؛ فيصبح بذلك ذا قيمة فاعلة في حياة المسلمين على عكس ما كان عليه في الجاهلية من اتخاذه «أهيةً تتلهى به طبقة معينة من الناس» دون غيرها، ثمَّ يعود مرة أخرى للقول: «إنَّ شغل المسلمين عن الشعر لم يكن إلا نتيجة لمحاولة الإسلام تغيير مفاهيم الشعر ليتفق وتعاليمه ومثله، وأن الشعر عجز عن أن يقدم للناس ما وجدوه في القرآن، فَخَفَّتْ صوته» شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: ١٧٥.

إنَّ في مذهب الباحث هذا أشياء لا بدَّ من التنبيه عليها:

أولاً: عدم توفيقه في استشهاده بمقالة ابن سلام التي تحدَّثت عن ضياع الشعر؛ لأنَّ حديثه عن مهمَّة الشعر شيء، وما عناه ابن سلام في مذهبه شيء مختلف.

ثانياً: لم يكن تقصيد القصائد في الجاهلية ألهيةً محصورةً في فئة دون غيرها. إنَّما لكل قصيدة مناسبة تخصُّها، ودعت إلى قولها، فسجَّل الشاعر في شعره ما نتج عن تلك المناسبة.

ثالثاً: لم أجد من رابطٍ بين انشغال المسلمين عن رواية الشعر وحفظه، ومحاولة الإسلام تغيير مفاهيم الشعر الذي وُظِّف للخدمة الدِّين الجديد والدُّود عنه، وإذا صحَّ مذهب الباحث النِّعمان في جزءٍ منه فلا يصحَّ في كليته؛ لأنَّ أغراض الشعر جميعها التي سادت في صدر الإسلام ولا أقول في [عصر صدر] هي امتداد لما كان سائداً في الجاهلية عدا تهذيب بعض الأغراض مثل الهجاء والغزل والدليل على هذا ما قاله بعض الشعراء المخضرمين الذين لم يُبدِّل الإسلام فيهم كثيراً من أساليبهم وعباراتهم بل ظلَّت طعومُ الجاهلية تحت ألسنتهم يتمززونها في كل مناسبة تدعوهم لقول الشعر. وأما عن خفوت صوت الشعر وعدم وجود النَّاس في الشعر ما وجدوه في القرآن. أقول: إنَّ الذين دخل الإيمان إلى قلوبهم وأسلموا إسلاماً صحيحاً كانوا يدركون أنَّ الله أبدلهم خيراً من الشعر وليس من مقارنة تعقد في هذا الباب، فمن أين سيجدون ما يبحثون عنه في الشر وقد أبدلهم الله القرآن وهو كتابُ بلاغةٍ وفصاحةٍ وتشريعٍ وأخلاقٍ...

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٦/١.

أشعار الفحول التي مُدِحَ فيها النّعمانُ وأهل بيته، وقد تُورثت في أهله حتى صارت كُلُّها أو شيئاً منها إلى بني مروان فقال: «وقد كان عند النّعمان بن المنذر منه ديوانٌ فيه أشعار الفحول، وما مُدِحَ هو وأهل بيته به، صار ذلك إلى بني مروان أو صار منه»^(١). ويمكن أن نعدّ ما سلف من الأسباب العامّة التي أدّت إلى ضياع أشعار العرب بما فيها قبيلة خولان، يضاف إليها أسباب خاصّة تشير إلى فقدان أشعار القبيلة تكمن في بعض النّقولات والإيحاءات الواردة في طيّات المصادر التي ساقَت هذا النّذر اليسير من أشعار خولان، وقد نبّه أصحابها بأنّ ما سيق من أشعار مستلٌّ من كثير، أخذَ منه مؤلّفه بقدر حاجته في مؤلّفه، وترك ما ليس له فيه صالح، وليته لم يفعل لكان وصل إلينا شعرٌ كثيرٌ، وخصوصاً أنّ الهمدانيّ كان الأوحَد في تدوين أشعار القبيلة والمعوّل عليه في نقل أشعارها وجعلها بين أيدي النَّاس.

فمن الأسباب الخاصّة التي أدّت إلى ضياع أشعار خولان ما أقامه اليمن الذي كان ينضوي تحت لواء الحميريّة (نحو ١١٥ ق.م - ٦٢٥ م) من علاقات مع غيره من الأمم المجاورة كالأحباش الذين دخلوا اليمن محتلين، وأُخرجوا منه سنة (٥٧٥ م)، بمساندةٍ من الفرس للحميريين، ودخول الروم اليمن، ومحاولتهم بسط نفوذهم بحملة إيلوس جاليلوس (٢٥ ق.م) التي دامت أشهراً، إلّا أنّها باءت بفشلٍ ذريعٍ سبّقت الإشارة إليه.

هذا الاختلاط باللسان غير العربيّ لزمن طويل، ولا سيّما الفارسيّ، هو مظنةٌ ازورار العلماء عن أشعار خولان، وإعراضهم عن الاحتجاج بعربيّتها، وقلة الاستشهاد بها في تفسير القرآن وغريبه والحديث النبويّ الشريف.

ويمكن تضمين القبائل اليمانية الأخرى في هذا السّبب؛ لأنّه كان عامّاً ويشمل اليمن كلّهُ، وما مذحج وهمدان وخثعم إلّا أجزاءٌ منه بل كانت خولان ملاصقة لحمير ومتداخلة مع عددٍ من

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٥ / ١.

بطونها، حتى إنّ عدداً من البطون الخولانيّة انتسبت إلى حمير؛ لإقامتها معها في صقع واحد، يَصْعُبُ على المرء الفصل بينهما، لما لهما من الاندماج والتّماهي.

ثمّ إنّ في مقالة أبي عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا»^(١) سبباً في عزوف العلماء عن رواية أشعار خولان؛ لأنّ قبيلة خولان تمتدّ على أطرافٍ شاسعة من الصّقع اليمنيّ، وتكون بهذا الامتداد متضمّنةً في أقاصي اليمن، علاوة على انضوائها تحت لواء الحميريّة واحتبائها فيه. ثمّ إنّها من أقدم القبائل الجنوبيّة وأكبرها، التي تعود إلى الألف الأوّل قبل الميلاد^(٢) ما يعني أنّها موجودة بذاتها قبل نشوء دولة حمير العظيمة (١١٥ ق.م) وما كلام أبي عمرو على لسان حمير وأقاصي اليمن إلّا كلامٌ على خولان التي تمتدّ في قدمها إلى أبعد من حمير زمنًا، ولا سيّما أنّ استشهاد ابن سلام بكلام أبي عمرو كان في معرض نفيه وجود شعر لأوائل العرب القدماء - عاد وثمود - يقول: «ولا نجد لأوّليّة العرب المعروفين شعراً، فكيف بعاد وثمود؟... وقال أبو عمرو بن العلاء في ذلك: وما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا...»^(٣) وفي موضع آخر قال: «لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرّجل في حاجته، وإنّما قُصِدَت القصائد وطُوّل الشعر على عهد عبد المطلب، وهاشم بن عبد مناف وذلك يدلّ على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتُبّع»^(٤) فإذا كانت خولان أكثر قِدْماً من حمير وأعمق زمنًا منها، وقد سقطت أشعار الأخيرة، وجُعِلَت في فئة عاد وثمود في القِدْمة، فكيف الحال بأشعار خولان، وهي العائدة إلى الألف الأولى قبل الميلاد؟! وهذا لا يعني عدم وجود حمير قبل هذا التاريخ، وإنّما قُصِدَ بذلك المذهب إلى اعتبار أن حمير ولدت (١١٥ ق.م)، والأشعار التي أشار إليها ابن سلام في طبقاته، التي جُعِلَت في فئة عاد وثمود في القدمة، انبجست عن حمير يوم كانت دولة حكمت اليمن.

(١) طبقات فحول الشعراء ١١/١، المزهر ١/١٧٤.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢/٤٠٠.

(٣) طبقات فحول الشعراء ١١/١.

(٤) طبقات فحول الشعراء ١/٢٦ ونحو ذلك في قول ابن قتيبة: «لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرّجل عند

حدوث الحاجة... الشعر والشعراء ١/١٠٥.

وثمة أمرٌ يمكن أن يكون سبباً مباشراً لضياع أشعار القوم، وهو التزاوج والتداخل بين الخولانيين والأعاجم، ولا سيّما الفرس الذين ارتبطوا بخولان بعلاقة مصاهرة^(١)، وما يمكن أن يولّده هذا التقارب في نفوس العلماء الذين عزفوا عن رواية أشعار القوم وحفظها، بل نفروا منها خشية دخول اللحن والمؤلّد إلى العربية الصّافية، كما نجد في شساعة الصّقع الذي كان موطناً للقبيلة الأمّ ولكثيرٍ من بطونها سبباً من أسباب ضياع أشعار خولان، حيث صعدّة وفيها سجلاتٌ وزُبرٌ قديمة متوارثة من الجاهليّة حوت بين دفتيّها أخبار القوم وأنسابهم وحذفاً من أيّامهم التي بسط القول فيها الهمدانيّ في كتاب الأيام، وأطال فيه الكلام على وقعات أهل اليمن.

وفي بُعد صعدّة وعدم رحيل العلماء إليها ما فوّت على العلماء خيراً كثيراً. يقول الهمدانيّ: «لو كانت صعدّة في القديم من البلدان التي رحل إليها أصحاب الحديث، لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء... وقد سكنت بها عشرين سنة فأطللت على أخبار خولان وأنسابها كما أطللت على بطن راحتي، وقرأتُ بها سجلّ محمد بن أبان الخنفريّ المتوارث من الجاهلية»^(٢).

أما عن الأدلة التي أمكن تلمّس هواها في ضياع أشعار خولان ما وقفنا عليه في كلام الهمدانيّ، ذلك في أثناء وصفه بعض شعراء القبيلة بأنهم سادة أشراف وشعراء مقدّمون في قومهم، مثل نعتة لسعد بن الليث المالكيّ الذي قال عنه: «كان من سادة بني مالك وأشرافها وشعرائها»^(٣) فكيف يكون من شعراء القوم المعدودين؟ ولم نعر له إلا على خمسة أبيات فقط جاءت في مقطّعةٍ وبيتٍ يتيّم قالها في رجلٍ يُوبّخه ويُقرّعه على ما اقترفته يده من سوء الفعل. ومن الشعراء السادة الأشراف أيضاً عمرو ابن يزيد العوفيّ الذي نعتة الهمدانيّ بأنّه «كان فارس العرب، وحمّة البلد، وسيّد بني عوف، ولسان خولان»^(٤) كلّها، أي شاعرها الأوّل الذي قال عنه أحمد محمد الشامي^(*)، وعن صورته

(١) انظر: مبحث علاقات المصاهرة في هذه الدّراسة.

(٢) الإكليل: «المخطوط ١/ ٦٠، المطبوع ١/ ٢٥٧».

(٣) الإكليل: «المخطوط ١/ ٨٥، المطبوع ١/ ٣٦٤».

(٤) الإكليل: «المخطوط ١/ ٨٧، المطبوع ١/ ٣٧٠».

(*) هو أحد أعلام الأدب والثقافة في اليمن.

الشعرية بأننا «لا نستطيع أن نتجاهل مدى أثرها في حياة الشعب اليمني بما خلفته من حقائق وأساطير تشبه إلى حد بعيد أساطير عنزة وعمرو بن معدي كرب ومن في طبقتهم من الشعراء الفرسان»^(١) أقول: لا بد لمن يجعل في طبقة عنزة وعمرو الزبيدي وطبقة الشعراء الفرسان أن يكون عنده مجموع شعري كبير يميظ اللثام عن فروسيته وشجاعته، ويصور بطولاته في الوقعات والمعارك إذ لم يصل إلينا من شعر عمرو العوفي - وهو على ما وصفه به الهمداني - سوى سبعة وعشرين ومئة بيت، واحد منها عدت عوادي الدهر على نصفه، فأبقت لنا الآخر، وهو مجموع قليل مقارنة مع أشعار من هو في طبقتهم، مما يدل على ضياع قسم كبير من أشعاره التي لم يصلنا منها إلا حذف يسير.

ومن الشعراء أيضاً عمرو بن يزيد السعدي الذي وصفه الهمداني، بقوله «كان شجاعاً فارساً جواداً، شاعراً»^(٢) وهل يمكن للهمداني أن يقول عنه (شاعراً) ولم نعثر له إلا على ثمانية عشر بيتاً جاءت في قصيدة ومقطعتين ومنتفة، دارت معظم ألفاظها في موضوع شعري واحد هو الحرب والبطولة، في حين بسط الهمداني القول في شجاعته وفروسيته وعزف عن نعت شعره خلا موضعاً واحداً ذكر فيه شجاعة الأبيات وندرته في شعر الفروسيّة عند العرب قاطبة^(٣).

ومن الأدلة أيضاً كثرة ما اجتمع لدينا في هذا المجموع الشعري لخولان من مقطعات ومنتف وأبيات يتيمة، هي في الغالب مطالع لقصائد لم نجد لها أثراً في المصادر والمطآن، مثل ذلك ما وقف عليه في بيت يتيم لصاعد بن مسلم الشهابي، لم نقع له على غيره، قاله وهو يذكر مخالفة بني شهاب لبني خولان:

أَخَذْنَا بِحَبْلِ الْقَيْلِ حُجْرٍ فَلَمْ نَزَلْ إِلَى غَايَةِ الْأَيَّامِ نَنْفِي الْأَعَادِيَا^(٤)

ومنها ذلك أيضاً بيت لمجهول أموي قاله بمحمد بن كثير الخولاني:

(١) قصة الأدب في اليمن: ٢٤٩.

(٢) الإكليل: «المخطوط ٩٨/١، المطبوع ٤٠٢/١».

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ٩٨/١، المطبوع ٤٠٢/١».

(٤) انظر: الديوان: ق ٢٧ / ب ١.

مَا زَالَ مِنَّا بِأَبْوَابِ الْمُلُوكِ فَتًى يُعْطَى الرِّغَائِبَ وَالْأَمْوَالَ وَالْحُلَلَا^(١)

ومنها نطفة لعمر بن زيد الغالبى يمزج فيها الفخر والرثاء حينما استهلّ كلامه بالفخر بملك آبائه
في مأرب، ثم يرثي هذا الملك في البيت الثانى ويتأسى على ضياعه:

أَبُونَا الَّذِي أَهْمَى السَّرُوحَ بِمَأْرِبٍ وَابْتُ إِلَى صِرْوَاخَ يَوْمًا نَوَافِلُهُ
لِسَعْدِ بْنِ خَوْلَانَ رَسَا الْمُلْكُ وَاسْتَوَى ثَمَانِينَ حَوْلًا نَمَّ رَجَّتْ زَلَّازِلُهُ^(٢)

وهذه التتفة بلا شك هي بقية قصيدة رثى فيها الشاعر مجد آبائه المؤثّل الذي عمّر ثمانين حولاً، فكيف
يختصر الشاعر ملكاً دام طويلاً من الزمن في بيت أو في بيتين؟ وغيره يطول ذكره من التتف والأيّات النّادة.
ومنها أيضاً ما نجده في المقطّعات التي فيها ما يدلّ على أشياء أو صفات أو أشخاص ذكرها
الشّعراء في أبيات سابقة لم تُوفّق للوقوف عليها، وهي كثيرة، وقد اجتزئت من قصائد طويلة بحسب
ما يتحوجه المجتزئ في أثناء عرضه للفكرة التي يسوق الشعر للتدليل عليها ببيتين أو ثلاثة أبيات
دون البقية التي ضاعت. من ذلك قول عمرو بن يزيد العوفى في مقطّعة له حينما شهد حرب الأشباء
والصدف وحضر موت مع سيف بن ذي يزن الحميرى:

مَا قُلْتُ إِلَّا الْحَقَّ قَوْلًا فَاغْلَمِي أَبْدِي بِذَاكَ بَرَاهِنًا وَشُهُودًا^(٣)

فالياء عائدة على أنثى مخاطبة ليس لها ذكر في المقطّعة، بل ذكرت في أبيات سابقة، اجتزئت هذه
المقطّعة منها.

ومن ذلك أيضاً ما نجده في مقطّعة لعوفى الخولاني يذكر فيها ضمير جمع المؤنث الغائب يقول:

فَهْنَنَّا دُونَ الْبَنَيْنِ وَرَائَهُ وَمَا كَانَ فِيهِمْ لِلْهُمَامِ مُحَالِفُ^(٤)

(١) انظر: الديوان: ق ١٠٢ / ب ١.

(٢) انظر: الديوان: ق ٨٤ / ب ١-٢.

(٣) انظر: الديوان: ق ٣٩ / ب ٤.

(٤) انظر: الديوان: ق ٩ / ب ٢.

وهي بلا شك راجعة على مجموع إناث غائبات ليس هنّ وجود في هذه المقطعة بل في أبيات سابقة عليها، ضاعت ولم تصل إلينا، ودلّ عليها الضمير.

ومثل هذا ما نجده في قصيدة لعمر بن زيد الغالبي التي يستهلّها بالفاء الاستئنافية:

فَلَا تَفْخَرْ بِقَوْمٍ لَسْتَ مِنْهُمْ وَجَدُّكَ فِي مَحَلٍّ بَنِي كَلْعِدٍ^(١)

وما هي إلا دلالة على أبيات سابقة اجتزئت أبيات هذه القصيدة منها، وذلك بدليل الفاء التي تستأنف الكلام على آخر سابق لها.

وثمة ضرب آخر من ضروب ضياع أشعار خولان، يكمن فيما نجده لهم من إيماءات وإشارات صرّح بها الهمداني في أثناء سوقه أخبار القوم وأشعارهم تدلّ دلالة دامغة على أن لهذه الأبيات أو القصيدة بقيّة لم يأت بها راويها من مثل قوله: «في شعر له طويل»^(٢)، أو في «قصيدة له طويلة...»^(٣) أو في «الشعر طول فحذفناه»^(٤) و«قال في قصيدة امتدحه بها منها»^(٥) وجاء أيضاً في كلام الهمداني وهو يذكر خبر حكيم العلاف وكيف أجاره عمرو العوفي من أهله وذويه «فذلك ممّا جرى في أمر حكيم بعد أن كادوا يتفانون فيه، وخبره يطول فحذفنا أكثره»^(٦). ويصرّح الهمداني حين ذكر بعض وقعات خولان مع بعض قبائل قضاة بأنّه مختصرٌ للشعر حسب حاجته؛ لتوضيح ما يذهب إليه دون أن يقف على جميعه. «وقد نبّهنا على كل وقعةٍ منها بيتين وبثلاثة... لئلا يطول الكتاب؛ لأنّ شأننا الاختصار، وقد جمع ذلك الحسن في كتابه المؤلّف في مفاخر اليمن ووقائعها»^(٧).

(١) انظر: الديوان: ق ٨١، ب ١.

(٢) شرح الدّامغة ١٧٩، ١٨١، ١٩٠، ١٩٨-١٩٩.

(٣) شرح الدّامغة ١٨٧.

(٤) شرح الدّامغة ١٨٨.

(٥) الإكليل: «المخطوط ١/ ١٢٢، المطبوع ١/ ٤٦٣» وفيه تصحيف، فوهم المحقّق فقرأ منها بها.

(٦) شرح الدّامغة: ١٩٩.

(٧) شرح الدّامغة: ١٨٤.

ومّا يدلّ على ضياع أشعار خولان ما نجده في كلام الهمداني عن اجتزائه النّثف من أشعار القوم التي أودعها كتاب الأيام الذي جعله في أيّام اليماينة فقال: «هذه نثف ذكرناها من أشعارهم التي جرت في قتل عمارة [بن مرداس السّلمي] ولم يمكننا أن نذكر أقلّ ممّا ذكرنا إذ كان الأمر يعظم في أيّامهم، فإذا أردت أن تنظر ذلك على كماله، فانظر في كتاب الحسن بن أحمد المؤلّف في هذه الأيام»^(١).

وأخيراً يمكن القول: إنّ طالع خولان لم يكن مثل طالع أخواتها القبائل العربيّة، فينجو من شعرها ما نجا من شعرهم من صوارف الدّهر وغوائل الأيام التي أبت إلا أن تتقلّد هاتيك الأشعار عقداً نفيساً وتتقرّط أبياتها قرطاً ثميناً، فضاع جُلّها وما انتهى إلينا إنّما هو قليل لا يكاد يساوي ما قاله فحل واحد من فحول الجاهليّة المشهورين، وهو أمر يُورث في القلب حسرة لا تنجلي إلا بانكشاف مخطوط خبيءٍ يحوي أشعار القوم أو كثيراً منها. ولا أدلّ على صدق ما ذهبنا إليه من أن قصيدة واحدة لابن الجهمّور الشّهابيّ الخولانيّ العباسيّ انتهت إلينا في خمسة وثلاثين ومئة بيتٍ، قالها في تحريضه على الأبناء واستباحتهم ابن يعفر، وما الشّهابيّون حين انطوائهم تحت لواء خولان سوى بَطَيْنٍ، ومثل هذا ما نجده أيضاً في أرجوزة الحجّ لأحمد بن عيسى الرّداعيّ - حوالى النّصف الأوّل من القرن الثالث الهجريّ^(٢) - التي انتهت إلينا في خمسة وثلاثين وستمئة بيتٍ وهي أكثر من الدّيوان المجموع لخولان كلّها، وأين هذان الشاعران، قريبا العهد من أهل الصنعة والطّبع من شعراء خولان في الجاهليّة وصدر الإسلام والعصر الأمويّ!! اللذان لو انتهت إلينا أشعارهما تامّةً لوصلنا خيرٌ كثيرٌ.

(١) شرح الدّامغة: ١٩٤.

(٢) انظر: خولان الأرض والقبيلة: ٤٥، وانظر بحثاً موثقاً للدكتور محمد بن عبد الرّحمن راشد الثنيان - بعنوان نقوش إسلاميّة مؤرّخة من طريق الحجّ اليمنيّ الأعلى (محافظة بيشة - المملكة العربيّة السعوديّة) على الشّابكة تحدث فيه على ما يخصّ هذه الطّريق مستعيناً بأرجوزة الحجّ للرّداعيّ.

ثانياً - توثيق شعرهم:

١ - الاضطراب في نسبة الشعر:

تعدُّ مشكلة الاضطراب في نسبة الشعر وتقييد هذا النسبة من المشكلات التي تعتاص على الباحث في دراسته، وهي مشكلة قديمة قدم اهتمام العلماء بتطلاب الشعر وتدوينه من أفواه الرّواة، ولا يكاد يخلو منها مُصنّفٌ له أدنى صلة بالشعر من اختلال نسبة أبياتٍ أو مقطّعةٍ أو قصيدةٍ إلى غير واحد من الشعراء، وقلَّ أن يحدث هذا في المطوّلات، ولعلَّ مرَدَّ ذلك إلى قلّتها مقارنة بما وصل إلينا من شعر، واشتهارها وتطايير أخبارها على ألسنة العلماء على عكس المقطّعات أو الأبيات اليتيمة، ولا سيّما العالية منها التي ينسبها كلّ واحدٍ منهم لشاعرٍ ما دون غيره؛ لغاية أرادها هو نفسه، مثل تفضيله على أقرانه، أو إعلاء شأن قبيلته التي ينتسب إليها، أو اختلاط الأمور على العالم النّاقل للخبر أو المُدوّن للشعر كالتشابه في أسماء الشعراء وأنسابهم، ولا سيّما الذين ينتمون إلى أرومة واحدة، والتّشابه في موضوعات الشعر، أو أوزان القصائد وقوافيها، أو الوهم والاختلال وقلّة التّثبت^(١) وغير ذلك من الأسباب التي تقف وراء هذه الظّاهرة التي لم يُوقف - فيما أعلم - على مؤلّفٍ واحدٍ من أهل السّلف تحدّث في هذا الباب منفرداً، بل غالباً ما يكون كلام أحدهم عَرَضاً دون القصد إليه وفقاً لما يقتضيه الشعر، وكذا الحال عند المحدثين، ولا سيّما الذين عُنوا بجمع أشعار القبائل ودراستها في الوقوف عند صحيح النسبة ومضطربه الذي يأتي في كثيرٍ من الأحيان من وهم الرّواة وتحليطهم في نسبة هذا وذاك للأسباب التي أشرت إلى بعضٍ منها.

وفيما يخصُّ مشكلة الاضطراب في شعر خولان، فتكاد تكون معدومة؛ لأسباب سنأتي على ذكرها، وأمّا ما وقّف عليه من هذه المشكلة في أشعار القوم، ما تعلق بأسماء الشعراء، وأنسابهم، وما اعترأها من علل التّصحيف والتّحريف، والخلط والوهم في سوق النّسب وإلحاقه بالجدِّ الأكبر

(١) انظر: ما كتبه أساتذتنا في العجّاج حياته ورجزه: ١٥٥، ديوان أميّة بن أبي الصّلت: ١٣٩، وشعراء تغلب ١/ ٢٨٣، وديوان حميد بن ثور الهلالي: ٨٨، وديوان شعراء بني كلب بن وبرة ٢٣٢، وشعراء حير (الدّراسة) ٢٢٠، وما بعد هذه الصّفحات جميعها.

للقبيلة، فعُولج في موضعه في تراجم الشعراء وسوق نسبهم وتصحيحه إلى الأرومة الأصلية، وإن كان هذا الأمر قليلاً لا يتعدى شاعرين في الديوان المجموع.

وأما ما أصاب الشعر من تصحيف أو تحريف أو اختلاف في الرواية أو نقص حمل على اضطراب الوزن ونفوره، واختلال مُستقيمه، فقد أُشير إليه في محلّته من التعليق على الأبيات في حواشي الديوان التي طالت وعلى نحو غير منتهب فيه، وأما ما اختلطت نسبته بين شعراء خولان أنفسهم وبينهم وبين غيرهم من شعراء القبائل، فمعدوم لحزمة من الأسباب خلا الشطر الأول الذي وقف عليه في بائية لعمر بن يزيد العوفيّ نبّه فيها على صلات القربى التي تصل بني عوف ببني مالك بن زيد بن أسامة الخولانيّ، وما يمكن أن تفعله الفرقة في أبناء العمومة من شردمة وهوانٍ وذُلٍّ أمام القبائل العربيّة الأخرى. يقول فيها:

يَمِينٌ بِرَّ بِاللّهِ مُجْتَهِدٌ يُعْرِفُ مِنْهُ الْوَفَاءُ لَا الْكَذِبُ^(١)

نُسب الشطر الأول فقط من البيت السالف لدرهم بن يزيد بن ضبيعة الأوسيّ في الأغاني من قصيدة قالها مُحذراً مالك بن العجلان الخزرجيّ من قتل أخيه سُمير الأوسيّ بسبب ملاحاة دارت بينهما لتفضيل الخزرجيّ على أهل يثرب قاطبة، وإقدام سمير بعد ذلك على قتل كعب الثعلبيّ وهو حليف مالك بن العجلان الخزرجيّ.

إنّ نبرة التحذير واللوم حاضرة في تضاعيف النصين اللذين نُسجا على موسيقا البحر المنسرح، الذي تسهل معه معاني الألفاظ والتراكيب التي أراها في الموضعين قسماً كانت العرب تستخدمه لتقسم به لأجلٍ مُعظّم عندما تريد التنبيه على علوّ شأوه وعظم قدره، وهل أعظم من قتل النفس إلا الفرقة والارتحال لقتل نفسٍ؟^(٢)

(١) انظر المقطعة (٣٤) من الديوان.

(٢) انظر: الأغاني ١٨/٣.

وفي موضع آخر وَقَفَ عليه في قصيدة لعمر بن حجر المالكي، عينية يلوم فيها نفسه ويوبّخها على مشاركتها في وضع الفعل ودينه في فرقة أبناء العمومة بني مالك وبني عوف، ودخول الأخيرة بدار عنز بن وائل يقول:

هُمَا أَخَوَانِ كَعَظْمِ الْيَمِينِ وَفَرَعَا أُسَامَةَ إِذْ يُفْرَعُ^(١)

إِذْ نُسِبَ الشَّطْرُ الْأَوَّلُ لِأَبِي طَالِبٍ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ فِي سِيرَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي قَصِيدَةٍ بَائِيَةٍ يَذْكُرُ فِيهَا صَحِيفَةَ قَرِيشٍ وَظَهَارَهُمْ لِبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، حَتَّى أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ بِأَمْرِ الصَّحِيفَةِ، حَتَّى تَبَرَّأَ مِنْهَا الْمَطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ بْنِ نُوْفَلٍ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ، وَهَشَامُ بْنُ عَمْرِوٍّ وَأَخُو عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ حَارِثَةَ. وَمَا يَبْدُو مِنْ هَذَا التَّرْكِيبِ السَّالِفِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَقَارَضُهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْإِلْتِمَامِ وَالْمُؤَاخَاةِ^(٢).

أَمَّا عَنْ أَسْبَابِ انْعِدَامِ الاضطرابِ فِي أَشْعَارِ الْقَوْمِ، فَعَائِدٌ فِي الرَّاجِحِ إِلَى قِلَّةِ مَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ شِعْرِهِمْ، وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ مَتَفَشِّئَةً فِي أَشْعَارِ خَوْلَانَ فَشَوَّهَا فِي أَشْعَارِ الْقَبَائِلِ الْأُخْرَى لَوْ لَمْ يَحْتَجِبْ عَنَّا كَثِيرٌ مِنْ أَشْعَارِهَا، يُضَافُ إِلَى هَذَا تَفَرُّدُ الْهَمْدَانِيِّ بِرَوَايَةِ أَشْعَارِ الْقَوْمِ، إِذْ كَانَ عَلَيْهِ الْمَعُولُ فِي حِفْظِ أَشْعَارِهِمْ وَتَدْوِينِهَا فِي مَصْنَفَاتِهِ الَّتِي تَغَوَّلَتْهَا غَوَائِلُ الْأَيَّامِ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنْهَا إِلَّا قَلِيلٌ يَفْصَحُ عَنْ قَبِيلَةِ عَظِيمَةِ الشَّانِ وَالْمَكَانَةِ فِي قِضَاعَةِ جَمِيعِهَا.

وإنَّ أَقْرَبَ الْأَسْبَابِ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ وَأَكْثَرُهَا مَلَامَسَةً مَا ذَكَرَهُ الْهَمْدَانِيُّ مُسْتَهْلًا بِهِ نَسَبَ خَوْلَانَ فِي قَوْلِهِ: «لَوْ كَانَتْ صَعْدَةُ فِي الْقَدِيمِ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي رَحَلَ إِلَيْهَا أَصْحَابُ الْحَدِيثِ لَانْتَشَرَتْ أَخْبَارُهَا كَمَا انْتَشَرَتْ أَخْبَارُ صَنْعَاءَ... وَقَدْ سَكُنْتُ بِهَا عَشْرِينَ سَنَةً، فَأُطْلِلْتُ عَلَى أَخْبَارِ خَوْلَانَ وَأَنْسَابِهَا وَرَجَالِهَا كَمَا أُطْلِلْتُ عَلَى بَطْنِ رَاحَتِي، وَقَرَأْتُ بِهَا سَجَلَ مُحَمَّدِ بْنِ أَبَانَ الْخَنْفَرِيِّ الْمُتَوَارِثِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، فَمِنْ أَخْبَارِهِمْ مَا دَخَلَ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَمِنْهَا مَا دَخَلَ فِي كِتَابِ الْأَيَّامِ»^(٣).

(١) انظر المقطعة (٦٠) من الديوان.

(٢) انظر: سيرة ابن إسحاق ١٤٤.

(٣) الإكليل: «المخطوط ٦٠/١، المطبوع ٢٧٥».

لقد كان في احتجاب العلماء عن صعدة وعزلهم لها وعدم رحيلهم إليها لتلقف أخبارها وأشعارها التي احتوت على أشعار القوم وأخبارهم من خلال السجلات والأسفار التي أخذ عنها الهمداني سبباً مهمّاً لعدم اضطراب الشعر وخصوصاً أنّ الهمداني نصّ على إثباته أشعاراً غايته من إثباتها -علاوة على تحوّجه إليها في بناء تصانيفه- قلّتها بأيدي علماء الشام والعراق وذلك في أثناء سوقه رأس مرثية لشاعر حميريّ يدعى علقمة ذي جدن الحميريّ:

لِكُلِّ جَنْبٍ، اجْتَنَى، مُضْطَجِعٍ وَالْمَوْتُ لَا يَنْفَعُ مِنْهُ الْجَزَعُ

فقال بعد هذا: «وقد كتبنا ما أدركنا من شعره في كتابنا هذا؛ لأنّه معدوم بالعراق والشام، قليل في أيدي العلماء»^(١).

وما ينطبق على هذا الحميريّ، ينطبق على أشعار خولان؛ لأنّ أشعارهم معدومة بأيدي علماء العراق والشام، فكيف لهؤلاء العلماء أن يضطرب شعر خولان بأيديهم وهم لا يعرفونه ولم يصل إليهم منه شيء؟

وربما يقول قائل: لو كان شعر خولان من الأشعار العالية الرّصينة المهمّة لانتشر في الآفاق وسار في المصنّفات والتأليف القديمة سيرورة أشعار القبائل الأخرى المشهورة، وجرى عليه ما جرى على غيره من الاستشهاد به، وغير ذلك. أقول:

إنّ مثل هذا الكلام عُرضةٌ للردّ من غير جانبٍ واحدٍ:

أولاً: إنّ في اجتزاء العلماء لبعض أنساب القبائل وعدم سوقهم نسبها كاملاً وأخصّ بالقول (خولان) كما سيقّت أنساب القبائل الأخرى، دليلاً دامغاً على عدم معرفة هؤلاء العلماء لها. إنك القبائل وأشعارها، أو إهمالهم لها إهمالاً كبيراً، ولا سيما التي قطنت الصّقع اليمانيّ منها^(٢)، إذ نجد همّ

(١) الإكليل ٢/ ٢٧١، ٢٧٠.

(٢) انظر بحث نسب القبيلة.

العلماء قد انصرف إلى جمع وتتبع أنساب القبائل التي سكنت بطن الجزيرة العربيّة وأطراف الشّام والعراق، ربما لأنّها كانت محوراً للحالة السياسيّة والاقتصاديّة السّائدة.

ثانياً: إنّ عدم اشتها ر قبيلة ما ومعرفتها من قبل العلماء والرّواة وخاصةً إذا ما كانت بعيدة عن مراكز تطلاب الرّواة للشّعرا^(١)، ليس سبباً في عدم جودة أشعارها وعلوّها، خصوصاً إذا كان فيها من الشّعرا ما يضاهي أشعار الفرسان من مثل عنتره، وخفاف بن ندبة، ودريد بن الصّمة، وعبّاس بن مرداس. ففي خولان شعراء يماثلون هؤلاء شعراً وفروسيّة وسيرة^(٢).

ثالثاً: إنّ في قالة الأصمعي ومذهبه ما يؤكّد لنا صدق الهمدانيّ [في عدم رحيل العلماء إلى صعدة وانتشارها كما انتشرت أخبار صنعاء] قال: «سُئل شيخ عالم: من الشعراء؟ فقال: كان الشّعرا في الجاهليّة في ربيعة، وصار في قيس، ثم جاء الإسلام فصار في تميم، قلت للأصمعي: لم لم يذكر اليمن؟ فقال: إنّما أراد بني نزار، فأما هؤلاء كلّهم فإنّما تعلّموا من رأس الشعراء: امرئ القيس، وإنّما كان الشّعرا في اليمن»^(٣) فإذا كانت أوليّة الشّعرا لأهل اليمن فكيف سيكون غير رصين ولا متين؟ وهم من هم من العرب في قول الشّعرا وحفظه والعناية به.

وعلى الرّغم من قدّم خولان، وقوّتها، وضخامتها التي ذكرتها بعض الكتابات العربيّة الجنوبيّة، ومشاركتها في توجيه دفّة السّياسة في اليمن، ودورها الفعّال في أيّام الأبناء، الذي أقصّ مضجع خصومها وأعدائها، يُضاف إلى هذا علاقاتها الواسعة مع الأقوام المجاورة ودولة الإسلام النّاشئة ومن بعدها دولة بني أميّة فلم يكن لها حظّ أخواتها القبائل العربيّة من الشّهرة وذيوعة الصّيت، والانتشار لولا بعض بطونها وأرهاطها التي خرجت مع الخارجين في أثناء حركة الفتوح إلى الشّام ومصر وهم قلة ليسوا ذوي بال مقارنة مع أرومة القبيلة الأمّ في الصّقع اليمنيّ لما انتشرت بعض أخبارها بعد الإسلام في أثناء تطوّر حركة التّأليف والتّدوين في بداية دولة بني العبّاس.

(١) انظر: ما كتبه د. عبد الحفيظ السّطلي عن مصادر سماع الأصمعيّ في العجّاج: حياته ورجزه ١١٣.

(٢) انظر: ترجمة عمرو بن يزيد العوفيّ وعمرو بن يزيد السعديّ وعمرو الغالبيّ في الدّيوان كلّ في موضعه.

(٣) فحولة الشعراء للأصمعيّ ٤٨.

٢ - النَّحْلُ فِي شِعْرِهِمْ:

تعدُّ قضية نحل الشعر وصنعه من أكثر القضايا النقديّة أهميّةً - بل انتشاراً في المُصنّفات الشعريّة القديمة والتّأليف النقديّة - التي تنبّه إليها العلماء القدامى والمحدثين، وأدّلوا فيها بدلوهم، وقالوا فيها مقالاتهم^(١). من ذلك ما رُوِيَ عن الأصمعيّ وابن الأعرابيّ في دفعهما أوّلَيْه بيت لعنتر بن شداد وتشكيكهم في صحّة نسبته التي نقلها أبو الفرج الأصفهانيّ بقوله: «هل غادر الشعراء من متردّم، يدفع أكثر الرواة أن يكون لعنتر، ومَن يدفعه الأصمعيّ وابن الأعرابيّ، وأوّل القصيدة عندهما «يا دار عبلة»»^(٢) ومن ذلك أيضاً مقالة الأصمعيّ التي نقلها الإمام السيوطيّ (٩١١هـ) «أقمت بالمدينة زماناً ما رأيتُ بها قصيدةً واحدةً صحيحةً إلّا مُصَحَّفةً أو مصنوعةً»^(٣) ومقالته في شعر المهلهل بن ربيعة التّغلبيّ «وأكثر شعره محمولٌ عليه»^(٤) وكذا في كلمته عن شعر امرئ القيس «يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه»^(٥) ومن العلماء القدامى الذين وقفوا على هذه القضية ابن سلام في غير ما موضعٍ من طبقاته، إذ يقول منبّهاً في أحدها على هذه البليّة الكبيرة التي ابتلي بها شعرنا القديم «وفي الشعر مصنوعٌ مفتعلٌ موضوعٌ كثيرٌ لا خير فيه... وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البداية، ولم يعرضوه على العلماء»^(٦) كالذي كان يُعرّض على ابن إسحاق فيقبله على حاله، دون تمحيصه أو تنقيته من آفاته وعلله على معرفته بالسّير والمغازي والأخبار التي أمسك بناصيتها، وكانت لبنة أساسيّة في مصنّفاتهِ^(٧).

(١) انظر: الحيوان ٢/٢٤٦، ٣/٤٩، ٤/٢٤٨، العمدة ١/٢٨٥، ذيل سمط اللالي ٦٩، السيرة النبويّة ١/٦١، ٥٩، ٦٥، ١٨٢،

١٨٦، ١٨٥، مصادر الشعر الجاهليّ ٣٢١، ٣٣٧، نمط صعب ونمط خفيف ٣٥٦ وما بعدها. وفيها عقد الشّخ محمود شاكر

حديثاً عالياً في القضية، العصر الجاهليّ ١٦٤، حديث الأربعاء ١٦٤، شعراء حمير (الدّراسة) ٢٣٥، شعراء بني كلب بن وبرة

(الدّراسة) ٢٦٤، شعراء تغلب (الدّراسة) ٢٩٢، شعراء عبد القيس في العصر الجاهليّ ١٣٧.

(٢) الأغاني (طبعة صادر) ٩/١٦٤.

(٣) المزهر ٢/٤١٣.

(٤) فحولة الشعراء ٤٠، الموشح ٩٠.

(٥) فحولة الشعراء ٣٦، الموشح ٣١.

(٦) طبقات فحول الشعراء ١/٤ ونحو هذا في الصّفحات ٥، ٨، ٢٦، ٤٦، ٢٤٧، ٢/٧٣٩.

(٧) انظر: طبقات فحول الشعراء ١/٨.

وقبل الولوج إلى مشكلة النَّحْلِ في أشعار خولان يحسن بنا التنبية على أمرٍ مهمٍّ يكمن في عدم وقوف الباحث - بعد إطالة البحث - على مقالةٍ لأحد أهل السلف المتقدمين، أو العلماء المتأخرين تُثَبِّتُ أو تشير في عبارة سريعة أو تُلَمِّع إلى 'نحلٍ شيءٍ مما انتهى إلينا من أشعار خولان، كما لم أصب قولاً واحداً للهمداني نفسه نصّ فيه على أن هذه القصيدة مصنوعة أو منحولة أو هذا البيت من وضع واضحٍ عارفٍ بخفايا الشعر وغريب لفظه وحسن صناعته وثقافته، أو تلك المقطعة التي زينتها الأخبار وتناقلت ألفاظها بالقصّ والأحداث التاريخية فجفّ ماؤها وجمدت قوافيها في بعض أبياتها، حتى' بدت باردة لا حياة فيها، تعبّر عن موات صاحبها وجفاف خيلته، واندثار شاعريته.

لكن هناك مواضع وقفت عليها وأنعمت النظر فيها غير مرة، فوجدت أن نحلاً قد أصابها، ليس من جهة اليقين؛ إنّما من جهة الاتهام والشكّ فيها فقط، دون القطع بصنّعها، وسأحاول أن أجد ما يدفع هذا الاتهام عنها من أدلة وبراهين قد تكون مقنعة ومزيلةً لتلك الشبهات.

أول المواضع التي يمكن أن يثار حولها الشكّ، هو بيت علقمة الخولاني من دليته اليتيمة التي يذكر فيها الدّهاميّ التي يسلكها من بلده صعدة، ثمّ إلى صنعاء في وسط بلد همدان طالباً العون والمدد من سيف بن ذي يزن الحميريّ على قبائل قيس عيلان كما مرّ معنا فيما سلف، وحينما وصل وفد خولان ورأى ما يبهر الناظر ويشده، علت أصوات بعضه بالتكبير:

فَصَبَّحْنَ ذَاقِينَ وَكَبَّرَ وَفَدُنَا وَقَدْ قَابَلْتُنَا أَنْجُمٌ وَسُعُودٌ

إنّ الدّاعي إلى اتّهام هذا البيت هو لفظة التكبير، وهي من شعائر الإسلام ولم تكن من الألفاظ المستخدمة في طقوس العرب الدّينية قبل الإسلام، على الرّغم من قرب تلك الطّقوس من طقوس الإسلام في كثيرٍ من مفرداتها^(١).

(١) انظر: مبحث عقيدة خولان من هذه الدراسة. وقد بحثت في معتقدات العرب قبل الإسلام فلم أعر على لفظة التكبير التي قُصِدَ من ورائها تعظيم الله عز وجل، وإعلاء عزّه على كل شيء.

فإنَّ في معاني هذه اللفظة ما يكفي المتعجِّل في نظره للشكِّ في البيت بأنَّه من صنع رجلٍ إسلاميٍّ واتِّهامه بأنَّه من تلك الأشعار التي كانت تُصنَّع لرواة الأخبار والسَّير يتخذونها في بناء قصائدهم إلى جانب تلك الأشعار الصَّحيحة لتكون وشيَّةً يزينون بها صدور نفائسهم، إلَّا أنَّ التَّروي وإطالة النَّظر في تلك الأشعار يجعل الشَّكَّ فيها ضرباً من الوهم والتَّعسُّف؛ لأنَّ في حوزتنا ما يدفع هذا الشَّكَّ الذي يُردُّ عليه بأنَّ وجود كلمةٍ هي من شعائر الإسلام دليل غير كافٍ للقول بصنع البيت ونحله؛ لأنَّ «بعض الأفكار الدينية كانت معروفة لبعض الشعراء قبل الإسلام، ومن الصعب أن يفصلَ في بعض... المعاني العامة التي تتصل بتلك الأفكار إن كانت جاهليَّة أو إسلاميَّة»^(١) ولا سيَّما أنَّ هذا البيت الذي يمكن أن يشكَّك فيه مع مجموع أبيات القصيدة من الشعر الرِّصين، أُحكِمَ سبكه وانتظم وزنه واستدَّ معناه الذي جاء على قدر لفظه، فولَّد صورة خلَّابة يُشْتَفَى بها ويسعى إلى تطلُّبها، والشَّعر كان يومئذٍ على ما وصفتُ وقَدِّمتُ، يضاف إلى هذا أنَّ التَّكبير الذي شُكِّك فيه ليس تكبيراً لإعظام قدر الله عزَّ وجلَّ، إنَّما استعمل للتعجُّب لبث الرَّهبة وسلب ألباب الناظرين الطَّالِبين للعون من الملك الحميريِّ لما رأوه من عظيم قصره، ووسيع أرضه، وفرط قوته التي طبَّقت سمعتها الآفاق وقد جاء عند المحبِّي أنَّ مثل هذا يستعمل للتعجب وهو ممَّا استعمله المولِّدون مثل قول المتنبي:

كَبُرَتْ حَوْلَ دِيَارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ تِلْكَ الشُّمُوسُ وَلَيْسَ فِيهَا الْمَشْرِقُ

ووقع في مجلس أبي بن زُهر^(٢)، أنَّ بعض أدباء الأندلس كان عنده فدخل عليه فاضلٌ من أهل خراسان عليهم، فأكرمه ابن زُهر وأجلَّه فقال الأندلسيُّ: ما تقول في أهل الأندلس وأدبائهم وشعرائهم؟ فقال: كَبُرْتُ، فلم يُفهم جوابه، فلما فهم ابن زُهر إنكاره، قال: قرأت شعر المتنبي، قال:

(١) ديوان أميَّة: ١٧٦.

(٢) ابن زهر: هو أبو بكر محمَّد بن عبد الملك بن زهر الإيادي، الأندلسي الشَّيْبلي، لم يكن في زمانه أحذق منه بصناعة الطب، أخذها عن أبيه، وهو صاحب شعر رقيق، وموشَّحات انفرد في عصره بإجادة نظمها. وفيات الأعيان ٤/ ٤٣٤، الأعلام

نعم وحفظته، قال: أما سمعت قوله... وأنشد البيت، فعلى نفسك فلتكبر، ولفهمك اتهم وأنكر، فخجل، واعتذر^(١).

أما الموضع الثاني الذي يمكن أن يشار حوله الاتهام والشك فهو بيت لعمر بن يزيد العوفي - وهو شاعر مخضرم - من مقطعة له يذكر فيها اختلاف بني عوف وبني مالك وما أصابهم من الفتنة التي أنشبت برائتها في توافقتهم وتلاحمهم، ففرقتهم وأذلت عزهم يقول:

تنازع أمرهم لخلاف بين كذاك الله يفعل ما يشاء

إذا كان هذا الشاعر مخضرمًا، فيرجح أن يكون قد قال هذا البيت - الذي يأتيه الشك في شطره الثاني، المتشابه بل المقتبس بحرفيته من الآية القرآنية التي يقول الله عز وجل فيها ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عِلْمٌ وَقَدْ بَلَغْنِي الْكِبَرُ وَأُمَرَأْتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] = بعد مجيء الإسلام ودخول أهل اليمن فيه طوعية أو بقوة السيف، ولكن ليس بين أيدينا ما يثبت أن هذا الشاعر قد أسلم ودخل الخشوع إلى قلبه كغيره من أقرانه الخولانيين الذين ذكرهم الهمداني وأفاض في إسلامهم^(٢) سوى أنه هاجر في أخريات حياته إلى المدينة المنورة قاصداً النبي ﷺ في نهاية أيام الهجرة.

وأغلب الظن أن هذا الشاعر لم يسلم ولو فعلها، لوقف الهمداني على ذكر إسلامه ولا سيما حينما ذكر هجرته إلى المدينة المنورة، أو أنه أسلم ولم يصل خبر إسلامه إلينا لإغفال الهمداني له، الذي أفاض في بعض جوانب سيرته وخصوصاً فروسيته وشجاعته. وعلى هذا يشكك في هذا البيت لما فيه من معانٍ إسلامية خالصة، غير أن د. عبد الحفيظ السطلي يجعل مثل هذا الاتهام ضرباً من التعسف والذهاب بعيداً بالأمر لأن: «مجرد التشابه في كلمة أو عبارة أو معنى عام لا يكفي للشك، أو الحكم بالتلاقي مع القرآن... [ذلك لأن] بعض الأفكار الدينية كانت معروفة لبعض الشعراء قبل

(١) نفحة الرجاء ٢/ ٤٥٤، ٤٥٣، ونحو هذا في نهاية الأرب في فنون الأدب ٢١/ ٢١١ وفيه التكبير بمعنى الترهيب في خطبة للحجاج بن يوسف الثقفي.

(٢) انظر: ترجمة يزيد المتوكل من هذه الدراسة.

الإسلام، ومن الصعب أن يُفصلَ في بعض العبارات أو المعاني الدنيّة التي تتصل بتلك الأفكار إن كانت جاهليّة أو إسلاميّة»^(١).

ويبدو من كلام الدكتور عبد الحفيظ السّطّي أنّه لا يجوز الشّك في الشّعر - الذي أمسك بجانب واحدٍ فقط من المعاني الدّينيّة، التي كانت بضاعة فاشية على ألسنة عددٍ لا بأس به من الخلق وخصوصاً الذين تطلّعوا إلى أمر السّماء وبنائها وتفكّروا في خلق الأرض وبسطها - «إلّا بظهور آثار قرآنيّة واضحة تتبدّى في عدّد من السّمات كالمعاني والتّراكيب والأساليب معاً، ومدى الإلحاح عليها في أبيات القصيدة الواحدة»^(٢) وهذا ممّا لم يوجد في مقطّعة عمرو العوفي، ولا ألحّ على معنى من المعاني ولا تركيب من التراكيب، وإنّما جاء أسلوبه هكذا عرَضاً غير مقصودٍ لبيان لنا ما فعله القدر في قومه من الأفعال العجيبة والغريبة الخارقة للعادة، المستغربة في نظره، وهو المُتطلّع أبداً إلى توحيد صفوف قبيلته ولمّ شملها تحت لواءٍ واحدٍ؛ لتكون رأساً من رؤوس الدّفاع عن خيراتها في وجه قبائل قيس عيلان، إلّا أنّ القوم بُدّد شملهم وفرّقت عشائهم وضيّعت قوّتهم، فقصد إلى التّركيب ليعبر عن هول ما حدث، وعظيم مصابه. ويبدو أنّ مثل هذا التّركيب هو من الأفكار الدّينيّة العامّة السّائدة عند من آمن بالله ربّاً، وبالتّسليم له على فعل العجائب والغرائب قدرةً، وعلى هذا لا يكفي الاتّفاق المذكور آنفاً وحده للقول بأنّ صاحب البيت قد أخذ تركيبه من القرآن الكريم، لا اعتبره لغة فاشية عند هؤلاء في أثناء تعبيرهم عن مصاب جَلَلٍ. هذا إذا كان عمرو العوفي لم يُسلم ولم يدخل في الإسلام حقيقةً أما إذا كان الشّاعر قد أسلم - وهو شيء بعيدٌ - فإنّ البيت غير مصنوعٍ قولاً واحداً، ولا بدّ هنا من التّنبية على أنّ أشعاره التي بلغت سبعة وعشرين ومئة بيتٍ كانت خلواً من أوّلها إلى تمّتها من المعاني الإسلاميّة أو المعاني الشّعريّة التي شجّع الإسلام على تناولها من قبل الشّعراء، ولم يُلاحظ فيها لينٌ أو ضعفٌ بل جاءت في روحها جاهليّة صرفةً، وفي نسجها بدويّة خالصةً؛ ممّا يرجّح لدينا أنّ الشّاعر لم يعرف الإسلام ولا دخل فيه أبداً.

(١) ديوان أميّة: ١٧٦، وانظر: ما كتبه د. محمد شفيق البيطار في ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٢) ديوان أميّة: ١٧٦.

أما الموضوع الثالث الذي يمكن للشك أن يتناوله ويجد إليه سبيلاً، فهو تنفة مجهولة القائل والعصر، وقد يأتيها الشك لما فيها من تناقض ورخاوة في المعنى، وهلهلة في النسيج، مما يوحي بأنها لناظم ليس له في الشعر نصيب، ساقها نشوان الحميري (٥٧٣هـ) متفرداً بذكرها دون غيره من العلماء، وقد عزاها لشاعر من خولان العالية^(١):

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ أَنْسَابِنَا نَحْنُ خَوْلَانُ بْنُ عَمْرِو بْنِ قُضَاعَةَ
نَحْنُ مِنْ حَمِيرٍ فِي ذُرْوَتِهَا وَلَنَا الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالرِّبَاعَةُ

إن ثمة أموراً تدعونا إلى اتهام البيتين إن كانت نظرنا عَجَلَى غير متأنية، فمن تلك الأمور تفرد نشوان الحميري برواية البيتين في موضعين من كتابين له^(٢)، ولم يرد منها شيء عند الهمداني (٣٣٤هـ) وهو الذي أنفق معظم كتابه الإكليل في جزئه الأول لسوق نسب خولان وأخبارها وأشعارها، أو لتحقيق نسب قضاة وتصحيحه^(٣)، ولا عند غيره مما يعاضد هذه الرواية ويشد أزرها.

ولعل سبب هذا التفرد عائد إلى فقدان تآليف الهمداني واحتجابها عنا - وهو الذي دون أخبار القوم وأشعارهم - لأنَّ جُلَّ ما نقله نشوان الحميري من أخبار خولان وغيرها من القبائل العربية، كان الهمداني معوله الأوحده، يضاف إليه ما نقله أيضاً عن عبيد بن شريّة الجرهمي ووهب بن منبه، وما لف تآليفهما من الأخبار العجيبة والسير الغريبة والقصص الشعبية التي ليس لها من الصواب حظ ولا نصيب.

أما ما جاء في نسيج البيتين، فهلهلة ورخاوة، وسذاجة في معانيهما حتّى لبيدوا كأثما نُظِمَا لما كان من خبرهما، أو أن ألفاظهما رُبَّت لتخدم الوزن لا المعنى الذي بدا شاحباً هزياً، أو أسلوب المباشرة الذي استهلّ فيه كلامه الضعيف في بنائه، القريب إلى النثر أكثر منه إلى الشعر الرّصين.

ومن الأمور الدّاعية للشك أيضاً قوله: نحن خولان بن عمرو بن قضاة، وفي البيت الثاني: نحن من حمير في ذروتها، فتارة هو في قضاة وأخرى في حمير وثالثة يجعل قضاة من حمير، وهو ما يدعو المتعجل

(١) انظر: الديوان: ق ١١٣ / ب ١-٢.

(٢) انظر: شمس العلوم ٧ / ٤٧٢٤، منتخبات في أخبار اليمن ٤٠، ٧٦.

(٣) انظر: الإكليل: «المخطوط ٤٨ / ١»، المطبوع ٢٠٩ / ١ وما بعدها.

لأتهام التتفة وجعلها في المنحول من الشعر الذي مُلئت به مصنّفات الأخباريين وأصحاب السير والقصص الشعبي كالذي كان يصنع لمحمد بن إسحاق.

إلاّ أنّه يمكن أن يُردّ على هذه الشكوك بما يمكن قوله في هذا الشأن من أنّ تفرد نشوان الحميريّ برواية البيتين - وهو من علماء القرن السادس الهجري - أي متأخر ليس بكافٍ لإثارة الشكّ حولهما واتهامهما بالنحل؛ لأنّ معظم ما ألفه الهمدانيّ وقيد فيه أشعار القبائل اليمانية وأخبارها ضاع ولم ينته إلينا منه إلا الذي كان بين أيدينا من بقيّة الإكليل وشرح الدامغة، يضاف إلى هذا أنّ كثيراً من تراث اليمن ومن سكنه من القبائل لم يزل مخطوطاً ضاع منه جزء، وآخر يهجع في رفوف المكتبات يحتاج إلى من يخرج به إلى النور، فلا شك أنّ نشوان الحميريّ أخذ هذه الأبيات عن إحدى مصنّفات الهمدانيّ التي أتت عليها صوارف الدهر، وأشرت إلى مثل هذا في موضع سالف. وأمّا ضعف البيتين وهلهلة نسجهما وسداجة معانيهما، فحال كثير من الشعراء القدماء والمتأخرين أن يقولوا الشعر الرّصين العالي، والشعر اللّين الخالي من مقومات الجمال والقوّة والعمق في المعنى، ولاسيما أنّ البيتين من مجهولي الأسماء والعصور. أمّا ما يتعلّق بقضيّة النسب إلى قضاة تارة وإلى حمير تارة أخرى، فإنّ المتبع لهذه القضية عبر شعر خولان، وما كتبه الهمدانيّ وجاءت به النقوش في هذا الباب، يثبت انتهاء خولان إلى قضاة، أمّا لحاقها بحمير فعائداً إلى بعض البطون الخولانية التي نزلت في أرض حميرية، فانتسبت إلى ذاك البطن الحميريّ المقيم في تلك الأرض وألحقت في نسبه، علاوة على سيطرة حمير على اليمن كلّ يوم كانت دولة عظيمة الشأن، بسطت نفوذها من نجران إلى حضرموت، ودانت لها قبائل اليمن جمعاء، ونُسبَ إلى ملوكها جُلّ بلدان الصّقع اليمانيّ وأجلّها. وأمّا انتساب قضاة إلى حمير فأمر فصلّ فيه القول غير باحثٍ ممّن تناولوا شعر القبائل بالجمع والدراسة^(١).

وهو ما عناه الشاعر وسعى إلى تطلّبه في النّصّ السابق من إلحاق نسب قضاة بحمير، وهو ما كان محطّ نظر الهمدانيّ، وموضع عنايته في غير ما موضع من الإكليل إلاّ أنّه تجلّى واضحاً في فصلٍ أفرد له لذلك ووسمه بـ«تصحيح نسب قضاة».

(١) انظر: مبحث نسب خولان من هذه الدّراسة، وشعراء حمير (الدّراسة) ١٠-٢٠، وشعراء بني كلب بن وبرة (الدّراسة) ١٢٢

وما بعدها حيث عقد د. شفيق البيطار فصلاً تاماً حول الخلاف في نسب قضاة.

فمسألة انتهاء قضاة إلى حمير، ووقوف شعراء خولان عليها ذكره غير شاعرٍ خولانيٍّ، منهم مثلاً عمرو بن زيد الخولانيّ - الذي قال في يوم خزازي وكان قد نال من شهرة هذا اليوم في قضاة ما لم ينله غيره من الشعراء^(١):

وَحَمِيرٌ قَوْمُنَا سَارَتْ مَقَاوِلُهَا وَمَذْجُ الْغُرِّ سَارَتْ فِي تَعَابِيهَا

يضاف إلى هذا أنّ قائل هاتيك الأبيات التي تذكر جذم القوم في الحميريّة، هو شاعرٌ خولانٍ العالمة، هكذا أورد نسبتها نشوان الحميريّ؛ والعالمة من خولان هم الذين اختلطوا في كثيرٍ من الأحيان ببطون حمير، وعشائرها وشاركوها الأرض حتى بلغ بهم الأمر أنّ عدداً من بطونهم نُسبوا في حمير وصاروا في عدادِ بطونها^(٢).

(١) الديوان ق٦/ب٤.

(٢) انظر: مبحث نسب خولان من الدراسة.

الفصل الثالث

موضوعات شعر القبيلة

موضوعات شعر القبيلة

أشرتُ غيرَ مرّةٍ في هذه الدّراسة إلى سقوط جُلِّ أشعار العرب وذهابها، ولا سيّما الشعر الجاهليّ الذي أتت صوارف الأيام وغوائل الدّهر على أنفسيهِ وأعزّه، وإنّ ما انتهى إلينا منه هو مقاطيع لمطوّلاتٍ، وبقية قصائد عريضة، ونتفّ بسيطة، وهذا هو حال أشعار خولان التي كانت أكثرَ عرضةً من القبائل العربيّة لهذه الآفة الكبيرة، فقد ضاع معظمُ شعرها وأجلّه، وما سلم من تلك الآفة لا ينقذ بلّة ولا يروي صادياً، فمعظم الذي صار إلينا - وهو معولنا في دراسة موضوعات أشعار القبيلة - هو نتف وأفذاذ جدّ يسيرة خلا قصائد معدودة، ومطولة يتيمة.

أما الموضوعات التي راضها شعراء القوم وطرقوا بابها، فكانت: الحماسة، والفخر، والوصف، والمدح، والحكمة، والرّثاء، والهجاء طلبتهم، وإن بدا بعضها هزلياً كئيباً عزيز الحضور في هذا المجموع الشعريّ، وأمّا الغزل فقد نأى بشوقه وصباباته، ولطافة معانيه، ورقيق لفظه، وحلوه، بعيداً عن مقالة القوم، عدا موضعاً يتيماً ذكر فيه الشّاعر طعائن ودمناً تبلى، ساقف عنده في حينه، وإن جدّ مجتهدٌ في بحثِ العلل والأسباب الدّاعية لبينونة الغزل وهجره أشعار خولان، فإنّه قد يأنس بالآتي:

- فلولٌ كثيرٌ من أشعار خولان بالضّياح، إذ لم ينبج من صوارف الدّهر وغوائل الأيام إلا قليلٌ قليلٌ - وهو بين أيدينا - ولو انتهى إلينا جميع ما قالته شعراؤهم لانتهى إلينا خيرٌ كثيرٌ، وقد نبّه ابن سلام (٢٣١هـ) على مثل هذا فيما رواه بسنده عن أبي عمرو بن العلاء قال: «ما انتهى ممّا قالت العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثيرٌ»^(١).

- معظم ما انتهى إلينا من أخبار - وهي قليلة - عن قبيلة خولان، ينبى عن قبيلة عظيمة الشّأن، كبيرة القدر في بلاد اليمن السّعيد، طالبة للكرّ والفرّ، وعن شعراء سعاة لقراع الكتائب، وخوض الوغى بالمبهمة من الدّرع وبالأسلات^(٢) الحادة، بعيداً عن الشّوق والعشق، والتّهالك في الصّباية

(١) طبقات ابن سلام ٢٥/١ وقد بسطت القول في هذه القضية انظر: ضياح شعرهم.

(٢) الأسلات: هي الرّماح ذات الرّؤوس الحادة.

والفناء فيها، وما إليها من معاني الوصل والهجر والبينونة... وسعادة وغصة ولذة وحرقة... إلخ ولكن هذا لا يكفي للدلالة على ابتعاد القوم عن طَرُق غرض الغزل إذ إنّ «لغيراً من الشعراء - حمل لواءهم امرؤ القيس - أوقفوا حياتهم لهذا الغرض، وحبّوه جِلَّةً قوافيهم، فلهم خصوصيتهم وتفرّدهم»^(١). على أنّ هذه الخصوصية، وتلك الفرادة يمكن أن تكون لأحد شعراء خولان أو غيرهم من القبائل العربيّة التي بدا موضوع الغزل لدى شعرائها هزياً ضعيفاً لا يكاد يُلحظ في شعرهم مرّة أو مرّتين، فإنّ أشجان الإنسان وعواطفه تجاه المرأة التي مثّلت الحياة بكلّ معانيها، وجُعِلت معادلاً موضوعياً للماء الذي يمثل الحياة في الشعر القديم، ولا سيّما الجاهليّ منه، هي واحدة وحاضرة في نفس كلّ إنسان؛ إذ لا يستطيع أن يرغب عن المرأة والتعلّق بها؛ لأنّه فُطِرَ على ملازمتها والعيش بجوارها.

- أَلَفَتْ خولان في ممضاها الإقامة في القصور والقلاع، ومن ذلك ما ذكره الهمدانيّ من تملك خولان بصرواح التي دوى صيئها بعيداً في أشعار العرب يقول: «وخولان تقول: إنّ سعد بن خولان لمّا خرج من مأرب تملك بها [أراد صرواح، وهو من قصور اليمن الشّاخنة آنذاك] وقد ذكرها شعراؤهم»^(٢).

واتكأ على هذا فإنّ شعر خولان خلا ممّا دُبِّجَ به شعر غيرهما من أهل الوبر، وعزّ أن يرى المرء رحلة للطّاعن أو آثاراً دارسة عافية، أو آراماً مطفلة تنهض من كلّ مجثم، فصار يرى محبوبته ويتواصل معها من دون رحلة للطّاعن التي كان الشعراء يتوسلون بها؛ للوصول إلى الأهل الطّاعنين، وهي رحلة فنيّة في القصيدة العربيّة القديمة. وفي هذا يقول ابن قتيبة: «سمعتُ بعض أهل الأدب يذكر أنّ مَقْصِدَ القصيد إنّما ابتداء فيها بذكر الديار والدّمّن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الرّبّع، واستوقفَ الرّفيق؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطّاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في

(١) شعراء مذحج ٢٧٥.

(٢) انظر: الإكليل ٨/ ٧٥، معجم ما استعجم ٣/ ٨٣١، معجم البلدان ٣/ ٤٠٢، مختصر كتاب البلدان للهمداني: ٣٤، المسالك والممالك ١٤٤، الرّوض المعطار ٣٥٧، وانظر: رسم صرواح في معجم أسماء مواضع خولان الذي ذيلت به هذه الدّراسة.

الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المَدَر؛ لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلاء، وتَبَعِيهِمْ مساقط الغيث حيث كان. ثُمَّ وصل ذلك بالنسيب، فشكا شِدَّةَ الوجد وألم الفراق، وفرط الصَّابة والشوق؛ ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه؛ لِيَسْتَدْعِي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأنَّ التشبيب قريب من النفوس، لائطُّ بالقلوب؛ لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم، حلال أو حرم، فإذا علم أنَّه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عَقَّبَ بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النَّصَبَ والسَّهَرَ وسرَى اللَّيْلِ وحرَّ الهجير، وإنْصَاءَ الرَّاحِلَةِ والبعير^(١). وحال ما وصل إلينا من بقيَّة أشعار خولان يوافق مذهب ابن قتيبة في مقالاته السَّالفة، فخلت أشعارها من المقدمات الطَّلِيَّة خلواً تاماً خلا موضعاً يتيماً استهله الشاعر بمقدمة طليَّة - ذكر فيها المرأة والمنازل وعهده بها الذي كان ما يزال جديداً - توَّسل بها لوصف الرحلة إلى الممدوح الذي يأمل عطاءه ومعروفه في إرسال العون والمدد لمحاربة قبائل قَيْس عيلان^(٢).

ولهذه الأسباب وغيرها خلت أشعار خولان من غرض الغزل، أو لم تصل إلينا، وضاعت قصائد فيها ضاع من أشعارها.

أمَّا الموضوعات الأخرى، فقد ذهب شعر الحماسة والفخر بمعظم أشعار خولان في الجاهليَّة وصدر الإسلام والعصر الأموي، حتَّى إِنَّ عمرو بن يزيد العوفي، وهو أكثر شعراء خولان شعراً، أنهب قوافيه - التي تنهض بديوانٍ مستقلٍّ - على حيالها شعر الحماسة والفخر إلا أقلَّها جاء في موضوعات الحكمة والعتاب والشكوى والرثاء والمدح، التي بدت عزيزة الحضور في شعره، متداخلة مع غيرها (الحماسة والفخر). وطالب الحماسة والفخر في شعره كغرضٍ مستقلٍّ، إنَّما يطلب شيئاً عسيراً، وغالباً ما تأتي الموضوعات السَّالفة مختلطة ومتداخلة، لائطاً بعضها بتلايب بعض، لدرجة بات يصعب على المرء أحياناً الميزة بين ما هو في الحماسة والفخر بشقيه الدَّائِي والقبلي، وما هو

(١) الشَّعر والشَّعراء ١/ ٧٥-٧٦.

(٢) انظر الدِّيوان: ق ١.

في الشكوى والعتاب واللوم، والوصف والمدح، أو المدح والثناء. ومثل العوفي نجد في شعراء خولان الحارث بن عمرو السعدي، وهو أشهر شعرائها في العهد الأموي، وقد أنفق معظم قوافيه، بل جلّها في الحكمة والنصيحة وسماع صوت العقل بعيداً عن الحميّة الجاهليّة، وإن بدت صورة تلك الحكمة غير واضحة المعالم كما هي عند غيره من الشعراء، فأشربت معنى الحكمة وغذت من صورها العريضة، وكانت شديدة الإبانة عن نفسها، وبرزت مزدانة بتلاوين الحماسة والفخر أحياناً، والمدح حيناً آخر.

وسوف أتناول موضوعات شعر خولان، وأقف على ما في هذه الموضوعات من تعالقٍ وتداخل فيما بينها، محاولاً تفسير ذلك إذا كان في الإمكان، وسأعرض في كلّ موضوعٍ ما جاء في الشعر الجاهليّ وأعطفه بما جاء في شعر المخضرمين وصدر الإسلام وعصر بني أميّة؛ ليتبيّن لنا إن طرأ على مسيرة الشعر اختلاف ما من حيث تناول الموضوعات الشعريّة، والمعاني التي نهضت بهذه الموضوعات، حتّى إذا ما عرضتُ لكلّ موضوعٍ، وأفرغتُ فيه جعيتي، وأدليت فيه بدلوي أعدتُ النظر فيه غير مرّة؛ لمقارنته بما ورد في أشعار عدد من القبائل الأخرى التي جمعت أشعارها بأخوةٍ ونالت حظها من الدّراسّة، أو في أشعار بعض الشعراء من الذين توازي أشعارهم أشعار الخولانيّين؛ لتبيّن بذلك مكانةً وقدراً ما انتهى إلينا من شعر خولان مقارنة إلى ما وصل من أشعار غيرهم.

١ - الحماسة والفخر:

لطالما اعتاد العربيّ في دهائه حياةً قاسيةً حَشَنَةً، ملؤها الكرّ والفرّ ومكابدة القحط والمحل والفاقة والفقر، وهو ذو شخصيّة أنفة عزيزة كريمة تأبى الضيم، فكان لا بدّ أن يكون شجاعاً، ثابت الجنان، قوياً، شديد الثقة بنفسه التّائقة للانتصار على كلّ ما يواجهها من أهوال ومخاطر، صلداً، محارباً مُنْجِداً، مؤثراً، حامياً للحمى، جواداً، ومال في الوقت ذاته إلى تصوير هذه الحياة في شعره، حتّى استغرق شعرُ الحماسة والفخر معظمَ أشعار العرب؛ لما كانوا يعيشونه ويعانونه... فغدا هذا الغرض من أكثر الأغراض أهميّةً ومكانةً عند حبيب بن أوس الطائي (٢٢٨هـ) الذي صنّف أوّل مُصنّفٍ في

الاختيارات الشعرية تبعاً لموضوعات الشعر الذي أنبّه قسماً كبيراً من أشعار الحماسة والفخر حتى صدر هذا الموضوع أول أبواب كتابه الذي أثنى عليه العلماء أيماً ثناءً^(١)، بل وسَم به مُصنّفه كُلُّه وغلّبه على غيره من الأغراض الشعرية، ولم يجهد نفسه عناء الفصل بينهما لما لهما من الالتئام واللّحمَة والتّداخل إلى درجة يصعب الميزة بينهما، فترى الفخر قد احتبى بفناء الحماسة، ولأذ بظللها، ولم يستطع مفارقتها؛ لأنّه كثيراً ما كان يأتي الفخر بلبوس الحماسة، فلا يكاد يُعرف من تلبّسه لتلك (الشّدّة والمنع والمحاربة)^(٢) على عكس ما فعله أبو عبادة البحتريّ (٢٨٤هـ) من تشقيق وتفرّيع لأبواب حماسته، فجعل على سبيل المثال الشّجاعة والإقدام، والفتك، والبروز للعدوّ وترك التّستر منه.. إلى غير ذلك من المعاني التي تنضوي تحت لواء الحماسة، وليس لنا بدّ من اتباع نهج أبي تمام الطّائيّ في أثناء تناوله لهذه الموضوعين اللذين جاءا ملزومين في مصنّفه.

فكانت الحماسة والفخر في شعر خولان على ضربين اثنين: ذاتيّ وقبليّ، وكلّ منهما موصول بالآخر لما للشّعراء من فروسيّة وشجاعة وسيادة وقوّة، فخرّوا بها وتعالّوا على بقيّة أقرانهم، إذ عرفنا عن خولان قبيلة محاربة قويّة تابى الحيف والضّيم والذلّ حتى أنفق معظم شعرائها كثيراً من قوافيهم في هذا الغرض.

الحماسة والفخر القبليّان: فأما في الشعر الجاهليّ فيتبيّن لنا بنظرة عجل غلبه هذا الشّطر من الحماسة والفخر على ترّبه الفخر الذاتي، الذي كان يظهر لمحا في أثناء الفخر القبليّ وتضاعيفه، ولعلّ مرّد ذلك إلى ما تزيّنت به القبيلة جميعها من محامد ومناقب، تجمل بها جميع فرسانها وشعرائها، فأدلت في القبائل سيرتهم، حتّى صاروا مضرب المثل في خوض المعارك والانتصار فيها، ولم يبرز منهم فارس دون البقيّة، بل كانوا جميعهم فرساناً، وربّما يقول قائل: كيف لا يظهر في هذه القبيلة فارسٌ انماز بشجاعته دون غيره ويظهر في القبائل الأخرى فرسان طبّقَتْ شهرتهم الآفاق. تميّزوا عن أقرانهم؟ مثل هذا يمكن أن يقال فيه: إن ما اهتبله شعراء خولان في حماستهم وفخرهم القبليّ من المعاني التي

(١) انظر: مقدّمة شرح الحماسة للمرزوقيّ ١٠ وما بعدها.

(٢) اللّسان، والتّاج، ومقاييس اللّغة (حمس).

تبرز قوّة خولان وعزتها وتجذرها في أرومة النسب إلى قضاة وتبرز أيضاً طريف المجد وتليده التي نعمت فيه القبيلة مُذ أقدم العصور، جعل شعراءها يقطفون ما نضج من شعر الفتك والبأس والشدة والأنفة، إذ عُرِفَ عن خولان بأنها أنف قضاة^(١)؛ لما لفرسانها من عزّة وكبرياء انمازوا به دون بقية القبائل.

ومن الفخر القبلي ما فخر به عمرو بن زيد (مغرق الأكبر) بيوم خزازي، وكان من أيامهم المشهورة والمشهودة، وكان لهم فيه الشرف والظفر، قبائل معدّ على قبائل اليمن (حمير ومذحج...) وهو اليوم الذي انتصفت فيه معدّ من قبائل اليمن التي ذقت مرارة الهزيمة، كما يفخر مغرق الأكبر بجموع قضاة التي جاءت من كل حدب وصوب وانضوت تحت لواء كليب الذي كان يحميها، وهو لا ينسى انتسابه إلى أرومة حمير الأصل والمحتد، وفخره في لحمته نهد وجرم وخولان التي انضمت إلى قبائل قضاة^(٢):

كَانَتْ لَنَا بِخَزَازِي وَقَعَةٌ عَجَبٌ	لَمَّا التَقَيْنَا وَحَادِي الْمَوْتِ يُحْدِيهَا
مِلْنَا عَلَى وَائِلٍ فِي وَسْطِ بَلَدَتِهَا	وَذُو الْفَخَّارِ كُلَيْبُ الْعِزِّ يَحْمِيهَا
قَدْ فَوَّضُوهُ وَسَارُوا تَحْتَ رَايَتِهِ	سَارَتْ إِلَيْهِ مَعَدُّ مِنْ أَقَاصِيهَا
وَخَيْرٌ قَوْمُنَا سَارَتْ مَقَاوِلُهَا	وَمَذْحِجُ الْغُرِّ سَارَتْ فِي تَعَايِيهَا
وَالْحَيُّ مِنْ صَيْدِ هَمْدَانَ لَهَا شَنْفٌ	يَفِرُّ الْفَرِيُّ وَيُقِمِّي مَنْ يُنَاوِيهَا
وَمِنْ قُضَاعَةٍ حَيَّا بِأَسْهَانُزْلًا	نَهْدٌ وَجَرْمٌ وَخَوْلَانٌ تَوَاتِيهَا

(١) جاء في قصيدة الدّامغة: ١٧٣، البيت ١٩٢:

نَحْنُ الْمُزْجِفُونَ لِأَرْضِ نَجْدٍ بِأَنْفِ قُضَاعَةٍ وَالْمَذْحِجِيْنَا

أراد بأنف قضاة خولان بن عمرو بن إلخاف بن قضاة ونهد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن إلخاف، وجرم بن ربان...، وانظر نحو هذا في الإكليل ٢/ ٢١٥.

(٢) الديوان: ق ٦/ ٦-١.

وبعد أن تجمهر الفريقان وقدمت العوادي بعضها لبعض، والحمية تأكل قلوب الفرسان الأشداء الذين أبدوا كل صلابة في اللقاء، وأخرجوا كل غيظ وحقد صارت المعركة ناراً مُحْرِقَةً وانقض أسودها من كل وَكْرٍ^(١):

وَسَارَ بَعْضٌ إِلَى بَعْضٍ بِرَأْيِهِ وَقُدِّمَتْ لِعَوَادِينَا عَوَادِيهَا
حَتَّى التَّقِيَا بِأَكْنَافِ الْمَسِيلِ وَقَدْ أَبْدَى لَعْمُوكَ مَا فِي النَّفْسِ مُحْفِيهَا
ثُمَّ اضْطَلَيْنَا، وَنَارُ الْحَرْبِ سَاطِعَةٌ كَأْسَدِ غَابٍ تَدَاعَتْ مِنْ نَوَاحِيهَا

ومن الفخر القبلي ما نجده في لامية عمرة الحيوانية التي أفنت قوافيها في هذا الغرض، وحلت مكانة باسقة في مدارج فخر خولان، وعجت بمعانٍ جليلة شريفة جاءت على معظم ما يمكن أن يقال في الفخر ببني حيي الذين عزّ نظيرهم في العرب، إذا ما نزلت نازلة أو أملت جائحة بأحد ما، فهم الذين تناسلوا من جدّ كريم فاضل على كل أقرانه، فابتنى لهم عزّاً ومأثرة تُذكر وتروى وتطمو على الخلق جميعاً، ثم تفخر بعدلهم إذا ما حُكِّمُوا، لا تأخذهم في الحق لومة لائم، وهم أسودّ كواسر شجعان، أصحاب جرأة وسطوة، يستأصلون عدوهم ويحتنونهم، لا ينامون ولا تغمض لهم عين إذا ما ألمّ بجارٍ لهم ضيمٌ، ويأبون الظلم والحيف تقول^(٢):

مَنْ ذَا كَمِثْلِ بَنِي حَيٍّ إِذَا نَزَلَتْ أَخَذَ الْجَوَائِحِ وَالْأَرْمَاحُ تُتْبَلُ
قَوْمٌ بَنَى لَهُمْ عِزًّا وَمَأْتِرَةً جَدُّ كَرِيمٌ وَفَرْعٌ شَامِعٌ خَضِلُ
سَادُوا الْبَرِيَّةَ إِذْ شَدُّوا مَآزِرَهُمْ وَفِي قُضَاعَةِ أَرْبَابٍ فَقَدْ فَضِلُوا
كَانُوا مُلُوكَ بَنِي عَمْرِو وَجَوْهَرَهَا وَالْفَاصِلِينَ إِذَا مَا حُكِّمُوا عَدَلُوا
أُسْدٌ ضَرَاغِمَةٌ بَيُضُّ عَطَارِفُهُ غُلِبَ جَحَاجِحَةٌ هَيْسٌ إِذَا اتَّصَلُوا
لَا يَهْجَعُونَ إِذَا مَا ضَمَّ جَارُهُمْ وَلَا عَلَى حُكْمٍ خَسَفَ لِلْعَدَى نَزَلُوا

(١) الديوان: ق ٦/ب ٧-٨-١٠.

(٢) الديوان: ق ١٢/ب ١-٥، ٧.

لَا يَجِبُونَ إِذَا الدَّاعِي دَعَاهُمْ مُحَبَّبًا عِنْدَمَا يَسْتَلِحُّمُ الرَّجُلُ

ومن معاني فخرها بقومها أنهم أسخياء في أعطياتهم، يجبرون الفاقة ولا يحميلون بالعطاء إذا ما سُئِلُوا، ولا تراهم إلى جيرانهم فِرَقًا يَفْزَعُونَ، ويغنون فَضْلًا نَدَى مِنْهُمْ إذا رملوا، ولا تسبى لهم امرأة حتّى في أكثر الأوقات عسراً وشدةً، حَالُونَ للمغارم والديّات إلى أهلها، ولا يحملها إلا شريف، مُقَدِّمٌ في ذؤابة قومه وعشيرته؛ وتفخر بخوضهم المعارك إذا ما اصطلت نارها وتعالّت ألسنتها، وهم أصحاب مِرَاسٍ في منازل الأقارن؛ ولا سيّما حينما يحتوش العدو من كلّ حَدَبٍ وصوب^(١):

وَلَا يَقْلُونَ إِنْ أَعْطَوْا لِسَائِلِهِمْ	وَلَا يَضُنُّونَ بِالْمَعْرُوفِ إِنْ سُئِلُوا
وَلَا تَرَاهُمْ إِلَى جِيرَانِهِمْ فِرَقًا	يَبْغُونَ فَضْلَ نَدَى مِنْهُمْ إِذَا رَمَلُوا
وَلَا تُسَاقُ لَهُمْ عَذْرَاءٌ إِنْ لَمَعَتْ	بَوَارِقٌ فِي خَمِيسٍ حَبْلُهُ تَهْلُ
الْوَاهِبِينَ إِذَا مَا ضَاقَ جَارُهُمْ	وَالْحَامِلِينَ لَمَّاذَا حُمِّلُوا حُمْلُوا
وَالْوَارِدِينَ حُمَيَّاهَا إِذَا حَمَيْتْ	وَالطَّاعِنِينَ إِذَا مَا خَيَّمَ الْبَطْلُ

ونار بني حيّ أبداً مستعرةً إمّا لحرب وإمّا لِقَرَى، فهم أصحاب جَفَانٍ مشهودة تُفْتَرَضُ وتؤخذ على ما فيها من الطّعام الذي أُسْتَدِرَ بها وعلا فوقه اللَّحْمُ وأُحْدِقَ كالإكليل، حتّى صارت كالأكمة في بُدْوِّهَا وظهورها^(٢):

وَالْمُطْعِمِينَ إِذَا مَا أَزْمَةٌ نَزَلَتْ	أَبْصَرْتَ فِيهِمْ جَفَانَ الشَّيْزِ تُهْتَبَلُ
وَقَدْ كَلَّلَتْ بِسَدِيفٍ فَوْقَ ذُرْوَيْهَا	كَأَنَّ إِشْرَافَهَا مِنْ تَحْتِهَا الْأَبْلُ

فهذه هي المناقب التي تَقَرَّطَ بها بنو حيّ الذين تعرفهم ساحات الوغى، وتعرف أنهم لا ينكصون ولا يجبنون إذا ما نزلت بوائق المعركة وحمي وطيسها، بل يردّون الجوائح الشّداد بسيوف رقيقة

(١) الديوان: ق ١٢/ب ٨-١٢.

(٢) الديوان: ق ١٢/ب ١٣-١٤.

مطاوعة، باترة زينت مقابضها بخرز حمر حتى بدت كأنها النار المشتعلة، مما يضيف عليها جمالاً
أخذاً^(١).

فَذَاكَ فَعَلْ بَنِي حَيٍّ إِذَا نَزَلْتَ إِحْدَى الْمَلِمَاتِ، رَدُّوْهَا وَمَا نَكَلُوا
بِكُلِّ عَضْبٍ رَقِيقٍ الْحَدَّ زَيْنَهُ عَقِيْقَةً فِي ذُرَى مَتْنِيْهِ تَشْتَعِلُ

ومن الفخر القبلي ما نجده في فخر المقدام بن زيد الحيواني بأيام كانت لقضاعة ومذحج على
هوازن، وهي من الأيام المعدودة التي أحسن فيها فرسان خولان البلاء حينما نهدت قبائل قضاعة
وبكرت على ماء قطقط، بسيف حادة أحكم صنعها في الهند، وتجاوزت تلك القبائل هوازن بكل
تليع من الخيل، سبط اللحم ممتلى الأطراف، مكتنزها كأنها الأسود الهواصر؛ لما تبديه من نشاط
وعدو^(٢):

وَنَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ عَلَى مَاءٍ قَطَقَطٍ بِكُلِّ رَقِيقٍ الْحَدِّ مِنْ قُضْبِ الْهِنْدِ
وَيَوْمَ رَسِيْعٍ قَدْ أَفْتَنَّا حِمَالَكُمْ بِكُلِّ تَلِيْعٍ مُّعْكِرٍ مُدْمَجٍ وَرَدٍ

وفي يوم آخر بأجزاء المعادن قد تركوا نساء أعدائهم تبكين قتلاها، وتدعين عليهم بالموت
والهلاك والعذاب واللؤم والشؤم...^(٣):

وَيَوْمًا بِأَجْزَاعِ الْمَعَادِنِ قَدْ دَعَتْ نِسَاؤُكُمْ بِالثُّكُلِ وَالْوَيْلِ وَالنَّكَدِ

وهذا سعد الربيعة يفتخر بما لقومه من عز ومجد مؤثّل، ندّ نظيره عند غيرهم، شادوه في صرّواح
التي غدا صيتها بعيداً في أشعار العرب، وقد تفرّق عنها الناس، فشطّر منهم أنجد في قفاف الأرض
وصلابتها، وأوعر آخر في الحزنة الصعبة من الأرض التي تتعرّ فيها الدواب، إليهم يتهاوى الكرام،
ويهوي العظام أصحاب الشرف والسؤدد؛ لأنهم من هؤلاء^(٤):

(١) الديوان: ق ١٢/ب ١٥-١٦.

(٢) الديوان: ق ١٤/ب ١-٢.

(٣) الديوان: ق ١٤/ب ٣.

(٤) الديوان: ق ٢٥/ب ١-٣.

فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ إِذْ بَانَ سَيْفُنَا دَوَاوِينَ فِي صُرُوحِ بُنَى وَتُشَرُّ
أَقْمَنَّا بِهَا وَالنَّاسُ عَنْهَا تَفَرَّقُوا فَأَنْجَدَ قَوْمٌ فِي الْبِلَادِ وَأَوْعَرُوا
إِلَيْنَا جَمِيعُ النَّاسِ تَهْوِي وَفُودُهُمْ وَكَانَ لَنَا فِيهَا الْعَدِيدُ الْمُجْمَهَرُ

وإذا كان هؤلاء الشعراء قد فخروا بما لهم من مناقب ومحامد، فإنَّ عوفاً الخولاني يترنم ويتغنَّى بقومه الملوك أصحاب المكارم والفضائل، الذين طما فضلهم على كلِّ مفضلٍ حتَّى إنَّ خولان جميعها اعترفت بفضلهم ومعروفهم ومناقبهم الحميدة وقهرهم لكلِّ من يقف في طريقهم، فهم ذوو قوَّة وبأس شديدين، بهما يحمون عراصمهم أن تُباح، ويرعون مَنْ ينزل بفيئهم من الجوائح والنوازل^(١):

قَوْمِي الْمُلُوكُ ذَوِي الْمَكَارِمِ لَمْ تَزَلْ أَهْلَ السَّوَابِقِ فَضْلُهُمْ لَا يُنْكَرُ
وَلَنَا لَوَاءُ الْمَلِكِ مِنْ آبَائِنَا إِزْنًا وَرِثْنَاهُ وَفَخْرًا يُنْسَرُ
مَنْ ذَا يُفَاخِرُ مَعْشَرِي فِي مَخْفَلٍ إِلَّا وَفَخْرِي قَاهِرٌ مَنْ يُفْخَرُ
عَرَفْتُ لَنَا خَوْلَانٌ بَيِّنٌ فَضْلِنَا وَلَنَا الْمَكَارِمُ وَالْحِمَى الْمُتَخَيَّرُ

فالتفاخر بالملوك من أبناء القوم، وحيازتهم الملك ردحاً طويلاً من الزَّمن، وعدُّ الفضائل والمناقب التي جمَّلت سيرة القوم في قبائل العرب، كثر حامديهم، وتهافت النَّاسُ للتَّقَرُّبِ منهم؛ لأنَّهم حماة الحمى والعِراض. ولا تنفصل هذه المعاني عن الفخر بالانتساب إلى الأصل والأرومة، بل يفضي كل معنى منها إلى الآخر حتَّى عدَّ التَّفَاخِرُ بالمحتد مزيَّةً انماز بها شعراء خولان في الجاهليَّة؛ لكثرة ترددها على ألسنتهم، وهذا ما فاخر به المقدام بن زيد الحيواني النَّاسَ حينما ذكر اتصاله بأُمِّ كريمة المنبت والأصل «ضرية بنت ربيعة بن نزار، وأم حلوان بن عمران بن إلف بن قضاعة» وهي من خيار النَّاسِ وأفاضلهم أصلاً وكرماً، حتَّى بالغ الشَّاعر في مفاخرته بها فجعلها البتول المنقطعة عن الرِّجال؛ لظهرها ونقائها وصفاء نسبها الذي لا تشوبه شائبة، أنسلت من قيذار بن إسماعيل، وهو نسب من أشرف الأنساب وأعلاها، فيفاخر الشَّاعر بنفسه وبقومه الذين عزَّ نظيرهم في نقاء النسب

(١) الديوان: ق ٧/ب ١-٤.

وصفائه، فأخواهم من أحسن الخلق جوداً وكرماً وخلقاً وسماحةً، وأعمامهم أقيال حمير، وعن مثلهم لا يُسأل، فهم الذين قهروا الملوك الجبابرة وداسوا عروشها، وأذلّوا تيجانها، وبدّدوا عزّها^(١):

وَحَوْلَانُ مَعْكُودُ الْمَكَارِمِ وَالْحَمْدِ	نَمْتَنَا إِلَى عَمْرٍو عُرُوقُ كَرِيمَةٍ
لَهُ الْبَيْتُ مِنْهَا فِي الْأَرْوَمَةِ وَالْعَدِّ	أَبُونَا سَمًا فِي بَيْتِ فَرْعَى قُضَاعَةٍ
ضَرِيَّةٌ مِنْ عَيْصِ السَّامَةِ وَالْمَجْدِ	وَأُمِّي ذَاتُ الْخَيْرِ بِنْتُ رَبِيعَةٍ
بَخِيرِ لِبَانٍ إِذْ يُرَشَّحُ فِي الْمَهْدِ	عَدْتْنَا بَتُولَ مَنْ سُلَالَةٍ قَيْدَرٍ
وَأَخَوَالَنَا مِنْ خَيْرِ عَوْدٍ وَمِنْ رَنْدٍ	فَنَحْنُ بَنُوهَا مِنْ أَعَزِّ نَبِيَّةٍ
فَأَكْرَمُ بِأَعْمَامٍ تَعُودُ إِلَى جَدِّ	وَأَعْمَامُنَا أَهْلُ الرِّيَاسَةِ حَمِيرٍ

ونجد في أشعار الآخرين من شعراء الجاهلية من حولان أمثال هذه المعاني وغيرها من الحماسة والفخر القبليّ عند كثير بن عمرو الشّهابيّ مثلاً، وقد شايع قومه بني حولان، ودخلوا فيهم وتبوّؤوا ظلّهم حتّى باتوا فيهم بطناً من أشهر بطونهم، وأكثرها مشاركة في درء الملمات والجوائح التي جمعتهم في صعيد واحد غير مرّة، وهذا ممّا لم يصرفهم عن التّفاخر بنسبهم إلى أصلهم ومحتدّهم كندة في أظلّة حولان التي تفضّلت عليهم، وتكرّمت في سموق مجدهم، وعلوّ نسبهم الذي غلب كلّ متفاخر، بل هم يرافقون القرم حُجراً في سموّه ورفعته حتّى حُبّوا مكانته وصاروا لفقّاله وترباً ينزلون بجواره، هذا كلّه كان بصنع من كندي بن ثور بن مرتع وتدبير منه^(٢).

وَكِنْدَةُ قَوْمِي فِي الْفُرُوعِ النَّوَاطِرِ	لَنَا الْعِزُّ مِنْ حَوْلَانٍ فِي عُقْرِ دَارِهَا
مَنَاسِبُنَا تَزْهُو عَلَى كُلِّ فَاخِرٍ	إِذَا حُصِّلَتْ أَنْسَابُ كِنْدَةٍ أَصْبَحَتْ
إِذَا انْتَسَبَتْ فِي عِزِّهَا وَالْأَوَاصِرِ	لَنَا الْفَضْلُ مِنْهَا وَالْفَضَائِلُ وَالْعَلَا
تَبْخِجَ فِي أَصْلِ كَرِيمِ الْعَنَاصِرِ	بَنُو الشَّيْخِ كِنْدِيِّ بْنِ ثَوْرٍ مِنْ مُرْتَعٍ

(١) الديوان: ق ١٣ / ب ١-٦.

(٢) الديوان: ق ٢١ / ب ١-٥.

أَحَلَّ بَيْنَهُ فِي ذُرَى عُقُودَةِ الْحِمَى مَعَ الْقَرْمِ حُجْرٍ فِي رَفِيعِ الْمَنَاطِرِ

حَتَّى إِنَّ الْإِنْتِقَالَ إِلَى قَبِيلَةٍ أُخْرَى وَالْإِنْتِسَابَ إِلَيْهَا - وَهُوَ مِمَّا أَلْفَهُ الْعَرَبُ فِي مِمْضَاهُمْ لَمْ يَصْرِفْ ذَلِكَ الْبَطْنَ أَوْ تِلْكَ الْقَبِيلَةَ عَنْ تَذَكُّرِ الْأَصْلِ وَالْمَحْتَدِ وَالْمَفَاخِرَةِ بِهِمَا، وَهَذَا شَأْنُ النَّوَاقِلِ فِي الْعَرَبِ عَامَّةً، وَمَا خَوْلَانُ سِوَى بَيْتٍ مِنَ الْعَرَبِ، وَقَدْ عَيَّرَ بَعْضُ بَنِي حَرْبِ بْنِ رِشْوَانَ بْنِ خَوْلَانَ، بَنِي مُخَلَفِ بْنِ رِشْوَانَ بِالْإِنْتِسَابِ إِلَى عَنَزِ بْنِ وَائِلٍ يَوْمَ دَخَلُوا فِيهَا وَلَاذُوا بِفَيْئِهَا^(١):

أَقْمَنَّا عَلَى دَارِ الْأُبُودَةِ لَمْ نَزَلْ وَلَمْ نَنْتَقِلْ فِي حَيِّ عَنَزِ بْنِ وَائِلٍ
وَنَحْنُ إِلَى خَوْلَانَ لَمْ نَشْرِ أَصْلَنَا بَوَكُوسٍ مِنَ الْأَثْمَانِ بَيْنَ الْمَحَافِلِ
وَرِشْوَانُ خَوْلَانَ أَبُونَا وَعَمُّنَا حَوَى الْمُلْكَ فِي صُرُوحِ دَارِ الْمَقَاوِلِ

فَهَا هِيَ أَفْئِدَتُهُمْ مَعْلُوقَةٌ حَيْثُ وَلَدُوا وَعَاشُوا وَاشْرَأَبُوا، حَتَّى وَإِنْ انْتَقَلُوا وَدَخَلُوا فِي قَبِيلَةِ عَنَزِ بْنِ وَائِلٍ، وَلَمْ يَبِيعُوا ذَلِكَ النَّسَبَ إِلَى الْأُرُومَةِ وَالْأَصْلِ بِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ وَلَا أَغْلَاهَا، وَيَدْلُلُّونَ عَلَى عَمَقِ ارْتِبَاطِهِمْ بِالْأَبِ خَوْلَانَ، وَتَمَسُّكِهِمْ بِهِ بِأَنْ حَازَ الْمُلْكَ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ فِي صُرُوحِ دَارِ الْقِيُولِ وَالْمُلُوكِ مِنْ حَمِيرٍ.

يَتَبَيَّنُ مِمَّا سَلَفَ أَنَّ الْمَعَانِي الَّتِي رَاضَهَا شُعْرَاءُ الْقَوْمِ، وَتَعَاوَرُوا عَلَى تَنَاوُلِهَا هِيَ: الشَّجَاعَةُ، وَالْإِقْدَامُ وَالْجَرَأَةُ، وَالسَّطَوَةُ مِثْلًا وَجَدْنَا فِي شِعْرِ مَغْرَقِ الْأَكْبَرِ، وَزَادَتْ عَمْرَةَ الْحَيَوَانِيَّةِ، بَلْ جَاءَتْ عَلَى مَعْظَمِ الْفَخْرِ، كَالْإِيثَارِ وَالسِّيَادَةِ وَالْإِمْتِنَاعِ مِنَ الضَّيْمِ وَالْخُسْفِ وَالْأَنْفَةِ وَالسَّبَاءِ وَقَتْلُ الْأَبْطَالِ وَجَنْدَلَتُهُمْ بِسَيُوفِ بَوَاتِرٍ، وَالْعَطَاءُ، وَكَثْرَةُ رِمَادِ الْقَوْمِ، وَجَاءَ سَعْدٌ وَغَيْرُهُ عَلَى الْإِفْتِخَارِ بِعِزِّ قَوْمِهِ وَعُلُوِّ مَكَانَتِهِمْ وَصَفَاءِ مُحْتَدِهِمْ، وَنَلَا حُظَّ الْفَخْرِ بِالنَّسَبِ وَالْإِرْتِبَاطِ بِالْأُرُومَةِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي دَارَتْ بِكَثْرَةِ عَلَى أَلْسِنَةِ الشُّعْرَاءِ وَتَكَرَّرَتْ غَيْرَ مَرَّةٍ عِنْدَ غَيْرِ وَاحِدٍ، وَوَرَدَ ذِكْرُ لِسِيُوفِ قَوَاطِعٍ، تَلُوحُ فِي الْجَوِّ كَأَنَّهَا الْبَرْقُ فِي جَمَاهَا وَأَسْرَهَا، تَدْمِغُ الْفَرَسَانَ وَتَصَافِحُ رِقَابَهُمْ، مِنْهَا مَا سَوَّى فِي الْهِنْدِ وَأَحْكَمَ صَنْعَهَا، وَمِنْهَا مَا شَادَ مُلَكًا مُؤْتَلًّا فِي صُرُوحِ حَقَبَاءَ وَسَنِينَ طَوِيلَةٍ.

(١) الدِّيَّان: ق ٢٨ / ب ١ - ٣.

وكان من شأن هذه المعاني كافة أن نُظِّمَتْ وعُدِّدَتْ في خولان وحدَها، ونأت بنفسها عن قبائل أخرى مثلما فعل معظم الشعراء، وأحياناً كان يحشر الشاعر هذه المعاني الفخرية في بطن دون بقية البطون كفعل عمرة الحيوانية حينما أنفقت قوافي لاميته في بني حي، وكثير بن عمرو الشهابي الذي أفنى كلماته في تركية أنساب بني شهاب وصفاء محتدهم، ورسوخ أقدامهم في العز؛ وربما تبجح الشاعر في هذا الأمر وخصَّ به ثلَّة من القبائل كما فعل مغرق الأكبر في يائته.

ويتَّضح لدينا أيضاً أن معظم أشعارهم في هذا العصر - غلبت عليها المقطعات - وقد أنهت معاني الحماسة والفخر، حتَّى أن غير مقطعة أتت على معنى أو معنيين فقط من معاني الحماسة، مثلما نجد عند المقدم بن زيد الحيواني.

وكثيراً ما كان يمتزج هذا الفخر بقريته الفخر الذاتي، الذي تبين إبان البحث والتتقير فيما انتهى إلينا من أشعار خولان وتفلُّتها من أيدي الضياع والاندثار، قلَّته وشحُّه حتَّى لا تكاد تنهض الأبيات التي وصلت إلينا - وهي يسيرة جداً - بقصيدة ممَّا كان يحفظه السلف من شعر شاعر من الشعراء في هذه البابة، أو ممَّا وصل إلينا من قصيدة حماسية من أشعار الفحول، ومردُّ هذا الأمر كما أسلفنا في غير مناسبة إلى ضياع أشعار القوم من جهة، واحتجاب تأليف الهمداني عنَّا الذي تفرَّد برواية أشعار القوم من جهة أخرى. فلم نلاحظ هذا الفخر إلا في ثلاثة مواضع فقط، وكان لا يظهر إلا لمحا في أثناء قصيدة، أو مقطعة في الغالب، أو في نتفة، ولم يُقصد غرضاً لذاته عند أحدهم، بل كان مدخلاً للحماسة والفخر القبلي عند عمرو بن زيد (مغرق الأكبر) الذي جعله سبيلاً يسلكه للوصول إلى مناقب القوم ومآثرهم، ذكّر عرضاً بعد أن أفضى إليه الفخر القبلي في قصيدة لم تخل من المعاني المدحية ببني حي بن خولان، فكان في نتفة اختلط فيها القبلي بالذاتي، وهي فيما يبدو بقية قصيدة تغولتها غوائل الأيام، يذكر فيها عمرو بن زيد (مغرق الأكبر) جلب قومه الكريبات من الخيل النجيبات منها، المكتنزات من اللحم العظيما المشرفات من مكان بعيد ليُخرج بني حي من (صعدة) موطنهم، إلى صعيد مصر؛ لما اقترفته أيديهم من سوء الفعل ووضعيه حينما حصوا رجلاً

من بني الحارث بن سعد كان قد تقدّم لخطبة إحدى كرائمهم، فرفضوه وأكبروا نفوسهم عليه حتى كانت الحرب التي أدّت إلى تشريدهم، يقول^(١):

جَلَبْنَا عِتَاقَ الْخَيْلِ مِنْ بَطْنِ لَيْيَةٍ بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْبُو كَلَاكِلُهُ
فَأَلْحَقْتُ حَيًّا بِالصَّعِيدِ بِمَا جَنَوَا وَأَقْفَرَ مِنْهُمْ حُنْفُورٌ فَقَابِلُهُ

ومثلاً فضّ بيضة بني حيّ وشتّت شملهم في صقع شاسع، فإنّ رأيته شاخحة لا تزول أبداً، عالية سامقة، بفضل صولة فرسان كندة وجولة كرام عبد مالك وحيّ شرحبيل الذين يأبون الفرار والنّجاة إذا دارت عليهم الدّوائر واحتوشهم العدو من كلّ جانب، ممّا يقوّي الشّاعر ويشدّ أزره وعزيمته على الكرّ والفرّ^(٢):

إِذَا خَطَرَتْ حَوَليَ بِهَالِئِلُ كِنْدَةٍ فَمَا رَأَيْتِي عِنْدَ اللَّقَاءِ تَزُولُ
إِذَا اجْتَمَعَتْ لِي الْغُرُّ مِنْ عَبْدِ مَالِكٍ وَحَيِّ شَرْحِبِيلٍ فَتَمَّ أَصُولُ

وممّا افتخر به الشّاعر أنّ الحرب حينما تُضرم نارها وتعلو ألسنتها، وينهض فرسانها، وينهد كلّ إلى عدوّ، يكون بنو شهاب سنداً للشّاعر وعوناً، يسعفونه ويدودون عنه بضربهم الكبّاش والرّؤوس على أعقابهم - وهم أذلاء لا محال -؛ ليلحقوا العار بهم والدّلة، ويطاردون آخر فلولهم، وهم لا يقدرون على الفرار والنّجاة، ولا يفوته أن يفاخر بطريف مجدهم، وتليد عزّهم على مرور الأزمان والأيّام^(٣):

أُولَئِكَ قَوْمِي إِنْ رَمَيْتُ رَمَوْا مَعِي وَإِنْ يُسْعِدُونِي، فَالْعَدُوُّ ذَلِيلُ
هُمْ يَضْرِبُونَ الْكَبْشَ حَتَّى يَفُوتَهُمْ عَلَى عَقْبِهِ، وَالْجَدُّ مِنْهُ كَلِيلُ
هُمْ وَرَثُوا السَّادَاتِ مِنْ عَبْدِ مَالِكٍ وَعِزُّ شِهَابٍ فِي الْبِلَادِ أَصِيلُ

(١) الدّيان: ق ٥/ب ١-٢.

(٢) الدّيان: ق ٤/ب ١-٢.

(٣) الدّيان: ق ٤/ب ٣-٥.

ولم يكن عزُّ بني شهاب ومجدُّهم في البلاد ثابتاً وقديماً، إلا لوجود المحنِّكين الأذكىء من الرجال، أصحاب الرؤوس المرفوعة، السادة والأقيال الذين شادوا ملكاً عظيماً وعِزّاً عزيزاً، هم منارة يهتدي بنورها الشاعر في حلقة الليل وبُهمته إذا انعدم وجود الدليل والهادي الذي يهتدي به^(١):

هُمُ وَرَثُوا السَّادَاتِ مِنْ عَبْدٍ مَالِكٍ وَعِزُّ شَهَابٍ فِي الْبِلَادِ أَصِيلُ
وَفِي كِنْدَةِ الشُّمِّ الْمُلُوكُ نَقَابُهُمْ وَمَا زَالَ فِيهِمْ سَادَةٌ وَقِيُولُ
بِهِمْ اسْتَضِيءَ الدَّهْرُ فِي كُلِّ بُهْمَةٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي فِي الْبِلَادِ دَلِيلُ

ومَّا افتخر به المصعب بن زيد الحيواني أَنَّهُ من خالص بني حيٍّ، بل من أشرفهم وكرامهم، سما وتناهى نسبه في السمو والرفعة، وعلا حتَّى فاق كل متفاخر، وقد جاء فخره الذَّاتيَّ عرضاً غير مقصودٍ لذاته في قصيدة جعلها الشاعر للحماسة والفخر القبليِّ، فوجد في نفسه سعة للوقوف على علوِّ نسبه وتطاوله في السمو^(٢):

أَنَا ابْنُ عَدِيٍّ فِي صَمِيمٍ صَمِيمِهَا سَمَوْتُ إِلَيْهَا فِي الْفُرُوعِ الْأَطَاوِلِ

أمَّا ما جاء من شعر الحماسة والفخر لشعراء خولان المخضرمين في صدر الإسلام ففيه القبليُّ والذَّاتيُّ، ويرجع معظم فخرهم القبليِّ وحماستهم إلى حروب طاحنة كانت مشهورة في قبائل قضاة وقيس عيلان، لطمع الأخيرة بأرضٍ لقضاة اليمن، وأتت الجميع النذيرة، وهم على أشدِّ ما كانوا من القتال، فاختلطت خولان ونهد وجرم بمذحج أيضاً، بقيادة فارس العرب وحيتها عمرو بن يزيد العوفي الذي ثنى قبائل قيس عيلان عن موقفها، وفَضَّ بيضتها، وجندل فرسانها في أعتا المعارك وأشدّها، ومَّا انتهى إلينا من أخبار تلك الأيام يوم بيشة ويوم الغمير المشهود، وما جرَّت تلك الأيام من حلف عقده أشراف قضاة وساداتها مع الملك الحميريِّ سيف بن ذي يزن الذي أمدهم بخمسة أقيال، لمؤازرة خولان وأخواتها ضد هوازن وسليم، ونتج عن ذلك الحلف من خيانة وغدر وشتات

(١) الديوان: ق ٤/ب ٥-٧.

(٢) الديوان: ق ١٠/ب ٣.

لقبائل قضاة، حتى ظفر عمرو العوفي بالخائن مرّ بن عامر بن الحارث بن زرعة بن سبأ الأصغر الحميري - وهو أحد الأقيال المدد - وقتله جبهة على رؤوس الأشهاد، وثمة أشعار لا ترتبط بهذه الأيام والوقائع وما جرى فيها، وإنما قصدت لذاتها بالفخر بحياسة الملك زمناً طويلاً، والمفاخرة بالنسب والاتصال بأرومة شريفة خالصة.

ولم يصل إلينا من حرب الغمير إلا ثلاث قصائد ثنتان لعمر بن يزيد العوفي وثالثة للمحنون العوفي، فنجد عمراً العوفي في أولها يفاخر بقتله عُمارة بن مرداس السلمي، ولم يكن يومئذ أخوه العباس بالحضرة، وقد استهل قصيدته البائية بتصوير الراحلة، والعناء الذي أصابها، والجهد الذي بلغها حتى باتت عيونها غائرة صغيرة، وقد خضّبها العرق ونال منها، وما إن لاحت خيوط الفجر الأولى وتبلّجت حتى سلّت قبائل قضاة سيوفاً من أغمادها، ونثلتها فوق الأكتاف، وقد أُنْهَبَتْ جماجم أعتا فرسان بني سليم وأكثرهم شدة وعلوّاً في الشرف والنسب، وأُسْقِيَتْ من دمائهم حتى ملّت الشراب وردوا إليهم مُعَلِّمين غير مختلسين للظفر بهم وتمريغ أنوفهم بالتراب^(١):

فَلَمَّا بَدَأَ صُبْحُ، وَلاَحَتْ خِيُوطُهُ	نَثَلْنَا عُرَى الْمَاذِي فَوْقَ الْمَنَاقِبِ
وَجِئْنَا إِلَيْهِمْ جَهْرَةً فِي بُيُوتِهِمْ	بِكُلِّ رَفِيقٍ حَدَّ عَضْبِ الْمَضَارِبِ
فَخَرَّ عَمَارُ الْخَيْرِ يَكْبُولُ وَجْهَهُ	وَفَتَيَانُ صِدْقٍ فِي رَفِيعِ الْمَنَاسِبِ

وقد سقط أشرف الفرسان وأعتاهم، بل أكرمهم حساباً ونسباً، صرعى لا حويل لهم بسيوف قواطع مجلّاة تخيرها سادة خولان وأشرافها ومن آزرها وساندها من ذؤابة نهد وراسب الذين يتيهون ويتبخثرون ويجرون ذيول الكبرياء والعظمة والفخار؛ لما فعلوا بغرة بني سليم من قتل وكسر لشوكتهم يقول^(٢):

بِسَادَةِ خَوْلَانَ بْنِ عَمْرِو ذَوِي الْعُلَا	وَبِالصَّيْدِ مِنْ أَبْنَاءِ نَهْدٍ وَرَاسِبِ

(١) الديوان: ق ٣١/ب ٣-٥.

(٢) الديوان: ق ٣١/ب ٦-٧.

هُمْ صَبَحُوا مَاءَ الْغُمَيْرِ فَأَزْمَدُوا خَيَارَ سُلَيْمٍ بِالسُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ

وتزدحم المعاني، وتتعدد مشاربها، وتختلط صورها بين حكمة وفخر ذاتي وآخر قبلي في قصيدة يذكر فيها عمرو بن زيد العوفي إجارته رأساً من رؤوس بني سليم وهوازن في يوم الغُمَيْرِ لاذ بحماه، وكان لعمرو فيه قصاصٌ، وقد صُرِعَ من سادة خولان وأشرافها من صرع من مثل: سعد بن يعلى، ومالك بن مسعود ابن أخي عمرو العوفي، وغيرهما، حتى لحاه قومه ونافروه؛ لما قدّمه من حماية ذلك السَيِّدِ المعظم في أهله، فاختلطت معانيه الشعرية حتى أشرب بعضها معنى الحماسة والقبلي من فخره، وغدّي صورها، وإن بدت غير شديدة المكنة في هذا الغرض، فمما فخر به أنه وقومه أوفياء لم يعرفوا الغدر يوماً، وليس من صفاتهم وشياتهم، يرعون من يلوذ بفيئهم ويستظلّ بحماهم، ويدودون عنه ما ذرّ شارق، لا خوفاً من أحد، ولا جبناً ولا ضعفاً ولا وهناً، ولكن حكمة تذكي بين السادة وتُعرف لدى العظام يقول^(١):

أَجَرْتُ يَوْمًا أَسِيرًا، فَأَبْتَدَرْتُ لَهُ مَا نَحْنُ فِيهَا مَضَى مِنْ قَبْلِنَا غَدْرُ
فَأَثَرُكَ صَنِيعَةٍ مَا أَمْسَيْتَ تَكْتُمُهُ بَيْنَ الضُّلُوعِ فَمَا فِي عُودِنَا خَوْرُ

فهم أصحاب أخلاقٍ كريمة، وصفات عظيمة، يصرعون الفرسان ويجندلون الأبطال في المعارك، ويجيرون من يلوذ بهم، ولا يغيرون عليه ويقتصّون منه^(٢):

نُجِيرُ يَوْمًا خَفَارَاتٍ وَنُنْقِذُهَا وَنَحْنُ نَدْفُنُ سَادَاتٍ لَهُمْ خَطَرُ

إنّ الوفاء وعدم الغدر، والقوّة والشجاعة والشّهامة والبروز للعدوّ، وترك التّستر منه، ودفع الفرسان بسيف قُضْب، هي المعاني التي وردت في شعر حَيَّةِ العرب وَلِسَانِ خَوْلَانَ عمرو العوفي، ونجد لهذه المعاني أمثالاً في شعر المحنون العوفي الذي يستمدّ مادته في فخره من فيالق خولان وفرسانها الأشاوس الذين يسعفونه في فخره، فهم الذين تعرفهم الحرب إذا ما أَضْرِمَتْ نَارُهَا

(١) الديوان: ق ٤٣/ب ٣-٤.

(٢) الديوان: ق ٤٣/ب ٦.

واستعرت وتعالّت ألسنتها التي يديرونها كيفما شاؤوا وأرادوا، فتضع أوزارها، وتأتي أكلها لصالحهم^(١):

فَالْحَرْبُ تَعْرِفُنَا يَوْمًا إِذَا لَقَحَتْ أَنَا سَنُنْتِجُ مِنْهَا بِكَرْهًا رَتَعَا

ويفخر بحمايتهم للجار الذي يلوذ بهم، ويحتمي بسيوفهم، وما عرف عنهم أنهم غدروا بمستجير، أو بنازل بهم شسع في البلاد وأوعر فيها هرباً من كيدهم وغدرهم الذي لا يطولون به حتى عدوهم^(٢):

إِنَّ الْأَسِيرَ، أَسِيرُ الْقَوْمِ فَاعْتَرِفُوا مَا خَافَ يَوْمًا لَنَا جَارٌ وَلَا شَسِيعًا

كما يفخر بإرخاصهم أنفسهم وبذلها زهيدة، بخسة للموت الذي لا يهابون غماره في ساحات القتال، ولا يمكن لخصم أن يتقي ضربات سيوفهم؛ إذ إن الموت مرابط تحت ظلّها، ينتظر بُدُوها ومن ثمّ سرعتها، وهي تدمغ الفرسان وتصافح رقابهم^(٣):

نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الرِّوْعِ ضَاحِيَةٌ وَلَا يُتَّقَى حَنْفُهَا يَوْمًا إِذَا طَلَعَا

وكان أيضاً يوم بيّشة من الوقائع التي لهج الناس بذكرها، وتغنّوا بنتائجها وتفاخروا بخوض غمارها، منهم عمرو بن يزيد العوفي الذي يفاخر - منبهاً عشيرته - بقوة فرسانه وشدة بأسهم أن لا يفزعوا ولا ينكصوا إذا ما تناهى الشرّ وطالت ألسنته أجسادهم، ولا يجبنوا إذا ما كشرت الحرب وأبدت نواجزها، فهم أهل الثبات والصبر والجلد في يوم عصيب تدعر الشّمطاء منه، بل يكشفون قناع هذه الحرب بفتيان عزّ نظيرهم ونَدّ في غيرهم من العرب جميعهم، متوثبين، صدورهم تستشيط غضباً وغيظاً يقول^(٤):

فَلَا تَجْزَعُوا إِنْ أَسْفَرَتْ مِنْ نِقَابِهَا فَإِنَّا نُجَلِّيْهَا بِكُلِّ فَتَى شَهْمٍ

(١) الديوان: ق ٦٥/ب ٣.

(٢) الديوان: ق ٦٥/ب ٦.

(٣) الديوان: ق ٦٥/ب ٧.

(٤) الديوان: ق ٤٩/ب ١.

وهم عِدَّةٌ لقومهم وعَتَادٌ يتقَوُّون بهم على خصومهم، يستظلُّون بفيء رماحهم، ويحتمون بسيوفهم القواضب، فيسحجون مَنْ يريدون إلحاق الذَّلَّةِ به، فيصير ثاوياً بين طمرين في التراب، كما يفخر أيضاً بجلبه خيولاً من أسفلِ قصبَةِ صنعاء باليمن، من قصر غُمَدَان، وكأني بها من العتق والنَّجاة ما جعلها مفضَّلةً على غيرها. ترامت إليهم وهوت برماحٍ مثقَّفةٍ أُعِدَّتْ لانتظام كُلِّ الخصوم، سودٍ لكثرة ما وردت بطون الأعداء وأشربت من دمائهم^(١):

فَإِنَّ لَنَا رُكْنًا نَلُودُ بِقَيْئِهِ فَتَفْحَسُ مَنْ شِئْنَا وَيُصْبِحُ فِي الرَّدْمِ
مِنْ أَسْفَلِ غُمَدَانٍ جَلَبْنَا جِيَادَنَا تَرَامِي إِلَيْكُمْ بِالثَّقَفَةِ السُّحْمِ

وعلى قضاة - بما فيها خولان - جرَّت تلك الأيام حلفاً عُقِدَ مع الملك الحِميري سيف بن ذي يزن، فأمدَّ جيش قضاة بخمسة أقيال هم من أكثر قوَّاده بأساً وفتكاً بالعدو؛ للمؤازرة وللعون على قبائل قيس عيلان هوازن وسليم. وكان من هؤلاء من أحلَّ بجيش خولان، وفرَّقها وشتَّت قوتها وبدَّد شملها ببوَّحه بكلِّ سرٍّ وخطَّةٍ تعقد إلى هوازن وسليم، وقتله الحُصَيْن بن حريز الخنفرى أحد الأقيال المدد، فنال حظُّه من الخيانة واللُّوم.

فهذا عمرو بن يزيد العوفيّ يفخر بميله على مُرَّ ذي سخيم... بن زرعة بن سبأ الأصغر - حينما أظهر بغضه وحقدته وعداوته بغضبٍ وعذابٍ شديدين أزالاه من الوجود، وجعلاه خاوياً لا قوَّة له ولا ذكر يُلْهَجُ به، وإنَّما الذِّكر واللَّهَج لفوارس بني عوف بن زيد بن أسامة، الذين إذا ما طعنوا برماحهم المثقَّفة تركوها في نحور خصومهم يجرونها وراءهم، كما أنَّ جبال الأرض ترتحل عن أماكنها وتحتمل، خوفاً وذعراً من بطشهم وكيدهم؛ لأنَّهم بشرُّ إذا ما كانوا آمنين مطمئنين، وجنُّ إذا ما ركبوا مراكب الغضب والغيط، يفعلون فعلهم، ويسلكون سبلهم التي يجهلها غيرهم حتى لتبدو السيوف التي في أيديهم مشاعلَ نارٍ، أو هي نار تحرق كلَّ مَنْ يلامسها، وقد زحفوا إلى الحصن الذي لاذ فيه مُرُّ بن عامر الخائن، وامتنع خلف أسواره وما إن رأى سيوف القوم قد لاحت بوارقها من

(١) الديوان: ق ٤٩/ب ٣-٤.

بعيد حتى دَبَّ الفزع في نفسه، وتملكه الهلع، ولمعت فرائصه في عدوٍ سريع، هارباً من الموت يقول^(١):

لَمَّا أَبَانَ لَنَا مُرَّ عَدَاوَتِهِ مَلْنَا عَلَيْهِ بِرَجَّاسٍ لَهُ زَحْلُ
مِنْ آلِ عَوْفٍ، إِذَا جَرُّوا رِمَاحَهُمْ حَسِبْتَ مِنْهُمْ جِبَالَ الْأَرْضِ تَحْتَمِلُ
إِنْسٌ إِذَا أَمْنُوا، جِنٌّ إِذَا غَضِبُوا تَحْتَ الْعَبَاجَةِ فِي أَيَّامِهِمْ شُعْلُ
سَرْنَا إِلَى حِصْنٍ مُرٍّ حِينَ لَذَبِهِ فَلَمْ يَكْدُ عَنْ طُبَا أَسْيَافِنَا يَيْلُ

ويفخر عمرو العوفي في القصيدة نفسها بصرع نوال بن عتيك غلام سيف بن ذي يزن المشهور بنازع الأكتاف؛ لشدة فتكه وجبروته، وكان أحد الأقيال المدد لخولان في حربها مع قبائل قيس عيلان «وتصوير قوة الخصم يحمل في طبيّاته تصويراً لقوة من نهض لمحاربته»^(٢)، وذلك لما أبداه القيل من خيانة وغدر بجيش خولان وميل لهوازن وسليم. فدلف نحوه عمرو العوفي في روية ومهل حتى جادت يده بطعنة نجلاء برمح مطوّاع حرّت أحشائه حتى صار الدّم يتصبّب منها بغزارة وكأنّه سيل فبات جثة هامدة لا حراك فيها، كأنّه جذع نخلة قد يبس أو قُطِعَ من أرومته... وقد مُرَّغ وجهه بالتراب حتى يهينه ويذلّه أيّما إهانة وذلّ، ولم يكن ليقتله ويصرعه إلا مَنْ هو ندّ له وكفء، صاحب زهو وتيه واختيال، وكأنّه الأسد في طلعتة ومشيته، لا يخشى ملامة أو عتاباً من أحد، حتى لو كان الملك الحميري ذاته هو الذي سيعاتبه^(٣):

وَقَدْ تَرَكْنَا نَوَالاً لَا حَوِيلَ لَهُ كَأَنَّهُ الْجِدْعُ، جِدْعُ النَّخْلَةِ الْقَطِلُ
لَمَّا أَبَى حُكْمَ مَوْلَاهُ دَلَفْتُ لَهُ مَنِّي بِأَسْمَرَ أَلْيِهِ فَيَنْقَتِلُ
حَتَّى اجْلَعَبَّ عَلَى الْخَدَيْنِ مُنْعَفِراً وَفَوْقَ حِزْزُومِهِ غَرَّافَةٌ تَهْلُ

(١) الديوان: ق ٤٨/ب ١-٤.

(٢) ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٢٩٥.

(٣) الديوان: ق ٤٨/ب ٥-٨.

مِنْ كَفٍّ أَصِيدَ لَا يَخْشَى عَوَازِلَهُ وَلَيْسَ يَدْخُلُ فِيهِ اللَّوْمُ وَالْعَدْلُ

ولا تبرح خيانهُ مُرَّ بن عامر عقل عمرو بن يزيد العوفي؛ لما كان لها من أشدَّ الأثر في نفسه،
فانعكست صوراً يذكرها ويرددها غير مرّة في أشعاره^(١):

أُتِينَا بِمُرٍّ كَي يَقُومَ بِنَصْرِنَا فَنَوَّحَ فِينَا - يَا لِقَوْمِي - الدَّوَاهِيَا
فَدَبَّتْ إِلَيْهِ فِي الْحَدِيدِ عَصَابَةٌ فَأَصْبَحَ رَهْنًا بَيْنَ طُمَرَيْنِ ثَاوِيَا

وهذا وقد أهلكت جماعة من الفرسان مُرّاً، وجعلته خاوياً في القبر، ولم يكن عمرو بن حجر المالكِي بمنأى عن هذه المعاني، إذ لم يَقْتَهُ أَنْ يَفْخَرُ بِمَصْرَعِ ذَلِكَ الْخَائِنِ - في نتفة هي بقيّا قصيدة في غالب الظَّنِّ - فقد أُسْقِيَ سَمًّا ذَعافاً يَقْتُلُهُ مِنْ سَاعَتِهِ بِرِمَاحِ رُدَيْنِيَّةٍ جَدِيدَةٍ بَدَتْ كَعُوبِهَا عَطَشِي لِلدَّمَاءِ وَسَفْكَهَا، وَبَسِيفٍ - مَتَوْنُهَا بَيَضٌ - لَاحَتْ فِي الْجَوِّ، وَأَرْسَلَتْ بِرِيقًا أَبْيَضَ جَمِيلاً، كَأَنَّهُ الْبَرْقُ سُرْعَةً وَعُلُوًّا فِي كَفٍّ ثَائِرٍ مَوْتُورٍ، لَمْ يُشَفَّ غَلِيلُهُ إِلَّا بِقَتْلِ مُرَّ بن عامر الذي باعهم بأوكس الأثمان إلى عدوّهم يقول^(٢):

أَلَا هَلْ أَتَى أُمَّ الْحُصَيْنِ بَأْنَنَا سَقَيْنَا ذُعَافَ السُّمِّ مُرَّ بنَ عَامِرٍ
بِكُلِّ رُدَيْنِيٍّ ظِمَاءٍ كُؤُوبُهُ وَأَبْيَضَ مِثْلِ الْبَرْقِ فِي كَفٍّ ثَائِرٍ

نلاحظ من خلال ما سلف وبمقالة سريعة: أن قوّة فرسان خولان والاعتزاز بهم، وشدة بأسهم وفتكهم بالعدوّ، وبذلهم أنفسهم رخيصة للموت الذي لا يهابون، وخوضهم غمار المعارك الطّاحنة، وجندلتهم أعتا الفرسان وتأديب خصومهم، وتمريغ أنوفهم بالتراب والوحل، هي المعاني التي استلهمها الشعراء من واقع القوم المعيش يضاف إليها معاني أخرى. منها الافتخار بأرومة النسب وصفائها من كل شائبة حتّى لتعلو على كلّ المناسب إلى الذّروة والرّفعة، إذا ما عدّدت أرومات النسب في مجالس الأقوام، ومنها أيضاً السّبق إلى الاشتهار والصدارة على كلّ الأقران، ومن معاني

(١) الدِّيوان: ق ٥٢/ب ٣-٤.

(٢) الدِّيوان: ق ٥٨/ب ١-٢.

فخرهم وحماستهم أيضاً أنهم يواظبون على اقتناء خيولٍ جسيمةٍ، مشرفة مرتفعة الخلق، صافية في نسبها، أصيلة في عُرْبَتِها، جريئة، في ظهرها المنأى عن الأذى، وفيها لمن خاف العدى مُتَعَزِّلٌ، وقد استطاعوا أن يبطشوا بخصومهم، ويقهروهم بقتلٍ وتشريدٍ واستباحة للحمى، وهم أبداً الممتنعون المُتَحَصِّنُونَ، اللَّائِذُونَ بظُلِّ سيوفهم التي أنهبوها هاجمَ أعدائهم وأسقوها من دمائهم، وأنالوها من أحشائهم، ولم يتركوا لهم فرصة تُفْتَرِصُ للقصاصِ منهم، وتُنْتَهَزُ لقهْرهم ولو لمرة واحدة يحفظون بها ماء وجوههم اللاتي مُرَّغت بالعار والذل والقهر يوم الحنو يومئذٍ نَهَدَ عمرو بن زيد (مغرق الأكبر) بفرسانه الأشداء لتغلب وأشياعها، فظفر بعَتَّاب بن سعد بن زهير التغلبي، وحاطب بن حِلْزَة الشكري، وهل أحسن من هذه المعاني مدعاة للفخر في كلمة قصيرة لعمرو بن حجر المالكي الذي يجعل الفخر الذاتي مدخلاً للفخر بقومه الذين سلف وصفهم يقول (١):

وَإِنِّي لَمَنْ بَيَّنِّي أُسَامَةٌ فِي الدُّرَى	إِذَا حُصِّلَتْ يَوْمًا كِرَامُ الْمَنَاسِبِ
لَنَا الْبَيْتُ مِنْهَا وَاللَّوَاءُ وَسَبْقُهَا	وَفِينَا رِبَاطُ الْمُعْرَبَاتِ السَّلَاحِ
أَبِينَا فَلَا نُعْطِي الْعَدُوَّ مَقَادَةً	لَنَا السَّطْوَةُ الْغَلَبَاءُ يَوْمَ التَّغَالِبِ
أَلَيْسَ أَبُونَا قَادَ لِلْحَنُوِّ جَمْعُهُ	فَفَارَزَ بَعْتَّابٍ وَعَلَى بِحَاطِبِ

نلاحظ أنَّ الافتخار بالأصل والمحتد، والبروز للعدو، وتأديب الخصوم، وصرع الفرسان، وحماية الجار والذمار، والأخلاق الحميدة، وقهر العدو، وإعمال الرمح والسيف في نحورهم ورقابهم، والقوة والمنعة ورباطة الجأش، وتملك الخيول الطويلة الصافية، وغير ذلك من المعاني الحماسية، وهي المعاني التي استلهمها شعراء الفخر القبلي في الجاهلية.

أمَّا الفخر الذاتي فلم يكن بعيداً عن تلك المعاني؛ لأنَّ الفرد في مجتمع القبيلة جزء منها لا يتجزأ، ويشكل لبننة أساسية في بناء قبيلته أو عشيرته.

(١) الديوان: ق ٥٦/ب ١-٤.

وما وُقِفَ عليه في هذا الموضع من فخر ذاتي، ذهب بكلّيته عمرو بن يزيد العوفيّ عدا موضعاً واحداً لعمرو بن حجر المالكيّ - وقفنا عليه فيما سبق - كان قد جعله صاحبه مفتاحاً للفخر القبليّ، وما جاء في ذاتيّ عمرو العوفيّ وحماسته خمسة وعشرون بيتاً، أنهبها معاني القوّة والشجاعة والإقدام، والاعتدال وعدم الانتباه للموت - فإن كان الحتف فلا أَسَفَ ولا حزن - وغشيان الكماة، وقتل الملوك والأقيال، والتّهديد والوعيد للمتلاعبين بأمصار النّاس، الغادرين بالقوم والأهل، والانتساب إلى أرومة صافية، باسقة في مدارج الأنساب، خالصة من كلّ شائبة.

ويذهب عمرو العوفيّ ليفتخر بنفسه في مقطّعة تشتّت بعض أجزاءها من الإكليل في موضعين فمزج فيها بين فخره الذاتيّ، وفخره ببني شهاب الذين دخلوا معه في حرب مذحج وحرب هوازن وبني سُلَيْم، وقد أشبَل السُّلَمِيُّونَ وأحلافهم على عمرو العوفيّ، وكان قد أُرْذِي من فرسه بطعنة فاستنقذه بنو شهاب، وهو لم يَرْتَثْ كُلَّ الارتثاث، فركب ونجا وهو غاضبٌ يخرج ما لديه من نشاط وقوّة، ويحفّز فرسه على الهجوم، ويستنهضه للدّخول في حمام المعركة ولهب نارها، وإن كان حتفه قد دنا واقترّب أو وقع فلا مهابة ولا أسفاً، ويفخر ببني شهاب، فهم ذؤابة قومه وعزّتهم، أهل الضّرب والصّبر والثبات على المكاره، الذين سلّوا السيوف حوله، يذودون عنه، وينعم هو في حماهم الذي لم يصبه أحد بسوءٍ، وبهم يُجَلِّي الصّفوف ويشقّ على خصومه، ويبدّد جمعهم إذا ما تحفّز للقتال وتهايّاً يقول^(١):

حَمَلْتُ عَلَى الْكَتِيبَةِ مِنْ مَعَدٍّ	وَلَوْ أَنِّي قُتِلْتُ لَمَا حَفَلْتُ
حَمَلْتُ الْمُهْرَ إِذَا حَمَيْتَ لَهَا	وَلَا وَاللَّهِ مَا فِيهَا نَدِمْتُ
حَمَتْنِي الْغُرُّ، إِخْوَتُنَا شِهَابٌ	لَهُمْ كَانَ الْمِصَاعُ بِحَيْثُ كُنْتُ
رَمَوْا دُونِي وَسَلُّوا الْبَيْضَ حَوْلِي	وَفِي نَعْمَاءٍ سَادَتِهِمْ قَفَلْتُ
أُولَئِكَ مَعْشَرِي وَسَرَاةُ قَوْمِي	بِهِمْ أَرْضَى هُنَاكَ إِذَا غَضِبْتُ

(١) الدّيون: ق ٣٥/ب ١-٦.

شَهَابُ رَأْسِ خَوْلَانَ بْنِ عَمْرٍو بِهِمْ أَفْضَى الصُّفُوفِ إِذَا حَمَلْتُ

وقد علّق الهمدانيّ ذاته على البيتين الأولين بقوله: «البيتان الأولان من الشّجاعة بموضع، وأبيات سَمِيهٍ أَنْدَرُ»^(١) وأراد بسميّه عمرو بن يزيد السّعديّ، وهو شاعرٌ أمويٌّ له في هذه البابَة أشعار جميلة ستأتي في موضعها، للهمدانيّ كلام فيها وإذا ما رأى عمرو العوفيّ في مقطّعةٍ أخرى التفاتاً من خصمة يمنيةً ويسرةً أو نظراً مشتتاً، انتهز الفرصة وانقضّ عليه لا فزعاً ولا خوفاً ولا جنباً، وهاهو ذا يرمي مالك بن يزيد الصّدقيّ الملك في حرب الأشبَاء والصّدْف وحَضْرَمَوْت التي شهدها مع سيف بن ذي يزن الحميريّ، فيردّيه صريعاً ممّا دفع شاعر الصّدْف للقول فيه هاجياً^(٢):

أَلَا سَلْتُ يَمِينُكَ يَا بَنَ زَيْدٍ فَقَدْ أَوْرَيْتَ زُنْدَكَ فَاسْتَنَارَا

ونراه يفرّغ إلى تصوير قوّة ذلك الملك وشجاعته، فينعتّه بالصّنديد، المخلّص من الأدْران والعيوب، و«تصوير قوّة الخصم يحمل في طيّاته تصويراً لقوّة من نهض لمحاربتّه»^(٣) وقد أشرت إلى مثل هذا في غير هذا الموضع يقول^(٤):

أَغَشَى الْكُفَاةَ إِذَا تَرَا جَعَ لَحْظُهَا لَا طَائِشًا فَرَقَا وَلَا رِعْدِيْدَا
وَلَقَدْ جَلَسْتُ مَجَالِسًا مُحْمُوْدَةً وَحَزَزْتُ مِنْ حَلْقِ الْمَلِيْكَ وَرِيْدَا
وَقَتَلْتُ ذَا التَّاجِ الْمُهَذَّبِ مَالِكَا وَلَكُمْ أَفْتُ مُهَذَّبًا صِنْدِيْدَا
مَا قُلْتُ إِلَّا الْحَقَّ قَوْلًا فَاغْلِيْمي أَبْدي بِذَاكَ بَرَاهِنًا وَشُهُوْدَا

وفي قاله أخرى يفخر بقتله هذا القَيْلَ بقوله^(٥):

وَلَقَدْ تَرَكْتُ أَخَا الْمَهَابَةِ مَالِكَا رَهْنَ الضَّرِيْحِ مُرَمَّلًا مَذْفُونَا

(١) الإكليل: «المخطوط ١/ ١٢٢، المطبوع ١/ ٤٦٢».

(٢) الإكليل: «المخطوط ١/ ٨٨، المطبوع ١/ ٣٧١».

(٣) انظر: ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدّراسة) ٢٩٥.

(٤) الدّيان: ق ٣٩/ ب ١-٤.

(٥) الدّيان: ق ٥٠/ ب ١-٢.

وَلَقَدْ رَمَيْتُهُ تَحْتَ مَفْرِقِ رَأْسِهِ وَتَرَكْتُ لِلنَّسْوَانِ فِيهِ رَيْنَا

وفي قصيدة أخرى يَلْتَفِتُ إلى عددٍ من المعاني التَّقْلِيدِيَّةِ، يَصَوِّرُ فيها قُوَّتَهُ، وفتكه، وشدة بأسه، وإيقاعه بخصمه الذي تَجَنَّى عليه وغشَّه، وظَلَمَهُ ظُلماً شديداً، فأبدى له طَيِّبَ الْكَلَامِ وحلوه، وأضمر له حقداً وكرهاً كبيرين، وأباح إلى قبائل قَيْسِ عَيْلَانَ كُلَّ سِرٍّ، ومنزج كُلَّ خِيَانَةِ بَغْدِرٍ، ولم يترك سبيلاً يُسَلِّكُ للإيقاع بعمرُو وإلاَّ سلكه، وكان قد طلب عمرو العوفيَّ عونهُ ومُؤازرته بجيشه على خصومه الذين تَقَرَّبَ منهم، وأفشى لهم أسرارهُ يقول مخاطباً إيَّاه^(١):

بَدَأْتُ لَنَا الْعَدَاوَةَ وَالتَّجَنَّى	وَبَغِيًّا لَيْسَ تَمْزُجُهُ بِسِرٍّ
أَبَانَ لَنَا الْعَدَاوَةَ يَوْمَ سَرْنَا	مُصِرًّا أَيَّامًا ضَغْنٍ مُصِرٍّ
طَلَبْنَا نَصْرَهُ، فَتَلَا عَلَيْنَا	أَحَادِيثًا مَزْخَرَفَةً بِسُخْرِ
فَأَبَدَى غِشَّهُ لِمَا التَّقَيْنَا	بِأَفْبَحِ سَيِّرَةٍ مِنْهُ وَمَكْرٍ
يُيَبِّحُ إِلَى هَوَازِنَ كُلِّ سِرٍّ	وَيُخْلِطُ كُلَّ خَائِنَةٍ بِغَدْرِ

ويرى عمرو العوفيُّ في خذلانه وهوانه وعودته عن موقفه وخيانتته تأكيداً لقتله وإذلاله، وسقائه سُماً ذُعافاً بكأسٍ هو أمرٌ من العلقم، وأكثر منه صبراً، ولسوف يقتل، وعمروٌ غيرُ غاضِبٍ أو هائجٍ، بحرب مُعَلِّمَةٍ، غير مختلس للطَّعان فيها والمضاربة، تفزع منها الشَّمْطَاءُ - وهي مَنْ هي قُمُئاً وقبحاً - وتحيض منها البكر قبل أوانها وبلوغها. كما يفخر بقتل خصمه بكلِّ سيف حَدٍّ ذَكَرٍ، وذلك أدعى للقوَّة، كأنَّ في جانبه هَيْبَ جَهْرٍ يشوُّه ويحرق كُلَّ من يلامسه أو يصافحه، وبكلِّ رُمَحٍ مُثَقَّفٍ مَطْوَاعٍ يجاري صاحبه في المعركة يقول^(٢):

فَإِنْ أَسْلَمَ وَتَعَطَّفَنِي اللَّيَالِي	أُجَرِّعُهُ الدُّعَافَ بِكَأْسِ صَرٍ
وَضَرْباً بِالْمُشْطَبِ غَيْرِ قَطْمٍ	وَطَعْنًا بِالْأَسِنَّةِ غَيْرِ نَبْرِ

(١) الديوان ق ٤١/ب ٢-٦

(٢) الديوان ق ٤١/ب ٧-١١

وَحَرْبًا تُذْعِرُ الشَّمِطَاءَ مِنْهَا وَتُطْمِثُ كُلَّ عَذْرَاءٍ وَبُكَرٍ
بِكُلِّ مُهَنَّدٍ ذَكَرٍ حُسَامٍ كَأَنَّ بَصْفَ فَحْتَيْهِ هَيْبَ جَحْمِرٍ
وَكُلِّ مُقْعَوْمٍ لَدُنْ تَرَاهُ عَلَى عَسَلَانِهِ فِي الْكَفِّ يَجْرِي

ثمّ نراه بعد هذه المعاني التي ألبسها ألفاظه الفخمة يتوعد مرّ بن عامر بأنّه سينجز كلّ أمر عزم على تحقيقه، من إلحاق السّوء به، ومن ثمّ حرّ أحشائه بطعنة نجلاء إذا ما التقيا بجعجاع المكر^(١):

أَلَا يَأْمُرُ وَيَلِكُ فَاَنْظُرْنِي فَلِإِنِّي مَسَاتِكَ سَوْفَ أَفْرِي
وَحَسْبُكَ طَعْنَةٌ مِنِّي إِذَا مَا تَلَاقَيْنَا بَجَعْجَاعِ الْمَكْرِ

ليختم بعد هذه المعاني بتقييحه بـ(مرّ) وتوبيخه ورميه بالشّؤم والخذلان، لأنّه كسر وحدة خولان، وبدّد شملها، وفرّق أهلها وخذلها، ولم يدرك لها أحدٌ بثورٍ منه يقول^(٢):

حَاكَ اللَّهُ مِنْ قَيْلٍ مَشُومٍ فَضَضْتَ الْيَوْمَ بَيْضَةَ آلِ عَمْرٍو
وَقَدْ خَذَلْتَ خَوْلَانَ بَنَ عَمْرٍو وَلَمْ يُدْرِكْ لَهَا أَحَدٌ بِوُثْرِ
فَلَا أُمْسَيْتَ، ثُمَّ قَرِيرَ عَيْنٍ وَلَا أُسْقِيتَ فِيهَا صَوْبَ قَطْرِ

ويجدر بنا ههنا أن نشير إلى أمرٍ مهمّ: هو أنّ ما جاء من شعرٍ لقبيلة خولان في صدر الإسلام، كان خلواً من المعاني الإسلاميّة التي يمكن للباحث أن يجدها عند غير قبيلة، ولعلّ ذلك عائداً إلى عدم تأثر شعرائها بالإسلام، أو أنّ شعراً إسلامياً لهم قيل في الفخر والحماسة ضاع ولم يصل إلينا.

أمّا حماستهم وفخرهم القبليّ في عصر بني أميّة، فلم ينأى بمعانيه بعيداً عن مقيّل حماستهم وفخرهم القبليّ في الجاهليّة وصدر الإسلام؛ لأنّ ما ألفتّه خولان في ممضاها القديم من حياة ملأى بالحروب والوقائع والأيام والفتن، صار سنّة ورثوها أبناءهم، ينهضون بها في مرور أيّامهم، ولا سيّما عندما كانوا يشعرون بحيف أو ضيمٍ من أحدهم، وهم أصحاب أنفة وإباءٍ وامتناعٍ من الخسْفِ.

(١) الدِّيوان: ق ٤١/ب ١٢-١٣.

(٢) الدِّيوان: ق ٤١/ب ١٤-١٦.

فقد دارت معظم معاني حماسهم وفخرهم القبلي في فلك القوة والشجاعة، وضرب الخصوم، وكسر شوكتهم، وخوض غمار الحروب الطاحنة، وما تتطلبه من رباطة جأش وبأس شديدين، وتناولوا الفخر بحياسة الملك زمناً طويلاً، وبأرومة النسب - على قلة ما جاء فيها من أشعار - وعلو المنبت وشرفه وعز أصحابه، وذودهم عن الأهل الذين كانوا ملهماً للفخر أيضاً، وكان نصيب هذا الفخر أوفر حظاً وأكثر حصّة من لفقه الفخر الذاتي الذي كاد أن يكون معدوماً لولا مقطعة ونتفة ييمتان لعمر بن يزيد السعدي.

فهذا الحارث بن عمرو السعديّ حلیم بنی خولان وحکیمها یفخر بقدم قصور أجداده وبقاء رسومها على مرّ العصور والأدھر، وقد كان فيها أبناء الحماة الخضارم من غرة بني جبر وذؤابة معيش فرعا يعلى بن غالب بن سعد بن سعد بن خولان، وهم لباب قومهم وخيارهم، وكذا الأمر في قيوان ويسنم وكهلان، ديار عزها طما على الناس جميعاً، حتى إن السعديين غدوا جهرة غالبية، من جهرات العرب، وهم قلة لا يجاوزون ثلاث جهرات^(١):

لَنَا الدَّارُ فِي تَضَرَّاعٍ بَاقٍ رُسُومُهَا	بِهَا كَانَ أَوْلَادُ الْحِمَاةِ الْخَضَارِمِ
سَرَاةُ بَنِي جَبْرِ وَحَيٍّ مَعِيشُهَا	لُبَابُ لُبَابٍ مِنْ حِمَاةٍ أَكْأَرِمِ
وَدَارِ بَقْيَوَانٍ لَنَا كَانَ عَزُّهَا	تَوَارَتْهَا نَسْلُ الْمُلُوكِ الْقُتَائِمِ
وَيَسْنَمُ دَارُ الْعِزِّ مِنْ دِمْتَي دَفَا	إِلَى أَسْفَلِ الْمِغْشَارِ فَرْعُ التَّهَائِمِ
وَدَارِ بَكْهَلَانَ لِثَبَلٍ أَخِيهِمْ	دَعَامَةُ عِزٍّ مِنْ تِلَاعِ الدَّعَائِمِ
وَأَلْ سَمْعِيدِ جُمُرَةٌ غَالِيَّةٌ	بَسْفَحِي سُرُومٍ بَيْنَ تِلْكَ الرَّجَائِمِ

ومن تلك الجمرة الغالبية عمرو بن زيد الغالبی يفخر بعدم كرهه أو تركه لما اعتاد عليه من سنة سنّها إخوانه وأهلّه، وهي مداومة القتال وخوض الحروب، وذلك عشية ساروا مجتمعين، وقد حشدت خولان ذؤابتها وغررتها، تقود الكتائب المدججة بالرماح والأسلحة الأخرى، عندما أذنت

(١) الديوان: ق ٧٧/ب ١-٦.

الشمس بالغروب، وراحت تلملم ما بقي من أشعتها، وأدلى القوم حتى صبحوا خصومهم بالموت في وسط ديارهم، قبل أن يتبلج الفجر، وترسل الشمس خيوطها الأولى، داسوا بني عوف، وأذلوا ملكهم بميلة بالمناكب يقول^(١):

سَلِي تُخْرِي يَا هِنْدُ هَلْ عَفْتُ مَشْرِي وَهَلْ عَافَهُ قَوْمِي بِجَنْبِ الْأَخْشَبِ
عَشِيَّةَ سِرْنَا حَاشِدِينَ وَقَدْ بَدَتْ مِنْ الشَّمْسِ عَيْنٌ أَوْ تَوَارَتْ بِحَاجِبِ
وَقَدْ حَشَدَتْ فِيهَا ذُؤَابَةُ سَعْدِهَا وَحَيَّا عَدِيَّيَّ بِالْقَنَا وَالْكَتَائِبِ
صَبَحْنَاهُمْ بِالْمَوْتِ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ وَقَدْ لَاحَ ضَوْءُ الْفَجْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
فَدَسْنَا بَنِي عَوْفٍ بِزَوْرٍ وَكُلْكِلَ وَمَلْنَا عَلَيْهِمْ مَيْلَةً بِالْمَنَاكِبِ

ويخاطب المسلم الشهابي عمرو بن يزيد السعدي الذي قُتل بحومة الصراعات الدائرة بين بطون قبيلة خولان ثاراً له من واطريه، ومفاخرأ بوقع جياذ فرسانه في المعركة، وقد أثارت غباراً كثيفاً، حتى بدت الرماح المشرعة كأنها مشاعل نارٍ لاحت من بين ذلك العجاج^(٢):

يَا عَمْرُو لَوْ عَايَنْتَ وَقَعَ جِيَادِنَا لَدَقَى فُؤَادُكَ، حِينَ نَارَ غَبَارِهَا
وَالسَّمْهَرِيُّ شَوَارِعُ أَسْلَاتُهُ قَدْ لَاحَ مِنْ بَيْنِ الْعَجَاجِ نَيَارُهَا

كما يفخر بجموح خيوله بفوارسها في رهج تلك الحرب التي تفرع فيها السيوف بيضات الحديد على رؤوس المقاتلين، وتنفي مقال حير، وتزيلهم عن الوجود، وبنو شهاب أسيادها وقوادها، وإليهم والرجعة في أمورها، ويفخر بأسود (مغرق) الذين يقاتلون خصومهم مقاتلة غريبة الإبل؛ لما فيها من شدة وقسوة، ثم يعود وينادي ذلك الميت لو أنه شاهد فيلقاً من فوارس بني شهاب يقودها جراراً من الأبطال.

(١) الديوان: ق ٧٩/ب ١-٥

(٢) الديوان: ق ٩٠/ب ١-٢.

وفي ذلك الفيلق، الشجعان أصحاب البأس والفتك، مُتَجَهِّمَةً وجوههم تحت ظلال القنا تطلب
النزال، وتحمس الفرسان على الظفر والنصر محمّرة عيونهم تجندل فتیان الكماة وترديهم صرعى. كما
يفخر بإعلام ذلك المدفون في التراب بأن فوارس بني شهاب حماة المعركة إذا ما دارت الدوائر، وهم
جمرها إذا ما اشتد أوارها وعلت ألسنتها^(١):

يَجْمَحْنَ بِالْفُرْسَانِ فِي رَهَجِ الْوَعَى	وَالْبَيْضُ يُفْرَعُ بِالتَّرِيكِ غِرَارُهَا
لَعَلِمَتْ مَنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ حِسْبَةً	مِنْهُ، وَمَنْ نَشِبَتْ بِهِ أَظْفَارُهَا
تَنْفِي مَقَاوِلَ خَيْرٍ وَسَرَاتِهَا	وَبُنُو شِهَابٍ وَكُرْهَا وَقَرَارُهَا
وَلِئُوثُ مُغْرِقٍ يَضْرِبُونَ فُرُوعَكُمْ	ضَرْبَ الْغَرَائِبِ، أَعْرَكْتُكَ بِكَارُهَا
يَا عَمُرُو لَوْ عَايَنْتَ مِنَّا فَيَلْقَا	يَهْدِي سَوَابِقَ وَدَقِهَا جَرَارُهَا
فِيهِ الْكُمَاةُ عَوَابِسًا تَحْتَ الْقَنَا	تَسْلُ النَّزَالَ وَقَدْ بَدَتْ أَخْبَارُهَا
تَرْمِي إِلَيْكَ بَأْعَيْنٍ مُحْمَرَّةٍ	وَتَسُوقُ رَيْعَانَ الْكُمَاةِ كِبَارُهَا
لَعَلِمَتْ أَنَا فِي الْمَكْرِ مُحَامَاتُهَا	وَعَلِمْتَ أَنَا فِي الصَّلَاءِ جِمَارُهَا

وإذا كان فرسان خولان أسوداً في ساحات الوغى، يفتكون بالرؤوس من الخصوم، فإنهم عند
ثابت العوفي يفعلون العَجَبَ العَجَابَ حين تشتد الحرب التي كشرت عن نواجذها، وكأنها ليثٌ
هَـصُورٌ يستعد لاقتناص فريسته، والمرء ليصر حُمَاة لا نظير لهم، يسلون السيوف والدروع والتروس
يقول^(٢):

إِنَّا إِذَا الْحَرْبُ أَبَدَتْ عَنْ نَوَاجِذِهَا	أَبْصَرْتُ مِنَّا لَدَى رَيْعَانِهَا عَجَبَا
أَبْصَرْتُ مِنَّا حُمَاةً لَا كِفَاءَ لَهُمْ	يُجَرِّدُونَ سُيُوفَ الْهِنْدِ وَالْيَلْبَا

(١) الديوان: ق ٩٠ / ب ٣-١٠.

(٢) الديوان: ق ٩٩ / ب ١-٢.

وتتبدى ملامح الحرب التي استعرت بين القيسية واليمانية غير واضحة خيوطها في قصيدة لعثمان بن مرة الخولاني يجيب فيها قيساً الهلالي الذي يفخر على اليمانية في يوم دارياً^(١). وقد مزج شيئاً من الهجاء الشخصي بفخره القبلي، أو أنه جعل الأول مفضياً للآخر ومفتاحاً له، فنعته بالكذب في أول كلمة في القصيدة، ثم باللين والضعف والخور لكل أمرٍ يسوءه، ويتوعدّه بجلبه خيلاً جياداً وفرساناً يخالهم أسوداً؛ لينسي قوم قيس الهلالي فخارهم وعزّهم، الذي كان يتباهون به ويلحقهم بركب عادٍ وثمود اللذين عفا ذكرهم التاريخ، وهم السابقون على عيلان^(٢). فقد قيل: «إن أهل اليمن كان الرجل منهم يأتي ومعه كاتبٌ وطِنْفَسَةٌ يقعد عليها، فيأخذ من أموال نزار ما يشاء»^(٣)، ولكن مثلما قيل: يوم لنا ويوم علينا، أعلى من شأن هؤلاء العبيد (القيسية). ويتساءل منكراً غير مقالته: بأنهم أصحاب الرفعة والشأن، وأهل القيادة، ويفخر بأنهم أصحاب تيجان، وعزّهم طما على الخلق كافّتهم يقول^(٤):

كَذَبْتَ لَقَدْ تَنَيْتَ لِكُلِّ أَمْرٍ	يُسُوؤُكَ فَاسْتَمِعْ مِنِّي الْوَعِيدَا
سَاجِلِبُ نَحْوَكُمُ خَيْلًا جِيَادًا	وَفِتْيَانًا تَخَالَهُمُ الْأُسُودَا
فَنُنْسِيكُمْ فَخَارَكُمْ وَشَيْكَا	وَالْحَقَّ قَتَلَكُمْ جَمْعًا ثُمُودَا
مَتَى طَمَعْتَ بُنُو عَيْلَانَ فِينَا	فَنَطْمَعُ أَوْ نَرْجِي أَنْ نُسُودَا

(١) جاء في تاريخ دمشق لابن عساكر مقالة قيس الهلالي يفخر بيوم دارياً بقوله:

كَأَنَّا يَوْمَ دَارِيَّاءَ أُسُودٌ	نُدَافِعُ عَنْ مَسَاكِنِهَا أُسُودَا
تَرَكْنَا أَهْلَ دَارِيَّاءَ رَمِيًّا	حُطَامًا فِي مَنَازِلِهِمْ هُمُودَا
قَتَلْنَا فِيهِمْ حَتَّى رَثِينَا	لَهُمْ وَرَأَيْتَ جَمْعَهُمْ شَرِيدَا
إِذَا غَضِبَ إِلَهُ عَلَى أَنْاسٍ	دَعَا قَيْسًا فَصَيَّرَهُمْ هُمُودَا
وَذَلِكَ أَنَّ قَيْسًا غَيْرُ شَاكٍ	مِنَ الصَّوَانِ بَلْ خُلِقَتْ حَدِيدَا

فأجابه عثمان بن مرة الخولاني بالأبيات انظر: تاريخ دمشق ٤٩: ٤٩٩.

(٢) انظر لمحة في الأنساب العدنانية والقحطانية في: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ٣٥-٥٢.

(٣) العقد الفريد ٥: ٢٤٦.

(٤) الديوان: ق ٩٥/ب ١-٧.

وَلَكِنْ دَوْلَةٌ دَارَتْ عَلَيْنَا وَدَهْرُ السُّوءِ قَدْ رَفَعَ الْعَيْنَا
أَلَسْنَا الْمُنَجِّينَ ذَوِي الْمَعَالِي وَأَهْلًا أَنْ نُسُوسَ وَأَنْ نَقُودَا
لِسْنَا التَّاجَ قَدْ عَلِمْتُ مَعَدُّ زَمَانَ تَحُوكُ شَارِبُهَا الْبُرُودَا

فهذه هي المعاني التي ازدانت بها حماساتهم وفخرهم القبليان في عصر بني أمية، ونلاحظ أنَّ ميدان الفخر متعلقٌ ببني خولان وحدهم، وفي أكثر الأبيات التي وقِفَ عليها وانتهت إلينا من أشعار القوم كان الفخر خاصاً ببعض بطون القبيلة، خلا قصيدةً وحيدةً كان الفخر القبليّ فيها أوسع من نطاق خولان ليشمل فخر اليمانية على القيسية؛ بسبب حرب أُذِلَّتْ بها قبائل اليمانية التي نزلت الشام، وسكنت غوطتها، وكما قيل: فَإِنَّ «أَعْظَمَ قَرَى أَهْلَ الْيَمَنِ بَغُوطَةُ دِمَشْقَ»^(١)، ولا سيّما دارياً التي افترشها الخولانيون الذين أمسكوا بطرف من أطراف السياسة الأموية في الشام، وعلى الرغم من تقربهم من خلفاء بني أمية وشغلهم مناصب مهمة في الدولة، تصل أحياناً إلى رتبة عامل على صقع من الأصقاع، أو قاضٍ أو رئيس شرطة^(٢)، لم نلاحظ أيّ صدى للحياة السياسية في أشعارهم، وكثيراً ما كان ينعكس ما يدور على مسرح الحياة السياسية في أشعار بني أمية. ولا عجب في هذا، لأنَّ خولان لم تنل حظَّ أخواتها القبائل اليمانية أو العدنانية من الشهرة والاتساع لتحظى باهتمام العلماء والرواة وأهل الفضل الذين تنبّهوا إلى تدوين الشعر وحفظه.

أمّا ما وقفنا عليه من حماساتهم وفخرهم الذاتيين، فدار - على قلته - في فلك الإقدام والشجاعة وخوض المعارك الطاحنة، وتناول الفخر بعض بطون القبيلة والاعتزاز بشدة فتكهم وجبروتهم وقوة بأسهم، وهي مناقب للقبيلة جميعها قبل أن تكون لعددٍ من أفرادها الذين برز منهم مستأثراً ببعض تلك المناقب عمرو بن يزيد السعدي الذي وجد في إضرام نار الحرب وإشعال فتيلها وتجديد

(١) انظر: تاريخ دارياً: ٩، عن تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ١٩٠ (مطبوعات الترقى بدمشق ١٣٥١هـ).

(٢) انظر: مبحث علاقة خولان بدولة بني أمية.

لهيها فخراً له، وقد ساندته فيها كماً أشراف هم أشبه بالأسود عزةً وتيهاً وكبرياءً من بني حرب بن سعد وبني غالب بن سعد، الخولانيين جذماً^(١):

شَبِيتُ لِقَاحِ الْحَرْبِ لَمَّا تَبَوَّخْتُ فَأَسْفَرَنِي مِنْ صَوْنِهَا كُلِّ جَانِبِ
وَوَازَنَنِي فِيهَا حِمَاةَ عِزَّةٍ هُمُ الصَّيْدُ مِنْ حَرْبٍ وَسَادَةُ غَالِبِ

ويتابع في مثل هذا الفخر في موضع آخر من أشعاره التي ينسجها على أوتار الشجاعة والإقدام، حتَّى علَّقَ الهمدانيُّ عليها بقوله لَمَّا أعجبته، ووجد فيها وشيَّةً تزيِّنُ باب الحماسة والفخر: «ما قال أحدٌ من العرب في قديمها، ولا في حديثها أشجعَ من هذه الأبيات، وهي لا أخت لها»^(٢):

يَقُولُ عَمْرُو لَنَا وَالْخَيْلُ مُشْرَعَةٌ تَحْتَ الْكُمَاةِ، وَقَدْ جَالَتْ عَوَادِيهَا
مَهْلًا لَكَ الْخَيْرُ لَا تَفْعَلْ، فَقُلْتُ لَهُ: أَقْصِرْ، فَإِنَّ تُمِيتَ النَّفْسَ مُحْيِيَهَا
هَمَزْتُ مُهْرِي بِرَجُلِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: اذْهَبْ، إِلَيْكَ، فَقَدْ سَارَتْ بِمَا فِيهَا
أَكْرَهْتُهُ فَمَضَى فِي جَوْفِ غَمْرَتِهِمْ وَالرُّمْحُ يَأْخُذُ صَيْدًا ثُمَّ يُرْدِيهَا

وبذلك يتّضح لنا أنَّ الفخر والحماسة في أشعار خولان في عصر بني أمية كانا على شقين اثنين: فرديّ، وقبليّ كما هي حال العصور السَّالفة التي وقفنا عليها، ويتبيَّن أيضاً غلبة الجانب القبليّ على الفرديّ في هذا العصر كالذي لاحظناه في شعر الحماسة والفخر في الجاهليَّة وصدر الإسلام، ولعلَّ مرجعَ ذلك إلى ذوبان الشَّاعر في سلطان قبيلته التي انحدر من أرومتها، فتغنَّى بمكارمها وطيب أعراقها، وذكَّر أيامها وتخلد آثارها، والتَّعَرِّيفُ بمناقبها وفضائلها التي طمت على كلِّ ذكرٍ وفضلٍ حتَّى غدا في كثيرٍ من الأحيان لسانها الذي تنطق به وتحارب؛ ممَّا أدَّى إلى ذوبان شخصه فيها والتَّماهي بكليَّتها. وتصادق ذلك ما ذهب إليه د. حسين نصَّار بقوله: «والحقَّ أنَّ المجتمع القبليَّ لا يعرف

(١) الديوان: ق ٨٦/ب ١-٢

(٢) الإكليل: «المخطوط ٩٨/١، المطبوع ٤٠٢/١»، الديوان ق ٨٩/ب ١-٤.

الأفراد، بل الجماعات، فلا فواصل بين الفرد والقبيلة، ولا كيان للفرد وحيداً^(١)، وفي هذا المذهب كانت القبيلة مفخرة للشاعر، يبرز مناقبها التي ازدانت بها، في حين يذهب د. محمد النويهي إلى عدّ مثل هذا الأمر من الخطأ الذي فشا على ألسنة كثير من الباحثين، وأنّ للأمر خصوصيةً تمس عاطفة الشاعر وكيانه الذاتي وما يعبر عنه هو إرادته التي آمن بها^(٢)، كما أنّ استمرار النزاعات والانقسامات بين بطون القبيلة وإشعال الحروب والفتن، ولا سيما بين جذمي خولان: الربيع بن سعد، وسعد بن سعد، في نهاية القرن الأوّل الهجريّ كان دافعاً لاشتداد العصبية القبليّة أو للبطن؛ ممّا أدّى إلى طغيان الفخر القبليّ على الذاتي؛ «لأنّ اتّساع نطاق العصبية في هذا العصر [أي بني أمية] لم يبلغ العصبية الضيقة إلغاء تامّاً، فظلت العصبية للرّهط والبطن قائمة»^(٣) على أنّه لم تكن هذه العصبية في العصر الجاهليّ غائبة عن بطون خولان بل كانت موجودة، وأثّرت في الشعر تأثيراً حسناً^(٤). ويضاف إلى ما سلف أنّ نزوع القبائل اليمانية نحو العصبية كان أشدّ وطناً من نزوع القبائل العدنانية، كما نلاحظ أنّ معظم المعاني التي تفتنوا في استغلالها وتوظيفها لخدمة ما رنوا إليه، هي معاني تقليدية في شكلها العام، لم تخرج عن كثرة القتل في العدو والإيقاع بالخصوم، والبروز للعدو، وترك التستر منه وركوب الموت خشية العار، والفتك والشجاعة والإقدام، وإبراز جوانب القوة المختلفة والمنعة والصبر على المكاره... وغابت معاني أخرى كثيرة كانت موجودة في أشعار القبائل الأخرى من مثل: الامتناع عن الصلح، والتّشمير عند الحرب، ورفض النّساء، وذمّ الفرار والتّعبير به، والفخر بسبي النّساء والتّحريض عليه، وفي الإطراق حتّى تمكن الفرصة والإغارة على عدوٍّ بقصد نهب أمواله

(١) روى نقدية في دراسات أدبية ٢٩-٣١ عن كتاب الشعر الشعبي العربي - د. حسين نصّار ص ٣٥، ونحو ذلك في الشعراء الصّعاليك في العصر الجاهليّ ٨٩-٩٠.

(٢) ثقافة الناقد الأدبيّ ٢٦٥.

(٣) العصبية القبليّة وأثرها في الشعر الأمويّ: ٢٧٤، وانظر نحو ذلك في ٢٨١-٢٨٦، ونحو ذلك في العجّاج حياته ورجزه: ٢٦٦-٢٦٧، إذ يتحدّث مؤلّفه عن تبدّي الفرديّة بجلاء في عصر بني أمية بعد أن كان الفرد ذائباً في القبيلة في الجاهلية فصار الشعور الذاتيّ يطمو على الشعور القبليّ.

(٤) انظر: ترجمة عمرو بن زيد (مغرق الأكبر) في الديوان.

وغضبها^(١)، مع أنّ خولان كانت في ممضاها القديم تُغيّر على القوافل التجاريّة وتعتريها؛ بغية سلبها وأخذ ما فيها^(٢).

واتكأ على ما تقدّم يمكن القول: إنّهُ لم يكن هناك تطوّر ذي بالٍ في مسيرة أشعار القوم من الجاهليّة حتى آخر عهد بني أميّة، بل كانت أشعارهم على وتيرة واحدة تسير بسبب ما عصف بالقبيلة من أحداث هزّت فروعها، وشتّت بطونها وأرهاطها، ولم تبق مستقرّة في بيئة واحدة، وقد أشرت إلى هذا الأمر في غير ما موضع من الدراسة.

وإذا كانت جُلُّ قوافيهم قد فنيت في الفخر والحماسة، فإنّه حال معظم قبائل العرب التي انبرى للملمة قوافيها ودراستها بأخرة ثلّة من أهل العلم والفضل، الذين توصّلوا إلى النتيجة ذاتها، إذ حظي شعر الحماسة والفخر بالقسط الأوفى من موضوعات الشّعري لدى شعراء بني كلب بن وبرة^(٣)، وحمير^(٤)، ومذحج^(٥)، وبني عامر^(٦)، ولم يكن ضامراً في قريش^(٧) بل كان جسيماً لدى بني عقيل^(٨)، وهمدان^(٩) وذيّان^(١٠)، وتغلب^(١١)، وأسد^(١٢)، وطيّئ^(١٣)، وقد تأخّر في شعر بني قشير؛ ليسبقه موضوع الغزل إلى الصّدارة، ورغم ذلك لم يكن الفخر والحماسة في شعرهم شاحبيّن^(١٤).

(١) انظر: حماسة البحريّ ١٥-٢٤، ٣٥-٤١، ٤٤، وغير هذه الصّفحات، وما فيها من أبواب الحماسة التي وقف عليها أبو عبادة البحريّ.

(٢) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢/ ٤٠٠.

(٣) انظر: شعراء بني كلب بن وبرة ٢٧٦-٣٢٠.

(٤) انظر: شعراء حمير (الدراسة) ٢٥٥-٢٧١.

(٥) انظر: شعراء مذحج ١٩٣-٢١٤.

(٦) انظر: شعر بني عامر ٩٦-١٣٦.

(٧) انظر: شعر قريش ١٩٥-٢٠٩ بما في ذلك مبحث الصراع على الخلافة.

(٨) انظر: شعراء بني عقيل ١/ ١٤٠-١٤٦.

(٩) انظر: شعر همدان: ٧٥-٩٠ و ١٥٥-١٥٨.

(١٠) انظر: شعر قبيلة ذيّان ١٠١-١١٢.

(١١) انظر: شعراء تغلب وأخبارهم ١/ ٣٢٨-٣٤٢.

(١٢) انظر: شعراء بني أسد ٢٤٢-٢٥٤. وقد توصّل إلى النتيجة ذاتها أحمد موسى الجاسم في (شعر بني أسد في الجاهلية) ١١٠ وما بعدها.

(١٣) انظر: شعر قبيلة طيّئ ١/ ٥٢٩-٥٦٧.

(١٤) انظر: شعراء بني قشير: ١٣٣-١٨٨، ٢٤٠-٢٥٠.

ولم تكن تلك المعاني الفخريّة التي أشرنا إليها فيما سلف مقتصرةً على شعراء خولان دون غيرهم، بل هي معانٍ عامة موجودة لدى قبائل العرب جميعها، وما بناه حبيب بن أوس الطائي، وتلميذه البحتري في اختياراتهما يقوم «في لحمته وسداه على تلك المعاني التي تعدّ في إطارها العام مشتركة بينهم، بيد أن البيئة التي كانت تعيش فيها كل قبيلة قد تجعل لبعض القبائل مفخرة ما لا نجدها عند غيرها»^(١).

فمذحج مثلاً «كان جلّ شعرائها من القادة والفرسان... وكان تأثير القبليّ في الفرديّ أكثر، وباعه أطول»^(٢)، فكثرت أيامها ووقعاتها حتى أحصى الباحث لها ثمان وأربعين وقعةً مع القبائل العربيّة، وستّ عشرة وقعةً مع القبائل اليمانيّة، وأربع وقعات وهي داخلية بين بطونها، وسبع وقعات وردت في متون الشعر، ممّا جعلها في مقدّمة القبائل التي تهوى الحرب، وتميل أفئدة أفرادها إليها، فصار خوضها من مفاخرهم القبليّة والذاتيّة، منها كلمة شريفة ذات معانٍ جليّة في بابها، لعمر وبن معدي كرب الزبيديّ ولو لم تكن كذلك لم اختارها نفر من العلماء وصدّروا فيها مصنّعاتهم^(٣). يقول^(٤):

وَمُرْدٍ عَلَى جُرْدٍ شَهِدْتُ طِرَادَهَا	قُبِيلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ أَوْ حِينَ ذَرَّتْ
صَبَحْتُهُمْ بِيضَاءَ يَبْرُقُ بَيْضُهَا	إِذَا نَظَرْتُ فِيهَا الْعَيُونَ أَرْمَهَرَّتْ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْخَيْلَ زُورًا كَأَنَّهَا	جَدَاوِلُ زَرْعٍ أُرْسِلَتْ فَاسْبَطَرَتْ
فَجَاشَتْ إِلَى النَّفْسِ أَوَّلَ مَرَّةٍ	فَرُدَّتْ عَلَى مَكْرُوهِهَا فَاسْتَفَرَّتْ
هَتَفْتُ فَجَاءَتْ مِنْ زُبَيْدٍ عَصَابَةٌ	إِذَا طَرَدَتْ فَاءَتْ قَرِيبًا فَكَرَّتْ
عَلَامَ تَقُولُ الرَّمْحُ يُثْقِلُ عَاتِقِي	إِذَا أَنَا لَمْ أَطْعَنْ إِذَا الْخَيْلُ كَرَّتْ

(١) شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٣١٧.

(٢) شعراء مذحج ١٩٣.

(٣) انظر: الأصمعيّات: ١٢١، شرح حماسة أبي تمام للأعلم الشنتمريّ ١/ ١٥٥، ونحوه في حماسة البحتريّ: ١.

(٤) ديوانه ٥٢-٥٦.

ومن شعرائهم ومساير حريهم وفرسانهم المعدودين عمرو بن قَعَّاس المُرَادِيّ صاحب تائيّة عالية في الفخر والحماسة، تناهبتها مصنّفات اللّغة والأدب، ومنها قوله^(١):

وَعَادِيَّةٌ لَهَا ذَنْبٌ طَوِيلٌ رَدَدْتُ بِمُضْغَةٍ فِيمَا اشْتَهَيْتُ
أُتْبِتُ بَاطِلِي فَيَكُونُ حَقًّا وَحَقًّا غَيْرَ ذِي شِبْهِ لَوَيْتُ
وَحَيٍّ نَاسِلِينَ وَهُمْ جَمِيعٌ حَذَارَ الشَّرِّ يَوْمًا قَدْ دَهَيْتُ^(٢)
وَقَدْ عَلِمَ الْمَعَاشِرُ غَيْرَ فَخْرِ بَأَنِّي يَوْمَ عَمْرَةٍ قَدْ مَضَيْتُ^(٣)
فَوَارِسَ مِنْ بَنِي حُجْرٍ بَنِ عَمْرٍو وَأُخْرَى مِنْ بَنِي وَهَبٍ حَمَيْتُ
مَتَى مَا يَأْتِنِي يَوْمِي يَجِدُنِي شَبَعْتُ مِنَ اللَّذَاذَةِ وَاشْتَفَيْتُ

ثمّ يقول بعد ذلك:

وَيْتٍ لَيْسَ مِنْ شَعْرٍ وَصُوفٍ عَلَى ظَهْرِ الْمَطِيَّةِ قَدْ بَنَيْتُ

وغير ذلك يطول ذكره مع شعراء مذحج^(٤)، ومثل ذلك ما نجده عند شعراء قيس عيلان وفرسانها الذين نالوا حظاً وافراً من الاشتهار حتّى أُثِرَ عن الأصمعيّ قوله: «... سئل شيخ عالم: من الشعراء؟ فقال: كان الشعر في الجاهليّة في ربيعة، وصار في قيس.... وقال: أفي الدّنيا مثل فرسان قيس وشعرائهم؟ فذكر عدّة منهم: عنتره، وخفاف بن ندبة، وعبّاس بن مرداس، ودريد بن الصّمة، وقال لي مرّة: دريد وخفاف أشعر الفرسان»^(٥). وقد عُرِفَ عن هؤلاء الفخر والحماسة أكثر من أقرانهم؛ لما انمازوا به من خصائص ومناقب تحلّت بها قبائلهم قبلهم، وهم من أبنائها وأفرادها. فمثلاً نرى الفخر يحظى بحصّة الأسد من أغراض الشعر لدى دريد بن الصّمّدة، وبلغت أبياته ربع ما

(١) شعراء مذحج (الدّيونان) ٥١٨، وانظر: مصادره ثمة.

(٢) وحَيٍّ ناسلين: أي ماشون مسرعون، وهي مشية الدّئب إذا أسرع.

(٣) غمرة: اسم جبل، وكان به يوم من أيّامهم.

(٤) المصدر نفسه (الدّيونان) ٣٦٥-٣٦٨، ٤٧٦-٤٨٣، ٣٧٥-٣٨١.

(٥) فحولة الشعراء: ٤٨.

وصل من أشعاره، بل تجاوز ذلك بقليل؛ لأنّ وقائع قومه وغاراتهم الكثيرة، فضلاً عن سمات الفروسيّة التي اتّسم بها، مَعِينٌ ثُرٌّ مَدَّه بأصولٍ فخره، كما لا ينطق هذا الفخر بانفصاله عن أرومته ومحتده (قومه)^(١).

وكذا الأمر لدى عنتره العبسيّ، الذي «ذهب بعامة ذكر الحرب»^(٢) التي كانت ديدن قومه على مرور الأيام، فطارت شهرته في الآفاق، وطَبَّقَ صيتها الأصقاع حتى غدا فرسانها مضرب المثل في الشجاعة والإقدام والفروسيّة^(٣). ونجد عند العباس بن مرداس السُلَميّ الأمر ذاته من حيث تمتّع قبيلته بمعاني الفخر والحماسة^(٤). وهذا حال خفاف بن ندبة الشريديّ.

فللبينة أبلغ الأثر وأعظمه في حياة هؤلاء الذين دفعوا الجاحظ (٢٥٥هـ) للقول في بعضهم في أثناء ذكر أبناء الزنجيّات حين نزعوا في البسالة والآنفه «... خفاف بن ندبة، وعبّاس بن مرداس،... عنتره الفوارس... فهؤلاء أسدُ الرّجال، وأشدّهم قلوباً، وأشجعهم بأساً، وبهم يضرب المثل»^(٥).

ومثل هذا أيضاً ما نجده عند الشعراء الصّعاليك الذين عاشوا حياة حافلة بالفقر والجوع والفاقة والتّشردّ والحرمان... إلخ وغير ذلك من المعاني التي استمدّوا منها ما تضمّنته أشعارهم... فهذا عروة بن الورد، الملقّب بعروة الصّعاليك والمشهور بسيّدهم ومعتمدهم، كان يفخر بصعلكته؛ لأنّها شيمة الشّجعان الأقوياء، ويتغنّى بمناقب رفاقه، وإقدامهم على الموت الذي دنا منهم وهم في رهج الوغى في يوم الرّقم يقول^(٦):

(١) ديوان دريد بن الصّمة: ١٨.

(٢) فحولة الشعراء: ٤٩.

(٣) انظر: ديوانه ١١-١٢.

(٤) انظر: مقدّمة ديوانه.

(٥) رسائل الجاحظ ١/ ١٩٢.

(٦) انظر: ديوانه: ٦٦، والرّقم: جبال دون مكّة بديار غطفان، وماء عندها أيضاً، وكانت فيه وقعة لغطفان على بني عامر. وقد فرّ عامر ابن الطفيل عن أخيه الحَكَم في هذا اليوم، فحنق الحَكَم نفسه خوف المثلّة. وهذا ما أشار إليه عروة في البيت الثّالث.

نَحْنُ صَبَحْنَا عَامراً إِذْ تَمَرَّسْتُ عَلَالَةَ أَرْمَاحٍ وَضَرْباً مُذَكَّراً^(١)
بِكُلِّ رُقَاقٍ الشَّفَرَتَيْنِ مُهَنَّدٍ وَلَدْنٍ مِنَ الْخَطِيئِ قَدْ طُرَّ أَسْمَراً^(٢)
عَجِبْتُ لَهُمْ إِذْ يَخْنُقُونَ نَفْسَهُمْ وَمَقْتُلُهُمْ تَحْتَ الْوَعْيِ كَانَ أَعْدَراً
يَشُدُّ الْحَلِيمُ مِنْهُمْ عَقْدَ حَبْلِهِ أَلَا إِنَّمَا يَأْتِي الَّذِي كَانَ حُدَّراً

وإذا كانت أشعار الصَّعاليك ضرباً من ضروب الحياة وصدى للواقع المعيش وصورة للحقيقة. فإننا نرى عروة يفاخر بكرمه وسخائه ومشاركة الناس له في طعامه وإنائه يقول^(٣):

إِنِّي امْرُؤٌ عَافٍ إِنَائِي شِرْكَةٌ وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافٍ إِنَائِكَ وَاحِدٌ^(٤)
أَتَمَزُّ مِنْهُ أَنْ سَمِنْتُ وَقَدْ تَرَى بِجَسَمِي مَسَّ الْحَقِّ، وَالْحَقُّ جَاهِدُ
أَفْسَمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَخْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ، وَالْمَاءُ بَارِدٌ^(٥)

فذلك هو تأثير البيئة في أشعار أصحابها الذين تميّزت أشعارهم بخصيصة ما، لا نجدها عند غيرهم: كما تبين لنا القيم التي تغنى بها شعراء خولان كالشجاعة والبسالة والإقدام وعدم الخوف من الموت، وغيرها من القيم التي احتفى بها الشعر الجاهلي وصدر الإسلام والعهد الأموي عامة عند جميع القبائل، التي تعدّ مثل هذه القيم من المكارم والمناقب التي تزيّن الفارس، وترسم صورة مثالية له، وإذا كان من خلاف يُرصد بين الشعراء، فذلك عائد إلى الطبع وطريقة التناول والاحتفاء بقيمة أكثر من غيرها.

(١) عَلَالَةُ كُلِّ شَيْءٍ: مَا جَاءَ مِنْهُ بَعْدَ مَا يَمْضِي أَوَّلُهُ أَيْ: فَطَعْنَهُمْ طَعْنًا بَعْدَ طَعْنٍ.

مُذَكَّرٌ: مَوْصُوفٌ بِالشَّدَّةِ وَالصَّعُوبَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ.

(٢) طُرَّ: سَنَّ وَحُدَّ.

(٣) ديوانه ٦٨-٦٩، وانظر: الشعر الجاهلي ٢٣٤-٢٣٦.

(٤) عَافٍ إِنَائِي: يَأْتِنِي مِنْ يَشْرِكُنِي فِيهِ، يَقُولُ: أَمَلًا إِنَائِي لِبَنَاءٍ حَتَّى يَفِيضَ عِنْدِي، وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافٍ إِنَائِكَ وَاحِدٌ، أَيْ: تَسْتَأْثِرُ

لِنَفْسِكَ وَحَدِّكَ دُونَ أَضْيَافِكَ، فَتَشْبَعُ وَهُمْ يَجُوعُونَ، وَأَنَا أَهْزَلُ وَأَضْيَافِي يَسْمَنُونَ.

(٥) جَسْمُهُ: طَعَامُهُ، الْمَاءُ الْقَرَّاحُ: الَّذِي لَا يَخْلُطُهُ لَبَنٌ وَلَا غَيْرُهُ، وَالْمَاءُ بَارِدٌ: أَيْ فِي الشِّتَاءِ فَذَاكَ أَشَدُّ.

٢ - الوصفُ:

يعسر على الباحث في موضوعات الشعر إقامة الحدود والفواصل بين ما يدخل قي باب الوصف، وما يدخل في سائر الموضوعات الأخرى؛ لأن الوصف وفقاً لما عرّفه أهل العلم هو «ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات»^(١)، أو كما قال ابن رشيق: «وأصل الوصف الكشف والإظهار، يقال: قد وصف الثوب الجسم، إذا نمّ عليه، ولم يستره»^(٢). وبهاتين الكلمتين يكون الوصف داخلياً في معظم موضوعات الشعر، ممتزجاً فيها، حتّى كاد يذهب بجميع الشعر؛ لما فيه من معنى الاتّساع والشمولية، وقد نبّه أهل العلم من السلف على هذه المشكلة، قبل الخلف، فقال ابن رشيق «الشعر - إلا أقلّه - راجعٌ إلى باب الوصف، فلا سبيل إلى حصّره واستقصائه»^(٣). والنّاظر في أشعار خولان يجد فيها ما يجد في أشعار القبائل الأخرى من عدم استقلال هذا الموضوع في قصائد خاصّة، ولم يكن حظّه مثل سلفه الفخر الذي أفردت مقاطيع خالصة لوجهه، ويعزى ذلك إلى ضياع قسم كبير من أشعار القوم. فقد برز الوصف في أشعار خولان في أبيات مفردة من قصائد ضاع أكبر أجزاءها، أو في مقطّعات، أو نتف هي بقيّاً مطوّلات. لذا سنتناول هذا الموضوع في إطار ما انتهى إلينا من شعر خولان محاولين تلمّس الأحوال والهيئات، والكشف والإظهار للأشياء في أشعارها، وأوّل ما نبدأ به وصفهم الجاهليّ الذي كادت أن تظفر بجميعه مطوّلة علقمة الخولانيّ، على نحوله وضعفه، لولا أبيات معدودة.

فقد تناول علقمة الخولانيّ - دون غيره - في يتيّمته فقط وصف الطّلل أو الدّيار وما يعتورها من معانٍ تناولها شعراء الجاهليّة وتفنّنوا في استلهاها.

فطالعنا في مقدّمة قصيدته بالحديث عن الطّلل وسقياه بالأمطار الغزيرة، وما يمثّله هذا الطّلل في موروث الشعر العربيّ القديم من مأساة إنسانيّة تمثّلت بالصّراع الدّائر بين ثنائيّة الحياة والموت، لكنّ

(١) نقد الشعر ١١٨، عنه في العمدة ١٠٩٦/٢.

(٢) العمدة ١٠٩٧/٢.

(٣) العمدة ١٠٩٦/٢.

الرَّعود التي حملت معها الوسميَّ بللت المكان وبثت الحياة فيه، وأنقذت خولان وبطونها من القحط والجفاف والمحل، ثم يذكر عهده بتلك الديار على قدمه كان ما يزال جديداً، يستذكر كل ما جرى له، وهنا لا بدَّ من التنبيه على أمرٍ مهمٍّ، فحواه أنَّ قصيدة علقمة الخولانيَّ توشّحت عباءة المدح القشبية وقد انضوت تحتها موضوعات متباينة متلازمة تربط بينها وحدة الشعور النفسي؛ لأنَّ الشاعر قد توسَّل بهذه الموضوعات (الطلل - المحبوبة - الرحلة والراحلة) للوصول إلى الغاية المنشودة^(١). يقول^(٢):

سَقَى طَلَّالاً بِالْجَلْهَتَيْنِ رُعودُ	وَعُرَّ سَوَارٍ سَيْلُهُنَّ مَجُودُ
وَقَدِّمًا أَرَاهَا وَهِيَ جَامِعَةُ الْهَوَىٰ	يُنُوسُ بِهَا عَصْرُ الصَّبَا وَيَرُودُ
.....	
أَرَاكَ طَوَيْتَ الْكُشْحَ هَجْراً عَلَى التِّي	كَلَفْتَ بِهَا وَالْقَلْبُ مِنْكَ عَمِيدُ
فَقُلْتُ لَهَا إِنِّي أُوْمِّلُ رِحْلَةً	إِلَى مَلِكٍ مَخْضٍ نَمَتْهُ جُدُودُ

يفصح الشاعر في البيت السادس عن طلبته مرامه وهدفه، وهو القيام برحلة طويلة - شقَّ بها على نفسه ورفاقه - إلى الملك الحميريِّ سيف بن ذي يزن؛ ليمدحه بأطيب الكلام وأعذبه، ويأمل نواله وعطاءه، بأن يمدَّ قومه بجيش يعينهم على قبائل قَيْسِ عَيْلَانَ (هوازن وسليم) إذ تناول الطلل أو الديار - في مقدِّمة القصيدة = «وهو شكل فني يتضمَّن أعمق التجارب»^(٣) الفنيَّة لدى الشاعر في حياته الصِّحراوِيَّة^(٤) وقد حذا علقمة حذو القدماء في الوقوف على الديار وتذكُّر المحبوبة، ومن ثمَّ الانتقال إلى ذكر الرحلة ومشقَّتها وإنضاء الرحلة والبعير، فإذا علم أنَّه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرجاء وذِمَّامَةِ التَّأْمِيلِ، وقرَّر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة،

(١) انظر: بنية القصيدة العربيَّة حتَّى نهاية العصر الأمويَّ «قصيدة المدح نموذجاً» ١٥٧.

(٢) الديوان: ق ١/ ١٠٣، ٥-٦.

(٣) تميم بن أبي بن مقبل - حياته وشعره: ١٩٤.

(٤) الصُّورة في شعر تميم بن أبي بن مقبل: ٧٤.

وهزّه للسّخاءِ وفضّله على الأقران^(١). وقد ذهب الحاتميّ إلى مثل هذا فقال: «من حكم النّسب الذي يفتتح به الشّاعر كلامه أن يكون بما بعده من مدح أو ذم، أو غيرهما غير منفصلٍ منه»^(٢)، ومن ذلك الوصف ما نجده من وقوف على تصوير الرّاحلة وقوّتها في بداية الرّحلة، فهي تغذّي السّير مسرعةً محدثة صوتاً واحداً يقول^(٣):

تقولُ التي من بيّتها شحصتُ بنا ركايبُ أمثالِ العطائفِ جُودُ

.....

إليك ابنَ ذي التّاجينِ سرّنا ركايباً موقّعةً كائنَ جُنودُ

إذا انبعثتْ غادرنَ للسّبعِ شُنةً قرى، وقراهنّ البلادَ وخيدُ

ويصف علقمة سير تلك الإبل، ويلجّ على مفهوم سيرها الممزوج باللين تارةً، والسّرعة تارةً أخرى؛ لتصل إلى بغيتها قبل فوات الأوان، أي قبل أن تشرع قبائلُ قيس عيلان بخيولها ورماحها، وتعمل السّيف في بني خولان قتلاً وتشريداً وتفريقاً، ثمّ يصف قلق خشب الرّحل واضطرابه المستمرّ؛ نتيجة لتقاذف الطّريق الوعرة لتلك الرّواحل بين هنا وهناك، إذ تتبع ما صار خالياً من تنوءات الحجارة الصّلدة، وما إليها حتّى إذا ما مرّت بماء الحبط مالت إلى التّهويد في سرعتها والتّبطيء، وكأّتها ستأخذ حظّها من الرّاحة بعد أن سارت طويلاً^(٤):

سلكنا بين السّهل سَهْلَ سَحامةٍ لها ذملٌ من تحتيّنا وسَميدُ

تراَمى بنا مثل السّعالِي فجافج وذو خفّقةٍ فوق القُودِ يَميدُ

طوينَ جميلَ الخافقينِ بسُخرةٍ ومرّت بماءِ الحبطِ، وهي تهودُ

(١) انظر: الشّعراء ٧٦/١.

(٢) حلية المحاضرة ١/٢١٥، وعنه في العمدة ٧٧٥/٢.

(٣) الدّيان: ق ١/ب ٤، ٧-٨.

(٤) الدّيان: ق ١/ب ١٢-١٤.

ونرى الشاعر يصوّر بعد ما سلف، ظهور أول الإعياء متمثلاً برسم أخفاف تلك الرواحل لخطوط في الأرض التي صارت أشبه بالوجوه التي تمسحها أياد هي أخفاف تلك الإبل^(١).

إِذَا مَسَحَتْ أَخْفَافُهَا الْأَرْضَ فِي الْخَطَا ظَنَنْتَ أَكْفَأَ تَحْتَهُنَّ حُدُودُ

وفي مشهد آخر يصوّر شيئاً من عناء تلك الرواحل ومشقتها في أثناء سفرها للملك الممدوح، وقد تقاذفتها سهول من الأرض تارة، وأخرى صعوداً كان السير فيها صعباً^(٢):

وَمَالَتْ إِلَى رُكْنِي عَجِيبٍ رَكَابَنَا يُقَلِّبُهَا خَفْضٌ لَهُ وَصُعُودُ

إلا أن ذلك التعب لم ينل منها شيئاً، ولم يحطّ من عزيמתها وقوتها، بل ظلت كما كانت يوم خرجت قاصدة الملك سيف بن ذي يزن الحميريّ مُضَمَّرَةً، مشرفةً ومصدرةً صوتاً عالياً^(٣):

وَمَالَتْ إِلَى أَجْزَاعِ حَيْفَةٍ ضَمَرًا شَوَازِبَ فِي تَسْيَارِهِنَّ وَئِيدًا^(٤)

أمّا عن وصفهم للخيل فقليل جداً، ولم يُلحظ إلا في موضعين، وقِفَ عليهما في باب الحماسة والفخر فيما سلف كان الأول منها لعمر بن زيد الخولانيّ المعروف بمغرق الأكبر، يصوّر كرييات الخيل والتّجيبات منها التي جلبها من بطن ليّة بأنّها مثل الطّودِ ضخامةً وإشرافاً وعلوّاً يقول^(٥):

جَلَبْنَا عِتَاقَ الْخَيْلِ مِنْ بَطْنِ لِيَّةٍ بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّودِ تَحْبُو كَلَاكِلُهُ

والثّاني: منها للمقدام بن زيد الحيوانيّ الذي لفت انتباهه طول عنق الفرس وكرّه وانعطافه في ساحات الوغى، واكتنازه وامتلاؤه، واحمرار لونه الذي يحمل علامة الجرأة والإقدام^(٦). يقول^(٧):

(١) الديوان: ق ١/ب ١٩.

(٢) الديوان: ق ١/ب ٢٧.

(٣) الديوان: ق ١/ب ٣٥.

(٤) الشواذب: هي الضوامر من الأفراس.

(٥) الديوان: ق ٥/ب ١.

(٦) التّاج (ورد).

(٧) الديوان: ق ١٤/ب ٢.

وَيَوْمَ رَسِيعٍ قَدْ أَفْتَنَّا جِهَالَكُمْ بِكُلِّ تَلَيُّعٍ مُّعْكِرٍ مُّذْمَجٍ وَرَدٍ

أما وصفهم للسلاح في الجاهلية فملزوز في نصوص الفخر والحماسة التي تدور في فلك الحرب، ولم تفرد نصوص أو مقطّعات خاصّة لوجهه، وكانت تأتي لمحات سريعة في بيت أو بيتين في تضاعيف الفخر. فمن ذلك ما جاء لدى عوف الخولانيّ لَمَحاً سريعاً، لم يقصد لذاته، في أثناء فخره يوم سفح عينة وما فعله قومه بالخصوم والأعداء من لقائهم برماح عواسل مطاوعة لأصحابها تهتزّ كما يريدون لها. يقول^(١):

سَلِ النَّاسَ عَنَّا يَوْمَ سَفْحٍ عُنِيْزَةٍ غَدَاةَ التَّقِيْنَا بِالرَّمَاكِ الْعَوَاسِلِ

وهو وصف شاحب، ضامر، لا يكاد القارئ يشعر به، ولا بجماله الذي يمكن أن يشفع للمقدم ابن زيد الحيوانيّ وهو يفاخر بأنّه وقومه نالوا من أعدائهم الذين نالوا منهم أيضاً، حينما كانت الرماح مشرّعة، وقد تناولت كلّ فتى شجاع وجريء، وهي خطيّة من أجود رماح العرب وأحسنها^(٢):

فَلِنَا وَنَالُوا الرَّمَاكِ شَوَارِعُ وَقَدْ نَظَمَ الْخَطِيّ كُلُّ فَتَى وَرَدٍ

أما ما جاء عن وصفهم للسيوف ففي موضعين فقط أو في بيتين بعبارة أكثر دقّة، جاء الأوّل في معرض فخر عمرة الحيوانيّة بقومها بني حيّ الذين ندّ نظيرهم وعزّ؛ لما لهم من مناقب ومآثر كثيرة، منها ردّهم الملمات، ورفعهم للنوازل والمصيبات بسيوف بواتر، قواطع، زُيِّنَتْ أعالي متونها بالعقيق الأحمر الذي تُتَّخَذُ منه الفصوص، وفي هذا الوصف دلالة على عنايتهم الفائقة بسيوفهم التي يتخيرونها لمعاركهم، فعلاوة على حدّها، يُجَمِّلُونَهَا بالخرز يقول^(٣):

فَذَاكَ فَعْلٌ بَنِي حَيٍّ إِذَا نَزَلْتُ إِحْدَى الْمَلَمَاتِ رَدُّهَا وَمَا نَكَلُوا

بِكُلِّ عَضْبٍ رَقِيقٍ الْحَدَّ زَيْنَهُ عَقِيْقَةً فِي ذُرَى مَتْنِيْهِ تَشْتَعِلُ

(١) الدِّيوان: ق ١٠ / ب ٥.

(٢) الدِّيوان: ق ١٥ / ب ٢.

(٣) الدِّيوان: ق ١٢ / ب ١٥ - ١٦.

أما الموضع الثاني فجاء في أثناء وصف خالد بن قيس الحيواني لفعلة بني شهاب الوضيعة والدينئة حينما أعملوا السيف قتلاً في بني حيّ، وهم الذين احتفلوا بهم يوم دخلوا هؤلاء فيهم واستجاروا بعباءة بني خولان، فيوم قام عمرو بن زيد (مغرق الأكبر) بإخراج بني حيّ إلى مصر، أزر بنو شهاب قوم عمرو بن زيد، فصوّر المقدام السيوف التي قُتل بها أهلها وذويه فقال^(١):

وَلَدْنَا السَّرَاةَ الْغُلْبَ مِنْ عَبْدٍ مَالِكٍ فَقَامُوا عَلَيْنَا بِالسُّيُوفِ الْهَوَاتِكِ

فهذا الذي جاء في وصفهم للسلاح وهو أشبه بالنادر والعزير، وفيه تقصير واضح، في الرَّاجح عائدٌ إلى ضياع معظم أشعار القوم؛ لأنّه من غير المعقول أن نقع على أبيات، لا تتعدّى أصابع اليد في أوصاف السلاح، وهي خلو من الوصف الفني الرّصين الذي يمكن أن نلاحظه عند غيرهم من القبائل العربيّة الأخرى. ولا سيّما أنّ خولان قبيلة كُرّ وقرّ، وقد ذهب كثيرٌ من أشعارها بموضوع الفخر بخوض المعارك الطاحنة والبروز للأعداء، وصرع الفرسان الأشداء... إلخ فذلك ما أثر لهم - وهو قليل - في وصفهم الجاهليّ الذي خلا من وصف يكاد يكون عند غيرهم، فلا نلاحظ وصفاً لمشاهد الصّحراء المختلفة من جبالٍ وهضابٍ ورمالٍ وغدرانٍ ورياضٍ ونخيلٍ، ولا وصفاً لحيوانٍ من بقرٍ أو حميرٍ أو أسودٍ أو نعامٍ أو طيورٍ مختلفةٍ أو ضبّاعٍ أو أفاعٍ ونحو ذلك، وربّما يعود ذلك إلى عِلّتين اثنتين:

الأولى: أنّ خولان قبيلة حضريّة لم تسكن بطون الصّحراء كغيرها من القبائل، ولم يألّف أفرادها ما ألّفه أهل الوبر من صعوبة العيش وقسوته، فقد سكنت خلف أسوار منيعة، في قصور شاهقة، منيفة تردّ طرف الناظر إليها، فلم يكن بمقدور شعراء القوم تصوير تلك المشاهد من الطّبيعة الحيّة.

الثانية: ضياع كثيرٍ من أشعارهم، وقد نبّهت غير مرّة على هذه العلة... حتى إنّ تصويرهم للطلل بدا شاحباً، فلم نلاحظ فيه الأثافي والنّوي وبعر الآرام والرّماد، والوشم وغير ذلك، وكذا الحال في موصوفاتهم الأخرى من مثل النّاقة التي ألحّ علقمة الخولانيّ على مفهوم السرعة في رحلتها فقط

(١) الدّيان: ق ١٦/ب ١.

دون الالتفات إلى العناصر الأخرى مثل أوصاف العندل، والجمالية والجسرة، والحرف، والقلوص، والعنس وغيرها من الأوصاف الخارجية، فضلاً عن أوصافها الداخلية للكشف عن عواطفها وشعورها، ولا سيما أنها كانت في رحلة طويلة ومُتعبّة كالذي نجده عند غيره مثل زهير بن جناب الكلبي^(١)، أو عمرو بن قميئة^(٢)، أو طرفة بن العبد الذي فصل في الوصف الموضوعي والآخر الذاتي أيما تفصيل^(٣). أما أوصاف السلاح، فجاءت عرضاً غير مقصودة لذاتها، ولم يهتموا بها كثيراً حتى إنهم قصّروا فيها تقصيراً بالغاً؛ لعنايتهم بشعر الحماسة والفخر، وهي واحدة من عناصر صورة الفخر بالمعركة وخوضها، وكذا الأمر في وصف الخيل التي أسبغوا عليها حذفاً يسيراً من الصفات الخارجية دون الالتفات إلى تصوير شعورها الداخلي والذاتي.

أما ما جاء عن وصفهم في عصر الخضرمة وصدر الإسلام، فلم يكن بأحسن حال من سلفه؛ إذ بدا تصويرهم شاحباً في بيت هنا وآخر هناك، ولا سيما وصفهم للسلاح الذي جاء ملزوماً في نصوص الفخر والحماسة.

من ذلك قول عمرو بن يزيد العوفي حينما افتخر بقتل عمارة بن مرداس السلمي يوم أغاروا على قومه مُعَلِّمين في وضح النهار، مُعَمِّلين السيوف القواطع البواتر الرقيقة في رقاب السُّلَميين، يقول^(٤):

وَجِئْنَا إِلَيْهِمْ جَهْرَةً فِي بُيُوتِهِمْ
بِكُلِّ رَقِيقِ الْحَدِّ، عَضْبِ الْمَضَارِبِ

وقد أرمدوا خيار بني سليم وأشرافهم بسيوفٍ مماثلة، بيضٍ لجدتها، يقول^(٥):

هُمْ صَبَّحُوا مَاءَ الْغَمْرِ فَأَرْمَدُوا
خِيَارَ سُلَيْمٍ بِالسُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ
جَزَاءً بِمَا أَسَدَتْ إِلَيْنَا سَرَائِنُهَا
فَحُسْنَاهُمْ بِالْبَيْضِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

(١) ديوانه ق ١٧/ب ١٢-١٥، ق ١٠/ب ١-٢.

(٢) ديوانه ق ٣/ب ٣-٩.

(٣) ديوانه ق ١/ب ١١-٤٠.

(٤) الديوان: ق ٣١/ب ٤.

(٥) الديوان: ق ٣١/ب ٧-٨.

وفي قصيدة أخرى يفخر العوفي ويتوعد مُرَّ بن عامر بن الحارث الحميري الذي خان عهده مع خولان، وأباح كل مكنون إلى هوازن وسُليم، بأن سيقته بكل سيف طبع في الهند، ذَكَرٍ قاطعٍ وحادٍّ، كأنَّ لهيباً من النَّار في متنيه لما له من حدَّةٍ وجلالٍ، ولم يكن الشَّاعر ليأتي بهذا التشبيه إلا لرغبته في القضاء على خصومه، بسرعة تشبه سرعة النار في التهامها الحطب، وبكل رُمحٍ مُثَقَّفٍ، مطاوعٍ، لِيْنٍ، مُهْتَزٍّ يكون رهين صاحبه يقول^(١):

بِكُلِّ مُهَنَّدٍ ذَكَرٍ حَسَامٍ كَأَنَّ بَصْفَحَتَيْهِ هَيْبَ جَمْرٍ
وَكُلِّ مُقَمَّومٍ لَدُنْ نَرَاهُ عَلَى عَسَلَانِهِ فِي الْكَفِّ يَجْرِي

وفي موضع آخر أيضاً يفخر بقومه آل عوف الذين إذا ما جروا رماحهم، احتملت جبال الأرض منهم ورحلت؛ لأنهم جنُّ إذا غضبوا تحت العجاجة، وفي أيَّانهم سيوف كأنَّها شُعْلُ نارٍ^(٢):

إِنْسٌ إِذَا أَمْنُوا، جِنٌّ إِذَا غَضِبُوا تَحْتَ الْعَجَاجَةِ فِي أَيَّانِهِمْ شُعْلُ

ونجد في أربعة مواضع وقوفهم على وصف الرِّماح، الأوَّل منها لعمر بن يزيد العوفي، وصف حاله التي آل إليها وما أصابه من المشيب والكبر بسبب كثرة الحروب التي خاضها في مقارعة الخصوم والأعداء، حتَّى غدت الرِّماح على لَبَاتِهِ أَشْطَاناً أُلْفَ بها قَلِيبٌ لم تطو^(٣):

وَمُخْتَلَفُ الرِّمَاحِ عَلَى لَبَاتِي كَأَشْطَانٍ أُلْفَ بِهَا قَلِيبُ

وفي مقطعة أخرى يجعل هذه الرِّماح مثقَّفةً، وسُحَّماً، وما سحَّما إلا دلالة على كثرة الطعن فيها^(٤):

مَنْ اسْفَلَ عُمْدَانٍ جَلَبْنَا جِيَادَنَا تَرَامَى إِلَيْكُم بِالْمُثَقَّفَةِ السُّحْمِ

(١) الديوان: ق ٤١/ب ١٠-١١.

(٢) الديوان: ق ٤٨/ب ٣.

(٣) الديوان: ق ٣٣/ب ٣.

(٤) الديوان: ق ٤٩/ب ٤.

وثالث المواضع جاء في مدحة قصيرة - ليعلى بن سعد المالكي - أسبغ فيها أشرف الصفات وأرفعها منزلة يوم التقى فوارس خولان بحزوى فوارس تميم، وكانت الرماح تنهال على تميم كأنها حَبٌّ يَذْرَى^(١):

بِدارِ تَمِيمٍ غَدَاةَ الْجِفَارِ وَزُرْقُ الْأَسِنَّةِ يَذْرَيْنَ دَرَا

ونقل لنا عمرو بن حجر المالكي وصفاً للرمح والسيف في بيت واحد حينما أعلم أم الحصين بقتله لمّ بن عامر بن الحارث الحميري، بكل رمح عطش، وبكل سيف لاح في الجو مثل برق سرعة ومضأة، لزم كفّ موتور يطلب ثوره^(٢):

بِكُلِّ رُذَيْنِيٍّ ظِمَاءٍ كُؤُوبُهُ وَأَبْيَضَ مِثْلَ الْبَرْقِ فِي كَفِّ نَائِرِ

أمّا ما جاء به شعراء العصر الأموي فنجد وصف عتاد الحرب فيه متداخلاً يصعب معه ميزة بعضه من بعض الآخر؛ إذ أتى أحياناً في البيت الواحد وصف السلاح ومعه الفرسان والخيول، ولا بدّ للشاعر في هذا المقام من رسم الصورة كاملة، ولملمة أجزائها، التي تمثل مادّة حيّة لها، تأتي حسيّة حركية، فهذا قول المسلم الشّهابي يصف الحرب التي دارت رحاها بين أشهر بطنين من خولان، سعد بن سعد، والربيعة بن سعد، لعمرو بن يزيد السعدي، فيصوّر جموع الخيول بفرسانها في رهج الوغى، والسيوف تضرب أشدّ المقاتلين وأعتاهم، من أشراف حمير وسراتها، حتّى غدا بنو شهاب أسيادها وقادتها، وعشيرة مغرق يضربون خصومهم ضرب غرائب الإبل؛ لما فيه من القوّة والشّدّة والغیظ وكأنّهم أسود^(٣) يقول:

يَا عَمْرُو لَوْ عَايَنْتَ وَقَعَ جِيَادِنَا لَدَقَى فُؤَادُكَ، حَيْنَ نَارِ غُبَارِهَا
وَالسَّمْهَرِيُّ شَوَارِعُ أَسْلَاتِهِ قَدْ لَاحَ مِنْ بَيْنِ الْعَجَاجِ نَيَارُهَا
يَجْمَحْنَ بِالْفُرْسَانِ فِي رَهَجِ الْوَعَى وَالْبَيْضُ يُفْرَعُ بِالتَّرِيكِ غَرَارُهَا

(١) الديوان: ق ٥٥/ب ٢.

(٢) الديوان: ق ٥٨/ب ٢.

(٣) الديوان: ق ٩٠/ب ١-٦.

لَعَلِمْتَ مَنْ يَلْقَى الْمَيِّتَةَ حِسْبَةً مِنْهُ، وَمَنْ نَشِبَتْ بِهِ أَظْفَارُهَا
تَنْفِي مَقَاوِلَ خَيْرٍ وَسَرَاتِمَا وَبَنُو شَهَابٍ وَكُرْهَا وَقَرَارُهَا
وَلُيُوثُ مُغْرِقَ يَضْرِبُونَ فُرُوعَكُمْ ضَرَبَ الْغَرَائِبِ، أَعْرَكَتْكَ بِكَارُهَا

وينادي عَمراً لو أَنَّهُ عاين ذلك الفيلق الضخم وفيه الكماة عوابساً تصول وتجول تحت ظلال
القنا، تسلُّ النَّزال والمبارزة، وقد اشتَهت القتال، فاحمَرَّت عيونهم واكفهرَّت وجوههم لَعَلِمَ أَنَّهُم
الذائدون عن الحمى، بل جمارها إذا ما علت ألسنة نيارها^(١):

يَا عَمْرُو لَوْ عَايَنْتَ مِنَّا فَيَلَقَا يَهْدِي سَوَابِقَ وَدَقِهَا جَرَارُهَا
فِيهِ الْكُمَاةُ عَوَابِسًا تَحْتَ الْقَنَا تَسْلُ النَّزَالَ وَقَدْ بَدَتْ أَخْبَارُهَا
تَرْمِي إِلَيْكَ بِأَعْيُنٍ مُحَمَّرَةٍ وَتُسَوِّقُ رَيْعَانَ الْكُمَاةِ كِبَارُهَا
لَعَلِمْتَ أَنَّنَا فِي الْمَكْرِ مُجَاهِدَا وَعَلِمْتَ أَنَّنَا فِي الصَّلَاءِ جَاهِرَا

ومثل هذا الوصف نجده لدى محمد المالكِي الذي يصوِّر شجاعة بني عوف وبني مالك الذين
يفلقون الجماجم ويكسرونها، ثم يشبِّههم بأبعرٍ بلغتِ التاسعة من سنِّها، تبقى ظِمَاءٌ للورود، حائمةٌ
حوله^(٢):

مَتَى أَدْعُ بِالسَّبْطِينَ عَوْفٍ وَمَالِكٍ يُجْبِنِي حُمَاةٌ يَفْلُقُونَ الْجَاهِجَا
يَدْبُونُ حَوْلِي فِي الْحَدِيدِ كَبُزَلٍ تَظْلُ ظِمَاءٌ لِلْوُرُودِ حَوَاتِمَا

ثم ينعتهم بالأسود كراً وفرّاً في حومة الوغى يضربون كبير القوم بالسيف القواطع التي علَّت
من شأن الشاعر وقدره، وبالرماح المتعطّشة كعوبها للدِّماء، التي تزيل ما علق بالنفس من الوتر،
وتشفي قلب الثائر الأحن^(٣):

(١) الديوان: ق ٩٠/ب ٧-١٠.

(٢) الديوان: ق ٩١/ب ٤-٥.

(٣) الديوان: ق ٩١/ب ٧-٩.

رَأَيْتَهُمْ كَالْأَسَدِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى يُعَالُونَ هَامَ الْقَوْمِ بِيضاً صَوَارِمَا
هُمْ يَبْضُؤُوا وَجْهِي غَدَاةَ دَعْوَتِهِمْ بِكُلِّ رَقِيقٍ الْحَدَّ يَنْفِي الْمَظَالِمَا
وَكُلَّ رُدَيْنِي ظِمَاءٍ كُغُوبُهُ يُجَلِّي بِهِ الْأَوْتَارَ مَنْ كَانَ نَاقِمَا

ووصف محمد بن قرف المالكي، وهو صاحب راية الربيعة بن سعد في حرب بني سعد بن سعد الخيل والسيف الذي لاح في الجو وكأنه البرق مضاء وسرعة، ويبري الرماح لحدته وجلائه، ووصف أيضاً فرسان الحرب الذين قلّدوا ناقة أشبهت جرادة لخفتها وسرعة انتقالها، حتى فلتت منها الأحزام والأربطة، والأرماح تحرق جلدها وتكويها، وهو أشد ما يكون من القتل، فيقول مخاطباً عمرو بن يزيد السعدي^(١):

يَا رَاكِبَ الْحَجَرِ يَجْرِي فِي شَكِيمَتِهَا كَيْفَ اسْتَبْتَنَ جَوَادِي حِينَ تُثْرِيهَا
وَقَدْ سَلَلْتَ حُسَاماً لَاحَ بَارِقُهُ يَبْرِي الْقَنَا وَكُفَاةَ الْحَرْبِ يَفْرِيهَا
لِلَّهِ دَرْكٌ لَوْ نَالَتْكَ ضَرْبَتُهُ لَطَارَتِ النَّفْسُ تَهْوِي مِنْ تَرَاقِيهَا
لَوْلَا فَوَارِسُ مَنْ سَعِدَ لَفُزْتَ بِهَا عِنْدَ اللَّقَاءِ وَمَا طَاشَتْ مَرَامِيهَا
لَكِنَّهُمْ عَارِضُوا خَيْفَانَةً فَلَقَتْ مِنْهَا الْحَزَائِمُ وَالْأَرْمَاحُ تُكْوِيهَا

وقريب من هذا الوصف ما نجده في نتفة لثابت بن يزيد العوفي الذي يرى الحرب وحشاً كاسراً كثر عن أنيابه، وقد جرد قومه سيوف الهند وهي من أجود السيوف وأمتنها، والدروع أو التروس، يقول^(٢):

إِنَّا إِذَا الْحَرْبُ أَبَدَتْ عَنْ نَوَاجِذِهَا أَبْصَرْتُ مَنَّا لَدَى رِيْعَانِهَا عَجَبَا
أَبْصَرْتُ مَنَّا حِمَاةً لَا كِفَاءَ لَهُمْ يُجَرِّدُونَ سِيُوفَ الْهِنْدِ وَالْيَلْبَا

أما عن الأوصاف الأخرى، التي كنا نتوقع أن نجد منها شيئاً فمعدومة، من مثل وصف مظاهر الطبيعة الصامتة أو الحية، التي أهملوها إهمالاً تاماً، فلم تلمح في بيت شعري واحد، كوصف الطلل

(١) الديوان: ق ٩٦/ب ١-٥.

(٢) الديوان: ق ٩٩/ب ١-٢.

والأثافي والرماد والنؤي والأواري وبعر الآرام، والثمام^(١)، وحطب الولايد^(٢) وغير ذلك من مفردات الطلل. كما لم تلحظ في شعرهم حيوانات الصحراء المختلفة من سباع ضارية، وضباع جائعة، ووحوش كاسرة، ووعل معتصمة في أعالي الجبال، وثيران انكفأت على ذاتها تحت أرطاة وطيور جارحة وظباء تبحث عن مأمن لها من مصير يُضمر لها الموت: ويضاف إلى هذا إغفال شعراء خولان صورة السماء ومتعلقاتها، من ليل بارد وسماء غطتها النجوم المتلألئة، وسحب تؤمل فيها المطر والخير، والبرق الذي يشبه المصباح، والقمر... إلخ، وأما ما جاء من وصف للخيل أو السلاح من سيف أو رمح أو ترس أو فرسان، فلم يكن حاله أفضل، إذ جاء عرضاً في طيات قصيدة الفخر والحماسة، دون الالتفات إلى وصفه وصفاً دقيقاً وتصوير ما فيه خلا بيتاً واحداً لعمر بن حجر المالكي الذي صور فيه رمحاً تعطش للدماء وسيفاً لاح في الجو كأنه البرق سرعة ومضاءً، ليتبين لنا أن شعراء خولان لم يعتنوا بموصفاتهم عناية أقرانهم شعراء القبائل الأخرى، ولا سيما الذين قطنوا في الصقع اليانبي مثل شعراء حمير^(٣) ومذحج^(٤) ولم نجد فيهم شاعراً واحداً اشتهر بشيء من الوصف اشتهار كثير من الشعراء^(٥).

٣- المدح:

المدح هو «فن الثناء والاحترام والإكبار»^(٦) وقيل: هو «تعداداً لجميل المزايا ووصف للشئائل الكريمة، وإظهاراً للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا، وعرفوا بمثل هاتيك الشئائل»^(٧) التي انماز بها رجالات قبيلة خولان من أنفة، وإباء وكبرياء عظيمين، واعتداد

(١) الثمام: نبت صغير لين لا يطول، تُسَدُّ به خصائص البيوت فينزل عنها حين يتحمل أهلها، ويبقى دليلاً على الأرض من دلائل حياة تبددت.

(٢) الولايد: الإماء التي تلتقط الحطب، فتفرق الرياح ما بقي منه، وتنثره في الديار.

(٣) شعراء حمير (الدراسة) ٣٠٧-٣٠٩.

(٤) شعراء مذحج ق ٨٥/ب ٩-٩، وانظر (الدراسة) ٢٢٤-٢٢٩.

(٥) شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٣٩٤- وفيها فضل إيضاح من مقارنة شعراء كلب بغيرهم من شعراء الوصف.

(٦) شعر يهود في الجاهلية والإسلام ١٨٨.

(٧) فن المديح: ٥، وعنه في أشعار أهل اليمن في العصر الأموي ١٣٧.

بالنفس، كلُّها نعوت حالت دون بذل المحيا، فبدوا زاهدين في تَطْلَاب هذا الغرض الشعري، راغبين عنه، إلا في مواضع قليلة من أشعارهم، كان أكثرها حضوراً في دالية علقمة الخولانيّ ويتمته التي كادت تكون خالصة لوجه هذا الغرض، لولا بعض الأبيات التي أنهبها الشاعر وصف الناقة الراحلة إلى الملك وما عاناه قومه في أثناء سفرهم من وحشة الطريق ووعورته وبُعده. وأمّا ما جاء في غيرها فنجد أبياتاً يسيرة مبثوثة إمّا في متن القصائد، أو في أبيات مفردة نادرة أو مقطّعات أو نتف هي بقياً قصائد بلا أدنى شك.

وما جاء في هذا الموضوع في أشعار القوم الجاهليّة على حدّ العادة، ثلاث مقطّعات لعمرو الخوانيّ، ونبغة لشاعر جاهليّ مجهول، وقصيدة لكثير الشّهابيّ مزج فيها بين الفخر الذاتي والقبليّ من جهة، والمدح من جهة أخرى، وقصيدة علقمة الخولانيّ الذي كان رحّالاً يجوب الآفاق والأصقاع والأمواه إلى الملوك والأمراء باليمن والشّام، وهو صاحب المشورة على رؤوس خولان باستنجد سيف بن ذي يزن الحميريّ، على قبائل قيّس عيلان^(١) وقد تناول علقمة القيم الفنيّة - التي نبّه د. وهب رومية على احتبائها بفناء غرض المدح فقال: «وجدنا أنّ حسن الجوار وما يتّصل به هو القيمة الأولى التي يتغنّى بها هؤلاء الشعراء، ثمّ تليها قيمة القوّة، وقد تتفرّع عنها، ويحتل الكرم المرتبة الثالثة، ويتأخّر عنها جميعاً النسب»^(٢) = من دون استجداء أو توسّل يبدل لنوال ما يُطمع به.

وما أسبغ علقمة الخولانيّ على ممدوحه من صفات ونعوت وأماديح هي قارّة في شخصه، لأنّ له من تلك المزايا ما جعله الأكثر شهرةً ودوراناً على ألسنة العرب قبيل الإسلام، فهو الذي أخرج الأحباش من اليمن (٥٧٥م) وجاءته وفود العرب مهتّة من كلّ حدب وصوب، وفيها شعراؤها، كقريش التي جاء وفدها يرأسه عبد المطلب، وفيهم أميّة بن أبي الصّلت الثقفيّ الذي جرى لسانه بالثناء على سيف جريان الشعر على ألسنة شعراء كثير غير^(٣).

(١) انظر: ترجمته في الديوان.

(٢) قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأمويّ ٣٥.

(٣) انظر: ترجمته في شعراء حمير (الدراسة) ٩٣، وانظر: قصيدة أميّة في ديوانه ٤٥٣-٤٥٩ وتروى لأبيه أبي الصّلت، ورجّح

الدكتور عبد الحفيظ السّطلي أنّها منحولة.

فبعد خروج وفد خولان - وبينهم علقمة - من ديارهم، إلى صعدة، ثمَّ منها إلى صنعاء وسط بلد همدان = مسرعاً دون أن يعرَّج على شيءٍ إلى أن يصل الملك سيف بن ذي يزن ليطلب عطاءه ونواله، بأن يمدَّهم بجيش قويٍّ يعينهم على ردع قبائل قيس عيلان (هوازن وسُلَيم) يبدأ بمدحه وإسباغ ثمانية القيم وثالثتها عليه، وهي كثرة الرَّماد، والسَّخاء، وإباء النفس والبأس، الممزوجين بكرمه وسمحه^(١):

إِلَى طَلِقٍ لَمْ يَعْقِدِ اللُّؤْمُ كَفَّهُ وَمَا زَنَدُهُ فِي الْمَكْرُمَاتِ صَلُودُ
نَمَاهُ إِلَى الْعَلِيَاءِ نَفْسٌ أَبِيَّةُ وَبَأْسٌ غَدَاةَ الْبَأْسِ مِنْهُ وَجُودُ
ثُمَّ يُلْحُ عَلَى قِيَمَةِ الْكِرَمِ وَالسَّخَاءِ فَيَقُولُ^(٢):
إِلَى مَلِكٍ يُعْطِي الرِّيَّةَ مَالَهُ وَقَالَ لَهُمْ: عُودُوا فَسَوْفَ أَعُودُ

ثمَّ يصف ناقته وقد أصابها شيءٌ من الإعياء حينما تقاذفتها الأرض من وادٍ إلى آخر، ثمَّ إلى ملك تحمي عرشه جيوش جرَّارة، وقد بلغ رشده وهو ما يزال وليداً حديثاً. كما أنَّه من بيت كريم الأصل والمحتد، وهو الصَّبور على النَّازِلَاتِ والنَّوَابِ، والشَّاعرُ يعمد إلى صيغ المبالغة لترسيخ تلك الصفات والنعوت في شخصه يقول^(٣):

تَعَالَى إِلَى بَابِ امْرِئٍ ذِي مُرْكَبٍ تَكَامَلَ فِيهِ الْعَقْلُ وَهُوَ وَلِيدُ
أَقْبُ طَوِيلُ الْبَاعِ مِنْ بَيْتِ أَسْلَمٍ صَبُورٌ عَلَى رَزْءِ الزَّمَانِ جَلِيدُ

ثمَّ نراه يمدح من لا ذبَّله من حاشيته، فيجعلهم الأنجم والسَّعود دون أن يصرَّح بأنَّه القمر، ومَنْ بقي غيره؟ بل إنَّه مِنْ خَيْرِ مَنْ حَمَلَتْ بِهِ كِرَائِمُ بَنِي ذُهَلٍ (بنو ذي يزن الأكبر)، وقد كَبُرَ فيه

(١) الديوان: ق ١/ب ٩-١٠.

(٢) الديوان: ق ١/ب ١٧.

(٣) الديوان: ق ١/ب ٢٠-٢١.

منصبه الذي يشغله في دولة حمير العظيمة، فهو ملكٌ وابنُ ملكٍ، يوم دحر جيوش الأَشْبَاءِ والصِّدْفِ وحضر موت يوم غيمان، وداس عروش ملوكهم وسحج تيجانهم^(١):

فَصَبَّحَنَ ذَا قَيْنٍ وَكَبَّرَ وَفَدَّنَا وَقَدْ قَابَلْتَنَا أَنْجُمٌ وَسُعُودُ
تَوَّمُ فَنِيٌّ مِنْ خَيْرٍ مَنْ حَمَلَتْ بِهِ كَرَائِمُ ذُهْلٍ وَالْمَحِيدُ مَحِيدُ
تَكَامَلَ فِيهِ مَنْصِبٌ لَمْ يُلْتَبْ بِهِ وَمُلْكٌ نَمَاهُ طَارِفٌ وَتَلِيدُ
وَمَدَّ إِلَيْهِ يَوْمَ غَيْمَانَ إِذْ دَعَا مِنْ أَبْنَاءِ عَمْرٍو أَشْبُلٌ وَأَسُودُ

ثم يتناول قيمة حُسن الجوارِ ويمسك بطرفٍ من أطرافها، معولاً على مدده وعونه وقوّته، التي فاقت كلّ ذي قوّة وبأسٍ من مثل فوارس قيس المشهود لهم بالبأس ورباط الجأش والفروسيّة^(٢)، وهو الحامي للمال السائم في المرعي^(٣):

يُؤَمِّلَنَ نَصْرًا مِنْكَ يَا خَيْرَ سَيِّدٍ وَأَنْتَ وَصَوْلٌ لِلْقَرِيبِ وَدُودُ
وَحَامٍ لِسَرَحِ الْجَارِ عَنْ بُعْدِ دَارِهِ لِيَخُوفِكَ عَنْهَا حَيْثُ كَانَ حُيُودُ
تَحَامِينَ أَحْمَى مِنْ عُدَاةٍ أَقْرَبَهَا فَوَارِسُ قَيْسٍ وَالْمُقَرَّرُ يَدُودُ

ثم يتناول القيمة الأخيرة وهي قيمة النسب، فيمدحه بأنّه خير بني حمير جميعاً، وهم يطمعون بنواله وسخائه اللذين يقيدان مصيبتهم، وقد أدميت جراح ذلك الوفد، لعلّها تندمل وتبرأ من ألمها عندما يعودون بالذي سعوا إليه^(٤):

أَبَا الْمُنْذِرِ الْفَيَّاضِ يَا خَيْرَ حَمِيرٍ وَخَيْرَ بَنِي ذُهْلٍ، إِلَيْكَ نُزِيدُ
نُزِيدُ نَوَالًا مِنْ سَجَالٍ غَزِيرَةٍ فَأَنْتَ لَهَا فِي النَّائِبَاتِ مُقِيدُ

(١) الديوان: ق ١/ ٢٣-٢٦.

(٢) انظر: فحولة الشعراء: ٤٨.

(٣) الديوان: ق ١/ ٢٨-٣٠.

(٤) الديوان: ق ١/ ٣٨-٣٩، ٤١-٤٥.

وَقَطَّعْنَ تِيهَ الْأَرْضِ مِنْ دِمَتِّي دَفَا
 صَرَفْنَ إِلَيْكَ الْقَوْمَ تَذْمِي كُلُّهُمْ
 وَيَرْتَاشَ قِدْحُ مِنْهُمْ ذُو تَمْرُطٍ
 وَنَصْدَرُ مِنْكَ بِالنَّارِ تَتْرُكُ الْعَدَى
 لَعْمَرُكَ مَا أَذِلِّي بَغِيرِ مَوَدَّتِي
 وَإِلَيْكَ وَقَدْ تُعْطِي الْمُنَى وَتَزِيدُ
 لِيُدْمَلَ قَرْحُ مِنْهُمْ وَلَهُودُ
 وَيَقْتَأَقُ يَوْمًا مِنْكَ وَهُوَ سَدِيدُ
 عِبَادِيَدَ مِنْهُمْ خَائِفٌ وَشَرِيدُ
 وَمَا لِي سَوَى مَا قَدْ عَلِمْتَ شُهُودُ

المتأمل في هذه الأبيات يجد أنها صادرة عن عاطفة صادقة من غير مواربة، وما جاء في البيت الأخير، من قسم خير دليل على صدقها وعفويتها الآسرة التي تخلو من التوسل والاستجداء، لأنه ليس لامرئ عربي ملجأ إلا هذا الملك الذي امتدَّ ظله إلى عرب الجنوب كلهم، بل إلى قبائل جزيرة العرب قاطبة، ولا سيما أن «العرب لا تتكسب بالشعر، وإنما يصنع أحدهم ما يصنع منه مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها...»^(١). وعلى هذا تبدو هذه المدحة «مشرقة زاهية لا تسأل ولا تستجدي، وليس يعلوها الصغار، بل تشكر الصنيع الجميل لأهله وتحمده، وتبتهج بالموودة، وتمور بالعاطفة»^(٢).

ولم يختلف دافع كثير الشهابي عن دافع علقمة في مدحته التي يصرفها للملك الحميري - وكان واحداً من أعضاء الوفد المؤلف من سبعين رجلاً، الوافد على ابن ذي يزن = الذي جعله من أفاضل الخلق وأحسنهم وقد أمّنته خولان في بسط رجائها تنفيذ طلبتها إذ قال^(٣):

يَا خَيْرَ مَنْ أَصْبَحَتْ خَوْلَانُ تَأْمُلُهُ
 وَقَدْ أَتَتْهُ بِأُخْرَى جُرْعَةَ الدَّقْنِ

(١) العمدة: ١١٩/١.

(٢) قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي ٣٦.

(٣) الديوان: ق ١٨/ب ١.

ولم ينسَ أن يسبغَ على بعض الوفدِ الصفاتِ الحسنة والمناقبَ الرَّفِيعَةَ، وقد أتوه معترفين بفضله وحسنه لهم، فهم خيرُ قومهم وأفضلهم^(١):

فَسَارَ نَحْوَكَ أَجْمَادُ عَطَارِفَةٍ مِنْ آلِ خَوْلَانَ حَمَالُونَ لِلْمِنَنِ
هُمْ خَيْرُ قَوْمِهِمْ، فَأَبْسَطَ رَجَاءَهُمْ يَثْنُوا بِخَيْرِ لِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ

ومن ممداحهم مقطعة لعوف الخولاني، يذكر فيها عزَّ قومه بني حي بن خولان وسيادتهم للبرية كُلِّها، وقد حازوا المآثر الحسنة وحصلوا المكارم بكثرة الطعن بالرَّماح الصُّمِّ الغليظة التي لا تنشي ولا تنحني، واعترفت خولان لهم بحيازتهم الملك في الزمان الخالس^(٢):

أَبْنَاءُ حَيٍّ مَا سَمِعْتَ بِمِثْلِهِمْ حَازُوا الْمَكَارِمَ بِالطَّعَانِ الدَّاعِسِ
رَأَسُوا الْبَرِيَّةَ كُلَّهَا وَتَمَكَّنُوا فَوْقَ الْفُرُوعِ عَلَى الْمَحَلِّ الرَّائِسِ
شَهِدَتْ لَهُمْ خَوْلَانُ عِنْدَ فَخَارِهِمْ بِالْمُلْكِ قَدَمًا فِي الزَّمَانِ الْخَالِسِ

ومثل هذا ما نجده في مقطعة أخرى منها يقول^(٣):

أَبْنَاءُ حَيٍّ قَدْ سَمِعْتَ بِمِثْلِهِمْ أَهْلُ الْمَعَالِي رُجَحٌ أَحْلَامُهَا

وقوله في مقطعة ثالثة مادحاً بني حي الذين اعترفت لهم خولان بفضلهم، وهم في الحرب كماءٌ أشداء لا يعرف الفرع إليهم طريقاً ولا الجبن سبيلاً يقول^(٤):

أَقَرَّتْ لَهُمْ خَوْلَانُ قَدَمًا بِفَضْلِهِمْ وَلَبِسُهُمْ فِي الرَّوْعِ نَسْجٌ مُضَاعَفُ

وثمة شاعرٌ خولانيٌّ مجهولٌ مدحَ شُرَحْبِيلَ بن حَجْرٍ بن ربيعة بن سعد بن خولان فأسبغ عليه المكارم والفضائل، وجعلها لبوساً له يقول^(٥):

(١) الديوان: ق ١٨/ب ٣-٤.

(٢) الديوان: ق ٨/ب ١-٣.

(٣) الديوان: ق ١١/ب ١.

(٤) الديوان: ق ٩/ب ١.

(٥) الديوان: ق ٢٩/ب ١-٢.

لَعَمْرُكُمْ شُرْحَيْلُ بْنُ حُجْرٍ لَقَدْ لَبِسَ الْمَكَارِمَ وَاحْتَوَاهَا
وَمُعْطَى كُلِّ مَوْجُودٍ وَذُخْرٍ أَخُو الْغَارَاتِ، مُرْتَكِبُ الْمَعَالِي

فهذا الذي انتهى إلينا من مدحهم في العصر الجاهلي، وإذا ما أعدنا النظر كَرَّةً أُخْرَى ممحصين في هاتيك الأشعار ومعانيها، وجدناها تتعلّق بأحسن الصفات والنّعوت من سخاء وإباءٍ وعزّة، وشجاعةٍ ونجدةٍ ونسبٍ أصيلٍ وحمايةٍ للجار، وعلوّ في المكانة والقدر، وهي المعاني التي اعتاد الشعراء انتهابها في غرض المدح، كما لا تدلّ تلك الصفات على تكسّب واستجداء، وإنّما على إبراز صفاتٍ موجودةٍ في الممدوح حقيقةً كما أسلفنا في مدح سيف بن ذي يزن الحميري.

أمّا ما جاء به الشعراء المخضرمون في صدر الإسلام فقليلٌ ضامرٌ جسمه، خائرةٌ قوّاهُ، بدا خجلاً في ظهوره لدى عمرو بن يزيد العوفي الذي - تنهض أشعاره على جوالها بديوانٍ مستقلٍّ - مدح أبناء عمّه مالك بن زيد بن أسامة بن زيد الخولاني، لعلّهم يرجعون عمّا عزموا عليه من محاربتهم لرهط الشاعر وقومه، فراح يذكرهم بأنّهم سنّد لهم ويدّ يطولون بها الأعداء، وهم أنامل لتلك الأيادي، وهم إخوة في كلّ الرّزايا والنّوازل، مصيرهم واحدٌ؛ لأنّهم انحدروا من أبٍ واحدٍ كريم السّيرة^(١):

فَأَنْتُمْ لَنَا كَفُّ نَطُولِهَا الْعِدَا وَهَلْ تُوجَدُنْ كَفٌّ بَغَيْرِ أَنْامِلِ
وَنَحْنُ أَشِقَاءُ، أَبُونَا أَبَوْكُمْ وَإِخْوَتُكُمْ، فِي كُلِّ يَوْمٍ زَلَزِلِ
أَلَيْسَ أَبُونَا مِنْ أُسَامَةَ فِي الدُّرَى شَقِيقَ أَبِيكُمْ، قِسْمَةٌ فِي الْمَنَازِلِ

ومن مدحه ما نجد فيه بعض المعاني الدينيّة الخالصة، فهو يطلب من أبناء عمومته أن يخففوا من ثورتهم، ويرعوا جانب القرابة وأواصرها، لأنّ لهم بقومه سنّداً متيناً في الملّات، ولا سيّما أنّهم خاضوا حروباً معاً ضدّ أعدائهم وخصومهم؛ وهم يُشتمُّون ويُسبُّون في عقر دارهم، وليس فيهم من يزيّن صورتهم ويجمّلها في غيبتهم، ولولا رحيل الشاعر يثرباً لأدّبهم وأنزل فيهم عقابه الشّديد،

(١) الدّيوان: ق ٤٥ / ب ٢-٤.

ولكنّه أملٌ أمراً لا يرجع دونه، وهو زيارة النبي محمد ﷺ المرسل بالكتاب المنزل، هو من خير بني لؤي بن غالب بن فهر بن كنانة يقول^(١):

مهلاً بنّي سعد بن سعد عمّنا	إنّا نصرناكم ولما نخذل
فارعوا قرابة معشر نصر وكم	وارجوا مودتنا لعام مقبل
فلعلنا يوماً نقارع دونكم	ونذب من يغشى البلاد بمعضل
أنسب في حاقناكم ما منكم	يوماً لنا في غيبة بمجمّل

لولا رحيلي يثرباً لكرزتها	بالجد منّي للئيم الأعزل
أملتُ أمراً لست أزعج دونه	والرشد في رفق الفتى المتأمل
حتى أزور نبي صدق مرسل	يأتيه وحي بالكتاب المنزل
من خير بيت في لؤي بيته	بيت لعمرك في الرفيع الأطول

نلاحظ المعاني الدينية في الأبيات الأخيرة التي أسبغها الشاعر على النبي ﷺ، من صدق، وتفرّد بالوحي المنزل على قلبه، ورفعة نسبه، وعلوه وسموق بيته الذي علا كل بيوتات العرب.

وعندما نزل بنو شهاب على حُجر بن الربيعة بن سعد بن خولان - وهو في حقل صعدة - سأله الحلف والمظافرة لما أعجبهم ذلك الحقل، فأجابهم إلى ذلك وأشركهم في الحمى، فسكنوا صعدة من يومئذ، فراح عمرو بن يزيد العوفي يذكر هذه المحالفة مادحاً جدّه حُجراً، مُسبِّحاً عليه جُلّ الصفات الحسنة، من اتصال بأرومة شريفة في قضاة، وحلوله في ذرى شاهقة عالية، وبسط لنفوذه على مشارق البلاد ومغارها يقول^(٢):

وكندة أحلاف حُجر وقبلها	تمكّن في فرعي قضاة منصبة
نمته إلى العليا يد من قضاة	وعرق إلى خير المغارس يجذبّه

(١) الديوان: ق ٤٦ / ب ١-٤، ٦-٩.

(٢) الديوان: ق ٣٢ / ب ١-٣.

وَحَالَفَهُ السَّادَاتُ مِنْ حَيٍّ مُغَرِّقٍ فَدَانَ لَهُ شَرْقُ الْبِلَادِ وَمَغْرِبُهُ

وفي شعر المسلم بن يغنم المالكي أربعة أبيات من قصيدة له، يمدح فيها بني مالك وينعتهم بالملوك الذين يختالون في مشيتهم عَظَمَةً وافتخاراً، أو أنهم الأسود المسودون الذين يديرون رحى الحرب متى يشاؤون، فهم إنما حُمَاة بني عوف وذؤابتها، لا يتأخرون عن الزحف أبداً الذي تعلوه السيوف المثلمة، وإذا ما دعاهم أسير أو مستغيث لبوا مسرعين، هم في ذؤابة خولان وغررتها، ما نوزعوا فيها وما دوفعوا أبداً يقول^(١):

وَالصَّيْدُ مِنْ مَالِكٍ، أَزْبَابُ رَايَتِهَا	فِيهَا الْمِصَاعُ وَفِيهَا الْبَيْضُ وَالْحَجَفُ
كَانُوا حُمَاةَ بَنِي عَوْفٍ وَسَادَتِهَا	يَوْمًا إِذَا خَفَقَتْ رَايَتُهَا زَحَفُوا
تَحْتَ السِّيُوفِ إِذَا عُضَّتْ مَضَارِبُهَا	وإنْ يَنَادِيهِمْ مُسْتَلْحِمٌ عَطَفُوا
مَنْ فَرَعَ خَوْلَانَ خَلُّوا فِي ذُؤَابَتِهَا	مَا دُوفِعُوا دُونَ فَرْعَيْهَا وَلَا حُرِفُوا

وأما ما جاء في هذا الموضوع في شعرهم الأموي، فليس فيه ما ينقع بلةً ويشفي صادياً، إذ لا نكاد نجد فيه سوى مقطعة لعبيد الله بن عوف الخولاني، فأما مناسبتها فقدوم حسان بن النعمان الغساني من أفريقية، وكان أميراً عليها يزيد عبد الملك، وكان عبد العزيز بن مروان قد ولي على برقة عبداً له يقال له تليداً، فكبر على أهل برقة أمامه عندهم، وبها أشرف الناس، فكتب عبد العزيز إليه يوقفه، وقفل حسان من عند عبد الله بولاية المغرب، فقال له عبد العزيز: اندفع لي عن ولاية برقة، فإن بها تليداً، فأبى ذلك حسان، فدعا عبد العزيز موسى بن نصير، فعقد له على أفريقية سنة تسع وسبعين، فتجهز موسى، وحمل الأموال وخرج إلى المغرب... ولما دخل بجنده إلى أفريقية، قال رجل يقال له عبيد الله بن عوف الخولاني مادحاً الأمير بصفات عذبة مثل النصير الذي يقدمه والحزم الذي يسبقه، والعفة في أخلاقه، وعدم خموله وسكونه، ويمدحه بعدله، وبإحقاقه الحق، وبكثرة سخائه ورماده، وعطائه من دون منة^(٢):

(١) الديوان: ق ٦٢/ب ٨-١١.

(٢) الديوان: ق ٩٨/ب ١-٣.

كُنَّا نُوْمِّلُ حَسَّانًا وَإِمْرَأَتَهُ حَتَّى أَتَانَا أَمِيرٌ غَيْرُ حَسَّانٍ
النَّصْرُ يُقَدِّمُهُ، وَالْحَزْمُ سَابِقُهُ عَفْ الخَلَائِقِ مَاضٍ غَيْرُ وَسَّانٍ
الْحَقُّ شَيْمَتُهُ، وَالْعَدْلُ سِيرَتُهُ جَزُلُ الْمَوَاهِبِ، مُعْطٍ غَيْرُ مَنَّانٍ

إذا ما أرجع الباحث النظر كرّة أخرى في أشعار القوم في العصر الأمويّ سيجد انعدام هذا الغرض انعداماً تامّاً، لولا المقطعة السالفة التي اعتنت بالمعاني التقليديّة للممدوح مثل الشجاعة والبأس والشدة وعفة الخلائق، إلى جانب اهتمامها ببعض المعاني الإسلاميّة مثل إقامة العدل وإحقاق الحقّ. ولم تكن هذه الصفات وتلك بغية التكسّب والتطلاب، وإنّما كانت بدافع الإعجاب بالأمير وصفاته التي وقرت في شخصه، ولعلّ شحوب هذا الغرض في أشعار القوم في عصورهم الثلاثة، ونحوه، عائداً إلى أنفة رجالات خولان وكبريائهم واعتدادهم بأنفسهم، كما أنّهم كانوا مشغولين دائماً بقيادة الحروب، وتشبيب نارها؛ لذا انفقوا معظم قوافيهم في الفخر الذاتي والقبليّ، هذان الأمران حالاً دون مدح أحدٍ من السادة أو الملوك أو الأمراء، حتّى قيل عنهم قديماً «أنف قضاة»^(١) لما لهم من الأنفة والعزة والشموخ.

ويضاف إلى ما سبق، انشغالهم بحروبٍ مستمرة كانت تدر عليهم الغنائم والأسلاب، ولم يكونوا بحاجة لعطاءٍ أحدٍ أو سخائه^(٢). نجد لهذه الظاهرة في أشعارهم مثيلاً عند غيرهم من القبائل كحمير^(٣)، ومذحج^(٤) وشعراء اليهود في الجاهليّة والإسلام^(٥) وبني عامر الذين كاد أن ينتفي من شعرهم هذا الغرض خلا ديواني ليبد بن ربيعة العامريّ، وعامر بن الطفيل^(٦) وشعر قريش^(٧).

(١) شرح قصيدة الدّامغة: ١٧٣.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤٠٠ / ٢.

(٣) انظر: شعراء حمير (الدّراسة) ٣٣٧.

(٤) انظر: شعراء مذحج ٢٨٨.

(٥) انظر: شعر اليهود ١٩٢.

(٦) انظر: شعر بني عامر ٢٠٣.

(٧) انظر: شعر قريش: ٢١٩.

«وشعراء بني كلب، وبني قشير وبني عقيل، وبني تغلب، وطِيّ»^(١) فهذا هو حال المدح عند هذه القبائل بما فيها خولان التي لم يبرز فيها شاعر مَدَّاحٌ مُتَكَسِّبٌ كالذي نجده عند القبائل الأخرى: «كبنّي ذبيان قوم النَّابغة، وبني عبس قوم الحطيئة، وبني بكر قوم الأعشى، وبني الخزرج قوم حسان ابن ثابت، وبني أسد قوم بشر بن أبي خازم الأسديّ [حينما مدح عمرو بن الحارث الكنديّ، أو لفقه عبيد بن الأبرص الأسديّ عندما مدح حجر بن الحارث الكنديّ]^(٢) هؤلاء الشعراء الذين لولاهم لما كان هذا الموضوع بارزاً في الشعر الجاهليّ»^(٣).

٤ - الهجاء:

كانت الحروب التي تُسَعَّرُ بين القبائل والبطون لسبب ما، والمناوشات التي تنشب بين الأفراد، أرضاً خصبة لغرض الهجاء الذي يعدّه أحد الباحثين من أَسِيرِ الموضوعات في الشعر العربيّ في الجاهليّة والإسلام، وإن تقدّمه من حيث كثرة القوافي جُلُّ الموضوعات الأخرى من حماسة وفخر ووصف ومدح وغزل ونسيب ورثاء^(٤)؛ وربّما لا يكون الباحث محايياً إذا قال إنَّ هذا المذهب حقٌّ، لا مَرِيّةَ فيه؛ لأنَّ غرض الهجاء هو ذمُّ الشّاعر وسلبه لخصمه الصّفات الحسنة، وبهذا يقترب من موضوعات الشعر الأخرى أو يدخل فيها من أحد جوانبها حتى عُدَّ أيضاً من أكثر الفنون الشعرية اتصالاً بالحياة الواقعيّة للقبيلة، وقد أفردت له الكتب والمصنّفات التي اهتمت باختيار الشعر الجاهليّ وجمعه، أبواباً خاصة فيه^(٥) وسيتناول موضوع الهجاء في أشعار خولان بحسب ما اجتمع لدينا منها

(١) انظر: شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٣٦٩، وانظر: شعراء قشير ٢٤٠، وشعراء بني عقيل ١٧٣، وشعراء تغلب ١/

٣٥٥، وشعراء قبيلة طيّي ١/ ٥٩٧.

(٢) انظر: شعراء بني أسد في الجاهليّة ٢٧٤، وانظر: ديوان بشر بن أبي خازم ٣٨-٣٩ (ق٧/ب ١٧-٢٣) وديوان عبيد بن الأبرص ١٢٥-١٢٦ وفيهما مدحة قيلت في الملك المذكور آنفاً، وكانت في الاستعطاف والاعتذار أكثر منها في المدح.

(٣) انظر: شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٣٦٩.

(٤) شعراء حمير (الدراسة) ٢٩٢.

(٥) انظر: منهاج البلغاء: ٣٥٢، نقد الشعر: ٩٢ التذكرة الحمدونيّة: ٣٠/٥، عيار الشعر: ١٣، ديوان المعاني: ١٧٠، حلية

المحاضرة ١/ ٣٥٦، كتاب المناقب والمثالب: ٢٧٨، كتاب الصناعتين ١٠٤-١٠٦، نضرة الإغريض ٣٩٤، المرشد إلى فهم

أشعار العرب ٤/ ٦٨٤، البيان والتبيين ٤/ ٣٥-٤٥، والفروسيّة في الشعر الجاهليّ ١٨٠.

في دفتي هذا المجموع، غير أن ثمة أمراً يحسن التنبيه عليه في بدو الكلام على هذا الموضوع، يكمن في قلة ما وصل إلينا من شعر الهجاء سواءً في ذلك شعر الجاهلية، وشعر المخضرمين وصدر الإسلام، وشعر العهد الأموي.

أما ما جاء من أشعارهم في هذا الغرض في الجاهلية فمقطعة لعمر بن زيد، المشهور بمغرق الأكبر يهجو فيها بني حنيفة سعد بن خولان لما أجبروا بني سعد بن سعد بن خولان على إخراجهم من ديارهم إلى صعيد مصر لأن رجلاً من بني الحارث بن سعد خطب إلى بني حنيفة كرائمهم، فأكبر بنو حنيفة نفوسهم عليه، فدافعوه، فلما ألح عليهم حصوه، فغضب بذلك بنو سعد، الذين عدوا ذلك الفعل مساً بكرامتهم وخطاً من قدرهم وشأوهم، فنشبت الحرب التي أدت إلى تشريد بني حنيفة في صعيد مصر^(١) وفي هذا يقول عمرو بن زيد^(٢):

أَبْلَغُ بَنِي زَيْدٍ وَأُسْرَةَ رَاسِبٍ	إِخْوَانَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ خَاسِبٍ
أَنَّ الْغَوَاةَ مِنْ آلِ حَيٍّ قَلَدُوا	إِخْوَانَهُمْ عَارًا بِفَعْلٍ يَاسِبٍ
مَثَلُوا بِأَمَثَلِنَا وَخَانُوا سُنَّةَ	لَمْ يَأْتِهَا يَوْمًا جَبَابِرٌ فَارِسٍ
يَا بَنِي قُضَاعَةَ فَاغْضَبَا لِأَخِيكُمَا	لَا خَيْرَ فِي رُكْنٍ ذَلِيلٍ وَاهِسٍ

يصفهم بأنهم أصحاب ضلال وخيبة وانهاك فيهما، وطيش وحمق، وقد ألبسوا إخوتهم عاراً ستذكره العرب ما عاشوا أحياء، حينما أقدم سفلتهم وأغبيائهم على ضرب ذلك الخاطب وحصوه، ولم يكن إلا ابن عمهم، ومن عدم تقديم الخير لأهله وذويه، عدم تقديمه للآخرين، فليس فيهم خير يؤمل ويُرجى، وكيف وهم الأذلاء المحقرّون الصغار؟

أنّ ظهور معاني الهجاء في القافية السابقة خجل، بل شاحب، غير أنه غُذي من صورته، وأشرب من ورده، فجاءت صورته ممتحة من حياة القبيلة الواقعية، ومن عنايتها بموضوع العصبية القبليّة

(١) الإكليل: «المخطوط ٦٣/١، المطبوع ٢٨٦/١».

(٢) الديوان: ق ٣/ب ١-٤.

التي كانت معتمد القوم وأسس حياتهم، فقد أقدم أبناء عمومته على فعلٍ وضع لم يأتَه أكاسرة فارس الذين لم يعتنوا بما اعتنى به العرب من صلات القربى وأواصر الرحم.

ومن هجائهم قول خالد بن قيس الحيواني، يشكو حيف ذوي القربى الذي كان أشدّ مضاضةً، فقد أخرجوا من ديارهم وركبوا البحر قاصدين صعيد مصر، فغرق بعضهم ونجا آخرون، وكأني بالشاعر يردُّ على قالة عمرو بن زيد الذي قاد الحرب ضدَّهم يقول، وفي قالته معاني الهجاء^(١):

وَلَدْنَا السَّرَاةَ الْغُلْبَ مِنْ عَبْدٍ مَالِكٍ	فَقَامُوا عَلَيْنَا بِالسُّيُوفِ الْهَوَاتِكِ
هُمْ قَتَلُوا حَوْلَ السَّرِيرِ خِيَارَنَا	وَمَالُوا عَلَيْنَا بِالذُّرَى وَالْحَوَارِكِ
وَمَا وَصَلُوا حَبَلَ الْقَرَابَةِ بَيْنَنَا	فَلَا وَصَلَتْ قُرْبَى بَنِي عَبْدِ مَالِكِ
هُمْ نَصَرُوا عَوْفًا عَلَيْنَا وَمَالِكًا	وَحَيَّ بَنِي حَرْبٍ وَحَيَّ السَّمَاهِكِ
فَلَا قُرْبَتْ قُرْبَاهُمْ مِنْ قَبِيلَةٍ	وَلَا نُصِرُوا تَحْتَ الرَّمَاحِ الشَّوَابِكِ
وَلَا زَالَ مِنْهُمْ عَائِرُ الْجَدِّ دَاخِرٌ	يُؤَلِّئُهُ صَرْحُ الْحَرْبِ صُمِّ السَّنَابِكِ
هُمْ قَتَلُونَا طَغْوَةً وَتَبَذْنَا	وَجَارُوا عَلَيْنَا فِي الدِّمَاءِ السَّوَابِكِ

لم يعد في يد الشاعر بعد خروجه وقومه من صعدة، وتشردهم في صعيد مصر سوى هذه الكلمة التي حملت مفردات البيئة الجاهليَّة وما يلفَّها من حياة الحرب ومفرداتها الطَّاغية فيها، فنجد حضوراً للسُّيوفِ الهواتك، والذرى والحوارك، والرِّماح الشَّوابك، وصرح الحرب، وصمِّ السَّنابك، والدِّماء السَّوافك، وهي مفردات الحرب التي أَلَفَ بينها الشاعر، وبسط لسانه فيها موضَّحاً شكاياته من أبناء عمومته الذين أشهروا رماحهم في وجوههم، وأعملوا السُّيوف في رقابهم قتلاً وجرحاً، داعياً على هؤلاء بتقطع أواصر قرباهم وصلاتها، لأنَّهم لم يقيموا وزناً لصلة القربى، كما يدعو عليهم بإخفاقهم تحت ظلال السُّيوف والرِّماح، ويدعو على المتأخرين منهم عن الزَّحف بالذُّلَّة والصَّغار والمهانة والهزيمة التي ستضرب أطناها فيهم، وينبزههم أيضاً بالضلالة والظُّلم والمبالغة فيهما، والتكبر

(١) الديوان: ق ١٦/ب ١-٧.

والتطاول والإسراف، والَّلَّافَت للنظر في هذه الكلمة أنَّها لم تكن مقدَّعةً ولا فاحشةً، ولا بذئية القول، على الرَّغم من السَّخائم والإحن اللاتي تغلي بها صدور بني حيٍّ بن سعد بن خولان، لما أصابهم من سوء المنقلب في الأمر، بل جاءت مُتَلَبَّسةً ثوب الدُّعاء على القوم بالمهالك والأهوال، ترفل في أسلوبه الرِّصين، ولم تكن هذه إلَّا من أخلاقهم العالية التي نشؤوا عليها، وحافظوا وتمسَّكوا بِعُرَاهَا، في حين هَدَرها آخرون ولم يلتفتوا إلَّا لما تطمع به نفوسهم الطَّاغية، وقد تنبَّه إلى مثل هذا أجدادنا القدامى فقال الحاتميُّ بسنده: «قال أبو عمرو بن العلاء أحسن الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها، فلا يقبُح منها»^(١)، ومن ذلك أيضاً كلام صاحب الوساطة: «فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزُّل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه في القلب ولصوقه بالنفس، فأما القذف والإفحاش فسبَابٌ محضٌ وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النَّظم»^(٢).

ومن ذلك أيضاً قول خلف الأحمر: «أشدُّ الهجاء، أعفُّ وأصدق، وقال مرَّةً أخرى ما عفَّ لفظه وصدق معناه»^(٣) واتكاء على هذه الأقوال تكون هذه الهجوة بمكان، لما لها من عفة اللَّفظ وصدق المعنى، وقرب من النفس وسهولة التناول وبُعْدٍ عن الإقذاع والسِّباب.

وقريبٌ من هذه المعاني ما نجده في شعر المخضرمين وصدر الإسلام منهم، من ذلك هجاء عمرو ابن يزيد العوفي، وكان ذا فروسيَّة ورئاسة في قومه، وأخباره تشبه أخبار الفرسان مثل عنتره العبسيِّ وعمرو بن معدي كرب الزُّبيدي في الإقدام والشَّجاعة والبروز للعدوِّ. قَتَلَ عُمارة السُّلمي جَهْرَةً في وقعةٍ كانت بين خَوْلان وسُلَيْم، وما انفكَّ العوفيُّ هذا عن توعُّد فرسانِ سُلَيْم وخيارها، حتَّى انبرى

(١) حلية المحاضرة ١/ ٣٦٥ وعنه في ديوان المعاني ١/ ١٧٦، والعمدة ٢/ ٨٦٧.

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٣٠، وعنه في العمدة ٢/ ٨٦٨.

(٣) العمدة ٢/ ٨٦٨، وعنه في الفروسية في الشعر الجاهلي: ١٨٤.

له عروة بن عتبة الرَّحَال بن جعفر بن كلاب العامريّ - وكان حليفاً لبني سُليّم = بكلمة يتوعّده فيها بالويل الذي سينزل به، لأنّه أخذ عُمارة غدرًا وخِداً فقال منها^(١):

قَتَلْتَ عُمَارَةَ الْحَيْرِ غَدْرًا وَخِتَلَةً لَكَ الْوَيْلُ حَتَّى جِئْتَ فِي غَلَسِ الْفَجْرِ
فَمَا ظَفَرْتُ كَفَّاكَ يَوْمًا بِمِثْلِهِ فَلَا زِلْتَ تُرْمَى فِي التَّرَائِبِ وَالنَّحْرِ
وَدُونَكَ عَبَّاسًا يَكِيدُكَ دَائِبًا يَخْبُ إِلَيْكُمْ بِالمِسْوَمةِ الشُّقْرِ
فَدُونَكَ فَاَنْزِلْ عُرَّةَ الْحَقْلِ أَوْ تَهَبْ لِنَفْسِكَ مَنَجًا فِي ذُرَى شَاهِقٍ وَغَرِ

فكان مما أجابه عمرو بن يزيد العوفي بقوله^(٢):

فَأَوْفِ بِمَا قَدْ قُلْتَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَلَسْتَ عَلَى الضَّرَاءِ يَوْمًا بِذِي صَبْرِ
وَقُلْ لَابْنِ مِرْدَاسٍ يُوْطِي حَرَارَةً رَسْتُ فِي فُؤَادٍ مِنْهُ تَغْلِي عَلَى الصَّدْرِ
وَدُونَكَ فَاطْلُبْ وَتَرَ عَمَّكَ إِذْ تَوَى بَأَزْدَى حَلٍّ فِي تَمِيمٍ بِلا وَزْرِ
عَجَزْتَ أَمْ انْظُرْتَ الْغَرِيمَ وَإِنَّمَا أَخُو النَّجَدَاتِ مَنْ تَقَاضَاكَ فِي الْعُسْرِ

من السُّبُل المسلوكة في الهجاء، الهجو بالكذب، وعدم الجلد، والصبر على الملمات والمصائب، والضعف والخور والعجز، كما أنّ النعت بكثرة القيل والقال التي ليس من ورائها إلا الجعجعة من دون رؤية طحنا، من المعاني المتداولة بين الشعراء. كذلك قوله حينما توعّد مرّ بن عامر بن الحارث بأنّه سيقته؛ لأنّه أخلّ بخولان إلى هوازن، وخان العهود والمواثيق^(٣):

حَاكَ اللَّهُ مِنْ قَيْلٍ مَشُومٍ فَضَضْتَ الْيَوْمَ بَيْضَةَ آلِ عَمْرِو

فينزّه بالشّرّ والسّواد، ويدعو عليه بالقبح واللعن.

(١) الدّامغة: ١٩٠.

(٢) الدّيوان: ق ٤٠/ب ١-٤.

(٣) الدّيوان: ق ٤١/ب ١٤.

وعَيرَ سعد بن اللَّيث المالكيَّ عَمَرُو بن حُجْر الذي آلت إليه رئاسة قضاة وأجمعت على سيادته،
بالبؤس الذي صار أخاً له، فبئس السيّد إذا ما سُيِّد^(١):

فِيَا عَمْرُو أَنْتَ أَخٌ لِلْبُؤُسِ فَبِئْسَ الْخَلِيفَةُ إِذْ خَلَفَا

وفي مقطّعةٍ أخرى يهجوّه بسوء طالعه، وخيِّته بكلّ ما يرومّه مِنْ أمرٍ يسعى إليه سعايةً مُجَدِّ، فلا
يظفر إلا بمن رَجَعَ بِخُفْيٍ حُنَيْنٍ^(٢):

تَقَاضَاكَ دَهْرُكَ مَا أَسْلَفَا وَأَمْسَى الَّذِي رُمْتَهُ أَخْلَفَا

كما نلحظ لهجة التّقرّيع والتّأنيب في شعر عمرو بن حُجْر المالكيّ الغاضب في قتل المقدام بن زيد
الحيواني - وكان خال أبيه - لرواقي الرّبيعة عوف ومالك يقول^(٣):

أَلَمْ تَعَلَّمَا يَا ابْنِي يَزِيدَ بَأْنِي حَيْثُ عَلَى الْعَوْرَاءِ يَغْلِي بِهَا صَدْرِي
فَارْدَفْتُمَاهَا ظُلْمَكُم لَابْنِ عَمَّكُم وَقَتْلَكُمُ الْمَقْدَامَ بَغْيًا بِلَا وَثَرِ
قَطَعْتُم بِهِ الْأَرْحَامَ فِي ذَاتِ بَيْنِنَا فَأَصْبَحْتُم شَتَّى دِمَاؤَكُم تَجْرِي

لقد غلّى صدره واستشاط غيظاً بفعلة بني عوف وبني مالك الوضيعة الدّنيئة، فيعيّرهم بالظلم
والتّجبر والغواية والضّلال، ثمّ يلتفت ليخبرهم بأنّهم بقتلهم للمقدام سالت دماؤهم وأجريت
لتقطّع أواصر القربى وصلاتها.

وإذا أعدنا النّظر غير مرّة فيما سلف سنجد أنّ هجاء هؤلاء لم يكن إفحاشاً ولا سباباً ولا إقذاعاً،
وإنّما كان سلباً للخُلُق الرّفيع والعادات الجاهليّة الحسنة التي سادت ذلك المجتمع، سيادة المنافرات
والخصومات التي كثيراً ما كانت تؤدّي إلى ما أشرنا إليه في المقطّعات الشعريّة السابقة والأبيات
المفردة، كما نلاحظ أنّ شعراء خولان كانوا يعمدون إلى تصوير العيب الذي يقصدونه فقط من دون

(١) الدّيان: ق ٦٨/ب ١.

(٢) الدّيان: ق ٦٧/ب ١.

(٣) الدّيان: ق ٥٧/ب ١-٣.

مبالغة في القول أو إزهاق لشرف ذلك المهجور ومكانته في قومه، وبهذا يقترب هجاؤهم من الهجاء الذي وسمه خلف الأحمر بالعفيف الصادق أو غيره من أهل العلم والفضل.

وأما ما كان من هجائهم في العصر الأموي فنجد عند عمرو بن زيد الغالبى في قصيدة أفردها خالصة لهذا الغرض، وهي القصيدة الوحيدة في هذا المجموع الشعري التي أنهت قوافيها غرضاً واحداً- أو غرض الهجاء- وقد انضوت تحت ظلال قصيدة الهجاء في الشعر القديم، التي تناولت الغمز بالنسب والطعن فيه، وهو من أمضى الهجاء على المهجور، ولا سيما إذا كان هذا المهجور من أصحاب الشرف والسؤدد، فيفشو بين الناس وتتناقله الألسن ويشيع إلى الحد الذي لا يمكن دفعه، فقد عيّر عمرو بن زيد الغالبى محمد بن أبان الخنفرى بجده الأصبغ لأمه، ولهذا الجد رواية يرويها الهمداني في إكليله حيث يقول: إِنَّ الْأَصْبَغَ لَمْ يُسَلِّمْ مَعَ إِخْوَتِهِ وَأَحَبَّ مَشَاقَتِهِمْ، فَقَعْدَ لِمَعَاذِ بْنِ جَبَل رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَقْتُلَهُ، وَلَكِنْ لَمْ يَظْفَرْ بِطَلْبَتِهِ، وَظَهَرَ لَهُ ثَعْبَانُ عَظِيمٌ، فَقَطَعَهُ بِسَيْفِهِ نَصْفَيْنِ، وَقَعَ نَصْفُهُ الْأَعْلَى بَيْنَ أَوْلَادِهِ فَقَتَلْتَهُمْ جَمِيعاً، وَبَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ أَثَرَى اللَّهُ فِي عِيَالِهِ، فَعُيِّرَ بِقِلَّةِ إِيْمَانِهِ وَضَعْفِهِ وَخَوَرِ إِسْلَامِهِ، وَمُحَمَّدٌ هَذَا هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ بَنِي حَرْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَعْدٍ وَبَنِي غَالِبِ بْنِ سَعْدٍ إِلَى عَرَوَانَ وَالْعَرَجِ مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ بِسَبَبِ قَتْلِ أَخِيهِ رِفَاعَةَ وَكَانَ يَفَاخِرُ بِنَسَبِهِ قَائِلاً^(١):

أَنَا ابْنُ خَنْفَرٍ فِي صَمِيمٍ أَرُومِهَا وَتُخَفُّ بِي يَوْمَ الْكَرْيَةِ مُغْرِقُ

فأجابه عمرو بن زيد الغالبى يبنزه بنسبه وأشياء أخر^(٢):

فَلَا تَفْخَرْ بِقَوْمٍ لَسْتَ مِنْهُمْ وَجَدُّكَ فِي مَحَلٍّ بَنِي كَلْعِدِ^(٣)

لَتُسِيمُ الْأُمَّ وَالْأَخْوََالَ فَسُلْ يُنَادِي فِي مَنَاهِلٍ أَهْلُ نَجْدِ

(١) ترجمه القفطي في مصنفه «المحمدون من الشعراء» ١٩٠-١٩١ قال: «ومحمد بن أبان هذا سيدهم وابن سيدهم، وجده حجر ابن زرعة القيل، كان على عهد سيف بن ذي يزن، وخرج مع نوال بن عتيك ومرو بن عامر الحميري، يوم بعثهم سيف لنصرة خولان ومذحج على قيس عيلان»، وانظر: ترجمته المفصلة في شعراء حمير (الدراسة) ١٣٧-١٤٠.

(٢) انظر: الديوان: ق ٨١/ ١-٥.

(٣) انظر: التعليق على البيت في الديوان ثمة.

لَهُ صَنْمٌ يُعَظَّمُ إِذَا مَا يُيْنِمُ عِنْدَهُ وَإِلَيْهِ يُهْدِي
فَلَمَّا عَايَنَ الثُّعْبَانَ وَلَّى جَفْوَلَ الْهَيْقِ عَنْ رَأْيِهِ يُخْدِي
يَلُوكُ لِسَانَهُ فَشَلًّا وَيُيْدِي كَلَامَ مُعَانِدٍ لِسَلِيلٍ قَصْدِ

عَظَّمَ هذا الهجاء لعَظَم المهجُوّ وعلو قدره ونباهته، ومثله لا يُضَارُّ، ولم يستطع أن يصيب عمرو منه شرفاً يقدر فيه، ولا مرتقى يُحْطُّ، ولا أرومة تُشَابُّ، وإلى مثل هذا أشار الجاحظ بقوله: «وناس سلموا من الهجاء بالخمول والقلة، كما سلمت غسان وغيلان من قبائل عمرو بن تميم، وابتليت الحَبَطَات؛ لأنّها أنبه منها شيئاً، والنَّباهة التي لا يضُرّ معها الهجاء مثل نباهة بني بدر وبني فزارة، ومثل نباهة بني عُدُس بن زرارة، وبني عبد الله بن دارم، ومثل نباهة الدَّيَّان بن عبد المدان، وبني الحارث بن كعب، فليس يسلم من مضرة الهجاء إلا حامل جدّاً أو نبيه جدّاً... وقد هجيت الحارث ابن كعب، وكتب الهيثم بن عدي فيهم كتاباً، فما ضعضع ذلك منهم، حتى كأنّه قد كتبه لهم»^(١) وما محمد بن أبان إلا جذمٌ في الحميرية قوّة وشجاعةً ونباهةً وشدةً بأسٍ، وكرماً، وحسنَ جوارٍ، ولينَ عريكةٍ وذماماً ونسباً^(٢).

ونراه يهجوّه باللُّؤم من جهة أمّه، وبالحمق والغباوة والطيش من جهة جدّه المتكل على ما كان يفعلُه كفّار العرب وجحّادهم من تعظيم الأوثان وتفخيم شأنها، بعد أن أشرقت الدنيا بنور الرسالة السماوية المحمّدية، ودخول غالبية قبائل العرب في الإسلام، ولا سيّما قبيلة حمير التي كان لها «الأثر الحسن في حرب الردّة، ثمّ في الفتوحات، وبناء المجتمع الجديد في كل من الشام ومصر»^(٣) كما يعيّرُه بالجن والضعف والخوف وكأنّه الهيق الذي ينهض عن رأليه يغدُّ مسرعاً خوفاً من أفعى ضخمة تهاجمه، ويعيّرُه بالبذيء من حديثه الذي لا يفتأ عن ذكر الخور والذلّ والمهانة وما إليها... وينعطف بعد هذه الأوصاف ليمدح بني حجر بن سعد بن عمرو الخولانيّ، بأنّهم أهلُ الحميّة والغيرة،

(١) البيان والتبيين ٤/ ٣٨-٣٩.

(٢) الإكليل ٢/ ١٣١ وعنه في شعراء حمير (الدراسة) ١٣٧.

(٣) شعراء حمير (الدراسة) ٩٠.

والتفدي، وخيرهم حُجْر بن سعد ثُمَّ يَعْلَى بن حُجْر، وعمرو - مغرق الأكبر - هو أكثرهم كرماً وعِزَّةً وأنفَةً وشجاعةً... أمّا أصبغ فأسوأ من اعتلى ظهر ناقة سارت في وفد من الوفود يقول^(١):

يَلُوكُ لِسَانُهُ فَشَلًّا وَيُئِدِي	كَلَامٌ مُعَانِدٍ لِسَبِيلِ قَصْدٍ
بَنُو حُجْرٍ هُمْ شَادُوا الْمَعَالِي	هُمْ أَهْلُ التَّحْمِي والتَّقْدِي
فَخَيْرُ الْقَوْمِ حُجْرٌ ثُمَّ يَعْلَى	وَعَمْرُهُمْ فَأَوْرَاهُمْ بَزْنِدٍ
وَأَصْبَغُ شَرُّ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا	إِذَا سَارَتْ مَطَايَاهُمْ بِوَفْدٍ

وفي قطعة أخرى له يستهلّها بمعانٍ من شعر الحنين والشوق، ممزوجة ببعض الأسف على ما كان من فتنة بددت شمل القوم، وشتت وحدتهم في البلاد والأصقاع، يرسل الغالبِي الأشعار مستدرّاً عطف جرير بن حجر - وكان ابن خالته - يسأله العودة والرجعة إلى البلاد، فأعاده جرير بعد أن رُقّ قلبه وتفطّر للذي سمعه من معاناة بني غالب ومكابدتهم يقول^(٢):

لَا قَرَبَ اللَّهِ قُرْبَاكُمْ فَلَيْسَ لَكُمْ	عَظْفٌ جَمِيلٌ بِمَحْمُودٍ مِنَ الشِّيمِ
أَنْتُمْ زَعَمْتُمْ بِأَعْلَى ذُرْوَةٍ رُفِعَتْ	مَنْ سَرَّ خَوْلَانَ مَشُوبُونَ بِالْكَرَمِ
وَنَحْنُ فِي حَيٍّ قَيْسٍ يُرْمُونَ لَنَا	سَوْءَ الْحَدِيثِ وَنَحْشَى زَلَّةَ الْحُرَمِ
ظَعَائِنُ مَنْ بَنِي خَوْلَانَ رَبَّهَا	طِيبُ الْعَقَافِ شَرِبْنَ الذُّلَّ بِالرَّغَمِ
قَطَعْتُمْ حُرْمَةً مِنْ حَقِّهِنَّ فَمَا	تَرَعُونَ قُرْبَى وَلَا نَصْرًا لِلْمُظْلَمِ

يدعو عمرو الغالبِي على من يهجوهم بالبينونة والبعد، وهم لا يتمتعون بشيء من الصفات الحميدة، الحسنة رغم ما يدعونه من نسب شريف، ويخلّون بأبسط ما يعتزّ به العربي ويتمسّك، وهو أواصر القربى ونصرة المظلوم.

(١) الديوان: ق ٨١ / ب ٥-٨.

(٢) الديوان: ق ٨٥ / ب ٦-١٠.

فتلك كانت أشعار الهجاء لدى الخولانيين، وأول ما يلاحظه الناظر فيها، نحوها الواضح وقلتها، فلا يقع فيما انتهى إلينا في هذا المجموع إلا على قطعتين في الجاهلية، ومثلها في شعر المخضرمين وصدر الإسلام، وأبيات مفردة لا تتجاوز أصابع اليد. وقطعتين في العصر الأموي، أنهبت إحداها معاني الهجاء الشخصي.

وإذا ما أعدنا النظر كرتة أخرى في أشعار القوم، وجدنا أن دوافع ذلك الهجاء هي دوافع سياسية حربية بسبب النزاعات الدائرة بين بعض بطون القبيلة، يضاف إليها الحروب التي خاضتها خولان ضد قبائل قيس عيلان، وضد بعض الحميريين، أمّا المعاني التي تناولوها في هجائهم فكانت بعيدة عن الإفحاش والإقذاع، وجاءت لسلب الصفات الحميدة والمناقب الحسنة التي تجمل بها العربي في مجتمعه، وذلك في هجائهم الجاهلي والمخضرم وصدر الإسلام والأموي، وتكاد تكون هذه الظاهرة منتشرة عند غير الخولانيين أمثال بني كلب بن وبرة «إلا في بيت واحد، وهو ما لوحظ في هجاء بني ذبيان وهجاء بني عقيّل، ولم يخل شعر طيء من هذا الفحش، بخلاف ما لوحظ في هجاء بني أسد إذ أكثر شعراؤهم من نهش الأعراض وقذف المحصّنات والفحش والبذاءة في اللفظ»^(١) التي نجدها عند شعراء حمير أيضاً^(٢). كما تناول هجاؤهم في العصر الأموي الطعن بالنسب ولا سيما إذا كان المطعون من أشرف القوم وعليتهم، وتناول أيضاً بعض المعاني التقليدية مثل الهجاء باللؤم والضعف والجبن والكذب والسوء، وشبيهة بها ما كان حاضراً في هجائهم الجاهلي وصدر الإسلام من نعوت الخيبة والضلال والطيش والحمق، ودناءة الفعل، والضعف والعجز وعدم الصبر على الضراء والشر والسواد والقبح... إلخ وهي المعاني المتداولة عند شعراء القبائل الأخرى، إلا أن ضعف هذا الغرض في أشعار خولان غيّب عنا أساليبه المتفشية على ألسنة غيرهم، ومعانيه المتعددة التي نجد منها بعض مرادنا عند زهير بن جناب الكلبي الذي يهجو بني تغلب بعد أن ظهرت بنو

(١) ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٣٤٣ عن مقارنة عقدها د. محمد شفيق البيطار مع أشعار القبائل السالفة الذكر.

(٢) شعراء حمير (الدراسة) ٢٩٨-٣٠٠.

كَلْبٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى إِخْوَانِهِمْ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، فَيَعِيرُهُمْ بِسَبِي نِسَائِهِمْ وَبِأَسْرِ سَيِّدِهِمْ مَهْلَهْلٍ، الَّذِي سَخَّرَ مِنْهُ وَنَبَزَهُ بِفِرَارِ فَرَسَانِهِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ وَبِأَسْرِهِ عَنُوءَةً^(١) إِذْ قَالَ:

تَبَّأً لَتَغْلِبَ إِذْ تُسَاقُ نِسَاؤُهُمْ سَوَّقَ الْإِمَاءِ إِلَى الْمَوَاسِمِ عَطَّلَا
لَحِقْتُ أَوَائِلَ خَيْلِنَا سَرَاعَتَهُمْ حَتَّى أَسْرَنَ عَلَى الْحُبِيِّ مَهْلَهْلَا^(٢)
إِنَّا مَهْلَهْلٌ لَا تَطِيشُ رِمَاحُنَا أَيَّامَ تَنْقُفُ فِي يَدَيْكَ الْحَنْظَلَا
وَلَّتْ مُحَانُكَ هَارِيْنٌ مِنَ الْوَعَى وَبَقِيتَ فِي حَلَقِ الْحَدِيدِ مَكْبَلَا
فَلَسْنُ قُهِرْتَ لَقَدْ أَسْرُنْتَكَ عَنُوءَةً وَلَسْنُ قُتِلْتَ لَقَدْ تَكُونُ مُرْمَلَا

وَمِنَ الْمَعَانِي الْمَتَدَاوِلَةِ عِنْدَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْقَبَائِلِ مَا نَجَدَهُ فِي شَعْرِ جَعْفَرِ بْنِ الرَّبِيعِ الْقَشِيرِيِّ يَهْجُو بَنِي شَافِعِ بْنِ عَقِيلٍ، فَيَذَكُرُ أَنَّهُمْ يَضْرِبُونَ ضِيُوفَهُمْ، وَأَنَّ الْقُرَى فِيهِمْ إِحْدَى الرِّزْيَاتِ، وَأَنَّ كَلْبَهُمْ لَيْسَ لَهُ مَهْمَةٌ إِلَّا طَرْدُ الضُّيُوفِ عَنْ بَيْوتِ هَؤُلَاءِ حَتَّى لَا يَصِلَ إِلَيْهِمْ أَيُّ ضَيْفٍ يَقُولُ^(٣):

أَنَّهُو بَنِي شَافِعٍ عَنُ صَرْبِ ضَيْفِهِمْ إِنَّ الْقُرَى فِيهِمْ إِحْدَى الرِّزْيَاتِ
وَكَلْبُهُمْ عَنَقَشُ يَعْدُو بِمُنْصَلِهِ يُطَرِّدُ الضَّيْفَ عَنْهُمْ بِالْعَشِيَّاتِ
إِنَّ الْبَغَالَ إِذَا أَجْذَتَهَا عَلْفَا شَابَهْنَ حَتَّى تَقُولَ الْأَعْوَجِيَّاتِ^(٤)
لَا يَسْتَوِي سَابِقُ فِي بَيْتٍ مَكْرَمَةٍ وَأَبْغَلُ فِي رِبَاطٍ نَخَوْرِيَّاتِ^(٥)
هُرْدَانُ أَكْرَمُ مِنْ عَوْنٍ إِذَا نَزَلَتْ أَضْيَافُ لَيْلٍ وَأَنْدَى بِالتَّحِيَّاتِ^(٦)

(١) انظر: ديوانه: ٩٨.

(٢) الحُبِّي: قيل: «هو ماء لبني بكر وتغلب ابني وائل، كانوا عليه حين قاتلهم زهير بن جناب، هكذا ذكر أبو عمرو الشَّيباني فيما نقل عنه الأصفهاني في الأغاني ١٩ / ١٨، وقال ياقوت: حُبِّي: بالضم ثم الفتح وياء مشددة، بلفظ التصغير: وهو موضع بتهامة كان لبني أسد وكنانة» ديوان زهير: ٩٨.

(٣) شعراء بني قشير (الديوان) ٧٢ عن التعليقات والنوادر: ٥٧١ / ٢.

(٤) أمجدتها علفاً: أكثرت لها ذلك العلف، الأعوجيات: واحداها (أعوج) وهو فرس لبني هلال، تنسب إليه الأعوجيات اللسان (عوج).

(٥) نخوريات: صحيحات الأصل.

(٦) هُرْدَان: هو هُرْدَانُ بْنُ الْوَاظِ الْقَشِيرِيِّ، شاعر من قشير، له شعر. انظر: التعليقات والنوادر ٥٧١ / ٢. أندى: أبعد صوتاً.

وقد يخرج الهجاء إلى السُّخْرِيَّة أحياناً، وهذا من المعاني المفقودة لدى هُجَّاء خولان إن وجدوا،
فمثلاً بنظري عَجَلِي في ديوان مذحج نجد أن نافع بن أصغر يَسْخَر من شعراء قَيْس بقوله^(١):

أَتَوْعِدُنِي بِالْقَتْلِ أَفَنَاءَ عَامِرٍ وَمَا ضَرِطُ الْبَلْقَاءِ إِلَّا وَعَيْدُهَا
فَمَا حَوَّلُونِي مِنْ مَحَلٍّ أَحْلُهُ وَمَا مَنَعُونِي حَاجَةً لِي أُرِيدُهَا

ومن معاني الهجاء الشَّخصي اللَّاذع ما وصف به ميمون بن عامر القشيري، مدرك بن يزيد
الحَيْدِي من أنه عَجُوزٌ خَبِيثٌ، وأن شعر حاجبه الكثيف هو أشبه بشعر الاست يقول في قصيدة^(٢):

مَثَلُ الْعَجِيزِ تَرْتَقِي فِي حَالِقٍ تَبْغِي الْحَيْثَةَ أَنْ تَصِيدَ حَمَامًا^(٣)

.....
قُبْحاً لِحَاجِبِهِ الْأَزْبُ كَأَنَّهُ هُلْبُ اسْتِ نَابٍ تَسْلُحُ الْقَلَامَا^(٤)

ومنه أيضاً ما هجا فيه يحيى بن نوفل الحميري، العُريَان بن الهيثم النَّحْعِي، وكان تزوج امرأة من
ولد هانئ بن قبيصة الشَّيبَانِي يقال لها: زباد كانت تحت الوليد بن عبد الملك، فطلقها فتزوجها بعد
العريان الذي كان به من اجتماع الصفات ما يحسن معها الهجاء وتجدد معانيه فيه. من ذلك أنه أسودُّ
أَحْدَلُ يسير في شقِّ قصيرِ الهامة، علاوة على هذه كلها خَلَفَ على امرأة كانت عند الوليد الخليفة.

(١) شعراء مذحج (الديوان) ٦١١ وجاء في حاشيتها: «ضَرِطُ الْبَلْقَاءِ: يضربُ للباطل الذي لا يكون، وللذي يَعِدُ الباطل،
ونظيره:

ضَرِطُ الْبَلْقَاءِ جَالَتْ فِي الرَّسَنِ وَضَرِطُ الْبَلْقَاءِ وَخَوَاحُ نَفَقُ

(الوَخَوَاحُ: الضعيف، والنَّفَقُ: السريع النَّفَار)، وَضَرِطَ وَرْدَانُ بَوَادِقِي (وَرْدَانُ: اسم حمار والقي: الفلاة) انظر مجمع
الأمثال: ٣١٠، ٣١١، ٣١٢.

ويروى (ضَرِطُ) رفعا ونصباً، فالرفع على تقدير هذا ضَرِطُ، والنصب على المصدر: أي ضَرِطَ ضَرِطَ الْبَلْقَاءِ.

(٢) شعراء بني قشير (الديوان) ٣٢٩، عن التعليقات والنوادر ٨٨٠ / ٢.

(٣) الخالق: الجبل المنيف المشرف.

(٤) الْأَزْبُ: الكثيف الشعر، الهلب: شعر الذنب، النَّابُ: الناقة المسنة.

يقول من قصيدة له^(١):

أَعْرِيَانُ مَا يَدْرِي أَمْرُؤُ سَيْلَ عَنكُمُ أَمِنْ مَذْحِجٍ تُدْعَوْنَ أُمٌّ مِنْ إِبَادِ
فَإِنْ قُلْتُمْ: مِنْ مَذْحِجٍ، إِنَّ مَذْحِجًا لَبَيْضُ الْوُجُوهِ غَيْرُ جَدِّ جَعَادِ
وَأَنْتُمْ صِغَارُ الْهَامِ حُدُلٌ كَأَنَّا وَجُوهُكُمْ مَطْلِيَّةٌ بِمَدَادِ

ثم يقول بعد عدة أبيات:

لَعَمْرُؤُ بَنِي شَيْبَانَ إِذْ يُنْكِحُونَهُ زَبَادٍ لَقَدْ مَا فَصَّرُوا بِزَبَادِ
أَبْعَدَ الْوَلِيدِ أَنْكَحُوا عَبْدَ مَذْحِجٍ كَمُنْزِيَّةٍ غَيْرَ أَخْلَافِ جَوَادِ

وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي يطول الوقوف عندها. ولو عرضنا معظمها لاحتجنا إلى كراريس عديدة. ليتبين لنا إغفال بني خولان لكثير من معاني الهجاء المتعاورة بين الشعراء، المتفشية على ألسنتهم، وهي معاني عامة مشتركة بين جميع القبائل، ولعل هذا عائد إلى مشكلة الضياع التي أشرت إليها فيما سلف. وإذا كنا قد لاحظنا قلة أشعار الهجاء في أشعار خولان؛ فإننا نجد الأمر ذاته عند عدد من القبائل الأخرى نحو بني عَقِيل^(٢) وَتَغْلِب^(٣) وَقُرَيْش^(٤) ولم تكن قليلة عند شعراء مذحج^(٥)، في حين نالت جانباً كبيراً في أشعار حمير، وجاءت فيها قصائد تامات أفردت في هذا الغرض خالصة لوجهه، بل فيها من صرف قوافيه جميعها في الهجاء من مثل يحيى بن نوفل الحميري الذي أحصى له صاحب حمير أربعين نصاً بين قصيدة ومقطعة وبتة وبيت مفرد^(٦) وأشعار بني

(١) شعراء حمير (الديوان) ١٧٨.

(٢) انظر: شعراء بني عقيل ١٧٦-١٨٢.

(٣) انظر: شعراء تغلب في الجاهلية (الدراسة) ٣٥٨-٣٦١.

(٤) انظر: شعر قريش: ١٣٧.

(٥) انظر: شعراء مذحج في الجاهلية ٢٨٢-٢٨٧.

(٦) انظر: شعراء حمير (الدراسة) ٢٩٢-٣٠٤.

كلب بن وبرة التي امتزجت في كثير من الأحيان بشعر الحماسة والفخر ولا سيما القبلي^(١) وبني قشير الذين بدا لديهم هجاء القريب كثيراً ومتنوعاً^(٢).

ونلاحظ بعد ما سلف من الكلام على موضوع الهجاء في أشعار خولان نحول هذا الغرض في أشعارهم نحولاً شديداً، يضاف إلى هذا النحول عدم الإقذاع والفُحش في مقالاتهم الهجاءة، مما يدلنا على ترفع القوم عن بذيء الكلام، وإنما سلك أصحابه الطريق اللاجبة للهجاء العربي من تعبير بالمثالب وسخرية مُبَطَّنة، ونعت بالردائل ووصم بالمعايب من الأفعال، التي يأبأها العربي في مجتمعه وهو ما كان سائداً عند القبائل العربية مع مراعاة الاختلاف الناجم عن الطبع والبيئة والمناسبة التي وُلِدَ فيها الهجاء.

٥ - الرثاء:

يمتاز الرثاء بمكانة مرموقة بين فنون الشعر الأخرى، لما له من صدق العاطفة وسلامتها، النابعة من صدق الوجدان والإحساس السليم، ويعدُّ من أكثر المقالات الإنسانية لصوقاً بالنفس وعلوقاً بها، بل امتزاحاً إلى درجة التماهي بسبب ما يجول فيها من مشاعر وأحاسيس هي أصدق مُحِبِّر عند وقوع المصيبة، فيتفطر القلب أسى وحرناً، وتستعري نيار الأشجان، فتأتي الألفاظ الشَّجِية التي تُرِقُّ القلوب القاسية وتذيبُ الدُّموعَ الجامدة، ويثار الحزن من رُبُصته، ويبعث الوجد من رقدته، ويعلو النشيج وتصدع القلوب. وإلى مثل هذا أشار الجاحظ نقلاً عن الباهلي أنه «قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ قال: لأننا نقول وأكبادنا تحترق»^(٣) ويذكر البيهقي أيضاً أنه قيل لأبي عبيدة: «ما أجود الشعر عندكم؟ فقال النمط الأسود يعني الرثاء»^(٤) الذي تعددت دوافعه وتنوعت، منها: الوفاء الذي أشار إليه أبو يعقوب الخريمي عندما سئل ما بال مدائحك لمحمد بن منصور بن زياد - كاتب البرامكة - أحسن من مراثيك، قال: كنّا يومئذٍ نعمل على الرجاء ونحن اليوم نعمل على

(١) انظر: ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٣٢٠-٣٤٤.

(٢) انظر: شعراء بني قشير ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٣٢٠ ونحوه في المحاسن والمساوي ٢/ ٣٥، والعقد ٣/ ٢٢٨.

(٤) المحاسن والمساوي ٢/ ٣٤.

الوفاء، وبينهما بون بعيد^(١)، ومنها أيضاً الإحساس بالفناء ودنو الأجل، ونهاية الحياة والتحوّل إلى العدم^(٢)، كما تعدّ الفجیعة الذاتیة من دوافع الرثاء المهمّة وعندها يكون الشعر أكثر مُكنّة من النفس وألصق بشغاف القلب. فقد «قال: عمر بن ذرّ: سألتُ أبي: ما بال الناس إذا وعظتهم بكّوا، وإذا وعظهم غيرك لم يبكوا؟ قال: يا بُني: ليست النائحة الثكلى مثل الناحة المستأجرة»^(٣).

ومّا يدلّ على ظهور موضوع الرثاء على موضوعات الشعر الأخرى، انصراف عددٍ من العلماء القدامى لتطلاب هذه الأشعار على كثرتها، وسعيهم إلى تدوينها منذ القرن الأوّل الهجري^(٤) في مصنّفات خاصّة بها مثل كتاب (الرثاء والتعازي) لابن خلّاد الرامهرمزي^(٥)، وكتاب (التعازي) لأبي الحسن المدائني (٢٢٥هـ) الذي صارت إلينا منه بعضُ أجزاءه التي أفاد منها المبرد (٢٨٥هـ) في نقولات ضمنها مصنفه (التعازي والمراثي)^(٦) وثمّة كتاب رابع، صنّفه اليزيديّ (٣١٠هـ) وصرّفه بتمّه وتمامه للمراثي.

وبلغ أيضاً من اهتمام العلماء، أنّهم كانوا يفاضلون بين المراثي، فيقدمون هذه على تلك كما فعل الأصمعيّ حين قدم مرثية دريد بن الصّمّة التي يقول منها^(٧):

فَحِجْتُ كَأَمِّ الْبَوْرِ رِيعَتْ فَأَقْبَلْتُ إِلَى جِذَمٍ مِنْ جِلْدٍ سَقْبٍ مُقَدَّدٍ^(٨)
فَمَا رَاعَنِي إِلَّا الرَّمَّاحُ تَنُوشُهُ كَوَقَعِ الصَّيَاصِي فِي النَّسِيجِ الْمُمَدَّدِ^(٩)

(١) انظر: الشعر والشعراء ٧٩/١، وعنه في العمدة ١٩٨/١.

(٢) انظر: الصورة في شعر تميم بن أبي بن مقبل: ١٤٥ وما بعدها.

(٣) العقد الفريد ٢٢٨/٣.

(٤) انظر: التعازي والمراثي: ٧٣.

(٥) انظر: الفهرست: ١٧٢.

(٦) التعازي والمراثي (المقدمة).

(٧) التعازي والمراثي ٢١-٢٣، وانظر العقد الفريد ١٦٩/٥. وانظر أيضاً تعليق الأصمعيّ على مرثية أوس بن حجر في العقد ٢٦٥/٣.

(٨) البو: ولد الناقة يذبح ويحشى جلده تبناً أو حشيشاً لتعطف عليه وترأّمه فتدر عليه والجدّم: جمع جذمة وهي القطعة. السقب: ولد الناقة.

(٩) الصياصي: جمع (صيصية) بكسر الصادين وفتح الباء الثانية مخفّفة وهي شوكة الحائك التي يسوّي بها السداة واللّحمة، يريد أنّ أخاه دعاه والرمّاح تتناوله ولها وقع كوقع صياصي الحاكّة في ثوبٍ ينسج.

فعطف المبرد عليها بقوله «وهي أهل ذاك» يعني الجودة والحسن، وكرّر غيرها حين استجد قول الخنساء فقال: «واعلم أنّ قول الخنساء من أجل الكلام حيث تقول:

وَإِنَّ صَخْرًا لَوَالَيْنَا وَسَيِّدَنَا وَإِنْ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ
وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُّهُدَاهُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ^(١)

ومن عنايتهم بغرض الرثاء وأشعاره ما ذكره المبرد حين قال: «وأشعار الجاهلية مشهورة معروفة، وإنّما نملّي منها العيون»^(٢) ومن ذلك أيضاً أنّ بني أمية، وقيل بنو مروان منهم خاصّة - كانت «لا تقبل الراوية إلّا أن يكون راوية للمراثي، وقيل: ولم ذاك؟ قيل: لأنّها تدلّ على مكارم الأخلاق»^(٣).

ولما كان الرثاء مدحاً للميت على رأي بعض أهل العلم^(٤) وعدّاً لصفاته ومناقبه وشمائله، فإنّنا نتوقع أن يكون الرثاء من أظهر الموضوعات وأبرزها في أشعار خولان ولا سيّما أنّها قبيلة حرب، ألفت حياة الكرّ والفرّ، ولا شك أنّ هذه الحياة ستخلّف وراءها قتلى وصرعى، ممّا يستدعي قول المراثي. ولعلّ حال الرثاء كان ذاك، ولكن اندثار أشعار كثيرة للخولانيّين وضياعها هو أحد الأسباب المهمّة لقلة شعر الرثاء وضعفه في دفتي هذا المجموع، فلم نقع فيما انتهى إلينا من أشعار القوم كافتهم إلّا على أبيات مفردة هنا وهناك ونتفّ ومقطّعات لا يتعدّى عددها أصابع اليد الواحدة هذا فضلاً على انعدام الرثاء في أشعار الجاهليّين منهم، لذا سيّتناول الكلام على الرثاء بدءاً بأشعار المخضرمين الذين لم نجد في أشعارهم سوى مقطّعتين ونتفتين وبيت نادّ أولها كان للسان خولان عمرو بن يزيد العوفيّ يرثي بها ربيعة بن مسعود بن يزيد العوفيّ - وكان ابن أخيه - قتل على ماء الرّقب في حرب عمرو معدي كرب وحرب خولان، إذ يُقرّع عمرو فيها العين لتوقفها عن بكاء ربيعة المقتول ويخاطبها بقوله: لا تمليّ ولا تضجري من البكاء ما رأيت النور في كلّ صباح، ثمّ يبدأ

(١) التعازي والمراثي: ٢٧، وانظر: ديوانها ٥٩.

(٢) التعازي والمراثي: ٢٤.

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٣٢٠.

(٤) انظر: نقد الشعر ١٠٠، ونحوه في العمدة ٢/ ٨٣١.

بتأبينه، فيذكر شمائله وصفاته، فهو من أفاضل بني عوف أصلاً ومحتداً ومنبتاً، يضرب الخصوم ويقهرهم، إمّا في مبارزة يجندلهم صرعى، وإمّا في عراك يدوسهم ويذئهم، وهو سيّد وبطل، إذا ما همّ بأمرٍ عزم عليه أمضاه، لا يرجع عنه، قاتل للكّماة برماح تغور في أجسادهم حارّت أحشاءهم^(١):

يَا عَيْنُ وَيَحْكَ عَبْرَةً لَا تَسْأَمِي وَابْكِي رِبْعَةً مَا أُرَيْتِ صَبَاحَا
مَنْ خَيْرِ عَوْفٍ مَنْصِباً وَمُرَكَّباً يَغْشَى الْكُفَاةَ عَرِيكَةً وَنَطَاحَا
السَّيِّدُ الْبَطْلُ الْهُمَامُ إِذَا غَدَا أُرْدَى الْكُفَاةَ وَغَاوَرَ الْأَرْمَاحَا

انكسار قلب الشاعر واضح في المقطعة التي تبدو بقيّة قصيدة ضاع جُلّها، ولعلّ في استمرار البكاء الذي يطلبه الشاعر من عينيه، ما يُوفي ذلك الميّت بعض حقّه، أو هو إعظامٌ لقدره ومكانته التي بات خاليةً منه، ولانبالغ إذا ذهبنا إلى أنّ فعل البكاء هو شفاءٌ لهاتيك النفس الجزعة على فراق ربيعة، ليصير فعل البكاء معادلاً موضوعياً لتبرأ النفس من آلامها وأجزاعها، التي غلبت عليها، وازداد الألم ألماً أن فقدت خولان خير رجالاتها ورؤوسها حينما صرعوا في حرب قبائل قيس عيلان^(٢):

لَمْ يَكُنْ فِي سَرَاةٍ قَوْمِي نَظِيرٌ لَابْنِ يَغْلَى وَمَالِكِ وَابْنِ حَارِ
أَخَذَ الدَّهْرُ مَالِكاً وَابْنَ يَغْلَى وَابْنَ حَارٍ هُمَامَنَا بِأَقْتِسَارِ

إنّ معاني الأبيات غايةً في الوضوح والتناول، ونسجها إلى النثر أقرب منه إلى الشعر، ويبدو أن حزن الشاعر وحرقة قلبه قد أذابا جامد الدمع، وقرحا مآقي البكاء، وفاضاً تعبيراً معبراً عن فدح الخطب وعظمه بل جَلَلِه حين استثقل اسم حارث فرحمته، مقتصرّاً على بعض حروفه وذلك لشدة جزعه على هؤلاء الذين باتوا صرعى لا حويل لهم، وخصوصاً عمرو بن الحارث العوفي الذي ألحّ على مجيئه في نهاية البيت الثاني ونعته بالهام الذي لا يموت حتف أنفه، بل فاد معترك الوغى، كما لم

(١) الديوان: ق ٣٦/ب ١-٣.

(٢) الديوان: ق ٤٢/ب ١-٢.

نلاحظ تلك النبرة العالية المعروفة في غرض الرثاء التي تستلهم المعاني القويّة الجزلة، وكأنيّ بنفس الشاعر «تخفّض من نشيجها وتقصد في نحيبها، وتذهب مذهب الصّبر والاستسلام»^(١).

ويتحسّر المحنون العوفيّ على وفاة يعلى بن سعد الخولانيّ - وهو أحد رماة خولان وشعرائها، فينعتة بخير مَنْ حَمَلَتْ به امرأة ووُلِدَ^(٢):

قُلْ لِعَمْرٍو وَقُلْ لَشَهْرٍ: أَبُوكُمْ خَيْرٌ مَنْ أَنْسَلَتْهُ ذَاتُ نِطَاقٍ

وهو في هذا النّعت يشير في طرف خفيّ منه إلى كرم أصل المرثي وطيب محتدّه من أمّه، وهي من المعاني المتداولة في غرض الرثاء.

ويلحظ في أشعار القوم رثاء الملك والتّحسّر عليه، وذلك ما نجده في مقطّعة لعمر و بن حجر المالكيّ الذي يفخر بحواية الملك خمسين سنة في صرّواح التي دوّى صيتها بعيداً في أشعار العرب حين تملّك بها سعد بن خولان، ثمّ زاد على الخمسين سبعة أعوام ليذكر تأسيه وفرّقه على ضياع ذلك الملك المؤثّل الشّامخ آنذاك في صرّواح، وتشتّت أمره وزواله وقد بات كليالٍ لم تبل مسوكها يقول^(٣):

أَقَمْنَا عَلَى صِرْوَاحٍ خَمْسِينَ حِجَّةً وَسَبْعَةَ أَعْوَامٍ وَنَحْنُ مُلُوكُهَا
فَأَصْبَحَ ذَاكَ الْمُلْكُ، بُدِّدَ شَمْلُهُ كَذَاكَ اللَّيَالِي لَيْسَ يَبْلَى مُسُوكُهَا
أَقَامَ بِهَا سَعْدُ بْنُ خَوْلَانَ، جَدُّنَا مَحَلٌّ وَفُودٌ يَغْتَرِيهِ ضَرِيكُهَا

رأى الشاعر إلى مزج الفخر القبليّ بالرثاء أو جعل هذا الرثاء لائطاً بفناء الفخر الذي عبر عنه في البيت الأوّل، الذي لا نعدمه في البيت الثالث حين ذكر إقامة جدّه ملكاً وتثبيتته مجدداً، تأتيه الناس وتهوي إليه، ماثلة بين يديه، وفي هذا ما فيه من معاني القوّة والشّجاعة والبأس الذي يوحى بعظم ذلك الملك.

(١) العقد الفريد ٣/ ٢٢٨.

(٢) الديوان: ق ٦٦/ ب ١.

(٣) الديوان: ق ٦١/ ب ١-٣.

ومن هذا الرثاء ما نجده في قصيدة لمسلم بن يغنم المالكي الذي يرثي ديار بني عوف العالية، السامقة، التي لا ينهاها العدو بسوء لمنعتها وإشرافها، ولكنها خلّت من أربابها بعد تنازع أهلها على اعتلاء عرشها فاصطلمت^(١) الأعادي ذلك الملك من بعد عزّ دوى صيته الآفاق يقول^(٢):

أَمَّا دِيَارُ بَنِي عَوْفٍ فَمُنْجِدَةٌ وَالْغُرُّ قَوْمِي بِحَيْسٍ دَارُهَا السَّعْفُ
مَنْ بَعْدَ آطَامِ عِزٍّ كَانَ يَسْكُنُهَا مَنَّا مُلُوكٌ وَسَادَاتٌ لَهُمْ شَرَفُ

والمسلم لم يرضه صنيع قومه ورعونتهم، التي أدّت إلى سوء منقلبهم؛ فانتابه الأسى والحزن اللذان فتكا بقلبه وأورداه غصصاً في حلقه وشرقاً يقول^(٣):

يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى قَوْمِي وَمَا ارْتَكَبُوا مَا كَانَ يَقْبَلُ هَذَا سَادَةٌ أَنْفُ
أَبْعَدَ عَوْفٍ يُقِيمُ الْعِزَّ بَيْنَكُمْ أَهْلُ الرِّبَاطِ وَأَهْلُ النَّحْلِ إِنْ شَنَفُوا^(٤)

يقول: لقد أضعتم العزّ والسؤدد بعد عوف بن زيد بن أسامة الخولانيّ، وأنتم أصحاب المراقبة، وأهل العطايا والهبات إن غضبتهم وامتعضتم، لو كنتم تأبون الحيف والضيم ما اقترفت أيديكم سوء الفعل والصنيع.

فذلك ما انتهى إلينا من موضوع الرثاء في أشعار المخضرمين وصدر الإسلام من خولان ونلاحظ على نحوله وقلته، انعدام القصائد وما وصل إلينا هو بقية منها في هذا الغرض الشريف.

ونلاحظ فيه توجهه إلى رجالات بني خولان وانحساره ضمن إطار القبيلة، بل ضمن إطار البطن الواحد كرثاء عمرو بن يزيد العوفيّ لربيعة بن مسعود العوفيّ، ويضاف إلى الملاحظتين السابقتين: قلة التّفجّع والجزع في الأشعار السالفة، ولعلّ هذا عائداً إلى قلة الأشعار نفسها، إذ لم يصل إلينا منها ما

(١) الاصطلام: الاستئصال، واصطلم القوم: أيدوا عن بكرة أبيهم.

(٢) الديوان: ق ٦٢/ب ١-٢.

(٣) الديوان: ق ٦٢/ب ٦-٧.

(٤) شنفوا: غضبوا. النحل: الهبات والعطايا.

ينقع بِلَّةً ويشفي صادياً. وما ظهر هو تأسٍ وحزنٌ، وتَقَصُّدٌ في النَّحِبِ إن وجد، وأسفٌ على الذي مضى من دون التباع وتفجّع وسعاية وراء الألفاظ الى تكشف عظم المصاب وجلِّله.

أمّا في شعر العصر الأمويّ فلم يكن حاله أفضل من سالفه من حيث الضعف والشُّحوب، فقد وصل إلينا هزياً في أربعة مواضع فقط، أمّا الأوّل: فيرثي به الحارث بن عمرو السَّعديّ ملوك بني حَيٍّ، السَّادة، العِظام، الذين أعملوا السيوف فيهم وجروا إليهم جيشاً جرّاراً، عمدته خيولٌ سريعةُ العدو حتّى أزلتهم عن مُلكِهِم وأخرجتهم من أرضهم، وهذا في قصيدة ينصح فيه الشاعر ابن عمّه عمرو بن يزيد السَّعدي عن البغي والطغيان ضارباً له مثلاً على هذا الأمر مصرع زهير بن جَذِيمة العبسيّ حينما جار، وأخوه من بعده شأس العبسيّ وصاحب البسوس كليب وائل يقول الأبيات راثياً^(١):

وَسَادَةٌ مِنْ بَنِي حَيٍّ أُتِيحَ لَهُمْ مِنْ بَوَادِرُ مُزْنٍ كَانَ مَذَرَارَا
كَأَنَّا الْمُلُوكَ وَكُنَّا نَحْنُ نَتَّبِعُهُمْ حَتَّى جَرَزْنَا لَهُمْ خَيْلاً وَأَعْمَارَا

وأمّا الموضع الثاني فللمسور الخولانيّ يتجرّع مرارة العيش ويتحمّل نكده بعد مصرع حفص بن الوليد، ورجاء بن الأشيم ومن قتل معهما من أشراف حمص ومصر على يد الطاغية حوثة بن سُهَيْل الباهليّ الذي تولى إمارة مصر لمروان بن محمّد آخر خلفاء بني أمية، وكان رجل سوء سفاكاً للدماء، ضرب رؤوس الفتنة وأزهق أرواحهم في مصر على ما زعم، يقول محذراً ابن عمّ له من مروان بن محمّد^(٢):

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَسَلَّطٌ عَلَى قَتْلِ أَشْرَافِ الْبِلَادِينَ فَاعْلَمْ
فَإِيَّاكَ لَا تَجْنِي مِنَ الشَّرِّ غِلْظَةً فَتُوذَى كَحَفْصٍ أَوْ رَجَاءِ بْنِ أَشِيمٍ
فَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا الْعِيشِ بَعْدَهُمْ وَكَيْفَ وَقَدْ أَضْحَوْا بِسَفْحِ الْمُقْطَمِ

(١) الديوان: ق ٩٧/ب ٧-٨.

(٢) الديوان: ق ٧٨/ب ١-٣.

أما الموضع الثالث فهو قصيدة تامة أنفقها شاعر مجهول من بني سعد بن سعد بن خولان في رثاء
 مر بن عامر الحميري الذي بعثه سيف بن ذي يزن الحميري لنصرة خولان ومن أزرها ضد قبائل
 قيس عيلان، فأخل بها إلى هوازن وسليم حتى توعده عمرو بن يزيد العوفي، فقتله جبهة، وذلك أول
 ما ظهرت دعوة الإسلام بمكة يقول^(١):

كُسِفَتْ نُجُومٌ مِنْ مَقَاوِلِ حَمِيرٍ	فِينَا وَأَظْلَمَ شَمْسُهَا وَبُذُورُهَا
وَطَوَى سَمَاحَتَهَا الزَّمَانُ وَهَدَّهَا	بِالْمُجْحَفَاتِ وَغَاضَ ثَمَّ بُحُورُهَا
وَتَقَطَّعَتْ مِنْهَا الْأَوَاصِرُ بَيْنَهَا	وَمَضَى سَنَاهَا عِنْدَ ذَاكَ وَنُورُهَا
وَمَضَى ابْنُ ذِي يَزْنٍ وَخَلَّفَ بَيْنَهَا	حَرْباً عَوَاناً مَا يُبُوحُ سَعِيرُهَا
وَمَضَتْ قِيُولٌ مِنْ سُلَالَةِ زُرْعَةٍ	وَتَبَدَّلَتْ شَرّاً وَغَابَ سُورُهَا
وَرَمَى الزَّمَانُ دِيَارَهَا بِأَرْيَلٍ	جَذَعٍ، فَهَدَّتْ دُورُهَا وَقُصُورُهَا
وَلَقَدْ تَكُونُ أُنَيْسَةً مَأْهُولَةً	وَبِهَا جُجُوعٌ مَا يَنَامُ سَمِيرُهَا

لقد درج بعض من أقيال حمير، فآلت ديارهم إلى الخراب والظلام، أو أن غياب هاتيك النجوم
 التي كانت تتلألأ في أديم السماء، مرسله نورها، جعل الظلام والخراب في كل مكان يحل ويلقي
 بثقله، كما أناخت الدواهي والمجحفات بكلكلها على نضارة هؤلاء الأقيال وسيرهم الحسنة التي
 عرفت بالالتئام واللحمة فيما بينها، والتعاضد والتماسك كأثم يد واحدة في البطش بخصومهم،
 ولكن ما إن درج سيف بن يزن حتى نشبت حرب ضروس بين هؤلاء الأقيال، ما انطفأ سعيها
 وسكن، حتى أزال قِيُول من سلالة زُرْعَة وحل مكانها أشرار الناس وأسوأهم جلبوا معهم دهرًا
 جديدًا ملئ بلايا ورزايا ومنايا أفنت عزهم وأزالت ملكهم في ديارهم التي كانت أهلة بذويها
 وسكانها، فصارت مقفرة خاوية.

(١) الديوان: ق ١٠١/ب ١-٧.

لقد قتلت بنو عوف مرَّ بن عامر الحميريَّ واستباحَت أهله ودياره، حتَّى أُذِيبَ جامد الدَّمع الذي جرى غزيراً حزنًا وألمًا على ذلك المقتول المحمود النَّسب والأصل؛ ممَّا جعل الثَّواكل يبكيه ويندبنيه بشدَّة تناسباً مع فدح الخطب وعظم المصَّاب يقول^(١):

وَمَضَى ابْنُ عَامِرٍ وَاسْتُبِيحَ حَرِيمُهُ	وَهَوَى صَرِيحاً قَرْمُهَا وَمُجِرُّهَا
فَرَدَتْ بَنُو عُوفٍ جَمَاعَ قَلْبِهِ	فَتَوَى قَتِيلًا، قَتِيلَهَا وَأَمِيرَهَا
وَجَرَتْ عُيُونٌ بِالدُّمُوعِ غَزِيرَةٌ	فِيهِ وَغُودِرَ فِي الْمَكْرِ خَفِيرَهَا
يَا مُرِّيَا بْنَ الْأَكْرَمِينَ لَقَدْ جَرَتْ	مَنْي دُمُوعٌ يَسْتَهْلُ غَزِيرَهَا
فَلْتُقْطَعَنَّ مِنَ الْقَرِيبِ قَرَابَةٌ	وَلْيُقْقَدَنَّ رَئِيسُهَا وَكَبِيرَهَا
وَلْيُضْحِكَنَّ ثَوَاكِلُ يَنْدُبْنَهُمْ	بِضِّ تَمِيلُ مِنَ الْقُرُونِ عُفُورَهَا

أمَّا الموضع الرابع فهو نتفة لعمر بن زيد الغالبي يَرثي ملك آبائه وأجداده في صِرَواح التي دوى صيتها بعيداً في أشعار العرب، ولا سيما حين تملَّك بها سعد بن خولان ثمانين حولاً، ليتراخى ذلك الملك إلى ضياع المال والثروة فيه، ثمَّ إلى ضياعه هو ذاته، فلم يستطع أن يثبَّت فيها (صرواح) مُلكاً تناهبته فيما بعد صوارف الدَّهر وغوائل الأيام، يقول^(٢):

أَبُونَا الَّذِي أَهْمَى السَّيْرُوحَ بِمَارِبٍ	وَأَبَتْ إِلَى صِرَوَاحٍ يَوْمَانِ نَوَافِلُهُ
لِسَعْدِ بْنِ خَوْلَانَ رَسَا الْمُلْكُ وَاسْتَوَى	ثَمَانِينَ حَوْلًا ثُمَّ رَجَّتْ زَلَا زِلُهُ

ولا شكَّ أن هذه النتفة هي بقيا قصيدة بدأها الشَّاعر بالفخر الذي أفضى إلى التَّحسُّر والتَّأسي على ما زال وانقضى من عظيم الملك وعزِّ القوم وسلطانهم.

نلاحظ فيما وصل إلينا في شعرهم في هذا الغرض في العهد الأمويّ - على قلته - الآتي:

(١) الدِّيوان: ق ١٠١/ب ٨-١٣.

(٢) الدِّيوان: ق ٨٤/ب ١-٢.

١ - لم يخلُ رثاؤهم من الحزن الواضح والتفجّع على مَنْ فات ولا سيّما في بكاء ذلك الأمويّ المجهول على مرّ بن عامر الحميريّ كقوله: «ثواكل يندبنهم»، و«جرت عيون بالدموع...»، و«جرت مني دموع».

٢ - تجرّع مرارة العيش بعد ذهاب الأحبة، كقول المسور الخولاني «فلا خير في الدنيا ولا العيش بعدهم».

٣ - إقفار الديار من أهلها وذويها وذهاب ملكهم المؤثّل آثار الحسرة والأسى في نفس الشاعر الغالبّي عندما قال «ثمّ رجّت زلازله» وأحكامنا مقصورة على ما وصل إلينا فقط من أشعارهم في هذا الغرض الذي نلاحظ فيه بوجهة عامّة رثاء الممالك والقصور والمباني، التي أسّس فيها الخولانيّون ملكاً عظيماً طبّق صيته الأصقاع، وضربت شهرته الآفاق، كما يلاحظ في رثائهم عامّة انصرافه إلى أفراد القبيلة أو البطن الواحد دون غيرهم خلا قصيدة الأمويّ التي رثى بها مرّ بن عامر الحميريّ.

٤ - كما يلاحظ في أشعار هذا الغرض الشحوب والنحول، وهذا «الحكم ينطبق على سائر القبائل حين نستثني شعراء المراثي - كالخنساء السّلمية، ومُهلّهل التّغليّ، ومنتّم بن نويرة اليربوعيّ - إلّا بني أسد، فقد لوحظ أن الرّثاء من الأغراض الواسعة في شعرهم، لا يتقدّم عليه سوى غرض الفخر، ذلك لأنّ هذه القبيلة تعرّضت إلى حروب شديدة مبيّة، جدعت الأنف، واستأصلت الشّافة إذ كانت قليلة العدد غير مرهوبة الجانب»^(١). وشعر حمير الذي احتلّ هذا الموضوع المحلّ الثّاني بعد الفخر والحماسة^(٢). ومذحج التي لم يكن هذا الغرض ضامراً في أشعارها؛ إذ نجد نوعين الأوّل: رثاء الآخرين، كرثاء الأبناء والآباء والإخوة، أو رثاء أفراد القبيلة. والثّاني: رثاء النفس^(٣).

(١) ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدّراسة) ٣٥٧-٣٥٨ عن ديوان بني أسد ٢٦٦/١، وانظر: شعر بني أسد في الجاهليّة لأحمد

موسى الجاسم «دراسة فنية» ٢٣٤.

(٢) انظر: شعراء حمير (الدّراسة) ٢٧٣.

(٣) انظر: شعراء مذحج ٢٥٨.

وعند بني عقيل جاء غرض الرثاء رابعاً بعد الغزل من حيث كثرة القوافي^(١). ولعلّ هذا التفاوت الذي لم يكن بالكبير راجعاً إلى طبيعة الحياة المعيشة في كلّ قبيلة، فمدحج قبيلة كُرّ وفرّ، مثل حمير التي كثرت حروبها، فكثرت قتلاها وصرعائها؛ مما جعل هذا أرضاً خصبةً لغرض الرثاء.

وثمة أمرٌ يحسن التنبيه عليه في ختام الحديث عن هذا الغرض، وهو أنّ مراثي خولان تنماز من مراثي القبائل الأخرى - على قلتها كما أسلفنا - بشحوب كبير وهزالٍ غيرٍ موجودٍ عند غيرها فلم نحظ إلاّ ببعض المعاني التي لا يتجاوز عددها أصابع اليد، في حين غاب كثيرٌ منها لغياب الشعر، مثل غياب المعاني الدينيّة جملةً، والشكوى من الدّهر وحتوفه، وتفدية المراثي بالنفس وتمني الموت دونه، وذكر ما كان عليه المراثي من نعيم العيش وغيابة الحياة وذكره مفاخره، وخيانة الدّهر والزّمان، وغير ذلك ممّا يطول ذكره من النّدب الذي يمتزج فيه الحزن والأسى بذكر محاسن الميت وتعداد مناقبه والتأبين له، وما يتبعه من الثناء واقتفاء الأثر والذكر الحسن، كلّ هذه المعاني نجدها عند القبائل الأخرى. في حين لم نجدها عند شعراء خولان.

٦ - الحكمة:

أفرغ العربي حكمته العظمت والنصائح والإرشادات التي حصّلها من تجارب حياته الطويلة في مجتمعه، أو جاءت من سعة عقله وبُعد تفكيره وتأمله أو حسن تقديره وإدراكه لمشكلات الحياة التي تعتاص على كثير من أبناء القوم، فيؤدي بهم الغضب وسرعته إلى الهلاك وركوب أمواجه وتقحمهم لججه، فيقعّدون ملومين محسورين نادمين على ما قدّمت أيديهم من سوء الفعل، ولربّ فتى لمّا يزل في طراوة العمر ويناعته، ما طرّ شاربه يُعرف بحكمة لا يأتيها الشيب ولا يعرفون لها سبيلاً، وقد جاءت تلك الحكمة إلى النثر أقرب صياغة منه إلى الشعر، وكأَنَّها وصية أو نصيحة أو مثلٌ صُنعت شعراً سهل التناول، قريب الفهم، وهذا ما انمازت به أشعار الحكمة دون أغراض الشعر الأخرى. وثمة أمرٌ يحسن التنبيه عليه في بدو الكلام هاهنا وهو أنّه لم نحظ في أشعار خولان بشعر الشكوى من

(١) انظر: شعراء بني عقيل ١/ ١٦٧.

الهرم والدهر وصوارفه قريناً للحكمة التي جاءت وحيدة في تضاعيف القصائد أو المقطعات أو التُّف أو الأبيات المفردة عدا الحارث بن عمرو السَّعدي الذي يُعَدُّ من حلماة خولان وعقلائها، فأودع أشعاره حكمةً تنم عن رجل عاقل، متروٍّ، متأمِّلٍ في شؤون الحياة وأمورها، وكادت أن تذهب تلك الحكمة بأشعاره إلا أقله.

ومستهل الكلام على هذا الغرض في أشعار الجاهليين الذي شَحَّ ونضب إلا في موضعين فقط، الأول ما نجده لدى عمرو بن زيد الخولاني المشهور بمغرق الأكبر الذي استمدَّ حكمته من تجربته الطويلة في الحياة، فهو سيِّد مطاع في عصره، حكيم في شؤون قومه، نادم العظام من أمثال سيف بن ذي يزن الحميري وغيره من السَّراة والأشراف يقول^(١):

إِذَا مَا الْمَرْءُ أَسْرَعَ فِي هَوَاهُ فَدَعَاهُ وَرَأَيْتُهُ فَيَا يُرِيدُ
فَإِنْ نَارَ عَتَاهُ رَسَنًا لِأَمْرِ فَأَنْتَ لَهُ عَدُوٌّ، أَوْ حَسُودُ

ليس يخفى على أحد أن ظاهر البيتين نصيحة أو وصية صيغت في قالب شعري بسيط قريب الفهم، فهو يوصي إذا ما وجدت إنساناً تملكه الغضب وسيطر عليه، فاتركه يذهب في مذهبه أني شاء، لأنك إذا ناقشته وحاورته وحاولت أن تهديه إلى سبيل الرِّشاد، فأنت عدو له أو حسودٌ فيما ذهب إليه وتوصل. ومثل هذه الحكمة ما نجده عند الرِّبيعة الذي لم يرض بفعل بني سعد بن سعد بن خولان يوم أتيت الفرصة لهم وأخرجوا أبناء عمومتهم بني حي بن خولان من صعدة إلى مصر وما عانوه من سوء العاقبة، وذلك بسبب ركوب مراكب الجهل وتقحم لججه، والعصبية التي كانت تأخذ سبيلها في علاقات القوم، فكيف يُهان فلان من بني سعد بن خولان؟ وكيف يصمت هؤلاء على ردِّ الإساءة بمثلها لبني حي الذين أكبروا نفوسهم يقول^(٢):

يُرَاسِلْنِي سَعْدُ بْنُ عَمْرِو مُعَذِّراً وَلَسْتُ لِأَفْعَالِ الْعَشِيرِ بِحَامِدٍ

(١) الديوان: ق ٢/ب ١-٢.

(٢) الديوان: ق ٢٤/ب ١-٤.

فَخَالِدُ بَاعَ الذَّلَّ بِالْعَزِّ وَانْتَوَى إِلَى أَرْضِ مِصْرٍ، خَيْرُ غَادٍ وَرَائِدٍ
 حَيْثُمُ عَلَى سَعْدٍ، وَسَعْدُ مُصِرَّةٌ عَلَى حَسَدٍ مَا مِنْهُمْ غَيْرُ حَاسِدٍ
 وَلَيْسَتْ بَنُو سَعْدٍ بِشَاكِرَةٍ لَكُمْ وَمَا كُلُّ مَا أَوْلَيْتَ عُرْفًا بِحَامِدٍ

وقد كمنت الحكمة أيضاً في مَجْنُبِ مالك بن عمرو بن رَشَوَانَ بن خولان صهر خالد بن قيس الحيواني هذه الحرب الضروس، وخروجه مع بني حَيٍّ دون الدخول فيها، لأنَّ مشاركته فيها ستزيد تلك الحرب استعاراً، ممَّا يوسع دائرتها ويضاعف عدد الداخلين فيها.

أمَّا ما ورد من حكمة في أشعار المخضرمين وصدر الإسلام منهم فنجده في بيت من مقطعة لعمر بن يزيد العوفي الذي لم يكن طائشاً ولا فَرِقاً ولا جباناً، بل موجّهاً قومه بكلمة تحميهم ألسنة الغير وتقيهم العيب والسَّبَابَ بأن لا يقتلوا السَّادات والأشراف، وخصوصاً إذا ما أَلَمَّتْ بهم نائبة أو نازلة أو تهيأت الفرصة لذلك كما حدث لعمر بن قيس (١):

فَغَضَضْتُ طَرْفِي حِينَ خَرَّ جَوَادُهُ وَحَبَسْتُ عَنْهُ سِنَانَ رُمُحٍ فِي الْيَدِ
 مَا كَانَ بِي جُبْنٌ، وَلَا ارْتَعَشْتُ يَدِي لَكِنْ حَيْثُ عَلَى الْهَمَامِ الْأُصَيْدِ

يقول بعد ذلك وهو موطن الشاهد (٢):

لَا تَقْتُلُوا سَادَاتِكُمْ فَتَعَيَّرُوا فَمِنَ الْكَبَائِرِ قَتْلُ كُلِّ مُسَوِّدٍ

والإيمان بقدرة الزمان وإطلاق العنان لها في قلبها شؤون الحياة رأساً على عَقَبٍ، من الحكمة التي انثالت على لسان يَعْلَى بن سعد المالكي حين نظر في تاريخ الأمم والملوك والأقيال والرؤوساء فوجد أنَّ الزمان قد ذهب بملك آل مُحَرِّقٍ وأزال أشدَّاءهم وسرَّاتهم بيوم شديد، وكيف لا يكون التفكُّر بأخبار الأمم السابقة، والاتعاظ بسيرهم وأخبارهم من الحكمة التي تنم عن عقل صاحبها يقول (٣):

(١) الديوان: ق ٣٧/ب ٢-٣.

(٢) الديوان: ق ٣٧/ب ٦.

(٣) الديوان: ق ٥٤/ب ١.

ذَهَبَ الزَّمَانُ بِمُلْكِ آلِ مُحَرِّقٍ وَرَمَى صَفَاتَهُمْ يَوْمَ قَمْطَرٍ

وقد نسج قصيدةً كاملةً تناول فيها إيمانه بقدرة الزمان، وتمثيله بهؤلاء الملوك منها قوله^(١):

وَكَبَا عَلَى اللَّحْمِيِّ يَوْمَ حَلِيمَةٍ وَالخَيْلُ تُرَحَضُ فِي نَجِيعِ أَحْمَرٍ

وَبَسْعِدُ خَوْلَانَ بْنِ عَمْرٍو جَدَّنَا مِنْ فَوْقِ صُرُوحِ رَمَاهُ بَأْغُصَرٍ

وَعَزَا بَنِي حُجْرٍ، فَصَاحَ بِحَبْرِهِمْ كَبُشُ الْكَتِيبَةِ فِي الرَّعِيلِ الْمُضَحَرِ

وَعَلَا ابْنَ هَنْدٍ عَمْرُو، خَبَطُ زَمَانِهِ مَا أَوْى الطَّرِيدَ وَرَأْسَ آلِ الْمُنْذِرِ

وَأَشَتَّ كِنْدَةَ يَوْمَ فَرَّقَ جَمْعَهَا وَبَحَى كِنْدَةَ كَانَ عَظْمُ الْمَفْخَرِ

وَأَحَانَ ذَا الْيَوْمَيْنِ رَيْبُ زَمَانِهِ عَمْرُو بْنُ هَنْدٍ خَيْرَ آلِ الْمُنْذِرِ

وَصَرَغْنَ مَتْنٌ صَفَاةً حَيٍّ بِالْقَنَا وَالْمَشْرِفِيَّةِ عَنْ رَفِيعِ الْمَنْظَرِ

مَنْ حَيٍّ سَعِدَ يَوْمَ سَارَ خَمِيسُهُمْ وَابْنَا أُسَامَةَ فِي زُهَاءِ الْعَسْكَرِ

وحين ردَّ المحنون العوفيَّ على الحارث بن عمرو السَّعْدِيِّ، الذي أنشأ يقول ويرفع صوته بعدم ابتداء البدع المخالفة لعادات العرب وأعرافهم، وذلك عندما حمى عمرو بن يزيد العوفيَّ حكيم بن العَلَّاف الذي دخل في ذمته، وتداعى القوم إلى القتال لولا تفرقة عمرو بن معدي كرب الزبيديَّ بينهم يقول المحنون^(٢):

يَا حَارِ مَهْلًا، فَإِنَّ الْقَوْلَ مَجْبَنَةٌ بغيرِ فِعْلٍ، وَخَيْرُ النَّصْحِ مَا سُمِعَا

فَقُلْ جَمِيلًا، فَإِنَّ الْحَقَّ مَغْضَبَةٌ وَأَزْبَعُ هُدَيْتَ، وَلَا تَرْمُوا لَنَا نَصْعَا

أَمَّا مَنْ غلب عليه نَفْسُ الحكمة غلبة الحماسة والفخر على عمرو بن يزيد العوفيَّ، فالحارث بن عمرو السَّعْدِيِّ، فشعره - إلا أقله - حكم ونصائح وآداب حتى غدت تلك الحكمة غرضاً مستقلاً قائماً بنفسه في إحدى قصائده.

(١) الديوان: ق ٥٤/ب ١٣-٢٠.

(٢) الديوان ق ٦٥/ب ١-٢.

ولا غرو في أن ينسج الحارث السعدي أشعاره على أوتار الحكمة والنصيحة فهو أحد السادة والحكماء الحلما المعدودين في بلاد اليمن في عصره كما يسميه الهمداني^(١). وإذا كان الشعر الجاهلي غنائياً - كما يقال - يعبر فيه صاحبه عن ذاته، وما يكتنفها من تساؤلات فلسفية، وما يعتلج فيها من رؤى وأفكار ونوازع تجاه المواقف، فيكشف بذلك عن ثقافته ودقيق إحساسه، الذي أتاح له النفاذ إلى وعي لحقائق الحياة وأهلها، فقد صاغ الحارث في شعره حكماً تعبر عن صفاء ذهنه، ونفاذ رأيه وتعقله وبُعْدِ نظره، بدا فيها صوت العقل واضحاً جلياً، لم تحمل على كاهلها أصعب من فكرة إشعال الحروب وإثارة الفتن وركوب مراكب العنجهية والغبي التي أصغى إليها أبناء عمومته، فأنفقوا فيها أعمارهم التي فئت بفنائها والحرب لا تشب إلا فتية ولا تنتهي ويبوخ سعيها إلا عجوزاً^(٢) يقول في إحدى كلماته ناصحاً عمرو بن يزيد السعدي وضارباً له الأمثال علّه يكف عن التكبر وإثارة الفتن وإشعال فتيل الحرب^(٣):

يَا عَمْرُو يَا بَنَ يَزِيدٍ لَا تَكُنْ بَطِراً	فَالْحَرْبُ أَرْدَتْ زُهَيْراً حِينَمَا جَارَا
لَمَّا مَضَى شَأْسُ جَرِّ الرُّمَحِ مُعَرِّضاً	وَقَامَ يَبْرِي بِهَا نَاباً وَأَطْفَارَا
فَصَبَّحَتْهُ جِيَادُ الْخَيْلِ مُبَكِّرَةً	فَلَمْ تُبَقِّ لَهَا غِلاً وَلَا ثَارَا
وَالْمَرْءُ وَائِلٌ لَمَّا إِنْ طَغَى بَذْخاً	أُودِيَ بِطَغْنَةِ مَحْرُورِ الْحَشَا عَارَا
لَا تَقْطَعَنَّ يَسَاراً مِنْكَ أَيُّمُهَا	وَاحْذَرِ أَحَادِيثَ قَدْ تُنْبِي وَأَخْبَارَا
وَقَدْ سَمِعْتَ بَبْهَرَا يَوْمَ سَارِ بِهِمْ	قَرْمٌ فَدَوَّخٌ بَذَاخاً وَجَبَّارَا
وَسَادَةٌ مِنْ بَنِي حَيٍّ أُتِيحَ لَهُمْ	مِنَّا بَوَادِرُ مُزْنٍ كَانَ مِدْرَارَا

ومن قوله في الحرص على الصداقة ومواصلة الصديق: فكم من أخ لك لم تلده أمك، هو أحب إليك وأقرب، ثم يزيد في النصيح فيقول إذا اختلف عليك السبيل، فكن معتدلاً ولا تتبع صاحب

(١) الإكليل: «المخطوط ٩٩/١، المطبوع ٤٠٤/١».

(٢) انظر: ترجمته في الديوان.

(٣) الديوان: ق ٧٣/ب ١-٧.

جهالة وضلالة يوصلك إلى المهالك والعواقب الوخيمة، فإنَّ الحِلْمَ منارةٌ للإنسان يهتدي به إذا عميت عليه السُّبُلُ، ويهلك أخا الخيبة والغِيَّ، ثمَّ يوصي باللين الذي يُفَرِّجُ كُلَّ ضَيْقٍ وباللُّطْفِ الذي يزيل كُلَّ عسير يقول^(١):

إِذَا مَا النُّصْحُ ضَيَّعَهُ الْمَوَالِي	فَلَا تَنْزُكُ مُوَاصَلَةَ الصَّدِيقِ
فَرُبَّ أَخٍ لِنَفْسِكَ لَمْ تَلِدْهُ	لَكَ الْأُمُّ الْأَلُوفُ مَعَ الشَّقِيقِ
إِذَا عَمِيَتْ عَلَيْكَ السُّبُلُ يَوْمًا	وَلَمْ تَظْفَرْ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ
فَسِرْ فِي الْقِسْطِ لَا تَتَّبِعْ سِوَاهَا	فَإِنَّ الْقِسْطَ مَقَرُّهُ الرَّفِيقِ
وَلَا تَتَّبِعْ أَخَا غِيٍّ جَهُولًا	يَدُلُّكَ لِلْمَهَالِكِ وَالْمَضِيقِ
رَأَيْتُ الْحِلْمَ مُنْجِي رَاكِبِيهِ	وَيَرْدَى ذُو الْغَوَايَةِ وَالْعُقُوقِ
وَيُفْتَحُ بِالرَّفْقِ كُلُّ بَابٍ	وَيُفْسَحُ بِالتَّائِي كُلُّ ضَيْقٍ

نلاحظ أنَّ النصائح السَّالفة أبوان رؤومان، يأخذان بيد مَنْ قَلَبَ بصره في الآفاق مُحْتَارًا، بل مَنْ خَيَّمَتْ عليه شكوك الحياة ومفاسدها، وكيف لا؟ وهو يعيش في مجتمع تتقاذفه إحنٌ وسخائمٌ وثراتٌ لا تكاد تنتهي حتى تفني صاحبها، فكان لابدَّ من ملازمة صديقٍ نصوحٍ يكون بمنزلة أخٍ لم تلده أمُّك، وما تزال حال المرء بخير ما حسن اختياره للرفاق والأصدقاء؛ الذي يدلُّونه إلى السُّبُلِ الصحيحة البعيدة عن الغلوِّ والإفراط. وقريب من هذا ما نجده في قطعة ينهى فيها عمرو بن يزيد السَّعْدِيَّ عن البغي وإثارة الفتن ويضرب له مثلاً لذلك قصَّة كليب وائل وجوره على أبناء قومه، التي أصبحت عبرة تحتذى ومثلاً يردده في الشعر كثير من الأقبام وكلَّهم لاموا كليلاً بما قد ناله من الأجل وسوء الخاتمة يقول^(٢):

أَمَّا رَأَيْتَ كُلِّيًّا يَوْمَ تَبَحُّ لَهْ مِنْ كَفِّ جَسَّاسٍ مَطْرُورٍ لَهُ شُعْلُ

(١) الديوان: ق ٧٥/ب ١-٧.

(٢) الديوان: ق ٧٦، ب ١-٣.

نَجَابِهِ لِكُلَّاهُ حِينَ نَارَ عَلَى نَابِ الْبُسُوسِ، فَهَذَا فِعْلُهُ مَثَلُ
يَحْكِيهِ فِي الشَّعْرِ أَقْوَامٌ وَكُلُّهُمْ لَأُمُوا كُلِّبًا بِمَا قَدْ نَالَهُ الْأَجَلُ

ومن شعره أيضاً قوله في ركوب الجهل والغَيِّ، وعدم سماع صوت العقل، والإصغاء لصوت العصبية التي تفعل فعلها في الإنسان الجهول، فهو يقرُّع ابن عمه عمرو بن يزيد السَّعْدِيَّ؛ على عدم سماعه النَّصِيحَةِ والإرشاد، وَيُوبِّخُهُ لركوبه السَّفَاهِ والغَيِّ وإخفائه الغشِّ والخِدَاعِ للحارث السَّعْدِيَّ من دون ذنب اقترفه أو جناية ارتكبها سوى أنه قدم له نُصْحًا وخُلُقًا حَسَنًا يقول (١):

مَهَيْتُكَ قَدَمًا يَا بَنَ زَيْدٍ عَنِ الَّتِي تَرُدُّ صُدُورَ الْقَوْمِ دَائِمَةً الْكَلِمِ
فَأَضْمَرْتُ لِي غِشًّا وَأَبْدَيْتُ بُغْضَةً بِلَا تَرَةٍ كَانَتْ لَدَيَّ وَلَا جُرْمِ
فَأَخْفَرْتَنِي غَيًّا وَلَمْ تَرْعَ حُرْمَتِي وَقَالَتْ بَنُو سَعْدٍ: لَكَ الرَّأْسُ بِالْجِسْمِ
فَدُونُكَ فَاجِرُهَا دُعَا فَا كَأَنَّهَا مِنَ الصَّابِ وَالذِّفَانِ تُمَزَّجُ بِالْسُّمِ

وحذا عمرو بن زيد الغالبي حذو الحارث في إرسال النَّصِيحَةِ وإزجائها لابن عمه عمرو بن يزيد السَّعْدِيَّ في بداية الفتنة التي أشعلها، بأن يكفَّ عن تلك الحرب الظَّالِمَةِ التي أضرم نارها ضدَّ الرَّبِيعَةِ ابن سعد بن خولان محذراً إِيَّاهُ من تقطُّعِ أواصر القربى وصلات الرَّحِمِ بين أبناء العمومة، وهو لا يحب أن يرى نائحةً على زوج أو أخ أو وليدٍ فَقَدَ، ولا سيما أن الحرب قد كَثُرَتْ عن نواجذها، ولاح بريقها في الجوّ وبات وشيكاً وقوعها الذي يهلك ويردي الكبيرَ قَبْلَ الصَّغِيرِ والقويَّ قَبْلَ الضَّعِيفِ يقول (٢):

يَا عَمْرُو مَهْلًا، فَإِنَّ الْبَغْيَ مَتَلَفَةٌ تُرْدِي الرَّئِيسَ وَتُفْنِي كُلَّ مَا جَمَعَا
لَا تَقْطَعَنَّ بِالْمَدَى مِنَّا أَوَاصِرَنَا مَهْلًا، هُدَيْتَ فَخَيْرُ النَّصْحِ مَا نَفَعَا
لَسْنَا نَحِبُّ نَرَى فِينَا مُوَلَوَةً تَبْكِي وَتَهْتَفُ إِذْ مَا إِنْفَهَا نُزَعَا

(١) الدِّيوان: ق ٧٨/ب ١-٤.

(٢) الدِّيوان: ق ٨٢/ب ١-٤.

إِنِّي أَرَى الْحَرْبَ قَدْ أَبَدَتْ نَوَاجِدَهَا فِينَا وَأَصْبَحَ مِنْهَا ضَوْءُهَا لَمَعَا

نلاحظ في مصادر الحكمة في شعر الخولانيين أنها تعود إلى التأمل وسعة عقل المرء وبعد تفكيره وحسن تقديره، وهي حكمة استمدت من حياة السابقين - كما مر معنا عند يعلى بن سعد المالكي وعمرو بن الحارث السعدي = فرضتها تجارب تلك الحياة وما سادها من أحداث ووقائع كان لها أبلغ الأثر في نفوس هؤلاء الراشدين، فصاغوها شعراً يردده من جاء بعدهم من الأمم.

فهذا هو حال الحكمة ونثلها عند شعراء خولان الذين لم يظهر فيهم شاعرٌ حكيمٌ عدا - الحارث السعدي على قلة أشعاره - ولا كاهنٌ له رأيٌ من الجن تصدّر خولان عن رأيه وقالته كما عند بعض القبائل الأخرى، مثل مذحج التي عدّ الأفوه الأودي من حكمائها، وكانت عن رأيه تصدّر، وداليتها التي يقول منها:

مَعَاشِرُ مَا بَنَوْا مَجْدًا لِقَوْمِهِمْ وَإِنْ بَنَى غَيْرُهُمْ مَا أَفْسَدُوا عَادُوا

هي من حكمة العرب وآدابها^(١)، وغيره المأمور الحارثي الذي عُرف بالكهانة حتى قيل: لم يكن في العرب أحدٌ أكهنَ منه، بأمره مذحج كانت تتقدّم وتتأخّر^(٢)، ومثل حمير التي برز فيها أبو بكر العرزمي شاعر الآداب والنصائح والأمثال والحكم^(٣) فكثرت الاستشهاد بشعره والتمثل بمعانيه.

ومثل كلب بن وبرة التي نهضت بهذا الغرض، من بين شعرائها زهير بن جناب الكلبي، إذ يقول د. شفيق البيطار: «ونصادفُ مُعْظَمَ تلك الحكمة عند زهير بن جناب الكلبي»^(٤).

(١) انظر: الأغاني (صادر) ١١٩/١٢ وعنه في شعراء مذحج: ٣٥٨.

(٢) انظر: أمالي القالي ٣/١٤٩، الحيوان ٦/٢٠٣، البيان والتبيين ١/٣٦٢، نسب معد واليمن طبعة ناجي حسن ١/٢٧٨، وعنهم في شعراء مذحج ٤٦٧.

(٣) انظر: معجم الشعراء ٤١٢، الوافي بالوفيات ٢/٤٢١، الزهرة ٣/٥٦١، مضاهاة أمثال كتاب كليله ودمنة ٢٥، ٤٣، ٥٥، الأعلام ٦/٢٥٨ وعنهم في شعراء حمير (الدراسة) ١٤٧.

(٤) ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٤٠٤.

كما نلاحظ في شعر الحكمة لديهم تحولاً كبيراً، لعلّه عائدٌ إلى ضياع أشعارهم الذي أضاع كثيراً من المعاني التي لم يصل إلينا منها سوى قليل لا يؤبه له مقارنة مع غيره من أشعار القبائل. ومن المعاني الغائبة في شعرهم المعاني الدينيّة وما يتعلّق فيها من مسألة القضاء والقدر، والشّدّة والرّخاء في الحياة، ومسألة الموت الذي لا يقف دونه مانع، ومسألة الغنى والفقر، والشّباب والهرم، والجود والبخل، واللّين وحسن التّأقّي في طلب الحاجات، وحسن اختيار من يلبّون الطّلبة ويحسنون إلى ذوي الحاجة قبل بذل النفس، والتّعالّي على سفاسف الأمور وقشورها، والتّحلّي بأخلاق الفضيلة، والابتعاد على السّوء والرذيلة وغيرها من أبواب الحكمة التي تدخل في حياة المجتمع من كلّ جوانبه، فتتّسع لكلّ تصرّف يقوم به المرء في حياته، ولم يكن تحول هذا الغرض في أشعار خولان خاصّة دون غيرها من القبائل، فهذا هو حال الحكمة في الشعر القديم عامّة، فهي ليست «موضوعات مستقلة في الشّعْر الجاهليّ، إذ لا نجد فيه قصائد خاصّة بها، كالذي نجده عند بعض شعراء الزهد في العصر العباسيّ كأبي العتاهية، وإنّما كان من عادة الشّاعر الجاهليّ أن ينثر بعض المعاني التّهذيبيّة العامّة في موضوعاته المختلفة»^(١) وإنّما كان الشّاعر ينظم بضعة أبيات في الحكمة أو أنّها أشربت معنى الحكمة وأسقيت من مائها، فجاءت غير مقصودة لذاتها، نتيجة لفعل ما، أو ردّاً على حادثة معيّنة كما وصلنا من أشعار بني خولان حينما نثّل الحارث السّعديّ حكمته وأرسلها لابن عمّه الظالم الجهول، علّه يكفّ عن إثارة الفتن وتشبيب نيار الحرب، وإن وقعنا على قصائد خالصة وجوهها لغرض الحكمة، فذلك لأن صاحبها حكيمٌ وعن رأيه يصدر قومه ويمثّل أبناء عشيرته كما كان من أمر الأفوه الأودي.

وثمة أمور لا بدّ من التنبيه عليها في ختام حديثنا عن الحكمة وهي:

- ١ - خلو أشعار الحكمة وفيما اجتمع بين دفتي هذا المجموع لخولان من معاني الشكوى من الدّهر، وهذا حكم رهينٌ بما وقّف عليه وانتهى إلينا من أشعار القوم.

٢ - لم تثبت المصادر التي جمعنا منها الشعر ولا سيما الإكليل أو شرح الدامغة أن أحداً من الشعراء الذين استلّوا معاني الحكمة هو من المعمرين الذين ينطقون بالحكمة عادةً وتسيل على ألسنتهم كما يسيل الشعر على ألسنة الشعراء الفحول؛ لأنّ تطاول العمر وتراخي الأيام في حياة الإنسان مصدرٌ مهم لشعر الحكمة.

٣ - إنّ المعاني الواردة في أشعارهم متعاورةٌ بين الشعراء عامّة، ولو ذهبنا نتبّع أشعار الحكمة عند غيرهم لوجدناها هي ذاتها، ولكن القبائل الأخرى جاءت بأكثر ممّا جاء به شعراء خولان وقد علّلت هذا بضياح قسم كبيرٍ من أشعار القبيلة التي كان فيها القوّاد والأقيال وأهل الخبرة والحنكة والدّهاء، والفظنة وغيرها من الصّفات المولّدة لشعر الحكمة.

٤ - إقامة الدّراسة على هذه الأبيات التي جاءت في الحكمة وهي قليلة جدّاً، وقليلة أيضاً إذا ما قورنت بحكمة القبائل الأخرى، حتى صار هذا القليل كثيراً وموضوعاً للدّراسة والعرض، إذ أخفت وراءها ما تدلّ عليه من الحكمة ومعانيها العالية عند هؤلاء القوم.

٥ - لم يكن في ألفاظ الأشعار التي انتهت إلينا جديداً، فهي من الألفاظ المستعملة في هذا الغرض عند غير الخولانيّين من مثل «مهلاً...»، فخير النصيح، تفني، رأيت، عميت، لا تترك، الحلم منجي... لا تقطعن، لا تكن...» إلى غير ذلك من الألفاظ الكثير التي يطول ذكرها.

٦ - عدم سيرورة هذه الحكمة والتمثّل بها والاستشهاد بمعانيها، وبقائها خبيئةً في الأشعار التي لم تنتشر وتنفش على ألسنة الرّواة والعلماء، ولعلّ هذا عائداً إلى عدم انتشار أشعار خولان خارج صعدة لعدم زيارة العلماء والرّواة لها ولو فعلوا لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء^(١) والدليل على ذلك انتشار أخبار حمير وأشعارها، إذ كانت خولان أو بعض بطونها قد سكن أرضاً لحمير.

ويُخلَص من هذا كلّهُ إلى أنّ الأحكام المبنية على هذه التنف والأبيات المفردة تظل ناقصة ومبتورة يعوزها أن تسعى نحو الكمال الذي لا يكون إلّا لله وحده، وليس بالإمكان مع تقادم العهد وتغول الأيام هذه الأشعار وضياعها إلّا ما كان، عسى أن يقف محظوظٌ يوماً على كشفٍ جديدٍ من أشعار خولان الخبيئة، أو

(١) الإكليل: «المخطوط ٦٠/١، المطبوع ٢٧٥».

الهاجعة في أحد الأمكنة من العالم، على رفوف مكتبة أو متحف أو في جامع... إلخ فيصل إلى أحكام مكتملة واضحة مبنية على أشعار أكثر من التي وُقِفَ عليها، وغزارة أخبار تنبئ عن حياة أصحابها من معمرين وغيرهم، وبذلك ينتهي الحديث عن موضوعات أشعار خولان، وثمة مواضع في أشعارهم ولا سيَّما الأمويون منهم تحكي غرض الحنين إلى الأهل والديار والأحبة^(١)، والعتاب ولوم الذات وتقريعها، وهي أبيات لا تكاد تنهض بموضوع مستقل للدراسة والعرض والمقارنة^(٢).



(١) انظر: شعر عمرو بن زيد الغالبى.

(٢) انظر: شعر المسلم بن يغنم المالكي، شعر عمرو بن حجر المالكي، عمرو بن زيد الغالبى، عمرو بن يزيد السعدي.

الفصل الرابع

الخصائص الفنية

الخصائص الفنية

يحاول هذا المبحث الوقوف على أبرز الظواهر الفنية للذي اجتمع لدينا من أشعار قبيلة خولان التي سكنت أرضاً شاسعةً تمتد من جنوب شرقي صنعاء وغربها إلى شمال صعدة من الصقع اليمني، الذي حكمته حمير نحو ستة قرون ونصف القرن (١١٥ ق.م - ٥٢٥ م) فبسطت نفوذها على جُلِّه، وصار معظم بلدان هذا الصقع ومن حكمها من أقيال وملوك ينتسبون إلى دولة حمير العظيمة، هذا فضلاً عن دخول عددٍ من بطون خولان في حمير، واختلاطها فيها، وانتسابها إلى أرومتها؛ ممّا جعلها عرضةً للتأثر بالحميرية ولسانها الذي عبّر عنه أبو عمرو بن العلاء في القرن الثاني الهجري - فيما رواه عنه ابن سلام -: «ما لسانُ حميرٍ وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيّتهم بعريّتنا»^(١).

إنّ ترامي خولان على أرضٍ شاسعةٍ ومتراميةٍ، لا سيما أقاصي اليمن وتداخلها بأرض حمير إلى حدّ الاندماج والتماهي، جعلها متضمنةً في مقالة أبي عمرو بن العلاء السّالفة. إذ لم يكن هناك قبيلة أكثر تداخلاً أو اندماجاً بحمير من خولان، التي انضوت تحت لواء حمير ردحاً من الزمن، واحتبت بظّلها على الرّغم من قدمها الذي يعود إلى ما قبل نشوء حمير كدولةٍ عظيمةٍ^(٢).

لذا سيلتفت إلى ألفاظ أشعارهم ومعانيها، وعمّا إذا كان فيها ما يثبت قالة أبي عمرو فيما ذهب إليه من بُعد هذه اللغة وغرابتها، أو قربها من لغة الشعر القديم المعروفة.

وسيكرس هذا المبحث على قسمين أولهما: الخصائص المعنوية المرتبطة بوضوح المعاني وغموضها، والصور البيانية التي تُبيّن المعنى وتوضّحُه، وتكشف عن خفاياه من تشبيه واستعارة وكناية، ثمّ المحسنات المعنوية وما لها من دورٍ في كشف المعاني وجلالها وتقديمها للقارئ بحلّة قشبية. ثمّ يتلوّه الحديث عن مصادر معاني أشعارهم المختلفة التي استلهموها من البيئة المحيطة بهم، ومن كلّ ما وقعت عليه عيونهم من مظاهر حضرية أو بدوية أو تقاليد أو أعراف... ومن الشّعْر الجاهليّ نفسه،

(١) طبقات فحول الشعراء ١١/١، وعنه في الزهر ١٧٤/١، وعنهما بتصرّف مخلّ في الشّعْر الجاهليّ (لطه حسين) ٢٥.

(٢) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢/٤٠٠، وفيه: خولان تعود إلى الألف الأولى قبل الميلاد؛ ممّا يعني أنّها أقدم من حمير.

ومن الذي أخذوه عن غيرهم من أمثالٍ وحكمٍ وعبرٍ ووقائعٍ أفادوا منها، فضلاً عما استجدَّ من أفكارٍ ومعانيٍّ وتعاليمٍ أفاد منها شعراء الإسلام من القرآن الكريم.

وثانيتها: الخصائص اللفظية المتعلقة بمنهج بناء القصيدة وما إليها، وموسيقى الشعر الخارجية والداخلية، ثمَّ يتلوه الحديث عن الظواهر اللغوية والنحوية والعروضية، ما أمكن إليها سبيلٌ.

١ - الخصائص المعنوية:

لا تكاد تقع العين فيما انتهى إلينا من أشعار خولان على غير الوضوح في المعنى وسهولة التناول، والبساطة البعيدة عن التعقيد والتكلف، والإغراب والحوشي. وهذه السمات عامة تنسحب على أشعار القبائل العربية في الجاهلية وصدر الإسلام وعهد بني أمية، لا تختلف فيها قبيلة عن أخرى إلا بقدر ما يختلف أحد شعراء هذه القبيلة عن أقرانه فيها. وقد عزا الدكتور شوقي ضيف ذلك إلى أنَّ الشاعر العربي «لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء، بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أميناً يُبقي فيه على صورها الحقيقية دون أن يُدخل عليها تعديلاً... وكان شعره وثيقةً دقيقةً لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته»^(١).

غير أنَّ أشعار خولان لم تكن خلواً من بعض المعاني العسيرة على الفهم؛ لغرابة ألفاظها وصعوبتها، أو لضياح أبيات ذات وشائج قويةً بمبنى ما بقي منها تارةً، وبمعناه تارةً أخرى، أو لتقدم العهد، وعظم الشُّقة، وهي سافرةٌ لا غرابةً فيها تنجلي هذه الغرابة بتطالِب معاني الألفاظ في معجمات اللغة، ولا بدَّ للباحث في الشعر القديم أن يواجه عثاراً في تناول الشعر وغرابة في ألفاظه، فهو ابن بيئةٍ يفصلنا عنها نحو قرنٍ ونصفٍ على أقلِّ تقدير.

وثمة أمران لا محالة ههنا من التنبيه عليهما يتجسّدان في:

(١) العصر الجاهلي ٢١٩.

١- خُلُو أشعارِ خَوْلان من أيِّ إشارة إلى حياة القبيلة الاجتماعية منها والدينية أو الاقتصادية أو فيما يخصَّ اللّهجات، خلاً أمراً واحداً أشار إليه غيرُ شاعرٍ وهو إقامتهم في قصورٍ شاهقةٍ ومحافدٍ عظيمةٍ دوى صيتها بعيداً في أشعار الشعراء.

٢- غيابُ أيِّ إلماعٍ إلى ظاهرة لغويةٍ يمكن للقبيلة أو أحد بطونها أن يتفرّد بها؛ وخصوصاً أنَّ بعض بطون خَوْلان اختلطت بحميرٍ واندجت فيها، بل إنَّ جلَّ معاني النصوص التي صارت إلينا كانت واضحةً، بسيطةً سهلةً، حذت خولان فيها حذو غيرها من القبائل العربية من غير جدّة يؤبه لها، كقول عمرو بن زيد الخولاني - مغرق الأكبر -^(١):

إِذَا مَا الْمَرْءُ أَسْرَعَ فِي هَوَاهُ فَدَعَاهُ وَرَأَيْهُ فِيمَا يُرِيدُ
فَإِنْ نَازَعْتَهُ رَسَنًا لَأَمُرٍ فَأَنْتَ لَهُ عَدُوٌّ، أَوْ حَسُودُ

ومثل هذا قول عمرو السَّعدي^(٢):

يَقُولُ عَمْرُو لَنَا وَالْخَيْلُ مُشْرَعَةٌ تَحْتَ الْكُفَاةِ وَقَدْ جَالَتْ عَوَادِيهَا
مَهْلًا لَكَ الْخَيْرُ لَا تَفْعَلْ، فَقُلْتُ لَهُ: أَقْصِرْ، فَإِنْ مُيْتِ النَّفْسُ مُحْيِيهَا
هَمَزْتُ مُهْرِي بِرَجْلِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: اذْهَبْ، إِلَيْكَ، فَقَدْ سَارَتْ بِمَا فِيهَا
أَكْرَهْتُهُ، فَمَضَى فِي جَوْفِ غَمَرَتِهِمْ وَالرُّمْحُ يَأْخُذُ صَيْدًا ثُمَّ يُرْدِيهَا

إنَّ مثل هذين النّصين في سهولة ألفاظهما ووضوح معانيهما كثيرٌ في شعر خولان. وإنَّ أحوَجَ المرء بعضُها إلى البحث في المعجمات؛ لجلاء غرابة بعض المعاني وكشف غمّة بعض الألفاظ التي تبدو عصيّة - لأوّل وهلة - على الفهم الذي يحار في بعض النصوص بسبب ما قد نالها من داءِ التّصحيف والتّحريف، كقول عمرو بن زيد الخولاني - مغرق الأكبر -^(٣):

وَحَيْرٌ قَوْمُنَا سَارَتْ مَقَاوِلُهَا وَمَذْجُ الْغُرِّ سَارَتْ فِي تَعَابِيهَا

(١) الديوان ق ٢/ ب ١-٢.

(٢) الديوان ق ٨٩/ ١-٤.

(٣) الديوان ق ٦/ ب ٤-٩، ١١-١٣.

وَالْحَيُّ مِنْ صَيْدِ هَمْدَانَ لَهَا شَنْفٌ
وَمِنْ قَضَاعَةٍ حَيًّا بِأَسْهَانُزْلًا
وَسَارَ بَعْضٌ إِلَى بَعْضٍ بَرَاتِيهِ
حَتَّى التَّقَيْنَا بِأَكْنَافِ الْمَسِيلِ وَقَدْ
كُنَّا عَبْنَى بَنِي شَيْبَانَ إِذْ طَلَعُوا
يَفْرِ الْفِرِّيَّ وَيُقِمِّي مَنْ يُنَاوِيهَا
نَهْدٌ وَجَرْمٌ وَخَوْلَانٌ تُوَاتِيهَا
وَقَدَّمْتُ لِعَوَادِينَا عَوَادِيَهَا
أَبْدَى لَعَمْرُكَ مَا فِي النَّفْسِ مُحْفِيهَا
فِيهَا، بُحَيْرٌ أَخُو الْغَارَاتِ يَهْدِيهَا

ثم يقول بعد ذلك:

شَنْتَ قِيسِيٍّ مِنَ الشَّرْبَانِ مُشْطَبَةٌ
ثُمَّ اسْتَحَفَّتْ بَنُو شَيْبَانَ مَا لَبِثَتْ
وَفَارَ جَمْعُ كَلْبٍ عِنْدَ صَوْلَتِهِ
مِنْ كُلِّ زُورًا، أَتَى الزُّرُوبَ بَارِيَهَا
كَالْحُشْبِ مَالَ عَلَيْهَا سَيْلٌ وَادِيَهَا
فِي حَمِيرِ الشُّمِّ إِذْ زَالَتْ رَوَاسِيهَا

فهذه الأبيات لا غرابة في ألفاظها ولا في معانيها، وإن تناول التصحيف بعضاً منها مثل: تعابيه، يناويها، لعوادنيا، عواديه، عبني، يهديها، مشطبة، الزُّرو، استحفَّت، رَوَاسِيهَا، إذ وردت هذه الألفاظ مصحفة في مصدرها: تعانيتها، يناويها، لعواديه، عواليها، عبى، نهديها، مشطرة بالذرو، استحفَّت، نواصيها. وبنظرة متأنية في أحد معجمات اللغة تُزال العِلَّة وتَنكشِفُ الغُمَّة، ثم ليس من بُد من معرفة معنى صيد: وهو بطن كبير من همدان، والشَّنْفُ: النظر بمؤخرة العين، ويقمي: يذلُّ، وأكناف: نواحي وشنت: صَبَّت، والحُشْبُ: الغليظ الخشن وأراد الإبل.

ومثل هذا قول المقدم بن زيد الحيواني^(١):

نَمْتَنَا إِلَى عَمْرٍو عُرُوقُ كَرِيمَةٍ
وَخَوْلَانٌ مَعْكُودُ الْمَكَارِمِ وَالْحَمْدِ

وردت هكذا في المخطوط (معكود) بينما جاءت رواية المحقق في مطبوع الإكليل (معقود)، فوهم المحقق وظن أن الكاف قاف، وفاته أن الكاف في معكود لغة سائرة في اليمن مثل (جمل) إذا اضطروا قالوا (كمل)، وكذا يفعل بنو تميم فيلحقون القاف باللهاء حتى تغلظ جداً، فيقولون (الكوم) بدلاً من (القوم) فيكون بين الكاف والقاف، وهذه لغة فيهم كما لأهل اليمن ومثاله:

(١) الديوان ق ١٣/ب ١.

ولا أَكُولُ لِكَدِرِ الْكَوْمِ: كد نضجت
ولا أَكُولُ لِبَابِ الدَّارِ: مَكْفُولٌ^(١)
ومنه أيضاً قول المقدام في القصيدة نفسها:

فَنَحْنُ بَنُوها مِنْ أَعَزِّ نَبِيَّةٍ وَأَخَوَالنا مِنْ خَيْرِ عُودٍ وَمِنْ رَنْدٍ

جاءت (نبيته، لبابة) مصحّفةً في المطبوع وفق قراءة المحقق، طيّب الله ثراه - و(رند، زند) مُصَحَّفة أيضاً، إلا أن نظرة يسيرةً في جوّ الكلمة تهدي إلى المرام والمراد.

وإذا كانت أشعار خولان غير خالية من غريب اللفظ، فإنّه لم يكن بالكثيف الذي يُعَيِّ الباحث - وهنا يجدر بنا التنبية على أمرٍ، يتجسّد في عدم اشتهاٍ أحد شعراء هذا المجموع من خولان بالغريب الذي عرفت به مجموعة من الشعراء أمثال ابن مقبل، وابن أحمَر، وحَمِيد بن ثور الهلالي، والرّاعي النميري، ومزاحم العقيلي، والعجاج، ورؤبة^(٢)، كقول عمرو بن يزيد العوفي^(٣):

وَكِنْدَةُ أَخْلَافُ لِحْجَرٍ وَقَبْلَهَا تَمَكَّنَ فِي فَرْعِي قُضَاعَةَ مَنْصِبُهُ
نَمَتْهُ إِلَى الْعَلَا يَدٌ مِنْ قُضَاعَةٍ وَعِرْقٌ إِلَى خَيْرِ الْمَغَارِسِ يَجْذِبُهُ
وَحَالَفَهُ السَّادَاتُ مِنْ حَيٍّ مُغْرِقٍ فَدَانَ لَهُ شَرْقُ الْبِلَادِ وَمَغْرِبُهُ
شِعَارُهُمْ فِي الْحَرْبِ دَعْوَةٌ كِنْدَةٍ إِذَا حَانَ مِنْ وَرْدِ الْمَنِيِّ مَشْرَبُهُ
وَلَيْسُ لَهُمْ بَعْدَ الْمَطَارِفِ لِلْوَعَى إِذَا ثَوَّبَ الدَّاعِي مِنَ السَّرْدِ أَشْهَبُهُ^(٤)

(١) انظر: الصّاحبي: ٣٧، دراسات في فقه اللغة: ٩٥، وانظر رواية البيت بالقاف في ديوان أبي الأسود الدؤلي ٣٥٣، والصّاح: ٤: ١٥٣٨ (غلق)، وفي إصلاح المنطق: ١٩٠، وفي تهذيب إصلاح المنطق: ١/ ٤٥٤، وفي تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح: ١٢٨/١.

(٢) انظر: المصون في الأدب ١٦٩، والعجاج: حياته ورجزه: ٤٠٦، وعنّها في شعراء بني كلب بن وبرة (الدّراسة) ٤١٢، ونحو هذا في الصّورة في شعر تميم بن أبي بن مقبل ١٤، وديوان حميد بن ثور الهلالي ٢٠٠، وشعر عمرو بن أحمَر الباهلي ٣٢.

(٣) الدّيوان ق ٣٢/ ب ١-٥.

(٤) المطارف: واحدها (مطرف) وهو رداءٌ من خزٍّ، مُرَبَّعٌ، الوغى: الحرب.

ثَوَّب: عاد بصوته مرّة بعد أخرى، السّرو: اسم للدرع، أشبهه: اللون الأبيض.

ليس في هذه الأبيات غرابة إذا علم الباحث أن ما ذكره أسماء قبائل وملوك. في حين تبدو بعض النصوص صعبة المنال لما فيها من ألفاظ غريبة تقاسمت أبيات النص، إلا أن غرابتها لا تصل إلى حد الغموض والإبهام، بل تُضني الباحث نوعاً ما كقول عمرو بن يزيد العوفي^(١):

إِنْسٌ إِذَا أَمُنُوا، جِنٌّ إِذَا غَضِبُوا،	تَحْتَ الْعَبَاجَةِ فِي أَيَّامِهِمْ شَعْلٌ
سِرْنَا إِلَى حِصْنٍ مُرٍّ حِينَ لَا ذَبَهُ	فَلَمْ يَكْدُ عَنْ ظُبَا أَشْيَافِنَا يِلُّ
وَقَدْ تَرَكْنَا نَوَالاً لَا حُوَيْلَ لَهُ	كَأَنَّهُ الْجِدْعُ، جِدْعُ النَّخْلَةِ الْقَطْلُ
لَمَّا أَبَى حُكْمَ مَوْلَاهُ دَلَفْتُ لَهُ	مِنِّي بِأَسْمَرَ أَلْوِيهِ فَيَنْفَتِلُ
حَتَّى اجْلَعَبَّ عَلَى الْخَدَيْنِ مُنْعِفَرًا	وَفَوْقَ حَيْزُومِهِ عَرَّافَةٌ تَهْلُ
مِنْ كَفٍّ أَضِيدَ لَا يَخْشَى عَوَازِلَهُ	وَلَيْسَ يَدْخُلُ فِيهِ اللَّوْمُ وَالْعَذْلُ

يصف عمرو شجاعة قومه يوم قتلوا مر بن عامر الحميري، ونوال بن عتيك غلام سيف بن ذي يزن الحميري، الذي أرسلهما لنصرة خولان على قبائل قيس عيلان، إلا أنها خانا من أوثقنا عليه، وكانت نهايتهما كما وصف الشاعر سالفاً.

وكقول علقمة الخولاني في داليتيه اليتيمة مخاطباً سيف بن ذي يزن الحميري الذي أمّل منه النصره والعون على هوازن وسليم^(٢):

أَبَا الْمُئَذِرِ الْفَيَاضِ يَآخِرَ حَمِيرٍ	وَخَيْرَ بَنِي دُهَلٍ، إِلَيْكَ نُرِيدُ
نُرِيدُ نَوَالاً مِنْ سَجَالٍ غَزِيرَةٍ	فَأَنْتَجَ لَهَا فِي النَّائِبَاتِ مُقِيدُ
شَوَازِبٍ قَدْ تَطْوِي نَقِيلًا وَسَبْسَبًا	وَرَوْحًا بَالِيْلٍ قَرُّهُنَّ شَدِيدُ
وَقَطَّعْنَ تِيهَ الْأَرْضِ مِنْ دِمْتَي دَفَا	إِلَيْكَ وَقَدْ تُعْطِي الْمُنَى وَتَزِيدُ
صَرَفْنَ إِلَيْكَ الْقَوْمَ تَدْمَى كُلُّوْمُهُمْ	لِيُدْمَلَ قَرْحٌ مِنْهُمْ وَهُوْدُ
وَيَرْتَاشُ قَدْحٌ مِنْهُمْ ذُو مَمْرُطٍ	وَيَفْتَقَ يَوْمًا مِنْكَ وَهُوَ سَدِيدُ

(١) الديوان ق ٤٨ / ٣-٨.

(٢) الديوان ق ١ / ٣٨-٤٤.

وَنَصْدُرُ مِنْكَ بِالَّتِي تَتْرُكُ الْعِدَى عَبَادِيَدَ مِنْهُمْ خَائِفٌ وَشَرِيدٌ

وليس من بُدِّ لقارئ هذه الأشعار - حتى لو كان ممن له دربةٌ ومراسٌ في مقارعة الشعر القديم إلا أن يُقَلَّبَ في معجمات اللغة غير مرة؛ ليتبين له غموضٌ بعض معاني المفردات كـ(سجال، مقيد، شواذب، نقييل، سببس، روح، قرهن، دفتي، دفا، لهود، تمرط، يفتاق، عباديد)، ونحو ذلك فيما بقي من النصّ مشتملاً على وصف حال القوم الذي امتزج بمدح الملك الحميري.

وليس الغرابة وحدها ما يقف حاجزاً منيعاً أمام فهم المعنى، بل إن ارتصاف مبنى الألفاظ بعضها إلى جانب بعض يكون عائقاً لفهم المراد كقول عمرة الحيوانية مفاخرة بأبناء قومها^(١):

أُسْدٌ ضَرَاغِمَةٌ بِيضٌ غَطَارِفَةٌ غُلْبٌ جَحَاجِحَةٌ هَيْسٌ إِذَا اتَّصَلُوا

وربما كان احتمال بعض ألفاظ البيت الغريبة لأكثر من معنى سبباً في شيءٍ من الغموض والتباين في تفسيره مثل قول عمرة الحيوانية السالف فـ(غُلْبٌ) تحتل معنى: القهر والغلبة، ومعنى: الغلظة في الرقبة وهو معنى يُوصف به الملوك، ومثل هذا ما نجده في قول مالك بن قطينة العوفي حينما وصف فرقة أهله وأبناء عمومته بني عوف وبني مالك^(٢):

تَرَحَّلَ عَمَرُو عَنْ قَطَائِعِ قَوْمِهِ فَحَالَفَ مَوْجَ الْبَحْرِ عَنَزَ بْنَ وَائِلٍ

فذهب إلى أن القطائع: هي الصَّدُّ والهجران الصادر من أهله وذويه، ويحتمل أن تكون القطائع بمعنى الأرض والسهول وما يمكن أن يجعله السلطان لأحد من القوم.

وثمة غموضٌ يلف بعض الأبيات، لضياح أبيات سابقة عليها، تتعلق بها الأبيات التي انتهت إلينا كقول عوف الخولاني في مقطعة يفخر فيها بقومه بني حي بن خولان^(٣):

أَقَرَّتْ لَهُمْ خَوْلَانٌ قَدْ مَأْ بِفَضْلِهِمْ وَلَيْسُ لَهُمْ فِي الرَّوْعِ نَسْجٌ مُضَاعَفٌ
فَهُنَّ لَنَا دُونَ الْبَيْنِ وَرَائَهُ وَمَا كَانَ فِيهِمْ لِلْهُمَامِ مُحَالِفٌ

(١) الديوان ق ١٢ / ب ٥.

(٢) الديوان ق ٩٣ / ب ١.

(٣) الديوان ق ٩ / ب ١-٣.

وَرَاثَةُ خَوْلَانَ بْنِ عَمْرِو فَنُخِّ لَهَا حَبَانَا بِهَا الْقَرْمُ الشَّرِيفُ الْمُسَاعِفُ

إذا كان الشاعر يفخر بقومه الذين أقرت لهم خولان جميعها بمعروفهم وفضلهم وهم من هم مكانة ورفعة، فعلى من يعود ضمير (هُنَّ) وهو لجمع المؤنث وخصوصاً ما جاء في سياق البيت من معنى أنهم ورثة لبني حيٍّ من دون البنين، واتكاء على هذا يكون الضمير عائداً على أبيات سابقة على ما انتهى إلينا من المقطعة، فيها تفسيرٌ جليٌّ للضمير وما يرمي إليه من معنى، ونحو هذا ما نجده في البيت الثاني من مقطعة يتيمة لعمر بن عوف الحيواني يذكر فيها الحرب التي دارت على قبيلة حمدان وكان بنو حيٍّ بن خولان من أشعل فتيلها^(١):

إِنْ يَقْتُلُونَا فَإِنَّا سَوْفَ نَقْتُلُهُمْ أَوْ يَقْبَلُوا الْحَقَّ، نُعْطِ الْحَقَّ إِنْ قَبِلُوا
يَا ابْنِي قُضَاعَةَ إِنَّ الرَّأْيَ مُشْرَكٌ فَإِنْ زَلَلْتُ فَمَا فِي رَأْيِكُمْ زَلُّ
سَيَرُوا طَرِيقًا، أَكُنْ مِلَانٌ صَاحِبُكُمْ وَلَا خِلَافَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا مَيْلُ

فإن في البيت الثاني منادى مضاف، والمضاف إليه قضاة، ولا ندري من هما ابنا قضاة، مما يدل على أنهما ذكرا في أبيات سابقة على الأبيات التي صارت إلينا، وهذا ما يكسب البيت الثاني شيئاً من الغموض. وقول عمرو بن يزيد العوفي يفخر بقتله لملك الصدفي في أثناء وقوفه إلى جانب سيف بن ذي يزن في حرب الأشباء والصدف^(٢):

أَغَشَى الْكُمَاةَ إِذَا تَرَا جَعَ حُظُّهَا لَا طَائِشًا فَرَقًا وَلَا رِعْدِيْدًا
وَلَقَدْ جَلَسْتُ مَجَالِسًا مَحْمُودَةً وَحَزَزْتُ مِنْ حَلْقِ الْمَلِكِ وَرِيدًا
وَقَتَلْتُ ذَا التَّاجِ الْمُهَذَّبِ مَالِكًا وَلَكُمْ أَفْتُ مُهَذَّبًا صَنْدِيدًا
مَا قُلْتُ إِلَّا الْحَقَّ قَوْلًا فَاغْلَمِي أَبْدِي بِذَاكَ بَرَاهِنًا وَشُهُودًا

(١) الديوان ق ٢٦ / ب ١-٣.

(٢) الديوان ق ٣٩ / ب ١-٤.

نلاحظ أنّ شيئاً من الغموض قد لفّ البيت الرابع؛ لعودة ياء المؤنّثة المخاطبة على مجهولٍ لا ندري من هو، بسبب ضياع أبياتٍ سابقةٍ على التي صارت إلينا، ولو وصلت لتبيّن معنى (اعلمي) وعلى من تعود الياء وترتبط به.

ولعلّ في مجيء بعض الأبيات يتيمةً ما يكسبها شيئاً من الغموض على الرغم من سهولة ألفاظها، ووضوح معانيها كقول مالك بن قطينة العوفي^(١):

أَرَى غُدُوَّةً حَتَّى تَرَحَّلَتِ الضُّحَى وَدَارَ أَوَارُ الشَّمْسِ فَوْقَ الْجَمَاهِمِ

فليس بوسع المرء أن يقف على المعنى الدقيق للبيت؛ وخصوصاً الشطر الأوّل منه.

وثمة غريبٌ متوهّمٌ في نصوصٍ غير قليلةٍ في أشعار خولان، عائدٌ إلى كثرة أسماء الأعلام والمواضع في تلك النصوص، وليس هذا بالمستحدث في أشعار القوم، بل هو كثيرٌ في أشعار العرب قاطبةً، إلّا أنّ ما ورد في أشعار خولان من أسماء، كان قليلٌ الدوران على الألسنة مقارنةً بغيره لكونه - غالباً - أسماء أعلام ومواضع يمانية لم تنل حظّها من الشهرة كغيرها من الأسماء التي كانت سائرةً على ألسنة العامة قبل الخاصّة، كقول عمرو بن الحارث الحيواني وهو جاهليّ - يذكر زوال الملوك والأقيال حينما عصف بهم الزمان وأناخ بكلّكه عليهم^(٢):

بَرَكَ الزَّمَانُ عَلَى ابْنِ هَاتِكِ عَرْشِهِ وَعَلَى أُذَيْنَةِ غُدُوَّةٍ وَرَوَاحَا
وَأَزَالَ عِزَّ مُلُوكٍ نَاعِطَ صَرْفُهُ لَمَّا سُقُوا كَأْسَ الْمُنُونِ دُبَاحَا

ونحو ذلك قول يعلى بن سعد المالكيّ - وهو مخضرم - يذكر حدث خروج بني حيّ بن خولان إلى مصر مستشهداً بزوال سلطان الملوك والأقيال^(٣):

وَابْنِي أُذَيْنَةَ قَدْ رُمِيَ بِنَوَافِذِ كَانُوا الْمُلُوكَ وَعِزَّةَ الْمُتَفَكِّرِ
وَلَقَدْ أَزَالَ مُلُوكَ نَاعِطَ صَرْفُهُ وَرَدَى ابْنَ زُرْعَةَ وَاسْتَحَالَ بِشَمْرِ

(١) الديوان ق ٩٤/ب ١. وكنت قد سألت الأستاذ الدكتور شفيق البيطار عنه فأجاب: «الفاظه واضحة... وليس هنالك ما يعين على فهمه بدقة».

(٢) الديوان ق ٢٣/ب ١-٢.

(٣) الديوان ق ٥٤/ب ٧-٩.

وَتَنَى ابْنُ ذِي يَزَنٍ فَثَلَّلَ عَرْشَهُ قِيلَ الْمَقَاوِلِ وَاللَّبَابِ الْأَنْصَرِ

ونحو ذلك في قول الحارث السعدي - وهو أموي - يلوم أبناء عمومته على قتلهم الملوك^(١):

فَأَجَلُّوا مُغْرَقاً وَبَنَى شِهَابٍ وَحَلُّوا فِي الشُّهُولِ وَفِي النَّجَادِ

وَنَحَّوْا الْخَنْفَرَيْنِ وَالْأَعْوَفِ بِقُصْوَى طَوَاطِئِ أَوْ بِرُكِّ الْغِمَادِ

ليس للباحث من مناصٍ ههنا إلا أن يستشير كتب الأنساب، ويضرب في بطونها غير مرة حتى تَسْفُرَ عن وجهها بعض هذه الأسماء التي تشبه الطَّلسمات - وهي تعثر أشدَّ العثرة - في أعين الدارسين اليوم، وكيف لا يكون ذلك وقد يفصلنا عنها دهر دهيٍّ لم يبق من صلب هؤلاء الملوك إلا من تثقل عليه أسماؤهم، ولا يستقيم له ضبطها أو تكوينها، ف(شَمَّر) هو ابن الهميسع بن حمير في حين أن (شَمَر) بفتح الشين وتخفيف الميم فمن خولان قضاة، وهو شَمْر بن باقر الخولاني ومنها أيضاً (شَمِرَان) أما (شَمَر) بكسر الشين وتسكين الميم فكثير في العرب، وأما الْخَنْفَرَيْنِ فهما محمد ورفاعة ولدا أبان الخنفرى الحميري، ولعلَّ طالب هذه الأسماء في كتب الأنساب العامة؛ إنَّها يطلب شيئاً عزيزاً؛ لأنَّها مقيدةٌ في مصنَّفات الهمداني التي أنهبها دهرًا من حياته، ثمَّ تناهبتها أيادي الضياع ولم يصل إلينا منها إلا قليلٌ اعتمدناه في هذا البحث أصلاً.

ونحو هذا ما نجده في أشعارهم من غرابية في أسماء البلدان والمواضع - على غير أهلها - التي بدت أشدَّ غرابيةً لقلَّة دورانها على الألسنة شأنها في ذلك شأن أسماء الملوك والأقيال كقول علقمة الخولاني الذي وصف البلاد التي سلكها من بلده إلى صعدة، ثمَّ إلى صنعاء لطلب العون والنصرة من الملك الحميري سيف بن ذي يزن على قبائل هَوَازِنَ وسُلَيْمِ^(٢):

فَلَمَّا بَطْنَا السَّهْلَ مِنْ تَحْتِ بَهْرٍ وَأَسْفَرَ مِنْ ضَوْءِ الصَّبَاحِ عُمُودُ

سَلَكْنَا بِهِنَّ السَّهْلَ سَهْلَ سَحَامَةٍ هَذَا دَمَلٌ مِنْ تَحْتِنَا وَسَمِيدُ

تَرَامَى بِنَا مِثْلَ السَّعَالِي فَجَافِجٍ وَذُو خَفَقَةٍ فَوْقَ الْقُتُودِ يَمِيدُ

طَوَيْنَ بِجَيْلِ الْخَافِقَيْنِ بِسُحْرَةٍ وَمَرَّتْ بِمَاءِ الْحَبِطِ، وَهِيَ تَهْوُدُ

(١) الديوان ق ٧٢/ب ٧-٨.

(٢) الديوان ق ١/ب ١١-١٦، ٢٢-٢٣.

وَقَدْ وَدَّعْتُ هَضْبِي ثَقِينِي مَعَ الْعَمَى بِأَوْسَطِ لَيْلٍ، وَالْعِبَادُ هُجُودُ
تَعَدَّتْ عَلَى مَاءِ الْعُمَيْشِ وَقَدْ بَدَا مِنْ الظِّلِّ مِيَّاحُ الْجَنَاحِ رُكُودُ

وقوله:

تَرَامْتُ بُبُوبَانٍ بِأَوَّلِ لَيْلِهَا وَمَاءِ أَثَافٍ وَالْعُرْيَبُ رُقُودُ
فَصَبَّحَنَ ذَا قَيْنٍ وَكَبَّرَ وَفَدْنَا وَقَدْ قَابَلَتْنَا أَنْجُمٌ وَسُعُودُ

فما (بهتر، وسهل سحامة، وماء الحبط، هضبي ثقيف، وماء العميش، وماء أثاف، وبوبان، وذوقين) إلا أسماء مواضع، يعرفها أصحابها معرفة العرب عامة (ببرقة تهمد، وحومانة الدراج، والمثمل، والرقمتان، ومدافع الريان، ومنى، والجواء) في رؤوس معلقات طرفه وزهير وليبد وعنتر، غير أن شهرة هذه المعلقة وأصحابها، وكثرة دورانها على ألسنة العامة والخاصة أسقط غرابة ما اشتملت عليه من أسماء في حين زاد بُعد شعر علقمة عن أيدي العلماء، ما حواه من أسماء وخشة وغرابة اعتاصت على الباحثين، علاوة على تقييدها في مصنفات خاصة؛ مما زاد في غمورها وضعفها. ومثل هذا ما نجده في قول الحارث السعدي^(١):

وَدَارِ بَقِيَّوَانٍ لَنَا كَانَ عِزُّهَا تَوَارَتْهَا نَسْلُ الْمُلُوكِ الْقَهَاقِمِ
وَيَسْنَمُ دَارُ الْعِزِّ مِنْ دِمْتَيْ دَفَا إِلَى أَسْفَلِ الْمِعْشَارِ فَرْعِ التَّهَائِمِ
وَدَارِ بَكْهَلَانَ لِشَبْلِ أَخِيهِمْ دَعَامَةُ عِزٍّ مِنْ تِلَاعِ الدَّعَائِمِ

ومنه قول عمرو بن زيد - مغرق الأكبر -^(٢):

فَالْحَقْتُ حَيًّا بِالصَّعِيدِ بِمَا جَنَوَا وَأَقْفَرَ مِنْهُمْ خُنْفُورٌ فَقَابِلُهُ

وكثيراً ما كان ترد أسماء قصور وحصون ذات شهرة عظيمة، بعضها لا يزال شاخاً، دالاً على حضارة أهلها، وقد دوى صيتها بعيداً في أشعار العرب كقول عمرو بن النعمان السعدي مفاخراً بملك آبائه في صرواح^(٣):

(١) الديوان ق ٧٧/ب ٣-٥.

(٢) الديوان ق ٥/ب ٢.

(٣) الديوان ق ٦٣/ب ٤.

فَمَدَّ عَلَى صِرْوَاخٍ نُعْمَى مَهَابَةٍ فَأُورِثَهَا سَعْدُ زَمَامِ الْفَوَارِسِ

وكقول عمرو بن يزيد العوفي^(١):

مِنْ أَسْفَلِ غُمْدَانٍ جَلَبْنَا جِيَادَنَا تَرَامَى إِلَيْكُمْ بِالْمُثَقَفَةِ السُّحْمِ

في حين أنَّ ما ورد في رؤوس المعلقات التي أشرت إليها، ليس سوى منابع ماءٍ وحرَّاتٍ ومواضعٍ نبت، عفا عليها الزَّمان، وتناولتها عوامله بالبلَى والدَّروس وهي ليست بشيءٍ يؤبه له إذا ما قيسَتْ إلى تلك المحافد الشاخنة.

وبعد: فإنَّ السَّمةَ الغالبة على أشعار خولان هي الوضوح والبساطة وسهولة التَّنَاول والبعد عن التَّعقيد، وهي سمةٌ عامَّةٌ في أشعار القبائل العربيَّة، التي انبرى ثلَّة من الباحثين للملمة قوافيها ودراستها مثل: كلب بن وبرة^(٢)، وحمير^(٣)، وتغلب^(٤)، وقشير^(٥)، وطَيِّئ^(٦)، ومَذْحِج^(٧)، وغيرها من دواوين الشعراء التي تنوَّلت بالدَّرس كتميم بن أبي بن مقبل^(٨)، وحميد بن ثور الهلالي^(٩)، وكعب بن مالك الأنصاري وغيرهم^(١٠).

وكيف لا تكون أشعار خولان كذلك، وأصحابها هم الأمانة في تصوير ما يدور في بيئتهم التي ظلَّت المنهل الصَّفْو الذي لا كدر فيه، لمعاني أشعارهم، متَّحوا منها صورهم المختلفة من تشبيه واستعارة وكناية

(١) الديوان ق ٤٩/ب ٤.

(٢) انظر: ديوان بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٤١٦.

(٣) انظر: شعراء حمير (الدراسة) ٣٤٨.

(٤) انظر: شعر تغلب ١: ٣٧٧.

(٥) انظر: شعراء بني قشير ١: ٢٦٤-٢٦٥.

(٦) انظر: شعراء قبيلة طَيِّئ ١: ٦٥٢-٦٥٣.

(٧) انظر: شعراء مذحج: ٢٩٤.

(٨) انظر: تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: ٢٦٢.

(٩) انظر: ديوان حميد بن ثور الهلالي: ١٦٩.

(١٠) انظر: ديوان كعب بن مالك الأنصاري: ١٢٥.

لإبراز معانيهم وزيادة إيضاحها وكشف جاهلها، يضاف إلى تلك الصور، الثراء اللغوي المتجسّد في فصاحة القول واتساق حروفه.

ولبيان ما تقدّم يجدر بنا الوقوف عند بعض هذه الصّور، والالتفات إلى قَدْرِ مشاركتها في تقديم المعنى وتوضيحه. وستناول منها التّشبيه أولاً لتقدّمه إيّاها، فمّا جاء من تشبيهاتهم في شعر الجاهليّة قول عمرو بن زيد - مغرق الأكبر - مفاخرًا بجيشه الجرّار الذي جلب نجائب الخيل من بطن تهامة، وقد أشبه الجبل الضارب في وسط المفازة^(١):

جَلَبْنَا عِتَاقَ الْخَيْلِ مِنْ بَطْنِ لَيْيَةٍ بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْبُو كَلَاكِلُهُ

وزاد على هذا التّشبيه أن جعل لهذا الجيش المضطرب لكثرتهم، جماعات تحبوا حبواً، ممّا يدلّ على استطلاته وكثرة عدده وقوّة زحفه.

وقوم عمرة الحيوانيّة الذين يُشَبِّهُونَ الأسود الضّواري في ساحات الوغى لشدّة بأسهم وفرط قوّتهم^(٢):

أُسْدٌ ضَرَاغِمَةٌ بَيَضُ غَطَارِفَةٌ غُلَبٌ جَحَاجِحَةٌ هَيْسٌ إِذَا اتَّصَلُوا

وممّا زادته في جمل هذا التّشبيه أن جعلت هؤلاء القوم بيضاً كناية عن تحدّهم من أرومة عظيمة، بل نقيّة لا تشوبها شائبة، وغطارفةً وغلباً وجحاحجةً، وهي أوصافٌ سُعيّ بها لتصوير (المثال) الذي يطمح إليه الجاهليّ من الفروسيّة، وصفاء النّسب، والسّيادة، والكرم الذي انماز به قومه حينما كانت النوائب تنزل بالقبيلة وتشتدّ الحاجة وتزداد الفاقة يبصر المرء فيهم جفاناً سوداً - لكثرة استعمالها - ملأى باللّحم المشرف منها، وكأنه أكمةٌ صغيرة^(٣):

وَالْمُطْعِمِينَ إِذَا مَا أَرْمَتْ نَزَلَتْ أَبْصَرَتْ فِيهِمْ جَفَانَ الشَّيْرِ تُهْبِلُ

قَدْ كُلَّلْتُ بِسَدِيفٍ فَوْقَ ذُرْوَيْهَا كَأَنَّ إِشْرَافَهَا مِنْ تَحْتِهَا الْأَبْلُ

(١) الديوان ق ٥/ب ١.

(٢) الديوان ق ١٢/ب ٥.

(٣) الديوان ق ١٢/ب ١٣-١٤.

ورأى علقمة الخولاني في النُّوق التي امتطها أبناءُ قومه يوم أوعروا في البلاد ميممين صوب سيف بن
ذي يزن الحميريّ لطلب العون على قبائل قيس عيلان، شبهاً بالأقواس التي تنحني بيد الفارس^(١):

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا شَحَصَتْ بِنَا رَكَائِبُ أَمْثَالِ الْعَطَائِفِ جُودُ

ورأى أيضاً في أصوات حوافرها شبهاً بأصوات أقدام المقاتلين الذين يسيرون أرتالاً بخطى واحدة^(٢):

إِلَيْكَ ابْنُ ذِي التَّاجِينَ سِرُّ نَارِ رَكَائِبًا مُوقَعَةٌ كَأَنَّهِنَّ جُنُودُ

كما شبه ابن ذي يزن بالدلو الضخمة المملوءة بالماء، لسخائه وكثرة عطائه المأمولين:

أَبَا الْمُنْذِرِ الْفَيَّاضِ يَا خَيْرَ حِمِيرٍ وَخَيْرَ بَنِي ذُهْلٍ، إِلَيْكَ تُرِيدُ

تُرِيدُ نَوَالاً مِنْ سِجَالٍ غَزِيرَةٍ فَأَنْتَ لَهَا فِي النَّائِبَاتِ مُقَيَّدُ

ومن الصور المألوفة في الشعر الجاهليّ عند خولان وغيرها الممتحة من جوّ المعركة، تشبيه كثرة الرماح
المُمطرّة على صدر الفارس بالأشطان التي لُفّ بها قليبٌ، كقول عمرو العوفيّ وهو من الشعراء
المخضرمين:

وَمُخْتَلَفُ الرِّمَاحِ عَلَى لَبَائِي كَأَشْطَانٍ أُلْفَ بِهَا قَلِيبُ

ومنها أيضاً تشبيه الفرسان بالأُسُدِ - وهي من الصور الكثيرة في الشعر القديم - لكثرة الحروب التي
كانت ديدن القوم كقوله:

أَبْصَرْتُ عَمْرًا فِي الْحَدِيدِ كَأَنَّهُ لَيْثٌ هَزْبُرٌّ فِي حَدِيدٍ أَوْرَدُ

فقد شبه خَصْمَهُ بِاللَّيْثِ وَخَصَّ لَيْثَ الْهَزْبَرِ مِنْهَا لَغَلْظَتِهَا وَشِدَّةَ بَأْسِهَا، فَالتَّشْبِيهِ هَهُنَا عَقْدُ مُقَارَنَةِ حَسِيَّةٍ
يُكْشَفُ بِهَا عَنِ الصِّلَةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ عَمْرٍو وَاللَّيْثِ الضَّخْمِ لِمَا لِلْمَشَبِّهِ مِنْ صِفَاتٍ فِي أَثْنَاءِ الْمَعْرَكَةِ تُشَبِّهُ صِفَاتِ
الْأَسَدِ الضَّارِي الَّذِي إِذَا مَا أَنْشَبَ مَخَالِبَهُ فِي فَرِيستِهِ لَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ.

ومنها أيضاً تشبيه متنيّ السيف وجانبيه بلهيب الجمر كقوله أيضاً^(٣):

(١) الديوان ق ١/ب ٤.

(٢) الديوان ق ١/ب ٧.

(٣) الديوان ق ٤١/ب ١٠.

بِكُلِّ مُهَنَّدٍ ذَكَرٍ حُسَامٍ كَأَنَّ بَصْفَ حَتِيَّتِهِ هَيْبَ جَمْرٍ

فالصفات التي جعلها في السيف؛ من طبع في الهند - وهو أشهر له - وذكر وهو ما يكون أدعى للقوة والبسل، وحسام وهو أكثر ما يكون حاداً، صارت معادلاً للهيبة الجمر في صفاته من الإحراق والكي. واتكأ على هذا لم يرم الشاعر من عقد هذا التشبيه إلى الإبانة والتوضيح التقليديين فقط، بل أراد الكشف عن التماثل الحاضر بين طرفي التشبيه، وتصويره بما يماثله تمام المماثلة^(١) وكثيراً ما أعجب القدماء بمثل هذا التشبيه لما له من قيمة فنية وتأثير في المتلقي، «إذ إن الشيء... يُشَبَّهُ بغيره إذا شابهه في أكثر أحواله وصفاته لقول ابن جني «إن العرب إذا شَبَّهت شيئاً بشيء مكنَّت ذلك الشَّبه لهما، وعمَّرت به الحال بينهما»^(٢)»^(٣).

كما وجد عمرو العوفي في جُثَّة نوال بن عتيك - غلام سيف بن ذي يزن الحميري - لما قتله شهباً بجذع النخلة اليابس الذي قطع عن أرومته^(٤):

وَقَدْ تَرَكْنَا نَوَالاً لَا حَوِيلَ لَهُ كَأَنَّهُ الْجِذْعُ، جِذْعُ النَّخْلَةِ الْقَطْلُ

ومن تشبيهاهم في العصر الأموي قول الحارث السعدي موبخاً ابن عمه عمرو بن يزيد السعدي لعدم سماعه النصيح وركوبه ركبان الغي والضلال، فقد أنهكته الحرب وأدمت ساعديه وأشتت قومه فوجد في مرارة خذلانه سماً ذعافاً أشبه بالصَّاب الذي يُعْتَصَرُ من شجرة - وهو أمرٌ من العلقم، بل هو الذيفان الممزوج بالسَّم القاتل من ساعته^(٥):

فَدُونُكَ فَاجِرْغَهَا ذُعَافاً كَأَنَّهَا مِّنَ الصَّابِ وَالذِّيفَانِ تُمَزَّجُ بِالسَّمِّ

فمرارة الهزيمة التي لحقت بعمرو السعدي تماثل الصَّاب الذي إذا نزلت منه نزية في العين تُضَعِفُ بصرها أو تكفه، بل هي سَمٌ يقتل من ساعته.

(١) الصورة البيانية في التراث البلاغي: ٩٥.

(٢) الخصائص ٣٠٤/١.

(٣) الصورة في شعر تميم بن أبي بن مقبل: ٩٥.

(٤) الديوان ق ٤٨/ب ٥.

(٥) الديوان ق ٧٨/ب ٤.

ومن الصور المألوفة في الشعر القديم، التي تطرب لها النفس وتزدهي، تشبيه ضرب الفرسان لخصومهم ومقارعتهم إياهم بضرب غرائب الإبل التي تأتي الحوض لورد الماء، فتُضْرَبُ ضرباً شديداً لمزاحمتها الصُّويجات منها^(١):

وَلْيُوثُ مُغْرِقٌ يَضْرِبُونَ فُرُوعَكُمْ ضَرْبَ الْغَرَائِبِ، أَعْرَكْتُكَ بِكَارُهَا

وخصَّ ذلك الضرب بالبكر منها، لقوّتها وفرط نشاطها الذي يقلّ في غير البكر الفتية.

وشعراء خولان إذا ما رأوا إلى تصوير فرسانهم، وسرعة إجابتهم لقائدهم – وهم الذين يفلقون الرؤوس ويكسرون الجماجم –، شبهوهم بالجمال الضخمة، وخصّوا البُزْل منها لمضائها وسرعة عدوها، قال محمد المالكي^(٢):

مَتَى أَدْعُ بِالسَّبْطَيْنِ عَوْفٍ وَمَالِكٍ يُجِنِّي حِمَاةً يَفْلِقُونَ الْجَمَاجِمَا
يَدْبُونُ حَوْلي فِي الْحَدِيدِ كَبَزَلٍ تَظَلُّ ظِمَاءٌ لِلزُّرُودِ حَوَائِمَا

فقد زاد التشبيه إيضاحاً أن جعل هذه الجمال البُزْل ظمَاءً، وهي أكثر ما تكون في ذلك الموقف هيجاناً ونشاطاً، تدور حول المنهل في قرقة حديدتها ثائرة تطمح إلى ورد الماء والدخول فيه. فأضاف إلى قوّتها الطبيعية قوّة إضافية من جانبيين، الأوّل: بأن خصَّ منها البُزْل التي تكون في سنّ فتوّتها وقوّتها، والثاني: جعلها ظمئاً. ولم يعمد الشاعر إلى المشبه به إلا لاشتراكه مع المشبه في حكم له ومقتضى، وهو الثّورة والهيجان في حالة مخصوصة، ولم يقع في الصفة نفسها وحقيقة جنسها كما يقول الجرجاني في مثل هذا^(٣).

وقوله أيضاً يشبه هؤلاء الكماة في ساحات الوغى بالأسد^(٤):

رَأَيْتَهُمْ كَالْأَسَدِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى يُعَالُونَ هَامَ الْقَوْمِ بَيْضاً صَوَارِمَا

كلُّنا يعرف ما للأسد من صفاتٍ ومزايا تجعله يتربّع على عرش الشّجاعة والجرأة. هذه الصفات هي الوسيلة التي استخدمها الشاعر للكشف عن قيمة المشبه في نفسه وعلوّ قدره، بل عبّر بها عن حجم العلاقة

(١) الديوان ق ٩٠/ب ٦.

(٢) الديوان ق ٩١/ب ٤-٥.

(٣) أسرار البلاغة ٩٨، وعنه في الصورة الفنية عند شعراء البادية في عصر صدر الإسلام ١١٥.

(٤) الديوان ق ٩١/ب ٧.

الجامعة بينه وبين فرسان قومه الذين لا يجبنون ولا يخشون في ساحات القتال. حتّى لو خسروا حياتهم، فهم كالأسد لا يقتنصون إلا الفرائس الضخمة الدسمة، كرؤوس خصومهم وزعمائهم.

وثمة تشبيه فيه من الجدة والغربة ما يستدعي الوقوف عنده، وهو تشبيه مالك بن قطينة العوفي عمرو بن حجر الخولاني يوم تركه قومه ينزل في عنز بن زائل، وحيداً غريباً، ليس له معين ولا قريب يستأنس به، بوتد تشعث رأسه وتشقق لكثرة ما ضرب، وهو ثابت على موقفه كالوتد الثابت في الأرض^(١):

فَقَدْ تَرَكُوا عَمْرَو بْنَ حُجْرٍ كَأَنَّهُ شَحِيجٌ مِنَ الْأَوْتَادِ بَيْنَ الْجَنَادِلِ

ألم الشاعر إلى شيء من الغربة التي كان يقاسيها عمرو ويدوق مرارتها في كل حين، وكيف لا وقد بات وتداً تضرب رأسه الحجارة الصلدة كلما دعت الحاجة أو هبت ريح صرصر. ولا بد أن الشاعر وصل في هذه الحالة إلى الإحساس «بتفاهة الحياة وفراغها وهشاشة الوجود الإنساني وضعفه [مما] خلق في نفسه رغبة عارمة في «التشيؤ الصلب تحديداً، فإذا أصابته أحداث الدهر نبت عنه دون أن تصيبه بأذى»^(٢)»^(٣).

وكأن عمرو بن حُجْر صار شيئاً مستقلاً عن ذاته، بل سلعة موضوعية تشبه أي شيء في المجتمع^(٤) ليواجه هذه الغربة بهذا التشيؤ الصلب. وهذا ما يساعد على كشف المستور في نفس الشاعر الذي صرف الذهن إلى المشبه به.

أما عن وظيفة التشبيه في الأمثلة السابقة وفي غيرها من شعرهم فجاءت لأغراض ثلاثة، فإمّا أنها جاءت توضيحاً لمعنى ومبالغة فيه أرادهما الشاعر كقول عمرو بن زيد الخولاني - مغرق الأكبر - في تشبيه الجيش بالطود لكثرتهم وضخامته، وكما هو الحال أيضاً في تشبيه عمرة الحيوانية أبناء قومها بالأسد الضواري في ساحات الوغى، وقول عمرو العوفي في تشبيهه كثرة الرماح على صدره، كالحبال التي لفت بئراً.

وعن هذا المعنى قال ابن الأثير: «إن التشبيه لا يُعمد إليه إلا لضرب من المبالغة، فإمّا أن يكون مدحاً، أو ذمّاً، أو إيضاحاً؛ ولا يخرج عن هذه المعاني الثلاثة...»^(٥) وإمّا إنها تأتي لاختصار المعنى وتقديمه في

(١) الديوان ق ٩٣/ب ٣.

(٢) شعرنا القديم والنقد الجديد ١٩٨.

(٣) الصورة في شعر تميم بن أبي بن مقبل ١٦١.

(٤) انظر: الإنسان والاعتراب ١٤٦.

(٥) المثل السائر ٢/١٠٢، وعنه في التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني ٩٤.

صورة مادّية محسوسة كقول عمرو بن حجر المالكيّ الذي شبّه ملك آبائه الذي تقطّعت أوصاله وخارت قوته بالليالي التي لا تبلى مسوكها^(١):

فَأَصْبَحَ ذَاكَ الْمُلْكُ بُدَّدَ شَمْلُهُ كَذَاكَ اللَّيَالِي لَيْسَ يَبْلَى مُسُوكُهَا

وإنّما أتت زينة يزوّق بها الشاعر كلامه كما جاء في وصف عمرو بن يزيد العوفيّ للسيف الذي أشبهه متنهاه لبيب الجمر، لجلائه وجودة صقله. وقبل مغادرة الحديث عن التشبيه لا بدّ من الإشارة إلى أمرٍ يُعتقَد أنّه مهمّ، وهو غياب المعاني المجردة من تشبيهاتهم، واعتمادهم على الحسيّة منها ولعلّ مردّ هذا الأمر إلى أنّ التشبيه أكثر شيوعاً من الفنون البيانيّة الأخرى في العصور القديمة التي كان الشعراء فيها أقلّ حدة في الخيال وإيغالاً وأكثر انصياعاً لأحكام العقل والمنطق، والاستعارة أكثر شيوعاً من التشبيه في العصور الابتداعيّة التي يشطح فيها الخيال، فلا يكون للعقل عليها ضابط^(٢).

ثم إنّ العلم الذي تلقّفته النفس كان عن طريق الحواس والطّباع أولاً ثمّ بعدها من جهة النّظر والرّويّة^(٣). كما يلاحظ في شعرهم قلة التشبيهات وانحسارها في مواضع محدّدة، على خلاف ما كنّا نتوقّعه من كثرة هذا اللون البيانيّ الذي نجده في أشعار غيرهم^(٤). فلم أقع على لوحاتٍ فنيّة كان التشبيه عمادها، سوى تشبيه هنا، وآخر هناك في أبياتٍ محدودة.

وقد حلّق شعراء خولان - أحياناً - بأخيلتهم معتمدين على الاستعارة في نقل صورهم، ذلك لأنّ الاستعارة ضربٌ من المجاز القائم على التشبيه، غير أنّها أكثر إمعاناً من التشبيه في الخيال، فيتحد طرفاها في كلمة واحدة، بينما يُفصلُ في التشبيه المشبّه عن المشبّه به؛ لذا قال عنها العلماء تشبيهٌ حذف أحد طرفيه^(٥).

(١) الديوان ق ٦١/ب ٢.

(٢) الصورة بين البلاغة والنقد ٤٦، نقلاً عن فنون الأدب، تشارلتين ٨٠-٨٢، ترجمة زكي نجيب محمود. ومثله في التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفنيّ ٢٣.

(٣) أسرار البلاغة: ١٢٢.

(٤) انظر: شعر مزينة في الإسلام ٤٣٨ وما بعدها. وانظر: تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره ٢٧٥، الصّورة الفنيّة في الشعر الجاهليّ ١٧٩.

(٥) انظر: الصّورة الشّعريّة ونماذجها في إبداع أبي نواس ٦٨ وانظر حوالاته ثمة.

ومن هنا تتجلى قلة الاستعارة لدى الشعراء الجاهليين؛ لأنها تتطلب قدراً من الرقي العقلي الذي يساعد على التجريد، والربط بين شيئين لا علاقة واضحة بينهما.

ومن صورهم الاستعارية قول عمرو بن زيد الخولاني - مغرق الأكبر - يفخر برجال كندة العظام، الأذكىء العارفين بخفايا الأمور، وهم مشعل يستضيء به كلما أحلك الليل سواده:

وَفِي كِنْدَةٍ الشَّمُّ الْمُلُوكُ نَقَابُهُمْ وَمَا زَالَ فِيهِمْ سَادَةٌ وَقُيُولُ
بِهِمْ أَسْتَضِيءُ الدَّهْرَ فِي كُلِّ بُهْمَةٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي فِي الْبِلَادِ دَلِيلُ

ومن الاستعارة في شعره قوله يذم بني حي على سوء فعلتهم، التي أجبرته وقومه على قتالهم وإخراجهم من ديارهم:

أَنَّ الْغَوَا مِنْ آلِ حَيٍّ قَلَدُوا إِخْوَانَهُمْ عَارًا بِفَعْلٍ يَابِسِ

فقد جعل العار ثوباً يلبس، أو شيئاً يعلّق على الصدر وما شابهه.

ولم يأت الشاعر بهذه الاستعارة إلا ليؤكد التداخل الدلالي بين قبح الفعل ومفهوم العار؛ الذي كان وما زال مرتبطاً بأسوأ ما يكون من تصرفات الإنسان، ولا سيما الجاهلي الذي تتأبى نفسه على الأفعال الوضيعة الصغيرة.

ورأى عمرو بن الحارث الحيواني في الزمان ونوائبه جملاً قد أناخ بحمله على الحارث بن الحارث بن زُرعة بن ذي غيمان الحميري، المشهور في زمانه بـ(هاتك عرشه)، كما أناخ على أذينة الحميري، المعروف بصاحب الأنواح:

بَرَكَ الزَّمَانُ عَلَى ابْنِ هَاتِكِ عَرْشِهِ وَعَلَى أُذَيْنَةِ غُدُوَّةٍ وَرَوَاحَا

ثم يرى في صوارفه في البيت التالي ملكاً عظيماً أو فارساً مغواراً استطاع أن يذبح ملوك ناعط، ويرمي بني حي بن خولان بحرب مزقت شملهم واستأصلت شأفتهم:

وَأَزَالَ عِزَّ مُلُوكٍ نَاعِطَ صَرْفُهُ لَمَّا سُقُوا كَأْسَ الْمُنُونِ دُبَاحَ
وَرَمَى بَنِي حَيٍّ فَمَزَقَ شَمْلَهُمْ وَاجْتَثَّ مِنْ عِرْقَاتِهِمْ وَاجْتَاخَا

فالزّمان الذي أشبه الجَمَلَ في إلقاء حمله وثقله، ليس وسيلةً للقضاء على هؤلاء الملوك والأقيال، وإنّما عنى الإحساس بالفناء بتعاور الأيام وتعاقبها؛ لأنَّ «الدَّهْرَ دائِمٌ التَّسلُّطُ على الحياة والوجود الإنسانيّ، والوحدات الزمانيّة وأجزاؤها الدقيقة، هي العامل المدمّر لتلك الحياة»^(١).

ووجد علقمة الخولانيّ في شخص سيف بن ذي يزن الحميريّ طبيباً يداوي جراح أبناء قومه وكلومهم إذا ما لبّى طلبته بالعون والمدد للنصرة على قبائل قيس عيلان (هَوَازِنَ وَسَلِّيمَ)، بل ذهب إلى أبعد من هذا عندما جعل هؤلاء القوم قداحاً مرتاشةً تفتاق من الملك نفسه^(٢):

صَرَفَنَ إِلَيْكَ الْقَوْمَ تَذْمَى كُلُّوْمُهُمْ لِيُذْمَلَ قَرْحُ مِنْهُمْ وَلَهُوْدُ
وَيَرْتَاشَ قِدْحُ مِنْهُمْ ذُو تَمَرُطٍ وَيَقْتَأَقَ يَوْمًا مِنْكَ وَهُوَ سَدِيدُ

ليس بخفيّ على أحدٍ دور الاستعارة في هذه اللّوحة الفنيّة في تقريب المعنى من النّفس، وتوضيح مراد الشّاعر الذي شبّه الملك الحميريّ إذا لبّى طلب القوم وأمدهم بجيش يعينهم على قبائل قيس عيلان، بالوتر الذي يدفع السّهم نحو هدفه، وما هؤلاء القوم إلا سهمٌ ارتاشت وجّهزت لخوض الحرب، وقبل هذا كانت ممرطةٌ لا ريش فيها ولا ما يسترها.

فالعلاقة قائمةٌ بين طلب القوم وهم السّهام الممرّطة وبين مدد الملك وهو حينئذٍ وترٌ لا يجيد سهمه عن الهدف والغاية.

وقد كشفت هذه الصورة الغطاء عن حالة الشّاعر النّفسية، وما يكابده من الهمّ الثقيل، والحزن المقيم لما ستنتهي إليه حال قومه من الهزيمة والشتات، إذا ما أمّدوا بجيش يعينهم على قبائل هوازن وسليم، فعمد إلى تصوير حال القوم وبُعد الطريق التي قطعوها والمخاطر المحدقة به، ليرأف بحالهم ويلبّي طلبتهم. ولكن من دون تملّقٍ أو إرافة لماء الوجه الذي ألفه شعراء التّكسّب في مثل هذا المقام من المدح.

ومن استعارتهم في عصر الخضرمة وصدر الإسلام قول عمرو بن يزيد العوفي^(٣):

فَمَا كَبَرُ يُشْنِبُ لَبَاتٍ مِثْلِي وَلَكِنْ شَيَّتُ رَأْسِي الْحُرُوبُ

(١) الصورة في شعر تميم بن أبيّ بن مقبل: ١٤٢.

(٢) الدّيان ق ١/ب ٤٢-٤٣.

(٣) الدّيان ق ٣٣/ب ١-٤.

مُغَارَاتِي لِكُلِّ صَبَاحٍ يَوْمٍ يَغُصُّكَ عِنْدَهُ اللَّيْنُ الْحَلِيبُ
وَمُخْتَلَفُ الرَّمَاكِ عَلَى لَبَاتِي كَأَشْطَانٍ أَلْفَ بِهَا قَلِيلُ
فَذَاكَ هُوَ الَّذِي أَبْلَى شَبَابِي وَأَخْلَقَهُ وَبُرَدَّتْهُ قَشِيبُ

فالحروب زمن دائر غطى رأس عمرو بالشيب، وقد رأى فيها ثوباً يبلى ويذهب جديده ويصير رثاً، وقبلها كان مزركشاً نظيفاً. ومنه قوله عندما قتل عُمارة بن مرداس السلمي، مجيئاً أحد شعراء بني جعفر بن كلاب العامري^(١) الذي توعدّه بالويل وبالمسومة الشقر من الخيل^(٢):

وَقُلْ لَابْنِ مِرْدَاسٍ يُوْطِي حَرَارَةً رَسَتْ فِي فُؤَادٍ مِنْهُ تَغْلِي عَلَى الصَّدْرِ

فقد جعل في غضب عباس بن مرداس - أخيه - ناراً حامية في صدره يغلي بها الماء إذا ما وُضِعَ فوقها، لشدة حرارتها وعلوّ وهجها، ومن ذلك قوله في أبناء قومه الذين سحقوا مَرَّ بنَ يعفر بن ناكور الحميري:

لَمَّا أَبَانَ لَنَا مُرَّ عَدَاوَتَهُ مَلْنَا عَلَيْهِ بِرَجَّاسٍ لَهُ زَحْلُ
مِنْ آلِ عَوْفٍ إِذَا جَرُّوا رِمَاحَهُمْ حَسِبْتَ مِنْهُمْ جَبَالَ الْأَرْضِ تَحْتَمِلُ
إِنْسٌ إِذَا أَمْنُوا، جَنُّ إِذَا غَضِبُوا، تَحْتَ الْعَبَاجَةِ فِي أَيَّامِهِمْ شُعْلُ

جعل الأرض بشراً ترحل وتنتقل من أماكنها وأصقعها، خوفاً وذعراً من بني عوف الذين يثّون الخوف والهلع في نفوس من يجاورهم، كما أنّ السيوف في أيديهم شعل نار مضيئة؛ لجلائها ونصاعة بياضها، وما زاد في جمال هذه الصورة الكلية لأبناء قومه، الكناية في البيت الأول عن صَحْبِ الجيش وكثرة جلبته، الذي أفنى مَرّاً وجيشه.

وتشبيه آل عوف بالبشر وطبائعهم إذا كانوا في حالة السلم، وبالجان إذا شدّوا مآزرهم لخوض حربٍ ضروسٍ، وكُنَى عن المعركة وجوهاً من صياحٍ وغبارٍ بالعجاجة.

(١) هو عروة بن عتبة الرّحال شاعرٌ مقدّمٌ وجريٌّ توعدّ عمرًا بسبب قتله عُمارة السلمي.

(٢) الديوان ق ٤٠/ب ٢.

إنَّ جوهر هذه اللَّوْحَةِ التي تشبَّك خيوطها، هو مفهوم القوَّة الذي يكاد يتردَّد في كل شطرٍ، بل يطغى أحياناً كما في البيت الثالث على الألفاظ جميعها إلا أقلَّها وكيف لا تكون القوَّة؟ وهي بانية مجد آل عوف الذي تتممه قيمٌ أخرى كالكرم والنُّبل والعفو والحكمة^(١).

ومن صورهم الاستعارية المألوفة تشبيه الحرب بالنَّاقة التي تلقح، فتحمل فتضع بكرها وهو شَبْعٌ مُكْتَنَزُ اللَّحْمِ كقول المحنون العوفي^(٢):

فَالْحَرْبُ تَعْرِفُنَا يَوْمًا إِذَا لَقِحتْ أَنَّا سَتُنْجِ مِنْهَا بِكَرْهَا رَتَعَا

ومَّا زاد في رونق هذه الصورة، هو معرفة الحرب لهم، بأنهم سينتجون منها فصيلاً شبعاً؛ إذا ما حطَّت أوزارها. ولعلَّ في هذا إضافةً جديدةً على الصَّورة المألوفة بتشبيه الحرب بالنَّاقة التي حالت. ولو لم ير الشاعر في الحرب التي يخوضها قومه ما يراه في النَّاقة ما عمد إلى هذا التجسيد الذي بُني على قوة الشَّبه بين طرفي الاستعارة التي اعتنت بمفهوم القوَّة في حياتهم.

كما نجد في شعرهم الأمويَّ ما يدلُّ على عنايته بالاستعارة أداةً من أدوات إبراز المعنى وتوضيحه، نحو هذا في قول حكيم خولان الحارث السَّعديّ، ينهى ابن عمِّه عمرو بن يزيد السَّعديّ عن الكبر والطَّغيان وإشعال الحروب، ويضرب في ذلك الأمثال والعبر^(٣):

وَقَدْ سَمِعْتَ بَيَّهْرًا يَوْمَ سَارَ بِهِمْ قَرْمٌ فَدَوَّخٌ بَذَاخًا وَجَبَّارًا
وَسَادَةٌ مِنْ بَنِي حَيٍّ أُتِيحَ لَهُمْ مِنْ أَبْوَادِ مُزَيْنٍ كَانَ مِدْرَارًا
كَأَنَّا الْمُلُوكَ وَكُنَّا نَحْنُ نَتَّبِعُهُمْ حَتَّى جَرَزْنَا لَهُمْ خَيْلاً وَأَعْمَارًا

فعطائهم سُحْبٌ حملت أمطاراً غزيرةً، ليس فوقها ماءُ البتَّة، وكأنَّه سَحًّا دراكاً مُتَّابِعاً لَكَأَكَأٍ كما جاء في وصف أحد الأعراب عن الأصمعي^(٤).

(١) انظر الديوان: ق ٣٠، ق ٣٦، ق ٣٧.

(٢) الديوان: ق ٦٥/ب ٣.

(٣) الديوان: ق ٧٣/ب ٦-٨.

(٤) انظر: كتاب وصف المطر والسحاب: ٢٩.

وشخص الحلم بخيلٍ نجيةٍ كريمةٍ تنجي مَنْ اعتلى ظهرها من الفرسان، بينما يسقط صاحب الضلالة والعقوق في قوله أيضاً^(١):

رَأَيْتُ الْحِلْمَ مُنْجِي رَاكِبِيهِ وَيَرْدَى ذُو الْغَوَايَةِ وَالْعُقُوقِ

وهذا عمرو بن زيد الغالبى أحد مساعير الحرب وفرسانها في بني غالب بن خولان، يرى في الحرب حيواناً مفترساً قد كثر عن أنيابه البيض، وقد أومض بريقها^(٢):

إِنِّي أَرَى الْحَرْبَ قَدْ أَبَدَتْ نَوَاجِدَهَا فِينَا وَأَصْبَحَ مِنْهَا ضَوْءُهَا لَمَعَا

وشبهه حقد بني سليم وعامر اللذين - بين أظهرهم - أقام زمناً بنارٍ تغلي عليه مراحلهم^(٣):

أَقَارُغُ كَيْدًا مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ وَحَقْدُهُمْ تَغْلِي عَلَيْهِ مَرَاجِلُهُ

وهذا عمرو السعدي يرى في السيوف التي سلّها الخصوم، وأعملوها في رقاب القوم شُعلاً تتقد نارها؛ لجلائها وشدة صقلها؛ وبالجيش الذي زحف نحو قومه اضطراباً يشبه البحر في صوت أمواجه المجلجلة الباعثة على الخوف والرعب^(٤):

صَاعُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَآذِي مُبْهِمَةً خُرَسَ الْعُرَى وَسُيُوفًا فِي الْوَعَى تَقْدُ

وَقَوْمُنَا مُغْرَقٌ ثَنَّنُوا بَدَاهِيَةَ وَهُمْ رَمُونَا بِرَجَافٍ لَهُ مَدَدُ

ومّا زاد في جمال هذه اللوحة أن جعل لهذا البحر أمداداً من الماء كقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]، أي يزيد فيه ماء من خلفه تجرّه إليه وتكثره، وهو يشبه جماعات العساكر التي تمّد الجيش من خلفه، لتقويته وتكثر عدده. وقد حقّق الشاعر في هذه اللوحة من التفاعل والتداخل ما جعله أكثر قدرة على العناية بالمشبه الذي أكسبه دلالاتٍ خاصّة، بل إيجائيةً بالإتيان بالمشبه به، ليضمن للمشبه مكانته وقدره في نفسه. وبهذا نستطيع أن نقدّر سبب إعجاب أرسطو بالاستعارة التي عدّها «أعظم...

(١) الديوان ق ٧٥/ب ٦.

(٢) الديوان ق ٨٢/ب ٤.

(٣) الديوان ق ٨٣/ب ٤.

(٤) الديوان ق ٨٨/ب ٣-٢.

الأساليب حقاً، فإنّ هذا الأسلوب [يعني الاستعارة] وحده هو الذي لا يمكن أن يستفيده المرء من غيره، وهو آية الموهبة، فإنّ إحكام الاستعارة معناه البصر بوجوه التشابه»^(١).

أمّا المسلم الشّهابيّ، فصوره لما كان مفاخرّاً لا تخرج عن الاعتزاز بقومه لما لهم قوّة وفرة بأسٍ برباطة جأشهم في المعركة، وكرّ جيادهم، واستعدادهم الدائم بإشرع رماحهم، وقد جليت أسلّاتها وابتضت حتّى إذا نظرت فيها العيون ازمهّرت^(٢):

يا عَمُرُو لَوْ عَايَنْتَ وَقَعَ جِيَادِنَا	لَدَقَى فُوَادُكَ حِينَ نَارَ غُبَارُهَا
وَالسَّمْهَرِيُّ شَوَارِعُ أَسْلَاتِهِ	قَدْ لَاحَ مِنْ بَيْنِ الْعَجَاجِ نِيَارُهَا
يَجْمَحْنَ بِالْفُرْسَانِ فِي رَهَجِ الْوَعَى	وَالْبَيْضُ يُفْرَعُ بِالتَّرْيِكِ غِرَارُهَا
لَعَلِمَتْ مَنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ حِسْبَةً	مِنْهُ، وَمَنْ نَشِبَتْ بِهِ أَظْفَارُهَا
تَنْفِي مَقَاوِلَ خَيْرٍ وَسَرَاتِمَا	وَبَنُو شَهَابٍ وَكُرْهَا وَقَرَارُهَا

وقوله:

لَعَلِمْتُ أَنَا فِي الْمَكْرِ مُحَامِلُهَا وَعَلِمْتُ أَنَا فِي الصَّلَاةِ جِمَارُهَا

فأسنّة الرّماح نيارٌ مشتعلّة، والمنيّة وحشٌ مفترسٌ ينشب أظفاره في جسد فريسته، وبنو شهاب بيت تطمئن إليه النفس، بل هم جمار الحرب إذا ما حمي وطيسها، بعد أن كانوا فرساناً عاديين.

لقد استطاع الشّاعر أن يطوّع اللّغة العاديّة في قالب فنيّ رائع بأن جعل الحُسْنَ واضحاً بيناً بين طرفي الاستعارة «ليكون المستعار له صالحاً لأن يجعل من المستعار ويصير فرداً من أفرادهِ، وأن يعبرَ بالثاني عن الأوّل، ولو كان الشّبه بعيداً والعلاقة خفيّة؛ لالتبس المراد وانطمست طريق الدلالة»^(٣).

وإذا كانت الاستعارة تعتمد عملية النقل في اللغة «فإنّها استعارت العربُ المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه، أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه؛ فتكون اللفظة المستعارة حينئذٍ لائقَةً

(١) في الشّعر: ١٢٨.

(٢) الدّيوان ق ٨٨/ب ١-٥، ١٠.

(٣) التصوير البيانيّ ٣٣٢.

بالشيء الذي استعيرت له، وملائمةً لمعناه^(١). وقد عمد الشاعر إلى مثل هذه المشابهات بين طرفي الاستعارة لمناسبة وقعت بينهما، ولشدة ملائمة المستعار لما استعير له، كالالتقاء الحاصل بين أسنة الرماح البيض الحادة، والنار المحرقة، والمنية والوحش المفترس وفوارس شهاب إذا اشتد أوار الحرب والجمر الحارق.

أمّا عن وظيفة الاستعارة في أشعار القوم فنجد أنّها وُظِّفَتْ لغرض توضيح المعنى والإبانة عنه، فالزمان فارس يرمي القول بسهامه التي صارت صوارفاً، فجسّد - وهو معنى عقليٍّ بمحسوسٍ كقول يعلى بن سعد المالكي^(٢):

وَلَقَدْ رَمَى الْقَيْلَ الْحَصِينَ بِصَرْفِهِ فَتَوَى وَأَصْبَحَ فِي ضَرْيَحٍ مُغْدِرٍ

وفي جعله وحشاً يُغِيرُ على الناس حتّى إنّ لا يغادر سيّداً ولا قَيْلاً^(٣):

وَلَقَدْ أَغَارَ عَلَى ابْنِ هَاتِكٍ عَرْشُهُ وَعَلَى الْخُضَارِمِ مِنْ مَقَاوِلِ حُمَيْرٍ

أم أنّها أتت لغرض تنميق المعنى وتجميله كقول عمرو بن زيد الغالبّي الذي جعل للأنفاس مقبضاً تمسك منه بعد أن وصلت فكرة المعنى:

وَحَيُّ قَيْسٍ يَسُومُ الذُّلَّ سَادَتَنَا قَدْ أَمْسَكُوا بِعُرَى الْأَنْفَاسِ وَالْكَظَمِ

وقد جاءت أيضاً لتأكيد المعنى والمبالغة فيه، وأكثر هذه الأغراض انتشاراً كان هذا الغرض في أشعار القوم كقول المسلم الشّهابي في لوحته الفنية السالفة، وعمرو الغالبّي الذي وجد في السيوف شعلاً تتقد نارها وفي الجيش بحراً تتلاطم أمواجه التي تمدّها أمواجٌ أخرى من ورائها. وكقول مالك العوفي الذي رأى في أقارب عمرو بن يزيد العوفي قوادم طير لا تساعده على التحليق^(٤):

لَيْنَ بَاعَهُمْ بِالْأَبْعَدِينَ فَأَصْبَحَتْ قَوَادِمُ عَمْرٍو نَهْضُهَا غَيْرُ طَائِلٍ

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري ٢٦٦/١، والصناعتين ٢٦٨، وانظر نحو ذلك مقدمة تفسير ابن النقيب ١٣٤ في المفارقة بين الاستعارة والتشبيه.

(٢) الديوان ق ٥٤/ب ٢.

(٣) الديوان ق ٥٤/ب ٤.

(٤) الديوان ق ٩٣/ب ٤.

وأقران هذه الصور في أشعارهم كثيرة. كما يلاحظ في أشعارهم انتشار ليس هيئاً للاستعارة وخصوصاً في صدر الإسلام والعصر الأموي.

ومن الأساليب البيانية التي توسل بها شعراء خولان في أداء معانيهم الكناية، وهي ضرب من ضروب الإيجاز يُعبّر فيها عن الشيء وذلك كأن «يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردّفه في الوجود، فيوميء به إليه، ويجعله دليلاً عليه»^(١) فمن ذلك في أشعار الجاهليين قول علقمة الخولاني مادحاً سيف بن ذي يزن الحميري يوم ساروا إليه طامعين في نواله ومدده^(٢):

إِلَى طَلِقٍ لَمْ يَعْقِدِ اللُّؤْمُ كَفَّهُ وَمَا زَنْدُهُ فِي الْمَكْرُمَاتِ صَلَوْدُ

فقوله: «لم يعقد اللؤم كفّه» «وما زنده... صلود» كنياتان عن كثرة رماده وسخائه؛ وإذا ما أرادت عمرة الحيوانية أن تعبر عن قوة بني حي وشدة فتكهم وبأن لا تُسبى نساؤهم في معاركهم التي يخوضون، تقول^(٣):

وَلَا تُسَاقُ لَهُمْ عَذْرَاءٌ إِنْ لَمَعَتْ بَوَارِقُ فِي خَمِيسٍ حَبْلُهُ تَمَلُّ

ففي أحلك الظروف والأوقات لا تُمس نساؤهم - أي الحرب - كناية عن قوتهم وبأسهم.

وقريب من هذا المعنى ما جاء في أشعار المخضرمين وصدر الإسلام الخولانيين قول عمرو بن يزيد العوفي^(٤):

وَحَرْباً تُذْعَرُ الشَّمْطَاءُ مِنْهَا وَتُطْمَثُ كُلُّ عَذْرَاءٍ وَبَكْرٍ

فتذعر الشمطاء، وتطمث... كناية عن صفة الحرب التي يخوض غمارها قومُه البُسْلُ الذي لا يجبنون ولا يخشون إذا ما قرعت طبول الحرب^(٥):

(١) دلائل الإعجاز ٦٦، ونحو هذا في الطراز ١/ ٣٦٦، ٣٧٩، والكناية في البلاغة العربية ١-٦ وفيها فصل إيضاح، وانظر:

حوالاته ثمة. وانظر: التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني ١٤٩.

(٢) الديوان ق ١/ ب ٩.

(٣) الديوان ق ١٢/ ب ١٠.

(٤) الديوان ق ٤١/ ب ٩.

(٥) الديوان ق ٣٢/ ب ٤-٥.

شِعَارُهُمْ فِي الْحَرْبِ دَعْوَةٌ كِنْدَةٌ إِذَا حَانَ مِنْ وَرْدِ الْمَنِيِّ مَشْرَبُهُ
وَلَبَسُهُمْ بَعْدَ الْمَطَارِفِ لِلْوَعَى إِذَا ثَوَّبَ الدَّاعِي مِنَ السَّرْدِ أَشْهَبُهُ

فقوله: «حان من ورد المنية شربه» كناية عن دنو الأجل واقتراب ساعته، كما كنى في البيت الثاني عن شدة استعدادهم لتلك المعركة بأنهم يلبسون من الثياب الأبيض منها والمُنَمَّق لاحتفائهم بتلك المعركة وفرحهم بما سيكون فيها.

وإذا ما أراد المسلم المالكِي تصوير لهفته على قومه وما ارتكبهه يقول^(١):

يَاهُفَ نَفْسِي عَلَى قَوْمِي وَمَا ارْتَكَبُوا مَا كَانَ يَقْبَلُ هَذَا سَادَةٌ أَنْفُ
أَبْعَدَ عَوْفٍ يُقِيمُ الْعِزَّ بَيْنَكُمْ أَهْلُ الرِّبَاطِ وَأَهْلُ النَّحْلِ إِنْ شَنِفُوا

فقوله «سادة أنف» كناية عن موصوف، وهم الذين يأبون الضيم والحيف أو كناية عن عبوسهم. وقوله «أهل الرباط» كناية عن ملازمة لثغور العدو، وقوله «أهل النحل» كناية عن كرمهم وكثرة سخائهم، وقوله: «شنفوا» كناية عن أوقات الكراهة والبغض والشدة؛ أي الحرب، وأما ما جاء في أشعار الأمويين منهم قول المسلم الشَّهَابِي واصفاً فيلق جيشهم الذي يهدي سوابق ودقها جزارها، يقول^(٢):

فِيهِ الْكُمَاةُ عَوَابِسًا تَحْتَ الْقَنَا تَسْلُ النَّزَالُ وَقَدْ بَدَتْ أَخْبَارُهَا
تَرْمِي إِلَيْكَ بِأَعْيُنٍ مُحْمَرَّةٍ وَتَسُوقُ رَيْعَانَ الْكُمَاةِ كِبَارُهَا

فقوله: «عوابسًا» كناية عن التَّجَهَّم والاكفهرار في وجوهاها. وقوله: «أعينٌ مُحْمَرَّة» كناية عن غضبها وتوترها؛ ممَّا يساعد في رسم صورة دقيقة لهؤلاء الكُمَاة العوابس.

وكثيراً ما توارد الشعراء القدماء على كناية الغضب والتوتر، باشتعال نيارٍ في جوف الإنسان كقول الشاعر:

أَخَذْنَا بَزِيدَ نَفْسٍ زَيْدٍ أَخِيكُمْ وَكَانَتْ نِيَارُ الْجُوفِ مِنِّي تَوْقَدُ

(١) الديوان ق ٦٢/ب ٦-٧.

(٢) الديوان ق ٩٠/ب ٨-٩.

فقله: «نيار الجوف» كناية الغضب في نفسه.

أما عن مصادر هذه الألوان البيانية، فمرده - كما تبين لنا من قراءة هذا المجموع الشعري - إلى البيئة الحسيّة الماديّة التي اقتنص شعراء خولان منها صورهم، وهي خاصّة تنسحب على «أشعار قبائل العرب منذ الجاهليّة إلى آخر العصر الأمويّ، ولا يشذُّ عن هذا الحكم إلا النادر من صورهم»^(١). ولعلّ هذه الحسيّة الطاغية على صورهم، جعلتهم يتواردون على صورٍ بعينها كادت تكون واحدةً لولا بعض الفروق اليسيرة^(٢).

وثمة أمرٌ لا مناص من التنبية عليه، يتّصل بسكن خولان وأمكنة إقامتها في القصور الشاهقة، وهو أمر لم نلاحظ له تأثيراً في أشعارهم كالذي نجده مثلاً عند بعض شعراء حمير على اعتبار أنّها سكنت في القصور والمحافد التي استلهم شعراؤهم منها مادة لأشعارهم^(٣). يضاف إلى هذا أنّ معظم ما استلّه شعراء خولان من صورٍ بيانيّة كان مرجعه، موضوع الفخر والحماسة، لطغيان هذا الموضوع على أشعارهم، فإنّ خولان كانت قبيلة حربٍ ولم تكن في يومٍ من الأيام هادئةً مستكينّةً.

من الأساليب التي شاركت الصّور البيانيّة في توضيح المعنى وإبراز جماله لدى شعراء خولان، ما نجده من بعض المحسنات المعنويّة مثل الطباق والمقابلة، فأما الطباق، فهو في كلامهم شعراً ونثراً الجمع بين الضدّين^(٤)، وذلك «لإثارة القارئ وإيقاظ نفسه وتعميق الشّعور بالمعنى عنده، عن طريق إبراز المفارقة بشكل أكثر جلاءً من خلال المجاورة بين الضدّين»^(٥) ومنه قول علقمة الخولانيّ في مدح سيف بن ذي يزن الحميريّ^(٦):

إِلَى طَلِقٍ لَمْ يَعْقِدِ اللُّؤْمُ كَفَّهُ وَمَا زَنَدُهُ فِي الْمَكْرَمَاتِ صَلَوُدُ

(١) ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٤٢٥ نقلاً عن العصر الجاهلي ٢٢٠-٢٢١.

(٢) انظر: العصر الجاهلي ٢٢١.

(٣) انظر: شعراء حمير (الديوان) ق ٦٠/ب ٧-١٢، ق ٥٨/ب ١، ق ٥٩/ب ١، ق ٤٢/ب ٢، ق ٤٣، ق ٤٤.

(٤) انظر: العمدة / ٥٦٥، ومقدمة تفسير ابن النقيب ٣٠٢.

(٥) البلاغة العربية في فنونها: ٢٣، وانظر: جمالية الطباق ودلالاته في شعر أبي تمام، خير الدين قبلاني - مجلة المعرفة - وزارة

الثقافة في سوريا - العدد ٥١٨ - ٢٠٠٦م - الصفحة ١١٣.

(٦) الديوان ق ١.

فهو يؤمّل رحلةً إلى كريمٍ معطاء، لم تكن يده في يوم من أيّام الكرم مغلولَةً، فطابق بين «طلق» و«صلود»
وقوله فيه أيضاً:

تَكَامَلْ فِيهِ مَنْصِبٌ لَمْ يُكَلِّمْ بِهِ وَمُلْكٌ نَمَاهُ طَارِفٌ وَتَلِيدٌ

فطابق بين كمال منصبه في قومه، الذي لم يَنْقُصْ به، بل زاد من قدره وشأنه، وبين «طارف» و«تليد»؛
ليدلّ على تأصل المُلك في أسرة ابن ذي يزن وتجذُّره فيها. وقوله في الركائب التي اعتلوا ظهورها
للولصول إلى الملك:

وَمَالَتْ إِلَى رُكْنِي عَجِيبٍ رِكَابُنَا يُقَلِّبُهَا خَفْضٌ لَهُ وَصُعُودٌ

فطابق بين «خفض» و«صعود»؛ لبيّن حجم معاناة تلك النوق وشدة إعيائها، لكثرة ما تقاذفها من
نجود الأرض وحزونها. ومنه قول عمرو بن زيد الخولاني - مغرق الأكبر - لما شاركت خولان بحرب
خزازی التي اشتدّ أوارها حتى أهلكت جموع كليب جيش اليمن^(١):

حَتَّى التَّقَيْنَا بِأَكْنَافِ الْمَسِيلِ وَقَدْ أَبْدَى لَعْمُرُكَ مَا فِي النَّفْسِ مُحْفِيهَا

فطابق بين «أبدى» و«محفيها»؛ لبيّن فتك الفرسان بعضهم ببعض، وقد بذلوا كلّ ما يملكون من قوّة وبأسٍ..

ومن أمثلة الطباق لدى المخضرمين قول عمرو بن يزيد العوفي في حجر بن الربيع:

وَحَالَفَهُ السَّادَاتُ مِنْ حَيِّ مُغْرِقٍ فَدَانَ لَهُ شَرْقُ الْبِلَادِ وَمَغْرِبُهُ

فقد طابق بين «شرق» البلاد و«غربها»؛ ليدلّل على سعة ملكه وبسطه على أراضٍ شاسعة، ونحو قوله في
بني شهاب الذين يذبّون عنه ويبدلون الغالي والرخيص في سبيل سلامته، حتى صاروا كأهله، بل أغلى^(٢):

أُولَئِكَ مَعْشَرِي وَسَرَاةُ قَوْمِي بِهِمْ أَرْضَى هُنَاكَ إِذَا غَضِبْتُ

فطابق بين «أرضى» و«غضبت»؛ لبيّن أنّ غضبه عند بني شهاب هو أحسن ما يكون من الرضى
والقبول، لشدة حبه لهم، وإخلاصه لسراتهم.

(١) الديوان ق ٦/ب ٨.

(٢) انظر: الديوان ق ٣٥/ب ٥.

ومن قوله أيضاً في أبناء عمومته بني مالك بن زيد بن أسامة الخولاني^(١):

بَنِي مَالِكٍ عُوذُوا بِفَضْلِ حُلُومِكُمْ وَلَا تَرْكَبُوا فِي غَيِّكُمْ كُلَّ بَاطِلٍ

فطابق بين «الحلم» وهو العقل والفتنة وبين «الغي» وهو الضلال والغواية، لينبّه أبناء عمّه على عظيم فعلتهم ودينئها.

ومن أمثلة الطباق في أشعار الأمويين قول المسلم الشّهابي^(٢):

يَا عَمْرُو لَوْ عَايَنْتَ وَقَعَ جِيَادِنَا لَدَفَى فُؤَادُكَ حِينَ نَارَ غُبَارِهَا

فطابق بين «دفي» و«نار»؛ ليزيد إحساسه بقوة هذه المعركة، إذ بقدر ما تكون المعركة حامية، يطمئن فؤاده ويهدأ. وقول الحارث السعدي^(٣):

فَأَجَلُّوا مُغْرَقاً وَبَنِي شَهَابٍ وَحَلُّوا فِي السُّهُولِ فِي النِّجَادِ

فطابق بين «السهول» و«النجاد»؛ ليدلّ على أنهم نزلوا عموم الأرض، ولم يفتروشوا ليناً منها، وليعمّق الإحساس بفتك آل حربٍ وشدة بأسهم.

وإذا كان الطّباق قد جاوز الجمع بين ضدين كان مقابلة^(٤) ولعلّها أبرز من الطباق وأوضح، لتقدّمها عليه باللفظ والمعنى فمن ذلك قول علقمة الخولاني في حديثه عن منازل أم الحصين التي عرفها - وهو جاهلي -^(٥):

مَنَازِلَ مِنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ عَهْدُهَا تَقَادَمَ مِنْهَا الْعَهْدُ وَهُوَ جَدِيدُ

فقابل بين «تقادم... العهد» و«وهو جديد»؛ ليثبت للسامع معرفته التامة بتلك المنازل، على الرغم من قدّم عهده بها الذي ما يزال يراه جديداً.

(١) انظر: الديوان ق ٤٥/ب ١ .

(٢) انظر: الديوان ق ٩٠/ب ١ .

(٣) انظر: الديوان ق ٧٢/ب ٧ .

(٤) العمدة ١/٥٨٣، نضرة الإغريض ١٢٥، نقد الشعر: ١٣٣ .

(٥) الديوان ق ١/ب ٢ .

ومن المخضرمين قول عمرو بن يزيد العوفي في بني أسامة بن زيد الخولاني، الذين أضاعوا ملكهم بسفاسف الأمور^(١):

أَضَاعُوا عِزَّهُمْ سَفَهًا وَنَوَكًا فَلَا حِلْمَ هُنَاكَ وَلَا اِزْعَاءَ
فَبَعْضُ فِي أَظْلَمَتِهِمْ قُودُ وَبَعْضُ ظَلُّهَا الْأُسْلُ الظَّمَاءُ

فقابل بين «السفه والنوك» والسفه: هو خفة العقل، والنوك: هو الحمق والجهل، وبين «الحلم والارعواء» والحلم: هو العقل والفتنة، والارعواء هو النزوع عن الجهل إلى التعقل والحلم. وذلك ليؤكد تفاهة سلوكهم وغباء تصرفهم، كما قابل بين القاعدين في منازلهم متفيئين، وبين القاعدين تحت ظلال الرماح. ومن ذلك قوله أيضاً مفاخر بأبناء قومه^(٢):

إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا، جَنُّ إِذَا غَضِبُوا، تَحْتَ الْعَجَاجَةِ فِي أَيَّامِهِمْ شُعْلٌ

فقابل بين «إنس إذا أمنوا» وبين «جن إذا غضبوا»؛ ليدل على أخلاقهم الحميدة، وتمسكهم بالمثل التي شربوا من مائها. وثمة ضرب.

ومن المحسنات يُعرف بحسن التخلّص «وهو أن يأخذ المؤلف في معنى من المعاني، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأوّل سبباً إليه؛ فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطع المؤلف كلامه ويستأنف كلاماً آخر؛ بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً»^(٣)، ومثاله في دالية علقمة الخولاني الذي أنفق أبياتاً منها بذكر الطلل والمحبوبة، ثم انتقل إلى موضوعه الرئيس، وهو مدح الملك الحميري سيف بن ذي يزن المؤمن في مدده وعونه لقبيلة خولان ومنّ والها من قبائل قضاة ومدحج ضدّ قبائل قيس عيلان^(٤):

سَقَى طَلًّا بِالْجُلْهَتَيْنِ رُعُودُ وَغُرَّ سَوَارٍ سَيْلُهُنَّ مَجُودُ

(١) الديوان ق ٣٠/ب ٢-٣.

(٢) الديوان ق ٤٨/ب ٣.

(٣) المثل السائر ٣/ ١٢١، ومقدمة تفسير ابن النقيب ٢٩٢ وانظر: حوالاته ثمة، وأسس النقد الأدبي عند العرب ٣٠٨ وانظر

مصادره ثمة.

(٤) الديوان ق ١/ب ١-٥.

مَنَازِلَ مِنْ أُمِّ الْحَصَيْنِ عَهْدَتْهَا تَقَادَمَ مِنْهَا الْعَهْدُ وَهُوَ جَدِيدُ
وَقَدْماً أَرَاهَا وَهِيَ جَامِعَةُ الْهَوَى يُنُوسُ بِهَا عَصْرُ الصَّبَا وَيَرُودُ
تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا شَحَصَتْ بِنَا رَكَائِبُ أَمْثَالِ الْعَطَائِفِ جُودُ
أَرَاكَ طَوَيْتَ الْكَشْحَ هَجْراً عَلَى الَّتِي كَلِفْتَ بِهَا وَالْقَلْبُ مِنْكَ عَمِيدُ

ولعلَّ هذا الموضع هو الوحيد - فيما اجتمع لدينا من أشعار خولان - من حسن التخلص وليس للمرء أن يعجب من هذا الأمر لسببين: أولاً: أن معظم ما انتهى إلينا من أشعار القوم لم يكن بالقصائد الطوال التي تحوي أكثر من غرض، بل جلُّ ما صار إلينا عبارة عن قصائد قصار ذات غرض واحد.

ثانياً: أن هذا الضرب من المحسنات المعنوية، هو ممَّا اعتنى به المتأخرون دون العرب ومن جرى مجراهم من المخضرمين، بل كانت العرب تقول عند فراغها من نعت الإبل، وذكر القفار وما هو بسيله: «دع ذا» و«عد عن ذا» يأخذون فيما يريدون، أو يأتون بـ«إنَّ» المشددة ابتداءً للكلام الذي يقصدونه^(١).

ومن المحسنات المعنوية التي تُسهم في كشف المعاني التكرار، وهو أن يكرّر الشاعر لفظاً أو معنى من المعاني، وأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وقد يستغرق التكرار شطراً كاملاً، وهو ليس بعيب في كلام العرب إذا كان عفويّاً، بل شأنه شأن الاختصار، ولكلِّ دوره في تأدية المعنى، ويأتي لأسباب متنوعة، فمنها ما يكون على جهة الوعيد والتهديد إن كان عتاباً موجعاً، ومنها ما يكون على سبيل التشويق والاستغراب، ومنها ما يكون على سبيل التنويه بالممدوح والتعظيم له^(٢)، كقول علقمة الخولاني^(٣):

أَبَا الْمُنْذِرِ الْفَيَّاضِ يَا خَيْرَ حَمِيرٍ وَخَيْرَ بَنِي ذُهْلٍ، إِلَيْكَ نُرِيدُ
نُرِيدُ نَوَالاً مِنْ سَجَالٍ غَزِيرَةٍ فَأَنْتَ لَهَا فِي النَّائِبَاتِ مُقِيدُ

(١) انظر: العمدة ١/ ٣٧٨، وعنه في أسس النقد الأدبي عند العرب ٣٠٩.

(٢) العمدة ٢/ ٨٩٨، نقد الشعر ١٩٩، التكرار في شعر الخنساء ١٧ وانظر حوالاته ثمة، أسس النقد الأدبي ٤٦٦.

(٣) الديوان ق ١/ ب ٣٨-٣٩.

وقد أراد من تكرار الفعل «نريد» تأكيد معنى واحد، وهو شدة حاجتهم إلى عطائه ونواله المتجسدين في إمدادهم بجيش يعينهم على قبائل قيس عيلان. ومن التكرار في أشعارهم ما جاء في قول عمرو بن يزيد العوفي في خبر مقتل أبناء أخيه^(١):

لَمْ يَكُنْ فِي سَرَاةٍ قَوْمِي نَظِيرٌ لَا بَنِي يَعْلَى وَمَالِكٍ وَابْنِ حَارِ
أَخَذَ الدَّهْرُ مَالِكًا وَابْنَ يَعْلَى وَابْنَ حَارٍ هُمَامَنَا بِاقْتِسَارِ

فتكرار أسماء العلم، دليل على الخطب الجلل الذي حل بهم، وعلى شدة تفجعهم وإنكسارهم بفقدهم هؤلاء الفرسان. ومنه أيضاً في أشعارهم ما جاء في قول عمرة الحيوانية حينما مدحت بني حَيٍّ وأسبغت عليهم من النعوت والصفات ما يرقى إلى المثال^(٢):

لَا يَهْجَعُونَ إِذَا مَا ضَمِيمَ جَارُهُمْ وَلَا عَلَى حُكْمٍ خَسَفٍ لِلْعِدَى نَزَلُوا
لَا يُجْبُونَ إِذَا الدَّاعِي دَعَا لَهُمْ مُحَبَّبًا عِنْدَمَا يَسْتَلْحِمُ الرَّجُلُ
وَلَا يُقْلُونَ إِنْ أَعْطَوْا لِسَائِلِهِمْ وَلَا يَضُنُّونَ بِالْمَعْرُوفِ إِنْ سُئِلُوا
وَلَا تَرَاهُمْ إِلَى جِيرَانِهِمْ فِرْقًا يَبْعُونَ فَضْلَ نَدَى مِنْهُمْ إِذَا رَمَلُوا
وَلَا تُسَاقُ لَهُمْ عَذْرَاءُ إِنْ لَمَعَتْ بَوَارِقُ فِي خَمِيسٍ حَبْلُهُ تَهْلُ

كرّر الشاعر في الأبيات السالفة النفي بـ«لا» سبع مرات؛ للتعبير عن تيقظهم وكثرة رمادهم وشجاعتهم وعزة نفسهم. ومن التكرار أيضاً ما جاء في قول المصعب الحيواني يعدد مفاخر قومه وسبقهم إلى الملك^(٣):

لَنَا الْمُلْكُ قِدَمًا لَا نُدَافِعُ دُونَهُ وَأَبْنَاءَ حَيٍّ، سَادَةً فِي الْعَبَائِلِ
سَبَقْنَا بِجَمِيعِ النَّاسِ قُوَّتًا إِلَى الْعُلَا وَآبَاؤَنَا شُمٌّ كِرَامُ الشَّمَائِلِ
إِذَا انْتَسَبَتْ خَوْلَانُ يَوْمًا وَجَدْتَنَا لَنَا الْمُلْكُ مِنْهَا وَالسَّنَا فِي الْقَبَائِلِ
وَإِنْ عَدَدَ الْأَقْوَامُ مَجْدًا وَجَدْتَنَا لَنَا الْفَخْرُ مِنْهَا فِي الْفُرُوعِ الْأَطَاوِلِ

(١) الديوان ق ٤٢/ب ١-٢ .

(٢) الديوان ق ١٢/ب ٦-١٠ .

(٣) الديوان ق ٢٢/ب ١-٥ .

لَنَا مُلْكُ خَوْلَانَ بْنِ عَمْرٍو فَسَلِّ بِنَا فَلَيْسَ خَيْرٌ بِالْأُمُورِ كَجَاهِلٍ

فتكرار «لنا» غير مرة ما هو إلا دليل على حيازتهم الملك وتجذره فيهم منذ قديم الأزل.

ومنه قول عمرو العوفي مفاخرًا بقوته وفرط بأسه^(١):

حَمَلْتُ عَلَى الْكَتَيْبَةِ مِنْ مَعَدٍّ وَلَوْ أَنِّي قُتِلْتُ لَمَّا حَفَلْتُ

حَمَلْتُ الْمُهْرَ إِذْ حَمَيْتُ لَظَاهَا وَلَا وَاللَّهِ مَا فِيهَا نَدِمْتُ

ومن الأساليب التي سخرها شعراء خولان لإيضاح معانيهم وإبرازها الأمثال الحسية؛ فالمثل يختصر حادثة معينة في بضع كلمات - لها أثرها في ذهن القارئ = مما يجلو المعنى ويشد أو أواصره في الذهن ويقربه إلى المتلقي فيكون أدعى للاقتناع بما جاء فيه، والأخذ بعبرته^(٢). وإليه انتهت البلاغة من إيجاز في اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية^(٣)، ولم تكن الأمثال التي استخدمها شعراء خولان بالكثرة على غرار ما جاء عند المولدين الذين كلفوا بها، وإليها مالت نفوسهم، وهي ميزة عامة في أشعار العرب حتى نهاية عصر بني أمية^(٤). ومن الأمثال التي وردت في أشعار خولان قول الحارث السعدي الناصح لابن عمه بأن يكف عن إثارة الفتن وإشعال الحروب، وهو لم يفعل وأصم سمعه وأغشى عينيه^(٥):

فَرُبَّ أَخٍ لِنَفْسِكَ لَمْ تَلِدْهُ لَكَ الْأُمُّ الْأَلُوفُ مَعَ الشَّقِيقِ

أفاد الشاعر من ضرب العرب للمثل «رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ»^(٦). قيل: إنه للقمان بن عاد، عندما رأى رجلاً مستخلياً بامرأة، فاتهمه فقال: من هذا؟ فقالت أختي، وصار مثلاً لغير ما قصد له؛ أي أنه يضرب في الشكاية من أقرب الناس إلى المرء؛ وكأنه ليس بأخ على ما قدم من سوء الفعل.

(١) الديوان ق ٣٥ / ب ١-٢.

(٢) انظر: العجاج، حياته ورجزه: ٣٥١ وانظر: ما كتبه الدكتور شفيق البيطار حول المثل في ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٤٣٤ وثمة حوالاته.

(٣) انظر: مجمع الأمثال ١ / ٧٠ (صادر).

(٤) انظر: العمدة ١ / ٤٦٥-٤٦٦.

(٥) الديوان: ق ٧٥ / ٢. وانظر: تفصيل المثل ثمة.

(٦) زهر الأكم ٣ / ٣٦، مجمع الأمثال (صادر) ٢ / ٤٢.

ومما ورد في الأمثال في طيّات أشعار خولان قول كُثِيرَ الشَّهَابِيٍّ^(١).

يَا خَيْرَ مَنْ أَصْبَحَتْ خَوْلَانُ تَأْمُلُهُ وقد أَتَتْهُ بِأُخْرَى جُرْعَةَ الدَّقْنِ

وكذا أفاد الشاعر من المثل القائل: «أفلت فلانٌ جريعةَ الدَّقْنِ»^(٢). وهو مثلٌ يُضْرَبُ للمفلة من الهلاك بعد قربه منه؛ أي أفلت وقد بلغت روحه موضع الدَّقْنِ، أو أن روحه صارت في فيه؛ كقرب الجرعة من الدَّقْنِ، ونجد أمثلةً أخرى استقاها القوم من أمثال العرب في شعر يعلى بن سعد المالكي^(٣) وشعر أحد المجهولين الأمويين^(٤) وكُثِيرَ الشَّهَابِيٍّ^(٥).

وإذا كان كثيرٌ من أشعار العرب قد تحوّلت إلى أمثالٍ سائرة، فإنَّ أشعار خولان لم تنل حظوة هاتيك الأشعار من السيورة والانتشار على الرّغم من وجود الحكمة في أشعارهم، وذلك لاحتجابها عن العلماء والرواة الذين عُنُوا بتدوين هذه الأمثال، ولتفرّد الهمدانيّ برواية أشعار القوم، التي تناهبتها أيادي الضياع، بضياع مؤلفاته.

وكما كانت الأمثال التي أفاد منها شعراء خولان ضرباً من ضروب معاني أشعارهم، فإننا نجد ضرباً أخرى كان لها فضلٌ في إسعافهم بالمعاني الشعريّة، منها أخبار الأمم السابقة وعبرها، وما آلت إليه أحوالها من مثل قالة الحارث السعديّ يذكر زوال ملك زهير بن جَذِيْمَةَ العبسيّ حينما جار وطغى، وابنه شأس الذي سعى إلى بسط سلطانه على أماكن شاسعة من الصحراء، ومثله كليب وائل الذي جار أيّما جور حتّى انتهى به الأمر بطعنة حرّت أحشاءه، وأردته قتيلاً^(٦):

يَا عَمْرُو يَابْنَ يَزِيدٍ لَا تَكُنْ بَطِراً فَالْحَرْبُ أَرَدَتْ زُهَيْرًا حِينَمَا جَارَا
لَمَّا مَضَى شَاسُ جَرِّ الرُّمَحِ مُعْتَرِضاً وَقَامَ يَبْرِي بِهَا نَاباً وَأَظْفَارَا

(١) الديوان ق ١٨/ب ١.

(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٥٠٤ (صادر)، المستقصى في أمثال العرب ١/ ٢٧٤، جهرة العسكري ١/ ١١٥، وثمار القلوب ١/ ٥١١.

(٣) الديوان ق ٥٤/ب ١٣ وانظر تفصيل المثل ثمة.

(٤) الديوان ق ٩٩/ب ٦ وانظر تفصيل المثل ثمة.

(٥) الديوان ق ١٨/ب ٩ وانظر: تفصيل الخبر ثمة.

(٦) الديوان ٧٣/ب ١-٦.

فَصَبَّحَتْهُ جِيَادُ الْخَيْلِ مُبَكِّرَةً فَلَمْ تُبَقِّ لَهَا غِلًّا وَلَا ثَارًا
وَالْمَرْءُ وَائِلٌ لِمَا إِنْ طَغَى، بِذَخَا أَوْدَى بِطَغْنَةِ مَحْرُورِ الْحَشَا عَارًا
لَا تَقْطَعَنَّ يَسَارًا، مِنْكَ أَيْمُنُهَا وَأَحْذَرُ أَحَادِيثَ قَدْ تُنْبِئُ وَأَخْبَارًا
وَقَدْ سَمِعْتَ بِبَهْرَا يَوْمَ سَارَ بِهِمْ قَرْمٌ فَدَوَّخٌ بِذَاخًا وَجَبَّارًا

كما أفاد الحارث نفسه من معرفته بأخبار كليب وائل وطغيانه في قومه الذي جلب له الهلاك، حتى صار فعله مثلاً تتناقله الألسن، ويحيكه الشعراء قصصاً في أشعارهم؛ لائمين كُليّاً على ما قدّمته يده من سوء الفعل^(١):

أَمَّا رَأَيْتَ كُليّاً يَوْمَ تَبَحَّ لَه مِنْ كَفِّ جَسَّاسٍ مَطْرُورٍ لَهُ شُعْلُ
نَجَابِهِ لِكَلَاهُ حَيْنَ ثَارَ عَلَى نَابِ الْبُسُوسِ، فَهَذَا فِعْلُهُ، مَثَلُ
يَحْكِيهِ فِي الشَّرِّ أَقْوَامٌ وَكُلُّهُمْ لَاؤُوا كُليّاً بِمَا قَدْ نَالَهُ الْأَجَلُ

وكثيرٌ هم الشعراء الذين متحوا من طغيان كليب مادةً لأشعارهم ومعانيهم؛ لأنّ جوره صار مضرباً للمثل.

ونجد أمثلة أخرى أفادوا فيها من أخبار الأمم الخالية في شعر يعلى بن سعد المالكي^(٢).

وثمة ضربٌ من معاني أشعارهم وهو ما أخذوه عن غيرهم من الشعراء السابقين إلا أنّ الفصل في هذا ليس هيئاً، وإنّما يبقى القول فيه على سبيل المشاكلة، ويعتمد فيه على ما أمكن من قرائن وأدلة، كقول يعلى بن سعد المالكي يذكر زوال الملوك والأقيال بتعاور الأيام ومضاهها^(٣):

ذَهَبَ الزَّمَانُ بِمُلْكِ آلِ مُحَرِّقٍ وَرَمَى صَفَاتَهُمْ يَوْمَ قَمْطَرٍ

(١) الديوان ٧٦/ ب ١-٣.

(٢) الديوان ق ٥٤.

(٣) الديوان ق ٥٤/ ب ١.

فالبيت في تصريعه وصدرة قصيدة نسجت على أوتار البحر الكامل، رويه مكسورة، حتى يكاد يكون قالباً لبيت من قصيدة عزفت أنغامها على أوتار البحر الكامل، ورويه مكسورة، لعلمة ذي جدن الحميري يذكر فيها زوال الملوك وذهاب الزمان بهم - وهو مخضرم معاصر له -:

فَتَكَ الزَّمَانُ بِحَمِيرٍ وَمُلُوكِهَا ضُورَانَ - أدركه المنون - الأكبر^(١)

على أن علقمة ذا جدن هذا كان أكثر شهرة وشعراً من يعلى المالكى، يضاف إلى هذا التشابه الحاصل في غير ما بيت منها كقول يعلى^(٢):

وَأَشَتْ كِنْدَةَ يَوْمَ فَرَّقَ جَمْعَهَا وَبَحَى كِنْدَةَ كَانَ عَظُمُ الْمَفْخَرِ

فهذا البيت يشاكل بيت علقمة ذي جدن تمام المشاكلة^(٣):

وَمَعِينُ فَرَّقَ بَيْنَ سَاكِنِ أَهْلِهَا أَرْضُ الْأَعْنَةِ وَالْحِيَادِ الضَّمَرِ

ونجد في بيت لعمر بن يزيد العوفي يذكر فيه كثرة الرماح على صدره وكأنها حبال ألف بها قلب^(٤):

وَمُخْتَلَفُ الرَّمَاكِ عَلَى لَبَائِي كَأَشْطَانٍ أَلْفَ بِهَا قَلْبُ

فصورة الأشطان هي نفسها التي انهالت على لبان الأدهم في بيت عنتره العبسي^(٥):

يَدْعُونَ عَنْرَةَ الرَّمَاكِ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بُئِرٍ فِي لَبَانِ الْأُدْهِمِ

ونجد عمرو بن يزيد العوفي يمدح فرسان قومه يوم قتلوا نوال بن عتيك غلام سيف بن ذي يزن الحميري، ومُرَّ بن سخيم بن يعثور الحميري، بقوله^(٦):

(١) ديوان شعراء حمير ق ٤٩ / ب ١٨، وضُورَانَ: بالضم، وضبط ضُورَانَ بالفتح في معجم البلدان ٣ / ٤٦٤. ولعله وهم والصواب عن التاج، فقد نصَّ الزبيديُّ على الضمِّ فقال: «وضُورَانَ بالضَّمِّ: جبل باليمن» التاج (ضرو).

وقوله: أدركه المنون الأكبر: يريد أهل ضوران.

(٢) الديوان ق ٥٤ / ب ١٧.

(٣) ديوان شعراء حمير ق ٤٩ / ب ٢٣. ومعين: اسم موضع بالجوف من أرض اليمن، فيه بناء عجيب بنته ملوك حمير.

(٤) الديوان ق ٣٣ / ب ٣.

(٥) ديوانه ٢١٦.

(٦) الديوان ق ٤٨ / ب ٣.

إِنْسٌ إِذَا أَمْنُوا، جِنٌّ إِذَا غَضِبُوا،
تَحْتَ الْعَجَاجَةِ فِي أَيَّامِهِمْ شَعْلٌ

وقد ورد هذا التعبير من ذي قبل عند زهير بن أبي سلمى في مدحه لقومٍ من غطفان يقال لهم بنو سِنَان فقال (١):

جِنٌّ إِذَا فَرَّعُوا، إِنْسٌ إِذَا أَمْنُوا مُرَزَّوْنَ بِهَالِيلٍ إِذَا جَهِدُوا

ومن ذلك أيضاً قول أبي ذؤيب الهذلي يوم فجع بأولاده الأربعة (٢):

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيْمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فأخذ المسلم الشهابي (٣) - هذا المعنى - وهو أمويٌّ -:

لَعَلِمْتُ مَنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ حِسْبَةً مِنْهُ، وَمَنْ نَشَبَتْ بِهِ أَظْفَارَهَا

ومن مصادرهم أيضاً معانٍ تناولها الشعراء منذ القديم، ومن تلك المعاني المباشرة في الغارة قبيل بزوغ الفجر كقول المقdam بن زيد الحيواني (٤):

وَنَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ عَلَى مَاءٍ قَطَقَطٍ بِكُلِّ رَقِيْقٍ الْحَدِّ مِنْ قُضْبِ الْهِنْدِ

ومثله قول عروة بن الورد في يوم الرِّقَم (٥):

نَحْنُ صَبَحْنَا عَامِراً إِذْ تَمَرَّسَتْ غَلَالَةَ أَرْمَاحٍ وَصَرَباً مُدَكِّراً

ومثله قول الأشقر السَّعْدِي (٦):

نَحْنُ صَبَحْنَا عَامِراً فِي دَارِهَا أُرُوعَ يَطْوِي الْخَيْلَ مِنْ أَظْفَارِهَا

(١) شرح شعر زهير ٢٠٤ ن برواية مختلفة عن نصرة الإغريض في نصرة القريض ٢٩٦، والحيوان ٦/ ١٨٠، سمط اللالئ ٢١٨/١.

(٢) شرح أشعار الهذليين ٨/ ١.

(٣) الديوان ق ٩٠/ ب ٤.

(٤) الديوان ق ١٤/ ب ١.

(٥) ديوانه ٦٦، مذكراً: من قولهم يوم مذكر إذا وصف بالشدة والصعوبة وكثرة القتل.

(٦) أنساب الخيل: ١٢٥.

ومثله قول ليلي الأخيلية تمدح مروان بن الحكم^(١):

وحى حريد قد صبحنا بغارة فلم يمس بيت منهم تحت كوكب

ونجد هذا المعنى في قول الأخنس بن شهاب يوم خرج في خيل بني تغلب، فأغار على بني فزارة يوم غيب^(٢):

صبحنا فزارة قبل الشروق بشم العرّانين من تغلب

وقول رجل من بني نمير^(٣):

نحن صبحنا عمراً حين ظلم ملومة ذات غبار وقتم

وقول يزيد بن حبناء في لقاء الخوارج لعتاب بن ورقاء^(٤):

صبحنا براز الروز من بغارة كورد القطا فيها الوشيح المقوم

ومما يحمل على تعاور المعاني بين الشعراء أيضاً القول: فيمن رام أمراً وأدركه، وظفر به، وفيه من الفخر المعنى الجليل كقول الحارث السعدي وقد ألبسه ثوباً من الحكمة^(٥):

فلا ترة لديهم قدّموها وهم ركن لنا واري الزناد

فله بهؤلاء القوم قوة يعتمد عليها في الملّات والنّوازل، ومثله في قول أحدهم^(٦):

قد كان في هاشم في بيت محضهم واري الزناد إذا ما أضلّد العفر

وقول هلال بن الأسعر التميمي مفتخراً^(٧):

(١) ديوانها: ٢٥

(٢) الأنوار ومحاسن الأشعار ١/ ٢٤٤.

(٣) البرصان والعرجان والعميان والحوّالان ٢٤٠.

(٤) شعر الخوارج ٨٤، براز الروز: من طسا سيج السواد ببغداد من الجانب الشرقي، الوشيح: الرماح.

(٥) الديوان ق ٧٢/ ٤.

(٦) معجم مقاييس اللغة (عفر). والعفر: الشدة والقوة.

(٧) الأغاني ٤٧/ ٣ (صادر) المرزأ هنا: الكريم الذي يصاب في ماله.

إِنْ ابْنُ كَابِيَّةَ الْمُرَزَّاءِ دَيْسَمًا وَارِي الزَّنَادِ بُعِيدَ ضَوْءِ النَّارِ
وقول رجل من غطفان يرثي رسول الله ﷺ^(١):

فَإِنْ تَبَكَّهَ تَبَّكَ وَارِي الزَّنَادِ صَدُوقَ الْمَقَالَةِ لَا يَكْذِبُ
وكقول جرير الخطفي في مدح عبد الملك بن مروان^(٢):

وَارِي الزَّنَادِ مِنَ الْأَعْيَاصِ فِي مَهَلٍ فَالْعَالِمُونَ لَمَّا يُقْضَى بِهِ تَبَعٌ
وكقول فضالة بن شريك في ذم عبد الله بن الزبير بن العوام بسبب ناقتة^(٣):

فَإِنْ وَلَيْتَ أُمَيَّةُ أَبَدَلُوكُمُ بِكُلِّ سَمِيدٍ وَارِي الزَّنَادِ
وكما ورد في شعر الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ في مقام مدح^(٤):

أَيُّهَا الْأَمْلُونُ حُطُّوا سَرِيعًا بِرَفِيعِ الْعِمَادِ وَارِي الزَّنَادِ
فهو إن جَادَ دُمَّ حَاتِمٌ طَيِّئٌ وَهُوَ إِنْ قَالَ فَلْ قُسَّ إِيَادِ
وغيره ما سقته كثيرٌ، لأن وَارِي الزَّنَادِ من المعاني التي تناولها الشعراء بكثرة في غير ما عصر.

ومن المعاني التي تناولها - وهي مما كان سائداً - قول عمرو بن يزيد العوفي: مخاطباً عباس بن مرداس السلمي وكانا على عداوةٍ مُسَعَّرَةٍ^(٥):

أَعْبَاسُ لَوْ عَايَنْتَنِي وَشَهِدْتَنِي وَفِي الْكَفِّ مَنْمُولٌ كَمُخْرَاقٍ لَأَعِبِ
فالمُخْرَاقُ هو المنديل الذي كانت الصبية تلعب به فتجعله مفتولاً، فتفزعُ به أو تضرب، بغية بثِّ الدُّعْرِ والفَزَعِ في نفوس الصبيان. فأخذه الشعراء وشبهوا الضرب بالسيف كاللَّعبِ بالمُخْرَاقِ: كقول عمرو بن كلثوم^(٦):

(١) التَّعَازِي والمراثي ٣١٤.

(٢) ديوانه ١ / ٢٩٥.

(٣) الأغاني ١٢ / ٥١ (صادر)، وعنه في خزانة الأدب ٤ / ٦٥.

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب ٣ / ١٩١.

(٥) الديوان ٣١ / ب٩.

(٦) شرح القصائد السبع الطوال ٣٩٧.

كَأَنَّ سُيُوفَنَا مِنَّا وَفِيهِمْ حَرِيقُ بَأْيَدِي لَا عَيْنَا

وقول قيس بن الخطيم^(١):

أَجَالِدُهُمْ يَوْمَ الْحَدِيقَةِ حَاسِرًا كَأَنَّ يَدَيَّ بِالسَّيْفِ مَخْرَاقَ لَا عِبِ

ومن المعاني التي يعتقد أنَّ شعراء خولان سبقوا إليها مقالة عمرو بن يزيد العوفي وهو مخضرم^(٢):

إِنَّا لَكُمْ دُونَ الْعَشِيرَةِ كُلِّهَا إِنَّ الْمَوَدَّةَ لِلْحَيِّبِ الْأَوَّلِ

يلاحظ أنَّ تشابهاً تاماً بين شطر عمرو العوفي الثاني، والسطر الثاني من بيت أبي تمام الطائي القائل فيه^(٣):

نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَيِّبِ الْأَوَّلِ

فربما تكون عبارة «الحبيب الأول» ومعناها؛ ممَّا كان شائعاً بين الناس أو يكون عمرو العوفي سبق إليها.

ومن ذلك قول عمرو بن القاسم الرّازحي - وهو جاهليّ -^(٤):

نَحْنُ الذُّوَابَةُ مِنْ خَوْلَانَ قَدْ عَلِمْتُ عَلِيًّا قُضَاعَةً أَنَا نَحْنُ نَحْمِيهَا

فعجز هذا البيت يشبه صدر بيت محمد بن أبان الخنفرّي - وهو أمويّ - من قصيدته التي يقول فيها^(٥):

قَدْ عَلِمْتُ عَلِيًّا قُضَاعَةً أَنَّنِي جَرِيءٌ لَدَتِ الْكَرَّاتِ لَا أَتَوَرَّعُ

وقول عمرو العوفيّ في خطابه لبني سعد بن سعد الخولانيّ^(٦):

مَهْلًا بِنِي سَعْدِ بْنِ سَعْدٍ عَمَّنَا إِنَّا نَصْرُنَاكُمْ وَلَمَّا نَخْذُلْ

فصدره ومعناه يشبه صدر بيت محمد بن أبان الخنفرّي الذي يقول فيه^(٧):

(١) ديوانه ٨٨، وانظر: اللسان والتّاج (خرق).

(٢) الديوان ق ٤٦/ب ٥.

(٣) ديوانه: ٢٥٣/٤.

(٤) الديوان ق ٢٠/ب ١.

(٥) شعراء حمير (الديوان) ق ١١١/ب ١.

(٦) الديوان ق ٤٦/ب ١.

(٧) شعراء حمير (الديوان) ق ١٠٨/ب ١.

فمهلّا بني سعد بن سعدٍ فإننا شحاكُ العِدا قَدَمًا سَبَقْنَا إلى الفَخْرِ
وقول عمرو بن النعمان السَّعديّ^(١):

أَبُونَا الَّذِي كَانَتْ بِصُرُوحٍ دَارُهُ وَفِي جَبَلِي رِيْمَانَ عِزٌّ تَمَكَّنَا

فصورة البيت تشبه صورة بيت محمد بن أبان الخنفريّ يوم نفى بني حرب بن خولان من اليمن إلى الحجاز^(٢):

وَفِي صُرُوحٍ كَانَ لَنَا مُلُوكٌ وَفِي رِيْمَانَ فِي الْأُمَمِ السَّخَالِي

ومما تفرّد به شعراء خولان في باب الحماسة والفخر، وكأنّه شامة في خدّ الحسنة، قول عمرو بن يزيد السَّعديّ^(٣):

يَقُولُ عَمْرُو لَنَا وَالْخَيْلُ مُشْرَعَةٌ تَحْتَ الْكُفَاةِ وَقَدْ جَالَتْ عَوَادِيهَا
مَهْلًا لَكَ الْخَيْرُ لَا تَفْعَلْ، فَقُلْتُ لَهُ: أَقْصِرْ، فَإِنَّ مُيْتَتِ النَّفْسِ مُحْيِيهَا
هَمَزْتُ مُهْرِي بِرَجُلِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: اذْهَبْ، إِلَيْكَ، فَقَدْ سَارَتْ بِمَا فِيهَا
أَكْرَهْتُهُ، فَمَضَى فِي جَوْفِ عَمْرَتِهِمْ وَالرُّمْحُ يَأْخُذُ صَيْدًا ثُمَّ يُرْدِيهَا

فهذه الأبيات ممّا أشاد بها الهمدانيّ - وهو مَنْ هو نقدًا للشعر وثقافة به = بقوله: «ما قال أحدٌ من العرب في قديمها ولا في حديثها أشجع من هذه الأبيات، وهي لا أخت لها»^(٤).

وثمّة ضربٌ آخر اقتنص شعراء خولان منه معانيهم - خلا الجاهليّين منهم - فنجد بعض المعاني المستلهمة من القرآن الكريم، منها ما يظهر فيه الأثر القرآنيّ واضحاً جليّاً، ومنها ما يظهر فيه أثر المعاني الدنيّة دون أن يكون فيه أثر قرآنيّ واضح. فمّا ظهر فيه أثر القرآن واضحاً قول عمرو العوفيّ^(٥).

(١) الديوان ق ٦٤/ب ١.

(٢) شعراء حمير (الديوان) ق ١١٤/ب ٦.

(٣) الديوان ق ٨٩/ب ١-٤.

(٤) الإكليل: «المخطوط ٩٨/١، المطبوع ٤٠٢/١».

(٥) الديوان ق ٣٠/ب ٥.

تَنَازَعَ أَمْرُهُمْ خِلَافَ بَيْنٍ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

فالشطر الثاني مستل من قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٤٠] وكذا في قوله تعالى أيضاً: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ... إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨].

ومن ذلك قول عمرو بن زيد الغالبي^(١):

عَشِيَّةَ سِرْنَا حَاشِدِينَ وَقَدْ بَدَتْ مِنْ الشَّمْسِ عَيْنٌ أَوْ تَوَارَتْ بِحَاجِبٍ

فقوله: «توارت بحاجب» مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص: ٣٢]. وكذلك في قول عمرو السعدي^(٢):

مَهْلًا لَكَ الْخَيْرُ لَا تَفْعَلْ، فَقُلْتُ لَهُ: أَقْصِرْ، فَإِنْ مُيِتَ النَّفْسُ مُحْيِيهَا

فقوله: «ميت النفس محيها» مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: ١٩]. أو من قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تَوَفَّكُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥]. وكذلك أيضاً في قول عمرو بن النعمان السعدي^(٣):

لَقَدْ أُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأُعْطِيتَ مِنْ الْمُلْكِ مَا لَمْ يُعْطَ عَمْرُو بْنُ حَابِسٍ

فقوله: «أوتيت من كل شيء» مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤].

وقول عمرو العوفي^(٤):

فَإِنْ لَنَا رُكْنَا نَلُودُ بِفَيْئِهِ فَتَفَحَّسْ مَنْ شِئْنَا، وَيُصْبِحُ فِي الرَّدَمِ

فمعنى الشطر الأول من البيت مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أُوَدِّعُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠].

(١) الديوان ق ٧٩ / ق ٢.

(٢) الديوان ق ٨٩ / ب ٢.

(٣) الديوان ق ٦٣ / ب ٢.

(٤) الديوان ٤٩ / ب ٣.

ومن أشعارهم التي جاءت متأثرة بالمعاني الإسلامية من دون أن يظهر فيها الأثر القرآني واضحاً قول عمرو بن يزيد العوفي يمدح فيها النبي ﷺ (١):

حَتَّى أَزُورَ نَبِيَّ صَدَقَ مُرْسَلًا يَأْتِيهِ وَحْيٌ بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ
مِنْ خَيْرِ بَيْتٍ فِي لُؤْيٍ بَيْتُهُ بَيْتٌ لَعَمْرُكَ فِي الرَّفِيعِ الْأَطْوَلِ

فكان عمراً استلَّ فكرة بيته الأول ولا سيَّما الشطر الثاني من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿[النجم: ٣-٥]﴾. ومن المعاني الدينية قول يزيد المتوكل (٢):

حَمَانِي إِلَهِي ذُو الْحَنَانِ بَعْبِدِهِ مِنْ الدُّبِّ لَمَّا هَمَّ بِالْعَدُوِّ فِي الْغَنَمِ
فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ كَانَ رَبِّي وَخَالِقِي أَتَى لَكَ رِزْقًا لَمْ أَقُلْ: لَا وَلَا نَعَمْ

فقد عبَّر عن إيمانه المطلق بالله عزَّ وجلَّ وعن الرضا بقضائه خيره وشره. وهذا أبو مسلم الخولاني يموت وهو طائع لله عزَّ وجلَّ (٣):

مَا عَلَّتْنِي مَا عَلَّتْنِي
وَقَدْ لَبَسْتُ دِرْعَتِي
أُمُوتُ عَنْ دَطَاعَتِي

ونجد عمرو بن زيد الغالب يردِّد فكرة نبذ البغي وتحريمه من صاحب العرش (٤):

فَوَاللَّهِ مَا خَلَيْتُ دَارِي لِمَعْشَرِي بَطَوْعٍ، وَرَبُّ الْبَغْيِ ذُو الْعَرْشِ خَاذِلُهُ

هذا ما أمكن الوقوف عليه من خصائص ومزايا في أشعار القوم، الذين تميَّزت أشعارهم بخصائص أخرى لفظية:

(١) الديوان ٤٦/ب ٨-٩.

(٢) الديوان ٦٩/ب ١-٢.

(٣) الديوان ق ١٠٠.

(٤) الديوان ق ٨٣/ب ٣.

٢ - الخصائص اللفظية

لعلّ من أهمّ ما يستوقف الباحث في دراسته للخصائص اللفظية في مجموع شعريّ ما، ثلاثة أركانٍ، أمّا أوّلها فمنهج بناء القصيدة، وأمّا ثانيها فموسيقى الشعر خارجيّة كانت أو داخلية، وأمّا ثالثها فالجانب اللّغويّ والنحويّ. وهي أركان تكوّنت منها الخصائص اللفظية لنصّ شعريّ كان أم نثريّ.

فأمّا المنهج الذي سلكه شعراء خولان في بناء نصوصهم الشعريّة، فإنّ أوّل كلمة يمكن أن تقال في هذا المقام هي قلة القصائد التامة فيما انتهى إلينا من تركة شعراء خولان مقارنة بالمقطّعات والنتف والأبيات اليتيمة، وفيما يلي جدول يبيّن غلبة المقطّعات والنتف على مجموع أشعار القوم:

أنماط النصوص	عددها	عدد الأبيات فيها	الملاحظ
المقطّعات	٥٣	٢١٢	
القصائد	٢٨	٣٢٥	
النتف	٢٢	٤٤	
الأبيات المفردة	١٦	١٦	فيها شطريّتين
المجموع	١١٩	٥٩٧	

وبالنظر إلى هذا الجدول يُلاحظ فيه أمورٌ، منها:

- غلبة المقطّعات على القصائد بقدرٍ يربي على الضّعف - على أنّ أبيات القصائد تكثرُ أبيات المقطّعات -
 أمّا إذا ما لُزّت النتف إلى المقطّعات؛ فإنّهما يبلغان خمسة وسبعين نصّاً؛ أي: أكثر من ضعفي القصائد أو ما يعادل ٦٣.٠٢٥٪ من عدد نصوص الديوان، هذا فضلاً على الأبيات المفردة التي قد تكون بقيا قصائد أو بقيا مقطّعات...

وغلبة المقطّعات على القصائد كانت من الجاهليّة حتى نهاية عصر بني أميّة، إلّا أنّ الفارق بينهم في العصر الأمويّ قليلٌ مقارنة مع ما قبله؛ ومردّد ذلك إلى ما ضاع من أشعار الجاهليّة وصدر الإسلام كان

أكثر لأسباب عدّة، منها ما ذكره ابن سلام من تشاغل الناس عن حفظ الشعر وروايته حين ظهور الإسلام، وانصرافهم عنه لما هو أنفع وأجلُّ عند الله عز وجل^(١).

كما أنَّ لِبُعْدِ خولان وسكنائها في جنوبي جزيرة العرب، تأثيراً مهماً في ضياع أشعارها، تجسّد في انعدام روايتها ودورانها على الألسنة في مراكز تطلاب الشعر من قبل العلماء والرواة خلا أشعار الفتوح، وهي قليلة جداً أو تكاد تكون معدومة في هذا المجموع الشعري.

- خلّو ما صار إلينا من قصائد جاهليّة أو غيرها من صدر الإسلام وعصر بني أميّة من المنهج التقليديّ؛ خلا دالية علقمة الخولانيّ في الجاهليّة، ولعلّ هذا الأمر عائدٌ إلى أنَّ جُلَّ شعراء خولان أهل مدر، ولم يكن لهم من صفات شعر الوبر نصيبٌ، فثمة استقرارٌ في المحافظ والقصور الشاهقة برز واضحاً في أشعارهم التي دلّلتها على صرواح وما كان من أمرٍ مُلكهم فيه لعقود عديدة، أو أن يكون هذا الخلوّ عائداً إلى قلة القصائد في الجاهليّة وغيرها، ثُمَّ إلى قصر هذه القصائد قصراً واضحاً؛ إذ بلغت أطول قصيدة اثنان وعشرين بيتاً - وهي وحيدة في طولها - وما عداها أقصر من ذلك.

فكان الشّاعر منهم يهجم على موضوعه مباشرة من دون مقدّمات، فيصيه من دون أن تعتاص لفظةٌ عليه، أو يضمّر له معنى، بل كان كثير النفاذ إلى معانٍ عميقة، جليّة، انتقت من الألفاظ ما هو لبوس لها حتى بدت صورة قشبيّة أبياته، كقول عمرة الحيوانيّة^(٢):

مَنْ ذَا كَمْثَلِ بَنِي حَيٍّ إِذَا نَزَلَتْ	أُحْدُ الْجَوَائِحِ وَالْأَرْمَاحِ تُتَبَلُّ
قَوْمٌ بَنَى لَهُمْ عِزّاً وَمَأْتَرَةً	جَدُّ كَرِيمٍ وَفَرْعٌ شَامِخٌ خَضِلُ
سَادُوا الْبَرِّيَّةَ إِذْ شَدُّوا مَازِرَهُمْ	وَفِي قُضَاعَةٍ أَرْبَابٌ فَقَدْ فَضَّلُوا
كَانُوا مُلُوكَ بَنِي عَمْرٍو وَجَوْهَرَهَا	وَالْفَاصِلِينَ إِذَا مَا حَكَّمُوا عَدْلُوا
أُسْدٌ ضَرَاغِمَةٌ بِيُضْ غَطَارِفَةٌ	غُلْبٌ جَحَاجِحَةٌ هَيْسٌ إِذَا اتَّصَلُوا
لَا يَهْجَعُونَ إِذَا مَا ضِيمَ جَارُهُمْ	وَلَا عَلَى حُكْمٍ خَسَفٍ لِلْعِدَى نَزَلُوا

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٥ / ١.

(٢) الديوان ق ١٢ / ب ١ - ٦.

ونحو ذلك قول سعد الربيعة يفخر بقومه، وبما كان لهم في صِرَواح^(١):

فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ إِذْ بَانَ سَيْفُنَا دَوَاوِينَ فِي صِرَواحِ بُنَى وَتُشَرُّ
أَقَمْنَا بِهَا وَالنَّاسُ عَنْهَا تَفَرَّقُوا فَأَنْجَدَ قَوْمٌ فِي الْبِلَادِ وَأَوْعَرُوا
إِلَيْنَا جَمِيعُ النَّاسِ تَهْوِي وَفُودُهُمْ وَكَانَ لَنَا فِيهَا الْعَدِيدُ الْمُجْمَعُ
وَصِرَواحُ كَانَتْ دَارَ جَدِّي وَوَالِدِي وَفِي يَحْبَسٍ مِنَّا مُلُوكٌ تَجَبَّرُوا

ومنه قول أحد شعراء خولان مادحاً شَرَحِيْلَ بْنَ حُجْرٍ الخولاني^(٢):

لَقَدْ لَبِسَ الْمَكَارِمَ وَاحْتَوَاهَا لَعَمْرُكُمُ شَرَحِيْلُ بْنُ حُجْرٍ
أَخُو الْغَارَاتِ، مُرْتَكِبُ الْمَعَالِي وَمُعْطِي كُلِّ مَوْجُودٍ وَذُخْرٍ

وشأن ذلك في أشعار المخضرمين كقول عمرو بن يزيد العوفي مفتخراً بفرسان قومه يوم أهلكوا
فوارس قَيْسِ عَيْلان^(٣):

أَنْخَنَا عَلَى مَاءِ الْغَمْرِ رِكَابَنَا مُحَمَّدُ الْأَعْيَانِ، سُودَ الْحَوَاجِبِ
فَبِتْنِ مَنَاخَاتٍ وَبِتْنَا كَانْنَا أَسُودٌ تَحْطَى بَيْنَ صُفٍّ الْأَخَاشِبِ
فَلَمَّا بَدَا صُبْحٌ، وَلَا حَتَّ خُيُوطُهُ نَتَلْنَا عُرَى الْمَادِي فَوْقَ الْمَنَاكِبِ

ومثله عمرو بن حجر المالكي في نطفة يتساءل عن مجيء خبر مر بن عامر مقتولاً موجهاً سؤاله لامرأة
حقيقة أو مفترضة، ويرجح الباحث أن تكون الثانية لوردها في دالية علقمة الخولاني^(٤):

أَلَا هَلْ أَتَى أُمَّ الْحَصَيْنِ بَأَنَّنَا سَقَيْنَا دُعَاةَ الشُّمِّ مُرَّ بْنَ عَامِرٍ
بِكُلِّ رُدَيْنِي ظِمَاءٍ كَعُوبُهُ وَأَبْيَضَ مِثْلَ الْبَرْقِ فِي كَفِّ ثَائِرٍ

وكذا الأمر في عصر بني أمية، إذ لم نجد من احتفى بالمنهج التقليدي، بل سارت أشعارهم التي انتهت
إلينا مثلما سارت بقية أشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام، أمّا عن دالية علقمة الخولاني التي بدا فيها

(١) الديوان ق ٢٥/ب ١-٤.

(٢) الديوان ق ٢٩/ب ١-٢.

(٣) الديوان ق ٣١/ب ١-٣.

(٤) الديوان ق ٥٨/ب ١-٢.

بروزاً للمنهج التقليدي من استحضار لصورة الطلل، والماء الذي سقى هذا الطلل، والمحبة ومنازلها، وذكريات الصَّباة والشوق إلى الديار التي عهدا، ثمَّ بعدها يذكر انطلاقته من بيت تلك المحبوبة ميمماً وجهه صوب الملك الحميريّ سيف بن ذي يزن، حيث يأخذ بناصية موضوعه الذي وطئ له، وبسط القول فيه لأكثر من أربعين بيتاً - مضمّناً إيّاه، أهوال الرّحلة وإنضاء الرّاحلة ومخاطر الدّهماء وعثارها. يقول^(١):

سَقَى طَلَّاباً جَلْهَتَيْنِ رُغُودُ وَغُرَّ سَوَارٍ سَيِّلُهُنَّ مَجُودُ
مَنَازِلَ مِنْ أُمَّ الْحَصَيْنِ عَهْدُهَا تَقَادَمَ مِنْهَا الْعَهْدُ وَهُوَ جَدِيدُ
وَقَدْماً أَرَاهَا وَهِيَ جَامِعَةُ الْهَوَى يُنُوسُ بِهَا عَصْرُ الصَّبَا وَيَرُودُ

لقد أنفق علقمة كلماته في مقدّمة الدّالية للحديث عن الطلل وسقياه بالوسمي، ثمَّ الأمطار الغزيرة التي تحيّي المكان بعد موته، وهنا تتجلّى ثنائية الحياة والموت، الحياة التي تمثّلها الأمطار، والموت الذي يمثّله الطلل، ثمَّ يقف عند المكان الذي يعرفه معرفة تامّة على بعد الزمان به، كان ما يزال جديداً في ناظره، وهنا يجدر بنا التنبية على أمرٍ مهمّ وهو أن الشّاعر الجاهليّ قلقٌ، أرقّ تجاه ما ينتظره من مصير مجهول، مثل طلل تعاقت عليه عوامل الفناء والاندثار وصار أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، غير أنّ الوسمي الذي بلل المكان بمعاني الحياة ورموزها أنقذه من برائن الموت، وإلى مثل هذا الملح د. شكري فيصل حينما ينصرف الشّعراء - في أثناء وصف الطلل - إلى تصوير حياتهم الداخليّة وما يمور فيها من مشاعر وعواطف، وأنّ كلّ شاعرٍ يلوّن الطلل بحالته النفسيّة وأفكاره الخاصّة^(٢).

ثمَّ تأخذ الأبيات بعضها بتلابيب بعضٍ للوصول إلى الغاية والمرام يقول^(٣):

أَرَاكَ طَوَيْتَ الْكَشْحَ هَجْراً عَلَى النَّي كَلِفْتَ بِهَا وَالْقَلْبُ مِنْكَ عَمِيدُ
فَقُلْتُ لَهَا: إِنِّي أَوْمَلُ رِخْلَةً إِلَى مَلِكٍ مَخْضٍ نَمَثُهُ جُدُودُ
إِلَيْكَ ابْنِ ذِي التَّاجِينَ سِرُّ نَا رَكَائِبَا مَوْقَعَةً كَأَنَّهُنَّ جُنُودُ

(١) الدّيان ق ١/ ب ١-٣.

(٢) انظر: تطوّر الغزل بين الجاهليّة والإسلام ٨٢-٨٣.

(٣) الدّيان ق ١/ ب ٥-٧.

ثم يستغرق في مدح الملك^(١):

إِلَى طَلِقٍ لَمْ يَعْقِدِ اللُّؤْمُ كَفَّهُ وَمَا زَنَدُهُ فِي الْمَكْرَمَاتِ صَلُودُ
نَمَاهُ إِلَى الْعَلِيَاءِ نَفْسٌ أَبِيَّةُ وَبَأْسُ غَدَاةِ الْبَأْسِ مِنْهُ، وَجُودُ

فغرضه الرئيس هو مدح الملك سيف بن ذي يزن الحميري، المأمول بعونه وانتصاره لخولان وحلفائها من قضاة التي امتزجت بها مذحج للوقوف في وجه قبائل قيس عيلان ومطامعها في أمكنة هاتيك القبائل لما فيها من طيب العيش ورغده.

تتوشح دالية علقمة الخولانيّ عباءة المدح القشبية، التي تنضوي تحتها موضوعات متباينة ومتلازمة، تربط بينها وحدة الشعور النفسي التي ألّفت مفردات النصّ الشعريّ؛ لأنّ الشاعر كثيراً ما يتوسّل بهذه الموضوعات «الطلل - المحبوبة - الرحلة والراحلة» للوصول إلى المدح وهو الأصل^(٢).

ترتبط هذه القصيدة بالواقع المعيش، وبالحياة الجاهليّة بأنماطها السياسيّة المختلفة ارتباطاً وثيقاً، وتدور حول أمر بعينه، تستمدّ قيمتها الفنيّة وغرضها منه، وتحمل على عاتقها هموم القبيلة بتحقيق النصر؛ لأنّ خولان ومن لاذ بفيئها من قضاة ومذحج باتت مهدّدة بحلول البلاء فيها؛ لولا نصره الملك الحميريّ لها الذي أمدها بخمسة أقيالٍ على رأس جيش جرّار كسر شوكة قيس عيلان.

لم يتجاوز علقمة مدح الملك سيف بن ذي يزن إلى غرض آخر، وهو مدح صادق صادر عن عاطفة قويّة سرت في ثنايا القصيدة وأوصالها فجعلتها نسيجاً لغويّاً واحداً تجلّى في المعجم اللّغويّ الذي التزم بخطاب الممدوح أو ما يعاضده أو ما ينتمي إليه في معظم أجزاء القصيدة التي اعتنت بجملته من القيم الاجتماعيّة الراسخة في حياة هؤلاء الأجداد.

إنّ فكرة الماء التي أحييت طلل علقمة الخولانيّ، هي فكرة الحياة نفسها التي جدّ علقمة في البحث عنها، وتوفير الأسباب اللازمة للوصول إليها، ممثّلةً بنصرة الملك الحميريّ لهم، وخصوصاً أنّ الماء اكتسب أهمية كبرى في الثقافة العربيّة في مجتمع يسوده القحط والقحل، بل غدا رمزاً للحياة لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ويغلّب الباحث أن يكون المطر في الوقفة الطلليّة التي لم يعتن بها علقمة سوى

(١) الديوان ق ١/ب ٩-١٠.

(٢) انظر: بنية القصيدة العربيّة حتى نهاية العصر الأموي «قصيدة المدح نموذجاً» ١٥٧.

في ثلاثة أبيات، موازنة رمزية للحياة التي يطلبها الشاعر لنفسه ولأهله ومن جار بحماهم، من القبائل المدعورة من سيوف قيس عيلان^(١).

أمّا المقطّعات في أشعار خولان، فكثيرة إلى درجة أنّها طاغية على كلّ أشعار الديوان، وقد يكون كثيرٌ منها بقايا قصائد تامّة، في حين لا يمنع هذا أن يكون كثيرٌ منها أيضاً وُلِدَ مقطّعةً، وهو فاش في أشعار العرب فشوّ الشعر فيهم. فكان الشاعر يقول من الكلام قدر حاجته، يوصل به معنى من المعاني، غير عابئ بالمنهج الفني الذي سينهج طريقه وإنّما تأتي كلماته عفويةً، معبرةً عما يحيش في صدره ويعتلج من رؤى.

وبالنظر إلى ما سلف يمكن القول: إنّ شعراء خولان أبانوا لِمَا كانوا عليه من سمّ مازهم من غيرهم، تجلّى ذلك بكثرة المقطّعات في أشعارهم التي صارت إلينا، يضاف إليه انحسار القصائد لديهم انحساراً واضحاً ولا سيّما الطوال منها، وهي لم تأت على المنهج التقليديّ خلا واحدة في الجاهليّة، ولعلّ انحسار شعراء خولان عن أقرانهم من شعراء القبائل الأخرى في النّفس الشّعريّ الطويل ما جعلهم دون الفحول من الشعراء الذين اهتم بهم نفرٌ غير قليلٍ من العلماء وأفردوا لهم مصنّفات جعلت أشعارهم أئمةً يُقتدى بها. وهذا لا يدعو إلى الشكّ أنّ في أشعار خولان قصائد عالية نفيسة وإن كانت قصيرةً فذلك ما زاد إلّا في حسنّها وبهائها؛ فقد «قيل لابن الزّبعرى: إنّك تقصّر أشعارك، فقال: لأنّ القصّار أولج في المسامع، وأجول في المحافل، وقال كروة أخرى: يكفيك في الشعر غرة لائحة، وسبّة فاضحة»^(٢). لكنّ «المطيل في الشعراء أهيّب في النفوس من الموجز وإنّ أجاد، على أنّ للموجز من فضل الاختصار ما لا ينكره المطيل»^(٣).

وربّما كان ضعف موضوع المدح في أشعار القوم من أسباب ندرة قصائدهم التي سلكت سبيل المنهج التقليديّ، لأنّه كثر في قصيدة المدح منذ العصر الجاهليّ إلى عصر بني أميّة أن تلتزم منهج أهل السلف كما في داليّة علقمة الخولانيّ، غير أن ملازمة المنهج التقليديّ لقصيدة المدح ليس شرطاً لازماً، فكثيرون هم الشعراء الذين يسلكون المنهج التقليديّ في أشعارهم دون أن يكون غرضهم الأوّل مدحاً^(٤).

(١) انظر: المطر في الشعر الجاهليّ ١٣٨، ١٤٣ ونحوه في بنية القصيدة الجاهليّة «الصّورة الشّعريّة لدى امرئ القيس» ١٨٧.

(٢) العمدة ٢٩٩/١ وانظر حوالاته ثمة.

(٣) العمدة ٣٠١/١.

(٤) انظر: شعراء بني كلب بن وبرة (الدّراسة) ٤٥٩، ونحو هذا في بنية القصيدة العربيّة حتى نهاية العصر الأمويّ (قصيدة المدح نموذجاً) ٨٦-٨٩.

وإذا ما أرجعنا النظر غير كَرَّةٍ في دواوين القبائل التي جمعت بأخرة من قبل ثُلَّةٍ من العلماء، فسوف يتبيَّن لنا غلبة المقطَّعات على القصائد، وهو من الظواهر الفاشية في أشعار العرب منذ الجاهليَّة إلى آخر عصر بني أميَّة، إذا ما أخرجنا من هذا الحكم الفحول من كلِّ قبيلة^(١).

أمَّا الركن الثاني من أركان الظواهر اللَّفظيَّة، فهو الجانب الموسيقيّ، الذي ينكسر على قسمين: موسيقى خارجيَّة وموسيقى داخليَّة، فالموسيقى الخارجيّة تقوم على الوزن والقافية، والموسيقى الداخليَّة تقوم على ما يُسمَّى بالمحسنات اللَّفظيَّة مثل جناس وطباق وتكرار... إلخ.

فأمَّا الموسيقى الخارجيّة القائمة على الوزن والتقفية، فبنظرة في أشعار القوم التي صارت إلينا، يتبيَّن للباحث بحور الشعر التي نسج الخولانيُّون أشعارهم عليها، وما اعترى تلك الأشعار من ظواهر عروضيَّة. ثمَّ إذا ما أُعيدَ النظر كَرَّةً أخرى يتبيَّن في القوافي روي الأشعار وما غشيها من عيوب. وفيما يأتي جدول يبيِّن بحور الشعر التي نظم عليها القوم قصائدهم ومقطَّعاتهم:

البحر	عدد النصوص	ملاحظات
الطَّويل	٥٠	
البسيط	٢١	
الكامل	١٦	
الوافر	١٦	
المتقارب	٥	
الخفيف	٤	
الرَّجز	٣	
السَّريع	١	
المتدَّارك	١	شطرٌ يتيَّم يغلبُ عليه أنَّه صدر بيتٍ
المنسرح	١	
الرَّمَل	١	

(١) انظر: ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدَّراسة) ٤٦٠ وفيها أسماء القبائل التي وقف عليها د. محمَّد شفيق البيطار وأضف إليه شعراء مذحج ٣٢١، وشعراء حمير (الدَّراسة) ٣٧٥.

يلاحظ مما سبق أنَّ شعراء خولان نظموا أشعارهم على أوزان أحد عشر بحراً، وهي: الطويل الذي بسط سلطانه على خمسين نصّاً، وأتى بعده البسيط في واحد وعشرين نصّاً، ثمّ تساوى كلّ من الكامل والوافر في ستّة عشر نصّاً لكلّ منهما، وتحتهما جاء المتقارب في خمسة نصوص، ثمّ الخفيف في أربعة نصوص، فالرجز في ثلاثة نصوص، فالسريع والمتدارك والمنسرح والرمل كلّ في نصّ واحد، كما يلاحظ استئثار البحر الطويل بصدارة البحور وطغيانه على أشعار القوم، وهي نتيجة وجدت في عددٍ من دواوين القبائل التي درست بأخرة، مثل كلب بن وبرة وحمير وتغلب وأسد ومذحج وغيرها من القبائل^(١).

ومثلها في دواوين الشعراء كحميد بن ثور الهلالي^(٢) وتميم بن أبي بن مقبل^(٣) وذلك لأنّ البحر الطويل أكثر بحور الشعر العربيّ استخداماً حتى صار القدماء يؤثرونه على غيره ويتخذونه ميزاناً لأشعارهم^(٤). وكذا الأمر فيما يخصّ البسيط والكامل، إذ يحتلان المرتبة الثانية في نسبة الشيوع في أشعار القبائل يليهما الوافر^(٥).

وثمة ظواهر عروضيّة لها أوثق الصّلة بالموسيقى المبنية على الوزن مثل ظاهر الخرم التي وردت بكثرة في أشعار العرب وفقاً لما يقول به ابن رشيق: «وقد يأتون كثيراً بالخرم، وهو ذهاب أوّل حركة من وتدّ الجزء الأوّل من البيت، وأكثر ما يقع في البيت الأوّل، وقد يقع قليلاً في أوّل عجز البيت، ولا يكون أبداً إلّا في وتدّ»^(٦) وأصل الخرم في اللّغة: ذهاب بعض الشيء، ومنه الخرم في الأنف الذي لم يبلغ الجذع^(٧)، وهو ما يشوّه الوجه، ويمسك عنه جمالاً كان فيه، وذكر أنّ الخرم يقع في كلّ بحرٍ يبدأ بتفعيلة أوّلها وتدّ مجموع وما

(١) انظر: ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدّراسة) ٤٦٢، وشعراء حمير (الدّراسة) ٣٧٧، وشعراء تغلب (الدّراسة) ٣٩٢، وشعراء بني أسد ١/٤١٧، ٤٩٦، وشعراء مذحج ٣٢٤.

(٢) انظر: ديوان حميد بن ثور الهلالي ١٩٣.

(٣) انظر: الصورة في شعر تميم بن أبي بن مقبل ٢٠٤.

(٤) انظر: موسيقى الشعر العربي لإبراهيم أنيس: ١٩١.

(٥) انظر: موسيقى الشعر العربي لإبراهيم أنيس ١٩١.

(٦) العمدة ١/٢٢٦، ونحوه في العقد الفريد ٥/٤٢٨، والوافي في العروض والقوافي: ٤٢.

(٧) انظر: الوافي في العروض والقوافي ٤٣، واللّسان والتّاج (خرم).

يبدأ بتد مجموع من التفعيلات (فَعُولُن) و(مَفَاعِلُن) و(مُفَاعِلَتُن)^(١) وعلى هذا يكون في بحور الطويل والمتقارب؛ لأنَّهما يبدأان بـ(فعولن) وفي الهزج الذي يبدأ بـ(مَفَاعِلُن)؛ وفي الوافر لأنَّه يبدأ بـ(مَفَاعِلَتُن).

غير أنَّ الخرم هذا لم يقع إلَّا في موضعين عُرِفَتْ أشعارُهُما على أوتار البحر الطويل الأوَّل منهما جاء في قول المقدم بن زيد الحَيَوَانِي^(٢):

سَارُوا إِلَيْنَا عَامِدِينَ لِدَارِنَا بِأَرْعَنَ كَابِي اللَّوْنِ، مُنْبَجِسِ الرَّعْدِ

والثاني لأحد مجاهيل الأسماء والعصور^(٣):

تَشْتُوا عَلَى صِرْوَاخٍ خَمْسِينَ حِجَّةً وَمَأْرَبُ صَافُوا رَيْفَهَا وَتَرَبَّعُوا

ومن الظواهر العروضية في أشعار القوم، التي لا تلزم سائر أبيات النص التشعيث، وهو حذف أحد متحركي التند المجموع في التفعيلة. وإنَّما سُمِّيَ المشعَّث لسقوط حركة من وتده في غير موضعها؛ ممَّا أدى إلى تشعيث الجزء، كحذف العين من (فاعلاتن) / ٥ / ٥ / ٥ / فتصبح (فالاتن) / ٥ / ٥ / ٥ /، وتنقل إلى مفعولن، وحذف العين من (فاعلن) / ٥ / ٥ / ٥ / فتصبح (فالن) / ٥ / ٥ /، وتنقل إلى فعلن بإسكان العين^(٤)، ويدخل التشعيث على أربعة أبحر: الخفيف، والمجتث، والمتدارك، والمديد، وجاء التشعيث في موضعين من أشعار القوم الذين خلت أشعارهم من المجتث والمديد. الأوَّل في قول مالك بن قطنية العوفي - وهو أموي^(٥) -

قَدْ قَتَلْنَاهُ وَاسْتَبَحْنَا حِمَاهُ وَتَرَكْنَا قَنَائَهُ مَثْبُورَهُ

فقد حذفت العين من فاعلاتن في الضرب وغدت فالاتن.

وأما الثاني فكان لأحد مجاهيل الأسماء والعصور^(٦):

حَلَّ صِرْوَاخٍ فَابْتَنَى فِي ذُرَاهُ حَيْثُ أَعْلَشِ عَاقَهُ مُحْرَابَا

(١) انظر: الوافي في العروض والقوافي ٤٢-٤٣.

(٢) انظر: الديوان ق ١٥ / ب ١.

(٣) انظر: الديوان ق ١١٨ / ب ١.

(٤) انظر: الوافي في العروض والقوافي: ١٨٥، وعلم العروض وتطبيقاته ٥٧.

(٥) انظر: الديوان ق ٩٢ / ب ٣.

(٦) انظر: الديوان ق ١١٥ / ب ١.

وثمة ظاهرة عروضية أخرى في أشعارهم وهي الكفُّ وهو حذف السَّابع الساكن من التفعيلة، وسمي مكفوفاً تشبيهاً بكُفَّة القميص الذي يُكفُّ من ذيله ويأتي الكفُّ في سبعة أبحر^(١) منها الطويل الذي جاء على أوتاره قول الحارث السَّعديّ - وهو أموي^(٢) -:

وَدَارِ بَكْهَلَانَ لِشَبْلٍ أَخِيهِمْ دَعَامَةٌ عِزٌّ مِنْ تِلَاعِ الدَّعَائِمِ

فالناظر في البيت يجد أنَّ (مَفَاعِلُنْ) // ٥ / ٥ / ٥ في صدر البيت قد اعترها الكفُّ، فسقط السَّابع الساكن منها، لتصير مفاعيل // ٥ / ٥ / .

ولو صرف الشاعر «بكهلان» لما احتاج إلى الكفِّ؛ لكنه جعل الاسم ممنوعاً من الصرف للعلل التي فيه من العلميَّة وزيادة الألف والنون.

ومن الظواهر العروضية الملاحظة في أشعار القوم الطَّيِّ، وهو حذف الرَّابع الساكن من التفعيلة، وسمي مطوياً؛ لأنَّ الحرف الرَّابع يكون في وسطه تسبقه ثلاثة حروف، وتليه ثلاثة حروف، فإذا حذف ذلك الحرف تساوت حروف ما بقي من الجانبين، فُشِّبَ بالثوب الذي يطوى من وسطه، ويكون بحذف واو (مفعولات) // ٥ / ٥ / ٥ فتصبح مفعلات // ٥ / ٥ / ، وتنقل إلى فاعلات^(٣)، ومنه في قول عمرو بن يزيد العوفي^(٤):

لَكِنْ إِحْدَى الْيَدَيْنِ طَاحَ بِهَا الْمَيْلُ فَزَالَ الْعِنَاجُ وَالْكَرْبُ

ومن الظواهر العروضية في أشعار الخولانيين القَطْعُ وهو ذهاب ساكن الوجد المجموع من آخر التفعيلة مع إسكان ما قبله، وسمي بذلك؛ لأنَّه قطعت حركة وتده، ويدخل في أربعة أبحر^(٥) منها الكامل^(٦)، الذي دخله القطع في قول عمرو بن الحارث الحيواني^(٧):

(١) الأبحر هي: الرمل، والمديد، والخفيف، والمجتث، والهنزج، والمضارع، والطويل ويدخل على الوافر بشرط عصب الجزء الذي يدخله الكف. انظر: الوافي في العروض والقوافي ٤٢، وعلم العروض وتطبيقاته ٤٨.

(٢) انظر: الديوان ق ٧٧ / ب ٥.

(٣) انظر: الوافي في العروض والقوافي: ١٤٩، علم العروض وتطبيقاته: ٤٦.

(٤) انظر: الديوان ق ٣٤ / ب ٤.

(٥) الأبحر هي الكامل، والرجز، والبسيط، والمتدارك.

(٦) انظر: الوافي في العروض والقوافي: ٨٤، العمدة ١ / ٢٣١، علم العروض وتطبيقاته: ٥٥.

(٧) انظر: الديوان ق ٢٣ / ب ٣.

وَرَمَى بِنِي حَيٍّ فَمَزَقَ شَمْلَهُمْ وَاجْتَثَّ مِنْ عِرْقَاتِهِمْ وَاجْتَاَحَا

أصاب الضرب (اجتاحا) القطع، فحذف نون متفاعلين // ٥ // ٥ فصارت متفاعل // ٥ // ٥، وقد التزم الشاعر هذا القطع في ضرب الأبيات جميعها، كما يلاحظ إصابتها بالإضمار وهو تسكين الثاني المتحرك من التفعيلة. وسمي مُضْمَرًا؛ لأنه أخذت حركته وترك ساكنًا، ويجوز أن ترجع إليه حركته فيصير إلى ما كان عليه، فشبّه بالاسم المضمَر الذي يجوز إظهاره كما يجوز إضماره. ولا يكون الإضمار إلا بإسكان تاء مُتَّفَاعِلُنْ فتصبح مُتَّفَاعِلُنْ، لأنه لا يوجد ثان متحرك إلا في مُتَّفَاعِلُنْ، ولا يدخل الإضمار إلا في الكامل، وهو حَسَنٌ^(١) ولم يلتزم الشاعر الإضمار في الأبيات جميعها مثلما فعل في القطع، بل جاءت في ضربين منفردين^(٢).

ومما لا شك فيه أن ما أصاب أشعارهم من خَرَمٍ وكَفٍّ وتشعِيثٍ وطِيٍّ وغيرها من الظواهر العروضية أدّى إلى اضطراب في الموسيقى الخارجية التي يمكن أن تُعدَّ حُلَّةً قشبيّةً لكلام منظوم، وشأنهم في هذا الاضطراب، شأن أشعار القبائل الأخرى التي لا يكاد يخلو منها ديوان قطّ.

أمّا الشقّ الثاني الذي تقوم عليه الموسيقى الخارجية إلى جانب الوزن. فالقافية التي عدّها ابن رشيق «شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولا يُسمّى شعراً حتى يكون له وزنٌ وقافية»^(٣).

وإذا ما دأب الباحث في النظر إلى قوافي القوم التي صارت إلينا، سيخلص إلى أن حروف الروي السلسلة كالراء واللام والدال غلبت على قوافيهم، ويبيّن الجدول الآتي عدد النصوص التي جاءت على كل روي:

الحرف	الروي	عدد النصوص	ملاحظات
١	ر	١٩	
٢	ل	١٨	
٣	د	١٦	
٤	ب	١٣	

(١) انظر: الوافي في العروض والقوافي: ٨٥، العقد الفريد ٥/ ٤٥٧، موسيقا الشعر العربي - د. عيسى العاكوب: ٣٠.

(٢) جاء الإضمار في البيت الثاني والرابع من القصيدة السالفة الذكر، انظرها في الديوان: ق ٢٣/ ب ٢، ٤.

(٣) العمدة ١/ ٢٤٣.

٥	م	١٢	
٦	ن	٨	
٧	ي	٦	
٨	ع	٦	
٩	ف	٥	
١٠	ح	٣	
١١	س	٣	
١٢	ك	٣	
١٣	ت	٢	
١٤	ق	٢	
١٥	ء	١	
١٦	و	١	

يتّضح من الجدول السابق أمورٌ عدّة، منها:

- نظمهم قوافيهم - على قَلَّتْها - على ستّة عشر حرفاً، ونكوصهم عن بقية الحروف وهي الشاء والجيم والحاء والدّال والزّاي والشّين والصّاد والضّاد والطّاء والظّاء والغين والهاء. وقد اعتاصت هذه الحروف عليهم لعتياصها على غيرهم من الشعراء، وشخّ أصولها مقارنة بغيرها من الحروف كالدّال والرّاء واللام. على أنّ بعض شعراء خولان قد أمسكوا بناصية بعض الحروف العويصة كالواو والهمزة، فنظموا عليها وولجوا خدورها، إلّا أنّ هذا لم يكن إلّا في موضعين فقط^(١).

- غلبة حروف (الرّاء واللام والدّال والميم والباء) على غيرها من الحروف، واستثّارها بقوافي ما صار إلينا من أشعار خولان، عائداً إلى كثرة الأصول اللّغويّة المبنية عليها، يلاحظ ذلك بنظرة سريعة في معجمات اللّغة، ولا سيّما الرّاء الذي انتهب خمسة أسفار من تاج العروس، وما كان للزّبيديّ ذلك إلّا لكثرة أصول الرّاء عند العرب - استواؤهم - تقريباً مع أقرانهم من شعراء القبائل الأخرى فيما نظموا عليه أشعارهم من حروف،

(١) انظر: ق ٣٠، ق ٥٥.

فهذه حمير نظمت قوافيها على واحدٍ وعشرين حرفاً، كانت التقدمة فيها للرّاء والباء والدّال واللام والميم^(١). ومُدْحَج التي عدّدت قوافيها واحد وعشرين حرفاً أيضاً تقدمها الدّال والرّاء والميم واللام^(٢) ونظمت كلب ابن وبرة قوافيها على عشرين حرفاً، تصدرها الرّاء والباء واللام والميم والنون والدّال^(٣). وبهذا يقترب شعراء خولاء من أقرانهم فيما تحيروه من حروفٍ لينة سلسة لقوافيهم التي لم تسلم من بعض العيوب كالإيطاء والسّناد.

فأمّا الإيطاء فيعني تكرار لفظٍ القافية ومعناها قبل مرور سبعة أبيات. وإذا اتّفقت اللفظتان دون معنيهما لم يكن إيطاءً عند أحد من العلماء إلا الخليل وقدامة بن جعفر^(٤) وجاء ذلك في أربعة مواضع من شعرهم كقول عوف الخولاني^(٥):

وإنَّ يَكْ عِزٌّ فِي رِبْعَةٍ سَعْدِهَا فَعِزُّ بَنِي حَيٍّ سَرَى فِي الْقَبَائِلِ
ثم جاء بعد أربعة أبيات بقوله:

وَإِنِّي لَمَنْ فَرَعِي عَدِيٍّ كِلَيْهِمَا وَمَشْهُدٌ قَوْمِي ثَابِتٌ فِي الْقَبَائِلِ
ومثله في قول جابر الربيع^(٦):

يُرَاسِلُنِي سَعْدُ بْنُ عَمْرٍو مُعَذِّراً وَلَسْتُ لِأَفْعَالِ الْعَشِيرِ بِحَامِدٍ

ثم قوله في البيت الرابع:

وَلَيْسَتْ بَنُو سَعْدٍ بِشَاكِرَةٍ لَكُمْ وَمَا كُلُّ مَا أَوْلَيْتَ عُرفاً بِحَامِدٍ

ومثل ذلك أيضاً في قول الحارث السعدي^(٧):

(١) انظر: شعراء حمير (الدراسة) ٣٨٣.

(٢) انظر: شعراء مدحج ٣٢٨-٣٢٩.

(٣) انظر: ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٤٦٤.

(٤) انظر: القوافي للأخفش ٥٥ وما بعدها، والعمدة ١/ ٢٧٢-٢٧٣، الوافي في العروض والقوافي ٢٤٢، وانظر: نقد الشعر

١٨٧، وكتاب القوافي للتتوخي ١٢٥.

(٥) الديوان ق ١٠/ ب ٤، ٨.

(٦) الديوان ق ٢٤/ ب ١، ٤.

(٧) الديوان ق ٧٥/ ب ٦، ٨.

رَأَيْتُ الْحِلْمَ مُنْجِي رَاكِبِهِ وَيَرْدَى ذُو الْغَوَايَةِ وَالْعُقُوقِ
فيعطف بعد بيت واحد فقط بقوله:

أُحْيِيهِ نَحْيَةً ذِي حَفَاظٍ فَيُلْقِي بِالتَّجَنِّي وَالْعُقُوقِ
ومثله في قول عمرو السعدي^(١):

مِثْلُ الْبُدُورِ نُوَلِّي الْبَيْضَ هَامَهُمْ صَرَبًا لَعَمْرُكَ مَا فِي قَدِّهِ أَوْدُ
ثم جاء في البيت التاسع بقوله:

وَالْحُجْرُ، حُجْرُ أَبَانٍ قَدْ تَنَاوَلَهُ مِنْهُمْ لَهْ فِي صَوْلِهِ أَوْدُ

فهذا ما جاء في أشعارهم من إبطاء غير مُبَرَّرٍ، وهو من أهم عيوب القافية، وما عدا ذلك فكان في ثلاثة مواضع على مذهب الخليل وقدامة بن جعفر في قول علقمة الخولاني^(٢):

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا شَحَصَتْ بِنَا رَكَائِبُ أَمْثَالِ الْعَطَائِفِ جُودُ

ثم يقول بعد ستة أبيات مادحاً سيف بن ذي يزن الحميري:

نَمَاهُ إِلَى الْعُلَيَاءِ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ وَبَأْسُ غَدَاةِ الْبَأْسِ مِنْهُ، وَجُودُ

ومثل هذا في قول عمرو بن يزيد العوفي^(٣):

نُجَيْرٌ يَوْمًا خَفَارَاتٍ وَنُنْقِذُهَا وَنَحْنُ نَذْفُنْ سَادَاتٍ لَهُمْ خَطَرُ

ثم بعد بيتين اثنين يقول:

إِمَّا صَبَرْنَا عَلَى مَا كَانَ مِنْ أَوْدٍ يَوْمًا وَإِمَّا جَرَتْ فِي حُكْمِهَا الْخَطَرُ

وقول عمرو بن زيد الغالبي^(٤):

أَمْسَتْ مَنَازِلُنَا بِالْجَوِّ شَاسِعَةً وَنَحْنُ إِخْوَتُكُمْ فِي نَبْعَةِ الْكَرَمِ

(١) الديوان ق ٨٧/ب ٣، ٩.

(٢) الديوان ق ١/ب ٤، ١٠، وانظر: دالية علقمة الخولاني وبيتمته «دراسة في البنية اللغوية والإيقاعية» إعداد: هفل اليونس بحث نشر في مجلة جامعة حلب، العدد ٦٧، عام ٢٠٠٩.

(٣) الديوان ق ٤٣/ب ٦، ٨.

(٤) الديوان ق ٨٥/ب ٣، ٧.

ثم قوله بعد أربعة أبيات:

أَنْتُمْ زَعَمْتُمْ بِأَعْلَى ذُرْوَةٍ رُفِعَتْ مِنْ سِرٍّ خَوْلَانٍ مَنْسُوبُونَ بِالْكَرَمِ

ففي المواضع السابقة اتفقت القافية باللفظ، واختلف معناها وهو ما لا يعدّه كثيرٌ من العلماء إيطاءً سوى الخليل وقدامة بن جعفر.

أمّا وقد جاء الإيطاء في موضع آخر يمكن تسويغه، فذلك في قول يعلى بن سعد المالكيّ الذي روى له الهمداني قصيدةً بروايتين متقاربتين يرافق ذلك التقارب اختلافٌ بسيط في بعض الأبيات، ممّا دعاني إلى صناعة قصيدة واحدة من كلتا الروايتين، يعرّاض الأبيات بعضها على بعض حتى قرّر كل بيت في موضعه متساوياً مع سابقه ولا حقه. فوقع الإيطاء في أبيات هذه القصيدة المصنوعة مرتين الأولى في قوله^(١):

وَمُلُوكُ كِنْدَةَ، مَا أَقَالَ لِحَيْرِهِمْ خَلَفَ الْحِجَابِ فِي الرَّعِيلِ الْمُضَحَّرِ

ثم قوله بعد ثلاثة أبيات - وقد أضفت رواية الجزء الثامن من الإكليل إلى رواية الجزء الأول ولفقت بينهما:

وَعَزَا بَنِي حُجْرٍ، فَصَاحَ بِحَيْرِهِمْ كَبَشُ الْكَتِيْبَةِ فِي الرَّعِيلِ الْمُضَحَّرِ

أما الإيطاء الثاني فكان في قوله:

وَعَلَا ابْنُ هَنْدٍ عَمَرُو، خَبَطُ زَمَانِهِ مَاوَى الطَّرِيدِ وَرَأْسَ آلِ الْمُنْذِرِ

ثم يقول بعد بيتين اثنين:

وَأَحَانَ ذَا الْيَوْمَيْنِ رَيْبُ زَمَانِهِ عَمَرُو بْنُ هَنْدٍ خَيْرُ آلِ الْمُنْذِرِ

وما عدا ما مثّل به سابقاً فليس في أشعارهم إيطاءٌ - الذي لم نلحظه في أشعار المخضرمين منهم البتة. ونجد أن عيباً آخر وقع في قوافيهم وهو السّناد الذي يعني كلّ فسادٍ قبل حرف الروي في القافية^(٢)، ويقفه الزّجاجيُّ على «كلّ عيب يلحق بالقافية ما خلا الإقواء والإكفاء والإيطاء، وهذا قولٌ فيه اختصار وبيان»^(٣) وهو أنواع؛ منها سِنَادُ الْحَدُو، وهو اختلاف حركة الحرف الذي قبل الرّدف^(٤) كقول الحارث السّعديّ^(٥):

(١) الديوان ق ٥٤/ب ١٢، ١٥، ١٦، ١٨.

(٢) انظر: القوافي للأخفش: ٥٣-٥٥.

(٣) العمدة ١/ ٢٧٠.

(٤) انظر: الوافي في العروض والقوافي ٢٢٠.

(٥) الديوان ق ٧٥/ب ٥-٨.

وَلَا تَتَّبِعْ أَخَا غَيٍّ جَهْلُولًا يَدُوكَ لِلْمَهَالِكِ وَالْمَضْيُوقِ
رَأَيْتُ الْحَلَمَ مُنْجِي رَاكِبِيهِ وَيَرْدَى ذُو الْعَوَايَةِ وَالْعُقُوقِ
وَيُفْتَحُ بِالْتَرَفِّ كُلِّ بَابٍ وَيُفْسَحُ بِالتَّائِي كُلِّ ضَيْقِ
أَحْيَاهُ نَحِيَّةَ ذِي حَفَاظٍ فَيُلْقَى بِالتَّجَنِّي وَالْعُقُوقِ

إذا اختلفت حركة الحرف ما قبل الرّدف من الكسر إلى الضّم، ومثل هذا في قول علقمة الخولاني في داليته^(١):

أَرَأَيْكَ طَوَيْتَ الْكَشْحَ هَجْرًا عَلَى النَّيِّ كَلِفْتَ بِهَا وَالْقَلْبُ مِنْكَ عَمِيدُ
فَقُلْتُ لَهَا: إِنِّي أَوْمَلُ رِحْلَةً إِلَى مَلِكٍ مُحْضٍ نَمَتْهُ جُدُودُ

يلاحظ اختلاف حركة الحرف ما قبل الردف من الكسرة إلى الضمة.

ومثل هذا في قول عمرو بن يزيد العوفي^(٢):

لَمَّا أَبَانَ لَنَا مُرَّ عَدَاوَتِهِ مَلْنَا عَلَيْهِ بَرَجَّاسٍ لَهُ زَحَلُ
مِنْ آلِ عَوْفٍ إِذَا جَرُّوا رِمَاحَهُمْ حَسِبْتَ مِنْهُمْ جَبَالَ الْأَرْضِ تَحْتَمَلُ
إِنْسٌ إِذَا أَمْنُوا، جَنٌّ إِذَا غَضِبُوا، تَحْتَ الْعَبَاجَةِ فِي أَيَّامِهِمْ شُعْلُ

فقد اختلفت حركة الحرف ما قبل الرّدف من الفتح إلى الكسر. أمّا الإقواء فلم نجد له وجوداً فيما انتهى إلينا من أشعار خولان، في حين قلما تخلو أشعار قبيلة منه. وبهذا نخلص إلى نتيجة فحواها: قلّة عيوب القافية في أشعار القوم، ومرّد هذا إلى عناية الخولانيين بأشعارهم وتهذيبهم إيّاها.

وثمة ضربٌ من المحسنات يزيد الشعر جمالاً وبهاءً في موسيقاه، نعتة علماء البلاغة بالمحسنات اللفظية، لم يتكلّف شعراء خولان لها، بل جاءت عفوية دون إلحاحٍ في طلبها، تسلّلت إلى خيال الشاعر مجمّلةً قوافيه، بعيدة عن الصنعة التي أولع بها شعراء العصر العباسي وأعناهم تأتيها^(٣)، وهو ما يدخل في باب الموسيقى الداخلية التي تردف الموسيقى الخارجية، مشكلة إيقاعاً نغمياً تطرب له النفس وتحيا به.

(١) الديوان ق ١/ ب ٥-٦.

(٢) الديوان ق ٤٨/ ب ١-٣.

(٣) العمدة ١/ ٢١٠ وما بعدها.

من هذه المحسنات لزوم ما لا يلزم أو الإعنات، وهو أن يلتزم الشاعر في قوافيه مجيء حرف أو أكثر قبل حرف الروي، ويكون ذلك في بيتين أو أكثر^(١). وقد فشا هذا اللون في أشعار القوم فشواً كبيراً، مما حدا بنا إلى تخيير نتفاً منه تبين ثراءه وغناه، من ذلك قول علقمة الخولاني^(٢):

سَلَكْنَا بَيْنَ السَّهْلِ سَهْلَ سَحَامَةٍ هَذَا ذَمْلٌ مِنْ تَحْتِنَا وَسَمِيدُ
تَرَامَى بِنَا مِثْلَ السَّعَالِي فَجَافِجٍ وَدُو حَفَقَةٍ فَوْقَ الْقُتُودِ بَمِيدُ

فحرف الروي إنما هو الدال المضمومة، فالزم الشاعر نفسه قبله حرفاً آخر وهو الميم قبل الردف الياء، وقد تكررت غير مرة في داليتة. التي يقول فيها أيضاً:

تَعَالَى إِلَى بَابِ إِمْرِي ذِي مُرْكَبٍ تَكَامَلَ فِيهِ الْعَقْلُ وَهُوَ وَلِيدُ
أَقْبُ طَوِيلُ الْبَاعِ مِنْ بَيْتِ أَسْلَمٍ صَبُورٌ عَلَى رِزْءِ الزَّمَانِ جَلِيدُ

وداليتة غنية جداً بهذا المحسن اللفظي الذي زاد جناها وعزز موسيقاها حتى تبدو لقارئها مقطوعة موسيقية متساوقة الأنغام متفقة الإيقاع؛ مما تستجيده الأذن وتستهو به النفس. ومن ذلك أيضاً قول خالد الحيواني^(٣):

فَلَا قُرْبَتْ قُرْبَاهُمْ مِنْ قَبِيلَةٍ وَلَا نُصِرُوا تَحْتَ الرَّمَاحِ الشَّوَابِكِ
وَلَا زَالَ مِنْهُمْ عَائِرُ الْجَدِّ دَاخِرٌ يُؤَلِّئُهُ صَرْحَ الْحَرْبِ صُمُّ السَّنَابِكِ

إنما حرف الروي هو الكاف المكسورة، فالتزم الياء في بيتين اثنين.

ومثل ذلك في قول كثير الشهابي^(٤):

لَنَا الْفَضْلُ مِنْهَا، وَالْفَضَائِلُ وَالْعُلَا إِذَا انْتَسَبَتْ فِي عِزِّهَا وَالْأَوَاصِرِ
بُنُو الشَّيْخِ كُنْدِي بْنِ ثَوْرٍ بِنِ مُرْتَعٍ تَبَحَّجَ فِي أَصْلِ كَرِيمِ الْعَنَاصِرِ

(١) انظر شعراء مذحج عن جواهر البلاغة ٤٠٧، شرح الكافية البديعة ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) الديوان ق ١/ ب ١٢-١٣.

(٣) الديوان ق ١٦/ ب ٥-٦.

(٤) الديوان ق ٢١/ ب ٣-٤.

فرويُّ الأبيات الرَّاءُ، فالزَّم الشَّاعر نفسه الصَّاد، وهو ممَّا لا يلزمه.

وممَّا جاء في أشعار المخضرمين قول عمرو بن يزيد العوفيَّ يلتزم الواو في بيتين من مقطعةٍ همزيَّةٍ مُردِّفةٍ بالألف^(١):

إِذَا مَا مَعَشَرٌ ضَغِنُوا فَدَعَهُمْ فَإِنَّ الضُّغْنَ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ
أَصَاعُوا عِزَّهُمْ سَفَهَا وَنَوَكَا فَلَا حِلْمٌ هُنَاكَ وَلَا اِزْعَوَاءُ

والتزم عمرو العوفيُّ أيضاً الباء في بيتين من قصيدة رائية، فقال^(٢):

فَإِنْ أَسْلَمَ وَتَعَطَّفَنِي اللَّيَالِي أُجَرَّعُهُ الدُّعَا فَبِكَأْسٍ صَرِيْرٍ
وَضَرَبًا بِالْمُشَطَّبِ غَيْرِ قَطْمٍ وَطَعْنَا بِالْأَسِنَّةِ غَيْرِ نَرِيْرٍ

وقوله أيضاً^(٣):

مُغَارَاتِي لِكُلِّ صَبَاحٍ يَوْمٍ يَغُصُّكَ عِنْدَهُ اللَّبَنُ الْحَلِيبُ
وَمُخْتَلَفُ الرِّمَاحِ عَلَى لَبَاتِي كَأَشْطَانٍ أَلْفَ بِهَاءٍ قَلِيبُ

وممَّا جاء في أشعار الأمويين قول الحارث السَّعديّ من قصيدة داليةٍ مُردِّفةٍ بالألف ملتزماً الميم في بيتين اثنين^(٤):

جَرَتْ بِي فِي الْمَلَامَةِ أَلْ حَرْبٍ وَجُئُوا فِي الْقَطِينَةِ وَالْتِمَادِيْ
وَسَلُّوا السَّيْفَ فِي سَادَاتِ قَوْمٍ بِلَا ذَنْبٍ أَتَوْهُ وَلَا اِغْتِمَادِيْ

والتزم عمرو بن زيد الغالبيُّ الرَّاء في بيتين من قصيدة ميمية^(٥):

أَنْتُمْ زَعَمْتُمْ بِأَعْلَى ذُرْوَةٍ رُفِعَتْ مِنْ سِرٍّ خَوْلَانَ مَنْسُوبُونَ بِالْكَرَمِ

(١) الديوان ق ٣٠ / ب ١-٢.

(٢) الديوان ق ٤١ / ب ٧-٨.

(٣) الديوان ق ٣٣ / ب ٢-٣.

(٤) الديوان ق ٧٢ / ب ١-٢.

(٥) الديوان ق ٨٥ / ب ٧-٨.

وَنَحْنُ فِي حَيٍّ قَيْسٍ يُرْمُونَ لَنَا سُوءَ الْحَدِيثِ، وَنَخْشَى زَلَّةَ الْحَرَمِ

ونحو ذلك ما ألزم به نفسه المصعب الحيواني في ثلاثة أبيات^(١):

لَنَا الْمُلْكُ قَدَمًا لَا نُدَافِعُ دُونَهُ وَأَبْنَاءُ حَيٍّ، سَادَةٌ فِي الْعَبَائِلِ
سَبَقْنَا جَمِيعَ النَّاسِ قُوَّةً إِلَى الْعُلَا وَأَبَاؤُنَا شُمٌّ كِرَامُ الشَّمَائِلِ
إِذَا انْتَسَبَتْ خَوْلَانُ يَوْمًا وَجَدْتَنَا لَنَا الْمُلْكُ مِنْهَا وَالسَّنَا فِي الْقَبَائِلِ

فحرف الروي اللام المكسورة، وقد التزم الشاعر أكثر من حرف، وهو مما لا يلزمه.

ومثله قول عمرو بن يزيد العوفي^(٢):

أَلَمْ تَعْلَمْ بِتَصْرِيفِ اللَّيَالِي وَيَعْلَى يَوْمٍ شَارَفْنَا بِمُرٍّ
بَدَأَتْ لَنَا الْعَدَاوَةُ وَالتَّجَنِّي وَبَغِيَا لَيْسَ تَمَزُّجُهُ بِبِرٍّ
أَبَانَ لَنَا الْعَدَاوَةُ يَوْمَ سِرْنَا مُصِرًّا أَيُّهَا ضِغْنٍ مُصِرٍّ

فحرف الروي هو الراء المكسورة، فالتزم الراء الساكنة قبلها، ومما جاء في أشعار الأمويين على هذه

الشاكلة قول أحد مجاهيل الأمويين^(٣):

كُسِفَتْ نُجُومٌ مِنْ مَقَاوِلِ حَمِيرٍ فِينَا وَأَظْلَمَ شَمْسُهَا وَبُدُورُهَا
وَطَوَى سَمَاحَتَهَا الزَّمَانُ وَهَدَّهَا بِالْمُجَحِّفَاتِ وَغَاضَ ثُمَّ بِحُورُهَا
وَتَقَطَّعَتْ مِنْهَا الْأَوَاصِرُ بَيْنَهَا وَمَضَى سَنَاهَا عِنْدَ ذَاكَ وَنُورُهَا

ونحو هذا جاء في قول الحارث السعدي^(٤):

إِذَا مَا النُّصْحُ ضَيَّعَهُ الْمُؤَالِي فَلَا تَزُرْكَ مُوَاصَلَةُ الصَّدِيقِ

(١) الديوان ق ٢٢ / ب ١-٣.

(٢) الديوان ق ٤١ / ب ١-٣.

(٣) الديوان ق ١٠١ / ب ١-٣.

(٤) الديوان ق ٧٥ / ب ١-٥.

فَرُبَّ أَخٍ لِنَفْسِكَ لَمْ تَلِدْهُ لَكَ الْأُمُّ الْأَلُوفُ مَعَ الشَّقِيقِ
إِذَا عَمِيَتْ عَلَيْكَ السُّبُلُ يَوْمًا وَلَمْ تَظْفَرْ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ
فَسِرْ فِي الْقِسْطِ لَا تَتَّبِعْ سَوَاهَا فَإِنَّ الْقِسْطَ مَقَرُّنَةُ الرَّفِيقِ
وَلَا تَتَّبِعْ أَحَاغِي جَهْلُولًا يَدُلُّكَ لِلْمَهَالِكِ وَالْمَضِيقِ

إنَّ انتظام حرفين أو أكثر قبل روي القصيدة، يهبها مظهرًا من مظاهر الجلال والرَّفعة، ويزيدها قوَّةً، ويجعلها أكثر تأثيراً في نفس المتلقي التي تطرب لسماع مثل هذا الترتيب المتساق الذي يسكن روح الإنسان وقلبه.

ومَّا يغني موسيقى الشَّعر ويرفدها التصريع وهو أحد أعمدة المحسنات اللفظية المهمة في النصِّ الشعريِّ، وهو «ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه، تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته»^(١) نحو قول علقمة الخولاني^(٢):

سَقَى طَلًّا بِالْجَلْهَتَيْنِ رُعُودُ وَغُرَّ سَوَارٍ سَيْلُهُنَّ مَجُودُ

فالضرب (فعولن) والعروض مثله، إذ جاءت تابعة له.

وكثيراً ما يأتي التصريع في أوائل النصوص، وقد يتسلَّل إلى تضاعيفها وهو أحسن ما يكون منه، وقد ورد النوعان في أشعار خولان في الجاهليَّة وصدر الإسلام والعصر الأمويِّ، ولكن بمواضع قليلة لا تتجاوز عشرة مواضع فمن ذلك قول سعد الرِّبيعة^(٣):

أَقْمَنَا بِهَا وَالنَّاسُ عَنْهَا تَفَرَّقُوا فَأَنْجَدَ قَوْمٌ فِي الْبِلَادِ وَأَوْعَرُوا

وفي شعر المخضرمين قول سعد بن الليث المالكي^(٤):

تَقَاضَاكَ دَهْرُكَ مَا أَسْلَفَا وَأَمْسَى الَّذِي رُمْتَهُ أَخْلَفَا

(١) كتاب القوافي للتخوي ٦٤، العمدة ١/ ٢٧٧.

(٢) الديوان ق ١/ ب ١.

(٣) الديوان ق ٢٥/ ب ٢.

(٤) الديوان ق ٦٧/ ب ١.

وفي العصر الأموي قول عمرو بن زيد الغالب^(١):

سَلِي تُخْرِي، يَاهِنْدُهْلُ عَفْتُ مَشْرِي
وَهْلُ عَافُهُ قَوْمِي بِجَنْبِ الْأَحْشَبِ

ومما جاء في أثناء القصيدة وتضاعيفها قوله في هجاء محمد بن أبان^(٢):

يَلُوكُ لِسَانُهُ فَشَلًّا وَيُيْدِي
كَلَامَ مُعَانِدٍ لِسَبِيلِ قَصْدِ
بُنُو حُجْرٍ، هُمْ شَادُوا الْمَعَالِي
هُمْ أَهْلُ التَّحْمِي والتَفْدِي

وفي هذا من المفاجأة والمباغته ما تطرب له النفس وتنتشي، إذ تكون الأذن قد اعتادت حرف الروي الذي يمسك بناصية القصيدة، فتأتي عروض الشطر الأول مُحْدَثَةً الإيقاع نفسه للضرب. وهنا لا بد من الإشارة إلى أمرٍ مهم يخص أشعار العرب قاطبة، وهو: «مجيء التقفية في تضاعيف النصوص دون مطالعها يعزز الشكوك في جبيئها تامة، ويناصر من ذهب إلى أن كثيراً من أشعارهم التي جاءت خالية من التصريح لم تسلم من الضياع والتخرم»^(٣).

وثمة ضرب من المحسنات اللفظية – كان جمًّا في أشعارهم، وهو ما عرف عند البلاغيين برّد العجز على الصدر، إذ يأتي الشاعر بكلمة في صدر البيت ثم يأتي بها ذاتها أو بما يشاركها في الاشتقاق في آخره^(٤).

وسأمثل لكل عصرٍ بشيءٍ منه لافتٍ بارزٍ على غيره لكثرتِه في أشعار القوم، فمما جاء في أشعارهم الجاهلية قول عوف الخولاني مفاخرًا بقومه وبعلوهم على كل مفاخر^(٥):

مَنْ ذَا يُفَاخِرُ مَعْشَرِي فِي مُحْفَلٍ
إِلَّا وَفَخْرِي قَاهِرٌ مَنْ يَفْخَرُ

ونحوه في قول المقدام الحيواني^(٦):

نَمْتَنَا إِلَى عَمْرٍو عُرُوقُ كَرِيمَةٍ
وَحَوْلَانُ مَعْكُودُ الْمَكَارِمِ وَالْحَمْدِ

(١) الديوان ق ٧٩/ب ١.

(٢) الديوان ق ٨١/ق ٥-٦.

(٣) شعراء حمير (الدراسة) ٣٩٥.

(٤) الوافي في العروض والقوافي ٢٧٢، وانظر: الصناعتين: ٣٨٥.

(٥) الديوان ق ٧/ب ٣.

(٦) الديوان ق ١٣/ب ١.

فجاء في الشطر الثاني بالمكانم، وهي من مشتقات كريمة التي وردت في الشطر الأول. ونحوه أيضاً في قول خالد الحيواني^(١):

وَمَا وَصَلُوا حَبَلَ الْقَرَابَةِ بَيْنَنَا فَلَا وَصَلْتُ قُرْبَى بَنِي عَبْدِ مَالِكٍ
ونحوه في قول كُثَيْرِ الشَّهَابِيِّ^(٢):

إِذَا حُصِّلَتْ أَنْسَابُ كِنْدَةَ أَضْبَحَتْ مَنَاسِبُهَا تَزْهُو عَلَى كُلِّ فَاخِرٍ
ونحوه في قول عمرو الرزاحي^(٣):

فَأُورِثَهَا بَيْنَهُ وَقَدْ تَوَلَّوْا فَنِعْمَ الشَّيْخُ أُورِثَهَا الْبَيْنُ
ومما جاء في شعر المخضرمين منهم قول عمرو بن يزيد العوفي^(٤):

إِذَا مَا مَعْشَرٌ ضَغِنُوا فَدَعَهُمْ فَإِنَّ الضُّغْنَ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ
.....
فَبَعْضٌ فِي أَظْلَلَتِهِمْ قُعُودٌ وَبَعْضٌ ظَلَّهَا الْأُسْلُ الظِّمَاءُ
ونحوه في قوله أيضاً^(٥):

فَمَا كَبُرَ يُشِيبُ لَبَاتٍ مِثْلِي وَلَكِنْ شَيَّبَتْ رَأْسِي الْحُرُوبُ
وقوله واصفاً عمرو بن معدي كرب الزبيدي^(٦):

أَبْصَرْتُ عَمْرًا فِي الْحَدِيدِ كَأَنَّهُ لَيْثٌ هَزْبُرٌّ فِي حَدِيدٍ أَوْرَدِ
وقوله من القصيدة ذاتها:

لَا تَقْتُلُوا سَادَاتِكُمْ فَتَعَيَّرُوا فَمِنَ الْكَبَائِرِ قَتْلُ كُلِّ مُسَوِّدٍ

(١) الديوان ق ١٦ / ب ٣.

(٢) الديوان ق ٢١ / ب ٢.

(٣) الديوان ق ١٩ / ب ٢.

(٤) الديوان ٣٠: ب ١، ٣.

(٥) الديوان ق ٣٣ / ب ١.

(٦) الديوان ق ٣٧ / ب ١، ٦.

وقوله أيضاً^(١):

أَمَلْتُ أَمْرًا لَسْتُ أَرْجِعُ دُونَهُ والرُّشْدُ فِي رَفَقِ الْفَتَى الْمُتَاه - ل

وقوله أيضاً^(٢):

أَطَاعَ بَنَاءَ عَمْرٍو الْوَاشِينَ وَمِنْ قَبْلِ عَمْرٍو، وَشَاءَ أَطْعَنَا
وَمَا جَاءَ فِي أَشْعَارِ الْأُمَوِيِّينَ مِنْهُمْ قَوْلُ الْحَارِثِ السَّعْدِيِّ «الْحَكِيم» مُحَذِّراً أَبْنَاءَ قَوْمِهِ^(٣):

لَا تُبْدِعُوا بَدْعَةً فِينَا مُحَالِفَةً فَشَرُّ أَخْلَاقِنَا مَا كَانَ مُبْتَدَعًا
ونحو قوله أيضاً مرسلًا حِكْمَةً^(٤):

فَسِرْ فِي الْقِسْطِ لَا تَتَّبِعْ سَوَاهَا فَإِنَّ الْقِسْطَ مَقَرَّنَةُ الرَّفِيقِ
ونحوه قول عمرو بن زيد الغالبي^(٥):

وَيَبْلُغُ مِنِّي قَوْلُهُ مَا يَسُوؤُنِي وَيَعْلَمُ أَنَّ قَدْ سَاءَنِي فَأَجَامِلُهُ
ونحوه قول المسلم الشَّهَابِيِّ^(٦):

وَلْيُوثُ مُغْرِقٌ يَضْرِبُونَ فُرُوعَكُمْ ضَرْبَ الْغَرَائِبِ، أَعَزَّكَ بِكَارِهَا

ومن المحسنات اللَّفْظِيَّةُ التي وردت في أشعارهم، وكانت زركشة صوتية الجناس الذي نال حظَّه من اهتمام العلماء القدماء، فهو «أن تكون في الشعر معانٍ متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة»^(٧). وقد عدَّه الإمام العلوي «عظيم الموقع في البلاغة، جليل القدر في الفصاحة»^(٨). للذي له من دورٍ في إغناء موسيقى النصِّ الشعريَّة التي تطرب بها النفس وتلذُّ بسماعها. وكان في أشعار القوم عَفْوِيًّا بلا

(١) الديوان ق ٤٦ / ب ٧.

(٢) الديوان ق ٥١ / ب ١.

(٣) الديوان ق ٧٤ / ب ١.

(٤) الديوان ق ٧٥ / ب ٤.

(٥) الديوان ق ٨٣ / ب ٩.

(٦) الديوان ق ٩٠ / ب ٦.

(٧) نقد الشعر ١٦٢ وعنه في فن الجناس ٨ وانظر جَوَالَاتِهِ ثَمَّة، ونحو هذا في أصول البلاغة: ٥١.

(٨) الطراز ٣ / ٣٥١، وعنه في فن الجناس ١٨.

تكلّفٍ وسعيٍّ وراء تطلّابه، ولم يأت إلّا في مواضع ليست بالكثير، وكان مجيئه ناقصاً، من ذلك قول علقمة الخولاني^(١):

إِلَى مَلِكٍ يُعْطِي الْبَرِيَّةَ مَالَهُ وَقَالَ لَهُمْ: عُودُوا فَسَوْفَ أُعْودُ

فجانس بين عودوا بمعنى «ارجعوا إليّ» وأعود بمعنى «أعطي» وهو جناس ناقصٌ أو ما يسميه العلامة البحراني (ت ٦٧٩ هـ) بالمُضَارِع - وهو ما اختلف فيه حرفٌ في أوّله أو أوسطه^(٢).

ومنه قول عمرو بن زيد - مغرق الأكبر^(٣) -:

شَنْتَ قِسِيٍّ مِنَ الشَّرِيَانِ مُشْطَبَةً مِنْ كُلِّ زَوْرًا، أَيِّ الزَّرْوِ بَارِيهَا

فجاء به جناساً ناقصاً، إذ جانس بين «زورا» وهي القوس المعطوفة وبين «الزرو» وهو الطعن بالسيف وما شاكلة. ومما جاء في أشعار المخضرمين من الجناس قول عمرو بن حجر - أبي رعدة الأكبر - مفتخراً^(٤):

أَبَيْنَا، فَلَا نُعْطِي الْعَدُوَّ مَقَادَةً لَنَا السَّطَوَةُ الْغَلْبَاءُ يَوْمَ التَّغَالِبِ

إذ جانس بين «الغلباء» و«التغالب» وقول سعد بن الليث المالكي^(٥):

تَقَاضَاكَ دَهْرُكَ مَا أَسْلَفَا وَأَمْسَى الَّذِي رُمْتَهُ أَخْلَفَا

فجانس بين «أسلفا» و«أخلفا» وهو جناس ناقص.

وقوله أيضاً^(٦):

فَيَا عَمْرُو أَنْتَ أَخٌ لِلْبُؤُوسِ فَبِئْسَ الْخَلِيفَةُ إِذْ خَلَفَا

إذ جانس بين «الخليفة» و«خلفا». ولم نلاحظ جناساً في أشعار الأمويين منهم.

(١) الديوان ق ١/ ب ١٧.

(٢) أصول البلاغة: ٥٢.

(٣) الديوان ق ٦/ ب ١١.

(٤) الديوان ق ٥٦/ ب ٣.

(٥) الديوان ق ٦٧/ ب ١.

(٦) الديوان ق ٦٨/ ب ١.

وليس يخفى على أحد ما لتماثل الحروف وتجانسها في كلمتين من أثرٍ مهمٍ في نفس المتلقي التي تهتزّ لتكرار تلك المقاطع الصوتيّة، مُحْدَثَةً إيقاعاً نغمياً واحداً يُجَمِّلُ الشَّعْرَ وَيُنَمِّقُهُ؛ بل يسهم في رفع قيمته اللفظيّة والمعنويّة، وعدمه في الشَّعْرَ يُذْهِبُ الحسنَ، وينفي علامات الجمال فيه.

وأما الجانب الثالث الذي نقف عنده في دراسة الخصائص اللفظية لأشعار خولان، فهو الجانب اللُّغوي والنحويُّ، إذ يمكن للباحث في شعر قبيلة ما أن يقف على غريب اللُّغة ومعرفة ما كان فيه من ألفاظ خبيئة بعيدة عن التناول، وقضايا تسهيل الهمز أو قطعه، والتصرّف في بعض الأسماء بزيادة حرف أو نقصانه، وتسكين المتحرّك، وتحريك الساكن لضرورة الوزن، والقلب، وتخفيف إحدى التّاءين في أوّل الفعل المضارع... كما يمكن ملاحظة بعض الظواهر اللّهجية إن وجدت في الأشعار التي انتهت بين دفتي مجموع شعريّ. هذا في الشّطر اللُّغويّ، أمّا الشّطر النحويّ فيمكن الوقوف على بعض القضايا التي اعتنى بها النُّحاة القدامى مثل الترخيم في غير باب النداء ضرورةً، وإعمال حرفٍ مكان آخر، وصرف الممنوع من الصّرف، والحذف.. وغيرها من القضايا.

فأمّا ما يخصّ الجانب اللُّغوي من غريب اللُّغة، فبسطتُ القول فيه في موضع سالفٍ، وتبيّن أنّ معاني أشعار خولان تتسم بالسهولة والوضوح والبعد عن التعقيد خلا بعض المعاني الغريبة التي تنجلي غرابتها بالرجوع إلى معجمات اللُّغة، ولعلّ غرابتها تعود لِقَدَم العهد وطوله، واختلاط خولان بغيرها من حُبش وفرس وروم.

ويبدو أنّ أشعار خولان التي انتهت إلينا ممّا وقف عليه الهمدانيّ وغيره من العلماء القدامى، لم يكن للغريب فيها أدنى نصيب، ولعلّ هذا عائداً إلى سببين اثنين:

١ - فلول كثيرٍ من أشعار خولان بالضّياح، وما وصل إلينا لا يغدو أن يكون غيضاً من فيضٍ وقد بسطت القول في هذا فيما سلف.

٢ - احتجاب أشعار خولان عن العلماء وعدم ترحالها في مصنّفاتهم اللُّغويّة والنّحويّة، ممّا لم يجعلها مادة للدرس اللُّغويّ عدا مواضع قليلة وقفت عليها في بعض المعاجم. فجاء عند الخليل بن أحمد الفراهيديّ (١٠٠-١٧٥هـ) في مادة «لكم» أنّ «التَّلَكِيمَ هو شيءٌ يفعلُه خولان بن عمرو بن قضاة... بلغ من برّهم

بالضَّيف أن يُخلُّوا معه البكر فتَضَاجَعَهُ، ويبسِّحون له ما دون الفضة، يسمّون ذلك التَّكْلِيمُ، فإذا وافقها قالت لأهلها: أنا أشاؤهُ؛ فيزوجونها، وقد لَكَمَهَا قَبْلُ»^(١)

ومن لغة خولان ما وقف عليه ابن دريد من «ذكر الأصمعيّ عن أبي عمرو بن العلاء أنّه سمع رجلاً من خولان باليمن يقول وقد مات لهم سيّد: أيّ عَيْرٍ انقعر مِنّا؛ أي سيّد» وهي لغة عند كلب بن وبرة وبني يشكر بن وائل^(٢).

ومّا خُصَّتْ به خولان ما جاء عند ابن منظور (٧١١هـ) من أنّ «المَذْيَحَ: الذَّئْبُ بِلِسَانِ خَوْلَان»^(٣) واحداها: الذَّيْخ وهو الذَّئْبُ الجريء^(٤). في حين لم يرد في أشعار القوم ما يناصر هذه الألفاظ أو يؤيِّدها وكذا الأمر فيما وقف عليه الهمدانيّ من أنّ «شَمْر: مفتوح الشين، مخفّف الميم، فمن خولان قضاة، وهو شَمْر بن باقر، وفي خولان أيضاً شَمِران، وأمّا شَمْر مكسور الشين مخفّف الميم فكثير في العرب مثل شَمْر بن ذي الجوشن... وأبي شَمْر الغساني، وفي حمير وغيرها شَمْر مفتوح الشين مكسور الميم، ومن العرب من يخفّفه فيقولون: شَمْر ومنهم من يقول شَمْر....»^(٥).

في حين نجد الأصمعيّ يشير إلى مَنْ كثر في أشعارهم الغريبُ كثرةً كثرةً فيما نقل عنه أبو أحمد العسكريّ: «تقول الرُّواة والعلماء: من أراد الغريبَ فعليه بشعر هُذَيْل ورجز رُوبة والعجّاج، وهؤلاء يجتمع في شعرهم الغريب والمعاني. ومن أراد الغريبَ من شعر المحدثِ ففي أشعار ذي الرُّمة. ومن أراد الغريب الشَّدِيدَ الثَّقَّةَ ففي شعر ابن مقبل، وابن أحمر، وحמיד بن ثور الهلاليّ والراعي، ومُزاحم العُقَيْليّ»^(٦) ومن ذلك ما نجده في بعض دواوين القبائل التي انبرى ثلّة من الباحثين للملمة قوافيها ودراستها؛ فمثلاً نجد في ديوان مَذْحِج «أربعة أبيات للأفوه الأوديّ، وبيتاً للأسعر الجعفي، وردت جميعها عند أبي عمرو الشَّيبانيّ في جيمه، في حين اقتصر الرَّبِيعيّ في نظامه على الاستشهاد بشعر الأفوه، وإن زاد على ما اصطفاه

(١) كتاب العين ج ٥ / ٣٧٩.

(٢) جمهرة اللغة.

(٣) اللسان: «ذَيْخ».

(٤) التاج: «ذَيْخ».

(٥) الإكليل ٢ / ٣٦٠، وانظر: الديوان ق ٥٤ / ب ٩، التعليق عليه ثمة.

(٦) المصون في الأدب: ١٧٣.

الشَّيبَانِيّ، إذ نجد في نظامه أربعة أبياتٍ من الرائيّة الطّويلة وثلاثة أبيات من السّينيّة، وبيتين من الغائيّة، وهذا يدلّ على حظّ مذحجٍ من الغريب لم يكن بمستوى أختها هذيل^(١). وكلب بن وبرة التي عرض فيها صاحبها لما ورد من شعرٍ في كتب الغريب، فلم تتجاوز أبياته التي وقف عليها في جيم الشَّيبَانِيّ أصابع اليد^(٢). وندرة الغريب نجدها لدى شعراء عبد القيس^(٣) وتغلب^(٤) وفي بني قشير تميّز الرجز بغرابة الألفاظ^(٥).

وإذا كانت أشعار خولان قد احتجبت عن علماء اللّغة والنحو فإننا نجد عدداً من أشعار القبائل السّالفة الذكر كان سيّاراً في مصنّفات اللّغويين من ذلك ما نجده لدى شعراء مذحج التي أعدت النظر غير كرّة في مصادر أشعارها، فأحصيت خمسين بيتاً لشعراء جاهليّين استلّت أشعارهم من مصنّفات اللّغة والنحو^(٦) وكان عدد أبيات شعراء بني كلب بن وبرة الذين أُستلّت أشعارهم من كتب اللّغة أكثر، فبلغت ستّة وتسعين بيتاً^(٧)، وكان لسان العرب مع أصوله الخمسة مصدراً مهماً لشعر تغلب^(٨). وكذا الأمر لدى شعراء بني عقيل التي أحصى صاحبها ثلاثة وعشرين بيتاً أُستلّت من مصنّفات اللّغة وكانت رحّالة في بطون كثيرٍ من مصنّفات^(٩). وكذا الأمر أيضاً عند شعراء حمير الذين تقاسمت معجمات اللّغة عدداً غير هينٍ من أشعارهم بلغ واحداً وخمسين بيتاً^(١٠). علاوة على كتب اللّغة والنحو والصرف...

نلاحظ من خلال ما سلف تفاوت أشعار القبائل التي جعلها اللّغويّون مادة للدرس اللّغويّ في مصنّفاتهم، ولعلّ هذا التفاوت بين أشعار القبائل وسيرورة بعضها أكثر من بعضٍ عائداً إلى الاشتهار

(١) شعراء مذحج ٣٤٤-٣٤٥.

(٢) انظر: ديوان شعراء كلب بن وبرة (الدراسة): ٤٧٧-٤٧٨.

(٣) انظر: شعراء عبد القيس: ٢١٦.

(٤) شعراء تغلب (الدراسة) ٣٨٥.

(٥) شعراء بني قشير ١/ ٢٧٢.

(٦) انظر: شعراء مذحج ٣٥٧-٦٠١.

(٧) انظر: ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدراسة) ٢١٤.

(٨) انظر: شعراء تغلب (الدراسة) ٢٧٦.

(٩) انظر: شعراء بني عقيل ٢/ ٢١٣ وما بعدها.

(١٠) انظر: شعراء حمير (الدراسة) ١٨٤.

والصيت أو إلى الفصاحة التي كانت منتشرة في مكان دون غيره من مثل عالية نجد الجنوبية التي كانت مظنة الفصيح بالنسبة لعلماء اللغة. وفي هذا الجانب يقول القلقشنديّ متهماً مَنْ سكن أطراف الجزيرة العربيّة من القبائل بتغيّر ألفاظهم: «ما نطق به فصحاء العرب وهم الذين حلّوا أوساط بلاد العرب ولم يخالطهم مَنْ سواهم من الأمم كثير مخالطة، ولم يصاقبوا بلاد العجم فبقيت ألفاظهم سالمة من التغير والاختلاط بلغة غيرهم: كقُرَيْشٍ وهُدَيْلٍ وَكِنَانَةٍ وبعض تميمٍ وقَيْسٍ عَيْلَانٍ، ونحوهم من عرب الحجاز وأوساط نجد. بخلاف الذين حلّوا في أطراف بلاد العرب وجاوروا الأعاجم فتغيرت ألفاظهم بمخالطتهم كحمير وهمدان وخولان والأزد لمجاورتهم بلاد الحبشة، وطِيّ وغَسَّان: لمجاورتهم بلاد الروم، وبعض تميمٍ وعبد القيس: لمجاورتهم أهل الجزيرة وفارس»^(١).

إنّ مقالة القلقشنديّ تدخل في حكم التصرّور العقليّ الذي يقول بما ذهب إليه، لسبب بسيط نَبّه عليه وهو حكم المجاورة. لكن ما ورد في مصنّفات اللغة التي تناهت عدداً غير هينٍ من أشعار حمير وخصوصاً معجماتها يدحض هذه القالة. وكذا الأمر في كلب بن وبرة التي اختلطت بالروم أيّما اختلاط^(٢)، وقد سارت أبياتٌ كثيرةٌ من أشعارها في مصنّفات اللغة ومعجماتها وكانت شواهد على قضايا كثيرة. ولولا سلامة لغة هذه وتلك لما كان كثيرٌ من أشعارهما شواهدَ سيّارة في كتب اللغة والنحو.

وهذا ينسحب على خولان التي ظلّت أشعارها حبيسةً عن أفواه الرّواة وأقلامهم في صعدة التي لم يرحل إليها هؤلاء العلماء، وفي هذا يقول الهمدانيّ: «لو كانت صعدة في القديم من البلدان التي رحل إليها أصحاب الحديث لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء...»^(٣). يضاف إلى هذا أنّنا لم نلاحظ في أشعار خولان ما يشي بضعف لغتهم من دخول اللّحن إليها، وامتزاجها ببعض سمات لغات الأمم المجاورة، بل سارت على سبيل العربيّة الفصحى، الجزلة التي لا يشوب صفاءها شائبة، ولو سنحت لها الفرصة للارتحال في متون الكتب والمصنّفات اللّغويّة، لكان كثير منها شواهد لغويّة ونحويّة.

(١) صبح الأعشى ١ / ١٥٩ - ١٦٠، وعنه في شعر همدان بتصرّف مخلّ ٩٩.

(٢) انظر: ديوان شعراء بني كلب بن وبرة (الدّراسة) ١٣٤ - ١٣٥.

(٣) الإكليل: «المخطوط ١ / ٦٠، المطبوع ١ / ٢٧٥».

ونقع على بعض الألفاظ في أشعار خولان لم يكن لها وجوداً في معجمات العربية التي لم تأت على كل ما قاله العرب ونطق به، مما يحفظ لنا بعض اللغة من الضياع، من تلك الألفاظ على سبيل المثال قول عمرو بن يزيد العوفي^(١):

فَخَرَّ عَمَارُ الْخَيْرِ يَكْبُورُ لَوَجْهِهِ وَفَتَيَانُ صِدْقٍ فِي رَفِيعِ الْمَنَاسِبِ

فالمَنَاسِبِ، جَمْعُ مَنْسَبٍ، وهو مما أخلَّت به المعجمات. كما وردت هذه اللفظة في شعر عمرو بن حجر المالكي أيضاً يقول^(٢):

وَإِنِّي لَنْ بَيِّنِّي أَسَامَةَ فِي الذُّرَى إِذَا حُصِّلَتْ يَوْمَ كِرَامِ الْمَنَاسِبِ

وأما ما أثير من لهجة خولان - ولم يكن خاصاً بها فقط - ما ورد في شعر المقدام بن زيد الحيواني في قوله: نَمَتْنَا إِلَى عَمْرٍو عُرُوقُ كَرِيمَةٍ وَخَوْلَانُ مَعْكُودِ الْمَكَارِمِ وَالْحَمْدِ فإبدال القاف كافاً في «معكود» لغة سائرة عند أهل اليمن، مثل «جمل» إذا اضطروا قالوا «كَمَل»، وقريبٌ من هذا ما يقوله بنو تميم الذين يلحقون القاف باللهة حتى تغلظ جداً، فيقولون «الكوم» بدلاً من «القوم» فيكون بين الكاف والقاف، وهذه لغة فيهم كما لأهل اليمن، ومنه قول أبي الأسود الدؤلي:

وَلَا أَكُولُ لِكَدْرِ الْكَوْمِ: كَدَ نَضَجَتْ وَلَا أَكُولُ لِبَابِ الدَّارِ: مَكْفُولُ^(٣)

ولعلَّ اختفاء لهجة خولان عائداً إلى حذو القوم حذوا إخوانهم من شعراء «القبايل العربية الشمالية [الذين اصطَلَحُوا] فيما بينهم على لهجة أدبية فُصِّحَى كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى اللهجة الأدبية العامة. ومن ثمَّ اختفت جملة الخصائص التي تميّزت بها كلُّ قبيلة في لهجتها فلم تتضح في شعر شعرائهم إلا قليلاً جداً»^(٤).

(١) الديوان ق ٣١/ب ٥.

(٢) الديوان ق ٥٦/ب ١.

(٣) انظر: الصّاحبي: ٣٧، دراسات في فقه اللغة: ٩٥، وانظر رواية البيت بالقاف في ديوان أبي الأسود الدؤلي ٣٥٣، والصّحاح: ٤: ١٥٣٨ (غلق)، وفي إصلاح المنطق: ١٩٠، وفي تهذيب إصلاح المنطق: ١/ ٤٥٤، وفي تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح: ١/ ١٢٨.

(٤) العصر الجاهلي: ١٣١.

ومّا كان في أشعارهم من الظواهر اللغوية الملحوظة تسكين المتحرّك لضرورة الوزن كالذي جاء في شعر علقمة الخولانيّ، في قوله^(١):

وَقَدْماً أَرَاهَا وَهِيَ جَامِعَةُ الْهَوَى يَنْوُسُ بِهَا عَصْرُ الصَّبَا وَيَرْوُدُ

فالأصل في الهاء أن تكون مكسورة في «وَهْيَ»، فسكّنها للضرورة وإقامة الوزن ونحو قوله أيضاً^(٢):

طَوَيْنَ بِجَمِيلِ الْخَافِقَيْنِ بِسُحْرَةٍ وَمَرَّتْ بِمَاءِ الْحَبْطِ، وَهِيَ تَهْوُدُ

وهذان الموضعان هما الوحيدان الواردان فيما يخصّ تسكين الهاء في «هِيَ»، ومن الظواهر اللغوية أيضاً تسهيل همزة القطع ضرورة لإقامة الوزن كالذي نجده في دالية علقمة الخولانيّ في قوله^(٣):

وَمَدَّ إِلَيْهِ يَوْمَ غَيْمَانَ إِذْ دَعَا مِنْ ابْنَاءِ عَمْرٍو أَشْبِلُ وَأَسْوَدُ

إذ سهّل همزة «ابْنَاءِ» فألقى حركتها على الحرف الساكن قبلها، وهو النون ونحو قول عمرو بن يزيد العوفي أيضاً^(٤):

عَجَزْتُ أَمْ أَنْظَرْتُ الْغَرِيمَ وَإِنَّمَا أَخُو النَّجَدَاتِ مَنْ تَقَاضَاكَ فِي الْعُسْرِ

فسهّل همزة (أنظرت) وألقى حركتها على الساكن قبلها وهو ميم (أم) لإقامة الوزن واستقامته.

ومن الظواهر الملحوظة في أشعارهم قصر الممدود فكان في مواضع ثلاثة، من ذلك قول عمرو بن يزيد العوفي^(٥):

نَمَتْهُ إِلَى الْعَلِيَا يَدٌ مِنْ قُضَاعَةٍ وَعِرْقٌ إِلَى خَيْرِ الْمَغَارِسِ يَجْذِبُهُ

فقوله «العليا» أراد «العلياء» ونحو قوله أيضاً^(٦):

أَلَا يَأْمُرُ وَيَلْكَ فَاَنْظُرْنِي فَلَايِي فِي مَسَاتِكَ سَوْفَ أَفْرِي

فقوله «مساتك» أراد «مساءتك».

(١) الديوان ق ١ / ب ٣.

(٢) الديوان ق ١ / ب ١٤.

(٣) الديوان ق ١ / ب ٢٦.

(٤) الديوان ق ٤٠ / ب ٤.

(٥) الديوان ق ٣٢ / ب ٢.

(٦) الديوان ق ٤١ / ب ١٢.

ومن ذلك قول الحارث السَّعديّ - وهو أمويّ -^(١):

وَقَدْ سَمِعْتُ بَيْهَرًا يَوْمَ سَارِهِمْ قَرْمٌ فَدَوَّخَ بَذَاخًا وَجَبَّارًا

ففي قوله: «ببهرًا» قصرٌ للمدود الذي كان في أصله «بهراء» القبيلة القضاعية المعروفة.

ومن الظواهر الموجودة في أشعارهم حذف إحدى التّائين تخفيفاً إذا جاءت أول الفعل المضارع، وقد ورد

ذلك في مواضع أربعة، من ذلك قول علقمة الخولانيّ^(٢):

تَرَامِي بَنًا مِثْلَ السَّعَالِي فَجَافِجٌ وَدُو حَفَقَةٍ فَوْقَ الْقُتُودِ يَمِيدُ

فقوله «ترامي» أراد: «تترامي» فحذف إحدى التّائين تخفيفاً ونحوه في قوله أيضاً^(٣):

تَعَالَى إِلَى بَابِ إِمْرِيٍّ ذِي مُرْكَبٍ تَكَامَلَ فِيهِ الْعَقْلُ وَهُوَ وَلِيدُ

ونحو هذا نجده في قول عمرو العوفيّ - وهو مخضرم -^(٤):

مِنْ أَسْفَلَ غُمْدَانٍ جَلَبْنَا جِيَادَنَا تَرَامِي إِلَيْكُمْ بِالْمُثَقِّفَةِ الشُّحْمِ

ونحوه في قوله أيضاً^(٥):

فَبِتْنٍ مُنَاخَاتٍ وَبِتْنَا كَأَنَّنَا أُسُودٌ تَخْطَى بَيْنَ صُمِّ الْأَخَاشِبِ

ومّا كان في أشعارهم من الظواهر اللُّغويّة ما يعرف بـ«القلب» وورد هذا في شعر عمرو العوفيّ في

قوله^(٦):

مُعَارَاتِي لِكُلِّ صَبَاحٍ يَوْمٍ يَغُصُّكَ عِنْدَهُ اللَّبَنُ الْحَلِيبُ

يذكر هذا البيت غارات عمرو العوفيّ التي يشنّها على العدو في كلّ صباحٍ فقوله: يغصك عنده اللبن

الحليب» فيه قلب، ففعل الغُصّة للإنسان وهنا جعله للحليب، فقلب الفاعل مفعولاً، ومنه ما جاء في كلام

(١) الديوان ق ٧٣/ب ٦ وانظر: حاشية البيت.

(٢) الديوان ق ١/ب ١٣.

(٣) الديوان ق ١/ب ٢٠.

(٤) الديوان ق ٤٩/ب ٤.

(٥) الديوان ق ٣١/ب ٢.

(٦) الديوان ق ٣٣/ب ٢.

العرب أدخلت الخُفَّ في رَجُلِي، والقُلُنْسُوةَ في رأسي. وهذا كما يقال: هُرِيقَ جَفَائُهُ، وَصَفِرَ وَطَائُهُ...، وَطُويَ حَصِيرُهُ وَخَلَّى مكانه^(١).

وثمة ضربٌ من الظواهر اللُّغوية نجدُها في أشعار الخولانيّين، وهو التصرّف في الأسماء بنقصان حرف من حروف الاسم منها قول عمرو بن زيد - مغرق الأكبر -^(٢):

مَثَلُوا بِأَمْثَلِنَا وَخَانُوا سُنَّةَ لَمْ يَأْتِهَا يَوْمًا جَبَابِرُ فَارِسِ

فقوله: جبابر أراد جبابرة فارس وقد حذف التاء لضرورة الوزن^(٣):

أَنَّ الْغُومَ مِنْ آلِ حَيٍّ قَلَدُوا إِخْوَانَهُمْ عَارًا بِفِعْلِ يَاسِ

ومن المخضرمين قول عمرو بن يزيد العوفي^(٤):

فَخَرَّ عُمَارُ الْخَيْرِ يَكْبُو لَوَجْهِهِ وَفَتَيَانُ صِدْقٍ فِي رَفِيعِ الْمَنَاسِبِ

إذ أراد بـ عمار «عمارة» فحذف التاء ضرورة.

ومن تصرّفهم في الأسماء ضرورةً ما نجده في قول يعلى بن سعد المالكي في قوله^(٥):

وَكَبَا عَلَى اللَّخْمِيِّ يَوْمَ حَلِيمَةِ وَالْخَيْلُ تُرَحِّضُ فِي نَجِيعِ أَحْمَرِ

فقوله: «اللّخمي» وهو يريد: «المنذر بن ماء السماء جدّ النعمان» الذي قُتِلَ يوم حليمة. ومنه أيضاً قول

الحارث السّعدي^(٦):

وَنَحَّوْا الْخَنْفَرَيْنِ وَآلَ عَوْفٍ بِقُصْوَى طَوْطٍ أَوْ بِرُكِّ الْغَمَادِ

فقال: «الخنفريين»، وهو يريد رفاعه ومحمّد ولدي ميمون بن حريز الخنفري الحميري.

(١) انظر: ديوان الحماسة (بشرح المازوقي) ١/ ٢٣٢ وفيها تعليق على مثل هذا في شعر لبعض حمير.

(٢) الدّيان ق ٣/ ب ٣.

(٣) الدّيان ق ٣/ ب ٢.

(٤) الدّيان ق ٣١/ ب ٥.

(٥) الدّيان ق ٥٤/ ب ١٣ وانظر تعليقنا على البيت في حاشيته.

(٦) الدّيان ق ٧٢/ ب ٨.

أما الظواهر النحوية في أشعار الخولانيّين فلم تكن بقدر اللغوية التي مرّت آنفاً، مع الإشارة إلى ورود بعض القضايا النحوية، التي يمكن للباحث أن يقف عليها، كان من أكثرها انتشاراً ظاهرة صرف ما لا ينصرف، وهي من الظواهر البارزة في أشعار القبائل عامّة. ولا يكاد يخلو منها ديوان قبيلة أو شاعرٍ عمد إلى هذا الضرب من ضرائر الشعر المخالفة لقواعد النحو العربيّ لتقويم عروض بيتٍ وإقامة وزنه، وهو في ذلك يردُّ الاسم إلى أصله من الصرف؛ لعلّة تدخل عليه من مجموعة علل^(١).

وكثرة هذه الظاهرة فيما انتهى إلينا من أشعار خولان تحول دون الإحاطة بها في هذا المبحث الموجز، ولهذا أضرب هاهنا أمثلةً من أشعار القوم، مُستَلّةً من كلّ عصرٍ، ولعلَّ صرفَ أسماء القبائل كان أوضح الأسماء صرفاً من ذلك ما نجده في قول عمرو بن زيد - مغرق الأكبر -^(٢):

إِذَا حَطَرْتُ حَوْلِي بِهَالِئِلْ كِنْدَةٍ فَمَا رَأَيْتِي عِنْدَ اللَّقَاءِ تَزُولُ

فصرف «كِنْدَة» وهو ممنوع من الصرف للعلميّة والتأنيث، لأنَّ عمرو بن زيد إنّما أراد القبيلة، ولم يردَّ الجَدَّ، فصرفه ضرورةً لإقامة الوزن ومثله في قوله أيضاً^(٣):

مَلْنَا عَلَى وَائِلٍ فِي وَسْطِ بَلَدِهَا وَذُو الْفَخَّارِ، كُلَيْبُ الْعِزِّ يَحْمِيهَا

إذ صرف «وائِل» وهو اسم علم على قبيلة من قبائل العرب.

ومثله في قول عمرو بن يزيد العوفي^(٤):

نَمَتْهُ إِلَى الْعَلَيَا يَدٌ مِنْ قُضَاعَةٍ وَعِرْقٌ إِلَى خَيْرِ الْمَغَارِسِ يَجْذِبُهُ

إذ صرف «قُضَاعَة»، وهو اسم ممنوع لعلّتين: للعلميّة والتأنيث. وصرف عمرو أيضاً «عذراء»، ضرورةً؛ لإقامة الوزن واستوائه؛ لأنَّ عذراء اسم ممنوع من الصّرف على وزن فعلاء، فقال^(٥):

وَحَرْباً تُذْعَرُ الشَّمْطَاءُ مِنْهَا وَتُطْمَثُ كُلُّ عَذْرَاءٍ وَبِكْرٍ

(١) انظر: شرح قطر الندى: ٤١٩ يذكر فيها ابن هشام الأنصاري العلل المانعة لصرف الاسم.

(٢) الديوان: ق ٤/ب ١، ضرائر الشعر ٢٢، ما يحتمل الشعر من الضرورة ٤٠-٤٣.

(٣) الديوان: ق ٦/ب ٢.

(٤) الديوان: ق ٣٢/ب ٢.

(٥) الديوان: ق ٤١/ب ٩.

وصرف أيضاً «غمدان» وهو اسم ممنوع من الصرف؛ للُعْجَمَةِ التي فيه، وزيادة الألف والنون، فقال^(١):

مِنْ أَسْفَلِ غُمْدَانٍ جَلَبْنَا جِيَادَنَا تَرَامَى إِلَيْكُمْ بِالْمُتَّقَةِ السُّحْمِ

وقوله أيضاً حينما صرف «أسامة» وهو اسم ممنوع من الصرف؛ لأنه علم مؤنث تأنيثاً لفظياً، حكمه في الصرف أو المنع كحكم المؤنث الحقيقي أو المعنوي، فقال^(٢):

وَأَنَا ابْنُ عَوْفٍ فِي فُرُوعِ أَسَامَةِ مِنْ خَيْرِ أَنْضَرِهَا ذُرَى وَغُصُونَا

ومما جاء في هذا القبيل شعرٌ للحارث السَّعْدِيّ، منه قوله^(٣):

وَدَارٍ بَقِيَّوَانٍ لَنَا كَانَ عِزُّهَا تَوَارَثَهَا نَسْلُ الْمُلُوكِ الْقِمَامِ

فصرف «قيوان» وهو اسم ممنوع من الصرف؛ لزيادة الألف والنون فيه، وللتأنيث والعلمية.

وصرف عمرو بن زيد الغالبيّ «ترج» و«مكة»، وهما ممنوعان من الصرف؛ للعلمية والتأنيث، فقال^(٤):

رَهِيْنَةَ ذُلٍّ، بَيْنَ تَرْجٍ وَمَكَّةِ كَذَلِكَ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ قَبَائِلُهُ

وصرف «سليم» و«عامر» وهما اسمان يدلّان على قبيلتين من قبائل العرب، فقال^(٥):

أُقَارِعُ كَيْدًا مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ وَحَقْدُهُمْ تَغْلِي عَلَيْهِ مَرَاجِلُهُ

ومن الظواهر النحويّة الملحوظة في أشعار القوم التي انتهت إلينا، ظاهرة الحذف – ولم تكن بالقليلة.

لذلك سأمثل لها بما يدلّ عليها في أشعارهم بكلّ عصر؛ ففي الجاهليّة نجد ذلك في قول علقمة الخولانيّ^(٦):

أَبَا الْمُنْذِرِ الْفَيَاضِ يَا خَيْرَ حَمِيرٍ وَخَيْرَ بَنِي ذُهَلٍ، إِلَيْكَ نُرِيدُ

فقوله: «أبا»؛ أراد يا أبا: على اعتبار أبا منادى مضاف بأداة نداء محذوفة منصوب.

(١) الديوان: ق ٤٩/ب ٤، وانظر المقتضب ٣/ ٣٣٥.

(٢) الديوان: ق ٥٠/ب ٣.

(٣) الديوان: ق ٧٧/ب ٣ وانظر: المقتضب ٣/ ٣٣٥.

(٤) الديوان ق ٨٣/ب ٢، وانظر: المقتضب: ٣/ ٣٥٨.

(٥) الديوان ق ٨٣/ب ٤.

(٦) الديوان ق ١/ب ٣٨.

ومن الحذف ما جاء في قول عوف الخولاني^(١):

قَوْمِي الْمَلُوكُ، ذَوِي الْمَكَارِمِ لَمْ تَزَلْ
أَهْلَ السَّوَابِقِ، فَضْلُهُمْ لَا يُنْكَرُ

فالملوك: اسم منصوب على الاختصاص بفعل محذوف تقديره «أخَصُّ»، ومثله في القرآن الكريم قوله

تعالى: ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] فنصب حمالة على تقدير فعل محذوف تقديره «أذُمَّ» وعلى هذا التوجيه تكون ذوي صفة منصوبة لمنصوب مثلها.

ومما جاء في شعر المخضرمين من الحذف قول عمرو بن يزيد العوفي^(٢):

سَأَثْرُكَ مَا أَرَدْتُ لِمَا أَرَادُوا
وَذَا وَاللَّهِ يَا يَعْلَى عَنَاءٌ

فقوله: «وذا» أراد: وهذا، حذف هاء التنييه.

ومما جاء في شعر الأمويين قول الحارث السعدي^(٣):

مَهَيْتُكَ قَدْماً يَابْنَ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ
تَرُدُّ صُدُورَ الْقَوْمِ دَائِمَةَ الْكَلِمِ

فقوله: «يابن زيد» أراد: يا بن يزيد، فحذف الياء ضرورةً. وغير هذا من مواطن الحذف ما يطول ذكره

ويتسع، ويجدر بنا هاهنا الإشارة إلى أمرٍ وهو أن الحذف كان في أشعار القوم على ضربين، الأول: حذف حروف ضرورة كما في قول العوفي السالف، والثاني: حذف ألفاظ بكليتها لدلالة السياق عليها كما مر في حذف أداة النداء، ومثل هذا الضرب في أشعار الخولانيين كثير^(٤).

ومن الظاهر المرصودة في أشعار القوم الترخيم؛ سعيًا وراء التخفيف، وقد وردت في ثلاثة مواضع:

الأول منها: جاء الترخيم فيه في غير باب النداء ضرورة شعرية في قول عمرو بن يزيد العوفي حينما رثى أبناء أخيه مسعود بن يزيد العوفي^(٥):

لَمْ يَكُنْ فِي سَرَاةٍ قَوْمِي نَظِيرٌ
لَابْنِ يَعْلَى وَمَالِكِ وَابْنِ حَارِ

(١) الديوان ق ٧/ب ١.

(٢) الديوان ق ٣٠/ب ٦.

(٣) الديوان ق ٧٨/ب ١.

(٤) الديوان ق ١٢/ب ٥، ق ٤٨/ب ٣، هذا على سبيل التمثيل لا الحصر.

(٥) الديوان ق ٤٢/ب ١-٢.

أَخَذَ الدَّهْرُ مَالِكاً وَابْنَ يَعْلَى وَابْنَ حَارٍ هُمَامَنَا بِاقْتِسَارٍ

ومثل هذا الترخيم أجازته المتقدمون البصريون من اللغويين، منهم سيبويه الذي عقد باباً لما رخت به الشعراء في غير باب النداء اضطراراً؛ لإقامة الوزن، وقد بدأه بيت لغيلان بن حريث الراجز، وأجازته الكوفيون ومنعه المبرّد^(١):

أما الموضع الثاني فكان في باب النداء، وورد في شعر المحنون العوفي القائل^(٢):

يَا حَارٍ مَهْلًا، فَإِنَّ الْقَوْلَ مَجْبَنَةٌ بَغَيْرِ فِعْلٍ، وَخَيْرُ النَّصْحِ مَا سُمِعَا

ومثل هذا جعل له النحاة شروطاً من مثل أن يكون معرفة، وإذا لم يكن مختوماً بالتاء فله ثلاثة شروط؛ أحدها أن يكون مبنياً على الضم، والثاني أن يكون علماً، والثالث أن يكون متجاوزاً لثلاثة أحرف مثل «حارث، وجعفر»^(٣). ونحو هذا الترخيم ما جاء في كلمة لعمر بن زيد الغالب^(٤):

يَا خَوْلٌ هَلْ تَجْمَعُنَا الدَّارُ بَعْدَ نَوَى أَمْ هَلْ يَمُودُ زَمَانٌ وَاصِلُ الرَّحِمِ

أراد خولان، فقصد أبناء قبيلته التي خرج منها مرغماً.

ومن الظواهر النحوية تصرفهم في استعمال بعض الحروف مكان بعضها الآخر، من ذلك ما جاء في قول الحارث بن عمرو السعدي^(٥):

وَقَدْ خَالَفْتُمُونِي فَأَشْرَبُوهَا مُصَرَّدَةً تُحْزُ عَلَى الْفُؤَادِ

فالأصل في معنى الحز: هو القطع من الشيء بغير إبانة، إلا أنه في البيت السالف جاء «تُحْزُ» بمعنى الوجد في القلب ونحوه، وقد عُدِّي بحرف الجر «على» والأصل فيه أن يُعَدَّى بحرف الجر «في»، وهو من باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض^(٦).

(١) انظر: الكتاب ٢/ ٢٦٩، ضرائر الشعر: ١٣٨، ما يحتمل الشعر من الضرورة ٩٥-٩٩، المقتضب ٤/ ٢٥١-٢٥٢.

(٢) الديوان ق ٦٥/ ب ١.

(٣) شرح قطر الندى ٢٩٠، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٤/ ٥٩ وما بعدها.

(٤) الديوان ق ٨٥/ ب ١.

(٥) الديوان ق ٧٢/ ب ١٢.

(٦) المقتضب ٢/ ٣١٩، أدب الكاتب: ٥٠٦، الخصائص ٢/ ٣٠٦، اللسان والتأج (حز).

ومن ذلك أيضاً تضمين «كذاك» معنى «لكن» بغية الاستدراك كما في قول عمرو المالكى^(١):
 فَأَصْبَحَ ذَاكَ الْمُلْكُ بُدَّدَ شَمْلُهُ كَذَاكَ اللَّيَالِي لَيْسَ يَبْلَى مُسَوِّكُهَا
 فالكاف بمعنى لكن لتتابع الكلام، وليست للتشبيه.

ومن الأمور النحوية ما ورد في شعر عبد الله بن الحارث السعدي في قوله^(٢):
 فَلَسْتُ أَبَالِي بَعْدَ مَا ظَفِرْتُ بِهِ يَمِينِي أَغَارَ النَّاسِ يَوْمًا أَوْ مَنَجِدُوا؟
 إذ استعمل «أو» بدلاً من «أم» المعادلة، والأصل أن يُعْطَفَ بأم المعادلة، وهي التي تأتي بعد همزة سواء بدليل استخدام الفعل (أبالي) الذي يعني سواء ومثاله قول الشاعر^(٣):

وَلَسْتُ أَبَالِي بَعْدَ فَقْدِي مَالِكًا أَمْوَتِي نَاءٍ أَمْ هُوَ الْآنَ وَقِيعُ
 هذا علاوة على حذف همزة الاستفهام في «أغار»، وأسلوب شائع في الشعر القديم الاستغناء عن همزة الاستفهام ومثاله^(٤):

فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيَا بِسَبْعِ رَمَيْنِ الْجَمْرِ أَمْ بِثَمَانِ
 ومن المسائل النحوية الملاحظة في أشعار القوم مجيء الضمير متصلاً بالفعل في قول خالد بن قيس الحيواني^(٥):

حَبَانَا الْمُلْكَ خَوْلَانُ بْنُ عَمْرٍو وَأَصْصَفَانَاهُ مِنْ دُونِ الْبَيْنَيْنَا
 اتصل ضمير «نا» الدال على الفاعلين بالفعل «أصفي» والهاء صارت بدلاً من إياه، وهذا ما يندرج تحت قول النحاة: إذا كان الفعل متعدياً لمفعولين، يجوز انفصال الثاني ويجوز اتصاله، ولا شذوذ فيه ولا ضرورة، والأصل في الضمير الاتصال؛ لأن الضمير وضع لاختصار الأسماء وتكثيف المعنى، ولهذا كانت حروفه غالباً أقل من ما يبنى عليه الاسم، والمتصل أشد تأديةً لهذا الغرض. وهذا ما ذهب إليه ابن مالك والرمانى

(١) الديوان ق ٦١/ب ٢.

(٢) الديوان ق ١٠٦/ب ٣.

(٣) انظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٣/٣٦٨، مغني اللبيب: ٦١.

(٤) انظر: مغني اللبيب: ٢٠، همع الهوامع: ٥/٢٤٠-٢٤١.

(٥) الديوان ق ١٧/ب ١.

وغيرهما، مخالفين سيبويه الذي كان على رأي الجمهور من النُّحاة الذين يقولون بفصل الضمير، لأنَّ ثاني الضميرين - حسب زعمهم - أصله خبر مبتدأ، ومن حقِّ الخبر الانفصال^(١).

وبعد: فإنَّ تَصَرُّفَ شعراء خولان في الشَّعر لغة ونحواً لم يكن بالبَدَع ههنا، إذ إنَّ الظواهر التي وُجِدَتْ في أشعارهم هي عند غيرهم من شعراء القبائل الأخرى، وربَّما كانت الظواهر النَّحويَّة في قبيلة ما أكثر بروزاً من قبيلة خولان، لترحال كثيرٍ من أشعار تلك القبيلة في مصنَّفات اللُّغة والنَّحو وتسيارها شواهد على كثيرٍ من المسائل النَّحوية والصَّرفية، بخلاف ما ظهرت به خولان من شعرٍ ظلَّ بعيداً عن أقلام الرِّواة وألسنة العلماء الذين كانوا لهم به سَعَةٌ بالدرس والاستشهاد، وهذا كلُّه جعل أشعار خولان معدومةً في كتب اللُّغة والنَّحو والمُعْجَمات.

(١) انظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ١/ ١٠٠-١٠١.

الخاتمة

سبق في ذؤابة هذا البحث القول في مكونات هذه الدراسة التي جُعِلَتْ في أربعة فصول، استفرغت فيها طاقتي فيما تضمنته من أفكار، وقضايا تتعلق بالقبيلة وأشعارها التي أصبت؛ لذا سيُشاح الطَّرفُ عن ذكر ما وقف عليه وبسط فيه القول خشيةً من مغبّة التكرار، وسيكتفى ههنا بالإشارة عمّا تمخّض عنه القول، بعد رحلة طال أمدّها مع خولان على أن يكون ذلك في إيجازٍ مكثّفٍ غير مخلٍّ يفني بالغرض ويبلغ المرام.

فأمّا ما يخصّ القبيلة الذي أفرد الفصل الأوّل خالصاً لوجهها، فبيّن فيه أشياء منها الآتي:

- اختصارُ نُسَابِ الشّام والعراق أنساب خولان اختصاراً مخلاً إمّا لبعده المكان، ولتقادم العهد، وإمّا لانشغال النُّسَاب عنهم بمن كان في أصقاعهم من أولاد مالك بن حمير، الذين فصّلت أنسابهم تفصيلاً، وهذا ما دفع الهمدانيّ الذي صارت إليه مصنّفات أنساب أهل الشّام والعراق إلى القول وتفصيله في أنساب خولان، وغيرها من القبائل اليمانيّة التي غُفِلَ عنها.
- إلحاق خولان أو بعض بطونها بغير أرومة نسب، عائداً فيما رجح لدى البحث إلى افتراض تلك البطون أصقاعاً دياراً لها، هي من قطائع غيرها، بل كانت لبعض حمير ومذحج وهاتان القبيلتان نالتا من الشهرة والنّباهة ما لم تنله خولان، ممّا دفع غير واحدٍ إلى إلحاق بعض خولان بهما، علاوة على بروز الحميريّة قوّةً ضاربةً بسطت ملاءتها على اليمن لستة قرون ونصف القرن (١١٥ ق.م - ٥٢٥ م) ما جعل عدداً لا بأس به من بطون العرب يلود بفيئها، ويحتبي بفنائها، لما لها من قوّة وعزّة.

- اعتياص كثيرٍ من أسماء خولان، ولا سيّما تلك التي وردت في النقوش المسنديّة، وعلى صفاح الحجارة، لتغيّر جُلّها مع تقاوم العهد عليها؛ إذ ماتت أصولها وربّما أصابها بعض التّغير، فإذا سمعها من ليس يخبرها، مجّها، وأنكرها، وهي بنت بيتها من مثل «الأخنوب» وهم الفرع الأصليّ من قبيلة خولان ممّن تولّوا أمر تجمّع القبيلة.

- الاتِّكاء على ما بسطه الهمدانيُّ من أنساب خولان في مصنَّفاتهِ والإكليل منها خاصَّة، والأخذ بقوله، وتقديمه على غيره من النُّسب لاختصاصه بخولان وغيرها من القبائل اليمانيَّة الَّتِي أَنهَبها شطراً من حياته، بعد عرضٍ سريعٍ عن مصادره الَّتِي استلَّ منها قالاته، ومنها السَّجَّلات والزُّبر والنَّقوش، وأخذه مشافهة عن شيوخ خولان وحمير وصعدة، وانتصاره لرأي شيخه اليهريِّ وتقديمه على غيره.
- أبرز ما يشكل على مَنْ يطلب أمواه خولان ومنازلها، سعتها، واشتمالها على أمكنة كثيرة متَّصلة بأصقاعٍ أُخر، مثل أرض سبأ، ومخلاف ذي جُرَّة، وصقع بلحارث بن كعب المذحجيين، وأهلان ومقرى الحميريين، وحقل صعدة، وغيرها من المواضع الَّتِي أُشير إليها في محلَّتها من الدِّراسة.
- بان في علاقة خولان بغيرها من القوى الضَّاربة كالأحباش والروم والفرس يوم كانت قبيلة كبيرة صاحبة شأنٍ، علاوة على ما كان بين بطونها وعشائرها وغيرها من القبائل اليمانيَّة أشياء يحسن التَّنبيه عليها، منها:
- لم تكن العلاقة بين بطون خولان علاقة طيِّبة كما كان متوقَّع لها، قائمة على التَّعاضد والتَّآلف ضدَّ الأخطار الخارجيّة الَّتِي تهدِّد أمن القبيلة، بل كانت علاقة قائمة على التَّنافس والتَّنحر الدَّائمين لغرض الذات وإثباتها.
- بروز خولان قوَّة ذات شأنٍ وقدر قبل الإسلام، كان لها أثرها الواضح في غير وقعة، ووقوفها إلى جانب جيرانها مثل حمير ومذحج ضدَّ ما هدَّد أمنها، وسلامة أصقاعها، كالَّذي حدث مع قبائل هوازن وسليم يوم انتظمت خولان وأخواتها من قضاة، مع مذحج بمعونة حمير، للوقوف في وجه أطماع قبائل قيس عيلان (هوازن وسلم)، وكان ذلك بتأثير التَّجاور في الدِّيار وعلاقات المصاهرة مع حمير.
- إغفال مصنَّفات الهمدانيِّ الإشارة إلى أيِّ بطن من خولان كان يتحمَّل أعباء الدِّفاع عن خولان وأصقاعها، إذا كانت العلاقة سيِّئة بين بطونها أو أنَّهم يجتمعون على كلمة واحدة حينما يهدِّد أمن قبيلتهم خطر خارجيٌّ.

- انضواء خولان تحت لواء الحميريّة واحتبائها بفنائها زمناً طويلاً، تجلّى ذلك في وقوفهم إلى جانب الحميريين في غير وقعة، كالذي حدث يوم الأشباء والصّدف، وبروز عمرو العوفيّ قائداً لسيف بن ذي يزن الحميريّ، إلّا أنّ هذه الحلف كان ينقلب إلى ضغائن تذكى، وسخائم لا تستلّ من مواضعها إلّا بتجريد سيوف الهند واليلبا.
- كانت خولان في نزاع مستمرّ مع همدان وبطونها وفُق ما صار إلينا من أخبار أوذيت أيّما إيذاءً، وتخرّمتها المنايا وتناهبتها أيادي الضّياح، فلم ينته إلينا منها ما ينقع بلّة ويشفي صادياً.
- مشاركة خولان أو أحد بطونها للأحباش في هدم الكعبة المشرفة (٥٧٥م).
- علاقة خولان بالروم هي علاقة الرّوم باليمن كلّها، وليس فيها ما يخصّ خولان صليبية، وإن كانت الحملة على اليمن (٢٤ق.م) قد مرّت بأرض خولان دون بسط القول في ذلك.
- كانت علاقة خولان بالفرس علاقة دامية لأجل بسط التّفوذ والهيمنة، التي رأت إليها الدّولة السّاسانيّة.
- ضمور الأخبار المتعلّقة بعلاقة خولان بدولة الإسلام النّاشئة، واتّساعها قليلاً في عهد الخلفاء الرّاشدين متمثلاً ذلك بمشاركة بعض رجالاتهم في حركة الفتح الإسلامي، وانتصارهم لمعاوية ابن أبي سفيان يوم صفّين، ودخولهم في خدمة بني أميّة، وشغلهم مناصب مهمّة حتّى سقوط دولتهم.
- محاولة تحديد زمن الأيام التي كانت بين خولان وغيرها من القبائل العربية بعراض الخبر الواحد على مصادر متعددة، ثمّ الانطلاق إلى كلمة يُطمأنّ إليها، وتفضي إلى نتيجة.
- أمّا عقيدة خولان فتبيّن أنّهم كانوا يعبدون الأجرام السّماويّة والكواكب و النجوم كما الممالك اليمنيّة التي صاقتها واطنبتها، وقد وقف القرآن الكريم في غير ما موضع على عبادتهم لتلك الأجرام. وأشار ياقوت الحمويّ أنّ اليمن كانت تتعبّد للنّار التي كانت حاضرة في خولان. وربّما جاءت هذه العبادة واحدة من الأمم المجاورة كالفرس والمجوس مثلاً.

- عبت خولان ما عبده قضاة من أصنام وأوثان، قُرب لها القرابين، وقَدَّس لها حتى خُصت بواحد من الأوثان هدمه أصحابه في السَّنة العاشرة من الهجرة، حينما وفدوا على رسول الله ﷺ مسلمين، ثمَّ ارتدَّت خولان عن الإسلام على خلاف بعض القبائل اليمانيَّة الَّتِي ثبَّت بعد وفاة النَّبِيِّ كحمير وهمدان وخثعم.

- أمَّا الفصل الثَّاني الَّذِي صرفه الباحث لدراسة أشعار القوم فتبيَّن فيه:

- احتجاب كثير من أشعار خولان عن أقلام العلماء وأفواه الرِّواة وتفرَّد الهمدانيُّ بروايتها، إذ يقول: «لو كانت صعدة في القديم من البلدان الَّتِي رحل إليها أصحاب الحديث؛ لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار صنعاء.....»

- لم يتبيَّن إِبَّان البحث والتَّنْقير أنَّ أشعار خولان قد جمعت في مجموعٍ مستقلٍّ فيما سلف، ويُرجَّح الباحث أن تكون أشعار خولان قد جمعت في أشعار قضاة، أو أنَّ الهمدانيَّ هو الأوحد الَّذِي انتهت إليه قوافي القوم في مصنَّفات ضاع جلُّها، ولم ينبج من غوائل الأيام سوى الإكليل الَّذِي كان مظنةً وجود كثير منها، إذ أفضى البحث إلى جمع سبعٍ وتسعين وخمسمئة بيت / ٥٩٧ / خالصة النِّسبة إلى خولان.

- انعدام الاضطراب في أشعار خولان لعدم ترحالها في المصادر والمظانَّ ما جعلها بعيدة عن ألسنة العلماء والرِّواة، وهذا ما أسبغ عليها صفة الصِّفاء والبعد عن ما يمكن أن يجعلها عرضة للاضطراب بين هذا وذاك.

- قلة الأشعار الَّتِي دار الشُّكُّ حول صحَّة نسبتها إلى أصحابها؛ لعدم سيرورتها في المظانَّ والمصنَّفات.

- أمَّا ما جاء في الفصل الثَّالث من تناولهم لموضوعات الشُّعر، فظهر فيه بينونة غرض الغزل الَّذِي نأى بنفسه عن مقيل موضوعات القوم بعيداً، بعيداً وقد حاول الباحث تلمُّس العذر والسَّبب في تلك البينونة في موضعها من الدِّراسة.

- كان تصرُّفهم في الفصل الرَّابع الَّذِي أفرد للحديث عن الخصائص الفنيَّة كتصرُّف غيرهم.

- وثمة أمور يحسن التنبيه عليها جاءت في ديوان القبيلة:
- صعوبة تصياد ترجمات الأعلام الواردة في أشعار خولان من مصنّفات الهمدانيّ، لتراميتها على صفحات كثيرة، ما دفع الباحث إلى الإسهاب في ترجمتها في حواشي الديوان، وجعلها أصلاً يرجع إليه لطالبه.
- اشتغال الديوان الذي صار إلينا على شاعرٍ له من الشعر ما ينهض بديوان على حياله، وعدّة ما اجتمع من أشعاره سبع وعشرون ومئة بيت في ثلاثة وعشرين نصّاً بين قصيدة ومقطعة ومنتفة وبيت نادّ، حوت جميعها أغراض الشعر التقليديّة المعروفة عدا الغزال.
- ذهاب معظم أشعار الحارث السعديّ - وهو أمويّ - بغرض الحكمة إذ عدّ من حكماء خولان وحلمائها.
- وبعد: فإنّ هذه الدّراسة قامت على ما اجتمع للبحث من أخبار هذه القبيلة، وأخبار شعرائها وأشعارهم، على أنّ كلّ ما قيل رهين بما تحصّل للباحث من أدوات البحث ومادّته، وكلّ الأحكام الواردة فيه عرضة للتّغيير إذا ما عُثر على جديدٍ يزيل عثرة، ويكشف النقاب عن أشعارٍ جديدة، وأخبارٍ من شأنها تغيير ما تُوصّل إليه من نتائج.

الملاحق

معجم مواضع خولان

والمواضع الواردة في شعرها^(١)

أَبْدَر: بفتح أوله، على زنة أَفْعَل، جبلٌ في ظاهر سِراةِ خَوْلَانَ المشهورة بـ(الْقَدِّ) وهو لبني عوير من بني مالك من آل ربيعة بن سعد بن خولان^(٢)، وهو من الجبال التي في رؤوسها الماء والمرعى والزروع^(٣).

أَبْرَاق: بفتح أوله، وسكون الباء، وفتح الرَّاء، موضع في أعلى وادي بيش، سكنته خولان قضاة^(٤).

أُثَافٌ*: لم أقف عليه في كتب البلدان ومعجمات العربية. ولعلّه (أُثَافِت) بفتح أوله، وبالفاء المكسورة والتاء فوقها نقطتان، اسم قرية باليمن ذات كروم كثيرة، قال الهمداني: «وتسمّى أُثَافَة بالهاء، والتاء أكثر. قال وخبرني الرئيس الكباري من أهل أُثَافِت قال: كانت تُسمّى في الجاهليّة (دُرْنَى) وإياها أراد الأعشى بقوله:

أَقُولُ لِلشَّرْبِ فِي دُرْنَى وَقَدْ ثَمَلُوا شَيْمُوا، وَكَيْفَ يَشِيمُ الشَّارِبُ

وكثيراً ما كان الأعشى يتخرّف فيها، وكان له بها مِعْصَرٌ للخمر، يعصر فيه ما أجزل له أهل أُثَافِت من أعنابهم، قال الأصمعي: وقفت باليمن على قرية، فقلت لامرأة: بم تسمّى هذه القرية؟ فقالت: أما سمعت قول الشاعر الأعشى:

أَحِبُّ أُثَافِتَ وَقْتَ القُطَافِ وَوَقْتَ عُصَاةِ أَعْنَابِهَا

(١) ميّزت المواضع الواردة في الشعر بنجمة (*) أمام كلّ واحد منها، ما لم تكن من مواضع خولان، فإن كانت من مواضعهم ميّزت بنجمتين (**).

(٢) صفة جزيرة العرب: ١١٦، الإكليل: «المخطوط ٨٧/١، المطبوع ٣٦٩/١».

(٣) صفة جزيرة العرب: ٢٤٩، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١٤/١.

(٤) صفة جزيرة العرب ١١٧، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١٦/١.

يسكنها آل ذي كُبار وَوَادِعَة^(١).

الأَخَاشِبُ*: بالشين المعجمة والباء الموحدة، جبال اجتمعت بالصَّمان في محَلَّة بني تميم، ليس بقربها أكمة ولا جبل، والأَخَاشِبُ: جبال مَكَّة وجبال مِنى وجبال سود قريبة من أجأ، بينها رملة ليست بالطويلة، وجاء في الأَخَشَب: كُلُّ جَبَلٍ خَشِنٍ غليظٍ، وهو الذي لا يُرْتَقى فيه، وقيل في الحديث: لا تزول مَكَّة حتَّى يزول أخشباها، وهما جبلاها، وفي حديث جبريل عليه السَّلام قال: يا مُحَمَّد إن شئت جمعتُ عليهم الأخشبين، فقال دعني أُنذِرُ قومي، والأخشبان الجبلان المطيفان بمَكَّة وهما أبو قبيس وقعيقعان ويسميان الجبجيان ذكرهما عمرو بن زيد الغالبِي بقوله^(٢):

سَلِي تُخْرِي يا هِنْدُ، هَلْ عَفْتُ مَشْرِي وهل عَافَهُ قَوْمِي بِجَنْبِ الأَخَاشِبِ

الأَخْبَاب: اسم موضع لبني سعد بن خولان^(٣).

أَرْض الأَبْقُور: سُمِّيت باسم البطن الذي حلَّ بها وأقام، وهم بنو الأَبْقُور من خولان^(٤).

أَرْض بني حذيفة: نسبت إليهم، وَمَنْ بالتصغير، قَبِيلَةٌ من جُمَاعَةٍ من خَوْلَان^(٥).

أَرْض الشَّرْو: بتشديد الشين المعجمة والواو، سكنها بنو بَحْر بن خولان^(٦).

أَزَال*: بفتح أوله: الاسم القديم لمدينة صنعاء، هي إحدى جنَّات الأرض عند كافَّة الناس، وهي أمَّ اليمن وقطبها؛ لأنَّها في الوسط، منها ما بينها وبين عدن كما بينها وبين حدَّ اليمن من أرض نجد والحجاز، وهي تُشَبَّه بدمشق لكثرة فواكهها وتدفع مياهها، فلمَّا وافتها الحبشة ونظروا إلى مدينتها

(١) جمهرة اللُّغة ٣/ ١٠٩، صفة جزيرة العرب ٩٧، معجم ما استعجم ١/ ١٠٥ معجم البلدان ١/ ٨٩، والتَّاج (ثفت) والديوان

ق ١/ ٢٢، وانظر: ديوان الأعشى ٢٠٩، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٢٤.

(٢) معجم ما استعجم ١/ ١٢٣، معجم البلدان ١/ ١١٩، الروض المعطار ١٨، تهذيب اللُّغة ٧/ ٩٠ اللسان والتَّاج و(خَشَب) والديوان: ق ٧٩/ ١.

(٣) صفة جزيرة العرب ٢٤٩، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٤١.

(٤) صفة جزيرة العرب ١١٧، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ١٧.

(٥) صفة جزيرة العرب ١١٧.

(٦) صفة جزيرة العرب ١١٦.

فأوها مبنية بالحجارة، قالوا: هذه صنعة، وتفسيرها بلسانهم حصينة، وقيل سُميت بأول من نزلها وهو صنعاء بن أزال بن يعير بن عامر، وقيل: أول من نزلها وأسن قصبتها عُمدان بن سام بن نوح. ليس في بلاد اليمن أقدم منها عهداً، ولا أكبر قطراً، ولا أكثر ناساً، ولا أطيب هواء؛ حتى غدت مُصطافاً للملوك والأقيال والأمراء. وقد أفرد الهمداني لها حديثاً طويلاً، وقد ذكرها علقمة الخولاني في داليتة اليتيمة^(١):

فَلَمَّا رَأَيْنَا مِنْ أَزَالٍ قُصُورَهَا تَبَادَرْنَا مُحْبِرٌ وَبَرِيدٌ

أَسَل: بفتح أوله وثانيه، وقد تكسر السين، بُليدة في خولان العالية^(٢).

الأسلاف: نجد لخولان صعدة من ناحية الغرب^(٣).

الأسوق: ويسمى دلاني، جبل في بلد خولان^(٤).

أَفْقَيْن: بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر القاف، موضع في ظاهر صعدة سكنته خولان^(٥).

أَنَافِيَة: بضم أوله وفتح ثانيه، موضع في سراة خولان، سكنته خولان صعدة^(٦).

البار: بالباء الموحدة آخره راء، قرية كبيرة في اليمن، وفيها سوق البار، وهو بلد بين صعدة وعثر، وهو بالتحديد بين الخصوف والمينا، في أعلى وادي خلب، ومنه تستخرج المعادن. كان ينزله بنو رازح بن خولان^(٧).

(١) الإكليل ٨/ ١٠، معجم ما استعجم ٣/ ٨٤٣، معجم البلدان ٣/ ٤٢٥، الروض المعطار ٣٥٩، والديوان ق ١/ ٣٦، وصفة

جزيرة العرب ٨١، وانظر: آثار البلاد وأخبار العباد ٥٠، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٥٥.

(٢) صفة جزيرة العرب ١٦٠، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٦٤.

(٣) صفة جزيرة العرب ١١٦، ١٦٤، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٦٤.

(٤) صفة جزيرة العرب ٢٦٦.

(٥) صفة جزيرة العرب ١٦٤، ٢٤٩.

(٦) صفة جزيرة العرب ١٢٦، ٢٥٠.

(٧) الجوهري العقيقتين المائتين ٨٦، صفة جزيرة العرب ١١٧، معجم البلدان ١/ ٣١٩.

بُخْتَرُ: بضم أوله وسكون ثانيه وضمّ الثاء، بلد باليمن، كانت لسبأ بن سليمان الخولاني^(١).

بدر: موضع لخولان، سكنته بنو حي بن خولان^(٢).

بَرْكُ الغَمَادِ*: بفتح الباء وكسرهما، وبكسر الغين المعجمة وضمّها: في أقصى اليمن وقد ورد ذكر هذا الموضع في قصيدة واحدة في ديوان خولان للحارث السعديّ الذي يقول:

وَنَحَّوْا الْخَنْفَرَيْنِ وَآلَ عَوْفٍ بِقَصُوَى طَوُطٍ أَوْ بَرْكِ الْغَمَادِ

قال الهمداني: «وفي الحديث أنّ أبا الدرداء قال: لو أعيتني آية من كتاب الله عزّ وجلّ، فلم أجد أحداً يفتحها عليّ إلّا رجلٌ بَرْكِ الْغَمَادِ لرحلت إليه، وهو أقصى حَجَرٍ باليمن ذكر برك الغماد، ثمّ ذكر موضعه من قصور اليمن، قال أبو محمّد: قد ذكر بَرْكِ الْغَمَادِ محمّد بن أبان الخنفرّي، وهو بلد الخنفرّيّين بناحية جنوبي منّعج»^(٣).

بَرْكُوت: بالفتح، وضمّ الكاف، وسكون الواو وآخره تاء مثناة: من قرى مصر، نسب إليها أبو الحسن علي بن محمّد بن عبد الرحمن بن سلمة الخولانيّ البركونيّ المصريّ^(٤).

البَطْنَان: وادٍ في أسفل العَشَّة قرب صعدة، افترشته خولان صعدة منزلاً لها^(٥).

بَهْتَرُ*: اسم موضع لم أَصِبْهُ في مصنّفات البلدان ومعاجم العربيّة، ورد في شعر علقمة الخولانيّ^(٦):

فَلَمَّا بَطْنَا السَّهْلَ مِنْ تَحْتِ بَهْتَرٍ وَأَسْفَرَ مِنْ ضَوْءِ الصَّبَاحِ عُمُودُ

(١) معجم البلدان ١/ ٣٤١.

(٢) صفة جزيرة العرب ٢٥٠، ٢٦٦، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ١٤٤.

(٣) صفة جزيرة العرب: ٣٦٦، ٣٦٩ وفيه: «حنوي منّعج» تصحيف وتحريف وصوابه في معجم البلدان: ١/ ٤٠٠، وفيه «محمّد بن أبان بن جرير الخنفرّي» براءين مهملتين؛ وهو تصحيف والصواب «حريز» وانظر: معجم ما استعجم ١/ ٢٤٤-٢٤٥. والروض المعطار ٨٦، اللسان والتّاج «غمد» وفيهما كلام حسن، وديوان خولان: ق ٧٢/ ب ٨.

(٤) معجم البلدان ١/ ٤٠١.

(٥) صفة جزيرة العرب ١٦٤، ٢٤٩.

(٦) الدِّيوان ق ١/ ب ١١.

بُوبَانٌ* : بضمّ الباء وسكون الواو وباء مفتوحة وآخره نون، بليدة من أرض همدان حيث تقيم
وادة بن حاشد بن جشم بن همدان التي تقطن ما بين الغائط وتهامة من نجد والسرارة في شمالي
صنعاء ما بينها وبين صعدة بلد خولان، ذكره علقمة الخولاني في قوله (١):

تَرَامَتْ بِبُوبَانٍ بِأَوَّلِ لَيْلِهَا وَمَاءِ أَثَافٍ وَالْعُرَيْبُ رُقُودُ

بُوصَان: بفتح الباء وسكون ثانيه وفتح الصاد وآخره نون؛ موضع بأرض خولان من ناحية
صعدة باليمن، يسكنه بنو جماعة من خولان، ولبنو رشوان بن خولان سراتها إلى موضع دفا (٢).

تَرْج* : بفتح أوله، وسكون ثانيه، وآخره جيم، قال أبو حاتم عن الأصمعي: هو موضع ببيشة،
وهو من بلاد خثعم، شهر بكثرة الأسد فيه والغيلان حتى قيل: فيه مأسدة عظيمة، وقيل: تَرْج وبيشة
قريتان متقاربتان بين مكة واليمن في وادٍ، ويوم تَرْج مشهور في أيام العرب، أسر فيه لقيط بن زرارة،
أسره الكميت بن حنظلة، قاله ياقوت وقد ورد في قول عمرو بن زيد الغالبي يوم ظعن بأهله
وجاور في خثعم:

رَهِينَةٌ ذُلٌّ بَيْنَ تَرْجٍ وَمَكَّةٍ كَذَلِكَ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ قَبَائِلُهُ (٣)

تَضْرَاع*** : بفتح أوله وسكون ثانيه وراء مفتوحة، موضع لبني حمرة من خولان؛ ذكره أحد
حكماء بني سعد وشعرائهم وهو الحارث بن عمرو السعدي بقوله:

لَنَا الدَّارُ فِي تَضْرَاعٍ بَاقٍ رُسُومُهَا بِهَا كَانَ أَوْلَادُ الْحُمَاةِ الْخُضَارِمِ (٤)

(١) صفة جزيرة العرب ١٥٩، ٢٣٩، الديوان ق ١/ ٢٢، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٢٠١.

(٢) صفة جزيرة العرب ١١٧، معجم البلدان ١/ ٥٠٩ وفيه: «أهله بنو شرحبيل بن الأصفر بن هلال بن هاني بن خولان...»
مصحفاً محرفاً. وانظر: طائفة من أوزان أسماء القبائل والبلدان في اليمن ص ٢٥٧، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٢٠٤.

(٣) صفة جزيرة العرب ١٦٧، معجم ما استعجم ١/ ٣٠٩، معجم البلدان ٢/ ٢١، اللسان والتاج (ترج) والديوان:
ق ٨٣/ ٢.

(٤) صفة جزيرة العرب ١٢٤، ٢٥٠، وانظر: الإكليل: المخطوط ١/ ١٠١، المطبوع ١/ ٤١٠، والديوان: ق ٧٧/ ١، ومعجم
البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٢٣١.

التَّنَاعُمُ: قال الهمدانيُّ: «التَّنَاعُمُ على لفظ المصدر من تَنَاعَمَ، من النعيم: وهو وادٍ بمخلاف هَمْدَانَ، سُمِّيَ بالتَّنَاعُمِ وهم حيٌّ من خولان، قال: وتَنَعِمَة: حصن لبني خيار من خولان. وقال وتنعم: موضع لهم أيضاً» وقيل: هو وادٍ كبير فيه أودية صغيرة منها سَحَر وصَبَر^(١).

التَّهَائِمُ*: واحدها (تِهَامَة) بالكسر ثُمَّ الفتح، وهي قطعة من اليمن، وهي جبال مشتبكة؛ أولها في بحر القلزم ومشرفة عليه، وحدودها في غربها بحر القلزم وفي شرقها جبال متصلة من الجنوب إلى الشمال، وفي شرقها مدينة صعدة وجرش ونجران، وفي شمالها مكَّة وجَدَّة، وفي جنوبها صنعاء، وسميت تهامة لتغير هوائها من قولهم تَهَمَّ الدُّهْنُ وَتَمَّه إِذَا تَغَيَّرَ رِيحُهُ وقد ذكرها الحارث السعديُّ بقوله^(٢):

وَيَسْنَمُ دَارُ الْعِزِّ مَنْ دِمَّتِي دَفَا إِلَى أَسْفَلِ الْمُعْشَارِ فَرَعَ التَّهَائِمِ

تَوَعَّر: بفتح التاء، وسكون الواو وفتح العين المهملة، وادٍ نزلته خولان^(٣).

ثَرْبَان: بفتح الثاء وسكون الراء والباء موحددة، موضع من أدنى أودية مسور خولان العالية، وهو ذو أعناب طيبة. وجاء عند ياقوت: «حصن من أعمال صنعاء باليمن»^(٤).

جَاوِي: بالياء، موضع في بلد خولان، وقيل: هو أشبه بالأسماء العربية^(٥).

جُبْلَان (العركبة): بضم فسكون؛ قال ياقوت: «بلدٌ واسعٌ باليمن» وهو بين زبيد ووادي رمع. يسكنه الشَّراحيون؛ منهم آل يوسف ملوك تهامة، والوصابيون من سبأ الأصغر. وجُبْلَان ريمة:

(١) صفة جزيرة العرب ٢٣٧، ٣٥١، ٢٦٥، معجم ما استعجم ٣٢١/١، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ٢٤١/١.

(٢) معجم ما استعجم ١٣/١، ٣٢٢، معجم البلدان ٦٣-٦٤، الرُّوض المغطار ١٤١، صورة الأرض ٤٣، والدِّيوان: ق ٧٧/ب ٤.

(٣) صفة جزيرة العرب: ٢٣٦، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ٢٤٥/١.

(٤) صفة جزيرة العرب: ١٥٣، ٢٣٧، معجم البلدان ٧٥/٢، التَّاج (ثرب) وفيه عن معجم البلدان «الثَّرْبَان بفتح أوله، وكسر ثانيه، جبلان في ديار بني سليم»، وانظر طائفة من أوزان أسماء القبائل والبلدان في اليمن ٢٥٨، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ٢٥٤/١.

(٥) معجم ما استعجم ٣٥٩/٢.

وهو ما فرّق بين وادي صنعاء العرب ووادي رمع، ومنها تُجَلَّبُ البَقَرُ الجبلانيّة العرب الحرش الجلود إلى صنعاء وغيرها، وهي بلاد كثيرة البقر والزروع والعسل، ويسكن هذا البلد بطون من حمير من نسل جُبَلَان بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث ابن قَطَن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير. والصَّرَاف، وبنو حي بن خولان، وهم ملوكُهَا^(١).

جُحَفَان: بضمّ فسكون، آخره نون. وادٍ من أودية تهامة يلي خَلْب، أعلاه في خولان وأسفله في تهامة^(٢).

الْجَلْهَتَيْنِ[❦]: موضعٌ، ذكره علقمة الخولاني في داليته اليتيمة ولم أتبيّنهُ. إلا أنّه جاء في معجم البلدان: «الجلهتان: موضعان بالحمى، حمى ضَرِيَّة»^(٣).

جَنَد: بفتحتين، قال الحميري: «مدينة باليمن، كبيرة حصينة، كثيرة الخيرات بها قوم من خولان، وبها مسجدٌ جامعٌ، بناه معاذ بن جبل رضي الله عنه حين نزلها، وهو الذي يُذَكَّرُ أنّ ناقته بركت في موضعه فقال: خلوا سبيلها إنّها مأمورة، فأمر ببناء المسجد في ذلك الموضع. وهذا كالذي فعله رسول الله صلى الله عليه وآله عند مجيئه المدينة، ثمّ بركت في صنعاء أيضاً فبنى المسجد بها. ومن الجند يجلب إلى مكّة وغيرها ملاحف القطن المنسوبة إلى سحول، وهو وادٍ بقرب الجند»^(٤).

الْجَوُّ[❦]: بالفتح وتشديد الواو، وهو في اللّغة ما اتسع من الأودية، وهو اسم لناحية اليمامة، وإنّما سمّيت اليمامة بعدُ باليمامة الزَّرْقَاءِ في حديث طَسَم وجَدِيس يقول الملك الحميري:

وَقُلْنَا فَسَمُّوْهَا الْيَمَامَةَ بِاسْمِهَا وَسِرْنَا وَقُلْنَا لَا نُرِيدُ إِقَامَهُ

(١) صفة جزيرة العرب ٢٢٢-٢٢٣، معجم ما استعجم ٢/ ٣٦٥، معجم البلدان ٢/ ١٠٢، وبيت ابن مقبل في ديوانه ٢١٩.

(٢) صفة جزيرة العرب ١١٧، ٢٥٩.

(٣) معجم البلدان ٢/ ١٥٧، الديوان ق ١/ ب ١.

(٤) الرّوض المغطر ١٧٥-١٧٦، معجم ما استعجم ٢/ ٣٩٧، معجم البلدان ٢/ ١٦٩. وفيها لم يُذكر أن قوماً من خولان نزلها، وانظر: ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٣٥٩.

وجو الخضارم باليامة، وجو الجواودة: باليامة وجو سويقة، وجو أثال، وجو مُرامر يقال لهما الجوان، وجو قرية بأجاً لبني ثعلبة بن درماء، وجو الملا وهو لبني يربوع، فحلّت عليها فيه بنو جَذِيمة بن مالك بن نصر بن معين بن أسد، وذلك في أول الإسلام فانتزعتهم، وقد ظعن عمرو ابن زيد الغالبي بقومه إثر وقعة بينهم وبين أبناء عمومته إلى ناحية اليامة يقول، مستعطفاً قلب جرير ابن خالته، وسائلاً إياه العودة:

أَمَسْتُ مَنَازِلَنَا بِالْجَوِّ شَاسِعَةً وَنَحْنُ إِخْوَتُكُمْ فِي نَبْعَةِ الْكَرَمِ^(١)

الْحَاوِيَاتِ: موضع في بلد خولان صعدة، فيه زروع وخُضْرَةٌ^(٢).

حَبَابُض: بفتحين وكسر الباء. وادٍ، كان فيه سدٌّ مشهورٌ لخولان^(٣).

الْحَبْطُ*: بفتح فسكون، موضعٌ في أسفل وادي مَذَاب، لخولان، فيه ماء لا ينزح، ذكره علقمة الخولاني بقوله:

طَوَيْنَ جَمِيلَ الْخَافِقَيْنِ بِسَحْرَةٍ وَمرْتُ بِمَاءِ الْحَبْطِ وَهِيَ تَهْودُ^(٤)

الْحِجَابَات: بكسر الحاء وفتح الجيم، موضع لخولان صعدة^(٥).

حَرْجَب: بفتح الحاء المهملة وسكون الرَّاء وجيم وباء، بلد لبني حَيٍّ بن خولان^(٦).

حَرَضُ: «بفتحين؛ وهو في اللُّغة الذي أذابه الحزنُ: وهو بلد في أوائل اليمن من جهة مَكَّة، نزله حَرَضُ بن خولان بن عمرو بن مالك بن حمير، فسَمِّي به، وهو اليوم بين خَوْلَانَ وَهَمْدَانَ» قاله

(١) صفة جزيرة العرب ٢٥٩، ٣٤١، معجم ما استعجم ٢/ ٤٠٧، معجم البلدان ٢/ ١٩٠، الرّوض المعطار ١٨٠، والدِّيوان:

ق ٨٥/ ب ٣، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٣٦٩.

(٢) صفة جزيرة العرب ١٦٤، ٢٤٩، ٤١٧.

(٣) صفة جزيرة العرب ٢٣٨، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٤٠٢.

(٤) صفة جزيرة العرب ١٦١، ٤١٤، والدِّيوان ق ١/ ب ١٤.

(٥) صفة جزيرة العرب: ١١٦.

(٦) صفة جزيرة العرب ١١٦، ٢٥٠.

ياقوت، وهو وسطٌ من الأودية وله فرعان: فالجنوبي منهما من الشقيقة وما اكتنف المحجة، ومنها إلى حَرَضٍ من بلد عُدْر، وبلد حَجُور إلى المباح فالمرير، والشَّمالِي منهما، نَقِيل مطرق وما اكتنف المسيل منه إلى بلد عُدْر، وبلد بني شهاب بن العاقل إلى معين الحنش حتى يلتقي بالفرع الثاني بالسرين فينقحان كلاهما اللَّصَابَ، وهو أعلى وادي حَرَضٍ، ويمده الشُّعَابُ يَمَنَةً من بلد خولان، ويسرَّةً من بلد همدان ويصب إلى السقيفتين^(١).

حُرَيْب: جاء في اللسان حُرَيْب: تصغير الحرب، بغير هاء، رواية عن العرب؛ لأنَّها في الأصل مصدر، ومثلها ذُرَيْعٌ وقُوَيْسٌ وفُرَيْسٌ وقُدَيْرٌ، وكلُّ ذلك تأنيث يُصَغَّرُ بغير هاء، وهو وادٍ أعلاه لخولان ويسمَّى حُرَيْبُ خَوْلَانَ الْقَرَامِشِ، وأسفله لَنَهْمٍ مِنْ بَكِيلِ بْنِ جُشَمِ بْنِ حَيْرَانَ بْنِ نَوْفِ بْنِ هَمْدَانَ ويسمَّى حَرِيبَ نَهْمٍ^(٢).

حَضْبَر: بفتح فسكون وفتح وآخره راء، موضع لبني سعد بن خولان في شمالي صعدة^(٣).

حَضِير: بفتح فكسر، موضع في شرقي صنعاء لخولان العالية^(٤).

الحقل^{***}: (مخلاف الحقل) قال ياقوت: «باليمن، ويقال له حقل جَهْرَان، وقال ابن الحائك: الحقل من بلاد خولان من نواحي صعدة، كانت خولان قتلت فيه أخاً للعبَّاس بن مرداس السُّلَمي» وقد ذكره إبراهيم بن كُثَيْفٍ الشُّهَابِيُّ بشعره في قوله:

مَلَكْنَا حَقْلَ صَعْدَةَ، فَالْعَوَالِي مَلَكْنَا السَّهْلَ مِنْهَا وَالْحُزُونََا

(١) صفة جزيرة العرب ١٢٥، معجم ما استعجم ٤٣٩/٢، وفيه: «وادي حَرَضٍ [بضمين] باليمن يسكنه بنو عامر من هَمْدَانَ»،

معجم البلدان ٢/٢٤٣، التَّاج (حرض)، و معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/٤٤٦.

(٢) صفة جزيرة العرب ١٥١، المسالك والممالك: ١٣٨، اللسان (حرب).

(٣) صفة جزيرة العرب ١٦٤، ٢٤٩، ٤١٨، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/٤٧٥.

(٤) معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/٤٧٥.

وقيل: وسُمِّي الحقل باسم رجل وهو ذو قُباب بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن أيمن بن الهميسع بن حمير^(١).

حمص ❦: مدينة مشهورة من مدن الشام، وتدلُّ الأخبار على أنَّ بعضاً من خولان سكن فيها بعد فتحها، يقول ابن عساكر بسنده عن الوليد بن مسلم: إنَّ أبا مسعود الخولانيَّ شهد خطبة عمرو بن الخطاب بالجابية في السنة السادسة عشرة للهجرة، وسمع أبا عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل، وسكن حمص^(٢). كما ذكر ابن عساكر في موضع آخر من تاريخه ناقلاً عن ابن سعد في تسمية من نزل الشام من أصحاب رسول الله ﷺ أبو عنبَةَ الخولانيَّ وشهد اليرموك وخطبة عمر بالجابية وصحب معاذ بن جبل^(٣) ويضاف أيضاً إلى ما سلف أنَّ مرثد بن سُمِّي الأوزاعيَّ ويقال الخولانيَّ وهو من قراء أهل الشام شهد اليرموك وسكن حمص^(٤) وفي هذا دليل على أنَّ عدداً من خولان كان في حمص. وقد ذكرها عمرو السَّعديُّ بقوله^(٥):

أَبُونَا الَّذِي دَاخَ الْعِرَاقُ بِخَيْلِهِ وَدَانَتْ لَهُ مَا بَيْنَ حِمَصَ وَفَارِسِ

حيَدَان: بفتح فسكون وفتح الدال المهملة وألف ونون. وادٍ وبليدة مشهورة في خولان قضاة من أعمال صعدة، في ضاحيتها الشمالية ربوة صغيرة تقع في أعلاها قرية صغيرة تدعى الشاهد، وفي صرح مسجد الصغير الوحيد قبر علامة اليمن الإمام نشوان بن سعيد الحميري المتوفى ٥٧٣هـ، هي لبني شهاب بن العاقل من كندة أحلاف آل ربيعة بن سعد بن خولان^(٦).

(١) الإكليل: «المخطوط ١١٩/١، المطبوع ٤٥٧/١»، معجم البلدان ٢/ ٢٧٩ وفيه «بالعوالي» تصحيف، وانظر:

الدِّيوان: ق ١٠٤/ ب ١. والتَّاج (حقل).

(٢) تاريخ دمشق ٦٧/ ٢٢٥.

(٣) تاريخ دمشق ٦٧/ ١٢٠-١٢٣.

(٤) تاريخ دمشق ٥٧/ ٢٠٢-٢٠٥.

(٥) انظر: الدِّيوان: ق ٦٣/ ب ٨.

(٦) صفة جزيرة العرب ١١٦، ٢٥٠، وانظر: (طائفة من أوزان أسماء القبائل والبلدان في اليمن) بحث في مجلَّة مجمع اللُّغة العربيَّة

بدمشق العدد ص ٢٦٢، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٥٤٢.

حَيْسُ: بفتح فسكون، قال ياقوت: «هو بلد وكورة من نواحي زبيد باليمن، بينها وبين زبيد نحو يوم للمُجِدِّ، وهو كورة واسعة؛ قال المسلم بن يغم المالكِي^(١) :

أَمَّا دِيَارُ بَنِي عَوْفٍ فَمِنْجِدَّةٌ وَالْغُرُّ قَوْمِي بِحَيْسٍ دَارُهَا السَّعْفُ
مِنْ بَعْدِ آطَامِ عَزٍّ كَانَ يَسْكُنُهَا مِنْ أُمْلُوكٍ وَسَادَاتٍ لَهُمْ شَرْفُ

حَيْفَةً[❦]: موضع ذكره علقمة الخولاني في داليته بقوله:

وَمَالَتْ إِلَى أَجْزَاعِ حَيْفَةٍ ضُمَّرًا شَوَازِبَ فِي تَسْيَارُهُنَّ وَثِيْدٌ^(٢)

الْحَانِقُ: وادٍ لخولان قضاعة. وعلّق القاضي الأكوع: «في وادي العبديين من صحار جنوب صعدة، كان فيه سدٌّ بناه نوال بن عتيك غلام سيف بن ذي يزن» الملك الحميري^(٣).
خَدَارُ: بكسر الخاء وفتح الدال المهملة، وادٍ لخولان العالية^(٤).

خَزَازَى[❦]: وخزاز وهما لغتان كلاهما بفتح أوله وزاءين معجمتين؛ اختلفت العبارات في موضعه، فقال بعضهم: هو جبل بين مَنَعَجٍ وعَاقِلٍ بإزاء حمى ضَرِيَّةٍ. وقد نقل البكري عن الهمداني قوله: «جبل بالعالية من حمى ضَرِيَّةٍ». وفي موضع آخر نقلاً عن الهمداني أيضاً «خزازى هي المَهْجَمُ. قال: وهو حد حمى كُليب إلى المُخَيْرِقة من أرض غَسَّان» وقال البكري: «وحدّ أبو عمرو خزازاً فقال: هو جبل مستفلك، قريب من أُمْرَةٍ، عن يسار الطريق خلفه صحراء مَنَعَجٍ، يناوِحه كِيرٌ وكَوَيْرٌ، عن يمين الطريق إلى أُمْرَةٍ، إذا قطعت بطن عَاقِلٍ» وقد ذكره عمرو بن زيد الخولاني - مغرق الأكبر - بقوله:

كَانَتْ لَنَا بِخَزَازَى وَقُوعَةٌ عَجَبٌ لَمَّا التَّقِينَا وَحَادِي الْمَوْتِ يُحْدِيهَا

(١) صفة جزيرة العرب: ٧٤، ١٢٠، ٢١٤، ٢٥٨، معجم البلدان ٢/ ٣٣٢ وفيه: «الْعُزُّ.... الشَّعْفُ» مصحفاً محرفاً، والدِّيوان:

ق ٦٢/ ١، تحفة الزمن ٢/ ٦١٦، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٥٤٦.

(٢) صفة جزيرة العرب ١٥٧، والدِّيوان ق ١/ ٣٥، وانظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٥٤٩.

(٣) صفة جزيرة العرب ١٦٣، ٢٤٩، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٥٥٧.

(٤) صفة جزيرة العرب ١٥٤، ٢٣٩.

يوم شاركت خولان في تلك الواقعة إلى جانب قبائل مَعَدَّ الذي انتصفت فيه قبائل مَعَدَّ من قبائل اليمن التي لم تزل قاهرة لها في كل شيء حتى كان خزاز^(١).

خُلَب: بضمّ ففتح وآخره باء. وادٍ لخولان صعدة، ومآتيه من بلد القفاعة والبار، وفروعه من رأس خُلَب بالقد من سراة خولان، وهو يشاكل وادي حَرَض أو يزيد عليه، وبينهما أودية تشرع في قلب تهامة وتسقي المخاريف من بلد حكم إلى البحر، وهي دون هذين الواديين^(٢).

خُنْفَعْر: بضمّ فسكون، موضع لخولان وعلّق القاضي الأكوع بقوله: جبل مرتفع في ديار جماعة الواقع في الشمال الغربي من صعدة، وذكره عمرو بن زيد الخولاني المعروف بمغرق الأكبر بقوله:

فَالْحَقْتُ حَيًّا بِالصَّعِيدِ بِمَا جَنَوَا وَأَقْفَرَ مِنْهُمْ خُنْفَعْرٌ فَقَابِلُهُ

وكأنّ خنفعراً أحد منازل بني حي بن خولان التي كانت تفرشها^(٣).

خَوْلَان: قال ياقوت: «بفتح أوّله، وتسكين ثانيه، وآخره نون: مخلاف من مخاليف اليمن منسوب إلى خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ..... وخولان قرية كانت بقرب دمشق خربت، أمّا عن خولان العالية فكانت في مشارق صنعاء وتعرف في الزمن الحاضر بخولان الطيّال، وأمّا خولان قضاة فكانت في نواحي صعدة وأعمالها ومركزها ساقين، يضاف إلى ما سلف أن بطوناً خولانية وجماعات قد افترشت منازل كثيرة في غير المواضع السابقة الذكر من اليمن»^(٤).

(١) معجم ما استعجم ٢/ ٤٩٦، معجم البلدان ٢/ ٣٦٤-٣٦٦. تهذيب اللغة ٦/ ٥٥٥، التاج واللّسان (خَزَزَ) والديوان: ق٦/ ب١ وحوالاته ثمّة.

(٢) صفة جزيرة العرب ١٢٥، تحفة الزمن ٢/ ٦١٦.

(٣) صفة جزيرة العرب ١١٦، ٢٦٦، والديوان: ق٥/ ب٢، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٥٨٤.

(٤) معجم البلدان ٢/ ٤٠٧، الروض المعطار ٢٢٤، نشوة الطرب ٢٤١، التاج (خول)، طائفة من أوزان أسماء القبائل والبلدان في اليمن، بحث نشر في مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق ص ٢٦٣، صفة جزيرة العرب ٢٣٥، الخراج وصناعة الكتابة ٨٣، المسالك والممالك ١٤٢، و معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٥٨٧.

داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة^(١)، تقع في جنوبها الغربي، ويقول القاضي عبد الجبار الخولاني - حينما كان الحكم الأموي متأرجحاً غير مستقر في الشام، وكانت غوطة دمشق موزعة بين قبائل اليمن وقبائل قيس، واليمنيون أغلب في قرى الغوطة، = أن داريا أعظم قرى أهل اليمن بغوطة دمشق. لكثرة من نزلها من أهل اليمن الذين كان منهم عدد كبير من خولان^(٢). شهدوا فتوح الشام مع أبي عبيدة الجراح وحط بهم الرحل في داريا من دمشق^(٣) ودخل بعضهم الشام بعد الفتح ونزل بداريا^(٤).

وفي عهد معاوية شهدوا صفين معه^(٥) وفي هذا دليل على أنه كان في داريا عدد كبير منهم^(٦).
 الدبر: بفتح الدال المشددة وفتح الباء. جبل لخولان، وذكر الزبيدي أن دبر قرية باليمن فقط^(٧).
 الدحض: علق القاضي الأكوح بقوله: «بفتح الدال وسكون الحاء المهملتين وآخره ضاء معجمة. موضع في رازح من خولان»^(٨).
 دفاً: بفتحتين، قال ياقوت: «بلد باليمن من بلاد خولان» في شماليها وجنوبي بلد جنب، وهي لبني صحار بن خولان، وقد ذكرها الحارث السعدي بشعره قائلاً^(٩):

وَيَسْنُمُ دَارُ الْعِزِّ مِنْ دُمْنَتِي دَفَاً إِلَى أَسْفَلِ الْمِعْشَارِ فَرْعَ التَّهَائِمِ

(١) معجم البلدان ٢/ ٤٣١ ومعجم ما استعجم ٢/ ٣٩.

(٢) تاريخ داريا ٩، ٥٨-٧٢، ٨٦-٩١.

(٣) تاريخ دمشق ٤٩/ ٤٤٣-٤٤٤.

(٤) تاريخ دمشق ٧/ ١٣٧، ١٠/ ٤٨٠.

(٥) تاريخ دمشق ١٨/ ٣٠٥.

(٦) تاريخ دمشق ٣٥/ ٩٢، ٤٠/ ٣٣، ٢٧/ ١٩٠، ١٦/ ٢١، ١٠/ ٤٨٠، ٤٣٤.

(٧) صفة جزيرة العرب ٢٦٦، اللسان وفيه «موضع باليمن»، والقاموس والتاج (دبر).

(٨) صفة جزيرة العرب ١١٦، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٦٠٤.

(٩) صفة جزيرة العرب ١٢٦، ٢٥٠، معجم البلدان ٢/ ٤٥٨، والديوان: ق ٧٧/ ب ٤.

دَمَاج: بفتح الدَّال وتشديد الميم وفتحها وآخره جيم، وادٍ في صعدة موطن خولان قضاعة، عليه أعناب^(١).

دمشق: المدينة المشهورة وقصبة الشَّام وموئل العلم، سكنها كثير من خولان، وشهدوا فتحها مع أبي عبيدة بن الجراح سنة أربع عشرة للهجرة منهم قيس بن عباية بن عبيد بن الحارث الخولانيّ من خولان قضاعة الذي كان كهلاً يستشيرهُ أبو عبيدة في أموره، توفي في عهد معاوية^(٢). وكان لبعض رجالات خولان دورٌ مهمٌ في دولة بني أمية، منهم: أبو إدريس الخولانيّ قاضي دمشق في أيام عبد الملك بن مروان، ورواية لحديث النبي ﷺ عن نفرٍ من الصحابة^(٣). وعثمان بن مَرَّة الدارانيّ الخولانيّ الذي ولّاه الوليد بن عبد الملك على غزاة الصائفة والمقاسم^(٤). وزيد بن عبد الخولانيّ الذي وفد على معاوية وشهد معه صفين، وكانت الراية معه، لما قتل عمار بن ياسر انكفاً إلى علي بن أبي طالب^(٥). وسعيد بن عكرمة الخولانيّ كان على حرس عمرو بن عبد العزيز رضي الله عنه^(٦). وأبو مسلم الخولانيّ الذي كان من أفاضل أهل الشَّام، وخير التابعين وكبارهم وأخباره ملأت المصنّفات، بعثه معاوية بن أبي سفيان رسولاً له لعلي بن أبي طالب قبيل وقعة صفين، وكان من أكثر الناس جرأة على الملوك والأمراء^(٧).

دَيْرِ سَابِر: قال الحافظ ابن عساكر في ترجمة عتبة بن معاوية بن عثمان بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأمويّ: ذكره أحمد بن حميد بن أبي العجائز في تسمية من كان بدمشق وغوطتها من بني أمية، وذكر أنّه كان يسكن دير سابر من أقليم خولان من نواحي دمشق^(٨).

(١) صفة جزيرة العرب ١٦٤، ٢٤٩، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/٦١٩.

(٢) تاريخ داريا ٥٧، تاريخ دمشق ٤٩/٤٤٤.

(٣) تاريخ داريا ٦٣، تاريخ دمشق ٢٦/١٣٧، سير أعلام النبلاء ٤/٢٧٢.

(٤) تاريخ داريا ٩٠، تاريخ دمشق ٤٠/٣٣.

(٥) تاريخ دمشق ١٨/٣٠٥.

(٦) تاريخ دمشق ٢١/٢٣٦.

(٧) وقعة صفين: ٨٥، ٨٦، تاريخ داريا ١٥٩ فوات الوفيات ٢/١٦٩، تاريخ دمشق ٢٧/١٩٠-٢٢٠، انظر ترجمته في الديوان.

(٨) تاريخ دمشق ٣٨/٢٨٥، ٤٥/٣٣٢، معجم البلدان ٢/٥١٤ وقد غفل عن ذكره الشَّابستي في الديارات، وانظر: آثار البلاد وأخبار العباد ١٨٩.

دَيْر قَيْس: قال الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد وابنه خالد بن سعد بن أبي محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي: ذكره أحمد بن حميد بن أبي العجائز في تسمية من كان بدمشق وغوطتها من بني أمية وذكر أنهما كانا يسكنان دير قيس من أقليم خولان^(١).

رَأْسُ حَضُور: وهو جبل عظيم البركة لا يزال مُتَعَصِّباً بالغمام، ولم ينزل الثلج على جبل باليمن إلا عليه، وعند المسجد معين ماء، ولا يزال الناس يزورونه ويصلُّون فيه، ويسمى رأس الجبل بيت خولان، وهو منسوب إلى حَضُور بن عدي بن مالك بن زيد بن سَدَد بن زُرْعَة وهو حمير الأصغر بن سبأ الأصغر بن كعب بن سَهْل بن زيد وهو الجمهور بن عمرو بن الهميسع بن حمير بن سبأ^(٢). موضع نزلته الأوزاع وهم بطون من مُقَرَّى وَعَنْسٍ وَحَمِيرٍ وَأَهْلَانِ وَخَوْلَانٍ وَالتَّوَحَّمِ بن وائل^(٣).

رُبَيْع: بضمَّ الرَّاء وفتح الباء وسكون الياء آخره عين. وادٍ من أودية صعدة موطن خولان قضاة وفيه قَتْلُ المَذْحِجِيِّ عَبْدَ اللَّهِ بنِ معدِيٍّ كَرِبَ الزُّبَيْدِيِّ، وَأَخَا عمرو، وهو منصرف عن سيف بن ذي يزن الحميري^(٤).

رُدَاع: بضمَّ أوَّله قال ياقوت: «مخلاف من مخاليف اليمن، وهو مخلاف خولان، وهو بين نجد حمير الذي عليه مصانع رُعَيْن، وبين نجد مَذْحِج الذي عليه رَدْمَان وقرن»^(٥) وفي جنوبها مدينة حَصِي وَبَرَّى والْحَنْق من أرض السَّرو.

(١) تاريخ دمشق ١٦/٨٦، ٢١/٢٩٠، معجم البلدان ٢/٥٢٩ وقد ندَّ عن ذكره الشابشتي في الديارات.

(٢) صفة جزيرة العرب ٢٦٦، الإكليل ٢/٢٦٠.

(٣) الإكليل ٢/٢٣٥، صفة جزيرة العرب ٢٢٥. وذمار المخدر هو موضع غير مخلاف دَمَار بفتح أوَّله، مبني على الكسر كَحَدَام وَقَطَام التي سميت نسبة إلى ذمار بن يحصب بن دُهمان بن مالك بن سعد بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة، وهو سبأ الأصغر بن حمير الأصغر بن سبأ الأصغر. قاله البكري، معجم ما استعجم ٢/٦١٥، وانظر: صفة جزيرة العرب ٢٢٤، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ١/٥٨٧.

(٤) صفة جزيرة العرب ٢٤٩، معجم ما استعجم ٢/٦٣٨.

(٥) صفة جزيرة العرب ٨١، معجم البلدان ٣/٣٩ وفيه: «بين نجد وحمير» بإضافة الواو العاطفة وهو خطأ.

رَدَاع: بفتححتين قال الهمدانيُّ: هي مدينة يسكنها خُلُط من حمير من الأسوديين، ومن خولان وبلحارث وعَنَس ويكتنفها في باديتها الربيعيون والزياديون وبلحارث وبنو حبش من زُبَيْد، ومن أهلها أحمد بن عيسى الرِّدَاعِي الخولانيَّ صاحبُ أرجوزة الحجِّ^(١).

الرَّسِيَّة: براءٍ مفتوحة مشددة وسينٍ مكسورة، موضعٌ في أرض خولان^(٢).

الرَّعَا: براءٍ مكسورة مشددة وعينٍ مفتوحة وألفٍ، جبلٌ في أرض خولان نزلته^(٣).

رُغَافَة: بضمِّ الرَّاءِ فغين مفتوحة وآخره هاء معجمة. موضع لبني جُمَاعَة من خولان^(٤).

رَمَك: بفتح الراء وكسر الميم. وادٍ لخولان، وقد علّق القاضي الأكوخ «موضع من الأعروش خولان العالية»^(٥).

رَيْمَانٌ^{*}: بفتح أوله، وسكون ثانيه وآخره نون، قال ياقوت: «مخلاف باليمن»^(٦) وقيل: قَصْرٌ، وقيل: إنه قَصْرٌ تميّز بجبل شاهقٍ شامخٍ يُطلُّ على مدينة إبٍ من جهة الشّرق المعروفة بين مدن اليمن، وقد ذكره عمرو بن النعمان السَّعْدِيّ بقوله:

أَبُونَا الَّذِي كَانَتْ بِصُرُوَا حِ دَارُهُ وَفِي جَبَلِي رَيْمَانٍ عِزٌّ تَمَكَّنَا

وقد ذكره أيضاً الأعشى في ديوانه بقصيدة مطولة^(٧).

(١) صفة جزيرة العرب ٨٠، معجم البلدان ٣/ ٣٩، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٦٨١.

(٢) صفة جزيرة العرب ١١٧، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٦٨٨.

(٣) صفة جزيرة العرب ٢٦٦.

(٤) صفة جزيرة العرب ١٢٦، ٢٤٩.

(٥) صفة جزيرة العرب ١٤٩، ٢٣٧.

(٦) معجم البلدان ٣/ ١١٤.

(٧) صفة جزيرة العرب ١٢١، ١٣٣، معجم ما استعجم ٢/ ٦٨٩، والديوان: ق ٦٤/ ب ١، وانظر ديوان الأعشى ٣٢٥، وانظر:

طائفة من أوزان أسماء القبائل والبلدان في اليمن ٢٦٧، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٧٢٣.

زَبِيدٌ^{❦❦❦}: بفتح أوله وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت قال ياقوت: «اسم وادٍ، به مدينةٌ يقال لها الحَصِيبُ، ثُمَّ غلب عليها اسم الوادي فلا تعرف إلا به، وهي مدينةٌ مشهورةٌ باليمن، أحدثت في أيام المأمون وبازائها ساحلٌ غُلَافِقَةٌ وساحلُ المَنْدَبِ، وهو علمٌ مرتجل لهذا الموضع» وقد ذكره الهمداني غير ما مرة في صفة جزيرة العرب^(١). وفيها قال عمرو العوفي:

مَضَتْ فِرْقَةٌ مِنَّا يَحْطُونَ بِالْقَنَا فَشَاهِرُ أَمْسَتْ دَارُهُمْ وَزَبِيدُ

سَاقَيْنَ: بفتح أوله وثالثه، وادٍ فيه سد لبني سعد بن سعد بن خولان، ولبني شهاب بن العاقل، أحلاف بني ربيعة بن سعد بن خولان، وقد علّق القاضي الأكوخ بقوله: «هو المركز الرئيسي لبلد خولان الغربية بينه وبين صعدة يومان من ناحية الغرب، وهو عقب مدينة أبها للهابط من تهامة»^(٢).

سَام: قريةٌ من إقليم خَوْلَان من قُرَى دمشق، كانت لمعاوية بن أبي سفيان، وكان يسكنها عثمان بن محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان^(٣).

سَامِك: جبل سكنته خولان تفرّد بذكره الهمداني^(٤).

سُحَامَة: موضع ذكره علقمة الخولاني بقوله:

سَلَكْنَا بَهْنَ السَّهْلَ سَهْلَ سَحَامَةِ لَهَا ذَمْلٌ مِنْ تَحْتِنَا وَسَمِيدُ^(٥)

السَّر: وادٍ نُسِبَ إلى ابن الروية المَذْحِجِي قال الهمداني: «وادي السَّر سر ابن الروية: فيه العيون والآبار، وهو من عيون أودية اليمن وبه قرى كثيرة ومنازل لآل الروية للضيافة ولمن سبل الطريق... وفيها من جبال مراد جبل بَرَجَام من السَّر، ومنازل آل الروية بأعفاف، وحذان من السَّر وفيه بعد

(١) صفة جزيرة العرب ٢٥٣، معجم ما استعجم ٦٩٤ / ٢، معجم البلدان ١٣١ / ٣ والديوان: ق ٣٨ / ب ١..

وقد يختلط (زَبِيدٌ) بِزَبِيدٍ بضم أوله وفتح ثانيه كأنه تصغير زُبْد أو زَبْد، وهو بلفظ القبيلة، موضع قاله ياقوت ١٣٢ / ٣.

(٢) صفة جزيرة العرب ١١٦، ٢٥٠، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١ / ٧٦١.

(٣) تاريخ دمشق ٢٩ / ٤٠، ٦٧ / ٢٤٥، معجم البلدان ١٧٣ / ٣.

(٤) صفة جزيرة العرب ١٥٤، ٢٣٨، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١ / ٧٦٣.

(٥) الديوان ق ١ / ب ١٢.

ذلك قرى كثيرة مثل الأسحريين والبركة والقرظة... وسكنه من خولان ومن يخلط هذا الجبل المرادي... والسرّ مبتدأ المحجة إلى البصرة من صنعاء^(١) وقد سكنه بنو حي بن خولان^(٢).

سروم: هي سرّوم السّرح لبني جماعة من خولان^(٣).

سَعَوَان: وهو وادٍ يكاد أن يسنت سنين متوالية، ثمّ إذا أقبل أتى بثمر كثير وقد ذكره بعض قدماء حمير فقال: أحلك الأرض مسّور، وأختها بتوعر، وأحور فأحور، وسعوان لو يمطر^(٤).

سَوَانَان: قال البكريّ «جبلان، واحدها سَوَان، وهي لختعم، وسلول وسواءة بن عامر، وخولان وعنزة، وهي جبال شوامخ، فيها الأعناب وقصب السكر والإسجل والقرظ والبشام والغرب، إلا بدبد، فإنه لا يُنبّت إلا النّبع والشّوخط، وتأوي إليه القروذ لِمَنَعَتِهِ، وكثيراً ما تفسد على أصحاب قَصَبِ السكر^(٥)».

سَيَّان: وادٍ من ديار خولان العالية في جنوب صنعاء^(٦).

السّرير: بفتح السين المشددة موضع لبني دارم في بلاد بني كنانة واقتصر على الثاني أهل السّير وصرّح به الرّوض أمّا السّرير: بضمّ السين المشددة وفتح الرّاء المهملة، وادٍ بالحجاز، وقال نصر: السّرير قريب من المدينة، وقيل موضع بقرب الجار - وهي مدينة على ساحل بحر القلزم بينها وبين المدينة يوم وليلة - وهي فرضة أهل السفن الواردة من مصر والحبشة على المدينة^(٧). وقد ورد في شعر خالد بن قيس الحيوانيّ موضع «السّرير» في قوله:

(١) صفة جزيرة العرب ٢٣٦.

(٢) صفة جزيرة العرب ٢٥٠.

(٣) صفة جزيرة العرب ١١٦، ٢٤٩، ٤١٨، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٧٨٧.

(٤) صفة جزيرة العرب ٢٣٦، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٧٩٢.

(٥) معجم ما استعجم ٣/ ٧٨٨.

(٦) صفة جزيرة العرب ٢٣٨.

(٧) معجم البلدان ٣/ ٢١٨-٢١٩، معجم ما استعجم ٣/ ٧٣٧، التّاج (سرر). وفيه: (السّرير) وادٍ آخر يقال: إنّ الذي لبني

دارم بضمّ السين وكسر الرّاء.

هُمْ قَتَلُوا حَوْلَ السَّرِيرِ خِيَارَنَا وَمَالُوا عَلَيْنَا بِالذُّرَى وَالْحَوَارِكِ^(١)

ويغلب الظن على أنه موضع ثالث لم أهتم إلى تحديده.

شاهر^{***}: هو قرن في رأس جبل مَلْحَانَ يقال أن فيه تسعاً وتسعين عيناً من الماء، وفيه مسجد شريف، يقال: إنه في آخر الزمان تظهر فيه علامة من نار أو غير ذلك^(٢) ونقل البكري عن الهمداني قوله: «مَلْحَانَ بن عوف بن مالك بن يزيد بن سدد بن حمير وإليه ينسب جَبَل مَلْحَانَ الْمُطَّلُ على تهامة والمَهْجَم واسم الجبل ريشان فيما أحسب» وقد ذكره عمرو العوفي بقوله:

مَضَتْ فِرْقَةٌ مِنَّا يَحْطُونَ بِالقَنَا فَشَاهِرُ أَمْسَتْ دَارَهُمْ وَزَيْدُ^(٣)

شَرْفُ البَيَاض: موضع من بلاد خولان من جهة صعدة باليمن^(٤). وشَرْفُ قَلْحَاح بكسر القاف وفتح الحاء، حصن لبني حَيَوَانَ من خولان^(٥).

الشَّرْب: بفتح الشين والراء المعجمة: وادٍ يَفْصِلُ ما بين مخلافي ذي جَرَّة وخَوْلَانَ وبين عَنَس، كانت تسكنه جماعات من خولان العالية^(٦).

شُعْب: وشُعْب: موضعان لخولان قضاة^(٧).

الصَّحْن: موضع لخولان قضاة، علّق عليه الأكوخ بقوله: «بفتح الصّاد المهملة آخره نون، وادٍ فيه قرى ومياهٌ جاريةٌ، ويسكنه بنو مالك بن صحار وهو غرب صعدة بمسافة يسيرة»^(٨).

(١) الديوان: ق ١٦/ب ٢.

(٢) صفة جزيرة العرب ١٤٤.

(٣) معجم ما استعجم ٤/١٢٥٤، معجم البلدان ٥/١٩٠، الديوان: ق ٣٨/ب ١، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/٨٤١.

(٤) معجم البلدان ١/٥١٨.

(٥) معجم البلدان ٣/٣٣٦، العباب الزاخر والقاموس والتاج (شرف).

(٦) صفة جزيرة العرب ٢٣٨.

(٧) صفة جزيرة العرب ١١٦، وفي معجم البلدان ٣/٣٤٧-٣٤٨ «شُعْب: بكسر أوله: جبل باليامة، وقيل: ماء بين العقبة والقاع في طريق مكة على ثلاثة أميال من العقبة. وشُعْب بفتح أوله وتسكين ثانيه: جبل باليمن نزله حسان بن عمرو الحميري وولده فنسبوا إليه».

(٨) صفة جزيرة العرب ١٦٤، ٢٤٩.

صِرَواحٌ***: بكسر أوله وسكون ثانيه؛ بعده واو وحاء مهملة على زنة فِعْوال. قال الهمداني: «من مآثر اليمن صرواح، وقيل هي ما بين صنعاء ومأرب... لا يقاس بصرواح شيء من هذه المحافد غير أن صيتها بعيدٌ في أشعار العرب، وقد بقي منها شيء قائم. وخولان تقول: إن سعد بن خولان لما خرج من مأرب تملك بها»^(١) وقيل: كانت لعمر بن مزيقيا صاحب سد مأرب، وبنائها كلها من رخام، باقية أهلها يزعمون أنها بُنيت في عشية واحدة، وهو وهم، وقيل: إن سليمان عليه السلام كان قد أمر الجن أن تبني صرواح بلقيس. وهو وهم أيضاً؛ لأن في نسب بلقيس الملكة اليمنية المشهورة اختلاف كبير جرمة، عظيم شأنه، إذ ذهب بعض حمير إلى أنها من نسل الحارث الرائي، في حين ذهب آخرون إلى أنها من نسل ذي سحر، وسلسلة نسبها تدل على أنها كانت في القرن الثالث الميلادي؛ واعتماداً على ذلك واهم من يحسبها التي كانت على عهد سليمان عليه السلام^(٢).

صَعْدَةٌ***: بفتح الصاد المهملة وسكون العين المهملة. قال الهمداني: «كانت في الجاهلية تسمى (جُماع) وكان بها في قديم الدهر قصرٌ مُشَيَّدٌ، فصدر رجل من أهل الحجاز من بعض ملوك البحر، فمرَّ بذلك القصر، وهو تعب، فاستلقى على ظهره، وتأمل سمكه، فلما أعجبه قال: لقد صَعَدَهُ لقد صَعَدَهُ، فسميت صعدة من يومئذٍ، وهي كورة بلاد خولان، وموضع الدِّبَاح في الجاهلية الجهلاء وذلك أنها في موطنٍ بلاد القرظ، وهو يدور عليها في يومين، فحدّه من الجنوب خيوان وبلاد وادعة، ومن الشمال مهجرة في رأس المنَصَج من أرض بني حيف من وادعة، ومن المشرق مساقط برط في الغائط، ومن المغرب معدن القفاعة من بلد الأجدود من خولان، ثم لا مدينة بعدها من نجد اليمن وكان بها حروب وأيام»^(٣) وقد نزلها الأديم من خولان، وهم بنو بشر وبنو يَعنق، احتلفوا وكتبوا

(١) الإكليل ٨/ ٧٥، معجم ما استعجم ٣/ ٨٣١، معجم البلدان ٣/ ٤٠٢، الروض المعطار ٣٥٧، الديوان: ق ٢٥/ ب ٤، ١، ق ٢٨/ ب ٣، ق ٥٤/ ب ١٤، ق ٦١/ ب ١.

(٢) الإكليل ٢/ ٨٩، ٢٨٥.

(٣) صفة جزيرة العرب ٩٨، معجم البلدان ٣/ ٤٠٦، ٥/ ٧٠، الرّوض المعطار ٣٦٠، معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٩٠٨.

حَلَفَهُمْ فِي أَدِيمٍ، فَسَمُّوا بِهِ الْأَدِيمَ^(١). وَسَكَنَهَا أَيْضاً الْأَكْيَلِيُّونَ مِنْ آلِ رَبِيعَةَ بْنِ سَعْدِ الْأَكْبَرِ بْنِ خَوْلَانَ^(٢) وَذَكَرَهَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ كُنَيْفٍ الشَّهَابِيُّ بِقَوْلِهِ:

مَلَكْنَا حَقْلَ صَعْدَةَ، فَالْعَوَالِي مَلَكْنَا السَّهْلَ مِنْهَا وَالْحَزُونََا^(٣)

الصَّعِيدُ^{***}: بِالْفَتْحِ ثُمَّ الْكَسْرِ قَالَ يَاقُوت: «بِلَادٍ وَاسِعَةٍ كَبِيرَةٍ فِيهَا عِدَّةٌ مَدَنٍ عِظَامٍ مِنْهَا أَسْوَانٌ، وَهِيَ أَوَّلُهُ مِنْ نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ، ثُمَّ قَوْصٌ وَقِفْطٌ وَإِخْمِيمٌ وَالبَهْنَسَا وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَهِيَ تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةً أَقْصَامٍ: الصَّعِيدُ الْأَعْلَى وَحَدَّهُ أَسْوَانٌ وَآخِرُهُ قَرَبُ إِخْمِيمٍ، وَالثَّانِي مِنْ إِخْمِيمٍ إِلَى الْبَهْنَسَا، وَالْأَدْنَى مِنَ الْبَهْنَسَا إِلَى قَرَبِ الْفُسْطَاطِ، وَذَكَرَ أَبُو عِيْسَى التَّوَيْسِيُّ أَحَدَ الْكِتَابِ الْأَعْيَانِ قَالَ: الصَّعِيدُ تِسْعُمِئَةٌ وَسَبْعٌ وَخَمْسُونَ قَرْيَةً، وَالصَّعِيدُ فِي جَنُوبِ الْفُسْطَاطِ، وَلَايَةٌ يَكْتَنِفُهَا جَبَلَانِ وَالنَّيْلُ يَجْرِي بَيْنَهُمَا وَالْقَرْيُ وَالْمَدَنُ شَارِعَةٌ عَلَى النَّيْلِ مِنْ جَانِبِيهِ... وَبِالصَّعِيدِ عَجَائِبُ عَظِيمَةٌ وَأَثَارٌ قَدِيمَةٌ فِي جِبَالِهَا وَبِلَادِهَا مَغَاوِرٌ مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَوْتَى النَّاسِ وَالطَّيُورِ وَالسَّنَانِيرِ وَالْكَلَابِ»^(٤).

وَقَدْ حَطَّ بِهِ بَنُو حِيٍّ بْنِ خَوْلَانَ إِثْرَ خُرُوجِهِمْ مِنْ صَعْدَةَ؛ لِحَرْبٍ دَارَتْ رَحَاها بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي سَعْدِ بْنِ خَوْلَانَ فِي خَبَرِ سَلَفٍ ذَكَرَهُ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ، وَذَكَرَهُ عَمْرُو بْنُ زَيْدٍ الْخَوْلَانِيُّ الْمَشْهُورُ بِمَغْرَقِ الْأَكْبَرِ بِقَوْلِهِ: فَأَلْحَقْتُ حَيًّا بِالصَّعِيدِ بِمَا جَنُوا.....^(٥).

الصَّفْوَانِيَّةُ: قَالَ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجُمَةِ عَنبَسَةَ بْنِ عَمْرِ بْنِ حَرْبِ بْنِ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ الْأُمَوِيِّ: «لَهُ ذِكْرٌ ذَكَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ أَبِي الْعَجَّازِ أَنَّهُ كَانَ يَسْكُنُ الصَّفْوَانِيَّةَ مِنْ إِقْلِيمِ خَوْلَانَ» وَهِيَ مِنْ نَوَاحِي دِمَشْقَ خَارِجَ بَابِ تَوْمَانَ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّالِفِ الذِّكْرِ^(٦).

(١) معجم ما استعجم ٣/ ٨٣٢.

(٢) صفة جزيرة العرب ٢٤٩.

(٣) الديوان: ق ١٠٤ / ب ١.

(٤) معجم البلدان ٣/ ٣٠٨، الروض المعطار ٣٦١، آثار البلاد أخبار العباد ٢١٣، الديوان: ق ١٠٤ / ب ١.

(٥) الديوان: ق ٥ / ب ٢.

(٦) تاريخ دمشق ٤٧ / ٢٥؛ وفيه: «من إقليم حرلان» موضع مُصَحَّفٌ مُحَرَّفٌ وصوابه في معجم البلدان ٣/ ٤١٤، و(حرلان):

ناحية بدمشق بالغوطة فيها عدّة قرى بها قوم من أشراف بني أمية، انظر معجم البلدان ٢/ ٢٤٣.

صَحْيَان: موضعٌ لخولانٍ ليس ثَمَّةَ ما يدلُّ على تحديده، وقد تفرَّد بذكره الهمداني^(١).

العَبْلَاء: مَوْضِعُ لَبْنِي حَمْرَةَ مِنْ خَوْلَانَ، كَانَتْ تَنْزِلُهُ بَنُو سَعْدٍ^(٢).

عُثْمَةُ: بَضْمُ الْعَيْنِ وَالتَّاءُ الْمُثَنَاءُ مِنَ فَوْقِ وَفَتْحِ الْمِيمِ، بِلْدِ السَّلَاطِينِ، وَهُوَ أَحَدُ الْحَصُونِ الْمَعْدُودَةِ فِي الْيَمَنِ، وَهِيَ لِقَوْمٍ مِنْ خَوْلَانَ، أَهْلُ الرِّيَاسَةِ وَالْمَكَارِمِ الْمَشْهُودَةِ^(٣).

عَجِيب: بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَكَسْرِ ثَانِيهِ وَسُكُونِ الْيَاءِ عَلَى زَنْةٍ فَعِيلٍ، مَوْضِعٌ لَخَوْلَانَ، ذَكَرَهُ عَلْقَمَةُ بْنُ زَيْدٍ أَخُو بَنِي صَحَارٍ فِي دَالِيَتِهِ.

وَمَالَتْ إِلَى رُكْنَيْ عَجِيبٍ رِكَابَنَا يُقَلِّبُهَا خَفْضٌ لَهُ وَصُعُودٌ^(٤)

عَدْبَوُه: مَوْضِعُ سَكْنَتِهِ خَوْلَانَ قِضَاعَةَ^(٥).

عَدْرَاء: بِالْفَتْحِ ثَمَّ السُّكُونِ وَالْمَدِّ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ: الرَّمْلَةُ الَّتِي لَمْ تُوْطَأْ، قَالَ الْحَافِظُ الدَّمَشَقِيُّ ابْنُ عَسَاكِرٍ وَهُوَ يَذْكُرُ تَرْجَمَةَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ صَخْرَ بْنِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، أَنَّهُ كَانَ يَسْكُنُ عَذْرَى مِنْ إِقْلِيمِ خَوْلَانَ مِنْ قَرْيَةِ دِمَشْقٍ^(٦). وَإِلَيْهَا يَنْسَبُ مَرْجٌ، وَإِذَا انْحَدَرَتْ مِنْ ثَنِيَةِ الْعَقَابِ وَأَشْرَفَتْ عَلَى الْغُوطَةِ فَتَأَمَّلْتَ عَلَى يَسَارِكَ، رَأَيْتَهَا أَوَّلَ قَرْيَةِ تَلِي الْجَبَلَ، وَبِهَا مَنَارَةٌ، وَبِهَا قُتِلَ حُجْرُ ابْنِ عَدِي الْكَنْدِيِّ وَبِهَا قَبْرُهُ، وَقِيلَ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي فَتَحَهَا^(٧).

(١) صفة جزيرة العرب ١٦٤ وفي معجم البلدان ٣/ ٤٥٤ وفيه: «صَحْيَانُ مَوْضِعٌ بَيْنَ نَجْرَانَ وَتَثْلَيْتٍ فِي طَرِيقِ الْيَمَنِ فِي الطَّرِيقِ

الْمَخْتَصِرِ مِنْ حَضْرَمَوْتَ إِلَى مَكَّةَ»، وانظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٩٤٣.

(٢) صفة جزيرة العرب ٢٥٠، ٢٥٨، معجم ما استعجم ٤/ ١١٥٥، وفيها: «العَبْلَاء: بِلَادُ نَجْدٍ، لِعَوْفِ بْنِ عَبْدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ،...

وقيل: وادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الْحِجَازِ أَسْفَلَهُ لَبْنِي هَلَالٍ وَالضُّبَابُ وَسُلُولٌ، وَأَعْلَاهُ لَخْتَعَمٌ». ومعجم البلدان ٤/ ٨٠ وفيه: «عَبْلَاءُ

الْبِيَاضِ مَوْضِعَانِ مِنْ أَعْمَالِ الْمَدِينَةِ... وَقِيلَ بَلَدَةٌ كَانَتْ لَخْتَعَمُ بِهَا كَانَ ذُو الْخُلَصَةِ بَيْتَ صَنْمٍ وَهِيَ مِنْ أَرْضِ تَبَالَةَ».

(٣) تحفة الزمن ٢/ ٦٢٨.

(٤) صفة جزيرة العرب ١٥٧، الدِّيَوَانُ ق ١/ ب ٢٧.

(٥) صفة جزيرة العرب ١١٦، ١٢٤.

(٦) تاريخ دمشق ٦/ ٣٦٨.

(٧) معجم البلدان ٤/ ٩١. معجم ما استعجم ٣/ ٩٢٦.

عُدَيْقَةُ: بضمّ أوّله، وفتح ثانيه، وبالقاف، قال البكري: «على لفظ تصغير عُدْقه: مخلاف من مخاليف خولان باليمن، يكون الجزع الجيّد كما يكون بظفار»^(١).

عُرَاش: جبل لبني بحر من آل الربيعة بن سعد بن خولان^(٢).

عَرَامِي: جبل لخولان، تفرّد بذكره الهمداني^(٣).

العِرَاق: قال البكري في معجمه: «العراق هو ما بين هيت إلى السّند والصّين إلى الرّيّ وخراسان إلى الدّيلم والجبال، وإصْبَهَانُ سُرَّةُ العراق، وتُسَمَّى عِرَاقاً لأنّه على شاطئ دِجْلَةَ والفُرات.. تبعاً حتّى يتصل بالبحر»^(٤). وقيل: إنه سُمّي العراق لأنّه مأخوذ من الدلو والكوفة والبصرة تُسَمَّى العِرَاقان... والعراق وسط الدينا ومستقر الممالك الجاهليّة والإسلاميّة وعين الدنيا. وفيه الدجلة والفرات وهما الرافدان وفيه القواعد العظيمة والأعمال الشريفة^(٥).

العَرَج: بفتح أوّله، وإسكان ثانيه، بعده جيم قال البكري: «قرية جامعة على طريق مكّة من المدينة، بينها وبين الرّويّة أربعة عشر ميلاً، وبين الرّويّة والمدينة واحدٌ وعشرون فرسخاً... ووادي العرج يدعى المُنبَجَس، فيه عين عن يسار الطريق في شُعْبٍ بين جبلين، وعلى ثلاثة أميال منها، مسجد النبي ﷺ، يُدعى مسجد العَرَج» نزلها بنو حرب بن سعد بن سعد بن خولان^(٦).

العَرَض: أرض نزلتها بنو ثور من سعد بن خولان صعدة^(٧).

(١) معجم ما استعجم ٣/ ٩٠٤، ٩٢٨، معجم البلدان ٤/ ٩٢.

(٢) صفة جزيرة العرب ١١٧ وانظر ما حرّره المحقّق ثمّة، ٢٥٠، ٢٦٦.

(٣) صفة جزيرة العرب ١١٧، ٢٦٦.

(٤) معجم ما استعجم ٣/ ٩٢٩.

(٥) الرّوض المعطار ٤١٠، وانظر نحو هذا في معجم البلدان ٤/ ١٠٧ المسالك والممالك ٥ وما بعدها.

(٦) معجم ما استعجم ٣/ ٩٣٠، صفة جزيرة العرب ٦٠، الإكليل: «المخطوط ١/ ١٠٢، المطبوع ١/ ٤١٣»، الرّوض المعطار

٤٠٩.

(٧) صفة جزيرة العرب ٢٥٠.

عُرْقَب: بضمّ العين المهملة وسكون الراء وفتح القاف، وإِدْ لخولان العالية، فيه غيلٌ كثيرةٌ وقرى عامرة، اشتهر بالفاكهة^(١).

عَرَوَان: على زنة فَعْلَان بالفتح، ونقل ياقوت قول نصرٍ «عَرَوَان جبل بِمَكَّة، وهو الجبل الذي في ذروته الطائف وتسكنه قبائل هذيل وليس بالحجاز موضع أعلى من هذا الجبل، ولذلك اعتدل هواء الطائف، وقيل إنَّ الماءَ يجمد فيه، وليس في الحجاز موضع يجمد فيه الماء سوء عَرَوَان»^(٢) وهو الموضع الذي قصده بنو غالب بن سعد بن سعد بن خولان يوم فزعوا من أبناء عمومتهم^(٣).

العُشَّان: نقل ياقوت قول الهمدانيّ: «العُشَّان من منازل خولان وأنشد:

قد نال دون العُشّ من سنواته ما لم تنلُ كفُّ الرئيس الأُشيب»^(٤)

العُشَّة: حصنٌ وبليدةٌ أهلةٌ ببني صُحَّار بن خولان^(٥).

عَصْفَان: حصنٌ وبليدةٌ من اليمانيّة السُفلى من خولان العالية^(٦).

وقال ياقوت: «من نواحي اليمن ثمَّ من مخلاف سَنَحان»^(٧).

عفارة: موضع لبني شهاب بن العاقل من كندة أحلاف آل ربيعة بن سعد بن خولان^(٨).

عَكْوَان: وادٍ في مخلاف صعدة من بلد خولان قضاة^(٩).

(١) صفة جزيرة العرب ٢٣٨.

(٢) معجم البلدان ١١٢/٤.

(٣) الإكليل: «المخطوط ١/١٠٢، المطبوع ١/٤١٣».

(٤) معجم البلدان ١٢٦/٤.

(٥) صفة جزيرة العرب ١٦٥، وانظر ما كتب المحقق فيها، ٢٦٦.

(٦) صفة جزيرة العرب ١٥٣.

(٧) معجم البلدان ١٢٨/٤.

(٨) صفة جزيرة العرب ٢٥٠.

(٩) صفة جزيرة العرب ٢٤٩.

عَلَّاف: بكسر أوّله وتخفيف لامه وبالفاء في آخره. من خير أودية خولان قضاة في صعدة، وأكرمها كرمًا وأكثرها خيرًا وزرعًا وأعنبًا وماشيةً، وهو لبني كليب^(١).

عُمْدَان: بضمّ العين المهملة وسكون الميم وفتح الدالّ المهملة: موضع بمأرب، ذكره البكريّ وأنشد لبعض حمير:

وكان لنا عُمْدَانُ أرضاً نَحْلُهَا وقاعاً وفيها رَبُّنا الخَيْرُ مَرْتَد

وقد استشهد به الهمدانيّ على (عُمْدَان) بالغين المعجمة، ثم استدرك عليه قائلاً: «وقد يقال: عنى عُمْدَان بمأرب»^(٢)؛ وعن هذا الاستدراك - بلا حِوَالَة - أخذ البكريّ في (عُمْدَان) بالعين المهملة، ونقل الأزهريّ قول ابن المظفر [يريد اللَّيْث]: «عُمْدَان: اسم جبل أو موضع قلتُ أراه أراد عُمْدَان بالغين، فَصَحَّفَهُ وهو حصن في رأس جبل باليمن معروف، وكان لآل ذي يزن. وهذا كتصحيفه يوم بُعِثَ، وهو من مشاهير أيام العرب، فأخرجه في باب الغين المعجمة فَصَحَّفَهُ» ثم قال ياقوت: «قال عبيد الله الفقير إليه: وذكرته أنا لتعرفه فلا تغترّ به إلّا أن يكون ما ذهب إليه اللَّيْث موضعاً غير عُمْدَان»^(٣).

العُمَيْش^{*}: موضع فيه ماء، ذكره علقمة الخولانيّ بقوله:

تَعَدَّتْ عَلَى مَاءِ الْعُمَيْشِ وَقَدْ بَدَا مِنْ الظِّلِّ مَيَّاحُ الْجَنَاحِ رَكُودٌ^(٤)

وليس ثمة ما يدلّ على تحديد مكانه.

عَمَم: نقل البكريّ قول الهمدانيّ وهو يذكر أنساب هَمْدَانَ «أَنَّ حِصْنَ عَمَمَ لَخَوْلَانَ بفتح العين، قَيْدَهُ دُونَ هَاءٍ»^(٥).

(١) صفة جزيرة العرب ٢٤٩.

(٢) معجم ما استعجم ٣/٩٦٦، ٩٦٧، الإكليل ٨/١٣.

(٣) تهذيب اللغة ٢/٢٥٦، وعنه في معجم البلدان ٤/١٥٣. وانظر اللسان والتّاج (عمد).

(٤) صفة جزيرة العرب ٤١٣، الدِّيوان: ق ١/ب ١٦.

(٥) معجم ما استعجم ٣/٩٧٦، صفة جزيرة العرب ٢٦٦.

عَنْمَل: بفتح العين المهملة فسكون النون وفتح الميم وآخره لام، جبل لبني حي بن خولان^(١).

عنيزة (سَفْح عنيزة): موضع ذكره عوف الخولاني ولا يوجد ما يدل على تحديده وكأن به وقعة

اشترك فيها بنو حي بن خولان قال:

سَلِ النَّاسَ عَنَّا يَوْمَ سَفْحٍ عُنَيْزَةٍ غَدَاةَ التَّقِينَا بِالرَّمَاكِ الْعَوَاسِلِ^(٢)

عَرَابِق: موضع في أسفل جبل قَرَّان، سكنه بنو خولان، وقيل جبل^(٣).

عُمْدَان: بضم أوله، وسكون ثانيه وآخره نون، قال ياقوت: «وقد صَحَّفَه اللَّيْث؛ فقال: عُمْدَان

بالعين المهملة كما صَحَّفَ بُعَاث بالعين المهملة فجعله بالغين المعجمة»^(٤).

وعمدان من أشهر قصور اليمن المذكورة في الجاهلية، وقد أفرد له الهمداني بوابة كتابه الإكليل

الذي أفرد لقصور اليمن ومعاقلها، وما جاء فيها من أخبار؛ فقال: أول قصور اليمن وأعجبها ذكراً

وأبعدها صيتاً قصر عُمْدَان وهو قصر (أزال) وقد ذكره عمرو بن يزيد العوفي بقوله^(٥):

مِنْ أَسْفَلِ عُمْدَانَ جَلَبْنَا جِيَادَنَا تَرَامَى إِلَيْكُمْ بِالْمُتَقَفَةِ السُّحْمِ

الغُمَيْرُ*: بلفظ تصغير الغمر، وهو الماء الكثير... وَسُمِّيَ الْغُمَيْرُ؛ لأنَّ الماءَ الذي غمر ذلك

الموضع غير كثير، وهو موضع بين ذات عرق والبستان، وغمير أيضاً: موضع في ديار بني كلاب عند

الثبوت^(٦)، وقد ورد ذكر للغمير في قول عمرو بن يزيد العوفي:

أَنَحْنَا عَلَى مَاءِ الْغُمَيْرِ رِكَابَنَا مُحَوَّصَةً الْأَعْيَانِ، سُودَ الْحَوَاجِبِ

(١) صفة جزيرة العرب ٢٥٠، ٢٦٦.

(٢) الديوان ق ١٠/ب ٥. وانظر التخريج ثمة.

(٣) صفة جزيرة العرب ١١٧، ٢٦٦.

(٤) معجم البلدان ٤/٢١٠.

(٥) الإكليل ٨/٣، الديوان ق ٤٩/ب ٤.

(٦) معجم ما استعجم ٣/١٠٠٤، معجم البلدان ٤/٢١٣.

ولعلّه موضع غير المواضع السّالفة الذكر، لم أثبت مكانه^(١).

غَنَم: موضع لخولان في ناحية غربي صعدة^(٢).

الغُوطَة: بضمّ أوّله فسكون وبالطاء المهملة، قال ياقوت: «وهو من الغائط وهو المطمئنّ من الأرض، وجمعه غيطان وأغواط... وقال ابن شُمَيْل: الغوطة؛ الوهدة في الأرض المطمئنة، والغوطة: هي الكورة التي منها دمشق، استدارتها ثمانية عشر ميلاً، يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها، ولا سيما من شماليها، فإنّ جبالها عالية جداً، ومياهها خارجة من تلك الجبال، وتمدّ في الغوطة في عدّة أنهر فتسقي بساتينها، وزروعها ويصبّ باقيها في أجمة هناك وبحيرة» تشير الأخبار أنّ الخولانيّين افترشوها دياراً لهم، وأقاموا بها خصوصاً بعد فتح الشّام وفي عصر بني أميّة^(٣).

الغَوْلَة*: موضع لخولان، ورد في شعر علقمة الخولانيّ بقوله^(٤):

إِلَى الْغَوْلَةِ الْفَيْحَاءِ تَهْوِي بِفَيْتَةٍ أَضَرَّ بِهِمْ مِنْ سُورَى وَسُهْوَ

غَيْلَان: جبل لبني رازح بن خولان في ناحية صعدة، وهو من مآقي وادي جازان ووادي ضَمَد^(٥).

الغَيْل: موضع من قرى صعدة من بلاد خولان^(٦). والغَيْل: اسم يقع على مواضع كثيرة^(٧).

غَيْمَان: بفتح العين المعجمة، وسكون الياء، وفتح الميم وآخره نون. وادٍ مشهور في أرض خولان^(٨). وكان غَيْمَان أشهر قصور حمير، واسمه المِقْلَاب وكان عجيماً، وكان فيه حائط مدوّر فيه

(١) الديوان: ق ٣١/ب ١.

(٢) صفة جزيرة العرب ١١٦.

(٣) معجم ما استعجم ٣/١٠٠٨، معجم البلدان ٤/٢١٩ الرّوض المغطار ٤٣١، القاموس واللّسان والتّاج (غوطة).

(٤) صفة جزيرة العرب ١٥٦. وانظر ما حرّره المحقق، الديوان ق ١/ب ٣٢.

(٥) صفة جزيرة العرب ١٢٦، ٢٥٠، ٢٦٦، معجم ما استعجم ٣/١٠١١، وانظر: طائفة من أوزان أسماء القبائل ٢٧٧.

(٦) صفة جزيرة العرب ١٦٤، ٢٤٩.

(٧) معجم ما استعجم ٣/١٠١١، معجم البلدان ٤/٢٢٢.

(٨) صفة جزيرة العرب ١٥٣، ٢٣٧.

خروق أو كوى على جنبات المشارق والمغارب، أي: على درج الميل؛ لتقع الشمس كل يوم في كوة منها؛ وفيها مقبرة عظماء حمير وملوكها^(١).

فَارِسٌ*: ولاية واسعة وإقليم فسيح، أوّل حدودها من جهة العراق أَرْجَان، ومن جهة كرمان السَّيْرْجَان، ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف، ومن جهة السَّند مُكْرَان؛ أمّا عن مدينة فارس فهي من أهم مدن الإقليم سمّيت بفارس بن علم بن سام بن نوح عليه السَّلام أو باسم غيره على خلاف في ذلك. وقد ذكرها عمرو السعديّ بقوله^(٢):

أَبُونَا الَّذِي دَاخَ الْعِرَاقُ بِخَيْلِهِ وَدَانَتْ لَهُ مَا بَيْنَ حِمَصَ وَفَارِسِ

فَرْوَة: أرض سَيْلٍ وآبارٍ، ولا نهرَ فيها، وقيل: وادٍ في الغرب الجنوبي من صَعْدَة، وعداده من بني صُحَار بن خولان^(٣).

فَقَابِلُهُ: موضعٌ ذكره عمرو بن زيد الخولانيّ - مغرق الأكبر - في شعره ولم أتبينه^(٤).

الفقارة: موضعٌ في بلد خولان^(٥).

فوط: موضعٌ في بلد خولان، وقيل هو: جَبَلٌ^(٦).

القافية: قال البكريّ: «على وزن فاعلة: موضع بمشرق صنعاء، ومنازل خولان العالية ما بين نُقْم جَبَلِ صنعاء، وما بين القافية»^(٧).

القَحْف: موضعٌ في خولان العالية^(٨).

(١) الإكليل ٦٩/٨، طائفة من أوزان أسماء القبائل ٢٧٧.

(٢) معجم البلدان ٢٢٦/٤، الديوان: ق ٦٣/ب ٨.

(٣) صفة جزيرة العرب ١٦٤. وانظر ما كتبه المحقّق فيها، ٢٤٩.

(٤) الديوان ق ٦/ب ٢، وانظر ترجمة خنفر. معجم البلدان ٢٩٠/٤؛ وفيه: «القابلة» اسم موضع من نواحي صنعاء الشرقية باليمن.

(٥) صفة جزيرة العرب ١٦٤، ٢٤٩.

(٦) صفة جزيرة العرب ٢٦٦.

(٧) معجم ما استعجم ٣/١٠٤٥.

(٨) صفة جزيرة العرب ١٤٩ وانظر ما حرّره المحقّق.

القَحْمَةُ: قال ياقوت: «بليدة قرب زُبَيْد، وهي قصبة وادي ذوال، بينها وبين زُبَيْد يومٌ واحدٌ من ناحية مَكَّة، وهي للأشاعرة فيها خَوْلَان وهَمْدَان»^(١).

القُدُّ: وهو سراة خولان، وقد علّق القاضي الأكوغ: «هو سنام خولان، وثاني قسم خولان يسمى الأديم»^(٢).

قُدُس: بالضم ثم السكون، نقل ياقوت كلام الليث قائلاً: «قال الليث: القُدُس تنزه الله عزَّ وجلَّ: هو جبل عظيم بأرض نجد» وقال عَرَم بالحجاز جبلان يقال لهما القدسان قدسُ الأبيض وقدسُ الأسود، وهما عند ورقان، فأما الأبيض فيقطع بينه وبين ورقان عقبة يقال لها ركوبة، وهو جبلٌ شامخٌ ينقاد إلى المتعشي بين العرج والسقيا، وأما قدسُ الأسود فيقطع بينه وبين ورقان عقبة يقال لها حَمْتُ والقدسان جميعاً لمُزِينَة^(٣). وقد نزل به بعض بني حرب بن سعد بن سعد بن خولان^(٤).

قِرْقِد: بكسر القافين، وآخره دالٌ. جبل قرب مَكَّة فيه مَعْدِنُ البَرَام، وقال الكندي: يُتَاخَم معدن البَرَام، يَسُومُ وَسَرَاة، وهذه البلاد كلها لغامدٍ، وخثعم، وسلول، وسوءة بن عامر وخولان وغيرهم قال الشاعر:

سمعت وأصحابي نُحِتُ رِكَابُهُم بنا بَيْنَ رُكْنٍ مِنْ يَسُومٍ وَقِرْقِدِ
فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: قِفُوا، لَا أَبَا لَكُمْ، صُدُورَ الْمُطَايَا إِنَّ ذَا صَوْتٍ مَعْبِدِ^(٥)

وقيل: هو قديد، بدالين.

قَرَوَى: أو قَرَوِي: لم أتبيّنه وهو موضع أو وادٍ لخولان^(٦).

(١) معجم البلدان ٤/ ٣١١، صفة جزيرة العرب: ٧٤، وتحفة الزمن ٢/ ٦٣٣.

(٢) صفة جزيرة العرب ١١٦.

(٣) معجم البلدان ٤/ ٣١١، تهذيب اللغة ٨/ ٣٩٧، معجم ما استعجم ٣/ ١٠٥٠، صفة جزيرة العرب ٦٠.

(٤) الإكليل: «المخطوط ٩٦/ ١، المطبوع ٣٩٣/ ١».

(٥) الأماكن أو ما اتفق لفظه واختلف معناه ٢/ ٧٦٤، معجم البلدان ٤/ ٣٢٦.

(٦) صفة جزيرة العرب ٢٣٨. وانظر ما كتبه المحقق ثمة.

قضان: واحدٌ من أودية صعدة، لخولان قضاءة^(١).

القَفَاعَة: قال ياقوت: «من نواحي صعدة تُمُّ أرض خولان باليمن يسكنها بنو معمر بن زرارة بن خولان، بها معدن الذهب»^(٢).

القنا*: اسم يقع على مواضع كثيرة، ذكره عمرو بن يزيد العوفي بقوله:

مَضَتْ فِرْقَةٌ مِنَّا يَحْطُونُ بِالْقَنَا فَشَاهِرُ أَمَسَتْ دَارَهُمْ وَزَيْدُ^(٣)

قَيْن*: ويقال فيه (ذوقين) وهو موضع لحاشد من همدان، وخولان^(٤).

وقد ذكره علقمة الخولاني بقوله:

فَصَبَّحَنَ ذَا قَيْنٍ وَكَبَّرَ وَفَدُنَا وَقَدْ قَابَلَتْنَا أَنْجُمٌ وَسُعُودُ^(٥)

قَيَّوَان*: بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه: قال ياقوت: «موضع بصعدة من بلاد خولان باليمن»^(٦). وكان يقطنها بنو صُحَّار بن خولان، يشاركون فيها بنو حذيفة والأبقور^(٧) وقد ذكرها الحارث السعدي:

وَدَارِ بَقْيَوَانَ لَنَا كَانَ عِزُّهَا تَوَارِثَهَا نَسْلُ الْمُلُوكِ الْقُمَاقِمِ^(٨)

(١) صفة جزيرة العرب ٢٤٩.

(٢) معجم البلدان: ٤/ ٣٨٠. صفة جزيرة العرب ١١٦، ٢٥٠، وجاء فيها: «القفاعَة سوق معدن حرة» وأراه تصحيحاً، وقد علّق الشيخ حمد الجاسر بقوله: «وقرأ الكلمة الأستاذ الأكوخ (الحمرة) وقد تكون قراءته صحيحة، فهم من بني سعد من خولان وقد تكون: (لحيّ) إذ (حيّ) من فروع خولان أيضاً ذكر الهمداني بلادهم بعد كلامه عن القفاعَة، وضبط الأستاذ الأكوخ الاسم بفتح القاف، وذكر أنها في بلاد رازح لا زالت عامرة» أما عن سكنها من بني معمر بن زرارة فقال: «ولم أر في أبناء خولان من اسمه زرارة، فلعله من خولان، وليس ابناً» الجوهرتين العقيقتين المائعتين ٢٥٨.

(٣) الديوان: ق ٣٨/ ب ١، صفة جزيرة العرب ٧٤، ١٣٢، ٢٢٢، وانظر ما حرّره المحقق في الحاشية، معجم البلدان ٤/ ٣٩٩، معجم ما استعجم ٣/ ١٠٩٥.

(٤) صفة جزيرة العرب ٢٤٦.

(٥) الديوان ق ١/ ب ٢٣.

(٦) معجم البلدان ٤/ ٤٢٤.

(٧) صفة جزيرة العرب ١١٧، ١٢٦، ٢٥٠.

(٨) الديوان: ق ٧٧/ ب ٣..

الكَدْرَاءُ: قال الهمداني: «مدينة يسكنها خليط من عَكَ والأشعر، وباديتها جميعاً من عَكَ إلا النَّبْدُ من خَوْلَان»^(١).

كَرِيف: موضع لخولان^(٢).

كَنَنْ: بكسر أوّله وفتح ثانيه وآخره نون: قال ياقوت: «جَبَلٌ باليمن من بلاد خَوْلَان، عالٍ يُرى من بعيد»^(٣).

كُنَّا: موضع لبني سعد بن خولان^(٤).

كَهْلَان***: جَبَلٌ في شرقي صَعْدَةَ، سكنه بنو حَمْرَةَ من سعد بن خولان^(٥). وقيل: جَبَلٌ بناحية الغَيْل من صَعْدَةَ^(٦). وينسب إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقد ذكره الحارث بقوله^(٧):

وَدَارِ بَكْهَلَانَ لِشِبْلٍ أَخِيهِمْ دَعَامَةُ عَزٍّ مِنْ تِلَاعِ الدَّعَائِمِ
هُوَ رُحْبَان: موضع في أرض خولان^(٨).

لَيْة***: بفتح اللام وكسرهما وتشديد الياء، هو وادٍ من تهامة اليمن شرق الطائف، يسكنه بنو نصر من هوازن، وكان فيه حصن مالك بن عوف النصري أمير الناس يوم هوازن، ولما سار النبي ﷺ بعد حنين إلى الطائف أمر بحصن مالك فهُدِمَ وقد ضُرِبَ للأسد الموجودة فيه المثل في الشَّرَاسَةِ والافتراس. وقد ذكره عمرو بن زيد الخولاني بقوله:

(١) صفة جزيرة العرب: ٧٤.

(٢) صفة جزيرة العرب: ١١٦.

(٣) معجم البلدان ٤/ ٤٨٤، التَّاج (كنن).

(٤) صفة جزيرة العرب ٢٥٠.

(٥) صفة جزيرة العرب ١٦٤. وانظر: ما كتبه المحقق فيها، ٢٥٠.

(٦) معجم البلدان ٤/ ٤٩٦.

(٧) طائفة من أوزان أسماء القبائل (٢٨٠) والدِّيوان: ق ٧٧/ ب ٥.

(٨) صفة جزيرة العرب: ١٦٤.

جَلَبْنَا عِتَاقَ الْخَيْلِ مِنْ بَطْنِ لَيْيَةٍ بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ مَحْبُوءٌ كَلَاكِلُهُ^(١)

وقال فيه غَيْلَانُ بْنُ سَهْمٍ:

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَكْنَافٍ وَجَّ وَلَيْيَةٍ نَحُوكُمْ بِالذَّارِ عَيْنَا^(٢)

مَآرِبٌ* : (بألف أصيلة على زنة (فاعل)، وليس على زنة (مفعِل) أو (مِفْعَل) على قول بعضهم): قاعدة مُلْكُ سَبَأٍ، وقد ضَعَّفَ الزَّيْدِيُّ من جعل الميم فيها أصلية، وغلَطَ من حسبها على وزن (مَفْعِل) فقال: «مَآرِبٍ، كَمَنْزِلٍ، ووقع في كلام المقدسي: كَمَنْبَرٍ، وهو غلطٌ، قال شيخنا: ولا تنصرف في السَّعَةِ، للتأنيث والعلمية، ويجوز إبدال الهمزة ألفاً وربما التزم هذا التخفيف، ومن هنا جعل ابن سيده ميمها أصليةً وألفها زائدة، وقد أعادها المؤلف في الميم بناءً على هذا القول، وفي المصباح، مدينة باليمن من بلاد الأزد في آخر جبال حضرموت، وكانت في الزمن الأول قاعدة التابعة... وقيل هو اسم قصرٍ كان لهم، وقيل: هو كورة بين حضرموت وصنعاء»^(٣).

في الإكليل: «ومارب ومريب من العرب العاربة؛ وقال الأفوه الأودي:

فسائلُ بِنَا حَيِّي مريبٍ وماربٍ برائسٍ حَجَرٍ حَزْنُهَا وَسَهْوُهَا^(٤)

وقد ذكرها شعراء خولان في غير ما موضع^(٥).

مخلاف خولان: سبقت الإشارة إليه في رسم خولان.

مخلاف الحقل: انظر رسم الحقل.

مخلاف صعدة: انظر رسم صعدة.

(١) الديوان: ق ٥/ب ١.

(٢) صفة جزيرة العرب ٢٥٩-٢٦٠، ٢٦٨، معجم ما استعجم ٤/١١٦٧، معجم البلدان ٥/٣٠.

(٣) التاج (أرب) وانظر: المعجم السبئي (مريب، مريب)، آثار البلاد وأخبار العباد ٦٠.

(٤) الإكليل طبعة فارس ٤٨/٨، والأكوع ٨/١٠٤، وعنه في شعراء مذحج ٤٠٠، واللسان (مرب)، معجم ما استعجم

٤/١١٧٠ معجم البلدان ٥/٣٧ وفيه كلام طويل، الروض المعطار ٥١٥.

(٥) الديوان: ق ٨٦/ب ١، ق ١١٩/ب ١٠ وأشار إلى هذا د. مقبل الأحمد في شعراء حمير (الديوان ٣٠١).

مخلاف شهاب: قال ياقوت: «يقال: هو بنو شهاب بن خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاة، وقيل: شهاب بن الأزعم بن خولان، وقال ابن الحائك: بنو شهاب من كندة، وقيل شهاب بن العاقل بن هاني بن خولان»^(١) وأشارت إلى نسب بني شهاب الذي ينتهي إلى كندة في غير ما موضع، وأنهم أحلاف لآل ربيعة بن سعد بن خولان^(٢).

مخلاف عثر: قال الهمداني: «وعثرٌ ساحلٌ جليلٌ، ومدينةٌ بيش وحصبة أبراق، وفيه من الأودية: الأمان ووادي بيش، ووادي عثو، ووادي بيض، ووادي ريم وعمرم، ووادي زنيف، ووادي العمود، وهو لخولان، وكنانة، والأزد، وملوكه من بني مخزوم ومن عبيدها»^(٣).

المندرا: موضع للرعا وهو بطينٌ من خولان^(٤). ولم أتبينها.

المرازات: موضع لخولان^(٥). ولم أهتمد إلى تحديدها.

مرحب: وادٍ لخولان^(٦).

مسور: وادٍ لخولان مشهور في مخلافها شرقي صنعاء^(٧).

مصر ***^(٨).

مغشّر *: موضع لبني عامر في اليمن^(٩).

(١) معجم البلدان ٥ / ٧٠.

(٢) انظر: مبحث نسب خولان.

(٣) صفة جزيرة العرب ٢٥٩.

(٤) صفة جزيرة العرب ٢٥٠.

(٥) صفة جزيرة العرب ١١٦.

(٦) صفة جزيرة العرب ٢٣٨.

(٧) صفة جزيرة العرب ٢٣٧، آثار البلاد وأخبار العباد ٦٢.

(٨) تاريخ دمشق ٤٦ / ١٥٧، معجم البلدان ٥ / ١٣٧-١٤٣، الديوان ق ٢٣ / ب ٤ (عمرو بن الحارث الحيواني).

(٩) صفة جزيرة العرب ٣٣٥.

المُقَطَّم* : بضمَّ أوّله، وفتح ثانيه. وتشديد الطاء المهملة وفتحها وميم: هو الجبل المشرف على القرافة، مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، وهو جبل عتيّد يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطئ النيل الشرقي حتّى يكون منقطعه طرف القاهرة ويسمّى في كلّ موضع باسم، وعليه مساجد وصوامع للنصارى، لكنّه لا نبت فيه ولا ماء غير عين صغيرة تنزّ في دير النصارى، وقيل إنّهُ جبل الزُّبرجُد، وقيل: إنّهُ جبل ضخمٌ تدفن فيه الموتى، وله خاصية في حفظ أجساد الموتى ليست لسواه... وقبرٌ في مقبرة المقطم من أصحاب رسول الله ﷺ عمرو بن العاص وعبد الله بن الحارث الزبيديّ وعبد الله بن حذافة السهمي وعقبة بن عامر الجهنيّ، وقد روي أنّه جبل مصر، مقدّس، وليس بمصر سواه، وقد ذكره المسوّر الخولانيّ بقوله:

فَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ وَكَيْفَ وَقَدْ أَضْحَوْا بِسَفْحِ الْمُقَطَّمِ^(١)

كما ذكره المتنبي بشعره مخاطباً كافوراً الأخشيدي:

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي مِصْرَ مَا سَرْتُ بِقَلْبِ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ الْمُتَمِّمِ
وَلَا نَبَحْتُ خَيْلِي كِلَابُ قَبَائِلِ كَأَنَّ بِهَا فِي اللَّيْلِ حِمَلَاتِ دَيْلَمِ
وَلَا أَتَّبَعْتُ آثَارَهَا عَيْنُ قَائِفٍ فَلَمْ تَرَ إِلَّا حَافِرًا فَوْقَ مَنْسَمِ
وَسَمْنَا بِهَا الْبَيْدَاءَ حَتَّى تَغْمَرَتْ مِنَ النَّيْلِ وَاسْتَدْرَتْ بِظِلِّ

موطك: مَوْضِعُ لَبْنِي حَمْرَةَ مِنْ سَعْدٍ مِنْ خَوْلَانِ^(٣).

مقولة: وادٍ لخولان العالية^(٤).

(١) معجم ما استعجم ٤/ ١٣١١، معجم البلدان ٥/ ١٧٦-١٧٧، الرّوض المعطار ٥٥٧، الديوان: ق ٩٧/ ب ٣.

(٢) ديوان المتنبي ٤/ ١٤٠.

(٣) صفة جزيرة العرب ٢٥٠.

(٤) صفة جزيرة العرب: ٢٣٨.

مَكَّة: هي أم القرى شرفها الله تعالى. وبكة بالباء والحاطمة والباسة وصلاح قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. أُبدلت الميم من الباء. وقيل سميت بذلك؛ لأنها تبك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئاً، وقيل: بكّة اسم لبطن مكّة؛ لأنهم كانوا يتباكون فيها أي: يزدحمون... وفي اسمها معانٍ كثيرة وفقاً لقول العلماء فيه.

ذكرها عمرو الغالبي في قوله:

فَأَصْبَحْتُ قَدْ وَدَّعْتُ قَوْمِي وَمَعْشَرِي وَحَالَفْتُ هَمًّا مَا أَزَالُ أَصَاوِلُهُ
رَهِينَةَ ذُلِّ بَيْنِ تَرْجٍ وَمَكَّةٍ كَذَلِكَ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ قَبَائِلُهُ^(١)

مَلَاخَا: وادٍ في أرض خولان وعلّق الأكوخ عليه بقوله: «لا يزال يحمل اسمه إلى هذه الغاية، ويقع في بني شدّاد، وفيه العنب الأبيض والأسود الجيّدان»^(٢).

مَنْزَل: موضعٌ في جبل ما بين المهجرة وعرفة، فيه أعراب من خولان، والماء فيه ربّما كثر وربّما قلّ، وهي أوّل عمل اليمن.... وفيه قرية عظيمة فيها مسجدٌ وتجرّارٌ وبها يُعمل دباغ اليمن من الأديم والنعال^(٣).

المَهْجَم: قال ياقوت: «بلدٌ وولايةٌ من أعمال زَبِيدٍ باليمن، بينها وبين زَبِيدٍ ثلاثة أيّام، ويقال لناحيتهَا خَزَاز، وأكثر أهلها خولان من أعلاها وأسافلها وشمالها بعد السُرْدُدِ» وقيل سافلتها وشمالها لِعَاكُ^(٤).

مَهْنُون: جَبَلٌ عالٍ منيفٌ من جبال خولان العالية^(٥).

(١) معجم البلدان ٥/ ١٨١، الروض المعطار ٩٣، ٥٤٣، الديوان: ق ٨٣/ ب ١، ٢، التّاج (مكك)، انظر: آثار البلاد وأخبار العباد ١١٢.

(٢) صفة جزيرة العرب ٢٣٧، وانظر الحاشية.

(٣) المسالك والممالك ١٨٩.

(٤) صفة جزيرة العرب ٧٥، ٢٥٨، معجم ما استعجم ٤/ ١٢٧٤، معجم البلدان ٥/ ٢٢٩، التّاج (هَجَم)، تحفة الزمن ٢/ ٦٤١.

(٥) صفة جزيرة العرب ١٦٢، ٢٦٥.

مُور: قال الهمداني: «وادي مُور وهو ميزابُ تِهَامَةَ الأعظم»^(١) وفيه آل رَوَق من بني شهاب^(٢).

مَوْضِح: موضع لخولان العالية، بفتح الميم وسكون الواو وكسر الضاد وآخر حاء^(٣).

مَيْدَعَا: قرية من إقليم خولان في الشَّام، كانت لمعاوية بن أبي سفيان^(٤).

نَاعِطٌ*: بكسر العين المهملة، وطاء مهملة أيضاً؛ والناعط: المسافر سَفْراً بعيداً، والناعط: السَّيَّءُ الأدب في أكله ومُرَوَّته وعطائه^(٥)، وناعط من أشهر قصور اليمن وأبعدها صيتاً عند المؤرخين. قال الهمداني: «قد نظرت بقايا مآثر اليمن وقصورها... فلم أرَ مثل ناعط ومارب وضهر، ولناعط الفضل، وهي مصنعةٌ مدوّرةٌ منقطعةٌ في رأسِ جَبَلٍ ثنين، وهو أحد جبال البَوْن، وهو جبلٌ مرتفعٌ مقابل لقصرٍ تَلْفَم»^(٦) وجاء في التَّاج: «ناعط كصاحب: مخلافٌ باليمن مشتملٌ على حُصُونٍ وقرى ومعاقِلٍ... ويقال... كان لبعض الأذواء»^(٧) ورد ذكره في شعر عمرو الحيواني بقوله:

وَأَزَالَ عِزَّ مُلُوكِ نَاعِطٍ صَرْفُهُ لَمَّا سُقُوا كَأْسَ الْمَنُونِ دُبَا حَا

نجد اليمن: قال ياقوت: «قال أبو زياد: فأما ديار هَمْدَانَ وأشعر وكندة وخولان؛ فإنَّها مفترشةٌ في أعراضِ اليمن. وفي أصنافها مخاليفٌ وزروعٌ ولها بوادٍ وقرى مشتملةٌ على بعض تِهَامَةِ وبعض نجد اليمن في شرقي تِهَامَةِ، وهي قليلةُ الجبالِ مستويةُ البقاع، ونجدُ اليمن غير نجدِ الحجاز غير أنَّ جنوبي نجد الحجاز يتصل بشمالِ نجد اليمن وبين النجدين وعمان بريةٌ ممتنعةٌ»^(٨).

نسرين: وادٍ في شمالِ صعدة لخولان قضاة^(٩).

(١) صفة جزيرة العرب ١٢٣.

(٢) صفة جزيرة العرب ٢٥٩.

(٣) صفة جزيرة العرب ١٤٩ وانظر ما كتبه المحقق فيها.

(٤) تاريخ دمشق ٤٧/٢٥، عنه في معجم البلدان ٥/٢٤١.

(٥) اللسان والتَّاج (نعط).

(٦) الإكليل ٨/٣٤، معجم البلدان ٥/٢٥٣، معجم ما استعجم ٤/١٢٩٠.

(٧) التَّاج (نعط). الدِّيوان: ق ٢٣/ب ٢، ق ٥٤/ب ٨.

(٨) معجم البلدان ٥/٢٦٥.

(٩) صفة جزيرة العرب ١٦٤، ٢٤٩.

هَرُوبٌ: بفتح أوله وضمّ ثانيه، وإِدِ خولان العالية^(١).

هَضْبِي ثَقِيف: موضع ذكره علقمة الخولاني في مطوّله اليتيمة وليس ثمة ما يدلّ على تحديده^(٢).

الهلة: موضع لخولان^(٣).

هنوم: قال الهمداني: «أهلُه الأهنوم من همدان ثمّ من حاشد، وفيهم بطنٌ من خولان بن عمرو بن إلخاف، ثم من ولد يعلى بن سعد بن عمرو بن زيد بن مالك بن زيد بن أسامة، وهو قبالةُ تَخْلَى من شماليه، وعلى وصفه من جبال السّراة، وهو أحصن وأتلع وأوسع، وقعدته على بلد غير ذي أودية، فهو يكون أكثر دهره صاحياً إلّا في أيّام الأمطار، ولذلك خالف جبل تَخْلَى لما في رأسه من العنبِ والخوخ والرمان والتّين وغير ذلك، وفيه نبات شبيه بالصّندل الأبيض يقاربه في الرائحة، وقد يداخل الصندل الهندي، وزرع رأسه في الكثرة مقارب لزراع جبل تَخْلَى إلّا أنّ البرّ في هنوم أكثر وهو منقطع العرق، وليس له غير طريقين لا يطلعهما سوى الرجال، ولا يطلعه مثل جبل تَخْلَى دابةٌ لو عورة طريقه»^(٤).

هَيْلَان: جَبَلٌ لخولان العالية^(٥).

وَسَحَة: قال الهمداني: «وسحة من قرى خولان بين البشريين والنصفيين قالوا: وكان اسمها في الجاهلية وَسَحَة فلما وصلت زكاة أهلها إلى النبي ﷺ في أوّل الزكاة قال: من أين هذا؟ فقيل من وَسَحَة فقال: بل من وَسَحَة»^(٦).

وَعَلَان: وهو قصر ذي معاهر، وهو بُعْ بن بُعْ تَبان أسعد أبي كرب بن ملكيكر بن بُعْ بن أقرن، وهو الذي أوقع بجديس. وقد سكن في وَعَلَان نَقَرٌ من خَوْلَان من الأكيليّين^(٧).

(١) صفة جزيرة العرب ٢٣٨.

(٢) الديوان ق ١/ب ١٥.

(٣) صفة جزيرة العرب ١١٦ وانظر ما حرره المحقق فيها.

(٤) صفة جزيرة العرب ٣٥٠.

(٥) صفة جزيرة العرب ١٥١ وانظر ما كتبه المحقق فيها.

(٦) صفة جزيرة العرب ٢٦٥.

(٧) صفة جزيرة العرب ١٩٠، المفصل ١/٣٣٨، ٣/٤٨٩.

يُثْرِبُ* : ذكرها عمرو بن يزيد العوفي بقوله^(١):

لَوْلَا رَحِيلِي يَثْرِبًا لَكَرَزْتُمَهَا بِالْجِدِّ مِنِّي لِلتَّيْمِ الْأَعَزَلِ

يُحْبَسُ* : هو مخالفٌ نُسِبَ إلى أقيان بن زُرْعَةَ بن سبأ الأصغر، وقد تطوّر اسمها حتى صار فيها يبعد (شَبَام) نسبة إلى رَجُلٍ من هَمْدَانَ، اسمه شَبَام بن عبد الله بن أسعد بن جُشَم بن حاشِد، توطنها وافترشها منزلاً له. ويقال: هو شَبَام بفتح الشين، وبها أعمادُ حجارةٍ جاهليّة تُسمّى (أعمالُ سَال) عليها عرشٌ، وليست أعماداً مثل مأرب في العتق والنَّفَاسَةِ، وهي مملكة آل يعفر الحواليين وقيل: هي إحدى جنان الأرض لجمال منظرها وروعته^(٢).

يَسْنَمُ* : بفتح أوّله وسكون ثانيه وفتح النون وآخره ميم، قال ياقوت: «موضع باليمن سُمِّي ببطن من بني غالب من بني خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة بن الحارث بن عمرو سيد بني خولان» ذكرها الحارث السَّعديّ بقوله^(٣):

وَيَسْنَمُ دَارُ الْعِزِّ مِنْ دِمْتَيْ دَفَا إِلَى أَشْفَلِ الْمَعْشَارِ فَرْعِ التَّهَائِمِ

يَسُومُ: قال ياقوت: «يَسُومُ جَبَلٌ قَرَبَ مَكَّةَ يَتَّصِلُ بِهِ جَبَلٌ يُقَالُ لَهُ قِرْقَدٌ، لَا يَنْبِتُ فِيهِمَا غَيْرُ النَّبْعِ وَالشَّوْحَطِ، وَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَرْتَقِيهِمَا إِلَّا بَعْدَ جَهْدٍ، وَإِلَيْهِمَا تَأْوِي الْقُرُودُ... وَلَيْسَ فِيهِمَا مَاءٌ إِلَّا مَا يَجْتَمِعُ فِي الْقِلَاتِ مِنْ مِيَاهِ الْأَمْطَارِ؛ بَحِيثٌ لَا يَنَالُ وَلَا يَدْرِكُ مَوْضِعَهُ»^(٤).

اليمن: الصَّقْعُ الَّذِي ضَمَّ الْقَبَائِلَ الْعَرَبِيَّةَ الْجَنُوبِيَّةَ مِنْ مِثْلِ حَمِيرٍ وَخَوْلَانَ وَهَمْدَانَ وَمَذْحِجٍ وَالْأَزْدَ وَعَكَّ^(٥).

(١) الديوان ق ٤٦/٦.

(٢) صفة جزيرة العرب ٢٣٢، الإكليل ٨/ ٨٤-٨٥، الديوان ق ٢٥/ب ٤.

(٣) صفة جزيرة العرب ٢٤٩، معجم البلدان ٤/ ٤٢٤، ٥/ ٤٣٧ وفيه وهمٌ وتصحيّفٌ وصوابه: «قضاءة بن مالك بن عمرو بن مَرَّة بن زيد بن مالك بن حمير» وانظر نسب خولان في المبحث الأول من الدّراسة. التّاج (سنم)، الديوان ق ٧٧/ب ٤.

(٤) معجم البلدان ٥/ ٤٣٧.

(٥) انظر رسم اليمن في صفة جزيرة العرب ٦٥، معجم ما استعجم ٤/ ١٤٠١، ومعجم البلدان ٥/ ٤٤٧، والرّوض المعطار

فهرس الدراسة

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
الفصل الأول - نسب خولان	٨
أولاً - نسب خولان	٩
١ - بطون خولان	٣٢
٢ - نواقل خولان	٤٢
٣ - المصاهرة بينهم وبين غيرهم	٤٧
ثانياً - منازل خولان	٥٢
ثالثاً - علاقات خولان وأيامها	٦٣
١ - العلاقة بين بطون خولان	٦٣
٢ - علاقاتهم مع القبائل الأخرى	٧٠
أ - علاقاتهم مع قبائل معدّ	٧٠
ب - علاقاتهم مع قبائل اليمن	٨١
- خولان ومذحج	٨١
- خولان وحمير	٩٠
- خولان وهمدان	٩٧
٣ - علاقاتهم بالأحباش	١٠٢
٤ - خولان والروم	١٠٧
٥ - علاقاتهم بالفرس	١٠٩
٦ - علاقاتهم بدولة الإسلام	١١٣
١ - في عصر النبي ﷺ	١١٣
٢ - علاقاتهم في أيام الخلفاء الراشدين	١١٤
٣ - علاقاتهم في أيام بني أمية	١٢١
رابعاً - عقيدة خولان	١٢٨

١٣٢	-الوثنية فيهم
١٤٤	-النصرانية فيهم
١٤٦	-إسلامهم

١٥٦ الفصل الثاني - مصادر شعر القبيلة

١٥٧	 أولاً - مصادر شعر القبيلة
١٥٧	 ١ - رواية أشعارهم وتدوينها
١٦٢	 ٢ - مصادر شعرهم المجموع
١٦٨	 ٣ - توثيق الهمداني وما جاء في مصنفاته
١٧٧	 ٤ - ضياع شعرهم
١٨٩	 ثانياً - توثيق شعرهم
١٨٩	 ١ - الاضطراب في نسة الشعر
١٩٤	 ٢ - النحل في شعرهم

٢٠٢ الفصل الثالث - موضوعات شعر القبيلة

٢٠٦	 ١ - الحماسة والفخر
٢٤١	 ٢ - الوصف
٢٥٢	 ٣ - المدح
٢٦٢	 ٤ - الهجاء
٢٧٥	 ٥ - الرثاء
٢٨٥	 ٦ - الحكمة

٢٩٦ الفصل الرابع - الخصائص الفنية

٢٩٨	 ١ - الخصائص المعنوية
٣٤١	 ٢ - الخصائص اللفظية

٣٧٩ الخاتمة

٣٨٤ الملاحق